جرجيس فتح الله

نظرات في القومية العربية حتى العام ١٩٧٠



الجزء الأول

مخاض عسير

منشورات الجمل

دار آراس للطباعة والنشر

جرجيس فتح الله

نظرات في القومية العربية حتى العام ١٩٧٠

الجزء الأول

مخاض عسير

دار آراس للطباعة والنشر
منشورات الجمل

جرجيس فتح الله: **نظرات في القومية العربية حتى العام ١٩٧٠**
الجزء الأول: مخاض عسير

دار آراس للطباعة والنشر و منشورات الجمل
الطبعة الأولى ٢٠١٢

دار آراس للطباعة والنشر
شارع جولان - أربيل
إقليم كردستان العراق
الهاتف: 35 49 224 66 (0) 00964
البريد الإلكتروني: aras@araspress.com
الموقع على الإنترنت: www.araspublishers.com

منشورات الجمل، بيروت - بغداد
تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ - بيروت - لبنان
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com
Al-Kamel Verlag
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany

الجزء الأول

مخاض عسير

المدخل

يؤثر عن ونستون تشرتشل ذلك السياسي العظيم والمؤلف البارع قوله في تأليف كتاب:

«تأليف كتاب هو المغامرة بعينها، أول الأمر يبدو أشبه بمسلاة أو ملهاة ثم ينقلب إلى معشوقة ثم يتحول إلى سيّد متحكم ليغدو بالأخير طاغية لا يرحم».

ومع أني مررت بهذه المراحل كافةً فقد جوبهت في آخر الأمر - وعندما بدأ تسجيله بالحاسوب - بغير المتوقّع وربما لم أكن أجرؤ على التفكير حتى باحتمال وقوعه. وتلك محاولة غباء وعناد جنوني لمن خُيّل له أن بإمكانه التحكّم في نشر الكتاب أو عدم نشره حين هيّأت له الأقدار حظاً في قول ما لا يحق له أو إملاء شروط غريبة من منطلقه الفكري المضحك وهو ما سأعرض له بالتفصيل في الصفحات التالية. ومرّت مرحلة كدت أفقد آخر أمل في طبعه.

المراحل التي عرضها تشرتشل في مقولته مررتُ بها كافّة طوال ما يزيد عن ربع قرن وأنا في طور التهيئة. لاسيّما عندما قَرّ قراري على جعل الترجمة الكاملة لكتاب [مأساة الآشوريين] للمقدّم والمفتش الإداري رونالد سيمپل ستافورد جزءاً من هذا الكتاب. لأنه سيبقى مرجعاً لا يُستغنى عنه لتفسير أحداث هامّة من تاريخ العراق غُطّيت أو رُمّجت عمداً حميةً واستكباراً أو لخدمة سُمعة سيّئة أو لفضح جناية إلخ... لخدمة التاريخ أو لعهد من عهوده، فأضحت الحقائق فيها مطموسةً أو مشوَّهة أو مزوَّرة أو مجهولة.

في مبدأ الأمر كان القصد من ترجمة كتاب ستافورد الذي نوّهت به طبعه منفرداً أسوةً بالتراجم الأخرى التي أصدرتها في أوقات متباعدة. وكان الكتاب الأصل نادراً

تقريباً ولا وجود له إلا في المكتبات العامة العالمية الكبرى. لكنَّ حُسن حظي يشاء أن أحظى بنسخة، وتلك من غرائب الصدف، في مكان غير متوقّع، وبعد أن خرجت طبعته الأولى في العام ١٩٣٥، حظيت بها بعد أكثر من ثلاثين عاماً. وكانت الحكومات العراقية المتعاقبة قد منعت دخوله العراق.

أجل وجدته وأنا في السجن بين كتب أخرى وكان في مكتبتي الخاصة. كان بيتي قريباً من السجن وكانت شقيقتي تبعث مع حارس أمين لقاء مبلغ بسيط ما أحتاجه من كتب وقراطيس. وقمت بجلبه مع عدة كتب أخرى وجدت طريقها فيما بعد إلى المطبعة وأعيد طبع بعضها أكثر من مرة. ومن بينها كتاب [كرد وترك وعرب] لمؤلفه سي. جيْ. إدموندز، وكتاب [طريق في كردستان] لمؤلفه أ. م. هاملتون، وكتاب [مهد البشرية] لمؤلفه الكانون ويگرام وغيرها.

وأذكر الآن بوضوح وأنا أكتب هذه المقدّمة ما كان يخالجني من أحاسيس بالضبط أثناء الترجمة. فقد صارت تهاجمني مناظر ومشاهد وتتوالى على ذهني خواطر محفورة حفراً فتوقفني عن الاسترسال في الترجمة حيناً لأعود كاللاهث العدّاء بعد شوط لألتقط أنفاسي وأمضي في عملي مجدداً غير شاعر بالهزّات العاطفية التي علقت بكيان صبيّ السنوات العشر وأبت مفارقته وهو في خريف العمر بل شتائه. كنت واحداً من النظّارة الذين شاهدوا بأعينهم وقرأوا من فصول الكتاب أحداث العام ١٩٣٣ المفجعة التي نعتها الإعلام الغربي بمذابح الآشوريين. ونعتتها الكتب الرسمية العراقية والصحافة المحلية بـ(تأديب الآشوريين).

كنت قد تركت المنزل عصر ذلك اليوم قاصداً دكان خياطة خالي (ي) وموقعه في ركن الشارع المعروف في حينه باسم شارع الأمير غازي، من الناحية المؤدية إلى الجسر الحديد. وهذا الشارع هو آنذاك أوسع الشوارع لكنه أقصرها.

شاهدت الجموع تتراكض نحوه وبعضهم يتنادى «الجيش قادم». كان قد تقرر دخول الجيش المنتصر بهيئة مسيرة استعراضيّة وأن يُستقبل استقبالاً شعبيّاً ورسمياً وقد هُيّئت له أقواس النصر.

ما إن بلغتُ - أو كدت - دكان الخال وبيني وبينها أمتار قليلة على الرصيف المقابل حتى سمّرني في مكاني سَدّ من الأجسام المتزاحمة على موضع مشرف أسهل للرؤية. كانت الأجسام تتدافع وتتزاحم بالمناكب وخبط الأرجل والاستباق إلى الصفوف الأمامية وقد فاز بموقع منها كاتب السطور بفضل ضآلة جسمه بدون شك.

وسمعت مع الحشد طبول المسيرة تُقرع وأنفارها تصدح متدانية مشيرة إلى اقتراب الوحدات العسكرية. وأذكر مما اجتذب نظري في حينه أقواس النصر المتعاقبة المنصوبة فوق الشارع ومرور باصرتيّ على مدوّنات الرقاع واللافتات ترحيباً بعودة الجيش منصوراً وتنديداً بالخونة المارقين.

... في حينه أشكلَ عليّ تفسير الحكمة في وضع أعداد من البطيخ الأحمر (الرقي) مدلاّة بحبال وخيوط من تلك الأقواس وقد غاب في أحشاء كل واحدة نصل خنجر أو سكين. ثم علمت فيما بعد وبنتيجة طول تقصٍّ أنها كانت ترمز إلى رؤوس العصاة التي تمّ احتزازها عند سحق التمرّد. وكانت حينذاك تنزّ منها قطرات حمراء ترمز إلى دمهم. هاهوذا الجيش يعود ظافراً بعد إنجاز واجبه الوطني.

وبقيت زمناً أتساءل عمّن يكون هؤلاء ومن أين جاؤوا وما الذي دعا الحكومة إلى تجريد الجيش عليهم ومنازلتهم. وتبيّن لي بمدى معرفتي السطحية بخفايا الأمور أنا الفتى الموصلي أنّ ثمّ صنفين من هؤلاء: صنف ينتمي إليه الليفي الآشوري الذين استخدمتهم سلطات الانتداب البريطانية وصنف آخر لا علاقة له بهؤلاء.

كنت أشاهد الجنود من الصف الأول يسيرون ثلاثاً ورباعاً أو أكثر بخطوات عسكرية منتظمة تجتذب أنظار المارة قبعاتهم الكبيرة المزدانة بريشة حمراء أو بيضاء، وأرى بعضهم أحياناً في الكنيسة التي أغشاها مستغرقين في صلاتهم بخشوع ووقار أو أجدهم يستبضعون في أسواق (سراي) المدينة غير ملقين بالاً على أحد، ودون أي احتفال بنظرات الفضول أو الكراهة وبسراويلهم النظيفة الأنيقة المكواة.

والصنف الآخر من هؤلاء الآشوريين، وهم جزء من الطبقة الكادحة في المدينة، يعمل دؤوباً من الصبح الباكر حتى مغيب الشمس لتأمين لقمة العيش في شتّى صناعات المدينة التي لا تتطلب مهارة مخصوصة كالنقل والحمل والتنظيف وكنس الشوارع، يكدّون ويكدحون توفيراً وتأميناً لمقعد دراسة لأبنائهم، وهم يسكنون في أحقر البيوت والخانات العثمانية المتقوّضة المهجورة بغرفها الشبيهة بالمغاور أحياناً بأجور زهيدة جداً وأحياناً حسبة لوجه الله.

هؤلاء هم نفاية القبائل الآشورية التي جارت عليها كارثة الحرب العظمى الأولى (١٩١٤-١٩١٨) فدفعت بما تبقّى منهم إلى دولة العراق الجديدة بعد سلسلة من الكوارث والرزايا التي ادّخرها القدر لهم وبعضها من صُنعهم وجُلُّها من جَور وظلم ألحقه بهم أعداؤهم.

أخذت قرعات الطبول وأصداء الأبواق تعلو بالتدريج معلنة دنوَّ القطعات العسكرية. ثم ظهر رأس جوق الموسيقى يتقدمه قائده ملوّحاً بصولجانه يهزّه إلى اليمين ثم يدفع به إلى اليسار ثم يقذف به إلى أعلى ويستقبل عودته بحركة رشيقة. وفشلت الموسيقى الصاخبة التي تصدر من الجوق في تغطية الهتافات والتصفيق الصادرين من النظّارة على الرصيفين. ثم بدا ضابط بلحية كبيرة مسترسلة فوق صهوة حصان أشهب وصاح صائح من بين الجمهور «يحيا البطل الغيور الحاج رمضان» وردّدت مئات الأصوات الهتاف. وبدا الراكب الذي عُيِّن بالبطل سادراً ساهماً ولم يُظهر أثراً لانطباع معيّن وهو يسمع الهتاف باسمه يشقّ عنان السماء.

عرفت في هذا القائد الزعيم (العميد) الحاج رمضان علي قائد موقع (الديره بون) وكان موصلياً ومن ضباط الجيش العثماني العائدين بعد الحرب.

كان الوالد يلمُّ إلماماً جيداً باللغة التي يتكلمها هؤلاء وهي لهجة من اللهجات السريانية وتدعى عندهم بالاسم العام (السورث) ونحن نسمع رطانة منها عند تلاوة الفرائض الدينية في الكنيسة نسمعها وأحياناً نردد مقاطع منها دون أن نفهم شيئاً.

كانت مدرستنا طائفية النجاد تُدار بطاقم معلّمين مسيحيين وتخضع في مناهجها وطرق إدارتها لوزارة المعارف في بغداد ويتلقّى المعلمون رواتبهم من الحكومة. وحصل ذات مرة وأنا في الصف الخامس الابتدائي تغيير مفاجئ على الروتين الدراسي فقد وزّعت علينا كتب تعليم للغة السريانية وأعلن معلّم الدين وهو قسّ بأننا سنتلقى ساعتين في دراستها أسبوعياً، وأذكر أن شعوري الشخصي كان يختلف عن تذمُّر بقيّة رفاقي من إضافة مادة جديدة على المنهاج. كان مزيجاً من الشوق والرهبة لدخولي حريم لغةٍ جديدة أخرى غير الانكليزية التي بدأنا بها. والغضب من زيادة مادة دراسية جديدة إلى منهاج محتشد بالمعارف والمعلومات التي تبيّن فيما بعد أنه لم تُراع فيها العقلية شبه الطفولية لابن الحادية أو الثانية عشرة، ولا القابليات الاستيعابية له. فمع استقلال المدرسة جزئياً عن الإدارة الحكومية فإنّ مدارسنا الطائفية كانت خاضعة تماماً لنظام التعليم الوزاري ابتداء من المناهج وانتهاء بالامتحانات الحكومية العامة.

. . . لم نتلق من دروس بالسريانية غير درسين وسُحبت الكتب منا وأعلن معلّمنا أن المادة لم تعد ضمن المنهج. وعلمت بعد سنين أن ذلك كان بسبب ضمّ المدارس الطائفية كافة إلى وزارة المعارف (التربية والتعليم) ووضع اليد كاملةً عليها ابتداء من المناهج وانتهاء بالتعيينات. ففي السنة التالية وجدنا (مسلماً) يدرّس التاريخ لنا. كان

ذلك نوعاً من مفاجأة لكن لا أذكر أنها أحدثت برقاً رعّاداً أكثر من تبادل همسات أو تساؤلات بين طلاب أحداث مثلنا ولا تعليقاً سوى على مظهر المعلّم وطريقة تدريسه. وجاءت هذه المتغيّرات متزامنة مع نهاية عهد الانتداب ودخول العراق عضواً في عُصبة الأمم، دولةً مستقلة تامة السيادة. وهذه الإجراءات بطبيعة الحال كانت تأتلف وسياسة الوزارة وتندرج في محاولة القضاء على النعرات الطائفية والعرقية والمذهبيّة والدينية وخلق بنية اجتماعية قِوامها شعبٌ عراقي لا يتقدم شعوره بولاء لتربة الوطن أيُّ شعورٍ آخر. محاولة لبناء شعب جديد بصورة ما.

. . . تلك الساعات التي كنت فيها مستمتعاً برؤية الفصائل العسكرية تتعاقب بسير منتظم وخطوات متوازنة مع قرعات الطبول لم أجد في ذهني أي فكرة عن خطر يُحدق بي وأنا بين صبيان مثلي استدرجهم الاستعراض كما استدرجني. وهم مثلي يحاولون فهم ما ترمز إليه وتتوجّه الهتافات المنطلقة من الحناجر بين آونةٍ وأخرى. ضارباً عُرض الحائط بكل ما أسمعنيه الوالد من عبارات تحذير ومما يحتمل التعرّض له من الأذى.

وفي ذلك اليوم القائظ أيضاً ما كان ابن العاشرة هذا يدري أنه، في موضع من المدينة قد يكون قريباً جداً، كان ضابط بريطاني بوظيفة مفتش إداري يعيش ساعات فاصلة من حياته حاول خلالها إيقاف المذابح بعد أن أعياه الحَلّ السلمي. لم يكن يخطر ببال هذا الصبيّ أنه سيكون، في يوم من الأيام، ناقلاً للرواية المأساوية التي سجّلها هذا الموظف البريطاني إلى العراقيين بعد أكثر من ثلاثين عاماً رغم أن المحذور من نشره بلغته الأصلية أو ترجمة له بقي قائماً وماثلاً أمام كلّ متقدّم إليه ليغدو عمله من الكتب النادرة والمراجع الخطيرة التي يبحث عنها الكتّاب في رفوف المكتبات الخاصة وخزائن الكتب العامة وكثيراً ما يخطئهم النجاح[(١)]. وأغلبهم ذوو صبرٍ قصير على مشقّة البحث العلمي واللحاق وراء المصادر والمراجع.

---

(١) في العام ١٩٩٩ أصدر مركز الموسوعات العالمية بلندن كتاباً للمؤلف العراقي عبدالمجيد القيسي عنوانه [الآثوريون: هوامش على تاريخ العراق السياسيّ الحديث] كان فيه منصفاً وحيادياً. فضلاً عن تمكنه من اللغة العربية وحسن أدائه. لكنه ومع الأسف الشديد لم يحاول الوصول إلى كتاب ستافورد هذا وهو أهمّ مرجع لكتابه على الإطلاق. وقد اعتذر عن هذا بصعوبة الحصول عليه وبهذه العبارة التي لا أظننا نقبلها منه قال حفظه الله:

«ويجري مجرى كتاب المستر لونگريك كتاب آخر كتبه بريطاني كان في قلب الأحداث فشاهدها شهادة عيان و شارك فيها بنفسه - هو مستر ستافورد الذي كان وقتذاك المفتش الإداري للواء =

بقي هذا الكتاب واحداً من الشهادات غير المطعون في حيادها. شهادة على جريمة دولية ارتكبتها حكومة باسم القومية العربية بحق مواطني قومية أخرى واستُخدم لها الجيش العراقي الحديث التأليف بضبّاطه الذين نشأوا في بيئة تركية ودرسوا في المعاهد العسكرية التركية وخدموا في الوحدات التركية إلى جانب تلاميذ لهم من الطبقة العسكرية الجديدة خريجي المدرسة العسكرية العراقية الذين تلقوا ميراث الكره لهؤلاء الآشوريين منذ أيام الحرب العالمية الأولى. واعتبروهم خونةً عندما آثر هؤلاء جانب الحلفاء.

في تلك الآونة كان يقود هذه القطعات العراقية ضابط غير عربي أرومةً قُدِّر له أن يبني شُهرةً واسماً بسبب المذبحة التي بيّتها لآثوريين عُزَّل في قرية سميل، وأن يخرج منها بأوسمة وترقيات خيالية واستقبالات مهيبة.

ارتفعت مكانة هذا الضابط بفضل هذه الحركة «التأديبية» وبفضل حركة تأديبية أخرى في الفرات الأوسط لا تقلّ عن الأولى بشاعةً. هذا الضابط كان يقف وراءه ويشجعه ويحثّ خطاه سياسي مغامر وقومي زائف يدعى رشيد عالي المنتسب إلى الأسرة الگيلانية سعياً وراء رئاسة الحكومة. ويدفعه إلى إعلانه دكتاتورية عسكرية هي الأولى من نوعها في العالم الناطق بالعربية سياسي مغامر آخر نَقِم على من حال دونه ودون ما يبتغيه، فضلاً عن بعض المثقفين الإصلاحيين الذين أبى قِصر نظرهم وقلة اصطبارهم ويأسهم من الإصلاح بالتدرّج الديمقراطي إلى الاعتقاد بأن ذلك غير ممكن إلا بتدخّل الجيش. وانتُدب لذلك القائد بطل مذابح الشمال والجنوب بكر صدقي لتحقيق أوّل انقلاب عسكري في الدول الناطقة بالعربية ما لبث أن أصبح نموذجاً يحتذيه ضباط عراقيون بعده، إلى جانب صيرورته أسلوب تغيير سياسي اعتيادي Modus Operandi في بلدان عدة عربية النجاد: مصر، سورية، الأردن، ليبيا، اليمن.

أولدت سياسة استخدام الجيش في قمع الانتفاضات العشائرية في نفوس الضباط

= الموصل فأتاح له موقفه هذا العلم والاطلاع المباشرين. وقد مُنع دخول هذا الكتاب إلى العراق منذ أول صدوره عام ١٩٣٦ (بل ١٩٣٥ بالأحرى) ولم نستطع مع الأسف العثور على نسخة منه خارج العراق، لكننا من مطالعة ردود الفعل العراقية عنه نستطيع أن نتبيّن أنه خرج عن الرأي الرسمي في نكران الحوادث أو في تبرئة الجيش منها على الأقل». نقول إننا لا نوافق صاحب المقولة على هذا فللكتاب وجود في أغلب مكتبات العالم الغربي العامة. وقد حصلت عليه مؤخراً من شبكة الإنترنت.

اعتزازاً وشعورهم بأهمّيتهم وبصعوبة استغناء الساسة والمغامرين السياسيين عنهم. ولذلك وجدنا المصلحة المتبادلة تقضي بالعناية الخاصة بالجيش ورصد معظم ميزانية الدولة لترقيته واستُحدثت مدرستان عسكريتان للأركان وللطيران. وفتحت الكلية العسكرية أبوابها لمن استهوته بزّة الضبّاط المقصّبة ونياشينها ورُتبها ولم يُشترط لها التخرج في الصف الثانوي[٢].

عندما سقط قائد الانقلاب الأول مضرّجاً بدمائه بانقلاب عسكري ثانٍ وعلى بعد مائتي متر تقريباً من المنصّة التي وقف عليها في العام ١٩٣٣ عن يمين الأمير غازي مع رئيس الوزراء رشيد عالي يتلقّى تحيّة الاستعراض من قطعات الجيش الظافر، كانت قد مرّت سنوات أربع على المذبحة. ولا أذكر أني وقد بلغت سِنَّ الإدراك أن مصرع هذا العسكري أحدث أيّ هزّة أو أثر في نفوس الموصليين. ومَرَّ اليوم بصورة اعتيادية كأمسه لا في مدينة الموصل وحدها بل أنحاء العراق كافةً ولم يشعر أحدٌ بتغيير طرأ على حياة الفرد أو المجتمع خلال فترة حكمه القصيرة[٣].

توالت الانقلابات العسكرية في العراق وتداخلت واحدها بالآخر بسرعة تنامي وعيي السياسي وشوقي إلى استقراء الأحداث والتأمل فيها بمقدار صلتها بالماضي لاسيّما خلال تلك السنوات التي بدأ اهتمامي يتزايد في متابعة الأحداث التي تمرّ بوطني والبلاد الجارة، ومع الاهتمام هذا كان هناك استعداد تلقائي لعوامل متعدّدة يصعب هنا حصرها وأولها وأعظمها شأناً السنوات الأربع التي قضيتها في دراسة القانون واحتكاكي المتواصل بالصراعات العقائدية والفكرية التي كانت تستولي على العقول وتستحوذ كل انتباه. فقد انضويت إلى الكلية في ١٩٣٩ أي في بداية الحرب العالمية وأنهيت دراستي والحرب تكاد تضع أوزارها وهي لا أبا لك فترة ثمينة جداً لمن تطلع نهمه إلى دراسة التاريخ بمختلف الكتب التي تقع بيده وانكبابي إليه بشكل يزيد على انصرافي لدراسة كتب القانون. وصرفت وقتاً ملياً بدراسة ومتابعة مشاكل الوطن العربي وفي مقدّمتها مشكلة

---

(٢) نقص صفّنا إلى النصف في أوائل العام ١٩٣٩ بقبول النصف الثاني في الكلية العسكرية ببغداد.

(٣) التغيّر الوحيد الذي علق بذهني من آثار الانقلاب العسكري هو أن مدير متوسطتنا [الشرقية] قال في أثناء اجتماع الخميس (تحية العلم) إن الحكومة أباحت ارتداء ما يحلو للمرء ارتداؤه من غطاء للرأس. وأذكر أن القبّعات والطاقية (البيرية) الفرنسية بدأت تظهر في الأسواق وعلى رؤوس من لا يخشى النقد والتعليق. والمسألة هي أن بكر صدقي كان يقلّد أتاتورك في تركيا الذي أرغم الأتراك على ترك الطربوش الأحمر.

غزو الشعب الفلسطيني والتآمر على سلب معظم أرضه وبكل ما كتب حول اندحار الدول العربية عسكرياً في العام ١٩٤٨ الذي أدى إلى إضافة علم جديد لدولة جديدة - إلى أعلام الدول العضوة في الأمم المتحدة - فقد وجدت هذه الدولة الحديثة طريقها معبّداً إلى الأمم المتحدة. يقابل ذلك غياب العلم الفلسطيني حتى هذه الساعة وما تبع ذلك من مؤامرات وأعمال لاأخلاقية وحيل مخجلة. فهي كثيراً ما تستخدم ذريعة لقلب الحكومات بحجّة التخاذل والخيانة. ثم وفي أواخر الخمسينات عندما انطلق نداء الوحدة العربية بين الجمهور الناطق بالعربية، بلغت المزايدات في سوق العروبة حدّها الأعلى وغايتها القصوى وتوّجت بالتآمر الدموي والوثوب إلى الحكم من فوق أبراج الدبابات وإلقاء الصواريخ والقنابل من الطائرات. وصرت أراجع حيث كنت سجيناً وحيث كنت طليقاً كم من أمثالي طحنته رحى الصراع الفكري وقذفت الأحقاد بقاياه في أتون التعصب الديني عندما وجد دعاة القومية العربية في الدين الإسلامي سنداً لترويج دعواهم.

إن المذبحة التي أقدم عليها الجيش العراقي في (سميل) و(جبل بيخير)، كما سيرى القارئ، كانت بمثابة تجاوبٍ للشعور القومي الذي ساد جوّ العراق وشجّعته بلا حدود تلك الوزارة التي افتخرت بلقب الوزارة القومية وعُرفت به. ولا عجب أن كان منفّذ تلك المذبحة يحظى بموافقة وبركة تلك الوزارة. إنّ جوّ الرعب والفزع الذي ران على نفوس مسيحيي البلاد والضجّة العالمية التي خلّفتها المذبحة كانت قد ارتكبت مع الأسف الشديد باسم القومية العربية وقد شحنت الأغلبيّة مسبقاً وأُعِدّت إعداداً درامياً لاعتبارها عملاً وطنياً يستحق مقترفه الشكر لا العقاب.

لم يكن مثار دهشة والحالة هذه أن تسمو الرتب وتصعد الشهرة بمنفّذها ومهندسها إلى حَدّ إيمان الطبقة المثقفة به فضلاً عن القوميين بأنّه يستطيع إنقاذ البلاد من حكم سيّئ كريه، ففعل وأقدم على إقامة أوّل دكتاتورية عسكرية في العراق. وهي كذلك أول دكتاتورية عسكرية في الدول الناطقة بالعربية، وكان ذلك بعد مرور أربع سنوات فقط على قيام مذبحة (سميل - بيخير). وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ فتعاقُب الأحداث وتسلسلّها اللامنطقي أدّيا إلى انقلابات عسكرية متوالية وصلت بالبلاد بعد سبع سنوات إلى شفير هاوية بقيام رئيس الحكومة وزمرته من ضباط الجيش بدفع العراق إلى المشاركة - التي لم تمتد لحسن الحظ زمناً - في الحرب العالمية الثانية. كان رشيد عالي الگيلاني رئيساً للحكومة التي عُرفت بالحكومة القومية في العام ١٩٣٣ وهو يتقاسم مسؤولية المذبحة مع قائد المنطقة العسكرية بكر صدقي.

هذا وغيره حفّزني من جهةٍ على التفكير الجدّي بكتابة تاريخ لنشوء فكرة القومية متتبعاً مراحلها ومقتفياً آثار صعودها وخفضها، تاريخ عارٍ تماماً عن مستحضرات التجميل الحديثة من مساحيق ومراهم وعمليات تدليك، تلك التي اعتادها المؤرخون عندنا. وكنت وأنا في صدد الإعداد والبحث وكتابة الملاحظات أشعر طوال الوقت بالرابطة بين مشروعي هذا وبين إعدادي كتاب ستافورد للنشر بكل التعليقات والملاحق والذيول التي كادت تكون سِفراً ضخماً بحدّ ذاتها. لم تكن تبارح ذهني الرابطة العضوية والصلة الوثيقة بين العملين فقد كانت الصدفة وحدها التي قررت الجمع بين الأثرين وإخراجهما بكتاب واحد على أن يكون كتاب «مأساة الآشوريين» والتعليقات والوثائق جزءاً أو ملحقاً بالكتاب الأصلي الذي تصادف البدء فيه في العام ١٩٦٧ وهو عام انتهائي من ترجمة كتاب ستافورد، وعام نزول أعظم هزيمة بالقوى القومية التي تزعّمها جمال عبدالناصر، وأقصد بها حرب الأيام الستة وفيها حققت دولة صغيرة بجيش صغير النصر الكامل على سبعة جيوش أو ثمانية لدول عربيّة مشاركة.

من هذه النقطة بدا لي وكأن جامعاً تاريخياً يدعوني إلى ضمّ مشروعي القومي كعملٍ رئيس بالترجمة وملحقاتها وعلى هذا الأساس كانت حلقة الصلة. فالمذبحة الآشورية كانت أولى الأحداث الجسام التي مرّت بها ركائب القومية العربية في الشرق الأدنى. أثيرت النعرة الدموية باسم القومية وتولّى تأريث نارها وزيادة وقيدها وآيته البغضاء والحقد زعماء قوميون معظمهم جاؤونا بمثابة رسل ثقافة من بلاد شقيقة فضلاً عن خميرتهم العراقية حصيلة أرحام الوطن.

كل ذلك ارتبط ارتباطاً لا انفصام له بالطبقة العسكرية الجديدة صاحبة الانقلابات وكثيراً ما ادّعى الانقلابيون بأنهم إنما يعملون من أجل رفع شأن القومية العربية المنتهَكة الحُرمات.

ويشاء منعطف من منعطفات التاريخ الحادّ أن تلتقي القومية العربية ودهاقنتها بالحركتين القوميتين الألمانية التي يتزعّمها الحزب النازي والإيطالية التي يقودها حزب الفاشيست فيفتتن العروبيون أو القادة القوميون بما حققته هاتان الحركتان من تقدم ورفاء اقتصادي وعسكري وما أنجزته على صعيد التحدي السياسي لتبدو القومية العربية ودعاتها وكأنهما لقيا تفسيرها الأيديولوجي المشوّش الغامض الذي يستند إلى الخطب والانفجارات العاطفية ليس إلا. ها هي الآن تجد الإطار الصالح لحصر مفاهيمها بوضوحٍ تامّ وطرحها للعموم بعيدةً عن الغموض. بل مع تبنّيها عقيدة البندقية والخوذة

والحذاء العسكري (البسطال: بالعامية). لست أريد المضيّ في هذا والاسترسال بما سيكون مشروحاً في صلب الكتاب مع كيفية جرّ تلك المفاهيم أيضاً إلى صراع دموي بين القوميين أنفسهم داخلي وخارجي ثم كيف كان يجرّ مع ذيوله الحمراء اضطهاداً دينياً وعنصرياً مقنّعاً أو مكشوفاً للأقلّيات العنصرية والدينية في داخلية تلك البلاد التي تدعي أحياناً بأصول عربية خالصة ولا تجهل للغة العرب وجوداً تاريخياً.

. . . أذكر وأنا عائد إلى دارنا بعد أن مرّ آخر بغلٍ من سرّية الشغل التي خُتمت بها السرّية، أذكر أنني سمعت إطلاقات عن أسلحة نارية، كما سمعت من العائدين مثلي تعليقات مهددة متوعّدة ودبّ الخوف في أوصالي. وأشعرت وكأن جبيني يحترق بكتابة نارية سطّرها إله الانتقام تفضح عنصري وديانتي فغذذت السير وأخذت بطرقٍ فرعية جانبية حتى بلغت المنزل فإذا بالجميع يرتقبون أوبتي وأيديهم على قلوبهم كما يقولون. لم تنقطع أصداء العيارات النارية طوال الليل. وفي صباح اليوم الباكر كان موعد حلاقة رأسي عند (الأسطى حسن) فأخذني إليه الوالد وسمعته يقول له: يا أخي أنتم في ذمامنا ولن يحصل لكم أيّ سوء، إننا نقطع يد الذي يهمّ بالاعتداء عليكم. نحن بصدد هؤلاء الغرباء الذين يريدون أن يشاركونا خبزنا ومدار عيشنا ويقتلون أبناءنا. . .

كان هذا جانباً مما حفظته الذاكرة لتلك الأيام، مَرّ كثيراً في خاطري كلّما عرض لي في الحياة شيء يمتّ إليه. مَرّ في خاطري وأنا أفكر في احتمال ظروف مواتية لنشر الترجمة مع الكتاب الذي قطعت في كتابته شوطاً. ومضيت به في طريق اللاعودة عندما صحبت الجميع معي في العام ١٩٦٨ فضلاً عن عدد كبير من دفاتر ملحوظاتي وبعض المراجع عند التحاقي بالثورة الكردية، إثر إطلاق سراحي.

في هذه المرحلة كان كتابي أشبه بمعشوقة لي على حَدّ قول مستر تشرتشل ولم يعد هناك مجال لرجعة إلى الوراء أو لفصلٍ بين الكتابين الاثنين لاسيّما بعد استعارتي في وقتٍ لاحق مجموعة الوثائق المتعلقة بتلك الفترة من أركيفات عُصبة الأمم في جنيف وعندما بدأت بشكل منظّم «أصطاد» تلك المراجع الأجنبية التي لم تتناولها أيدي المؤرّخين العرب أو التي تجاهلوها وفي الكثير منها ما يلقي أضواء ساطعة على ما ظل يبدو بُقعاً داكنة تستدقّ على الرؤية في كتب المؤلفين العرب المتأخرين، سيجدها القارئ بالشكل الذي يختلف عمّا أرادنا معظمهم أن نفهمه.

ترى هل سينجح كتابي هذا في إقناع القرّاء بأن كثيراً مما حُملوا حملاً على قراءته يخالف الحقيقة ولا يقدّم صورة صحيحة على ما حصل بالضبط؟ كيف سأستطيع وبأيّ

مقدار سيواتيني الحظ لأكسب ثقة قرائي والإيمان بصحة مصادري وبأن ما اعتادوا أو بالأحرى درّبوا على قراءته يرمي بالأصل إلى إعطاء صورة مزيّفة؟

... في تلك المسيرة العسكرية كانت القطعات المستعرضة بإمرة الحاج رمضان علي وهي من جملة التعزيزات التي أُرسلت دعماً للقائد آمر المنطقة الشمالية بكر صدقي شوقي وهو الذي استأثر بكل الثناء والمديح. لم تُطنب الصحف البغدادية بالوقفة الصامدة لهجوم الآشوريين في الديربون باعتبارها من مآثر الحاج رمضان وإنما عزتها لبكر صدقي الذي «لقّن الآشوريين المستكبرين الدرس الذي يستحقّونه». وبتقدّم العمر حاولت عبثاً أن أجد للحاج رمضان علي دوراً أو نشاطاً في الحقل القومي أو غيره. فقد سطع نجمه كلمح البصر ثم اختفى عن كل المشاهد الاحتفالية التي عقبت ذلك[٤]. وتمرّ السنون سراعاً، فإذا بي واحد من مئات من طلبة الصف الثالث المتوسط يحمل بندقيةً ويتلقّى تدريباً ويجري استعراضاً مماثلاً مع رفاق له. فقد حكم مهووس بما حققته النازية من التربية العسكرية للأحداث الذين وصلوا أو كادوا سنّ البلوغ بسنّ النظام الذي عرف بنظام الفتوّة[٥] تشبّهاً بذوي القمصان السود الفاشيست وبذوي القمصان الرمادية للشباب النازي.

---

(٤) كان برتبة رائد في الجيش العثماني وهو موصليّ. التحق بالجيش العراقي ثم أحيل إلى التقاعد في العام ١٩٣٤. بدأ كرهه للبريطانيين متجلّياً في قتله برصاص مسدسه خبير الحدود سليمان نجم بزعم أنه جاسوس إنگليزي (انظر مأساة الآشوريين).

(٥) راجع الحديث عنها في الكتاب والملحق (نص النظام). حكم على الطلاب جميعاً إناثاً وذكوراً لبس الخاكي في المدرسة. وفُرض على الصفين الثالث المتوسط والخامس الثانوي تدريباً عسكرياً ساعات معيّنة في الأسبوع بالبندقية وتحت تدريب وإشراف ضباط صف وضباط عسكريين فضلاً عن مناهجهم الدراسية. وفُرض الحرمان من سنة دراسية على المتخلّفين. وفي الصفوف وُضِعت صورة سامي شوكت مدير المعارف العام بوصفه صاحب الفكرة الجبّارة ومبدعها إلى جانب لوحة خُط عليها الحديث «النبوي المشكوك في صحته»: «اخشوشنوا فإنّ الترف يزيل النعم». وألزم النظام المذكور المعلّمين والمعلّمات بارتداء الخاكي ووضع لهم رتباً بحسب درجاتهم ورواتبهم وتتألف من شرائط ذهبية مقصّبة على الكتف شبيهة تماماً بشرائط رئيس ضباط الليفي الآثوري كلاهما مثبت على الكتفين. لا أدري إذا كان هذا محض مصادفة أو تعمّد. ففي ١٩٣٨ كان الليفي الآثوري كثير الرؤية في الموصل، وأذكر أني رأيت صدفةً مدرّس الجغرافية في مدرستنا (يعقوب الأخضر) يمر بثيابه العسكرية ونطاقه وبشرائط ذهبية أربعة على عاتقيه ليتلقى تحية عسكرية من جنود الليفي وقد حسبوه ضابطاً من ضباطهم. وقد ضحكت في حينه عندما تبيّنت مقدار الخجل والارتباك الذي عرا مدرّسي الذي راح يلتفت يمنة ويسرة حائراً ليتأكد بأنه المقصود أو ثمّ أحد آخر غيره.

اعتاد الموصليون قديماً الإشارة إلى تاريخ الحوادث الشهيرة التي تمر بها بلدتهم بالأوصاف لا بالسنين. لم تمرّ بضع سنوات حتى نُسي العام ١٩٣٣ فصار يُشار إلى ما حدث بعبارة «دقّة الآثوريين» والقاف عادة تلفظ بالكاف المعجمة. فكانت هناك مثلاً دگة (دقة) النسوان عندما ثارت المدينة بسبب صدور قانون تسجيل النفوس في أواخر القرن التاسع عشر أبطلت تسجيل الإناث باعتباره عملاً منافياً لأحكام الشريعة فكانت الوحيدة في مدن الإمبراطورية العثمانية التي أبت إدراج أسماء إناثها في قيود النفوس!

وكانت ثمّ مظاهرة مسلّحة كادت تؤدّي إلى معركة دموية. تلك (دگة) أخرى عندما خرج الموصليون بأسلحتهم ليمنعوا ارتفاع بنايات الآباء الدومنيكان بحجة أنها تطل على بيوت المسلمين. كان ذلك في العقد السابع من القرن التاسع عشر ووقع عدد من القتلى والجرحى وكانت ثمّ مجالس عسكرية عُرفية ومحاكمات.

قلتُ أنجزت ترجمة كتاب ستافورد في ١٩٦٨ مع ما تيسّر لي من تعليقات عليه. وأعدته إلى المنزل وبيني وبين الحياة ما لا أجرؤ على تقديره أو تحديده من زمن[٦] فكيف بتصوّر طباعته؟

---

(٦) في العام ١٩٦٣ وبانقلاب شباط أوقفتُ وأصدر المجلس العسكري العُرفي الثالث في الموصل بحقيّ حكماً بالموت وفق المواد ٣١ و٨٠ و٢١٤ من قانون العقوبات البغدادي والمادة الحادية عشرة من مرسوم الإدارة العرفية. بعد مرور ثلاثة أشهر أو نحوها أصدرت محكمة استينافية عليا لتدقيق أحكام المجالس العرفية قراراً ببراءتي من كل التهم وأوصت باخلاء سبيلي فوراً وإلغاء الحكم أساساً وأرسلت أوراقي إلى رئيس الجمهورية لاستصدار المرسوم الخاص، إلاّ أن رئيس جمهورية ذلك الحين [عبدالسلام محمد عارف] الذي عُرف بدمويته وتعصّبه الديني أبت حميّته الدينية أن يستخلصني أنا المسيحي من أكثر من خمسين حكماً بعين القضية وأبقى قرار البراءة في درجه حتى وافاه الأجل. ولم يشأ خلفه وشقيقه (عبدالرحمن عارف) أن يطلق سراحي كذلك ربما لعين الأسباب بل لجأت حكومته إلى حَلّ وسط فأبدلت حكم الموت إلى الحبس المؤبّد. وبعد مرور عامين أو نحوهما أُفرج عني بصدور مرسوم العفو العام الذي أصدرته حكومة انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨. لكني واصلت بإحساس رجل القانون تعقيب قرار البراءة لأن كلمة (العفو) تبدو بشكل ما تبريراً للحكم والقانونية وهذا ما لا يقبله البريء المعتز بنفسه. وفي أوائل ١٩٧٠ سنحت الفرصة فقدمت طلباً لوزارة العدلية بطلب إلغاء الحكم من الأساس فلبّي طلبي وهذا هو نص القرار:
«استناداً إلى أحكام الفقرة ٨ من المادة ٤٤ من الدستور المؤقت قرر مجلس قيادة الثورة في جلسته المنعقدة بتاريخ ٢٠/٦/١٩٧٠ ما يلي (١) يُلغى الحكم الصادر من المجلس العرفي العسكري الثالث في الموصل في القضية المرقمة ٢٣٣-٦٣ بحق المحامي جرجيس فتح الله =

كنتُ قد دوّنت صفحات عديدة من الكتاب الأساس. فقمت بمراجعتها وتصنيفها فصولاً أولى وحالت مهام الثورة الكردية التي أنيطت بي وبُعدي عن المظانّ والمراجع دون التقدم كثيراً فيه. وفي العام ١٩٧٥ عندما استقر بنا المقام في إيران تبيّن لي بدافع العجلة الشديدة أني فقدت أو ربما خلّفتُ ورائي كتاب (ستافورد) بأصله الانكليزي إلى جانب دفترٍ واحدٍ من أصل دفترين وهي الترجمة الكاملة له وتوهّمت بأني أعطيتهما أشخاصاً أثق بهم للقراءة كعادتي لكني كنت مخطئاً. فقد ذهبا إلى حيث لا رجعة. ومرت سنوات طوال انتهزت خلالها فرصة وجود السيد أيوب البارزاني في أوروبا فعمل لي نسخة مصوّرة جديدة من كتاب (ستافورد) وقمت دون تأخير بترجمة الجزء المفقود ثانيةً. ثم وببداية العام ١٩٨٦ سنحت لي الفرصة باقتناء عدد من المراجع الأجنبيّة والعربيّة التي كنت في أمسّ الحاجة إليها لإصلاح ما كتبته في دفاتر ملحوظاتي من إضافة فصول أخرى ولم أكن أتصوّر أني سأنتهي منه بهذه الضخامة والشيء يجرّ الشيء، ولم يعد هناك أيّ شك يساورني في ما سأبلغ به من مسيرة القومية العربيّة المحزنة الملأى بالعثرات المؤلمة والنكبات الجسام. في المنفى كان هناك الكثير والأهم مما يشغل البال ويقتل الوقت. وبدا لي بقربي من أمّهات المكتبات الأوربيّة في إكمال ما بدأت به من تحليل وسرد وقائع أمراً جديراً بالعجلة والدأب. فقطعت شوطاً كبيراً في وضع معظم الفصول بقالبها شبه النهائي ودفعها إلى الناشر الطيّب الذكر الرفيع الخصال داود إبراهيم صاحب دار نشر الشعاع في سودرتاليا من أعمال السويد. وقد سبق له فأصدر لي كتاب (مباحث آشورية: تاريخ ما أهمله التاريخ) وكتاب (فاتحة انتشار المسيحية) بأجزائه الأربعة وعندما صارحته بضخامة الكتاب وعجز دار نشره

= وفق المواد ٣١، ٨٠، ٢١٤ من قانون العقوبات البغدادي والمادة ١١ من مرسوم الادارة العرفية الملغى. على وزير العدل تنفيذ القرار.

مجلس قيادة الثورة

رئاسة ديوان رئيس الجمهورية:
صورة قرار مجلس قيادة الثورة المرقم ٩٥٨ والمؤرخ في ٢٣-٨-١٩٧٠ المبلغ إلينا بكتاب ديوان رئاسة الجمهورية (الدائرة الحقوقية) رقم ٩٢٣١ في ١٤-٨-١٩٧٠. قرر مجلس قيادة الثورة بقراره المرقم ٩٥٨ المتخذ بجلسته المنعقدة بتاريخ ٢٣-٨-١٩٧٠ ما يلي: رفع الحجز عن الأموال المنقولة وغير المنقولة للمدعو جرجيس فتح الله رئيس تحرير جريدة التآخي. فيرجى اتخاذ الإجراءات المقتضية لتنفيذه.

يحيى ياسين رئيس ديوان رئيس الجمهورية

بموارده الخاصة المحدودة عن القيام بطبعه كاملاً أكدّ لي بروحه المتفائلة أنه سيتلقى العون المالي من كثير من الجمعيات الآشورية والمعاهد الثقافية فيها ما إن يعلموا أن الكتاب كان يدور (بالأصل) على محور كتاب المقدّم ستافورد [مأساة الآشوريين] وأنه سيتضمّن ترجمة كاملة مع وثائق هامة حول المأساة لم يتح لها رؤية ضوء النهار. وسيكون الإقبال عليه شديداً. ثم ماذا سنخسر ونحن فقراء! كان المرحوم داود كثير التفاؤل.

ويؤسفني القول إن تفاؤله لم يكن قطّ في محلّه كما سأبيّن وشيكاً. في تلك الأثناء وكعادتي في ايداع ما أكتب إلى أكبر عدد متيسّر من المثقفين الأصدقاء لقراءته قبل الطباعة وتزويدي بآرائهم وإرشادهم، أودعت الفصول الأولى منه صديقي وناشري الثاني صاحب (دار الشمس للنشر والطباعة) السيد فرهاد عبدالقادر من بين آخرين وهو مثقف. وكانت النتيجة أنه ازينّ لي سحب الكتاب من الناشر الأول وتسليمه له وكان شديد التحمّس ليكون له فيه نصيب إلى حدّ مشاركة الدّارين، مؤكداً لما لم أكن أحتاج فيه إلى تأكيد بأن داراً ضيقة الموارد صغيرة كدار (الشعاع) لا تستطيع أن تنهض بالعبء المالي ولا بجزء منه وأنّ الاعتماد على وعود دون تعهّد خطّي من تلك الجمعيات والمعاهد لا قيمة له.

كنت في ذلك الحين قد انقطعت عن تنقيح وإرسال الفصول الخمسة عشر وعدد كبير من الوثائق إلى الناشر السيد داود لانشغالي بتأليف كتابي «مغامرة الكويت: الوجه والخلفية» بجزئيه وكتاب (حول جرائم الحرب ومرتكبيها في العراق والكويت» وقد أخرجتهما دار نشر الشمس وحظيا برواج واهتمام كبير، إلاّ أن بعض الطروحات الجريئة التي وردت فيهما لم تنل رضى حكومة الكويت التي ابتاعت من الناشر مئات كثيرة من النسخ فاحتجزتها في وزارة الخارجية ولم يجر توزيعها، كما أن بعض الملحوظات لم يقع موقعاً حسناً عند السلطات في المملكة العربية السعودية فاستطاع جبروتها المالي أن يجعل من الكتابين من النوادر التي لا يسهل الحصول عليها. إلاّ أن دار نشر في مدينة السليمانية بكردستان عمدت إلى إصدار طبعة ثانية من الكتاب الأول، دون حذف أو زيادة. وأنا بالنيابة عن مقتني الكتاب لا يسعني إلا إزجاء الشكر لذلك الناشر المجهول الهوية رغم حنقي الشديد على مخالفته أبسط قواعد النشر الخلقية بأخذ إجازة من الكاتب أو الناشر على الأقل.

قلت: أعاقتني هذه الكتب وأخرى غيرها عن الاستمرار في تصحيح وتنقيح

الفصول الباقية وإرسالها للتدوين زهاء سنتين أو ثلاث ثم عدت إليها متفرغاً ولقيت التشجيع الكامل من الناشر والإلحاح المتواصل في عين الوقت من الناشر الثاني السيد فرهاد عبدالقادر لدخوله شريكاً فيه وهو يقرأ تباعاً ما أكتبه منه قبل أن أدفعه (لحاسوب) داود إبراهيم. وتمّ القرار على أن يقسم الكتاب إلى أربعة أقسام تصدر في مجلدين أو ثلاثة أولها وهو الجزء الأعظم من الكتاب ويتضمّن مما يتضمّن متابعة تاريخية سياسية لفكرة القومية العربية عبر تاريخها الحديث وإرهاصاتها وآثار زعمائها المنادين بها كنهاية للوحدة العربية الشاملة «من الخليج إلى المحيط» أو العكس. وقد ارتأيت إنهاء كتابي في تاريخ لا يتجاوز العام ١٩٧٠ وعيّنت الوقوف بوفاة أكبر دعاتها «جمال عبدالناصر» ويفتح صفحة فكرية جديدة لها. وجئت إلى تفصيل الآثار السلبيّة والإيجابيّة التي خلّفتها دعوى القومية في البلاد الناطقة بالعربية وشدّة وطأتها في التعامل مع مسيرات القوميات الأخرى الساكنة تلك البلاد كأقليات عنصرية - دينية. وشرحتُ بكثير من التبسيط مؤثرات الفكر الأوروبي وسياسات الغرب في اتجاهات الفكر القومي العروبي وردود فعلها على الأحداث والانقلابات السياسية المحلية وما أنكره المؤرخون العرب منها وما أقرّوا به، وما أغفلوه عمداً وما اعترفوا به. واعتمدتُ أسلوباً نشيطاً حافلاً بالاستطرادات المشوّقة قاصداً تجريد السرد عن الطبيعة الرتيبة التي تشيع الملالة عند مطالعة الكتب التاريخية. وابتعدت جلّ ما قدرتُ عليه عن التكرار ولم أتحرج قطّ عن إبداء رأيي واستنتاجي، ولم أكتفِ بنقل آراء غيري وترك القارئ يبحث عن رأيي الخاص وعن جدوى رواية هذا الحدث أو الحكاية دون تعليق بين تحبيذ أو انتقاد.

ألحقت بهذا السفر كما ذكرت الترجمة الكاملة لكتاب المقدم ستافورد الذي يعتبر أهمّ وثيقة كتبت حول فترة العام ١٩٣٣ من تاريخ العراق. وفي جزء ثالث منه كتبت نُبذاً مُسهَبة صريحة من سِيَر حياة الساسة والعسكريين والشخصيات التي ساهمت في أحداث تلك الحقبة من عراقيين وعرب في بلاد عربية وكرد وآشوريين وأجانب محاولاً إزاحة الستار عن حقائق خفية دُفنت عمداً أو تقصيراً أو على سبيل المحاباة ونيّتي هي وضعهم في المكانة التي يستحقونها من تاريخ بلادهم والمنطقة والتاريخ العام.

وفي جزئه الرابع والأخير حاولت جمع ما وسعني من وثائق عربية وغير عربية تيسّرت لي خلال بحثي في أرشيفات عُصبة الأمم في جنيف، وفي دار الوثائق الرسمية البريطانية بلندن والمكتبة الوطنية في باريس وغيرها. إلى جانب طائفة يضيق بي المجال عن حصرها من المراجع والمخطوطات معظمها لم ينشر، هذا إلى جانب وثائق خاصة

أخرى تدور حول المسألة الآشورية عموماً. الأمر الذي جعله يبدو وكأن جانباً كبيراً من الكتاب أوقف على هذا الحدث التاريخي الذي بيّنا أثره في مسيرة التاريخ العراقي والعروبي العامين وهو مظهر من الكتاب المتعدد الجوانب ليس إلا وقد بيّنتُ الأسباب التي حملتني على دمج المجهودين في سِفرٍ واحدٍ فلا داعي ثم للتكرار.

سمّيت الأشياء بأسمائها التي تستأهلها ونعتّها بالنعوت التي تستحقها وبخلت عليها بكلمة رثاء أو اعتذار لا تناسبها كما اعتاد بعض المؤرخين التلطيف من وقع الحدث أو صفة فاعله على سبيل المحاباة أو بطريق المجاملة أو بغية التستّر على الناقصة والعيب. ورفضت الانتقاص وبذلت الثناء للذي يستحق الثناء والإشادة. وقدمت للقارئ الانقلابات العسكرية في البلاد الناطقة بالعربية، ومؤامراتها الداخلية في الوثوب إلى كراسي الحكم والتآمر المتبادل بين الدول الناطقة بالعربية على قلب حكوماتها عاريةً عن الشعارات والمزاعم التي يدعيها القائمون بها وبكل ما حفلت به من عنصر الفكاهة والتندر. ولم أقتصد في وصف النهايات المؤسفة التي جرّت إليها البلاد وما أحدثت في البنية التحتية من الخراب ومن الدمار في مسير التطور الطبيعي نحو الديمقراطية والاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

وأوضحت بصورة خاصة الموقف القومي العروبي من الكارثة الفلسطينية إلى أي مدى بلغ الانحطاط الخلقي. وإلى أيّ مسافةٍ امتدّ الغباء السياسي بها، ولا أقول الجشع والتهافت على الذهب اليهودي لقاء التنازل عن الأرض، وكشفت حقيقة ما دعي بحروب التحرير والوعد بقذف اليهود وإسرائيلهم في البحر عن ضعف تلك الحكومات والدول عسكرياً وأيديولوجياً (قوميّاً) بالهزائم المتلاحقة المخجلة وخسران المزيد من الأراضي، وكم كان ذلك برهاناً للعالم أجمع بالتفوق الروحي والعسكري للمنتصر في تلك الحروب.

. . . سأبعد نفسي والقارئ عن ذكريات صبيّ الحادية عشرة حول المسيرة واستعراض الجيش لأنتقل به إلى الفصل الختامي من تهيئة الكتاب وإعداده، وقد صمّمت ألاّ أحرمه من أدقّ تفاصيلها، وكل مراحلها تؤكد مصداقية عبارة ونستون تشرتشل الأخيرة التي أثبتناها في أول المقدمة.

قلت: بمواصلة تسجيل الفصول تبين لنا أن الكتاب سيكون بالغ الضخامة وأن (دار النشر) التي يملكها المرحوم داود لا تقوى بمواردها المحدودة على وضعه بيد القراء. إلاّ أنه - وهنا موطن العجب - كان يصرّ على أن هناك جهات معيّنة تعهّدت بتمويل

ذلك ولم أساله عن نوع التعهد وبقي يصرّ إصراراً عجيباً على الانفراد به رغم عروض صاحب الدار الأخرى السيد عبدالقادر عليه في المساهمة.

إلاّ أن ما وقع بعد ذلك أنساني الانشغال بفكرة تمويل الطباعة فقد بدأت ألحظ في مسوّدات الفصول الأخيرة التي كانت تردني للتصحيح أخطاءً عجيبة كثيرة جداً خلافاً للعمل المرتّب الدقيق الذي عوّدني عليه وانحدر الخلط في التقديم والتأخير من السيّئ إلى الأسوأ حتى لم يعد بالإمكان إثبات التصحيحات وكان يقتضي أن يعاد تنضيد معظم الصفحات مجدداً. سألته عن السبب وهالني الأمر فأقرَّ بأنه يخطئ كثيراً فعلاً لأنه منهك الأعصاب. وعزوت ذلك من جانبي إلى متاعب عائلية مزمنة محزنة (سأتحدث عنها مرغماً فيما بعد بسبب العلاقة المباشرة بمصائر الكتاب).

لست من فريق المتشائمين، ولا أعدّ نفسي من ذوي الطبيعة الاستسلامية، لكني بقيت أشك في تأكيدات صاحب دار النشر هذه بصدق الوعود التي قطعت له - كما يدّعي - من تلك الجهات التي تعهدت بدعم المشروع مالياً. ولم يشأ تعريفي بالتفاصيل إلا أنه ذكر لي أنها هي التي قامت بتمويل كتابيْ «مباحث آشورية» و«فاتحة انتشار المسيحية» ذي الأجزاء الأربعة وقد نوّه بذكرها في مقدمة الكتابيْن. إلا أن الشك في تأكيده لم يبارحني بسبب ضخامة هذا الكتاب والصعوبات التي تنجم عن طباعته في السويد ومشاكل توزيعه وهي أكبر عقبة بوجه الكتاب العربي الذي يفتقر إلى شركات توزيع شأن الكتب الأوروبية.

لم أكترث شخصياً بمردود مادي من ثمار قلمي ولم أحاول الكتابة بقصد التكسّب مطلقاً وكنت عادة أكتفي من الناشر بعدد من النسخ يتراوح بين الخمسين والسبعين، وفي أحيان قليلة جداً يتكرم عليّ بمكافأة رمزية في حال رواج استثنائي للكتاب المطبوع دون أن أطلبها أنا نفسي.

وبقيت في شك كبير من مقدرة صاحبي المادية، ومن صدق وعود مموّليه كما ادّعى. ثم حانت الفرصة للتأكد من ذلك بتلبيتي دعوة الصديق الشهم والأديب الكاتب يونان هرمز لزيارة الولايات المتحدة. واتصلت بالناشر ولم أدرِ أن الداء كان قد استفحل فيه وبأنه لا يملك إرادة على ما يقول أو يعد به، وقد تواعدنا على اللقاء قبل الرحيل إلا أني لم ألقه ولم يكن في وضع يحاسب فيه على قول أو فعل. وفي الولايات المتحدة سعيت للقاء الجهات التي كان رحمه الله يقول عليها، وتمكنت بمسعى صديقنا يونان من ضرب موعد لشخصية آشورية كان يشغل سابقاً مقعداً في

مجلس شيوخ إحدى الولايات الأمريكية. بعد أن أُعلم هذا الرجل الكريم بوجودي ويعد أن ضرب لي موعد لقاء، جعلني أنتظر ساعات لتلقّي نداء تلفونياً يُعلمني فيه بالزمن والمكان، إلا أنه نكل وكان في أغلب ظني يتحاشى اللقاء.

ولقيت أناساً آخرين وبحثت معهم مشروعي. هؤلاء بلغ بهم جدّهم وسعيهم أن أصبحوا من الأغنياء الكبار، ولم يقطعوا صلتهم بوطنهم لكن بطريقة عجيبة هي تكريس يوم واحد من الأسبوع يلتقون فيه في مجلس شرب ويتحدثون عن أضمن وسيلة للتغيير السياسي في الوطن، ويفترقون وقد مضى من الليل معظمه ثملين كل إلى منزله.

بعض هذه المؤسّسات كانت تملأ الدنيا صراخاً وزعيقاً وتقيم مراسم وتلطم الصدر كلما جاء ذكرى مذبحة ١٩٣٣ وتقيم الحفلات في المناسبات القومية والوطنية حيث تُلقى الخطب الناريّة وتُسمع الهتافات الحماسية تشقّ عنان القاعة الكبيرة.

عدت أجرّر أذيال الفشل وحاولت الاتصال بصاحبي المريض لأنبئه بفشل مساعيّ في الولايات المتحدة وبأن من كان يؤمّل معاونتهم لا يرجى منهم خيرٌ ثمّ لأنبئه بوجود عرضين سخيين من دار نشر في السويد وأخرى في إنكلترا. فلم يكن ذلك ممكناً وقالت زوجته إن كل زيارة أو اتصال معه محظور قطعاً.

وهكذا لم يعد لي من سبيل غير الاستنجاد بالسيد نينوس سوريشو وهو شقيق زوجته وابن عمّه، لكنه مقطوع الصلة به لا يكلّمه ولا يغشى بيته بسبب مأساة عائلية قديمة العهد نُكبت بها الأسرة وهي في العراق وأدّت إلى قطيعة تامة. سِرّ دفين وقفت عليه مصادفة وأنا في كردستان ولم أحاول معرفته عندما كنت في السويد، كان الطرفان يحاولان تغطيته بأسباب تافهة وتعاليل سطحية فجاريتهما في المحاولة.

حاولت عن طريق نينوس أن أتوصل إلى تعليقاتٍ وهوامشَ على كتاب ستافورد فاتني استنساخها، فضلاً عن ثلاث مترجمات مخطوطة استعارها السيد داود للمطالعة.

كنت أتصوّر أني سألقى من نينوس هذا كل تعاون على تزويدي بالهوامش واستعادة الأمانة. لكنه وكما يبدو ما إن علم بأني سأرحل إلى كردستان وأترك السويد نهائياً وبأني سأعمل على طبع الكتاب في محلّ إقامتي الجديد - حتى انقلب وصار يضع شتّى العراقيل في سبيل مقابلة شقيقته لاستعادة الأمانة والتعليقات. وأصبح فجأة هو المتحكم الفعلي بتركة المريض ابن عمّه الراقد في المستشفى يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان السيد نينوس في مبدأ الأمر شيوعياً يحمل بطاقة الحزب الشيوعي العراقي - لا أعرف تفاصيل نجاحه في ترك البلاد العراقية واللجوء إلى الاتحاد السوڤياتي، حيث بقي طوال ممارسة

الحزب الشيوعي السوفياتي حكم البلاد وإلى أن بدأ التصدّع ظاهراً فانتقل إلى السويد وقُبل لاجئاً. وانقلب فجأة من ماركسيّ إلى وطني آشوري متعصّب لقوميّته إلى الحدّ الذي اعتبر معه طبع كتابي هذا في مطابع وبدور نشر غير آشورية إهانة لا تعدلها إهانة وأن الكتاب ما دام يتحدث بإسهاب عن الآشوريين فيجب أن يطبع في مطبعة للآشوريين بمالهم. قلت له: «موافق جداً فابحث لي عن المطبعة والمموّل». وسألته: «لماذا لا تساعدني؟» فلم يأت بإجابة سليمة. قال معقّباً إنه سيقاوم بنفسه أي محاولة لطبعه لاسيّما في كردستان وبالأخصّ في أربيل وراح يخلق العقبات أمام استعادتي الهوامش والتعليقات ويحبس عنيّ الأمانة (المخطوطات) التي أودعتها المرحوم داود، متوهّماً بقِصر نظرٍ منه أن ذلك سيحول دون طبع الكتاب.

كنت أعتقد بأن للسيد نينوس سوريشو من بُعد النظر والرّأفة والشعور بمصلحة ورثة المتوفّى أن يسهّل أمر طبع الكتاب بتزويدنا بالتسجيل (الديسك) الذي سُجّل عليه أكثر من نصف الكتاب الأمر الذي كان سيوفر عناء إعادة التسجيل ويكون بوسعنا في هذه الحالة تعويض ورثة المتوفّى عن جهده إمّا مالياً أو بسهم من النسخ. إلاّ أنه، وهذا موطن العجب، بدأ يتوهّم أو صوّرت له مخيّلته أنّ العقبات التي كان يخترعها بمرور الزمن ستحول دون طبعه وأننا عاجلاً أم آجلاً سنرضخ له. وتسبب هذا في ضياع مجهود داود تماماً!

الأمر الذي كان يحيّرني أن هذا الرجل الذي كان يفاخر أقرانه بأنه يملك أفضل مكتبة عربية في بلاد الغربة وأنه لا يأتي من سفرة إلى بلد عربي إلاّ ومعه حِمل من آخر ما أنتجته قرائح الكتّاب العرب، كانت شروطه التي يمليها أحياناً تثير الضحك. ففي آخر (مساومة) شارك فيها عدد كبير من الوسطاء بعث مع شقيق له يسكن كركوك شروط تزويدنا بالهوامش (دون ذكر للأمانة والمخطوطات) منها عدم ذكر عبارة (طُبع في أربيل) بل يكتب (طبع في العراق!).

كان السيد نينوس يحقد حقداً دفيناً على الكرد وكردستان لا أعرف له سبباً وكان دائم العتب والنقد لي في السويد لأنني كما زعم أكرّس جُلّ مجهوداتي القلمية وأجنّد فكري في خدمة القضية الكردية. وليس بين الكرد وبيني ما بينه وبيني!

كانت محاولتي الأخيرة مع هذا الإنسان بتكليف صديقنا السيد كريستوف يلدا ترخان (ريبوار) عضو مجلس الإعلام المركزي للحزب الديمقراطي الكردستاني. فقد أخذ على عاتقه الأمر واتصل بشقيق له في كركوك وجاء به إليّ حاملاً تلك الشروط

التعجيزية المحيّرة الحمقاء بعينها ليبدو فيها السيد نينوس وكأنه مؤلّف الكتاب وصاحب الكلمة الأخيرة فيه، ووارث دار نشر (زهريرا). وكأني أنا المموّل وأنا صاحب دار النشر التي ستقوم بطبع الكتاب وأنا المتحكم في الشروط.

وطفح الكيل. فقررتُ قطع كلّ صلة به وإعادة تسجيل الكتاب بالحاسوب دون تعليقات مع تنبيه القراء إلى النقصان وسببه وإلى حكايتي مع هذا الرجل الغريب الأطوار. ثم جاء الفرج!

تبيّن أن كتاب ستافورد موجودٌ ومسجل بالإنترنت (ربما كان صاحبنا نينوس لا يدري بهذا التطور الجوهري). أسرع الأخ (ريبوار) الذي تبنّى القضية بعمل نسخة لي تحمل تعليقات المؤلف وهوامشه فأعدت ترجمتها واستعنت بذاكرتي ودفاتر ملحوظاتي على استذكار تعليقاتي الخاصة وأتممت في ثلاثة أيام النقصان الذي يشكو منه الكتاب - بعد أن اقتضاني ثلاث سنوات في مفاوضات عقيمة لا طائل تحتها معه. ألا فليحتفظ بالمخطوطات الثلاثة (وهي أمانة في عنق ورثة الميت) لتدرج في تابوته بعد طول العمر فلعله يجد من يطبعها له في العالم الآخر. أما أنا فقد فقدت أملي في استعادتها ولم يبق من العمر إلاّ الوشل.

أرجو من قارئي العزيز أن لا يشبع هذا المخلوق بلعنة وشتيمة أو عبارة جارحة لتسبّبه في تأخير العمل في الكتاب طوال ثلاث سنين، بل يدعو له بالعقل السليم والسداد في الرّأي.

... مما عالجته في كتابي هذا هو جلب الانتباه بصورة خاصة للدور الحاسم الذي يمارسه الفرد، بوحي من خياله وطموحه وتصوّراته للمستقبل الأفضل وكلمته النهائية في صنع التاريخ وتصوير الأحداث الدراميّة الكبرى فيه، مبتعداً جلّ ما أمكنني عن تلك النظريات القياسية والعقائدية حول النزاع الطبقي ونظرية فائض القيمة وكل ما له علاقة بما أطلق عليه عنوان «التفسير المادي للتاريخ». ففي معظم الأحداث والوقائع التاريخية التي احتوتها دفّتا هذا الكتاب الكبير لا تجد غير أمثلة لنزغات الرجال وكيف تحرف (ولا تسير وفق قاعدة) مسار التاريخ إلى نهاية أو طريق غير متوقع بالمرّة. إنني مثلاً أفكر وأنا أدوّن هذا في ذلك التعهّد الذي قدّمته بريطانيا وفرنسا وروسيا للحكومة العثمانية عشية اندلاع الحرب العظمى الأولى بالإبقاء على الإمبراطورية العثمانية دون مساس بها في حالة بقائها على الحياد. وكيف أن ثلاثة أشخاص أو أربعة فقط، بل شخص واحد هو أنور باشا كان مسؤولاً عن زجّ بلاده فيها، وكيف أن العراق وسورية

ومصر وغيرها من البلاد العربية التي استقلت كانت بفضل إصرار هذا العسكري على دخول الحرب، وكيف أن هذا الشخص قُتل برصاصة واحدة طائشة في بلدٍ ناءٍ ولا يُعرف له فيه قبر!

فأيّ تفسير للتاريخ يمكنه تعليل كل هذه الأحداث التاريخية بنحو منطقي أو على قاعدة موضوعة مجدداً؟

إليك مثلاً آخر قد يكون مثلاً مزدوجاً للفارق الزمني بين حالتين جاء في كتاب (الفخري لابن الطقطقي)[7] والنتائج المماثلة التي نجمت عنها:

«أمر الخليفة المتوكّل (٨٤٩م) أهل الذمّة (اليهود والنصارى وغيرهم) أن يلبسوا لباساً يختلف عن المسلمين ويركبوا سروجاً مختلفة عن سروجهم وأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة تفريقاً بين منازلهم ومنازل المسلمين ونهى أن يستعان بهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري أحكامهم فيها على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين وأمر بهدم معابدهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وبتسوية قبورهم مع الأرض وبغير ذلك مما يذلهم وكتب بذلك إلى العمال في البلاد».

ليس هذا من الإسلام والمسلمين في شيء. وإنما هوى خالط شخصاً ذا سلطان مطلق عُرف بإدمانه الشراب ونادراً ما رؤي صاحياً. وربما كان مصدر أمر هذا مجلس شراب داعر كذلك الذي كان فيه قتله.

قارن بين أمر المتوكل هذا وما جرى مثله في سورية ولبنان بعد ألف سنة. يقول الكاتب ميخائيل مشاقّة في «مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان[8]» (حوالي ١٨٤٩-١٨٧٠):

«كان المسيحي عُرضة للإهانة والذلّ أينما مرّ وحلّ. وكان المسلم يسيء معاملته لدرجة مفرطة حتى ألف الذلّ كما ألف مذلّة إذلاله فكان النصراني حيثما مَرّ وتوجّه يُنعت بالكافر ويُشتم صليبه ويحتقر وتُقلب عمامته ويصفع ويرفس إلى غير ذلك من الإهانة. وكان إذا مرّ في حيّ المسلمين لحقه

---

(٧) محمد بن علي ابن الطقطقي (١٢٦١-١٣٠٩) مؤرخ موصلي صاحب كتاب (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية).

(٨) ط. القاهرة ١٩٠٨ (بعد إعلان المشروطية) الص ٢٦-٢٧.

الصبيان في الأزقّة قائلين له:

نصراني كلب عَواني   رقوْ لَه بالصرامي

قالت امه مينه   ضربة تقلع عينه

وكان المسلم إذا مرّ بمسيحي يقول له: «أشمل» يريد بذلك أن يسير إلى يساره فيفعل صاغراً. وكان كثيراً ما يسخّره أصحاب الدكاكين لقضاء حوائجهم أو يستعملون إهانته لإذهاب ضجرهم وتفريج كربهم فيناديه بعضهم «تعال يامعلم»، فيذهب إليه فيصفعه ويكلّفه أن يذهب بحاجته أو يلبسه حذاءه أو يشتغل عنه شغلاً ما. وإذا ما كان مازحاً يهمس في أذنه شتماً أو إهانة أو يأخذ عِمّته ويصفعه على أُمّ رأسه ويرمي العِمّة إلى جاره وهذا إلى الذي يليه وهلمّ جرّاً. وكان قانون الحكومة إذذاك أن يُكره المسيحي على حمل كيس على كتفه يسمّونه كيس الحاجة ليس له أن يخرج من بيته دونه. والمقصود من هذا الكيس أن يضع به الأغراض وحوائج المسلمين ما يسخّره هؤلاء بحمله من بقول وخضار وغيرها. وفي الشام كان محرّماً عليهم لبس العمامة البيضاء وانتعال الحذاء الأحمر أو ركوب الخيل»[٩].

فأيّ قاسم مشترك أعظم يجمع يا تُرى ما بين أوامر المتوكل وما جرت عليه عادة الأكثرية المسلمة لا في سورية ولبنان وحدها بل في سائر أمصار الإمبراطورية.

إنّ ما قرأته في مُقتَبل حياتي وما سمعته عن أمثال هذه الممارسات أيّد لي أنها كلّها من صُنع أفراد، وليس من صُنع حالات تاريخية مسبّبة عامّة لا تمتاز بخصوصية، كما أنها ليست من صُنع الشرائع السماوية أو الدينية. وقد قادني هذا إلى دراسة عميقة للفقه الإسلامي بكل مذاهبه، وقبل أن أغدو تلميذاً في كلّية القانون، فما وجدت شيئاً يأمر أو يرشد أو يوصي سِرّاً أو علناً باتخاذ مثل هذا السلوك إزاء أهل الذمّة. وعلى القارئ بعد هذا أن يحكم. وأنا هنا أوجّه انتباهه إلى الفصول التي تطرّقت فيها إلى

---

(٩) للمفكر القومي المعروف الدكتور ساطع الحصري رأي وتعليل خاص لهذه الظاهرة (راجع، محاضرات في نشوء القومية، بيروت ١٩٧٦ ص ١٧٧ «الوضع الطائفي في العهد العثماني كان قد اتخذ طابعاً معيّناً يستمدّ جذوره من الفقه الإسلامي الذي يعتبر المسلم أرفع درجة في السلم الاجتماعي من الذميّ. إنّ الحكومة العثمانية كانت تعامل رعاياها المسلمين معاملة خاصة تختلف عن معاملة غير المسلمين. فهي تعتبر الأولين كأهل دولة وتعتبر غيرهم كأنهم غرباء عنها».

فلسفة الدين الإسلامي ومدى ارتباطه بالممارسة الدينية الصرفة وبالقومية العربية من جهة أخرى.

أعود إلى مسألة تعاملي مع المراجع العربية، ولاسيّما كتب المذكرات الشخصية والسِّيَر الذاتية. تعاملت معها بتحفّظ كبير بسبب التناقض بينها وأنانية كتّابها وحرصهم في إلقاء الذنب على غيرهم أيّاً كان وإظهار أنفسهم بثياب وأجنحة الملائكة الأطهار. وفي معرض الحكاية السياسية والتاريخية رفضت قبول الرواية المنفردة إلاّ إذا دعمتها وجهة نظر أخرى واحدة أو أكثر. ففي التاريخ العربي مع الأسف الشديد عُرِضَ العديدُ من الوقائع عرضاً مرسحياً مُوَنَّقاً بالتعابير البليغة الطنّانة التي لا تفتقر إليها هذه اللغة النفيسة لتنزل منزلة المسلّمات وليقرأ الجيل الحديث في المدارس والمجالس وفي غرف المطالعة ما يملأه منها حماسة وفخراً كاذباً ويمجّد في خلالها أشخاصاً لا مجال لذكرهم في التاريخ بغير الازدراء والإدانة للشرور التي اقترفوها والمصائب التي أنزلوها بشعوبهم وأبناء جِلدتهم. لم تأخذني بهؤلاء لومة ولم أقتصد في فضح أعمالهم من سِيَرهم نفسها ولم أحاول التهوين من أعمالهم وتصرّفاتهم الدنيئة التي تفوح منها رائحة الأنانية والأثرة.

إني نظرت بعينَي المرتاب المتعقّل المتأنّي إلى المراجع الكبرى المعتبرة، لاسيّما تلك التي باتت منذ وصولها إلى أيدي القرّاء محلّ الثقة العمياء والنصّ الذي لا يأتيه ريب ففضحت كذبها بما أمكنني وأوردت ضدّها حين ينتابني الشك في الضدّ ونقيضه لأترك الترجيح والتفضيل للقارئ. على أني لا أنفي قطّ وجود مراجع عربيّة يمكن الاطمئنان إليها إلى حَدّ كبير وهي المراجع غير التجارية أو التي لا تخدم فريقاً من الناس أو حزباً أو عقيدة أو حكومة أو رجال دولة وسياسة، وسيرى القارئ أن هذا الصنف من المراجع العربيّة قليل الانتشار وقد اقتضاني البحث عن بعضها المتاعب والنصب وعرق الجبين. وبمقابل ذلك أهملت الإفادة أو حتى الاستئناس بآراء الكثير من الكتاب المشاهير لعين الأسباب التي نوّهت بها قبل قليل وإن تأيّدت الرواية الواحدة من اثنين منهم على الأقل. وعلى سبيل المثال لا الحصر أورد هذه المقايسة التاريخية تاركاً للقارئ الحكم على الغرض الذي خدمت من إيرادها ومنها سيدرك القارئ عذري في تحفّظاتي وارتيابي في كتب المؤرخين المحدثين العرب أو مذكراتهم.

المؤرّخ الشهير جورج أنطونيوس طبع كتابه «يقظة العرب» الذي ألّفه أصلاً بالإنكليزية أكثر من طبعتين. وطُبعت ترجمته العربيّة المتقنة ست مرّات وبدا قِبلة

الباحثين وكتاب التاريخ حتى الساعة وما انفكّت رواياته للوقائع موضع شهاداتٍ وبيّنات ثابتة[١٠].

إلى جانب (يقظة العرب) وبعين المستوى تقريباً هناك المرجع الشهير للمؤرخ أمين سعيد عنوانه (الثورة العربية الكبرى) وكلاهما يثبتان عين الرواية حول موقف الأمير (ثم الملك) فيصل بن الحسين عندما قرأ أسماء الأشخاص الذين شنقهم أحمد جمال باشا الملقّب بالسفاح (لا أدري هل كانا يستقيان من عين المصدر أم كان أحدهما كَلاّ على الآخر) قالا:

«فخيّم الوجوم على الحاضرين وقرأ بعضهم الفاتحة. غير أن فيصلاً قفز واقفاً كمن أصابه مسّ مفاجئ فيه فانتزع الكوفِيّة من على رأسه ورمى بها على الأرض وداسها بعنف وصاح: طاب الموت يا عرب».

وفي (الثورة العربية الكبرى) بعد أن يورد المؤرّخ هذه الرواية تراه يسرع ليذيلها برواية غريبة أخرى. يقول:

«وأسرع فيصل إلى دمشق وقابل جمال باشا، فحدّثه هذا بالأسباب التي حملته على الأمر بشنق المتهمين وبيّن له وجه الخيانة باتصالهم بدولة أجنبية دولتهم في حرب معها: يقول جمال باشا (في مذكراته) تحمّس الأمير فيصل ونهض ورفع يده قائلاً: قسماً بحرمة الأجداد لو علمت أن جريمة الجناة بهذه البشاعة لما أحجمت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت أن تمزّق أوصالهم ليطول عذابهم ألا لعنة الله عليهم»!

لكنّ للعلاّمة الكبير محمّد كرد علي في كتابه المذكرات (ط. دمشق ١٩٥٠) رواية أخرى حول موقف فيصل من الحكم على شهداء عاليه ودمشق وتنفيذ الحكم فيهم (ج٣) وهي طويلة تتضمّن قيام كرد علي شخصياً بالتشفّع لهم عند أحمد جمال باشا وكيف انتهره، ثم عروجه على موقف فيصل الذي كان كما يؤكد موجوداً في دمشق عند إلقاء القبض عليهم «وكان كل همّه أن يخرج من المدينة ويتجه إلى مكة متستّراً

---

(١٠) الطبعة السادسة من الترجمة ١٩٨٠ بيروت. دار العلم للملايين. الص ٢٨٤-٢٨٥. يقول الكاتب جورج أنطونيوس إنه اعتمد على أقوال الملك فيصل (ص ٢٣٧- الحاشية) «يرجع الفضل في حصولي على قسم كبير من حقائق هذا الفصل إلى المغفور له الملك فيصل وأنا أسجّل هنا فضله».

تحت جنح الليل لئلا يطاله الاعتقال ويحال إلى المجلس العُرفي العسكري كالآخرين».

أمثال هذه المفارقات التي لا سبيل إلى إهمالها أو إغفال تمحيصها والتأمّل فيها للحكم على الشخصية الواحدة في مجرى التاريخ - جعلتني شديد الحذر في إيراد الوقائع، وإن اضطرني السياق إلى ذلك فلن أتردد في إثبات رأيي مع إيراد المتناقض حين أجد ضرورة لمساعدة القارئ على تبنّي الرّأي الأقرب إلى العقل والمنطق بعد استقراء الظروف كافة. لذلك لن أعجب قط إن خرج القارئ بعد قراءة كتابي بكثير من الآراء والنتائج المخالفة لتلك التي اعتاد استخلاصها من كتب أخرى، وربما قذفني بلعنةٍ أو شتيمة. وقد تهيّأتُ لهذا الموقف منذ أن بدأتُ بتدوين الفصول الأولى من الكتاب.

في كثير من الأحيان قد يكون من الظلم الصارخ إساءة إصدار حكم على الروايات والوقائع المسرودة ونعتها بالتضليل العمدي من جانب رواتها، أو تشويه الحقائق فيها عن طريق نفي المسؤولية بنقل الذنب إلى الآخرين. هناك كثير من الوقائع والأحداث المنقولة شفاهياً والمدوّنة فيما بعد لا يمكن أن يعزى إليها التشويه أو التزوير المتعمّد في الأحداث. وقائع يختلف اثنان أو ثلاثة أو أكثر من شهود عيانها ولا نستطيع أن نعزو إلى أحدٍ منهم تزويراً أو تصنيعاً في الرواية. أحدهم ينظر إليها من زاوية وآخر من زاوية مختلفة فتتفاوت الرواية تبعاً للذوق أو درجة الانتباه إلى تفاصيل الواقعة. إن كانت محاضر الاجتماعات السياسية المدوّنة لإثبات النتيجة النهائية (وقد وقع بيدي جانب منها) فلا خلاف، إلاّ أني اعتمدت على الأقوال وصدق الرواية أو ضعفها أو قوّتها بالأحرى لأجد نفسي أحياناً أشبه بأولئك المحدثين العظام وهم في رحلاتهم المنهكة الشاقّة وراء الحديث النبوي الصحيح واستخلاصه من الأحاديث الضعيفة والزائفة والمنحولة.

وأما عن المراجع الأجنبية واللاعربية وهي بأكثر من لغة أوروبيّة، وفيها الفارسيّة التي ألمّ بها بشكل يعينني في بغيتي. فقد ملكت منها الكثير واستعرت منها الكثير وأثبتُ عناوينها وأسماء مؤلفيها حيثما شعرت بأن ذكرها لازم واقتصرت على جانب يسير منها. كانت هناك أيضاً اللغة الآرامية المتمثلة في اللهجات الدارجة منها - الكلدانية والسريانية والآثورية التي يطلق عليها العامة اسم (السورث) وهي اللغة التي لا أعرف منها غير معاني بضع كلمات وجمل قصيرة ولا أعرف قراءتها فاستعنت بأصدقاء لي في نقل بعض النصوص التي لم أجد لها ترجمة بالإنكليزية.

ويفترق سبيلي وسبيل كتّاب التاريخ المحدثين في مناقشة الرواية بعمق ومن دون اعتبارات معيّنة: فكتّاب التاريخ العربي في عصرنا هذا ما زال معظمهم يتهيّبون الجهر بمواقفهم وآرائهم وأنا أقصد الحياديين منهم أو مدّعي الحياد لا فرق. إني أراهم مع الأسف يكادون ينهجون عين نهج أوائل المؤرّخين العرب والمسلمين فكُتبهم وآثارهم الحديثة لاسيّما تلك الرسائل الجامعية الباهتة الرتيبة التي سرعان ما تغدو كتباً تتداولها الأيدي فهي تكاد تخلو من آرائهم الخاصة، من نقد أو تقويم للأحداث والوقائع ولرجالها أصحاب الأدوار فيها. إنهم ينقلون عن هذا المرجع أو ذاك دون تعليق، أو يثبتون حدثاً كما رأوه أو سمعوا عنه ويبقون قارئهم في حيرة ولا يمدّون إليه يداً يأخذونه بها إلى الطريق الواضح القادر على البلوغ به إلى استنتاج معيّن ومع هذا فكتبهم مكتظّة بالمعلومات.

قد أبدو في عرضي هذا شديداً قاسياً على صنف الكتّاب الذي قصدتهم. ربما كنتُ كذلك. إلاّ أني - وأؤكد هذا بكل إخلاص وتجرّد - لا أقصد قط المفاضلة والمباراة وإثبات التفوّق على من سبقني في المواضيع التي تطرّقت إليها. ولأستعجل فأقول عن عملي هذا إن فيه ثغراتٍ كبيرةً وكثيرةً وفيه أمور قد تُحمل محمل التحامل والإغراض وهي ليست كذلك. فيه أيضاً هفوات جِسام. وبعض مواضيع فيه تقتضي شرحاً وتبسيطاً أكثر مما أوقفته عليها. ولا أستبعد أن تُحصى عليّ فيه سقطات كنت أشعر بها أحياناً أثناء المراجعة وكأنها السفود المحمّى وهو يغيب في صدري ولا حيلة لي في ردّه عنيّ. إلاّ أني ترفّعت عن الاختراع والتزوير وكفاني الله شرّ الكذب وخزيه فتوقفت عندما أعوزتني الأداة أو الوسيلة لسدّ ثغرة أو تبديد غموض لا حيلة لي فيه وتسكت عنه المظانّ والمراجع الميسورة لي.

أريد أن أؤكد للقارئ وقد بلغت ختام المدخل أنّ هذا الطاغوت أو السيّد المتحكّم بحسب قول ونستون تشرتشل لم ينجح في سوقي رغم أنفي إلى السبيل المخالفة التي اعتدتها خلال حياتي الكتابيّة. فأنا ما كتبت لأخدم جهة، ولا لأروّج لفكرة. ولا لقاء ثمن مدفوع أو وعدٍ بثمن. وهذه آرائي حيثما وجِدتْ في كتابي هذا وأنا وحدي المسؤول عنها.

الفصل الأوّل

نشوء الفكرة القومية بمفهوم عراقي. البنية العربية الاجتماعية. اختلافها بين بُقعة واخرى. محاولات التعتيم والتغطية حول الأشخاص والوقائع. قلب الحقائق. مثالان. أحداث آب ارتُكِبت باسم القومية العربية. وأحداث مايس ارتُكِبت باسم القومية العربية. ضرورة متابعة التاريخ العام واهمية دور التاريخ السياسي على ضوء التاريخ الاجتماعي وعلى أساس افتراض انقلاب معكوس لأحداث مرّت ولا أمل في عود مثيل لها. خطر الانحياز بالتاريخ الاجتماعي إلى النظريات وعمليات الإحصاء. واجب المؤرخ الحقيقي الاستعانة بالتاريخ السياسي بقدر ما يقي من الوقوع في خطر الحكاية. التحوّل من «الوطنية» إلى «القومية» في الأناشيد المدرسية. العداء والصراع القومي بين الحكومات العربية، وحرب المفاهيم. القومية العربية تلفح وجه الموصل بعد إعراض عربي وولاء للترك. الطابع الديني للموصل بوصفها عاصمة لولاية تركية. أقوال سياسيين ورجال حكم ومؤلّفين حول الطابع الاجتماعي للمدينة. تفوّق اللغة العربية. حلول القومية محل الوطنية على أساس اللغة والدين. التعريب بدل التتريك. معجزة الحرب العظمى الأولى. مجهودات رجال الحكم الجُدد في محاولات التعريب. تجارب خاصة

فكرة القومية العربية، ومراحل تطوّرها إلى مذاهب ومناهج وفلسفة، وحكاية ما أنجزته وحققته للأمم والشعوب الناطقة بالعربية من نجاح أو ما لقيته من فشل في ميادين التطبيق والحياة، ومقدار تأثيرها على تقدّم الحضارة أو عرقلته لها، ما أغنت به القيم الروحية والمادية وما ألحقته من ضرر أو أصابها من خسار لنفسها أو لغيرها من الشعوب المجاورة، أو ما ظفرت به من كسب بمبادرات مفكريها وقادتها وزعمائها، هي بالأصل التاريخ العام الحقيقي الذي يزوّد التاريخين السياسي والاجتماعي بمادّتيهما. التاريخ الاجتماعي السياسي الذي هو قبلتي لا يستوفي حظه من البحث في

نظري - من الإحاطة بتناول البنية الاجتماعية العربية بالدرس والتدقيق في خلفياتها فحسب بل يقتضي له التصدّي للعلاقات التاريخية بين العرب والأمم الجارة على حقب مخصوصة من التاريخ، لاسيّما بعد أن فتحت تلك الأقوام والشعوب صدرها للعرب بفضل الرسالة المحمدية ولتباشر بهم مسيرتهم وتتيح لهم فرصة وضع بصماتهم الخالدة في صفحات الحضارة البشرية، ثم لينحسر مدّهم، ويخمل ذكرهم وليقعوا بالأخير في إسار أقوام بربرية غازية وطغيان حكام أجانب. إنّ ما يسجّله التاريخ لإرهاصات الحياة أفراداً وأقواماً سيبقى أبداً خالداً بمحاسنه وقبائحه. إنه لمن الخطورة الكبرى محاولة إلباس القبيح رداء الجمال وتحرّي الأعذار لمن لا يستقيم له عذر.

مع هذا يحاول بعض المؤرّخين عادةً العبث بوقائع التاريخ أو إخفاء حقائقه ليخدموا به غرضاً أو هدفاً أو ليتصروا بهذا التزوير لشخصية مجرمة، بنفي أو تبرير دور غير مشرّف لهذه الشخصية أو تلك. ولمّا كان التاريخ من صُنع البشر، ليس كلهم بل أفراد متسلّطون وبالفرص التي تتيحها لهم ظروف مواتية، وبما أنّ عدداً من دعاة القومية العربية وقادتها، وبعض مفكريها الممهّدين للون فيها - نجحوا في الوصول إلى السلطة وحاولوا عن طريق ممارستها تطبيق مفاهيمهم فيها، فهؤلاء هم مسؤولون مباشرة عن كل النكبات التي حلّت بالوطن القومي العربي الكبير وطرقه النضالية وما أحرزته من تقدم اجتماعي وتكنولوجي. وسيكون الحديث عن هؤلاء جزءاً هامّاً من هذا الكتاب.

دوّنتُ هذا الكتاب بفصول واستدراكات وملاحق في أوقات متباعدة. ولما تراكمت هذه الفصول وأعدت مراجعتها وقراءتها بإمعان خُيّل لي أن الوقت قد أزف لأجعل منها وحدة. وكما أوردت في (المدخل) فقد وجدت علاقة سببيّة وثيقة بين تقلّب وتطوّر الفكر القومي العروبي وتباين طرقه النضالية وكيفية تجاوبه مع التطلعات الكُردية والآشورية (المسيحية) في العراق خصوصاً وانعكاس بعض المفاهيم القومية من خارج قُطرنا على مفاهيمها المحلية وتأثيرها على التعامل مع القوميتيْن الرئيستين هاتين فيه، لاسيّما عندما ينشأ نوع من الخلاف لينقلب بالنتيجة إلى صراع تُسفك فيه الدماء، أو عندما يخيّل للقوميين أنهم في موقف يستطيعون فيه إملاء شروطهم على حكومة أو دولة تفوقهم قوة أو جبروتاً بمراحل فتذهب ريحُهم ولا تسمع عنهم خبراً لبرهة من الزمن فقط. أجل لبرهة من الزمن ليعودوا بعدها مسلّحين بنظريات وأهداف أخرى وبنشاط متجدد.

كانت أبداً هناك دماء تُسفك وأرواح تُهلك لا بين المتحاربين وحدهم، بل على

الغالب الأغلب دماء أولئك المتفرجين الجالسين على الرصيف وبينهما الأقلّيات الدينية والعنصرية التي أبت إلا أن تقيم على دينها عند الفتح الإسلامي لاسيّما في ما يدعى بالوطن العربي الكبير فشاركته سرّاءه وضرّاءه اختياراً أو جبراً، وتحمّلت في أحيان كثيرة جَور حكّامه ومعظمهم أجانب وليسوا عرباً[1].

أحياناً تغدو هذه الأقلّيات القومية أثناء العراك العربي على السلطة في بلاد لهم من جملة الضحايا وتُصبّ عليهم ألوان الاضطهاد. وفي الكتاب تجد أمثلة كثيرة من هذا القبيل.

ولتلميذ التاريخ الاجتماعي أن يقف أمام حدث معيّن ليطلق هذه الأسئلة ومثيلاتها: كيف؟ أين؟ متى؟ لماذا؟ ما الغاية؟ والإجابة عن هذه الأسئلة تتعلق بأي منحى من نواحي التاريخ يسلكه المؤرخ. على أن هناك سؤالاً سادساً غير هذه الأسئلة يتعيّن على تلميذ التاريخ الاجتماعي الإجابة عنه أيضاً وهو الذي يبدو وكأنه مفترق طريق لا يبعده كثيراً عن التاريخ السياسي أو الديني أو الاقتصادي أو تاريخ العلوم. إن إغفال الجواب عن هذا السؤال في أي عمل فكري يمتّ إلى تلك التواريخ بصلة يجعل من عمله مجرّد سرد مملّ سطحي للوقائع كالقصص الرتيبة التي نضعها بيد الأطفال والناشئة أو كالكتب المدرسية المقررة. والسؤال السادس الذي أقصده هو مقدار العلاقة التي تربط التاريخ السياسي بالتاريخ الاجتماعي فكلاهما يتتبّع مثلاً حياة ونشاط شخصية معيّنة من خلال عمل ذي طابع عام. إلا أن التاريخ السياسي يبعد نفسه عندما يحصر قياسه للشخصية بما أتت من أفعال وأصدرت من أوامر، ولا يقيس الأعمال بالشخصية ودراستها دراسة شاملة تنفذ إلى الأعماق لتقدم تفسيراً واضحاً لما أتته الشخصية. إلا أنه مع هذا لا يحبس نفسه في نطاق وصف هذا العمل بل ينفذ إلى غوره في محاولة فهمه. إنه يتعامل مع جماعات وأفراد ولا يتعامل مع مطلقات وجداول إحصاء أو مع طبقات اجتماعية أو مجموعات

(١) ربما كان في إيراد مثلي هذا بعض استعجال، وموقعه الصحيح في مناسبة أخرى. إنّ سلب الإنسان قوميته أشدّ من سلبه حريته. ففي إحصاء النفوس العام في السنة ١٩٧٧ في العراق فرض على المسيحيين (ولندرجهم تحت الاسم العام الكلداشوريين) أن يختاروا لأنفسهم بين القوميتين العربية والكردية وإذا أصرّ أحدهم على جنسيته وكتابة «آشوري» شُطبت الكلمة ووُضِع محلّها واحدة من الكلمتين عربي أو كردي. في مناطق بغداد والجنوب كان المسيحي يخيّر بين العربي أو الكردي. وفي الشمال (كردستان) كان يفرض عليه أن يكتب (عربي) ولا يقبل منه كتابة (كردي) وإلا ناله أذى كبير.

قومية مخصوصة دون محاولة عزلها عن المجموعات الأخرى. ذلك ما يجعل التاريخ الاجتماعي جذاباً وأكثر طرافة وأحفل بالفوائد المتحصلة من التجارب خلافاً لتلك الدراسات التكنية المثقلة بالإحصاءات التي تحاول اليوم أن تحلّ محلّه.

إن تفضيل التاريخ الاجتماعي المتمشّي مع عصر المكائن والذرّة يواجه في بعض الأحيان خطر الانحياز إلى النظريات والمطلقات[٢] فيؤدّي بمجتمع أو مجتمعات عديدة إلى كوارث.

في مسرى كتابنا هذا سنحاول جاهدين اجتناب خطر اللجوء إلى النظريات وهذا السلوك يضطرنا في معظم الأوقات إلى مناشدة التاريخ السياسي بالتدخل لأن ذلك يقينا من خطر الوقوع في مصائد الرواية. التاريخ السياسي يضع نفسيات اللاعبين على مرسحه في مركز تحقيق ويضمن الإطار الذي ترفعه له بنية هذا المرسح (الدولة أو الحكومة) فضلاً عن العلاقات بين المجموعات السياسية، فهو خلافاً للتاريخ الاجتماعي قادر على التصدي بتفصيل ودقة للحروب والقتال والخلافات والجرائم السياسية الكبرى والعدوان وهي من أكثر التجارب البشرية شيوعاً في كل عصر لاسيّما عصرنا هذا. وكان لمسيرة القومية العربية من هذا النصيب الوفير.

وفي متابعتنا لتلك المسيرة سنتحرّى الحقائق كما وقعت، ونجتنّب الوقوع في مزالق الجري وراء المطلقات والاستقراءات الإحصائية، فبهذه تبدو خطورتها وتبرز أخطاؤها عند استخلاص الأحكام منها. ليس هناك وسيلة للنظر إلى التاريخ تبقى على إحساس مستمر بمرور الزمن وعوامل التغيّر إلا بتعاون التاريخ السياسي والاجتماعي. إن التاريخ الاقتصادي مثلاً قد يستطيع أن يمسك بأعنّته التغيير والمتابعة إلى حدّ ما، إلاّ أن حركته الزمانية كثيرة البطء بحيث تُفقد المرء أو تكاد إحساسه بالتغيير.

---

(٢) يبدو فقر النظريات وفسادها أحياناً عند التطبيق بمقارنتها بتصرفات الفرد أو الجماعة في مسائل الحياة المركزية. وعلى سبيل المثال نقدّم للقارئ تلك العربة، عربة الماركسية البليدة التي تجرّ متثاقلة عبر التاريخ نحو النور والحياة الكريمة. كان ركّاب هذه العربة المشرفون التعبير التجريدي الذي أطلق عليه مصطلح «پروليتاريا». على أن كارل ماركس لم يُغدِق على پروليتارياه هؤلاء كثيراً من العطف البرجوازي كأشخاص وكعمال حقيقيين بل كان هو وزميله أنگلز يشيران إليهم بأولئك «الحمير الأغبياء» في رسائلهما المتبادلة. هؤلاء أثبتوا أنهم ليسوا حميراً أغبياء في پولندا (١٩٨٠) عندما استطاع عامل خامل الذكر يدعى ليخ فاينزا أن يبرهن بأن العمال الحقيقيين أكثر عقلاً وأعرف بمصالحهم من نبيّي الاشتراكية هذين - التايم ١٥ أيلول ١٩٨٠، لانس مورو Lance Morrow.

حينما نتحدث في الفصول القادمة عن مسيرة القومية العربية أو العقيدة القومية من الضروري التنبيه بأننا سنحصر الموضوع بتاريخها قطعاً، فمدارستها ومتابعتها ستتعدى حتماً حدودها وستكون هناك وقفات ودراسات لمجتمعات أخرى، فإرهاصات القومية العربية ونشاطها تعدّت إطار العالم الناطق بالعربية وخلّفت آثارها على مسيرات الشعوب الأخرى المجاورة. وسيكون للعراق النصيب الأوفر من دراستي هذه بطبيعة الحال بسبب التأثير الكبير الذي مارسته الفكرة القومية على تاريخ البلاد وتاريخ المنطقة بأسرها بل على مناحي حياة الفرد العراقي وتكوينه النفسي والاجتماعي والثقافي. ومن خلال دراستي هذه سأحاول متابعة الانحراف عن المبادئ الديمقراطية التي أرسيت عليها الدولة الجديدة بتعرية أفكار وأعمال الحكام وتصحيح ما جرى من محاولات التزوير والاختلاق والافتئات على الوقائع وتحطيم الخرافة وتمزيق براقع الجلال والمهابة عن الوجوه الشائهة وإظهار الزيف الدقيق الحبك في أحيان كثيرة والكشف عمّا اتخذ من أساليب وطُرق لستر الفضائح.

سأتابع مسيرة القومية العربية من موطنها الأول لبنان. ولن أترك صقعاً يدّعي بالعروبة ويتّخذ العربية له لساناً إلا كشفت عن مدى تأثير الفكرة في تاريخه الخاص وفي بلاد (شقيقة) أخرى.

ليس هناك تجربة أروع من تجارب المؤرّخ، ولا مسؤوليةَ أعظمُ من مسؤوليته في الانتصاف للموتى من ضحايا الفكرة الجامدة الاعتدائية القتّالة التي تسيّر بعض طلاب السلطة. في هذا القسم من التاريخ لا يستطيع من يلجه الادّعاء بأنه سيقف على الحياد بين الضحية والجاني. ومن يدّعي هذا هو كاذب على نفسه وعلى قرّائه. المؤرّخ الحقيقي ليس حكماً في مباراة لعبة كرة القدم ولا هو مذيع تلفزيوني يدير مناقشة خبراء في مسألة يلقي خلالها أسئلة استطلاع واستدراج فحسب وهو بهذا يفترق عن مدوّن الوقائع التاريخية وهو الإخباري الذي يسجّل الأحداث سرداً زمنياً فحسب من غير محاولة إبداء الرأي في ما يسجّل.

هذه فقرة من المقدّمة التي صدّرت بها كتابي «مغامرة الكويت: الوجه والخلفية[٣]».

ترتفع أصوات عديدة منادية بالحاجة إلى كتابة جديدة لتاريخ بلادنا العراقية بوضع

---

(٣) ط. ستوكهولم ١٩٩١ ج١. الص ٥-٦ [دار آزاد للنشر].

فيه حدّ للأكاذيب التي ما برحت تدقّ بلا هوادة على عقول أجيال متعاقبة من المواطنين. الإساءة إلى تاريخ العراق لم تكن قاصرة على الكتّاب العراقيين فقد أقدم عليها كثير من الكتاب الأجانب.

خرج العراق دولة بعد مخاض في مؤتمر فرساي وعُصبة الأمم دام خمس عشرة سنة وبفضل الحرب العظمى ١٩١٤-١٩١٨ إن كان للحرب فضل، وقبل ذلك لم يكن له وجود سياسي أو جغرافي ولا إطار ديموغرافي يستوعبه. وكانت نتيجة خلق هذه الدولة الجديدة أن حشرت داخل حدودها المرسومة قوميّات وطوائف مذهبية ودينية لا جامع تراثياً أو ثقافياً أو لغوياً يؤلف بينها، وتمّ ذلك دونما استطلاع لرغباتها. والدولة التي كانت لها الكلمة الحاسمة في صياغة هذا الكيان السياسي لم تجد ضرورة للاستطلاع ولم يكن يدور في مخيّلتها ما سيؤدّي إليه هذا الدمج من المتاعب والمآسي إذ كانت واثقة من حساباتها متفائلة أكثر من اللازم فراعت فيه ما يستقيم ومصالحها فحسب.

ووقع بعد ذلك ما كان لا بد منه، فقد قدّر لهذه الدولة المستحدثة بعد بضع سنوات فقط أن تعصف بها دوّامة الانقلابات القومية أو اللاقومية المسلّحة والعسكرية وقد أحصيت منها ثمانية عشر، وواجهت أيضاً ما زاد عن خمس عشرة انتفاضة مسلحة قُمعت بالقوة المجردة وبوحشية. وكان هناك فوق هذا ما يثبته الكتّاب والمؤرخون عن تلك الانقلابات والانتفاضات من آراء متباينة متناقضة تنعكس لا في كتب التاريخ والاجتماع بل في الكتب المقررة منهجياً في المدارس وهي كتب دائمة التغيير بتغيّر نظام حكم أو بمجرّد تغيير حكومي أحياناً. وكثيراً ما وجد طالب المدرسة كتاباً يُسحب من يده وهو في وسط سنته الدراسية ليوضع بدله كتاب آخر تناقض محتوياته محتويات الكتاب الأول وتسفّه رأيه في تلك المسألة أو هذه.

من جهة أخرى أرادت جمهرة من الكتّاب والمؤرّخين المتأخّرين العراقيين احتذاءً بكتّاب ومؤرّخين في البلاد الناطقة بالعربية تصوير تاريخ الدولة العراقية كساحة صراع للعقائد السياسية فحسب، ولاسيّما بين العقائد والنظريات الاجتماعية وبين مفاهيم القومية العربية. وهذا بالطبع يتفق واتجاه الحكومات العراقية التي كانت تريد أن تبني عراقاً موحّداً مصبوباً في قالب وطني، وكانت كلمة «الوطني» هي التي تدور على الألسن بدلاً من «القومي» في ذلك الزمن الذي كان عدد من العُقلاء والساسة البعيدي النظر يحاولون فيه بناء شعب متجانس من هذا الخليط العجيب الذي شاء الاستعمار البريطاني حشره ضمن حدود معلومة.

في هذا الزمن الذي أتحدث عنه أصدرت مطابع بغداد الحكومية كُتيِّباً منهجياً مُعمَّماً لجميع المدارس الابتدائية عنوانه «الأناشيد الوطنية» أُلزم الطلاب بشرائه وحفظ مقطوعاته وتلقّي ألحانها عن فم معلّم النشيد ومن دون مصاحبة الموسيقى. وكما ذكرت كان الحرص على تلقين هذه الأناشيد وترديدها في المناسبات جزءاً من الخطة السياسية الجديدة التي ترمي إلى التحوّل التدريجي عن «الوطنية» إلى «القومية». والتأكيد بأن العراق الجديد هو جزء من البلاد العربية التي جزّأتها دول أوروپا المنتصرة في معاهدات ووضعت بعضها كالعراق تحت الانتداب. كانت تلك الأناشيد من نظم ووضع الأديب والملحّن السوري المعروف فخري البارودي(٤)، وأذكر أنه استعار لها أوزاناً تتفق والألحان التي استعار معظمها من أغانٍ وأناشيد تركية شائعة، كنا ننشدها جماعياً في المناسبات والاستعراضات ما زال عالقاً بذهني مقاطع منها. وهذه نماذج:

بـالـقـــنـا والـقُـضُـبِ شيد مجدُ العـــربِ
رايـــة العُرب اخفقي في الأفـق الأزرقِ...

وهذه:

أنـــا جـنـــديٌّ أبـــيّ وطـــنـــيٌّ عـــربـــي
بـــبــلادي أتـبــاهــى لـيـتـنـي مُـتُّ فِـداهـا
بدمي أحـمـي حِـمـاهـا من جـمـيـع الـنُّـوَبِ

وهذه:

بلاد العــرب أوطانــي من الـشـــام لبغـــدانِ
ومـن نَـجْـدٍ إلـى يَـمَـنٍ إلـى مصـرَ فـ(تطوانِ)(٥)

وأمثالها كثير.

هذه الأبيات وألحانها(٦) كانت بشكل غريب تُتمتِمُ بها شفتاي متزاحمة في فمي

(٤) تعرّفت بمؤلف هذه الأناشيد بمحض صدفة. فقد قدِم الموصل وقام خلال ذلك بزيارة صديق له في المعاهد العسكرية العثمانية الدكتور داود الچلبي وكنت موجوداً خلال الزيارة، وكان ذلك في أوائل الخمسينيات. وأذكر أنه نوّه بكتاب ألّفه حول الموسيقى النظرية وكنت مهتماً بهذا.

(٥) (بغدان) هو العاصمة العراقية وواحد من أسمائها المعروفة تاريخياً، و(تطوان) مدينة معروفة في أقصى شمال أفريقيا.

(٦) لم يولَ اهتمام بالتاريخ الاجتماعي لكردستان العراقية وانصبّت جهود الكتّاب الكرد على تدوين =

وأنا أجتاز موقفاً صعباً يجري فيه امتحانٌ لمقدار ما تحويه من صدق ومقدار ما يؤمن به أهلها. أردد بعضها مثلاً وأنا عائد أجرّ ذيول الخيبة من سفارة دولة عربية رفضت منحي سِمة دخول أو من دائرة سفر عراقية وأنا أحمل جوازاً جديداً طُبع في رأس أول صحيفة منه اسم دولة أو دولتيْن عربيتين غير مسموح لي بدخولهما. وأترنّم بهذه المقطوعات أيضاً على أثر خروجي من نقطة تفتيش حدودي أو مطار عربي بعد فحص دقيق لأمتعتي ونظرات لا تخلو من دهشة وربما من ريبة تثيرها عراقيتي في موظف «عقائدي» والتطيّر والشكّ بسبب مهنتي التي يفصح عنها جواز سفري «محام وصحافي». ولن أنسى أن أتابع بشيء من الأسف والتهكم تلك الثقة التي يوليها حراس الحدود وضباط التفتيش العرب بأمانة المسافرين الأجانب فلا يوجّهون أسئلة فضولية إليهم ولا يفحصون أمتعتهم مثلما يفعلون بإخوانهم في الوطن العربي الكبير.

لا أرى سبيلاً لي إلا اتخاذ مدينة «الموصل» نقطة شروع. هذه هي مدينتي التي ولدت وقضيت معظم حياتي فيها. إنها تقع في أقصى ركن من حدود الوطن العربي الكبير الشمالية الشرقية تحديداً. إنّ ما مرّ بها وبسكانها من أحداث قد تقوم مثالاً لفشل المجهودات التي بذلتها سلطات الانتداب لبناء شعب عراقي موحّد وبمحاولة القضاء على النعرات الطائفية والدينية والعرقية. رغم أن الدَّعة والاطمئنان النسبي الذي عاشته هذه المدينة بعد دخول القوات البريطانية كانا يعانيان هزّات اجتماعية أو سياسية الطابع.

= التاريخ السياسي والتاريخ الأركيولوجي. ولذلك قد يتعذر علينا تقديم فكرة للقارئ عن حياة الفرد الكردي اليومية في تلك الفترة وبالخصوص مظاهر اليقظة القومية التي تتجلى بأفضل وأدق صورها في اتجاهات المدارس التعليمية. ومصادرنا في هذا الباب قليلة جداً بقدر ما هي سماعية، فقد علمنا مثلاً أنّ تلاميذ الابتدائيات في مدينة السليمانية (ثلاث على ما أظن) كانوا يلقّنون أناشيد بالكردية تفوح منها رائحة المشاعر القومية بنظم وتلحين محليين وبدون ممانعة الحكام البريطانيين في حين لم تحظ مناطق أخرى كأربيل ومنطقة بهدينان بصورة عامة بمثل هذا الامتياز. لم تكن أجهزة الإدارة ولا الأنظمة التعليمية تخضع للإدارة المركزية في بغداد، وبحسب بعض من استجوبتهم من المسنّين الذين كانوا تلاميذ ابتدائية في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات أكد لي أكثر من مصدر على قيد الحياة تتدرج أعمارهم في هذا الباب أن شعراء الكرد وهواة الموسيقى كانوا إذذاك يحاولون محاولات صادقة في تلقين أولئك الناشئة الصغار ما تجود به قرائحهم من الأناشيد الوطنية. وكدّ أحدهم ممن يقاربني سِناً ذاكرته ليقدّم لي مثالاً علق بذهنه لا يعرف من نظمه ولا من لحنه:

راچلةكين و وريا بووين رابةرين و هوشيار بووين بةرگي جةهالةتمان دران

[نهضنا، استيقضنا وانتفضنا وانتبهنا ومزقنا عنا ثوب الجهالة]

لم تكن مثل هذه الحياة مألوفة في أيام الحكم العثماني لاسيما في ساعات احتضاره الأخيرة. إلاّ أن الطبقة الواعية منها كانت في تلك الفترة بين أغلبية تدعو إلى الابقاء بإصرار على الوضع الراهن أي الحكم العثماني وبين أقلّية لا يؤبه بها ولا خطر منها لم تغزها «اليقظة القومية» إن صحّ التعبير إلا عندما بدأ النزاع الدولي على الولاية التي كانت الموصل عاصمة لها في ١٩٢٤-١٩٢٥.

جاء في مذكرات سليمان فيضي تحت عنوان «الموصل عام ١٩١٣»:

وصلت الموصل و... اتخذت لسكناي فيها داراً فتوارد عليّ القوم يهنّئونني بسلامة الوصول. وفي الأيام القلائل الأولى التي قضيتها في دراسة الوضع في هذه المدينة توصّلت إلى معرفة الحقائق التالية: إن المؤمنين بالقضية العربية قلائل جداً وإن المشتغلين فيها أقلّ وإنّ النزعة الدينية التي يتميّز بها أهل الموصل تقف حائلاً بينهم وبين التمرّد على الدولة العثمانية ذات الصبغة الإسلامية والخلافة المقدسة وإن سطوة الحكومة الاتحادية فيها أقوى من غيرها من مدن العراق وإن مدير البوليس فيها (خالد بگ) اتحادي متطرّف ملأ طريقي بالأشواك وأحاطني بالجواسيس من كل جانب و... ذهب إلى محمّد باشا الصابونچي وابان له خطري على الدين والخلافة...[٧]».

ومع هذا فالموصليّون بعربهم ومستعربيهم، بكردهم وآشوريهم، بيهودهم ومسلميهم ومسيحييهم، ما كانوا يلاقون أيَّ عقبة في التفاهم والتعامل اليومي. إذ إن العربية بقيت اللغة العامة المشتركة Lingua Franca ولم تستطع اللغة التركية لغة الفاتح الحلول محلها بأي درجة.

(٧) مذكرات سليمان فيضي. الص ١٤٢-١٤٤. الطبعة الثالثة - لندن: كان قد أُرسل مندوباً عن جمعية الحرية والائتلاف في البصرة للنظر في إمكانية تأسيس فرع سرّي لها في الموصل. وهو يعود ليؤكد في موضع آخر (ص ١٤٣) ضعف الشعور القومي في المدينة «سبق أن قلت إنّ عدد المؤمنين بالفكرة العربية لا يتجاوز عدد أصابع اليدين» ثم يستدرك ليقول إنه نجح في كسب حوالي أربعين (عدّدهم بالأسماء) إلا أنه ينقل فقرة من [مقدرات العراق السياسية] لمؤلفه [محمد طاهر مصيب العمري] ج ٣ ص٤٥. ط بغداد ١٩٢٥. وهذه هي «نستطيع القول إن أول جمعية عربية تأسّست في الموصل هي الجمعية السرّية التي سعى بتأسيسها الأستاذ سليمان فيضي الموصلي الذي كان قد جاء الموصل سنة ١٩١٣ آتياً من البصرة. بيد أن الجمعية قد تضاءلت عقب تشكيلها بدون أن تأتي بأي عمل».

كان يثير في نفسي العجب أن أتبيّن السرعة التي استطاع بها اللاجئون الأرمن تعلُّم العربية وكانت تميّزهم بين سكان المدينة لكنةٌ خاصة بهم لا تجدها عند غيرهم من السكان الموصليين غير المسلمين أو غير العرب.

وقد استقبلت الموصل عشرات القوافل الأرمنية التي كُتبت لها النجاة من رحلتها الشاقّة الطويلة أثناء الحرب. وعاملهم أهلها معاملة انسانية ولم يعترض المسلمون العرب سبيل الطوائف المسيحية العديدة في المدينة عندما خفّوا لمساعدة إخوانهم في الدين حتى أنهم استجابوا لرؤسائهم الروحانيين الذين حثّوهم على الزواج بالفتيات اللاتي فقدن آباءهنّ وذويهنّ وعُدِمْنَ المُعيل.

واستطاعت المدينة الخروج من سنة القحط والمجاعة(٨) اللذين اجتاحا جنوب الإمبراطورية العثمانية أثناء الحرب. كما أنها لم تحقد على تلك الحكومة التي انتزعت أولادها وشبابها الغضّ في ليلة ليلاء(٩) واستاقتهم إلى جبهة القفقاس التي ابتلتهم ثلوجها ومجاهلها الجبلية ولم يعد منهم إلا ما لم يتجاوز العشرة والعشرين قدِموا

---

(٨) أطلق الموصليون عليها اسم (سنة الليرات الثلاث) وهي السنة التي بلغت فيها المجاعة أوجَها والناس يتساقطون موتى جوعاً في الشوارع. فبات سعر «الوزنة» الواحدة من القمح وهي ملء تنكة نفط وقد تبلغ زنتها ٢٠ كيلو [على سبيل المقارنة كان متوسط مرتّب موظف الحكومة البسيط لا يزيد عن ليرة ذهبية واحدة شهرياً]. وفي الطبعة الخامسة عشرة من الإنسكلوبيديا البريطانية (فصل الحرب العظمى) إشارة إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية الخيالي في الإمبراطورية العثمانية إلى حد ١٦٧٥٪. بلغ الجوع حداً لم يبق كلب أو هرة في المدينة فلجئ إلى لحم البشر والجيف. وفي العام ١٩١٥ نُفّذ حكم الموت شنقاً في ساحة (باب الطوب) برجل وزوجته. كانت الزوجة تغري الصبية والأطفال الجياع المشرّدين بالحلوى أو الطعام وتقتادهم إلى منزلها حيث يقوم الزوج بذبحهم وطبخ لحومهم وبيعها لمرتادي مطعمه ويدفنان البقايا والعظام في سرداب منزله. [أذكر أني قرأت في سنوات الصبا وقائع هذه المأساة مفصّلة في تقرير ضافٍ لأحد الموصليين نشرته مجلة الدنيا المصوّرة التي تصدر عن دار الهلال في العام ١٩٣١ أو ١٩٣٢ مع صور للمشنوقين].

(٩) في أوائل ١٩١٦ أصدر وزير الحربية أنور باشا قراراً بإلغاء البدل العسكري وسوق كل من بلغ سن الخدمة القانونية. بكيفيةٍ ما علم الموصليون بأن المجنّدين سيساقون إلى الجبهة ليلتها فهرع ذووهم إلى الثكنة لتوديعهم وداعاً أخيراً (في العادة إن المساق إلى الجبهة لا يعود) راح كل ثاكل يبحث عن أخ له أو ابن أوصديق عزيز أو قريب وكانت ليلة سوداء لا ينيرها قمر وصعب التمييز ولم يسمح بالنداء والترجيع فاستعان القادمون الوالهون بأعواد الثقاب لتمييز الوجوه والتعرف على أحبائهم. واشتهرت الوحدات التي سيقت ليلتذاك باسم (طابور أبو شخاطة) [والشخاطة هو الاسم الدارج في الموصل لعلبة الثقاب].

وحداناً لا جماعات يحملون ذكريات الأهوال التي عانوها. وبعضهم لم يوفّق إلى العودة إلا بعد مرور عدة سنين على نهاية الحرب.

وولاء هذه المدينة للترك - وافتقاد أهلها الشعور القومي- كان يبدو أبداً بطابعه الديني ولا دخل للولاء القومي هنا. ودونك كاتباً بريطانياً كانت المدينة مقراً لبعثة تبشيرية دينية رئسها حيناً من الزمن قال:

«إنّ الدين هنا ذو طابع جهادي حماسيّ والواقع هو أن هذه المدينة هي من أشدّ المدن في الإمبراطورية تعصّباً وبالتأكيد البُقعة الوحيدة التي رأيت الرجال في شوارعها يبكون السلطان عبدالحميد ويندبونه بحُرقة قلب، وفيما كانت البهجة قد عمّت أرجاء الإمبراطورية بسقوط الطاغية، أقيمت في الموصل مناحات وتعاز تتحدّى الحكومة وسمعت خلالها هذه العبارة الأليمة: اليوم هوى ركن من أركان الإسلام[10]».

وعلى أغلب الظن أن المدينة لم تكن إلى جانب ضمّها وضمّ الولاية المعروفة باسمها إلى الدولة الجديدة العراق وإنما كانت تريد إبقاءها للأتراك. يقول السيد ادموندز الذي عُيّن ضابط ارتباط بلجنة التحقيق التي أرسلتها عُصبة الأمم لتقديم دراسة وتقرير حول عائدية ولاية الموصل:

«. . . إن منزلة الدولة التي حكمت هذه البلاد قروناً عديدة ما زالت سامية في القلوب، زادها النجاح المذهل الذي حققه مصطفى كمال وكانت الدعاية التركية تعد بقرب العودة وتتوعد بالعقاب الصارم كلّ الخونة. ولم يعترها وهنٌ ولا وجفٌ حتى جعلت الأهالي في وضع الأمل الدائم الحيوي وفي حالة الفزع والقلق بحسب الأمزجة. وكان ثمّ عدد كبير أشبه بالقطارات المشحونة بالمتفجرات لا تحتاج لغير شرارة واحدة لتفجّر اللغم وتصعد بنثيره إلى طبقات الجوّ العليا وتجرف أعضاء اللجنة والمذكرات والإدارة المحلية وكل شيء وفي هذا يكمن أفضل فرصة للمراقب التركي. ولقد علمنا بمخطط تمّ بتوزيع آلاف الأعلام التركية في الولاية لنشرها على نوافذ منازل الموصل

---

(١٠) يحسن بالقارئ قراءة الفصل الرابع «أعباء نينوى اليوم: الموصل» من ترجمتي لكتاب المؤلف: مهد البشرية الحياة في شرق كردستان (الص ٦١-٧٤) الطبعة الثالثة. دار نشر ئاراس - أربيل ٢٠٠٠.

وغيرها من البلدات والمدن التي ستزورها اللجنة. . . وتبيّن لنا أن اختيار (ناظم بگ) دليل على أن الترك بنوا كل آمالهم على الدعاية والدسائس لا على المنطق العلمي وأنّ إصرار الحكومة التركية على الاستفتاء العام هو مما ينحو منحى الدعاية إذ ليس ما يؤثّر في هدم كيان السلطة أمام أعين السكان مثل مجيء مجموعة لا تدين بطاعة لأحد وتعتبر نفسها فوق القومية لتسألهم هل هم مرتاحون من حكامهم الحاليين الذين ربما ضايقوهم في جباية الضرائب أو أنزلوا عقوبةً بإخوانهم أو أقربائهم لحادث قتل أو جريمة قطع طريق أو لمجرد رغبتهم في استبدال أولئك الحكام بغيرهم. وتتضاعف المصيبة عندما تكون الاغلبية الساحقة من هؤلاء السكان جهلة أميين يأكلون وينامون بسلاحهم الذي لا يفارقهم في الحالتين مع قلة اكتراث بحياة البشر. . . وقبيل موعد وصول اللجنة صدرت تعليمات من بغداد بتأليف ما سُمّي بلجان الدفاع الوطني في كل أنحاء البلاد لإثارة المشاعر الوطنية وإحياء الحفلات الدينية وإرسال البرقيات للبرهان على عزم المواطن الثابت في الدفاع عن أوطانه المقدسة حتى النفس الأخير[١١]. وفي الموصل بالذات حيث تصاعد الاستنكار والسخط إلى أقصى درجاتهما بمجرد إلقاء الغبار حول (عربية الموصل) طُبّقت التعليمات بحماسة. وأُرسل من بغداد شخصيات موصلية بارزة للمساهمة في الحملة. إلا أن المندوبين أعضاء لجنة التحقيق لم يكونوا أغبياء حينما باشروا عملهم فلم يلبثوا قليلاً حتى اكتشفوا أن (لجان الدفاع الوطني) وكتل الوطنيين العراقيين تضم أعداداً كبيرة من المشاغبين والوصوليين والانتهازيين الكثيري الحركة والصخب وهو نوع متوفّر دائماً في الشرق

---

(١١) جاء في «مذكرات العقيد والاس لاين في العراق ١٩١٦-١٩٤٤ الموسوم [كرد وعرب وبريطانيون: لندن ص١٤٨ (Kurds, Arabs and Britons The Memoirs of Wallace Lyon in Iraq 1918-1944): «لاحظنا -في أربيل- وصول عدد من ضباط الجيش العراقي إلى المدينة بثياب مدنية فاستدعيتهم إلى مكتبي (وكان لاين ضابط أربيل السياسي) واستجوبتهم عن سبب وجودهم في أربيل فاعترفوا بكل فخر واعتزاز بأنهم مرسلون من قبل البلاط لإثارة الدهماء ضد الترك. وهم يقترحون كأول خطوةٍ يخطونها وعند أول فرصة أن يملأوا وجوه الترك هؤلاء بصاقاً. وكان هذا خلافاً لوجهة نظري تماماً وماوجدت فيه أية فائدة فقد يلحق مثل هذا السلوك ضرراً بالغاً فطلبنا منهم العودة إلى بغداد ففعلوا لأننا قابضون على ناصية الحال. وأطلقت آهة ارتياح عندما أبلغني چارلس ليتلديل (مدير الشرطة) بأنه تخلّص منهم».

الأوسط يؤجّج نفوسهم كرههم الأوروبيين بصورة عامة ويزيد في وقيده التعصّب الديني. في أحيان كثيرة تسأل هذه العناصر المتحمّسة سِرّاً للجانب التركي الذي يفضّلونه فيكون جوابهم أنهم جاؤوا في الحقيقة لا ليدافعوا عن حق العراق بضجتهم المفتعلة، لأنهم بالأساس يريدون تركيا! ولقد شاهد اثنان من المندوبين مبارزة شخصية بالسكاكين بين شاب وطني متحمّس من بغداد يدعى إبراهيم كمال وآخر من وجهاء الموصل العرب (أصبح إبراهيم هذا وزيراً ممتازاً لوزارة المالية ولو امتد به العمر لبلغ حتماً رئاسة حكومة)[١٢]».

بقي الجو في الموصل متوتّراً. وكان الوفد التركي واثقاً كل الوثوق من أنصاره في الموصل وعمدوا إلى التحرك في الشارع. ويذكر ڤيرسين (رئيس اللجنة) مثالاً ونموذجاً لاستجلاب عطف الموصليين إلى تركيا:

«بعد ظهر ذلك اليوم خرج الكونت تيليكي (أحد المندوبين) مع بعض المعاونين للتجوال في أنحاء المدينة فانطلقت على الفور تظاهرات مؤيّدة للأتراك فتدخلت الشرطة وعمدت إلى تفريق المتظاهرين بالضرب وكانت أولى المتاعب التي أفضت إلى نزاع خطر بيننا وبين الشرطة والسلطات الإنگليزية».

ويدوّن عن الواقعة المحافظُ المعيّن حديثاً للواء الموصل (عبدالعزيز القصّاب) ملقياً اللوم على عاتق الأتراك في المظاهرات التي خرجت. يقول:

«غادرت الدائرة ماشياً... (كانون الثاني ٢٧-١٩٢٥) فعند وصولي إلى ركن الثكنة العسكرية شاهدت جماعة من الأهلين يربو عددهم عن الخمسين وبينهم جواد پاشا في بزّته الرسمية ومعه عضو اللجنة الكونت تيليكي وهم ينادون بالتركية (تحيا تركيا، يحيا قائدنا الكبير) «فاستغربت الوضع...» (المذكرات).

إلاّ أن القصّاب كان مزوّداً من جهته بتعليمات تقضي بتشجيع العناصر الوطنية

---

(١٢) كرد وترك وعرب من ترجمتنا [الفصلان الأخيران: لجنة الموصل] الطبعة الثانية ئاراس - أربيل ١٩٩٩. وتراجع الص ٤٠٣-٤٠٦ من عين الفصول المثبتة في كتابنا «يقظة الكرد» دار ئاراس. أربيل ٢٠٠٢.

الأخرى التي تحرص على ضمّ الولاية إلى العراق. وقد علمتُ أنه استجار بما كان يُعرف آنذاك بحزب الاستقلال وجمعية الدفاع والحزب الوطني، وهي أحزاب ومؤسّسات لا تحظى بأي شعبية وإنما كانت قاصرة على لفيف من الوجهاء والأسَر البارزة في الموصل. ولكنّه اهتمّ بطلاب المدارس والدعاة الذين أرسلتهم بغداد. وقد عرفنا غير إبراهيم كمال الموصلي - وقد ورد ذكره - الأديب والشاعر والصحافي الساخر نوري ثابت المعروف باسم جريدته الشهيرة حبزبوز، وهو من أقرباء القصّاب ويغلب على ظنّي أن قريبه هو الذي استدعاه فنظم ولحن مقطوعات لطلاب الثانويات الذين كانوا في حينه نشطين بجمعيّتهم في إخراج المسيرات والمظاهرات المعاكسة(١٣). واشتهرت بين القصائد والأناشيد قصيدة لشاب ناشئ اسمه إسماعيل فرج بالمناسبة (أدركته وهو مدرّس للعربية في ثانوية الموصل المركزية (١٩٣٨-١٩٣٩) ولم يكن يدرّس صفنا ولكنّ دماثة فيه واستعداداً مخلصاً للإرشاد والمساعدة قرّبني إليه فكنت أعرض منظوماتي عليه فيُعمِل قلمه فيها ويشير إلى أخطائها. وهذا مطلعها:

لستِ يا موصل إلاّ　　دار عزّ وكرامة
أنتِ فردوس العراقِ　　حبذا فيك الإقامة

كانت كما يغلب على ظني تحفل بالعواطف الوطنية والقومية العربيّة. إلاّ أن النتائج التي حصلت عليها اللجنة، وعندما تمّ استطلاع آراء المبرزين ووجهاء القوم فيها، تبيّن أن المسيحيين وسوادهم واليهود وسوادهم كانوا إلى جانب أكراد الولاية بخصوص رفع نير الأتراك عنهم، وقبول حكم الإنكليز ولم يكونوا بطبيعة الحال على معرفة بأن القول الفصل في ذلك لم يعد لا لهم ولا للإنكليز وإنما لغالبية سكان الولاية الأكراد وبضمنها عاصمة الولاية بطبيعة الحال.

لم يكن مردود النتائج التي تلقتها اللجنة الدولية حول انتمائية الموصل وأهلها لأحد الطرفين مشجعاً للإنكليز وزبونهم العراقيين فقد تبيّن أن الغالبية منحازة إلى الترك وهم سراة القوم ووجهاؤهم وطبقة الموظفين ومن يسير في ركابهم ويعيش بفضل

---

(١٣) عُرفت باسم جمعية النهضة وكان يرأسها علي حيدر سليمان وهو كردي النجاد تولّى عدة وزارات وسفارات خلال العهدين. كنا نجتمع كثيراً في بيروت فيتحدث لي عن رغبته الشديدة في تدوين مذكراته فأشجعه وأعرض نفسي له مرحباً. إلاّ أنه توفي ولم يفعل [ذكر من أعضاء جمعيته يونس السبعاوي الذي خلفه في رئاسة الجمعية وعبدالله بكر الذي استوزر عدة مرات، وعارف توفيق].

وجودهم وكثير من أصحاب المهن الثابتة والحرفيين باستثناء المسيحيين واليهود. ولم تُستطلع آراء كُرد المدينة الساكنين فيها سكنى قرار وقُدّم بعض من سكانها إلى اللجنة بوصفهم عرباً، على أن القول الفصل الذي انتهى بالنتيجة الحاسمة كان في كردستان عموماً وفي السليمانية خصوصاً الأمر الذي دفع أدموندز ضابط الارتباط في اللجنة وهو ممن لا يحتفظ بودّ كبير للكرد وطموحهم - وهم لا يعدّونه من أصدقائهم - إلى أن ينتزع هذا القول من فمه مصحوباً بتنهيدة ارتياح:

«إن زيارة اللجنة (للسليمانية) أعطت زخماً شديداً للشعور القومي الكردي الذي جرف في طريقة عدداً كبيراً من المستائين إذ كان أكثرنا تفاؤلاً يتوقع وقوفهم إلى جانب تركيا. فإذا بهذا الشعور يدفعهم إلى المعسكر المعادي للترك. إن الاستجوابات الطويلة كادت كلها وعلى حدّ سواء تكون ذات اتجاه قومي غلاّب لكنها لم تتخذ طابع الانفصال بصورة عامة... إن كرد السليمانية وجهوا ما يمكن أن يوصف بالضربة القاضية في المعركة الدائرة في سبيل المحافظة على كيان العراق وهم على إدراك تام بما فعلوه.

أترى ستفتح الحكومة العراقية عينها بهذه المناسبة وتتبنّى سياسة كريمة بعيدة النظر إزاء الكرد؟

إن تقرير لجنة العصبة جاء مؤيّداً لأماني الكرد. فبعد أن أنقذوا العراق في لحظة من أخطر اللحظات مرّت به باتخاذهم قرار تصديق المعاهدة الانكلو - عراقية في ليلة ١٠ حزيران ١٩٢٤ التاريخية، عادوا لينقذوا العراق من تجزئة قتّالة بوقفتهم الخالدة في السليمانية اليوم. إن قادة الرأي العام الكردي يحق لهم ان يختالوا على الملأ ويفخروا بأنفسهم ويمنّوا على دولة أبوا أن يكونوا لها مواطنين أذِلّة».

لكن كيف عاملهم القوميون العرب حكام العراق فيما بعد؟[١٤].

* * *

منذ نعومة أظفاري وانتقالي من مدرسة مسيحية إلى مدرسة كل طلابها مسلمون لم أشعر بأي حرج من التآخي والعشرة مع أقران وزملاء مسلمين في صفي الدراسي وغير

---

(١٤) كرد وترك وعرب (س. ج أدموندز) الترجمة العربية من قلمنا. الص ٣٨٦ - الطبعة الثانية. ئاراس - أربيل.

الصفوف. وكان والشيء بالشيء يذكر نصف أساتذتنا إن لم نقل معظمهم أحياناً مسيحيين، ولم يكن هناك فرق في التعامل من الاثنين، كانت روح العدالة والإنصاف تسود الدراسة بأسمى معانيها. وقد اقتبلت كما اقتبل غيري من تلاميذ عهد شبابي الأول دون بحث جدّي عن هويّتي القومية. وفضّلت - كما قلت - التآخي مع رفاقي المسلمين على التآخي مع رفاقي المسيحيين وعشقت اللغة العربية وصرت أكتب دروسي في الإنشاء كتابة صحافي متمرّس إلاّ من أخطاء لا يجيز معظم أساتذة اللغة اعتبارها خطأ يحاسب عليه. وفي خلال سنتين دراسيتين في مدينة الناصرية عشت في محيط دراسي مسلم صرف. فاشتقت إليه وظل يدركني حنين إليه لا يقاوم طوال حياتي وإن لم استصفِ لي منه صديقاً كما كان الأمر في الموصل. إلا أن مسألة الخليط السكاني في هذه المدينة التي ولدت فيها كان يسلمني إلى كثير من التفكير عندما بدأت القضية العربية - وعروبة العراق تحتل جزءاً من تفكيري بولوجي أبواب الحياة العامة وممارستي مهنة المحاماة والصحافة. كان الجميع يعرف العربية ويتفاهم بها واضطر سكان القرى المجاورة، مسيحيّتها وتركمانيتها ويزيديتها، إلى التخاطب بها والتعامل واتقان التعبير بها عمّا يريدون. نادراً ما كنت تسمع اللسان الكردي في السوق ولا تجد السريانية مكاناً لها هناك - غير التخاطب بها أحياناً بين جماعة من قومية واحدة أو في البيوت. وفقد كلُّ مسيحي عاشت أسرته في الموصل زمناً طويلاً أيَّ صِلة له باللغة الكلداشورية (وهي لهجة آرامية) فلا تسمعها إلاّ وهي تُرتَّل في الكنائس وفي الصلوات التي نردّدها ونحن صغار ولا نعرف معناها.

وجدت نفسي في كثير من الأحيان وأنا جالس في شرفة مكتبي المطلّة على أهمّ شوارع المدينة أتفحّص سحنات الذاهب والآيب، فضلاً عن تكوينهما البدني على ضوء ما كنت أوعاه من مطالعة جدّية في علم الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) ممتزجاً بما اختزنته ذاكرتي من تاريخ المدينة وهو كثير. فأرى بين المارة ذوي العيون الزرق والبشرة البيضاء والشعر الأشقر إلى جانب العيون الدعج أو المنحرفة اللوزية التي تذكّرك بعنصر المغول في أقصى شرق آسيا. وإلى جانب الشعر الذهبي هناك الأسود الفاحم والشعر الأحمر. وهناك الشعر المسترسل والشعر الأجعد والبشرة الحنطية والزيتونية إلى جانب السمراء والحمراء المطرزة بالكلف إلى ما يقارب سواد الأفريقي، ويمر بك خلال دقيقة أو أقلّها صاحب الأنف الطويل المستقيم أو الأفطس أو الأقنى وذو الوجنات البارزة والجبهة العريضة يتبعه ضامر الوجنتين ضيّق الجبهة بشفاه غليظة

نافرة أو رقيقة صغيرة. كل عنصر وكل قومية تتمثل في هذا الخليط العجيب الذي هو بحق جنّة لعالم في الأجناس البشرية. لا شك أنّ الناظر لن يخفي عجبه من هذه الهيئات الجسدية رغم وحدة اللباس والتقاليد واللغة على الخصوص. كيف نبتت جذور القومية العربية في هذا الخليط البشري غير المتجانس خلقاً وربما مزاجاً. وكيف وجد أصحابها لأنفسهم أرضية للتعايش بسلام بعضهم مع بعض؟

ما أظنّ بُقعة من الأرض كالموصل وأرباضها داستها أقدام مثل هذا العدد العظيم من الفاتحين يسكنون فيها ردحاً من الزمن ليبذروا بذرتهم في أرحام اهاليها قبل أن يُرغموا على تركها. وليس المقام هنا مقام تفصيل في هذا الأمر. وأنا اخترتها مثلاً لا لكونها مسقط رأسي وأنا أعرفُ الناس بأمرها ففي رسالتي هذه لا تجدني أميّز تمييزاً أنانياً بخير أو بشرّ بين هذه المدينة العربية (أو مدينة العروبة كما يحلو لبعضهم تسميتها) وفي أوقات مخصوصة، وبين سائر المدن الأخرى في البلاد الناطقة بالعربية من حيث السعة والمكانة والأهمية. بل لأن الأقدار وأطماع البشر الدنيا اختارتها لأول امتحان قومي عربي. خرج بشكل ثأري انتقامي ليودي إلى مذبحة كبرى. مذبحة الآثوريين.

أقام الآثوريون الغابرون هذه المدينة بمثابة قلعة في ضواحي عاصمتهم نينوى الغربية ثم ذهبوا إلى غير رجعة. ولم يمر الفاتحون المتعاقبون بعدها وأغلبيتهم مكثت ردحاً من الزمن وأسكنت قومها سكنى قرار. مكث فيها الماديون (٦١٣ق.م) وسمحوا للآراميين القادمين من سورية بدوام الإضعان إليها. وخلفهم جاء الأخمينيون الفرس ولم تكن اللغة الفهلوية القديمة بمفرداتها القليلة قادرة على هزم الآرامية (السريواشورية الكلدانية) ثم طردهم اليونانيون خلفاء الاسكندر المقدوني وبقيت ثلاث قرون تحت حكمهم وقد جاؤوا بكثير من أسرهم وذويهم ليسكنوا تلك الأنحاء، كما يحدثنا التاريخ عن وجود عشرات الألوف من أهل السبي اليهودي منذ عهد سرجون وسنحاريب الآشوريين (القرن الثامن والتاسع قبل الميلاد). وقعت بيد البيزنطيين ثلاثة عقود من السنين. وكانت أسرٌ كثيرة من مختلف الأجناس تقصد المدينة للاحتماء بجدرانها المنيعة عندما يجتاح فاتح قراها والضواحي التي تحيط بها ويعمل فيها قتلاً ونهباً وناراً، قبل أن ينتزعها العرب وتنزح إليها أو تهاجر بعض قبائلهم - ولم يعرف سكانها فاتحين أرحم من هؤلاء أصحاب الدين الجديد طوال حياة مدينتهم هذه وقبل الاحتلال البريطاني. فخروج يد العرب المسلمين عنها بعد قرنين من الزمن ووثوب حكام تركمان ومغول وأكراد، ثم محاولة فارسيّة لفتحها في القرن السادس عشر، دفع الأتراك العثمانيين إلى

فتحها كأول ثَغر من ثغور العراق الكبرى وبقوا فيها ما يزيد عن ثلاثة قرون.

لم يكن إسلام الأتراك العثمانيين ذا طابع جهادي كإسلام العرب وإلى هذا يعود سِرّ بقاء الجالية المسيحية بعددها الكبير في الموصل خاصة والعراق عامة تعيش بأمن ودعة. فهم لم يحاولوا كأخوانهم وبني قومهم التركمان وأقربائهم المغول قبلهم تمصير المدينة وتشجيع قومهم على النزوح إليها إلا أنهم أغنوا أنسالها برجال حربهم وبالحاشية والأتباع الذين كانوا يرافقون ولاتهم وحملاتهم من شركس و جيورجيين وسلاف وچچن وبلغار ويونانيين وداغستانيين وكان هؤلاء قِوام الجيش العثماني الذي عرف بالإنكشارية[١٥] فضلاً عن أفارقة وعرب من اليمن وحضرموت استخدموا بمثابة عبيد وأرقّاء في أعمال منزلية.

طردت اللغةُ العربية كلَّ لغة سبقتها إلى تلك الأنحاء وقطعت طريق النموّ والانتشار على لغات كل الأسياد الذين حكموها بعدهم ولم تقوَ اللغة التركية التي حكم أصحابها المدينة ثلاثة قرون متواصلة على منافستها بل وقعت ضحية لها، وأخذت عنها أحرف الكتابة وأصبحت آلاف من الكلمات والمصطلحات والتعابير العربية جزءاً لا يتجزّأ من لغتهم في التخاطب والكتابة. حتى ليخيّل إليك وأنت ممسك بكتاب تركي، أأنت تقرأ في كتاب عربي طرّزه كاتبه بمصطلحات تركية جهلاً منه أو مجاملة؟

ويهتف متضايقاً حانقاً أكثرُ من واحدٍ من جهابذة اللغات واللهجات السريانية - الآرامية مُقِرّاً: «العربية قتلت لغتي»! وسأل كاتب هذه السطور واحداً من أشهر كتاب الفارسية وعلمائها:

«ما الذي لا يحملكم على التخلّص من الكلمات العربية الرائجة في معجمكم وكتابات كتّابكم؟ كما فعل كمال أتاتورك؟

أجابني ضاحكاً:

«سنقضي إذن على اللغة الفارسية فجمالها ورصانتها إنما كانتا بسبب اقتحام العربية أرضها. وصاحبك أتاتورك حاول كثيراً إلا أنه فشل فهناك مئات من الكلمات العربية يستخدمها التركي. ولا تسله من أين أتت وهو مستعد لجدالك بأنها جاءت مع أسلافه من قلب آسيا».

---

(١٥) تصحيف من تعبير يني چري: أي الجُند الجديد. أهلكهم السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) في ١٨٢١.

سمت هذه اللغة وارتفعت لا بحماية فاتح أو بطاغية فرضها على مجتمع ما بالتهديد بالعقاب فهي من جهة لغة القرآن وهو كتاب الوحي الذي أُنزل على نبيّ من أنبياء الله ولم يختصّ بشعبٍ أو بأمّةٍ معيّنة. وهي تمتاز من جهة أخرى بميزة حرّمتها اللغاتُ الحديثة وهي قابلية الاشتقاق أعني أن جذر الكلمة فيها يمكن تغيير مفهومه بزيادة أحرف معيّنة بحيث تبدو الكلمة المزيدة وكأنّها لا علاقة لها بأختها. تلك هي المرونة العظيمة التي جعلتها مصدراً لجميع اللغات التي احتكّت بها. ولم يقتصر تأثيرها على هذه اللغات الشرقية التي ذكرتها بل تعدّاها إلى لغات أوروبية حيّة. ولا يتسع المقام هنا لتحليل تلك الرابطة العظيمة والحبّ لتلك اللغة عندما يلتقي اثنان من مخاطبيها في بلد أجنبي ويكتشفان قبل كل شيء وقبل أن يعرف واحدهم شيئاً عن بلاد الآخر ودينه أن هناك رابطة بينهما أعمق من القومية وأقوى من الدين.

وتتكشف قدرةُ هذه اللغة بميزاتها وعملية الاشتقاق الدؤوبة فيها بقابلية الترجمة الدقيقة إليها من لغاتٍ أخرى صعبة. وهي بذلك كالدين الإسلامي الذي (ولاستبق القول عنه) يكشف أحياناً عن مرونة عظيمة، وبنوع خاص عن استعداد أكثر في مماشاة روح العصر والتفاهم والحلول الوسط مع اتجاهات الأنظمة أكثر مما نجده عند اليهودية المتزمّتة أو عند البروتستانت أو عند الكاثوليك المسيحيين إلى حدٍّ ما. فقد سمح علماء الدين المصريون مثلاً بتحديد النسل. على أنهم كانوا أحياناً يقفون موقفاً صلباً معانداً لتلك الحكومات التي تتردد في مواجهتهم مواجهة علنية. أو باتوا هم أصحاب الرجعة والتشدد المتعصّب بحكم كونهم خدّاماً للسلطة كالذي يحدث اليوم في إيران وفي السعودية[16].

على أن مسألة العلاقة بين الديانة والقومية سنعود إليها بتفصيل أكثر ولنقف هنا عند هذا الحدّ.

هناك شواهد على الطروء القومي هنا، وأنه جاء متأخراً عن بغداد والبصرة،

---

(١٦) شدّد عبدالناصر في أوائل الستينات من حملته على الشيوعية والشيوعيين عموماً وخصّ بها شيوعيي مصر. وأذكر أني بالمناسبة اطّلعت على الفتوى الشهيرة التي أصدرها شيخ الأزهر (أو ربما مفتي الديار المصرية) في العام ١٩٦٣ التي تحرم زواج كل من كان شيوعياً من الطرفين وتعتبر الزواج باطلاً غير واقع قانوناً (في حدود ذلك الوقت نشرت الصحف ووسائل الإعلام الغربية البيان الذي أصدره بابا روما، بعدم تأثر الرابطة الزوجية بالعقيدة السياسية التي يعتنقها أحد الزوجين، لا دينياً ولا قانونياً).

ومتأخراً جداً عن دمشق وبيروت. ثمة شواهد تاريخية ومحلية عملية حملت كثيراً من الكتّاب على إطلاق كلمة المدينة «المحافظة» عليها، وكذلك بهدف تفسير التحول الفجائي لمسلميها عن الولاء التركي إلى «الوطنية الأقليمية» التي اتسعت لتشمل القومية بمعناها المجرد الواسع. فبتحريض من الوطنيين العرب الذين أصبحوا «محافظين» جداً (وبينهم محافظون أتراك قدماء كثيرون) وهم من بقايا الجمعيات العربية السرّية التي كان لها نشاط ضيّق متفاوت في أيام الحكم العثماني الأخيرة، وبعد أن أُعلن دولياً ضمّ ولاية الموصل إلى العراق الجديد، وجدنا المدينة بتأثير من رجال الدين ترفض قبول «فيصل» ملكاً، واعتلى الخطباء والأئمّة المنابر مقبّحين قرار نصبه. ولذلك هدف الملك الجديد في أول زيارة له إلى المدينة إلى خطب ودّ العلماء وكسبهم إلى جانبه وحملهم على العدول عن مقاطعة البيعة له والإقبال على عملية الاستفتاء. وبلغ به التهافت على الحكم أنه قصد - كما قيل لي - دار كبير هؤلاء بزيارة خاصة وكان هذا السيد يجد نفسه أحقَّ بها منه(١٧).

---

(١٧) وربما كان يطمع بالأقل منها. جاء ذكر «العبيدي» في مراسلاتي مع الدكتور مجيد خدوري المؤرّخ العراقي الشهير نزيل الولايات المتحدة وعميد كلية الدراسات الدولية في جامعة هوبكنز. جاء في رسالته المؤرخة في ٢٠ من آب ١٩٩٧ ما يلي: «كان الحاج حبيب أفندي في الأستانة قبل الحرب العالمية الأولى يؤيد جمعية الاتحاد والترقي التركية بينما كان الضباط العرب في الأستانة يدعون إلى استقلال البلاد العربية. كان فيصل (ملك العراق فيما بعد) عضواً في البرلمان العثماني ممثلاً للبلاد العربية ويسعى مع العرب لاستقلالهم. أما العبيدي فكان يؤيد الأتراك ضدّ الجمعيات العربية التي تؤيد الحركة العربية. لذلك حين اعتلى فيصل عرش العراق وتألفت الحكومة العراقية عاد حبيب أفندي إلى الموصل وكان يؤمل أن يعينه الملك عضواً في مجلس الأعيان، ورغم ما سعى للحصول عليها يؤيده بعض إخوانه في الموصل رفض فيصل ذلك ولم يحصل مفتي الموصل على العضوية بل حصل عليها بطريرك الكلدان. وقد زار جناب مفتي الموصل بغداد أكثر من مرة وحاول مقابلة الملك فيصل. والذي أعلمه بنفسي اني رأيته مرة في الديوان الملكي حين كنت في زيارة هناك وقد سألتُ رئيس الديوان هل حصل المفتي على مقابلة الملك والذي علمته في ذلك الحين أن المقابلة لم تتم». وأقول موضّحاً ومُكمّلاً: «إن العبيدي هو الذي خلع على نفسه لقب المفتي ولم يسندها إليه أحد» نقول: إن الذي فات على الدكتور خدوري هو موقف حبيب أفندي من تنفيذ الأحكام بوطنيي سورية الذين شنقهم أحمد جمال باشا في دمشق وعالية. فقد كان حينذاك إماماً (أو مفتياً أو مرجعاً دينياً) للجيش الرابع التركي وهو كذلك بقيادة جمال باشا المذكور. فقد أعطى فتوى كما قيل بجواز تنفيذ حكم الموت بهم بوصفهم أعداء للخليفة وبأن غايتهم تقويض صرح الخلافة بتعاونهم مع الأجانب الكفّار. كان العبيدي شاعراً جيّد النظم. وقد توفّي منسياً [وستكون لنا عودة وشيكة إلى هذا الشخص].

الخلاصة: لا يحضرني ذكرٌ لمدينة من مدن العالم دخلها فاتحون بهذه الكثرة واستقروا فيها ردحاً من الزمن ولم يتركوها إلا بعد أن خلّفوا لهم فيها أثراً. ويتجلّى ذلك بكثرة المصطلحات الآرامية والفارسية والتركية والجيورجية والكردية التي تحفل بها لغة الموصلي الدارجة. رغم فصاحة اللهجة ودقّة النُّطق بالحروف التي لا تجدها حتى عند العرب الأقحاح من قلب الجزيرة.

والأعجب من هذه المدينة التي كانت منطلقاً لأول مجزرة جماعية تُرتكب باسم القومية العربية، وبحجّة تأديب شرذمة من اللاجئين اجترأوا عليها، أنها بقيت حتى العام ١٩٢٥ عاصمة لولاية عثمانية تتألف الغالبية الساحقة من سكانها من كرد ومسيحيين كلدان وسريان وآشوريين بقراهم وبُليداتهم التي تكتنفها من كل جانب تقريباً، خلا فتحة في الدائرة تقع جنوب غربها وهي المنطقة شبه الصحراوية التي اعتاد العرب البدو قبل حوالي ثلاثة قرون انتجاعها للرعي وشنّ الغارات وقطع الطرق. وقد بدأ هؤلاء الأعراب عملية استقرار بطيئة جداً في حدود منتصف القرن التاسع عشر في قرى ومستوطنات. وامتدت بهم الهجرة شمالاً وشرقاً واختلطوا بالسكان الأصائل حيناً. كما نفذوا إلى العمق وأوجدوا لهم قرى ومستوطنات بين القرى المسيحية والكردية شمال المدينة وجنوبها. وعبرت قبائل لهم الضفة اليسرى من نهر دجلة وبنوا لهم قرى فيها بين قرى التركمان والشبك والصارلية. على أنه لا يمكن أن نعدّ هذا بمثابة هجرة جماعية عربية ثانية كتلك التي تمّت (إلى داخل المدينة لا خارجها) في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فتلك كانت الهجرة العربية الكبرى الأولى والأخيرة إليها وقد تمّت في عصر الفتوح الإسلامية الأولى.

في أثناء عملية المخاض القومي، كانت ثمّة عملية ترمي إلى صياغة شعب عراقي موحّد ذي هوية واضحة، من شتّى الأقوام التي يتألف منها المجتمع العراقي، ولم يكن يتضمّن أساساً شعور اعتزازٍ معيّن بهويّة أخرى غير الهوية العراقية. إلا أن «الحادث الآشوري» وما لحقه من تأديب دموي لهؤلاء الدخلاء حوّل بشكل ظاهر لا تغفله عين الفاحص العمل لبناء مشاعر وطنية إلى عمل قومي عربي استفزّ مشاعر الكرد الذين بدأ اهتمامهم بالوطن العراقي يتهافت وأحدث ردّ الفعل المتوقع فيهم عندما بدأ مصطلح القومية العربية يزحف بالتدريج ليحتل مكان «الوطنية» و«الوطن العراقي الواحد» مزاحمة أسيء توقيتها عرقلت إلى حد كبير عملية صياغة اجتماعية، في إنضاج شعب عراقي وإنقاذ قومياته المختلفة وطوائفه الدينية المتعددة من أيدي المتشددين والانتهازيين

والطفيليين. وكذلك من ردة الفعل العنيفة والمخاوف الوهمية منها والحقيقية لتلك القوميات والطوائف. ومن بين كلّ هذه لاح شبح «التعريب» ليحلّ محلّ التريك الذي حاوله «الجون ترك» في شعوب الإمبراطورية العثمانية قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ببضع سنوات. حاول القوميون الأتراك بكل ما أمكن تجنيده من الحماسة والحميّة الدينية إنجاح مشروعهم القومي الكوزموپوليتي. وكانت الحرب العظمى الأولى هي التي أنقذت تلك الشعوب المهددة بالتريك - كانت المعجزة التي أنقذت تلك الشعوب ووضعتها على خط الحرية. كان تصميم (الجون ترك)[١٨] في حزب الاتحاد والترقّي على دخول تلك الحرب السبب في فشل أول مشروع قومي مبنيّ على التغلّب العنصري القسري اللاليبرالي.

أكان ما حدث في بُقعة قريبة من الموصل أمراً عرضياً مفاجئاً لا أسباب ولا ممهّدات تاريخية له؟ إن الحديث طويل متشعّب عن مزاج الموصليين المتقلّب بخليطهم القومي العجيب، وبردود فعلهم إزاء الأحداث العنيفة؟ فكما مَرّ يوم الاحتفال الرسمي بعودة الجيش منتصراً[١٩] كذلك مَرّ اليوم الذي صُرع فيه بطل العام ١٩٣٣ الذي أمر بالتصفية الآشورية - صُرع برصاص عريف من جنود لوائه في موضع لا يبعد بأكثر من ٣٠٠ ياردة عن المنصّة التي استعرض فوقها وحدات الجيش بعد أربع سنوات بالضبط

(١٨) إن «الجون ترك = تركيا الفتاة» هم الجناح التركي المتشدد من الاتحاديين (حزب الاتحاد والترقي) انتزعوا الحكم في ١٩٠٩. وعُرف ثلاثي (طلعت - أنور - جمال) بطغاة الحكم العثماني. ورفع أنور من رتبة رائد إلى رتبة مشير (فيلدمارشال) خلال الحرب العامة. وكان من سوء حظ الأرمن أن ألقى هذا الضابط عليهم تبعة فشله في عملية تقويض صرح الإمبراطورية الروسية إذ مُني بهزيمة ساحقة. فألقى وهو في سورة من الغضب تبعة الهزيمة على التعاون الأرمني مع الروس واستخدامهم رتلاً خامساً لهم وأمر بالتهجير المقترن بمذابح الأرمن الساكنين شمال شرق تركيا في العام ١٩١٥ وإجلائهم إجلاءً عاماً خارج الأناضول وترحيلهم قسراً إلى المناطق الجنوبية من الإمبراطورية وتم التنفيذ بالتنسيق مع (طلعت) وزير الداخلية. ألّفت الكتب الكثيرة وصُنّفت تقارير رسمية وغير رسمية بشتّى اللغات حول هذه المأساة العظمى بكل ما رافقها من قتول وجرائم اغتصاب وسلب وفظائع. فقد دفعت عشرات الألوف من هذه الجموع البائسة بأرتال لا نهاية لها نحو الجنوب عبر الجبال والصحارى تحت الثلوج والمطر والشمس المحرقة دون غذاء أو كساء أو مأوى، وبأقل التقدير هُجّر نصف مليون ولم يصل منهم ذكر بالغ واحد. في حين مات في الطريق أو اختُطف أو فُقد أكثر من ثلاثة أرباعهم. دمّرت أرمينية التركية تدميراً كاملاً وخلت تماماً من سكانها.

(١٩) راجع الفصل من الكتاب الثاني (مأساة الآشوريين).

وفي عين اليوم الذي أمر فيه بالمجزرة. وهو من أعجب عجائب موافقات التاريخ وأندرها. إن التاريخ العام بمجلّداته الضخام لا يحتوي على مثل هذه الصدف العجيبة. مَرّ اليوم هادئاً ولم يشعر أحد بموت أول دكتاتور في البلاد العربية. مَرّ كالايام الأخرى لا كما مَرّ يوم دخول الجيش الظافر المدينة في صيف ١٩٣٣.

كان ثمة شعور بوجود طرحين متناقضين في المجتمع العراقي أثناء محاولات كادت تبدو غير جديّة - لضيق نطاقها - لصياغة شعب عراقي موحّد ذي هويّةٍ جلية من الأقوام التي يحتضنها القطر، أي الوطن. والعمل الوطني، والوطنية باختصار[٢٠] في عين الوقت، لم يجد دعاة القومية العربية فيه تناقضاً في الدعوة إلى الوطنية والقومية معاً، ولا حرجاً في تبنّي كليهما.

لم تكن إثارة الحماسة بندب الشعور القومي العربي ناجحةً ولا مفيدةً في بلاد كالعراق فيه ٢٢ بالمائة من السكان غير عرب ولا يمتون إلى أصول عربية، فضلاً عن ٧ بالمائة أو أكثر لا صلة لهم بالعروبة غير اللسان. مع ذلك وبفضل رجال الدولة ومعاهدها ورسل الثقافة الذين جيء بهم من البلاد الناطقة بالعربية لسدّ شواغر التدريس، بدت في أحيان كثيرة وكأنها البديل الحتمي للوطنية، والحائل دون غرسٍ ثابت صحّي لمفهوم الوطنية العراقية[٢١]. ونحن أبناء ذلك الجيل لم نكن نملك وقتئذ ذلك الإدراك لنتفهّم خطورة استبدال «الوطن العربي الكبير» بـ«الوطن العراقي».

كانت في أحداث ١٩٣٣ بداية عهد الصخب والضجيج القوميّ الذي أجّجته الوزارة الگيلانية. كانت أول وزارة تشرّف نفسها بلقب الوزارة القومية، وقد شجعت الصحف لكتابة المقالات النارية واحتثّت الدهماء على الخروج بمظاهرات التأييد، وتبارى نوابها القوميون بإلقاء الخطب الحماسية، وبدأ النشيد الذي ضربنا به المثل:

بلادُ العُربِ أوطاني   من الشامِ لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يَمَنٍ   إلى مصرَ فتطوانِ

نشيد الفتيان العراقيين المفضّل في المدارس كبراها وصغراها.

---

(٢٠) المعنى القاموسي لكلمة وطن هو المنزل أو المسكن أو البيت. قال ابن الرومي الذي هدته الحاجة إلى عرض منزله للبيع فأبى

ولي وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعه   وألاّ أرى غيري له الدهر مالكا

(٢١) ليس هناك فرق محسوس بين كلمتي: Nationalism و Patriotism إلا أننا سنختار الأولى كلّما أردنا بها كلمة (قومية) وسنقصد بالثانية مصطلح وطنية.

مزاحمة غير مشروعة في بلد حديث بين بلاد العالم يتألف من عدة قوميات عرقلت إلى درجة كبيرة عملية إخراج شعب عراقي ناضج موحّدٍ وإنقاذ قومياته وطوائفه المتعددة من أيدي المتعصّبين والمتنطّعين، ومن ردود الفعل العنيفة بعامل فوضى اجتماعية مؤقتة ينفلت خلالها حبل الأمن والنظام وتقف السلطة منها على جانب أحياناً أو تتفاعل معها أحياناً، بل من مخاوف أكانت وهمية أم حقيقية تلك التي تنتاب الأقلّيات العنصرية والقومية عندما يلوح شبح (التعريب) بوجهه الكالح المخيف، تعويضاً كما يبدو تقليداً لعملية (التتريك) التي باشرها الانقلابيون العثمانيون أيام إمبراطورتهم الأخيرة مغطاة بقناع العثمنة، فجاءت الحرب العظمى في ١٩١٤ لتدفن هذا المشروع بموت الإمبراطورية وتصفية أملاكها وهو ما أتينا إلى ذكره.

كان (التعريب) عند رجال السلطة العراقيين البديل لعملية التتريك فمعظم هؤلاء كانوا من موظفي الدولة البائدة ومن ضباط جيشها الكثير. وكلهم تقريباً رغم عروبتهم كانوا أعضاء في جمعية الاتحاد والترقي إن لم يكن بعقيدة وقناعة فبالتظاهر والتستّر والتقيّة إن لزم الأمر. مما يدعو إلى الأسف والرثاء أن محاولات التعريب رغم إخفاقها المتوالي كانت دائماً على حساب إضعاف الشعور بالمواطنة (الوطنية). وقد كان الفشل دائماً حليف كل مشروع قومي كوزموپوليتي (وهو موضوع كتابنا الأصلي). فمن خلال اختياري الموصل وأهاليها لتكون مختبراً لإجراء تجارب مرّة على مقدار ما تقوى الديماگوگية السياسية والغوغاء العنصرية على إحداثه في النفوس، وبقيت تبدو بمرور الزمن عى أنها قومية عربية تارة ويسارية اشتراكية تارة، واشتراكية قومية آناً، وديمقراطية صامدة آناً آخر. وتلك حال سائر المدن في البلاد الناطقة بالعربية عند تعرّضها للهزّات والزلازل الاجتماعية الطارئة، أو عندما يفرضها عليها نظام حكم مخصوص.

سأضرب من ذاتي مثلاً فقد عاصرت معارك القومية العربية وإرهاصاتها يوماً بيوم وساعة بساعة لا في مدينة واحدة بل على صعيد الوطن العربي الكبير. وقد توفّر لديّ انطباعٌ عام بمرور الزمن أن مجتمعي البشري لم يكن في أي وقت من الأوقات متنافراً متباغضاً. وأن تلك النفرة التي كنا نشاهدها في أوقات مخصوصة لا تلبث أن تعود إلى مناصرة فلا أحد عدوّ أحدٍ. ولم أجد فرصاً اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية حبستها قومية أو طائفة معيّنة على قومية أو طائفة أو جنس، أو امتيازاً احتُكِر وحُبس عن الآخرين. سكنت الموصل آلاف الأسر الكردية وحكمها العرب والكرد كما حكمها أجانب قادمون من آسيا الكبرى والصغرى وأتيح للجميع السعي والعمل بحرية قدر ما

يسمح الحاكم المستبدّ وما تجيزه طباع الفرد من سوء خلق أو رفعة. ولِدتُ فيها كما وِلد فيها أجداد لي وآباء. مارست فيها صناعة القانون ونشرت مؤلفاتي وتراجمي وأمسكت بزمام أكثر من صحيفتين. وكان مكتبي ملتقى كل أدبائها ورجال القلم فيها وشعرائها ومؤرّخيها المعروفين منهم والناشئين، وعقدت صداقات حميمة معهم وكان لي أصدقاء أعزّاء معظمهم إن لم أقل كلهم من المسلمين تجلّى فيهم الخُلق الرفيع والأدب الجمّ قدّموا بلا استثناء برهاناً على وفائهم أيام المحنة ولم ينسوني قط. كان لي منهم الكثير في حين كان عندي خصوم وأعداء متربّصون يتحيّنون فرصتهم للإيقاع بي. وجدني فريق من الأهالي عنصراً يجب القضاء عليه لأنه خطر على كل ما يؤمنون به ويحرصون عليه. ووجد هؤلاء الأخيرون فرصتهم للإساءة ووضع حياتي في كفّ القدر عند طغيان المدّ القومي ونشوب حرب العقائد والنزعات السياسية لتعمّ بلدان الشرق الأوسط[٢٢] الناطقة بالعربية. فأطلقت أحط الغرائز البشرية من عقالها وحلّت الروابط الأسرية وفكّكتها وألبست الحزازات الشخصية رداء المصلحة العامة. وصار الأخ يفتك بأخيه والابن يشي بأبيه. وفي هذه الفوضى الفكرية العارمة الهائجة كنت هدفاً كبيراً. اتهمني بعضهم بالتغيير والانتقال من موقفٍ إلى موقف، دون أن يشعروا بأنهم هم الذين تغيّروا. وكلّما عدتُ بين فترة وأخرى لأفحص ذاتي وسلوكي الخلقي كانت همومي تتزايد قدر زيادة في دهشتي وحيرتي.

في مجال ممارستي القانون دافعت عن حقوق وجهاء المدينة وصعاليكها، رأسماليّيها وكادحيها، شريفاتها وغوانيها. وفي ميدان الصحافة والقلم سلكت طبق ما سلكته أمام القضاء ودفعت الضريبة التي كُتب على كل معارضٍ للسلطة أن يدفعها، أعني ملفّاً خاصاً في دوائر الأمن منتفخ بتقارير الشرطة السرّية ووضع اسمي في قائمة

---

(٢٢) يسأل الكثيرون عن مصدر تسمية الشرق الأوسط وموجدها. وكذلك أختها «الشرق الأدنى» وفي هذين أقول: اخترع مصطلح (الشرق الأوسط Middle East العقيد البحري والمؤرّخ الأميريكي ألفريد ثاير ماهان Alfred Thayer Mahan في ١٩٠٢ بإطلاقه الاسم على المنطقة التي تقع بين جزيرة العرب والهند. وفي العام ١٩١٦ استخدمها سر مارك سايكس في خطبه الكثيرة التي كان يلقيها في مصر وإيران وإنگلترا إلى جانب مصطلح جديد من اختراعه هو الشرق الأدنى Near East الذي دخل المعاجم أيضاً كسلفه، وعُني به الدول الناطقة بالعربية ومصر عدا شمال أفريقيا وايران وتركيا. (يراجع في هذا الباب «برنارد لويس» في كتابه الشرق الأوسط والغرب The Middle East and the West. ط نيويورك ١٩٦٦).

المشبوهين وقد استخدم خصومي هذا الملف أبشع استغلال، عندما بدأ الاتهام باعتناق الآراء اللاقومية أو القومية العدوّة وهي أخطر من رصاصة توجّه إلى الرأس. ولما ملكتُ ناصية البيان العربي الرائع شعرت بأن من اللياقة والحكمة بله الوفاء أن أترك البحث عن هويّتي القومية. حتى بدأتُ وأنا في عزّ الشباب وشرخه بل في قمة نشاطي الفكري أطرد من خاطري بجدّ وتصميم ذلك البحث وراحت تتطاير من تحت قلمي عبارات قد لا تأتلف مع أعمق مشاعري التي كنت، كما قلت، أحرص على دفنها كلّما أصعدها الأذى والظلم إلى فوقٍ، كقولي دون حرج مثلاً «نحن أبناء العربية» ولا أقول «أنتم العرب». لكني بقيت يلازمني شعور واضح بأن القوميين العرب إنما يجنون على أنفسهم وعلى القومية العربية، على طموحها وعلى فلسفتها وآدابها، عند محاولة التعريب، الذي اصطُلح عليه مؤخراً «بالانصهار» وهي محاولة عقيمة بالأصل.

تراكمت تجاربي بتقدم العمر ولمعظمه الطعمُ الحرّيف اللاذع، وحملتني بالأخير إلى البحث عن الهوية دون الإخلال بالرابطة الاجتماعية للمحيط الذي أعيش فيه. وصرت خلال ذلك أبحث عن السرّ والسبب الذي يدعو الأكثرية في الوطن الواحد إلى إطلاق اسم الأقلّية على مجموعة من المواطنين. ومَن كان أكثر تأثيراً في استخدام هذه الكلمة أهو الدين أم العنصر؟ وأين هي هذه الأكثرية؟ لماذا يُخرج من هذا التقسيم بغضاء ونفرة واحترابأ وقتولاً؟ ما الذي يحدو بالمفكرين والاجتماعيين إلى فكرة ترويج العنصر وتغليبه بهدف تصنيف المجتمع لا على الأسس الاقتصادية والحضارية، بل على قاعدة أيّ قوم سكنوا هذه البقعة من الأرض قبل أن يسكنها القوم الآخرون؟ ومن هم سكان البلاد الأصليون وفق هذا التصنيف؟ ومن هم «الدخلاء»؟ وأي فضل أو امتياز يُمنح للفريق الأول ويحبس عن الثاني بسبب من هذا.

وبشكل ما أو بآخر كانت هذه الأفكار والتساؤلات تزاحمني، وهي تزداد رحابة وقوة بتقدم العمر ومرور الأحداث لتخرج بي عن النطاق المديني المحدود إلى الوطن العراقي، ولتنداح لتشمل سائر البلاد الناطقة بالعربية، ولتتحوّل ألوانها إلى الأحمر القاني بفضل المؤامرات والمؤامرات المعاكسة والحروب والاشتباكات المحلية باسم العروبة والقومية العربية وبروح الغيرة عليها أو إنقاذها من أعدائها. في مجمل الصورة التي تلوح لي كانت مجازر آب ١٩٣٣ في العراق تبدو متداخلة ضمن إطار الصورة وجزءاً لا يتجزّأ من المنظر العمومي.

في العراق كان الكرد أولاً ثم الآشوريون ثم اليزيدية الكرد، ثم الشيعة «العرب»

في الجنوب. وينتقل المنظر إلى سورية ومصر وليبيا والسودان وتونس والجزائر واليمن. وأنا لا أجد غير الخطوط الحمراء المعهودة الموهومة في أكثر الأحيان تؤلّف الحاجز الفاصل الوحيد وما عداه كان ثمّ جدول من الدماء يجري ليتصل بجدول آخر ارتفعت على ضفتيهما لافتات فوق أقطاب أعمدة كُتبت عليها جُمل وعبارات قصيرة لا تخلو أية واحدة منها من كلمة وطنية، قومية، عربية، يعربيّة إسلامية. من خلال تتبُّعي هذا المجرى العام من صدوره إلى وروده سأحاول أن أجد سبيلي إلى ضالّتي.

ملحق

عنوان المقال: ماذا نال العمال من الشيوعية؟

وهذه ترجمة الفقرة الأولى التي وضعنا تحت سطورها خطوطاً:

في حين تتجه العربة الموسومة بالماركسية مفرقعة مجلجلة ويدون ريث خلال التاريخ نحو النور، فإن حملها الشريف الذي كان ذلك المحمل المكثف التجريدي هو الذي يطلق عليه كلمة «البروليتاريا». على أن ماركس لم يخصّ البروليتاريا بتلك المشاعر البرجوزاية المرهفة العاطفية ولم يؤثرها باطراء شخصياً أو كأفراد. فقد كان ماركس وإنگلز في رسائلهما المتبادلة الخاصة يشيران إلى البروليتاريا بأولئك «الحمير الأغبياء».

الفصل الثاني

(تابع) في سبيل البحث عن الإنسان العربي. اللغة العربية واللهجات المتفرّعة عنها. القاسم المشترك الأعظم. الفروق الحضارية والثقافية. التكوين الجسدي. عوامل الفتوح والتكاثر. الشعوب لا تنقرض كلياً بل تخلّف آثاراً. آثار الأقوام والشعوب في الوطن العربي الكبير. سيادة اللغة العربية. من هو العربي. الدين الإسلامي دين منظّم. الدين الإسلامي والقومية. الأصل في كلمات (عربي، أعرابي، عرب، عربان). تعميم اللغة العربية في الدوائر (لغة الحكام). الحروف والقراءة والكتابة العربية والتأثير الحيري (نسبة إلى مدينة الحيرة) ولغات العراق القديمة. مسح تاريخي حضاري للإمبراطورية العربية - الإسلامية. الاختلاط العنصري في إسبانيا. سيادة اللسان العربي إلى جانب شريعة الإسلام وصمودهما. القرآن. ميزته عن سائر الكتب المقدسة الأخرى. نظراته: موقفه من القومية. الاندفاع العربي - الإسلامي. الانحسار. ثورة بني العبّاس. النفوذ الفارسي والتركي. الشعوبية. فكرة القومية في العصر الحديث منشؤها وعراقيلها. الحركة الوهّابية. الثورة الصناعية في أوروبا. الحركة القومية العربية يتزعّمها المسيحيون. الطباعة ونشر الكتب والصحف. أسماء لمعت في عصر النهضة العربية.

هؤلاء الذين ورثوا اللغة العربية لساناً ضمن الرقعة العظيمة التي أطلق عليها القوميون العرب اسم «الوطن العربي» أو «العالم العربي»، فضلاً عن أجزاء أخرى خارجه صغيرة المساحة، يصيبون المرء بحيرة حين يحاول إيجاد قاسم مشترك (باستثناء اللغة والدين) يجمعهم. فمدى الاختلاف في أسلوب العيش والسلوك الخلقي والحضاري في هذا «الوطن» أو «العالم» العربي هو أوسع بكثير مما نجده في «عالم» الغرب في «عالم» أمريكا الشمالية مثلاً. والسبب هو أن التغييرات والهزّات العنيفة التي

كانت تنقل العالم من حالٍ إلى حال افتقرت دوماً إلى الموازنة والانسجام بين صقع وآخر وأحياناً بين مدينة وأخرى. فالتباين مثلاً بين عامل النفط في العربية السعودية وبين الفلاح المصري الذي ظلّ يتبع أساليب الزراعة البدائية، والفرق بين ساكن المدينة البيروتي خرّيج كلية التجارة في جامعة هارفرد الأمريكية وبين ضابط الطيار العراقي الذي تلقى علومه الأولى في العراق وتدريبه الفني في موسكو، بله الفرق بين الدبلوماسي التونسي الذي يحمل شهادة القانون من جامعة السوربون هو أظهر وأكثر وضوحاً من التباين بين المزارع الأمريكي في تكساس وبين صاحب الملايين النيويوركي أو بين جبليّ سكتلندي وبين كاهن انگلكاني من (ويلز) بل هو أكثر بكثير مما نجده بين إيطالي من ميلان وبين صاحب مطعم في پالمرو.

وأجلب إلى الاهتمام من هذه الفروق والاختلافات هي الفروق في أساليب العيش: التنوّعات الفسلجية المتعلقة بالتكوين الجسدي لهؤلاء الناطقين بالعربية. لو أنت قمت برحلة تأخذك من مراكش إلى بعقوبة ثم أشفعتها برحلة ثانية تأخذك من حلب حتى الدوحة فستجد دون شك كل نوع من السحنات والأوصاف الجسدية والفسلجية المتباينة حتّى ليعجز أمهر علماء الأنثروپولوجيا عن التصنيف وعمل جدوَل مقاسات متكامل أو قريب من الدقة.

أجل، فأي فحص أنثروپولوجي للأصول العرقيّة في عالم عرب اليوم وذلك التباين الهائل العجيب في المظاهر الفسلجية يعود - وهذا موطن الغرابة - إلى (الجمل)(١)

(١) [راجع الملحق الأول لهذا الفصل] ليس بالإمكان إغفال (الجمل) في تاريخ العرب مطلقاً فبفضله استطاعوا المشاركة في أحداث الشرق الأوسط قبل الرسالة المحمدية بقرون عدة وأن يحتكوا بدولها ويقيموا صلات تجارية معها. وكانت عملية تدجين هذا الحيوان الثمين بطيئة جداً حصلت بين ٣٠٠٠ و١٠٠٠ ق.م وبه تمكن العرب من قطع الصحارى المترامية في الجزيرة والوصول إلى حضارات الهلال الخصيب وشرق إيران من الجنوب وشمال أفريقيا في وقتٍ متأخر. الجمل العربي يضرب به المثل بقابلية السير أياماً عديدة قاطعاً مسافات شاسعة من غير حاجة إلى ماء فله قابلية استيعاب مائة ليتر منه في غضون عشر دقائق واحتفاظه به في جوفه. وهو يتقدم على سائر الحيوان بذاكرته العجيبة في معرفة الآبار والواحات والاستدلال إليها. وبالمقارنة مع الحيوانات الأخرى فهو لا يفقد إلاّ اليسير من الماء بعاملي التبخر أو التعرق من المسام الجلدية أو من التبوّل. وأخفافه وشعره القصير والنسبة العالية من سطح الجلد إلى مساحة الجسم تساعده على تحمّل القيظ الشديد. وبوسعه أن يقتات على الأشواك والعشب اللذين لا تستطيع الحيوانات الأخرى هضمهما وهو كذلك يختزن الشحم في سنامه احتياطاً =

وبالأحرى إلى ذلك القائد الكبير الذي أدّى إلى تسهيل خروج العرب من جزيرتهم القاحلة المصحرة، برسالتهم الإلهية وسيفهم البتّار ونجاحاتهم العسكرية السريعة المذهلة قبل حوالي أربعة عشر قرناً وفتح أمامهم فرصاً لا تُحدّ للتماس والاختلاط بمجموعات قومية أثنوغرافية عديدة. وأعطى قانون تعدّد الزوجات واقتناء المحظيات خارج الإطار الزوجي ثماره فوراً. كان يؤتى بإماء وعبيد من شتّى أرجاء العالم المعروف، ودعك من الشعوب التي دانت للعرب بالطاعة، فكنّ يملأنَ للأغنياء وميسوري الحال فضلاً عن رجال الحكومة حريماً واسعاً يعجّ بالبنين والبنات. ويفرض نوعاً من الشرعية والامتياز لكل من رزقت بولد من المالك (يدعوها الشّرع: بأمّ ولد).

إنّ سرداً عابراً لأسماء تلك الشعوب التي انصهرت أو امتُصّت وهُضِمت في الإمبراطورية بعد الفتح العربي الإسلامي، وعملية الدخول في الدين الجديد بشكل كان أحياناً يخرج عن نطاقه الفردي أو الأسري إلى النطاق الشعبي الجماهيري ، يعرض للمرء منظراً شاملاً أخّاذاً لغرابة ذلك المزيج الكثيف الذي خلق مزيداً من عمليات الإذابة والانصهار يزري بما حصل في أمريكا عندما تقاطرت عليها جموع المهاجرين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومع هذا فليس هناك شعب من شعوب العالم القديم استؤصلت شأفته واندثر تماماً بعامل الآفات الطبيعية أو القتول أو المذابح الجماعية التي تعقب الحروب، وآية ذلك الفشل الذي كان من نصيب الطغمة التي حاولت ذلك في لهب الحرب العظمى الثانية. والفراعنة المصريون والآشوريون والسومريون والكنعانيون وبنو عماليق والبابليون والحثيون والآراميون والفينيقيون والماديون والعلاميون والأخمينيون والكلدانيون والأوراريتون والصغديون والخزر. . .
وعدّد ما شئت من أسماء الأقوام الغابرة التي ظهرت على مرسح التاريخ القديم فإنها لم تُبد كلياً بل اتخذت في أغلب الأحيان وفي ظروف قاهرة زمانية هويات أخرى، وانتمت وتستّرت خلف تلك الهويات لأسباب ودواع شتّى. ومن المدهش حقاً أن نرى شعوباً أخرى حافظت على هويتها رغم الكوارث التي حلّت بها بفضل مزايا معيّنة وظروف خاصة. مما يدعو إلى التأمل مثلاً أن تجد بين كل تلك الأمم والشعوب التي أدخلها

= عندما لا يجد ما يقتات به. وفي المدوّنات العتيقة الإسرائيلية والآشورية والبابلية والأخمينية تجد هذه الحقائق ماثلة عندما تراها تضع الإبل في رأس قائمة الغنائم التي يُستولى عليها من العرب الغزاة قبل المعادن الثمينة وقبل الأسرى.

الإسلام تحت حماه بقي الترك والتركمان والفرس والبربر واليهود والكرد والأرمن والكلدآشوريون (أحفاد الآراميين) يحافظون على هوياتهم القومية إلى يومنا هذا. بينما فقدت الشعوب الأخرى هويّاتها وتمّ تمثيلها من خلال حكم الدول الإسلامية العربية وغير العربية. حتى البربر في شمال أفريقيا ما زال يشار إليهم باسمهم هذا أو باسم (مغاربة) وشأنهم شأن الكرد أيضاً الذين خضعوا كالبربر إلى الحكام العرب. وكما نرى فان تعريف البربر بأنفسهم بزعم كونهم عرباً لم يحصل إلا في السنوات القلائل الأخيرة من الجيل أو الجيلين الماضيين وقابلتها في عين الوقت ردّة فعل قومية بربرية كاسحة تدعو إلى نبذ هذه الدعوة والتمسّك بالهويّة البربرية وتقاليدها ومن ضمنها اللغة. ويستنكر الكرد مزاعم بعض القوميين العرب في محاولة ردّ أصولهم إلى قبائل عربية ويسخرون منها. وتلك السلالة البيضاء والقمحية المنحدرة من الفينيقيين الأوائل امتزاجاً بالهلّينيين المهاجرين من جزر بحر إيجه واليونان والقادمين من جزيرتي كريت وقبرص في البحر المتوسط، فهي ما زالت تقطن في الجزء الغربي من الهلال الخصيب ويتميّزون عن سكان الجزيرة العربية الأم بعيونهم الدعج وبشرتهم القمحية أو الزيتونية الفاقعة وهي بين سيماء وقسمات لا يمكن أن تخطئها العين المجردة بالمقارنة. على أنهم اليوم يفخرون بأرومتهم العربية ولا يرضون بأقلّ من إطلاق صفة العربي على أنفسهم(٢).

---

(٢) نقول: اختلف الأركيولوجيون وعلماء اللغة في ردّ لفظة (العرب) إلى أصل أو إيجاد تفسير تاريخي - جغرافي لها. ويرى برناد لويس في كتابه «العرب في التاريخ» أنها مشتقة من أصل سامي قديم بمعنى الغرب. ذلك لأن سكان بلاد الرافدين سمّوهم بهذا الاسم لأنهم كانوا يرتادون غرب بلادهم (الضفة الغربية من نهر الفرات وهي بادية الشام والعراق) فهم في منحوتاتهم يشاركون الأقوام الغربية السامية الأخرى بلفظة (عمورو) التي وردت في النصوص الآشورية والبابلية. كما وردت لفظة (عريبي) للأرض التي يسكنونها سكنى قرار في تلك الصحراء. وهذا ما اتفقت عليه أيضاً دائرة المعارف البريطانية (انظر مادة Semitic Languages) أما الكتّاب العرب كالأصمعي (في حدود ٧٤٠-٨٢٨م) فإنه يراها مشتقة من «يعرب بن قحطان أول من سجع بالعربية ونطق بأفصحها وأبلغها وأجزلها» ويؤيده في هذا ابن منظور في معجمه «واختلف الناس في العرب لِمَ سُمّوا عرباً فقال بعضهم أول من أنطق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم وهم العرب العاربة...» ومن هؤلاء السيوطي (١٤٤٥-١٥٠٥) صاحب (المزهر في فلسفة اللغة) وياقوت الحموي (١١٧٩-١٢٢٩م) صاحب (معجم البلدان). لكن علماء العصر يرون أنها مشتقة من الكلمة العبرانية (أرابا) وتعني الأرض السمراء التي يغطيها العشب. ومنهم من يرى أنها مشتقة من الكلمة العبرية (إرب) التي تعني الحرية =

= وعدم الخضوع لنظام والتمرد. وقال فريق آخر إنها ذات صلة باللفظة العبرية (عابار) بمعنى الحركة والتنقل. ورأى آخرون أنها مشتقة من اللفظة العبرية (عرابة) وهو الجفاف ومشارف الصحراء أو الحرّة. ومنها تسمية وادي (عربات أو عربة) أو الوادي العربي الممتد من البحر الميت حتى خليج العقبة. ويتفق الأزهري (٨٩٥-٩٨٠م) وهو من أئمة اللغة وصاحب معجم «العين»، في كتابه «التهذيب في اللغة» مع هؤلاء العلماء المتأخرين بقوله «إنما سمّوا عرباً نسبة إلى بلدهم العربات». ونعود إلى صاحب «اللسان» ابن منظور (١٢٣٢-١٣١١) لنجده ينقل عن اسحق بن الفرج «أن قريش أقامت بعربة فتنخت (تسمّت) بها وانتشر سائر العرب في جزيرتها فنسبوا كلهم إلى عربة». ولو نحن تتبعنا تاريخ ظهورها وما هو مدلولها في اللغات الأخرى لوجدنا أقدم نصّ وردت فيه هو النص الآشوري الذي يعود تاريخه إلى ٨٥٣ ق.م فقد أشار الملك الآشوري شلمناصر الثالث ٨٥٨-٨٢٤ ق.م في منحوتة إلى ملك صغير أو رئيس عشيرة حقق نصراً عليه باسم (جنديبو العريبي). ويذكر فرانشسكو گابريللي وآخرون أن (جنديبو العريبي) هذا هو الذي عقد حلفاً مع (بير ايدري) الملك الدمشقي وثمانية ملوك آخرين بينهم ملكا حماه وإسرائيل (آحاب) وأنه ساهم في معركة كركر (أو قرقر) والموقع هو قرية قريبة من حماه تقع على ضفة نهر العاصي. والمنحوتة تصف جنديبو بأنه وجنوده «ركاب إبل» وأن آحاب الملك الإسرائيلي شارك بألفين من العجلات الحربية (لم يرد في التوراة خبر مشاركة آحاب في معركة كهذه).

بعد ذلك بقرنٍ واحدٍ أو نحوه راح اسم العرب يتردد بكثرة في الحوليات الآشورية والبابلية. وقد اختلف قراء النصوص في التهجئة فقرئ الاسم بـ أريبي، وعريبي، وأربي (عربي)، وعريبو، وعربايا وورد في نصّ بابلي من القرن السابع ق.م عبارة (ماتو أربي) أي أرض العرب. وذكرت مدوّنات الملك الآشوري تغلات بيلاصر الثالث (٧٤٤-٧٢٧ ق.م) اسمي «زبيبي» و«شمسي» الملكتين العربيتين. ووصف العرب كثيراً في سياق حملات ملوك آشور غرباً وجنوباً فسنحاريب (٧٠٥-٦٨١ ق.م) ذكر في مسلّته أنه استولى على ألف بعير من المملكة العربية «تلخونو في الصحراء» وأنه حمل على الملك «العريبي حزائيل» واضطره إلى الفرار مع تلخونو. وذكر ابنه أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩ ق.م) أنه استولى على حصن آدوم العربي وأن حزائيل الملك العربي جاء إلى نينوى لإعلان خضوعه ومعه هدايا ثمينة بينها عدد من الإبل. ونوّه سرگون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) بـ«شمسي ملكة العرب» وبـ«ابتعمر ملكة السبئيين». ووردت الكلمة في التوراة مراراً. وفي حدود العام ٥٣٠ ق.م ظهرت لفظة عربايا لأول مرة في النصوص الفارسية بمعنى البادية التي تمتد بين العراق وسورية ويضمنها صحراء سيناء ووردت في نصّ لداريوش الأول الأخميني (٥٢٢-٤٨٦ ق.م) بمعنى البدو. وتردد ذكر العرب عند الكتاب اليونان مع ذكر بلادهم قبل هوميروس فأشاروا إلى بلاد العرب الصخرية ويقصدون مملكة Arabia Petrix, Arabia Patraea الأنباط. وسمّوها «السعيدة» وقصدوا أرض اليمن الخضراء Arabia Felix ثم سمّوها Arabia Deserta وهي بادية الشام أولاً ثم وسّعوها لتشمل جزيرة العرب كلها (التسميات تعود للقرن الأول قبل الميلاد). على أن هيرودوتس (حوالي ٤٨٤-٤٢٥ ق.م) أشار إلى أرض العرب بالاسم كثيراً وكذلك فصل في =

وفي وادي النيل الذي يحتل ضفاف نهره ذلك الجمُّ الغفير من فلاحي مصر المسلمين والأقباط، وهم أعرق شعب مقيم حيّ على وجه البسيطة يبدون تماماً بسحناتهم وتكوينهم الجسدي نسخة مطابقة لتلك النقوش الحجرية التي تزيّن معابد المصريين القدماء بشعورهم القصيرة الجعدة وبشرتهم النحاسية وعظام وجناتهم البارزة تماماً. مثلما بدا آشوريو اليوم أشباهاً بالصور الحجرية الناتئة التي تزيّن أميالاً بطولها من جدران المتحف البريطاني والمتحف العراقي. ولك أيضاً أن تتحدث عن سكان شمال السودان فقد تغلب لون بشرة العرق الزنجي على الجالية العربية التي رحلت في موجات متعاقبة من جزيرة العرب انتجاعاً للمرعى وسَدّاً للرمق. وهم الآن أشدّ تمسّكاً بالقومية العربية من الفلسطينيين أنفسهم.

هذه الأقوام نبذت لغاتها الأصلية ومنها القبطية والآرامية التي كانت لغة عالمية قبل أن تحتل العربية مكانها. وكان من العبث أن تطولها أو تجرؤ على طولها اللغات السريانية والكردية والتركية والفارسية رغم سيادة أهل هذه اللُّسن سياسياً في أوقات متباعدة. بقيت اللغة العربية سيدة الجميع واللسان الذي تسمعه في كل مكان أو بقعة من الشرقين الأدنى والأوسط[٣].

= شؤون سكانها «العرب». أما العرب أنفسهم فالظاهر أنهم لم يخرجوا على العالم بهذا الاسم تعريفاً بهم. فلم يرد ذكره قط في المصادر العربية القديمة ولا في حصيلة تنقيبات الجزيرة الأركيولوجية. فمثلاً جاء ذكر العرب (القرن الأول ق.م) في المصادر السبئية بمعنى البدو تفريقاً لهم عن أهل المدن الذين عُرفوا بأسماء مدنهم أو نسبوا إلى قبائلهم بمعنى سكان البادية توفيقاً للنقش في شاهد (التماره) المدوّن بالآرامية النبطية في حدود ٣٣٠ ق.م. ولا يُعرف على وجه الدقة متى استخدمت لفظة (عرب) للدلالة على شعب أو دليل على أنه اتخذ لمعنى قومي يتعلق بالجنس العربي. والقرآن هو أول مصدر للفظة يعبّر تعبيراً واضحاً عن العنصر العربي الأمر الذي يدلّ دلالة قاطعة على شيوع الاسم في رقعة واسعة من الجزيرة العربية قبل نزول القرآن بوقت يتعذر تحديده. إذ ليس من المعقول أن ينوّه كتاب منزل بقوم من الأقوام وبهذا المعنى إلا إذا كان ثمّ على سابق معرفة [وردت كلمة أعراب في القرآن عشر مرات وكلمة عربي إحدى عشرة مرّة].

على أن (ماكس موللر) يشك في صحة ورود كلمة عرب للدلالة على قومية عربية في الشعر الجاهلي وفي الأخبار المدوّنة عن عصر الجاهلية في العهود الإسلامية فالشعر المنسوب للشعراء الجاهليين يخلو من حقيقة اتخاذ كلمة عرب للتعبير عن المعنى القومي للعنصر العربي.

(٣) اللغة (اللهجة) السائدة من العربية هي لهجة أو لغة (قريش). وها هنا نجد التأثير البابلي – الآشوري (لغات ما بين النهرين) على تطور العربية القريشية – على حَدّ اختبارات واجتهادات

لم يسلم العرب من الغزو الدولي العنصري وأظهرُ ما فيه العنصر الأفريقي والهندي. وأنا لا أتحدث عن غزوات اليونان العديدة منذ الفتح المقدوني ولا بقاء الفرنج أكثر من قرنين من الزمن في غرب الهلال الخصيب أو اصطناع الدولة العباسية الفرس ثم الدَّيلم ثم التركمان ولا غزوات المغول والتركمان من الشرق ولم تكن غزوات عابرة كما يظن بعضهم فقد جاؤوا بأثقالهم فضلاً عن حكامهم الذين تسلّطوا على مقدّرات الجزء الشمالي من الجزيرة العربية وأقبلت قبائلهم زرافات لتتملك إقطاعاً وتستقر وتمتزج بالسكان.

إنها لعملية امتزاج طبيعي تاريخي لم تسلم منها أيّة أمّة على ظهر هذا الكوكب، إن كانت في أوروبا أو آسيا أو أفريقية. وتكاد لا تجد شعباً يستطيع أن يدّعي بنقاوة عنصرية

= علماء اللغات (الفيلولوجيين). فقد أخذ العرب في قرون متأخرة (في صدر الإسلام على الأغلب) علامات الإعراب [الرفع والنصب والجرّ] ورتبوا لها إشارات وهي لا توجد في سائر اللغات السامية لا قديمها ولا حديثها غير آثار لها من لغتي بطرا وتدمر (انظر دائرة المعارف البريطانية: مادة Semitic Languages) كذلك التنوين فهو (ين) و(نون) و(آن) وهو باللغتين الآشورية والبابلية (ميم) وكذلك علامة الجمع (ون) مثلما هي في الآشورية وهي (ين) بالسريانية و(يم) بالعبرانية. يضاف إلى هذا صِيَغ الأفعال العربية فإنها أقرب إلى الآشورية - البابلية منها إلى أية لغة ساميّة أخرى. ومما يجلب الفيلولوجيون الانتباه إليه أن معظم هذه الخصائص تشترك فيه العربية مع الآشورية ولا تشترك معهما السريانية أو الكلدانية ولكنهم يقولون إن الأخيرتين فقدتا هذه الخصائص بتوالي الأجيال الحضرية في حين حافظ عليها أهل البادية العرب. لأن اللغة بمقتضى ناموس الارتقاء والتغيير أحفظ لنفسها في البادية مما في المدن. بل هي تتغير بالانتقال من البداوة إلى الحضارة لا بتوالي القرون والأجيال عليها [راجع: جي. أ. دوسو J.A. Dussuad «العرب في سورية قبل الإسلام Les Arabes en Syria Avant Islam»، باريس ط ١٩٠٧. ص١٠٨] وبسبب من هذا التعليل تشعبت لغة الآراميين البدو إلى الآرامية المتأخرة أو السبئية والحميرية ولغات عرب الحجاز والنبطية والتدمرية ولغة صدر الإسلام (لغة قريش) وابتعدت عن الآشورية - البابلية. وعيَّن الأركيولوجيون فضلاً عن تلك الصلة عدة أسماء عند العرب آشورية التركيب كقولك [سامو آبي = أبي سام] و[شمشو ايلونا = الشمس إلهنا] وكثير غيرها [راجع: كنگ: مصر وآسيا الغربية على ضوء المكتشفات الأخيرة Egypt and Western Asia in the Light of Recent Discoveries، ص١٩٤٠] ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الجيوش الآشورية لم تكن غريبة عن بلاد العرب. فقد ذكرت (ثمود) من جملة البلاد التي غزاها سرجون الآشوري (٧٢٢-٧٠٥ ق.م) في حملته على الحجاز ويؤخذ من سياق وصفه لها المنقور على الحجر أنها كانت بجوار مكة. وهي البلاد التي كان اليونانيون يسمّونها ثموديني Thamudeni [يراجع: كلي Clay. ضوء على شهادة من بابل Light on the Testament From Babel ص٣٣٨. ط لندن ١٩١٧].

حتى أو بتغليب العنصر الذي يدّعيه لنفسه.

فمن هو العربي يا تُرى؟

في هذا اليوم عندما تكون على موعد للقاء (عربي) لم تسبق رؤيته سيكون من المحال أن تحكم مقدّماً كيف سيبدو لك. أطويل هو أم قصير؟ أأشقر أو أملط؟ أأزرق العينين أو أسودهما؟ أهو ذو ملامح ساميّة أو حامِيّة أو زنجيّة؟ أأسمر أم أبيض؟ أهو أجعد الشعر أم مسترسله؟

هناك أكثر من مائة وخمسين مليون عربي توزّعوا على أكثر من عشرين دولة أعضاء في مؤسّسة تدعى «جامعة الدول العربية» وهي تشغل مساحة من الكرة الأرضية مقدارها خمسة ملايين ميل مربّع، وتزيد عن مساحة الولايات المتحدة بأكثر من مليوني ميل.

وبات اسم «العرب» لا يقع من الفم إلا ويُسمع له دوّي. أمّة صارت موضع اهتمام وحفاوة سُدسي سكان الكرة الأرضية المسلمين وكلمة «الله» التي وردت في القرآن الكريم ٥٣٦٢ مرة - وهم يردّدونها في دعائهم وصلواتهم صباح مساء مهما اختلفت لغاتهم وألسنتهم - تضفي عربيّتها على أمّة العرب رونقاً وجلالاً ومجداً يسلّم به ألف مليون مسلم أينما كانوا لأن اللفظة خرجت أوّل ما خرجت من فم نبيّهم في قلب جزيرة العرب.

كان الإسلام ديناً منظماً منذ ولادته واضحاً في أحكامه بأوامره ونواهيه فهو لا يجد أي صعوبة في ولوج القرون الحضارية ابتداء من القرن التاسع فصاعداً.

والقوة والنفوذ اللذان يمارسهما الدينُ المنظّم في عصرنا هما قوة هامة قد نجدها تختلف عند دين آخر بين بقعة وأخرى فالمسيحية مثلاً في إيطاليا تختلف عن مسيحية ألمانيا الغربية، وبين أمريكا الجنوبية وبورما وبين كونغو برازافيل وهنغاريا. إلا أن قوة الإسلام ونفوذه في العصر الحديث هما سواء في جزيرة العرب وأندونيسيا وفي مصر وإيران وفي ماليزيا وسورية بوصفه قوة روحية موحّدة بفضل طبيعته ووجهه التاريخي.

يقول ولفريد كانتويل سمث[٤]:

«كان الإسلام من فجره أكثر من دين في المفهوم العقائدي والأصول السلوكي. وهو جوهرياً نظام سياسي واجتماعي شامل فيه أمور الدنيا ليست

---

(٤) Wilfred Cantuell Smith الإسلام في التاريخ الحديث ط. برنستون ١٩٥٧. ص٩٤.

بأقلّ أهمية من شؤون الحياة الأخرى. وفي مسرى تاريخه استطاع أن يخلق مدنيّة كاملة خاصة.

إن الإسلام والماركسية كانا أعظم مجهودين رئيسيين عالميين واسعي الرحاب يهدفان كل من جانبه إلى تطبيق مبادئ فكرية اجتماعية. فالإسلام يرغب ويعمل لتحقيق (ملكوت) الله على الأرض في هذه الدنيا وفي أيام حياتنا[٥] وليس في وقت ما من المستقبل في آخر الزمان. فتنظيم حياة الشعب أو الأمة (بالتعبير الإسلامي الأصح) بمقتضى أحكام الشريعة والتأكيد على سيادة الجماعة الإسلامية للمؤمنين هي أهمّ لهداية العالم بأسره بدلاً من هداية فردٍ واحد. الإسلام لا يؤمن بقول السيد المسيح: مملكتي ليست على الأرض. . . ولا يصرّ على مقولة: ليس بقوتي وليس بسلطاني بل بسلطان روحي. بالعكس فشرعية الحرب وتبريرها بوصفها حرباً مقدسة مفروضة ليست من المظاهر النادرة المتفردة في الإسلام. ومهما يكن من أمر فإن الموافقة الدينية على قيام السلطة السياسية بهذا الشكل بقيت القاعدة المقبولة في عصرنا هذا القرن العشرين عند الإسلام وحده».

ويسأل سمث في معرض حديثه سؤالاً يمت إلى موضوعنا بأكثر من وشيجة: هل تتناقض القوميّة أو تضعف القوى التقليدية المأثورة للوعي الإسلامي؟

للوهلة الأولى يبدو أنها تفعل ذلك بقدر كبير. الهدف القومي بناء دولة أو وحدة عند الدول العربية، أو السلافية. بناء دولة على أسس علمانية دنيوية بلغة مشتركة وأرضٍ خالصة وتقاليد واحدة وإنشاء رابطة جديدة من الولاء حيث تكون العوامل التي توحدُ الناطقين بلغة الضاد مثلاً (من مسلمين ومسيحيين في بغداد) أقوى من تلك الروابط التي تربط بغداد (بإسلام اباد) أو (طهران) أو (داكّا) التي تتكلم بلغة أخرى غير العربية.

الحركات القومية اليونانية والبلغارية والكردية والتركية بالذات فضلاً عن العربية قامت كلها في الإمبراطورية العثمانية ذات القوميات المتعددة بغضّ النظر عن انتماءاتها الدينية وفي قبرص وجدنا العرب في مصر وسورية يساندون في العام ١٩٦٤ مسيحييها اليونانيين لا أتراكها المسلمين. ومصر وزعماؤهما وحكامها مسلمون متمسكون بشعائر

---

(٥) هنا يفترق طريق الشيعة عن السنية بانتظارهم إمام الزمان.

دينهم وتعاليمه بقيت قريبة في سياستها الخارجية من الشرق الملحد ثم مع الغرب شبه الملحد لا مع پاكستان التي لم تكن فحسب البلد الذي يعيش فيه ثاني أكبر مجتمع إسلامي في العالم، بل تعرّف نفسها بأنها جمهورية إسلامية.

الإسلام الكوسموپوليتي - خلافاً للعروبة الكوسموپوليتية - قد لفظ آخر أنفاسه وذهب إلى غير رجعة. ولو أن حرباً عالمية جديدة نشبت فمن الصعوبة بمكان التصور بأن الجيوش العربية ستنازل بعضها بعضاً. لكن من السهولة بمكان أن تحارب دول مختلفة بعضها بعضاً في معسكرين متعاديين حيث يكون الإسلام فيها دين الدولة الرسمي أو دين الأغلبية.

مع هذا كلّه لن يتوقف الإسلام عن كونه قوّةً سياسية في عصرنا هذا.

إن اليقظة العربية في القرن العشرين كادت تكون مصحوبة دوماً إما بعضيدٍ أو بمنافسٍ إسلامي. إن انتصار القومية في البلاد العربية كان ينجم عنه عادة بروز العنصر المسلم السنيّ وتسنمه مركز القيادة والزعامة. ولم يلاحظ هناك تمييز وتفرقة بين الأقليات في الشعور الجماهيري. ولا فرق عظيم بين التفاني في سبيل الوطن الأم وبين التفاني في سبيل الأمة الإسلامية. وإذا أردنا الحقيقة فإن أي ابتعاد على الجو المحلي المحدود إنما تقبله دوائر واسعة في العالم الإسلامي بوصفه هوية إسلامية بالدرجة الأولى فتأخذ فوراً بنبش التعاليل الفقهية له وإيراد الآيات القرآنية لتبرير الأخذ به[٦].

(٦) پ. ج. فاتكيوتس: «في عمل قائمة بكل وثائق الهوية التي يرغب نظام الحكم في الجمهورية العربية المتحدة إصدارها لسائر مواطنيها يجعل برنامج النظام للقومية والعروبة أقل واقعية. إذا كان المواطن المصري يسهم في (المصرية) وفي (العروبة) وفي (الآسيوية) وفي (الإفريقية) فالمرء لا يسعه إلاّ أن يتساءل: أليس من الأفضل أن يرسي القرار على ما يأتي تلقائياً وبشكل طبيعي أن يكون مصرياً؟ هكذا كان دائماً وإن كان يتكلم العربية لما يقرب من ثلاثة عشر قرناً فإنه لم يكن قطّ على ادراك بشيء يدعى [أمّة عربية] بالمفهوم العصري للاصطلاح بقدر ما كان يدرك شيئاً يدعى [أمّة إسلامية] وإلى درجة غامضة بـ(مجتمع إسلامي) والإسلام من دون عروبة كان امرأً ممكناً ولا غرابة فيه. لكن أيمكن أن يكون ثم عروبة بدون إسلام؟ الحلّ بله الجواب على هذا سياسياً ليس بالعمل السهل. الإسلام اليوم ليس بُنية قياسية normative framework للجماعة وللفرد كما كانت قبل قرن من الزمن. فالعقائد الجديدة والأفكار المحدثة أضعفت الإيمان عند الكثيرين إلى حَدّ عدم الاهتمام به بل الانحدار به إلى الزندقة والتشدد والشطط والغلو كما خلقت روابط عظيمة القوة والجبروت. على أن الروابط الاجتماعية (الجماعة الإسلامية) بقيت قوية متسلطة حتى عند أولئك الذين نبذوه في سرهم كعقيدة ولم يهتموا به كممارسة، وفي العالم العربي نجده يمتزج بالقومية ويحدث أثره فيها كما أحدثت أثرها فيه. =

دخل الإسلام كثير من الشعوب غير العربية. هؤلاء في أحيان كثيرة استبقوا العرب أنفسهم في العصبية للعرب وتصدوا للشعوبيين المنادين بالمساواة بحكم تعاليم القرآن. إلاّ أن لفظة (العربي) بحدّ ذاتها تنطوي على غموض. قد يمكن أن تعني البدوي أو أي شخص انحدر من نجاد قبائلي عربي كُلاً أو جزءاً. أو هي تعني الناطق بالعربية أو شخصاً يعيش تحت حكم العرب.

وعندما تستخدم اللفظة لمجموعة أو لمجتمع عربي فعلينا أن نتحقق من كونها مستعدة لحمل السلاح للجهاد في سبيل الإسلام. أو انها حملت السلاح فعلاً وكيف كانت تستوفي أجورها ومن كان يمدّها بمعدات الحرب ويجري عليها الأقوات. في أيام الأمويين كان المقاتل العربي المطوع من صحراء جزيرة العرب قد انسحب ليفسح المجال تدريجاً لجنود شبه نظاميين يتقاضون مرتبات لاسيما الخراسانيون والإيرانيون (كان المجندون من القبائل العربية المسيحية كأفخاذ من بكر بن وائل وتغلب يأنفون من تقاضي رواتب ويرضون كإخوانهم المسلمين المجاهدين بالعطاء والغنائم) ثم انضمت وحدات الفرسان الترك إلى جند الإسلام وكانت أجورهم تدفع بالإقطاعات الأرضية واضطروا إلى تعلم اللغة العربية لأنها كانت تضمن لهم الرقي(٧).

واللغة العربية هي فرع من العائلة السامية الجنوبيّة. وأقربها إلى اللغتين العبرانية والآرامية وكلاهما من المجموعة الساميّة الشمالية الغربية. وقد كانت لغةً متكاملة دقيقة التعبير عند نزول سور القرآن على نبيه العربي - تزهو على غيرها من اللغات السامية

= هذه النزعة القومية بصبغتها الإسلامية وجدناها أكثر ثقة بالنفس وأكثر عدوانية في الدول المستقلة مما هي في الدول الخاضعة تحت حكم الأجنبي. وهي أكثر في الستينيات والسبعينيات مما كانت في ١٩٢٠، وأكثر في العشرينيات مما كانت في مفتتح القرن العشرين. إن الفترة الليبرالية في التفكير العربي وفي السياسة العربيّة للعشرينيات قد انتهت. والقومية الآن هي رأس القيم التي تغتذي بالتقاليد الإسلامية والفكر الإسلامي. إن المظاهر الدينية الإسلامية الصرفة ربما تكون قد ضعفت إلا أن المظاهر السياسية والاجتماعية اكتسبت الآن قوة دافعة جديدة. [الجيش المصري في السياسة P. J. Vatickiotis: The Egyptian Army in Politics ط. بلومنگن ١٩٦١. ص٢١٠.]

(٧) وعد أشرس بن عبدالله السلامي وكان أميراً لخراسان وما وراء النهر في (٧٢٩-٧٣٩م) بإعفاء كلّ من يشهر إسلامه من الجزية وضرائب أخرى فأقبل كثيرون ودخلوا حظيرة الإسلام فشكا الدهاقين والفرس إلى الأمير قائلين «ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً! (يريدون بكلمة عرب المسلمين الفرس) الطبري ج٨ ص١٩٦.

الشمالية الغربية بخصائص نادرة حققت لها التقدم واحتلال موقع لا يجرؤ أحدٌ على مزاحمتها فيه، فقضت على اللغتين الساميتين الشائعتين في ذلك الحين: العبرية والآرامية. في وقت حياة السيد المسيح نقرأ في الأناجيل مثلاً أن لغة السوق ولغة التخاطب في المجتمع اليهودي آنذاك كانت اللسان الآرامي وأن اللغة العبرانية كانت قد هربت إلى الكنيس الإسرائيلي وضاقت حلقة العارف بها إلى الكهنة المختصين بأداء الفروض. وانتشرت الآرامية بين العامة والخاصة وتحدث بها المسيح ونقل الإنجيل عبارتين قالهما في مناسبتين مخصوصتين وبقيتا على حالهما في سائر التراجم التي عملت للكتاب المقدس[٨].

على أننا لا نريد أن نضيع وقتاً أكثر في المآتي والأصول حول اللغة إلا من أهم سمة فيها وهي الكتابة بها، أي أحرفها التي اصطلح على شكلها وطريقة لفظها وتدوينها بأفضل ما يمكن المحافظة عليه. لا نريد أن نطيل:

يقول الدكتور جواد علي وهو خبير باقعة[٩] حول مملكة تدمر: إن القائد العام الذي نصبه أُذينة ملكها يدعى (زبدة) أو صفته ولقبه الرسمي راب حيلا ربّا وزباي رب حيلا وتدمور وهي بالنبطية الغربية من الخط العربي (القريشي) أما مصدره فالحيرة والكوفة: يقول البلاذري (ت ٨٩٢) في كتابة فتوح البلدان:

كان بشر بن عبدالملك الكندي صاحب دومة الجندل، يأتي الحيرة فيقيم بها الحين. فتعلم الخط العربي من أهلها وعن طريقه تعلم سفيان بن أميّة بن عبد شمسٍ وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة - الكتابة.

وذكر ياقوت أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة قريةٍ من قراها اسمها (النقيرة). والخط الحيري هو أساس الخط العربي وهو أقدم أشكاله والخط الحيري اشتق من الخط الآرامي.

وينقل البلاذري أيضاً عن عباس بن هاشم بن محمد الكلبي (من أشهر الرواة وأصدقهم رواية عند الأقدمين): إن ثلاثة نفرٍ من طيء اجتمعوا بـ(بقة) بالحيرة

(٨) اللغويون اليهود يرددون ربما بلهجة لا تخلو من حنق «إن لغة العرب بقيت لغة متماسكة مستقرة أكثر من أية لغة سامية أخرى. وبذلك ساعدت كثيراً في تحسين وفهم كثير من التعابير والمصطلحات في العبرانية القديمة لاسيما في عبرانية التوراة».

(٩) المرجع السالف ج٣. ص١٠٢.

وهم: مرار بن مرّة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة. فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية(١٠).

انتشرت اللغة العربية مع انتشار الإسلام واتساع رقعته. بل حتى قبلته بعض الشعوب. كانت ثم مستعمرات تتكلم العربية قبل الفتح الإسلامي. في سورية الداخلية وغرب العراق الجنوبي والوسطي كان معظم السكان يتكلمون العربية أيام غزوة الجيوش الإسلامية بقدر ما يتعلق الأمر بلغة الخِطاب إلاّ أنها وجدت أمامها سداً بإيران حيث استمر استخدام الفارسية ولم تجد عقبة لها كلغة كتابة في عالم الإسلام. حمل الدين اللغة معه وقرأ القرآنَ بالعربية المهتدون الجدد من غير العرب وقاموا بدور واسع النطاق

---

(١٠) هناك روايات عديدة مشابهة نجمع أطرافها بهذه الجولة المختصرة:

كان يسكن الحيرة بعد أن مصّرها [عمر بن عدي] ثلاث طوائف: عرب الضاحية، والعُبادية، والأحلاف. فأما عرب الضاحية فهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والأجانب الذين لم يسكنوا بيوت المدر وهم بحسب (الطبري) التنوخيون الأوائل الذين هاجروا من اليمن وكانوا ينزلون بين الحيرة والأنبار. وأما العبّاد وهم الذين كانوا قد سكنوا الحيرة وابتنوا بها قال عنهم ابن العبري فهم من نصارى العرب ومن قبائل شتى اجتمعوا وابتنوا قصوراً لهم في ضواحي الحيرة وتسموا بالعباد لأنه لا يضاف إلا إلى الخالق وأما العبيد فيضاف إلى المخلوق والخالق وهذا رأي (ياقوت) أيضاً. أما الأحلاف فهم الذين لحقوا بأهل الحيرة وليسوا من أي من السابقين. إلى جانب هؤلاء كان يقيم جماعة من النبط العراقيين بقايا العراق القدامى من الكلدانيين والبابليين والآراميين (حسب قول غنيمة: نصارى العراق) واشتهر العباديون بمعرفتهم القراءة والكتابة.
قال أمية بن أبي الصلت وهو من شعراء الجاهلية يفخر بقومه:

قوم لهم ساحة العراق إذا ... ساروا جميعاً والقط والقلم

القط هو هندمة الكاغد أو الجلد الذي يكتب عليه وهو أيضاً (ابن منظور) كتاب التسجيل أو دفتره. يقول ابن هشام صاحب السيرة تعليقاً: وكانت الكتابة في هذه البلاد التي ساروا إليها. فقد قيل لقريش ممن تعلمتم القط والكتابة، قالوا تعلمناه من أهل الحيرة، وتعلمته الحيرة من الأنبار. يذكر المؤرخ ألبرت حوراني في كتابه (تاريخ الأمة العربية A History of the Arab People (1991)): «أقدم كتابة باللسان العربي بالخط الآرامي يمكن إرجاعها إلى القرن الرابع للميلاد (ص١٢).

ويذكر ابن خلدون (المقدمة الفصل الثامن والعشرون): «كان الخط الحيري من الحيرة لقنه أهلُ الطائف وقريش فيما ذكر، ويقال إن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أميّة ويقال حربٌ بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة وهو قول مقبول وأقرب من قول من ذهب إلى أنهم تعلموها من (إياد) أهل العراق وهو قول بعيد لأن (إياداً) وإن نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا إذذاك على شأنهم من البداوة»

لا نظير له ولا شبيه به في تفصيل نظام الفكر والشرع المنبثق عنه. أمّا غير المهتدين فقد استمروا في استخدام لغتهم في أغراضهم الأدبية ومراسمهم الدينية ولم يُضيّق عليهم قط من هذه الجهة. وآية ذلك أن الكنائس الشرقية بقيت حتى اليوم تستخدم لغاتهم الطقسيّة كالسريانية والقبطية والكلدانية الآشورية. أما الآرامية والعبرانية فقد بقيتا لغة عبادة اليهود ومدارسة تعاليمهم الدينية. واتخذت الكتب الزرادشتية (المجوسية) بشكلها الفهلوي الأخير وهو لغة من الفارسية شاع قبل الفتح العربي وبقي بمجيء الإسلام. وبقيت الكردية لغة المخاطبة منحصرة في الجبال إلاّ بعض العلماء الزهاد والكتاب الذين سكنوا المدن وأغنوا اللغة والتاريخ العربي بمؤلفاتهم. إلاّ أن الأغلبية بقيت غير مكترثة وزحف الدين إلى تلك المعاقل الجبلية ببطء كبير وبحروب دامية ومقاومة عنيفة. كان الكرد مسيحيوهم وزرادشتيوهم متمسكين جداً بعقيدتيهما. وعندما تسللت العربية إلى كردستان في قرون متأخرة اضطر المؤلفون والعلماء الأكراد إلى اتخاذ الأبجدية العربية لكتابة لغتهم.

بعد فترة برسوخ قدم اللغة العربية وقيام علمائها وأدبائها وشعرائها بفتح مكنونات هذه اللغة النفيسة الرائعة بتأليف أول أكاديمية علمية لنقل تراث الحضارة العالمية إلى تلك اللغة في بغداد وفي المؤسسة التي عرفت بـ(بيت الحكمة) التي قيل إن الخليفة المأمون راعيها كان ينفق عليها وعلى موظفيها خراج بلاد فارس كله، وعندها بدأ يُلاحظ تغييرٌ في كنائس الشرق المسيحية. فقد لوحظ دخول العربية في الأدبيات الطقسية واضحاً ونظمت أو ترجمت أعداد من التراتيل بها.

اليهود في إسپانيا بدأوا يستخدمون العربية لدراسة الفسلفة والعلوم والشعر ولم تلق صدوداً أو ممانعة من حكام الإسپان الصغار كل في دويلته في الشمال. لكن الفارسية بقيت سَدّاً أمام انتشار العربية نحو الشرق في القرن التاسع عندما بدأت لغة الفرس تستظهر عليها بحصانٍ إسلامي إن صح التعبير وبوصفها لغة أدبٍ ونثر لكن العربية استمرت في إيران باعتبار اللغة الأساس لدراسة الشريعة والدين. ويلاحظ في كتابات هذه الفترة أن كلمات من أمثال «العرب» و«العربي» و«العربية» صارت تتلبس بمعاني أوسع مما أُثِر عنها لتطغى على معاني الألفاظ السابقة فيقصد بها أولئك الذين جاءت أصولهم من جزيرة العرب، بالأخص أولئك الذين كانوا يستطيعون أن ينتسبوا لقبائل بدوية ذات تقاليد عسكرية. أو لعلها استخدمت كذلك بارتباطها بكل من اتخذ العربية وسيلة مخاطبة: بدءاً من مراكش وإسپانيا وانتهاء بحدود فارس الشرقية. وربما تنداح

الرقعة أكثر من هذا لتشمل أولئك الذين باتت العربية عندهم واسطة للتعبير عن ثقافة أدبيّة عالية ومباحث روحية وفلسفية معمقة.

منذ بداية القرن التاسع بدأ انتشار الآثار الكتابية بنطاق واسع بفضل استخدام (الكاغُد). كان نبات البردي والپارشمنت (الجلد الرقيق المدبوغ) هو الوسيلة الوحيدة للكتابة. إلاّ أن صناعة الورق تطورت في أوائل القرن التاسع ومصدره الصين إذ ابتدأت خراسان في صناعته ومنه انتشر في سائر الأقطار.

وفي نهاية القرن العاشر تمخض التاريخ البشري العام بما يصحّ أن نطلق عليه «العالم الإسلامي» بثقافة وتراث ديني مشترك يمكن التعبير عنها بالروابط الإنسانية العاطفية والاقتصادية والتبادل التجاري والمشاركة الدينية في احتفالات خاصة كموسم الحج والفروض. إلاّ أن هذا العالم في أوقات مختلفة لم يعد ذلك العالم الموحد سياسياً. فقد كان له في آن واحد ثلاثة رؤوس كلّ منهم يدعي بأنه خليفة المسلمين، واحدهم في بغداد وثانيهم في القاهرة وثالثهم في قرطبة[١١] يضاف إليهم آخرون هم رؤساء دول قوية مستقلة لا يدينون بطاعة لأي من هؤلاء. لم يكن هذا موضع غرابة؛ فإن إبقاء هذا العدد الكبير من البلدان والأمصار بتقاليدها المختلفة وتراثها الخاصّ وبمختلف الجنسيات والمصالح وحصرها في إطار إمبراطورية واحدة ولهذه الفترة الطويلة هو بحدّ ذاته إنجاز عجيب حقاً ما كان يمكن أن يتحقق من دون رابطة العقيدة وقوتها التي خلقت مجموعة متماسكة لكن بشكل لا يمنعها عن الاحتراب والفتك إحداها بالأخرى. إلاّ أنها مع هذا خلقت حلف مصالح بين المجموعات الحاكمة التي

---

(١١) الباحث الكبير والفقيه المصري الشيخ علي عبدالرازق: «الخلافة ليست أصلاً من أصول الإسلام وليس في القرآن أو السنه النبوية ما يشير إلى الإمامة والخلافة. إن حكومة أبي بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة لادينية. ولولا أن نرتكب شططاً في القول لعرضنا على القارئ سلسلة الخلافة إلى وقتنا هذا ليرى على كلّ حلقة من حلقاتها طابع القهر والغلبة وليتبيّن أن ذلك الذي يسمى عرشاً لا يرتفع إلا على رؤوس البشر. ولا يستقر إلا فوق أعناقهم. وأن ذلك الذي يسمى تاجاً لا حياة له إلا بما يأخذ من حياة البشر ولا قوة إلاّ بما يغتال من قوتهم، ولا عظمة ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم».
حوكم الشيخ عبدالرازق أمام هيئة من كبار علماء الأزهر التي ينتمي لها فقضت بإخراجه من زمرتها باعتبار أقواله تهدد نظام العقيدة الإسلامية بكاملها وحرمانه من منصبه فعاش بقية حياته في عزلة. إلا أن أفكاره كان لها الصدى العميق وقد تأثر بها (سعد زغلول) في نضاله. وكان (العقاد) الذي دافع عن الدستور والحياة الدستورية واحداً من كثرة من حملة دعوته.

تسيطر عليها وبين قطاع واسع من المجتمعات التي تحكمها.

لكن، لا الدين ولا القوة العسكرية ولا اتحاد المصالح الاقتصادية كان قادراً على صيانة هذه الوحدة والإبقاء عليها إلى ما شاء الله في إطار إمبراطورية تمتد من أواسط آسيا حتى ساحل الأطلسي. ومنذ القرن العاشر فصاعداً أصبح التاريخ السياسي لأي بلاد حيث الحكم وغالبية المحكومين إسلاميون سلسلة من تاريخ اقاليم ودول متعددة.

* * *

لنضرب بإسبانيا مثلاً.

دخل حظيرة الإسلام كثير من الأسر المسيحية، وترك أكثرها من بعض من بقي علىٰ دينه أسماءه المسيحية واتخذ لنفسه أسماء عربية مع نسبة عائلية أو قبائلية كـ«بنو فلان» أو «بني كذا» وحصل تزاوج كثير بين المسلمين والنصارى كزواج عبدالعزيز نجل موسى بن نُصَير القائد العربي وعدد كبير من قادة الجيش الغازي بنساء من الأسرة الملكية أسرة الملك المغلوب [ڤتزا أو ويتيزا] وهو (غيطشة) في كتب التاريخ العربية آخر ملوك الفيزغوط الإسبان وبات كلّ أمهات الجيل الثاني مسلمات أكن أم مسيحيات إسبانيات العرق في جميع أنحاء البلاد المفتوحة. أمّا مسلمو الجيل التالي فقد فضلوا أن تكون أمهات أولادهن من تانك الإماء الشقراوات اللاتي يبتعن من شمالي إسبانيا على أن يكن من بنات جلدتهن عرباً أو بربراً.

استعرض البرفسور (ريبرا) وهو ثقة في الاستشراق العربي ونحن ننقل عنه[١٢]، استعرض الأستاذ سجلّ النخاسة القرطبي لفترات زمنية متعددة فتوصل إلى أن ابتياع الرقيق لم يكن كما يبدو بالعملية البسيطة إذ كان يجب أن تبرم الصفقة عند الكاتب العدل. وأن يؤخذ بكل اعتبارات معينة منصوص عليها كبيان الغرض من شراء الجارية ومَلَكاتها ومواهبها وأسلوب معاملتها.

ونعمت النساء هناك بحرية ورعاية في فترة حكم أمويي إسبانيا تفوقان بكثير ما كان يتمتع به أخواتهن ومعاصراتهن في خلال حكم عباسيي بغداد. ويظهر كذلك أنه كان

---

(١٢) Julian Rebera خوليان ريبيرا: من كتابه أبحاث ومقالات ج١ Disertaciones Yopuscule الص ١٧-٢٥. طبع مدريد ١٩٢٨. (الفقرة منقولة من ترجمتنا لتراث الإسلام الطبعة الخامسة. أربيل الص ٢٢-٢٣) نقول كان الكاتب أستاذاً للعربية في سرقسطة وتوفي في ١٩٣٤.

مناسباً جداً لتانك اللاتي قدّر لهنّ أن يكن أمهات لأولاد أسرة عربية أو مستعربة عريقة - بيضاوات البشرة زرقاوات العيون شقراوات (يفضل العربُ والبربرُ أن يكنَّ من غاليسيا (جليقيه) شمال إسپانيا) أو جنوب فرنسا الغربي والنتيجة؟ راح الدم العربي يتناقص في عروق السكان باطراد. وفي غضون سبعة قرون من تعاقب الأجيال البشرية وإن ظلّت الأنسال تتمسك وتتكنى بأسماء أسلافها الذكور العربية التي اتخذتها بعد الفتح. فكلما زاد عدد الأسماء العربية اللاصقة بكنية الرجل قلّت فيه نسبة الدم العربي أو البربري. ومن الخطأ الفادح القول إن كل مسلمي إسپانيا هم عرب وإن كلّ النصارى هم غوطيون أو رومانيون. وإن كل هؤلاء الأخيرين لجأوا إلى الشمال هرباً من الفتح الإسلامي. ومن الخطأ الفادح القول إن (حرب العودة) التي ظلت مستعرة طوال ثمانية قرون إنما كانت حرباً بين الغوط اللاتين في الشمال وبين عرب الأندلس في الجنوب. هذا هو الذي جرى على تلقينه كتاب العرب المتأخرون ذوو النزعة القومية مع الأسف الشديد وهو خطأ.

أفاض الكاتب (آر. دبليو بوليت)[١٣] في تقديراته حول عدد المسلمين في أوائل ضحى الإسلام وأقصد عصر الأمويين في كتابه (التحول إلى الإسلام في فترة العصور الوسطى) قال:

«في نهاية عصر بني أميّة كان هناك أقل من عشرةٍ بالمائة من مجموع السكان في إيران والعراق وسورية ومصر وتونس وإسپانيا من المسلمين. وإن كانت النسبة في جزيرة العرب أكثر من ذلك بكثير. وأغلبية المهتدين قد يكونون إمّا من طبقة العامة أو الدنيا في السلم الاقتصادي كالجنود المغلوبين في الحروب أو موظفي الحكومة الساسانية التي استخدمهم الحكام الجدد...

«لم يكن هناك ممارسة لترغيب أو ترهيب أو أي ضغط. والباب مفتوح. ما

---

(١٣) R.W. Bulliet: A New Vision to Islam in the Medieval Period كمبرج ١٩٧٩. ص٨٨:
«كان طارق بن زياد قائد أول حملة ناجحة في إسپانيا ولكنه لم يكن عربياً بل من بلاد البربر يمت بالولاء لعامل الأمويين موسى بن نصير. كذلك كان القسم الرئيس من رجاله الغزاة. وتؤيد الأرقام التي نجدها في المآثر الأوروبية وإلى حدّ ما في الحوليات العربية أن العرب في حملته لم يكونوا يزيدون عن الثلاثمائة أمّا البربر فيعدون أكثر من سبعة آلاف. والقوات التي نزلت في السنة التالية كانت أيضاً خليطاً عجيباً قلتهم عرب الجزيرة والكثرة من البربر والسوريين والأقباط» آه.

عليك إلا أن تنطق بالشهادتين فتكون من العباد الذين اصطفاهم ربك. إلاّ أن الصورة في نهاية القرن العاشر الميلادي تغيرت. وتحول قسمٌ كبير من السكان إلى الإسلام في الريف وفي الحضر. من أسباب هذا التحول قد يكون خروج الإسلام عن طابع الغموض البدائي، ليغدو بالجدال المنطقي والاجتهاد ودخول الفلسفة الهلينية واضح المعالم معرّفاً خير تعريف. وأصبح الخط بين المسلم وغير المسلم بيّناً بما فيه الكفاية. وبات المسلمون يعيشون الآن ضمن نظام دقيق محكم من الطقوس والمراسيم والفروض، وبدت الشريعة الإسلامية تختلف اختلافاً بيناً عن شرائع غير المسلمين. وتحددت الأحوال المدنية والشخصية لليهودية والزرادشتية تحديداً أكثر وبمنظار أدق. وبدت في بعض أوجهها أدنى من الإسلام درجة. إنهم اعتبروا من «أهل الكتاب» و«أهل الذمة» فلم يمارس عليهم أي ضغط لحملهم على اعتناق الإسلام. لكنهم عانوا مضايقات التفرقة ودفعوا والمسيحيين ضرائب مخصوصة بسبب الدين وفرض عليهم (الأصح كان من المفترض) أن لا يلبسوا ثياباً ذات ألوان مخصوصة ولم يكن لهم الزواج بامرأة مسلمة في حين كان العكس جائزاً. وشهادتهم لا تقبل ضد مسلم في مقام قضاء. بيوتهم وأماكن عبادتهم يجب أن لا تكون فخمة ملفتة للأنظار. وبصورة عامة يمنعون من مزاولة وظائف عمومية ذات سلطة. أو أن يملأوا مراكز حساسة إلا بعد إشهار إسلامهم صدقاً أو تقيةً (مع أن كثيراً منهم كانوا أمناء سِرّ أو مدراء مال أو محافظي خزانة لحكام مسلمين). آه.»

ترى بأيّ شكل من الجدية والصرامة كانت هذه القيود تطبق؟ إنها كانت تتأثر بمزاج الحكام المستبدين وتعود للأوضاع المحليّة. إلاّ أنها كانت قيوداً في أفضل الأحوال - والخلاص منها عادة شيء موقت بمجيء حاكم لامبال أو سكير أو مبتذل لا يعاقب من يفعل فعله. إلاّ أنها كانت في أفضل أحوالها قيوداً مرسومة تجعل المسيحيين وغير المسلمين في وضع القلق الدائم وتحفزهم أحياناً على اعتناق الإسلام[١٤].

(١٤) امتنع الجراجمة على الدولة الأموية وهم مسيحيون يسكنون جبل اللكام من سلسلة جبال أمانوس شمال سورية واعتصموا بعاصمتهم (جرجومه). روى البلاذري وغيره كثيرون أن الوليد ابن عبدالملك (٧٠٥-٧١٥م) سيّر وراءهم وقد امتنعوا عليه أخاه (مسلمة) فلم ينل منهم. إلا =

عملية التحول التام إلى الإسلام لم تكمل قط. إلا أن اللغة في ذلك العصر نجحت في شق طريقها. وكان على الإسلام أن ينتظر قروناً ليلحق بها أولاً ثم لينقضّ عليها فيضمها تحت جناحيه.

عندما أشرقت شمس القرن الخامس عشر كان لدينا في العالم الإسلامي (وفيه العالم العربي) دول عظيمة أربع: دولة العلويين في مصر، والعثمانيون والصفويون والمغول، وبينها كانت تعيش دويلات ذات ملامح قوميّة فارسية تركمانية عربية كردية بربرية بل وإفريقية أيضاً.

إلاّ أن هذا التغيير السياسي لم يقض على الوحدة الثقافية في العالم الإسلامي بل زاده عمقاً في الوقت الذي بدأ عدد المسلمين يتصاعد وتنقل الإسلام خلال ذلك معبراً عن نفسه بأنظمة واتجاهات فكرية. إلاّ أنه وبمرور الزمن بدأت هذه الوحدة بإطارها الثقافي الواسع تتفكك. ففي الجزء الشرقي من إيران وما وراءه وشماله لم يوقظ مجيء الإسلام إليه الإحساس بأمجاد الماضي وبالماضي نفسه بالدرجة التي أيقظها في الجزء الغربي من الإمبراطورية.

أطفأت اللغة العربية بالتدريج سراج اللغات المحلية. وواصلت في جنوب إيران وغيرها من أهل الأقاليم الشرقية كما قلنا. إلاّ أنهم رفضوا اللغة رغم إسناد الوظائف العامة لهم في الدولة العباسيّة ومشاركتهم مشاركة رئيسة فعّالة في خلق الحضارة الإسلامية والثقافة العربية إلى جانب علماء كلدة وآشور البائدتين.

إن الإحساس بالفرق إضافة إلى نظرات العداء للشيعة المشبعة بالاحتقار وجدت متنفساً لها في حركة الشعوبيين والشعوبية وبقيت الفهلوية حيةً عند الزرادشتيين وفي دوائر الحكومة وظهر في القرن العاشر الأدب الفارسي باللغة الفارسية إلا أن الفارسية استعارت الأبجدية العربية وصارت تكتب بها إلى يومنا هذا مع آلاف الكلمات والتعابير العربيّة.

= أنه اصطلح معهم على شروط عند دخول عاصمتهم على أن ينزلوا في بلاد الشام حيث شاؤوا وأن لا يكرهوا بأي شكل على ترك النصرانية أو ممارسة طقوس دينهم بحرية وأن لا تفرض عليهم الجزية.

وشبيه بهذا التعاون العملي ما فعله مؤسس دولة بني أميّة (معاوية) بعقد صفقته الشهيرة مع أهالي صور وطرابلس المسيحيين فقد رفع عنهم الجزية. ورفع قيد التزيي بما يميزهم عن المسلمين. وفتح أبواب الوظائف العامة لهم لقاء تعهدهم ببناء خمسمائة سفينة حربية لقتال الروم.

إن اهتمام هذا الكتاب سيكون منحصراً في الجزء الغربي من العالم الإسلامي (الشرقين الأوسط والأدنى) حيث اللغة العربية والثقافة العربية هما سيدتا الميدان في الثقافة العالية وعلى الألسن والتعامل البشري في الحياة اليومية باختلاف اللهجات المحلية.

وإنه لمن الخطأ الكبير التفكير في أن كل إقليم من هذه الأقاليم يعيش عالمه الخاص منقطعاً عَمّا يجاوره. فالبلاد الناطقة بالعربية ما زالت تشدّها أواصر الدين والجوار القويّة مع الفرس والترك بكل ذكريات الماضي. وأنه من السذاجة والغفلة بمكان التفكير أن الأقاليم والبلاد التي يسودها اللسان العربي هي بلاد واحدة ومن الأوفق التفكير فيها بوصفها مجموعة من الأقاليم يختلف بعضها عن بعض في الحجوم والموقع الجغرافي وطبيعة الأرض والمناخ ويسكنها أناس ورثوا تقاليد اجتماعية وتراثاً ثقافياً وحضارياً متمايزاً بعضها عن بعضٍ وهي ما زالت باقية في مجرى الحياة اليومية كأسلوب لا يحاد عنه. وربما كان الخلاف كبيراً في أساليب التفكير والمشاعر النفسية بعد أن طرأ على الوعي الديني الحماسي لما قبل الإسلام فتور فبدا وكأنه انطفأ تقريباً، وابتني فوقه تقاليد ومقومات ومفاهيم الدين الجديد العالمي الاتجاه الذي تمكن بسرعة مذهلة من أن يخرج قبل أكثر من أربعة عشر قرناً تلاحماً جذرياً ورابطة عصرية الملامح بين سكان الجزيرة العربية لم تشهد مثلها في السابق وأن يخرج منها «أمة تدعو للخير» وأن يثبت لها لغة عصرية اتسعت بسهولة للتعبير عن كل الخلجات النفسية والمبتدعات الطارئة. لغةٌ بقيت زهاء أربعة قرون وربما تزيد الأداةَ الوحيدةَ الناقلة للفكر وللمدنية دون نزاع واحتلت بذلك الكثير خلال هذه الفترة مكان الصدر بين اللغتين اللاتينية واليونانية. والإسلام نفسه لم يكن كالأديان التي سبقته فقد نهض على قائمتيه بفضل إنسان واحد هو محمد بن عبدالله وانفرد بين مؤسسي الأديان الأخرى والأنبياء الغابرين بهذا، ولم يكن الدين الذي دعا إليه يحتاج مثلهم إلى تقنين وإلى عدة رسل تابعين ولقد سبق أن تكاملت تلك الأديان وكان ثم ملايين آمنت بها واعتنقتها. لكل من البشر حتى عبدة الأوثان دينه ومعتقده ولكل من المسيحيين واليهود والبوذيين والزرادشتيين كتاب وحيه المقدس وممارساته الطقسية. إلا أن القرآن الموحى به تفوق عليها بوضعه قانون المساواة لا بين العرب وحدهم بل بينهم والآخرين إلا أنه فضلهم بنزول القرآن فيهم أولاً وبلغتهم ثانياً. وُصف كتاب الوحي هذا بأنه نسيج وحده لم يسبقه كتاب مثله ولن يأتي أحد بمثله في الزمن الآتي ولا يلحق به شبيه أو قرين إنما هو معجزة المعجزات لا

يجرؤ عليه ناقد ولا ينتاب أحداً ريب فيه، ومن يشك في أي كلمة منه من المسلمين يخرج عن دينه ويعد من الكافرين. ففيه ما يدل صراحة على أن محمداً الموحى به إليه هو خاتم الأنبياء حاملي الرسالة الإلهية.

النظرة المبدئية للإسلام من القومية والقوميات ومن أصحاب ديانات التوحيد كان فيها من الوضوح الكفاية. ادعى أنه مجدد لتلك الديانات بسبب ما شابها من أوضار الجاهلية والمظاهر الوثنية واتهم دعاتها بالتحريف والتزييف والانحراف بعقيدتهم الأصلية إلى سبل الضلال. ومع تسامحه في مساكنتهم والتعايش معهم في سلام وإعطائهم لوناً من الشرعية والحرية الاجتماعية إلاّ أنه لم يقرّ بالمساواة التامة لهم مع المسلمين. فهم بحكم القرآن مواطنون من الدرجة الثانية عملاً وواقعاً لا نظرياً. يعاملون ببعض التعالي والأنفة وتفرض عليهم جزية خاصة ولا يسمح لهم بالمشاركة في الجهاد ولا في إدارة شؤون الدولة ولا تسند إليهم مناصب عالية فيها. لكن للضرورات أحكامها وقد كسرت هذه الحواجز والقيود أكثر من مرّة في العهود التالية كما قدمنا.

شق عرب الجزيرة طريقهم إلى الأمام - في صدر التاريخ البشري وفي فترة زمنية موآتية نادرة المثال[١٥]. الطبقة العليا من المجتمع المصري كانت تشعر بضيق

---

(١٥) المبالغة في عدد الجيوش المتحاربة كانت من الأمور الاعتيادية عند سائر المؤرخين شرقاً وغرباً أو أوروبيين. في الواقع كانت جيوش العرب كغيرها في ذلك الزمان صغيرة لا تزيد عن ألفين في معظم الأحوال وربما بلغت ثلاثة آلاف والانتصارات التي سجلها المؤرخون المسلمون والعرب كانت محدودة وقد تمّ أغلب الفتوح صلحاً - لكن آثار الفتوح كانت عظيمة. عدد قليل بسلاح خفيف وتمرين قليل وبإدراك تام بأنهم يخوضون معركة تختلف تماماً عن المعارك القبلية والغارات بهدف الغنيمة أو على تخوم الإمبراطوريتين بدافع الجوع والكسب. فالآن هناك مقاصد روحية ومعنويات عالية تشيع في نفوس المؤمنين بالدين الجديد وهناك قادة معينون من مركز السلطة ومرجع لا ينقض أمره، يتمّ اختيارهم لمواقع معاركهم وميادينها بدقة وعناية مكنتهم من الاستيلاء على أقاليم شاسعة. عامل السرعة والمباغتة أمنته لهم خيولهم إلا أن إبلهم منحتهم قابلية التحرك والحركة في الصحراء فكل الانتصارات التي حازوها كانت الصحراء ميدانها أو ما هو في حدودها وبشكل يضمن الانسحاب السريع أمام الجيوش العدوة عندما ترجح كفة الخصم. والتاكتيك المألوف هو أن تستدرج قوات العدو إلى وادٍ وأن تستخدم طبيعة الأرض لإيقاعها في الفخ فهي بالتالي لا أكثر من غارة قبائلية موسعة لما كان يجري في الجزيرة. كان تكتيكاً لا عهد به لخصومهم من قبل بسلاحهم الثقيل وبتشكيلات المعركة الكلاسي الذي اعتادوه.

واحدة من المعارك الفاصلة التي أدخلت سورية في حكم الإسلام تلك المعركة التي جرت على =

ومحدودية في أفق الكنيسة البيزنطية إلى جانب يد القسطنطينية الثقيلة المرهقة. وعموم السكان من الفلاحين بالكاد نضوا عنهم آثار العبادات الوثنية الفرعونية وهم اليوم كما كان أجدادهم بالأمس مضطهدون في ظلّ الديانة الجديدة مستغلون كالعبيد رغم حداثة عهدهم بالديانة الجديدة التي تبشر بسلام لم ينالوه من حكامهم وهم في عين الوقت موزعو الفكر في حيرة من عواقب الاحتراب المذهبي العنيف بين أحبار الكنيسة. وأسوأ من هذه الحال كان الوضع الذي يسود إيران ومستعمراتها في وادي الرافدين حيث كانت المزدكية - وهي وجه من الزرداشتية الديانة الرسمية. وكان ثم نزاعٌ دموي محتدم بين طبقة الكهنة (الموبدان) وبين العرش كفيل بإسقاط الملوك والملكات بسهولة قيام الخريف بإسقاط أوراق الشجر.

وحيث فلاحو أرض السواد (وهي بلاد الرافدين الجنوبية) ومزارعوها عموماً لاسيما المسيحيون منهم الذين يتكلمون الآرامية والسريانية ينوؤون تحت أعباء ضرائب الساسانيين الملاكين وطبقة العظماء والنبلاء الذين لا يتركون لهم من الغلة ما يكفي لسدّ الرمق. ما إن شدّت العقيدة الجديدة هؤلاء البدو المتحضرين حديثاً بوحدةٍ الهدف حتى انطلقوا لتغيير ميزان القوى التي تمتلك تحريكها أكبر إمبراطوريتين معروفتين في تلك الحقبة من الزمن وفي غضون سنوات قليلة وبآلاف قليلة من المجاهدين الممتلئين حماسة واندفاعاً لاقتبال الموت بوعدٍ في حياة أخرى كلها نعمة وسعادة. وبساقةٍ لهذه الجماعات المقاتلة الصغيرة طمعاً في الغنيمة والأسلاب، ويأمل السكان بحكام أفضل من حكامهم بل بتعاون من الأهلين والحكام أنفسهم أحياناً، تمكنت هذه «الفئة القليلة» أن تتغلب على فئات كبيرة، أحياناً بحروبٍ وأحياناً كثيرة بدون مقاومة بل باستسلام وصلح. بهذا تمكن العرب المسلمون من تثبيت أقدامهم في الهلال الخصيب (العراق وسورية ولبنان وفلسطين) وفي مصر العليا والدنيا وفي ساحل أفريقيا الشمالي حتى

= ضفة نهر اليرموك في ٦٣٦م تحقق فيها النصر لخالد بن الوليد بفضل عاصفة رملية ساعدته على إخفاء رجاله عن أعين الروم، وساعدت عاصفة رملية أخرى في ٦٣٧م على انتصار القادسية وبفضلها امتلكوا العراق. إلا أن العواصف الرملية لم تكن دائماً مهيأة لمساعدة العرب المسلمين في حروبهم الكثيرة فهناك الحماسة الدينية الهائلة للنخبة من الصحابيين وبقايا الأنصار وأبنائهم وذريتهم وهناك الاستباق إلى الجنة كما يصوره لنا المؤرخون. إلا أن القسم الأكبر كان يتألف من القبائل المسيحية العربية التي تقطن بادية الشام إلى جانب إخوان لهم جاؤوا من قلب الجزيرة. والواقع هو أن الفتوح العربية سهلت عملية هجرة سامية أخرى أو أخيرة من الجزيرة تقارن بتلك التي جاءت بالأكديين والآراميين.

إسبانيا غرباً وبلغوا ضفاف السند ودخلت بلاد فارس حوزتهم كما أخضعت بلاد التركمان وراء النهر. وكل ذلك تمّ خلال ثمانين عاماً فقط.

عندما أوقفت قبائل الغال سكان فرنسا تقدمهم في معركة (تور) أخذ الجزر يميل إلى ساحلهم ونشأ نوع من الاستقرار في الغرب. وفي الشرق انتفض الفرس ليقيموا دولهم بحسب نظمهم السياسية من دون الحضور العربي. ونشأ أيضاً نوع من الاستقرار ضمن حدود المنطقة التي يسودها اللسان العربي. ثم عندما صار الإسلام دين الأفغان والتركمان والكرد والترك والفرس والتتر والصغد وهنود السند وغيرهم من الأقوام تقلبت الحظوظ بالسيادة العربية الإسلامية في آسيا حتى كان الاستقرار النهائي في غضون القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بالتوسع العثماني في الأقاليم التي تنطق بالعربية وقد بقي حتى انحلال إمبراطوريتهم.

مع هذا كله فإن نظرة ثاقبة دقيقة لمجرى التاريخ العربي تكشف لنا عن حقيقة حاول المؤرخون العرب وبعض المؤرخين المتسرعين السطحيين إغفالها أو استغفال الناس بكتمها عنهم. فما يدلنا التاريخ عليه هو أن العرب كقوم (أو أمة - أو قومية) بقوا في انتصاراتهم وأوج مجدهم - باستثناء أحشاء جزيرة العرب وقلبها وبعض سواحلها - أقول بقوا أقلية أينما حَلّوا أو نفذت جيوشهم وإدارتهم أو باستقرارهم السلمي بالهجرة أو النزوح إلى بلاد الغير بقوا ضعفاء مستهدفين دائماً. ولم يكونوا قادرين على الاحتفاظ بسيادة مطلقة على الأصقاع التي فتحوها و(مصّروها) لو لم يستندوا إلى معونة فعالة إيجابية، أو غير فعالة رضائية، لقطاع كبير ممن دخل حظيرة الإسلام وباتوا تحت حكمهم. خير مثال نأتي به هنا الفرسُ الذين ما مَرّ عليهم قرنان من الزمن حتى استقلوا بأنفسهم، وبسطوا في حين من الزمن سيطرتهم على قلب الخلافة. وحكموا من حاضرتها بغداد. نزعوا عنهم رداء اللغة العربية بعد أن اغترفوا من كنوزها وتعابيرها الرائعة ما ضمن لهم إحياء لغتهم الفقيرة لكنهم بقوا متمسكين بدينهم الجديد ثم تحزبوا بمرور الزمن لنسخة منه أغنوها بفلسفتهم الخاصة. وأنا لا أملك هناك من الاستشهاد بالشاعر الفارسي الشهير (مهيار الديلمي)[١٦]. انظره كيف يفخر وبأي شيء يفخر:

قـومـيَ اسـتـولـوا عـلـى الـدهـر فتىً ومشـوا فوق رؤوس الحِقَبِ

(١٦) شاعر فارسي (٩٧٩-١٠٣٧م) عاش في بغداد وولد في الديلم وهو الجزء الجبلي من إقليم گيلان في إيران. كان أحد تلامذة الشاعر الشريف الرضي. لم ينظم بغير العربية.

عمّموا بالشمس هَامَاتِهَموُ وبنوا أبياتَهم بالشهبِ
وأبي كسرى علا إيوانُه أين في الناس أبٌ مثلُ أبي
قد قبستُ المجد عن خير أبٍ وقبستُ الدين عن خير نبي
فضممتُ المجد من أطرافه سؤددَ الفرسِ ودين العرب

هذه الأبيات الشعرية ولها دلالتها تجمل الفكر السياسي السائد في القرن العاشر عند الفرس وربما عند غيرهم.

في بلاد مابين النهرين وسورية حتى فلسطين كانت هناك بنية قومية متراكبة وهي على طبقات، بالفلاحين والمزارعين وأبناء الريف الذين يتحدثون بالآرامية ومختلف لهجاتها وبالبدو العرب على حدودها الشرقية والجنوبية الصحراوية وشبه الصحراوية هؤلاءِ ينطقون بلجهات آرامية كذلك رغم بُنيتهم وتكوينهم الأنثروبولوجي المختلف عن بقايا الشعوب القديمة التي عاشت في عصور قديمة هناك. وكان محتوماً أن يحصل امتزاج وتزاوج بين الأقلية العربية وبين الأكثرية من السكان الأصليين بسرعة وبسهولة من حيث إن هؤلاء الفلاحين وأهل الريف تعودوا خلال قرون التعامل مع دويلتي أو محميتي آل (غسان) في سورية وآل (لخم) في الحيرة اللتين كانتا تحت حكم أمراء عرب تحميان حدود الإمبراطوريتين من غزوات القبائل الصحراوية وتحولان دون ضغوطهما المتبادلة المزعجة.

لم يطل الزمن بالسكان الأصائل بعد الفتح العربي وبعد انتقال مركز الحكم العربي إلى دمشق عاصمة الآراميين العريقة فتعربوا دون تحفظ وهجروا لسانهم إلى حَدّ كبير بعد أن صارت اللغة العربية لغة رسمية تكتب بها الصكوك وتدوّن فيها العقود والرسائل الرسمية من الخلفاء، فضلاً عن تفوقها الفيلولوجي وغناها بالتعابير وغدوا أنداداً للقادمين العرب. كانت دولة أمية العربية الخالصة قد اضطرت إلى استخدامهم في جيوشها رغم تحريم القرآن مشاركة غير المسلم في الجهاد الإسلامي فخاضوا غمار الحرب الجهادية وأسهموا في فتح وادي الرافدين وفارس ومصر وشمال أفريقيا ولم يكن لقوات المسلمين عنهم غنىً إذ كان بينهم خبراء في فنون الحرب واستخدام أسلحة لم يجربها العرب وكانوا على وقوف بآلات الحصار وبناء السفن الحربية والملاحة ولا غنى عنهم لبناء الأسطول. ولم يكن والحالة هذه يعانون ضغوطاً جراء بقائهم على دينهم في الواقع. إلاّ أن الجزية المفروضة على أهل الذمّة (في القرآن: أهل الكتاب) كانت تزعجهم كثيراً وتذكرهم أحياناً بالأعباء التي أثقلهم بها سادتهم السابقون والسبيل

الوحيدة للخلاص منها هو الدخول الحقيقي في المجتمع الإسلامي الجديد. إلاّ أن الدخول الجماعي أي بأعداد كبيرة دفعةً واحدة كان يحرم الخزينة (بيت المال) من أهم موارده وقد فترت الحماسة لهداية الناس بمرور الزمن. لذلك صدرت أوامر من الخلفاء إلى عمالهم بألاّ يشجعوا الأهلين على نبذ دينهم. وذكر المؤرخون أن الخليفة الأموي (عمر بن عبدالعزيز ٦٨١-٧٢٠م) أنّب عامله في مصر ونصحه بأن لا يمضي في خطته بقبول إسلام المسيحيين وأن يرفضوا ذلك لئلا ينضب مورد كبير لبيت المال وختم رسالته بهذه العبارة «إنّ الله أرسل نبيّه هادياً لا جابياً».

وعندما اعتزم هذا الخليفة فرض الجزية على قبيلة (تغلب) المسيحية المرهوبة الجانب التي ساندت المسلمين في قتال الجيوش الساسانية وفتح العراق رفضوا دفعها كما رفضوا الدخول في الإسلام (كانوا معفوين عن الجزية منذ أيام عمر بن الخطاب). وتركوا أراضي سورية إلى العراق بسبب من ذلك.

في الغرب كانت هناك غلبة واضحة للعرب. والعكس هو ما حصل في بلاد فارس وكردستان(١٧) وأفغانستان وبلاد التتار والصغد وغيرها. إذ ما لبثت الجاليات العربية

---

(١٧) تاريخ الكرد الواقعي المؤكد يبدأ من الفتوح الإسلامية. فقد نقل المؤرخون العرب ومنهم المسعودي المتوفى في ٩٤٣م روايات عن وقائع لهم قبل الإسلام وروى عن نزاع بينهم وبين آل غسان. إلاّ أن أول تماس بين الكرد والمسلمين حصل بعد احتلال تكريت وخانقين (حلوان) شمال بغداد في العام ٦٣٧. وهناك مصادر تشير إلى أن الكرد ساندوا الهرمزان حاكم الأهواز الإيراني في محاولة صدّ الاندفاع الإسلامي. وكان على الخليفة (عمر بن الخطاب) أن يرسل الحملة تلو الحملة ضد كرد الأهواز ولم تخضع الأقاليم الكردية الشمالية كشهرزور وما يليها إلا بعد قتال دموي. ولم يكن بالمستغرب أن لا يخفضوا جناح الذل أو يستكينوا للاحتلال فما يتمّ إخضاعهم حتى يثوروا ويترتب تجريد حملة جديدة لإخضاعهم. ربما كانت شريحة كبيرة من المجتمع الكردي زرادشتية أو مسيحية. على أن بعض الباحثين يشير إلى أنهم كانوا وثنيين يعبدون الأشجار ويضحون لصنم نحاس. على أنهم قبلوا الإسلام تدريجياً وإن وجب في بعض الأحيان إرغامهم. وكانت هناك ردّة. فمثلاً جحد الكرد بمجموعهم في (بروذ) القريبة من البصرة دينهم الإسلامي وكانوا قد أجبروا على اعتناقه في وقت متأخر. وفي الواقع إنه يصعب الحكم على درجة نفوذ الدين إلى أعماق النفوس الكردية وكم كان تأثيره فيهم ويزعم (حنا بطاطو) أن هناك ثلاث طوائف إسلامية في العراق: (١) السنية (٢) الشيعة عند العرب (٣) الصوفية عند الكرد. على أنهم مع هذا يستطيعون الادعاء بانتسابهم إلى أعظم مدافع عن الإسلام بشخص صلاح الدين ابن أيوب الذي نجح في توحيد ممالك مصر والعراق وسورية وفلسطين. والقوميون المتحمسون الكرد يوجهون انتقاداً لصلاح الدين هذا لأنه انشغل في =

القليلة العدد التي أوصلها الفتح إلى هناك فاستقرت وفقدت هويتها القومية بالتزاوج والأنسال من زيجات متعددة والتسري بالمواطنات. وقد جرى ذلك بشكل طبيعي فانصهرت القلة الحاكمة بايولوجياً ولغوياً.

وشابه ذلك ما حصل في مصر. لم يتم استعرابهم ولم تتقدم عملية انصهار المصريين خطوة واحدة. الوحدات العسكرية الصغيرة نسبياً التي أزالت حكم البيزنطيين آثرت أن تصبح لا أكثر من حامية تعيش بمعزل عن سائر طبقات الشعب. إلاّ أن المصريين للأسباب التي ذكرناها أسلموا واتخذوا العربية لساناً فهي أسهل من لغتهم الدارجة بكثير وهي لغة الحكام الجدد. إلاّ أن هويتهم البايولوجية سلمت كما سلمت مجتمعاتهم من عملية التزاوج. وكان على البدو الأقحاح القادمين من الجزيرة رأساً أن ينتظروا حوالي أربعة قرون ليقدموا إلى أرض الكنانة مع جمالهم وخيمهم ليؤلفوا جالية تضخمت بمرور الزمن واستقلت ببقاع على ضفاف النيل أشبه بمستعمرات وحافظت على تقاليد معينة ربطتها بالماضي وهؤلاء هم الصعايدة المصريون(١٨). وهم يختلفون

= الدفاع عن الدين بدل انشغاله في تكوين إمبراطورية كردية أو كيان سياسي راسخ. ومن مفارقات الدهر أن هذا العاهل الكبير رغم قوته وهويته القومية فشل في إخضاع كردستان فقد وقف نفوذه وسلطانه عند سفوح جبال زاكروس. كان الكرد طوع يمينه كما أن الترك في خدمته دوماً إلاّ أنهم فعلوا ذلك دون حماسة حتى أن بعض رؤساء القبائل منهم أنكر على الأسرة الأيوبية حق الزعامة [راجع: ستيفن. س. بللتيير في «الكرد عنصر قلق في الخليج Stephen C. Pelletiere: The Kurds: An Unstable Element in the Gulf [لم أدوّن تاريخ طبع الكتاب أو محله أو الصفحة في دفتر ملحوظاتي].

(١٨) في مصر بنى الفاتح الأول عمرو بن العاص مدينة أو معسكر (الفسطاط) في العام ٦٤٣م بالقرب من حصن بابليون البيزنطي وهدمت في القرن الثالث عشر ونقلت أنقاضها لبناء مدينة القاهرة الحالية. وقد انتعشت في عهد صلاح الدين واتسعت أرجاؤها فترةً وجيزة ثم هجرت ثم أعاد المماليك لها شأنها. وفي تونس بنى الفاتح العربي (عقبة بن نافع) في العام ٦٧٠م مدينة القيروان التي اتخذها الملوك الأغالبة عاصمة ومن بعدهم الفاطميون قبل غزوهم مصر واحتلالها. وبنى (إدريس بن عبدالله العلوي) مدينة (فاس) العتيقة في مراكش بعد نزوحه من الحجاز فاراً في معركة (فخ) ٧٨٦م قبيل وفاته وتأسيسه مملكة الأدارسة في ٧٩٣م بمعونة البربر.
وتشير المصادر التونسية والفرنسية بصراحة إلى ظروف معينة أدت إلى دخول جماعي عربي قبلي لم يسبقه مثيل أدى إلى امتزاج كبير للدم العربي مع دماء سكان شمالي أفريقيا. وتفصيل ذلك كما يرويه المؤرخون التونسيون أن سنوات مترادفة من القحط والمجاعة وشحة المرعى ألجأت قبائل (بني هَوَازن وسُلَيم) العربيتين إلى النزوح عن مواطن سكناها بين مكة والمدينة =

تماماً عن سكان مصر الأصائل. ولا يمكن مشاهدة هؤلاء إلاّ في البوادي أو حوافّ الصحارى وواحاتها. أما النخبة الحضرية فقد أثقلتها دماء جاليات كثيرة منذ عصور سحيقة دائمة لا انقطاع لها من شعوب البحر الأبيض المتوسط كسواحل اليونان وتركيا وإيطاليا وسكان الجزر الكبرى. وفيما تجد الصفات الجسمية للمصري الصميم الساكن على ضفاف النيل من دخوله مصر إلى مصبه يختلف تماماً عن الصعيدي تجد الاختلاف عينه بين سكان المدن والفلاحين التي تؤلف الأغلبية الساحقة. والرابطة هي الدين واللغة. وبخلافهما فهم قبط (أقباط).

وفي شمال أفريقيا كان التغلب العرقي واضحاً وبقي كذلك حتى يومنا هذا كما أسلفنا ولم يعمد البدو العرب بعد الحدث الذي فصلنا في أمره إلى تكرار التجربة. لكن الإسلام واللغة حكمت روابط هذه الأقطار بالعرب في الجزيرة وغيرها. إلاّ أن العرب لم يبقوا في قلب التاريخ طويلاً وفقدوا المقدرة على صناعته فتسلمته منهم شعوب أخرى وضاعت إمبراطورية منهم شادها أسلافهم. وتحول مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد وقد فصلنا في ذلك.

ثورة بني العباس كانت صحوة موقوتة لم تدم طويلاً وإن كان بعض المؤرخين ينظرون إليها بأنها نقطة تحول عظيمة في تأريخ الإسلام بسبب النهضة العلمية الهائلة. في حين يجدها مؤرخون كثيرون بدايةً لانهيار السلطة العربية على يد الفرس والأتراك. وهذا ليس بصحيح. وببعض المبالغة في حجم هذين التأثيرين قد نسلّم به كنصف

= والإضعان شمالاً بعيرهما وإبلهما وكل ما يملكون. كان ذلك في وقت ما بين ١١٨٣ و١١٨٥ حتى بلغوا جنوب الأردن وقدروا بعشرين ألفاً انتشروا بخيمهم حتى خليج العقبة وقت ما كان صلاح الدين يستعد لمعركة (القدس) ويعبئ المقاتلين لخوض المعركة، وأعلمه رجاله بقدوم هذه الجموع من قلب الصحراء وتبين له على غير ما توقع بأن هؤلاء لم يقدموا للمشاركة في (الجهاد). فكان ردّ فعله شديداً إذ خيرهم بين العودة من حيث أتوا أو الاستمرار في السير غرباً والنفوذ إلى مجاهل شبه جزيرة سيناء وأنذرهم باستخدام القوة لحملهم على الرحيل. ففضلوا استيناف مسيرتهم ولم يمكثوا في سيناء بل عبروا إلى مصر وانتشر قسم منهم في وادي النيل حين واصلت البقية مسيرتها غرباً بحذاء الساحل واستقر بعضهم في ليبيا وآخرون في تونس والجزائر بل وصل بعضهم (فاس) وبهذه الوسيلة عرفت أفريقيا البعير العربي كما يؤكد مصدرنا وليس قبلها - بكميات تسمح له بالتكاثر والاستيطان. واختلط هؤلاء بالسكان وتزاوجوا. ويقدر المعنيون بعلم الأجناس نسبة الدم العربي الذي يجري في عروق سكان أفريقيا الشمالية بواحد من عشرة أو بواحد من العشرين كحدّ أعلى نتيجة ذلك.

الصحيح في أسوأ الأحوال. كان العباسيون فخورين بعروبتهم وانتمائهم إلى قريش. وكان من بين مناصريهم عرب من شيعة الإمام علي وهم يؤلفون الارستقراطية العربية إضافة إلى الفرس وأهل السنة وفريق من الشيعة. هؤلاء كلهم اتحدوا ليؤلفوا حكومة مبتناة على قواعد الإسلام ومبادئه.

وكمثل كثير من الثورات عبر التاريخ عززت ثورة أو قيام بني العباس على الأمويين مفاهيم ومعايير معينة كانت قد أخرجت أشطاءها في أيام الحكم السابق مُثل: تحول مركز السلطة إلى العراق، ظهور النفوذ الفارسي واحتلاله مركز النفوذ العربي البيزنطي، ضعف الرغبة في فتح البلاد المسيحية الأوروبية وإرخاء اليد على البلاد المسيحية المجاورة في تركيا وفي القفقاس وبلاد الأرمن، الاهتمام العظيم بالتقدم العلمي والفني، إطلاق الحرية للجدال الديني. وبخلاف السلّم الإداري الذي أراده الفرس لأنفسهم ليتوقلوا به إلى المراكز العليا في الإمبراطورية العربية كان ثم سلّم آخر أقل بروزاً وهو الحركة الأدبيّة السياسية التي عرفت «بالشعوبية». أصبحت هذه اللفظة الشيطان الرجيم الذي يلوح للقوميين العرب أينما استداروا والغول الذي يخيفهم أبداً ويعني مما يعني القضاء على تراثهم. لم يكونوا في أي وقت مصيبين كلّ الإصابة في عداء (الشعوبية) ولاسيما المعتدلة منها. وعلينا أنْ نقرّ لهم ببعض الحق فقد كانت نوايا بعض دعاة المساواة المدنية بين العرب المسلمين وبين بقية الشعوب غير العربية التي اقتبلت الإسلام ترمي إلى انتزاع السلطة كاملة من يد العرب أو مشاركتهم فيها على قدم المساواة ومن دون اهتمام بالمظاهر(١٩).

والواقع هو أن الأسرة الحاكمة العباسية، وكل الأسر العربية التي استقرت في

---

(١٩) الفرس ولاسيما الطبقة البوروقراطية منهم استخدموا معرفتهم بالأدب والدين للبرهنة على مساواتهم بالعرب أو ربما تفوقهم عليهم مدفوعين بحقد الماضي على استرقاقهم والقضاء على إمبراطوريتهم. ظاهر الشعوبية لا غبار عليه. وللمصطلح مفهومه التاريخي المتفق عليه شاع في أواخر العصر الأموي وتبلور المقصود به في العصر العباسي. دعوة قاومها العرب وطاردوا دعاتها زمناً لتغدو كلمتا شعوبي أو شعوبية تهمةً وسبّة في حين استقطب حولها ونادى بها ودافع عنها دعاة من الشعوب المسلمة التي جوبهت باستعلاء العرب الفاتحين كما يزعمون وبإصرارهم على أن يكونوا السادة المقدمين اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً. الفكرة أساساً تستند إلى آيات مخصوصة من القرآن وتدعو باسمه ووفقاً لأوامره ونواهيه إلى المساواة السياسية والاجتماعية. وبتمادي الزمن واحتدام المعركة بين العرب المتطرفين والغلاة الشعوبيين آل الأمر إلى التعصب الأعمى كل لعقيدته ومفاهيمه.

العاصمة كانت قد (تفرست) عن طريق النساء فكثير من الخلفاء كانوا قد انسلوا من المحضيات أو الزوجات بحيث إن ابتداء الامتزاج الجيني العباسي genitic mix منذ القرن التاسع فصاعداً كان فارسياً أكثر منه عربياً[٢٠].

إن انفتاح باب النقاش الفلسفي واللاهوتي في أيام المأمون أدى به إلى اعتناق مبادئ إسلامية عرفت مجموعها بعقيدة الاعتزال وعرف أصحابها بالمعتزلة. ذلك هو الشكل الأول من اللاهوت الإسلامي المنظم الذي بدأ بمثابة محاولة لدحض عقائد الزندقة والشعوبية الفارسية. إلاّ أنها واجهت عملية صياغة عقلانية للإسلام مؤكدة على الإرادة الحرة وعلى القضاء والقدر الإلهيين. وفي عهد المأمون والخليفتين اللذين تلياه كان كلّ رجل دولة أو موظف ذي شأن أو قاضٍ يمتحن بسؤاله هل يعتقد أن الله قد خلق كل شيء ويضمن ذلك القرآن؟ والجواب بالإيجاب كان يعني أنه (معتزلي) وكان هذا خلاف المبدأ الشائع بأن القرآن أزلي وأنه كان قبل أن يوحى به إلى الرسول العربي.

ويمكننا القول مبدئياً بأن مجرد فكرة الوجود العربي في الأقطار التي كانت تؤلف جزءاً من الإمبراطورية العثمانية - بمثابة مجموعة عرقية خالصة - بقيت فكرة هاجعة ساكنة قروناً عدة بالمفاهيم المتعارف عليها اليوم طبعاً لا بالمفاهيم الأنثروبولوجية. وقد لاح لها بريق خاطف في فترة الحكم الأموي لكنه خبا بسرعة بتغلب الحكم العباسي وبسلطان الفرس على مقدرات دولتهم ثم خضوعهم هم أنفسهم لحكم طبقة عسكرية أخرجت سلسلة من الحكام الترك والتركمان والتتر. وبقي المجتمع الناطق بالعربية في كل من آسيا وأفريقيا يتألف من طبقة الفلاحين والعمال الزراعيين الذين تستغلهم الطبقة العسكرية الحاكمة أبشع استغلال وتنزل بهم أشدّ المظالم وتستنزف طاقاتهم إلى آخر رمقٍ فيهم، ولا تتردد في أن تزجّ بهم في معترك الخلافات والنزاعات المذهبية والطائفية والدينية ليكونوا وقوداً وهذا هو الميدان الوحيد الذي كانت تلك الجماهير المسحوْقة الخاملة تُشعِر العالم بوجودها فيه. أما العرب البدو الذين تركوا الجزيرة وحالة الترحل وتمصّروا فقد انصهروا واختلطوا بسكان المدن حتى تعذر تمييزهم عن البقية في حين عادت البقية لتنغلق على نفسها في رمال الصحراء وكثبانها بعيدة جداً عن المدّ الذي راح يطغى ويعمل نحتاً في المجتمعات الحضرية الإسلامية بالبلاد الناطقة بالعربية.

---

(٢٠) أم الخليفة هارون الرشيد فارسية وأم ابنه المأمون فارسية وزوج المأمون فارسية حتى الأمين نفسه فجدته فارسية.

بعد سيطرة الترك في القرن السادس عشر على البلاد الناطقة بالعربية ذات الأغلبية المسلمة، استقرت الحياة السياسية في الشرق الأوسط وتواصلت بمنوال رتيب زهاء ثلاثة قرون تخللتها هزّات محلية وحروب صغيرة لم تؤثر كثيراً في مسار الحياة العام. في غضون هذه الفترة قطعت البلاد الناطقة بالعربية أو كادت معظم اتصالها بأوروبا عن سبيل سواحل البحر الأبيض المتوسط وفي عين الوقت انتزع المحيط الأطلسي التفوق التجاري منه مجرداً العرب والمسلمين من أرباح الوساطة التجارية بين الهند والغرب وهي تجارة كادت القبائل العربية في الجزيرة تحتكرها منذ قرون عديدة قبل الميلاد. أدى ذلك مما أدى إلى تراجع الإسلام وانحسار مدّه. كان هذا الجزء من العالم الذي خضع للأتراك غالباً على المذهب السني وقد اهتم السيد الجديد الذي يدين بعين المذهب بتقويته ودعمه وصيانته بدعوى أنهم حماته حتى أنهم أضفوا على سلاطينهم لقب «الخلفاء». وكل ما حصل خلال هذه القرون الثلاثة من إرهاصات أو انفجارات مذهبية لم يكن ذا بال خلا حركة دينية ذات طابع قومي لمصلح خرج من قلب جزيرة العرب يدعى «محمد بن عبدالوهاب» في متنصف القرن الثامن عشر.

إلا أن سكان هذه الأقاليم بقوا يرسفون في سلاسل سجنهم الفكري ولم يتخلصوا من جمودهم السياسي حتى بدأ نوع من التململ المؤذن بنهضة إسلامية جديدة بعيد حملة نابوليون بونابرت على مصر في ١٧٩٨. ثم لحقت سورية بمصر بعد حوالي نصف قرن لتسبق الأولى بعد فترة وتغدو في المقدمة ومن هناك سطعت أنوار الانبعاث القومي العربي الحديث. فنهضة مصر لم تكن ذات محتوى قومي عربي إطلاقاً والدور الهام الذي قامت به اللغة العربية وآدابها في هذا الباب متأت من كونها لسان السواد الأعظم.

كانت سورية[٢١] في فجر القرن التاسع عشر غارقةً في مجاهل القرون الوسطى المظلمة خلا كوى ضيقة فتحتها لها الإرساليات الدينية للأقلية المسيحية فيها. هذا الظلام الفكري انزاح بعض الشيء بفترة السنوات العشر من الحرية النسبية والتسامح الديني واليقظة الفكرية التي جاءت مع الاحتلال المصري لكنه عاد بعد العام ١٨٤٨ ينشر ظلّه القاتم على المجتمع وعلى عقول السكان.

كانت مصر محمد علي باشا الألباني (١٨٠٥-١٨٤٨) أولى البلاد الناطقة بالضاد التي حققت صلة ثقافية بأوروبا الغربية. فما أقدم عليه الأتراك لم يقتصر على الزهد في

(٢١) نقصد بسورية هنا: سورية ولبنان وفلسطين وإسرائيل والأردن.

إحداث أي تماسٍ ثقافي أو فكري مع الغرب بل فرضوا ذلك أيضاً على رعاياهم في الشرق الأوسط والأدنى وشمال أفريقيا أي كل البلاد التي تسودها لغة القرآن. فحرموا أنفسهم وحرموا رعاياهم فرصة الانفتاح الحضاري في أحرج وقت، حين كانت أوروبا كلها تتمخض بمرحلة ثورة في التقدم العلمي. تلك المرحلة المجيدة التي أضاءت القرن الثامن عشر وامتد ضوؤها ليلد في القرن التالي الثورة العظمى التي عرفها التاريخ بالثورة الصناعية. ورفض الأتراك أن يلحقوا بالركب أو أن ينضموا إلى قافلة التقدم التي تتجه إليها الشعوب الأوروبية بعناد وإصرار. والتكنولوجيا الوحيدة التي سمحوا لها باختراق ستارهم هو محاولة صادقة لاقتباس الفنون العسكرية الحديثة وبناء الجيش ولم يكن في هذا فائدة لأملاكهم العربية ولا لأهلها.

وفي هذا الظرف نشأت جرثومة للقومية العربية. نوع من إحساس غامض بالواقع المزري مرتبط برؤى تاريخ مجيد وعصور ذهبية، يختلف عن الجرثومة التي نشأت على أساس ديني في قلب جزيرة العرب بزعامة آل سعود وآل عبدالوهاب، فهذه كانت من آثار عملية إصلاح ديني صرفٍ اقتضت إعلان ثورة على حكم الخليفة الفاجر الزنديق ترمي إلى تنقية الدين الإسلامي مما لحق به من أوضار وتلك كانت نابعة عن حاجة ومحاكاة. كان هناك التأثير الأوروبي بروح الصحوة القومية التي اجتاحت الأقوام الأوروبية الخاضعة للسلطان العثماني. والتدخل السياسي - الإنساني الذي أطلق العنان للإرساليات الكاثوليكية والبعثات التبشيرية في هذه المرحلة. لم تكن الهداية إلى الدين المسيحي هدفاً لتلك الإرساليات ولم يكن القصد ترغيب المسلم باعتناق الدين المسيحي[٢٢] كما أدعى كثيرٌ من الكتاب والباحثين المحليين وما زالوا. بل كان القصد منها إنسانياً صرفاً يرمي إلى وضع التعاليم الروحية التي نشأوا عليها وأوقفوا لها حياتهم موضع تطبيق عملي بإنكار ذات عند بعضهم عجيب قد يرقى إلى مرتبة التجرد الجنوني. ربما كان بعضهم مرتبطاً بعلاقة مع حكومته لتزويدها بمعلومات قد تعينها على توجيه سياستها في الشرق. إلاّ أن معلومات كهذه لا يمكن أن ترقى إلى مرتبة الجاسوسية فالتجسس عملية معقدة تنطوي على خطورة وردود فعل سياسية عنيفة. على أن اهتمام هذه البعثات الدينية كان قاصراً على المنافسة إلى قلوب الطوائف المسيحية عامة وبكل ما يرافقه من إثارة الخصام وبذار الشقاق. أثناء الاحتراب على كسب الأفراد

---

(٢٢) يعتبر المسلم الجاحد مرتداً. وحكمهُ القتل.

أو الجماعات إلى هذا المذهب الذي تمثله تلك البعثه أو ذاك.

في أفضل الأحوال لم ترتفع نسبة الأقلية المسيحية في البلاد الناطقة بالعربية التي يحتويها الهلال الخصيب إلى أكثر من عشرة بالمائة وهم يتمون في العراق وسورية إلى أكثر من عشر طوائف دينية. ما زالوا كما كانوا قبلاً مواطنين من الدرجة الثانية ببعض الحقوق المتوارثة والمتقررة منذ العهود الإسلامية الأولى وهي تخضع للمدّ والجزر وتزيد وتنقص بمشيئة الحكام كما فصلنا في السابق. مع هذا كله فإن الإسلام كان يتهيب ويحترم المجتمعات الدينية ولا يتعرض لتقاليدها ومراسيمها وأماكن عباداتها بسوء أو أذى إلاّ إذا اعترضت طريق الشعائر الإسلامية بشكل عدواني صريح.

وكان من الطبيعي أن يحصل التماس بين الجاليات الأوروپية والتجار الأجانب وممثلي القنصليات وموظفيها[٢٣] بإخوانهم المسيحيين المحليين وكان محتوماً أن يقتبس هؤلاء الأخيرون كثيراً من العادات والمفاهيم الجديدة وأن يطلعوا بوساطتهم على المستحدثات العصرية في عالمي الفن والفكر والسياسة، لاسيما عن الحركات القومية والبعث القومي الأوروپي الذي انتشر في سماء أوروپا. فكانت هناك عملية توحيد ألمانيا وإيطاليا وكان ثم ثورات پولندية وطنية قومية وحروب تحرير للشعوب السلافية على أساس قومي في أواسط أوروپا ضدّ الإمبراطورية النمساوية والقيصرية الروسية، وثورات اليونان والبلغار وشعوب البلقان على إمبراطورية آل عثمان.

وما حصل إثر ثورات وانتفاضات في جبل لبنان (١٨٦٠) وغيره أنّ المجتمعات المسيحية التي باتت منذ قيام حكم ذاتي في لبنان تجدّ سعياً في البحث عن جسر إلى الأغلبية المسلمة - وقعت عليه في فكرة الانتماء القومي. خصوصاً من الانتمائية اللغوية التي برز فيها العلماء والأدباء المسيحيون بتفوق على أقرانهم المسلمين وكادوا يحتكرون وسائل الإعلام الحديثة من صحف ودور طباعة. وعلينا أن لا ننسى قط فضل البعثات التبشيرية هنا فإن الأنماط السائدة للغة العرب في أيامنا هذه إنما طورتها ووصلت إلى مستواها الحالي بهندسة الإرساليات الدينية حروف الطباعة المستخدمة

---

(٢٣) أسّس التجار البنادقة مستعمرات وجاليات في المدن السورية وموانئها ومنها تلك التي وجدت في حلب ودمشق. ما لبث هؤلاء ان وجد لهم منافسون من الفرنسيين ثم من الإنكليز. وجد لهؤلاء الثلاثة أيضاً مستعمرات ثابتة في الاسكندرونة وطرابلس وصيدا وبيروت وعكا والرملة. وفي العام ١٧٤٠ عقد الباب العالي مع فرنسا معاهدة جعلت سائر المسيحيين الذين يحجون إلى بيت المقدس تحت حماية العلم الفرنسي.

اليوم. واستوردت المطابع[٢٤] التي جددت أساليب الطباعة وقضت على الطباعة الحجرية. وشنت حملة نشر واسعة النطاق للفكر المعاصر بطباعة مختلف الكتب العلمية والأدبية والتراجم من اللغات الأوروبية. بهذا فتح باب الغرب الأوروبي على مصراعيه لصب ثمرات حضارته في قوالب عربية مستنبطة.

شقت هذه المطبوعات طريقها بنجاح رغم نظرات الشك والخوف والانزعاج التي سببتها في عالم متزمت منغلق على نفسه وقوبلت من طبقات علماء الدين بمختلف مذاهبهم بصدود واضح وأفتى بعضهم ببطلانها وبأنها مجافية لتعاليم الدين القويم.

فكان محتوماً أن تنمو جذور القومية العربية بأصولها الحديثة في عرصات قريبة جداً من مراكز الإشعاع الفكري الآتي من الغرب وأن تختار لمروجيها ودعاتها المثقفين المسيحيين الجدد الذين كانوا يعملون للخلاص من العزلة الاجتماعية ومن حالة المواطنة ذات الدرجة الثانية، بمدّ يدهم للطبقة المثقفة المسلمة الجديدة التي أقبلت بجراءة على إرسال أبنائها لتلقي العلم في المعاهد والكليات التي أسستها البعثات التبشيرية دون تحرج.

إن جرثومة القوميّة العربية بمفهومها الحديث إنما وجدت في المجتمعات الكاثوليكية والأرثذكسية في[٢٥] سورية عندما أشرف القرن التاسع عشر على نهايته.

---

(٢٤) أول مطبعة بحروف عربية ظهرت في الشرق كانت في حلب وتم جلبها بجهود البطريرك أثناسيوس (الذي كان يتردد بين الأرثذكسية والكثلكة!) وتم طبع الكثير من الكتب العربية فيها. ومنها الإنجيل في العام ١٧٠٨. ثم جاءت البعثة التبشيرية البروتستانتية إلى بيروت بمطبعة وحروف عربية في العام ١٨٣٤. ولحقت بها إرسالية الآباء الجزويت في العام ١٨٥٣. وقد ارتبطت كل واحدة منهما بكليته الخاصة. ففي العام ١٨٦٦ أسس الواعظون والأطباء الأمريكان الكلية السورية البروتستانتية التي اتخذت لها فيما بعد اسم جامعة بيروت الأمريكية. وأسرع الفرنسيون يحتذون حذوهم بإنشاء جامعة القديس يوسف في العام ١٨٧٤، كلاهما كان معهداً قائداً لحركة الإحياء العلمي في الشرق الأدنى ومصنعاً لتخريج الوطنيين المثقفين الذين زخر بهم النصف الثاني من القرن التاسع عشر [راجع في هذا الباب: (الدكتور فيليب حتي: سورية موجز تاريخي. لندن ١٩٥٩ ص٢٣٠ وما بعدها Philip K. Hitti: Syria a Short History]

(٢٥) النظرية السياسية العثمانية كانت تعتبر سكان البلاد المفتوحة ولاسيما البلاد غير المسلمة أشبه بقطيع أغنام يجب أن تستغل وتعمل لفائدة الفاتح، مقابل أن يسمح لهم بأن يعيشوا حياتهم الخاصة ما داموا لا يثيرون للحكام مشاكل. وهؤلاء بما أن معظمهم فلاحون ومزارعون وتجار وصناع فلا حظّ لهم في مناصب الدولة عسكرية أكانت أم مدنية. هذا القطيع يحتاج إلى كلاب حراسة، يؤمّن بصورة رئيسة من أسرى الحرب أو العبيد المبتاعين أو من أولاد المسيحيين الذين =

والأفكار القوميّة بدأت تجد سبيلها إلى أذهان نخبة من ذوي الثقافة الفرنسية ثم الإنكليزية. إن الأماني المسيحية آنذاك تلك التي اقترنت باستنهاض الروح القومية العربية كانت تدعو الحكومات التركية للقيام بتجديد محدود لمصلحتهم كالسماح باستخدام اللغة العربية في المرافعات القضائية، وكأن يكون لهم صوت في إدارات القرى والمدن أي شكلاً في غاية البساطة من الحكم الذاتي (أتونومي) المحلي، الذي لا يتطلب من الحكومة أكثر من تنازل قليل عن بعض صلاحياتها والمصادقة على منح امتيازات معينة. نجم عن هذه المطالب نشاط محدود ضم نخبة من المثقفين المسيحيين مع قلة من المسلمين المتحمسين لهم.

وفي هذه المرحلة لم يكن لتلك الفئة هدف سياسي واضح أو برنامج. لذلك بقي مفهوم القوميّة إصلاحياً محدوداً مناسباً لأهداف مسيحيي لبنان وسورية ولم يطمح إلى توسعة ليشمل مسيحيي الولايات الناطقة بالعربية في الشرق وشمال أفريقيا. ولم يكن في ايّ من الولايات الثلاث التي تكون منها عراق اليوم ما يشعر المرء بوجود أية حركة عربية مناوئة للحكم العثماني أو مطالبة بنوع من المشاركة السياسية فيه كما حصل في لبنان ومصر مثلاً.

ما دخل الشرق الأدنى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى كانت الدعوة إلى اليقظة العربية من مركزها المسيحي قد انداحت إلى المحيط الإسلامي المتزمت وغزت عقول الطبقة المستنيرة بشكل سريع حماسي ما لبث أن أخذ عنصر المبادرة من المسيحيين أنفسهم[٢٦].

= يجبون من ذويهم كما تجبى الضرائب ويدربون وينشأون على دين الإسلام.

هؤلاء المحكومون يصنفون حسب دينهم لا حسب قومياتهم. فمنذ زمن لا يعرف مبدؤه كانت المجتمعات السكنية في الشرق الأدنى تصنف لا على أساس القوميّة أو البلد الذي ينتمون إليه بل على أساس العقيدة ولا دخل للحدود السياسية أو الإثنية هنا. وفي ذهن الناس جميعاً أن القومية والدين هما واحدٌ اندمجا بشكل لا فكاك لأحد من الآخر. وكل مجموعة دينية عند العثمانيين يطلق عليها اسم (ملّة) وأكبر ملتين فيها هي الإسلام والأرثذكس. وهناك (ملل) أخرى أصغر وأقل من هاتين شأناً كملة الأرمن والدروز واليهود والكلدان والآشوريين وغيرها ولكل ملة من هذه رئيس روحاني يمارس نوعاً من السلطة ذا أهمية ليست بالقليلة.

(٢٦) في رأس قائمة الوطنيين (القوميين) العرب المسيحيين يخطر بالبال الشيخ إبراهيم اليازجي اللغوي والأديب والشاعر الكبير صاحب القصيدة الشهيرة التي ذاع صيتها ورددتها آلافٌ مؤلفةٌ من الشفاه في أرجاء الوطن العربي بمطلعها.

يصعب جداً تحديد الفترة التي تم فيها انسحاب تدريجي بله انكماش جزئي للمسيحيين عن ميدان النشاط الوطني والقومي، وتسلم الأكثرية المثقفة المسلمة لواء الجهاد في ميدانهما الرحب وفي اعتقادنا أن لواقع ربط مفهوم القومية بالدين في الشرق أثره في ذلك(٢٧).

وانعكس الدور - ولا ندري متى - فأصبح المسلمون الوطنيون الآن يحثون المسيحيين على اللحاق بالركب. متى حصل ذلك؟

يجمل بنا أن ندرج هنا نداء السيد عبدالرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٢)(٢٨) للمسيحيين: يشير فيها إلى فضل السبق المسيحي على النهضة:

«يا قوم وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد وما جناه الآباء والأجداد. فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من أن لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وأنتم المتنورون السابقون. فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائف الاتحاد الوطني دون الديني والوفاق الجنسي دون المذهبي. والارتباط السياسي دون الإداري. فما بالنا

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الرُكَبُ

ألقاها في اجتماع سري لأعضاء الجمعية السورية العلمية في ١٨٦٨. وهي جمعية أسسها كل من بطرس البستاني وناصيف اليازجي من رواد النهضة العربية في العالم العربي في العام ١٨٥٧ وكانت خلفاً لجمعية الآداب والعلوم وهي أول جمعية في العالم العربي. وذكر الدكتور نبيه أمين فارس في مقدمته للترجمة العربية لكتاب يقظة العرب (الطبعة السادسة ١٩٨٠ الص ١٣-١٤) أبياتاً من قصيدة لإبراهيم اليازجي أنشدها بتلك المناسبة أيضاً

سلام أيها العرب الكرام وجاد ربوع قطركم الغمام
لعمرك نحن مصدر كل فضل وعن آثارنا أخذ الأنام
ونحن أولو المآثر من قديم وإن جحدت مآثرنا اللئام

(٢٧) راجع د. عبدالعزيز الدوري: الجذور التاريخية للقومية العربية [دار العلم للملايين. بيروت ١٩٦٠]: «وتوحد العرب بالحركة الإسلامية وأصبحوا [أمّة واحدة] ومع أن تعبير الأمّة هنا ينطوي على مدلول ديني ولكن الواقع أنها تشمل العرب وحدهم. ولذا نقول إن الأمة في تلك الفترة كانت عربية. وكان أن هيأ الإسلام لهذه الأمة العربية رسالة إنسانية خرجت بها إلى العالم وأعطاهم أساساً شاملاً للحركة ولبناء مجتمع جديد وحضارة جديدة» [ص١٤].

(٢٨) صحافي وأديب سوري. من أبناء حلب انشأ فيها جريدة الشهباء في ١٨٧٧ وعرف بتحرره الفكري ودعوته إلى الإصلاح. طارده الأتراك فهاجر إلى مصر واشتهر بكتابه «أم القرى» (مكة) و«طبائع الاستبداد».

نحن لا نفتكر في أن نتبع إحدى تلك الطرائق أو شبهها، فيقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم: دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء ونتراحم بالإخاء ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء[٢٩]».

من المؤسف أن الدعوة مسيحيتها وإسلاميتها لم تجد لها ميداناً رحباً بين سواد الشعب الناطق بالعربية، لاسيما في كل من مصر والعراق، ففي كليهما كان هناك تيار إسلامي شديد يحث على التمسك بعرى الخلافة والوحدة الإسلامية إلاّ أن منتوج الأدباء الأحرار القلمي من سورية كان يجد طريقه إلى هذين القطرين. بل باتت القاهرة الملاذ الآمن للوطنيين المطاردين الذين تلاحقهم شرطة السلطان عبدالحميد الثاني. منهم من هاجر ومنهم من صمد إلى الأخير ومنهم من انسحب مؤثراً السلامة. إلى جانب باقة فواحة من أولئك الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل ما دعوا إليه وبشروا به.

---

(٢٩) الفقرة مقتبسة من كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وقد نقلناها من مقدمة الدكتور نبيه فارس لترجمة كتاب يقظة العرب من تأليف جورج أنطونيوس: (ص١٧) [الكتاب كما جاء في الحاشية مطبوع في القاهرة بحدود ١٩٠٠].

لا أرى هذا الفصل يختم بأفضل من ذكر طائفة من رجال النهضة العربية المسيحيين والمسلمين والدروز الذين لمعت أسماؤهم خلال تلك الفترة وأبداً بالمسيحيين. هناك الأديبان اللغويان سليمان البستاني (١٨٥٦-١٩٢٥) وعبدالله البستاني (١٨٥٤-١٩٣٠) وسليم تقلا (١٨٤٩-١٨٩٢) وشقيقه بشارة تقلا (١٨٥٢-١٩٠١) مؤسسا جريدة الأهرام القاهرية والوطنيان الشهيدان فيليب الخازن (١٨٦٥-١٩١٦) وفريد الخازن (١٨٦٩-١٩١٦) اللذان أعدمهما أحمد جمال السفاح. والمؤرخ الكبير جرجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤) وخليل الخوري (١٨٣٦-١٩٠٧) وسليم الخوري شقيقه (١٨٤٣-١٨٧٥) مؤسسا أول صحيفة في بيروت. والأب لويس شيخو اليسوعي (١٨٥٩-١٩٢٧) وزميله الأب لويس معلوف (١٨٧٦-١٩٤٦) وإليهما ينسب القدر الكبير في الإسهام بإحياء التراث الأدبي العربي القديم. وغيرهم كثيرون.

وصعد إلى المشنقة في العام ١٩١٦ من المسلمين والمسيحيين والدروز ما يزيد عن اثنين وأربعين شهيداً أذكر منهم الصحافي عبدالغني العريسي (١٨٩١-١٩١٦) وسعد فاضل عقل (١٨٨٦) والأمير عارف الشهابي وعبدالكريم الخليل ومحمد محمصاني، والشيخ أحمد طبارة (١٨٧١) ورفيق رزق سلوم وتوفيق بساط وعمر أحمد وعلي الأرمنازي ونورالدين القاضي وعبدالوهاب الإنكليزي وعبدالحميد الزهراوي وسامي العظم وجلال تجاري ومحمود العجم وأمين لطفي الحافظ ونايف تللو وشكري العسلي ورشدي الشمعة وشفيق المؤيد وغيرهم.

ملحق

من جريدة Arab Times [٢٨-٢٩ تشرين الثاني ١٩٩٦]

العرب يجدون بطلهم الأعظم: الجمل

القاهرة في ٢٧ من تشرين الثاني / عن وكالة الأنباء الفرنسية

وجد العرب بطلهم الذي يمثلهم في القصص الكارتونية Comic Strips ولم يكن غير (الجمل النبيل) ذي السنام الواحد على حد قول خالقه المصري السيد عمادالدين عبدالسلام (٢٥ عاماً نهار الأربعاء الماضي) قال: إني لم أتوقع نيل الجائزة الأولى. وكان بين ٢٠٠ متسابق من تسع دول عربية شاركوا في مباراة جرت أوائل هذه السنة.

نظم المباراة جمعية لا تسعى إلى الكسب المالي يرأسها الأمير [طلال بن عبدالعزيز] أخ الملك السعودي (فهد) وهدفها العثور على البطل الأعظم (سوپر هيرو) الذي يمكن للناشئة العرب الاستنجاد به للمحافظة على هويتهم العربية ولحمايتهم من التأثير الغربي على حدّ قول الأمير.

ويقول خالق البطل وهو خريج قسم الكارتون في كلية الفنون - جامعة القاهرة ومستخدم خلال السنتين الأخيرتين في «مؤسسة كارتون القاهرة»: «لأول مرة خلقت شخصية كريمة نبيلة». وأضاف قائلاً إن أعماله السابقة تضمنت خلق «غول أثيم» و«جنّي شرير» وستكونان الشخصيتين الرئيستين في فلم مخصوص للأطفال عن (السندباد) يعرضه تلفزيون مصر أيام صيام شهر رمضان المبارك في كانون الثاني ١٩٩٧. وقال إنه اختار «الجمل الظريف» ذا السنام الواحد بعينيه البراقتين ومنخريه العريضين لدخول المسابقة التي أعلن عنها [المجلس العربي للشباب والتقدم] لأنه الرمز الرئيس المركزي للبيئة العربية، والجمل كذلك يرمز إلى الصبر والجلد والذكاء والرقة والطيبة على حد قول خالقه الذي خرج بألفي دولار جائزة لاختراعه هذا.

الفصل الثالث

الإسلام والقومية العربية. الإسلام دين عالمي تبشيري. خطأ من يعتبره مسؤولاً عن عيوب معيّنة. تعاليمه أصلاً تتجه نحو الخير. اصوله: القرآن والحديث. الأعمال بالنيات حديث نبوي ونظيره في الإنجيل. واقعية محمد. الخيارات والتحديات. قدرة الإسلام على امتصاص الأزمات. مجلس الشورى واختيار الرئيس. التفسير الاشتراكي للإسلام بعيد عن الواقع. الإسلام يهدم رابطة الدم ويُحل محلها رابطة العقيدة. التفسير الإسلامي للقانون والشريعة. العودة إلى القانون الطبيعي. الإباحة هي القاعدة الأساسية في الشرع. قيام حاكم يتولى أمور الناس واجب ديني. الخليفة نائب الله أكثر من كونه خلفاً لمحمد. ماتى لقب «أمير المؤمنين». التغيير بعد الخلفاء الأربعة الأولين. البيعة تعاقد لا عملية انتخاب. مصطلح «الإمام» مرادف لـ«رئيس الدولة» وهو منصب مستحدث. الشيعة، نواميسهم وآمالهم. ابتعاد الإسلام عن اصوله والخروج عن مفاهيمه ستراً للاستبداد. «الغزالي» ونظرية الضرورة والإباحة. إنحلال البنية الغربية. آثار خطيب المسجد في دعم الحاكم. أهمية المسجد في الحياة العامة. الانتصار للإسلام غريزة في المسلم وإن كان علمانياً. التمسك بالمظاهر والدفاع عنها في وجه كل رافض. التراكم التاريخي حصيلته الطابع النفسي الاجتماعي وأثره في الانحراف الخلقي. إباحة بعض الأفعال التي تعدّ من قبيل الجرائم العادية والخلقية. الإسلام الأول هو السبب في ظهور دعوى القومية العربية

الإسلام هو واحد من أديان عالمية ثلاثة. وأولها البوذية وثانيها المسيحية أو النصرانية[1] كما عرفت في القرآن وعند المؤرخين والكتاب العرب الأوائل. وهو ليس

(١) نسبة إلى مدينة (الناصرة) وهي المدينة التي قضى فيها المسيح فترة صباه منذ سنته الثالثة وردحاً من مقتبل شبابه يعمل نجاراً في دكان يوسف زوج أمه. ويبدو من الأناجيل أن المسيح نفسه قد قبل تلقيبه بهذا اللقب. وفي العالم الإسلامي والبلاد الناطقة بالعربية لم ينبذ هذا وإنما قل استعماله في الأزمان المتأخرة.

دين شعب معيّن بالذات كاليهودية أو البراهمية، على أن العرب المسلمين يفخرون ومن حقهم هذا، بأن صاحب الرسالة هو عربي وأن أحكام الإسلام وشرائعه وكتابه المقدس نزلت وحياً بلغتهم كما أكد القرآن ذلك، وأيّد في موضع آخر منه وجوب نزوله بلغة العرب لا بغيرها[٢].

وإذا أخذنا الأناجيل الأربعة مع ملحقها من الرسائل من دون الشروح المنسية ومن دون نقاش، فقد لا يبدو أن المسيح قصد ابتداع دين جديد. وإنه في حياته القصيرة لم يبث رسالته لليهود وحدهم من المبدأ حتى الختام.

ومع هذا فالديانتان تتحدان في مسيرتهما التاريخية وواقعهما العلمي، أي أنهما لم تقصدا بتبشيرهما قوماً بالذات أو طائفة أو عنصراً، وكلاهما استُهدفا من الخصوم وُرميا بكل نقيصة وهوجما أعنف هجوم. على إن ما نال الإسلام من المسيحية في العصور الوسيطة بل حتى في العصور الحديثة من تشويه لا لمبادئه وحدها بل من سيرة صاحب رسالته لا بيد كتاب المسيحية وباحثيها وحدهم بل من جمهرة كبيرة من الكتاب والمؤرخين قدر كبير لا تحيط به مجلدات. وأحكامهم كلها كادت تكون مبنية على جهل نسبي أو مطبق بالأصول والتعاليم الإسلامية، ولا يسعنا إلا أن نذكّر أولئك الذين يحكمون على أديان غيرهم طبقاً لمقاييس ذاتية بالعبارة الرائعة التي قالها عالم اللاهوت الشهير (لوازي) في العام ١٩٠٦[٣]:

«يمكننا القول عن جميع الأديان بأنها ذات قيمة مطلقة بالنسبة إلى إدراك ووعي معتنقي كل ديانة، وذات قيمة نسبية عند الفيلسوف الناقد».

وبتقدير عمل الإسلام والأثر الذي خلفه في أتباعه، كثيراً ما تتناسب هذه الحقيقة

---

(٢) من سورة (فصلت) ويسميها الشيعة سورة (السجدة): (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصّلت آياته ءَأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاءٌ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمىً أولئك يُنادَون من مكان بعيد). والأعجمي كل من هو وما هو غير عربي. وتفسير الآية: لو أننا جعلناه غير عربي لقال الذين لم يؤمنوا به من العرب: هلاّ فُصّلت آياته وأجزاؤه فانفصلت وبان بعضها من بعض بالعربية إذ كيف يستقيم ان يُرسل كتاب أعجمي لمرسل إليه عربي فهو منافاة وأصلاً غير منطقي يجلّ عنه الله تعالى.

(٣) Alfred Firman Loisy ١٨٥٧-١٩٤٠: من الفلاسفة الفرنسيين المتخصصين في علم الأديان. وواحد من العلماء الفيلولوجيين الكبار. يعتبر أباً لحركة التجديد في الفكر الديني التي سادت القرن العشرين. وقد صدر عليه الحرمان البابوي في ١٩٠٨ بسبب تعاليمه وكتبه.

وكثيراً ما أخطأ بعضهم فيما يتعلق بأحكامهم عليه. هؤلاء الكتاب اعتبروا الدين الإسلامي مسؤولاً عن عيوب خلقية وكذلك مسؤولاً عن ركود عقلي متأتّ من درجة الاستعداد القومي، ونسوا أن الإسلام انتشر بين شعوب وقوميات مختلفة وأدى إلى التخفيف من همجيتها وتأخرها العقلي بدلاً من زيادتهما كما ظنوا وزعموا.

والإسلام والحالة هذه، شأنه شأن سائر الأديان في ذلك، ليس شيئاً مجرداً ليمكن عزله عن المظاهر والمقدمات والنتائج التي يبدو من خلالها وتبدو من خلاله وهي تختلف بطبيعة الحال - باختلاف الأدوار التي مر بها متطوراً تاريخياً، وبامتداد وتقلص أفقه الجغرافي، وبالطابع القومي لأتباعه والمؤمنين به.

من جملة المحاولات الغربية الطريفة للتدليل على افتقار في الإسلام للقيم الأخلاقية أو قلة اهتمامه بها، الاستناد إلى حجج مستمدة من اللغة التي نزلت بها أحكامه. فقالوا إن الإسلام يخلو من مزية الإحساس الخلقي التي تسمى في اللغات الأوروبية Conscience وهي الكلمة التي تعوضنا عنها نحن كتّاب العربية موجزا ب(الضمير). وحاولوا تقوية زعمهم هذا بأن اللغة العربية نفسها وسائر اللغات السامية تخلو من كلمة خاصة للتعبير الدقيق عما تعبر عنه هذه الكلمة اللاتينية الأصل.

ويغضّ النظر عن وجود كلمات أخرى تسد هذا المسد في العربية فإن هذا النقص على افتراض وجوده في اللغة لا يفترض عين النقص في القلب أو في الإحساس الباطني.

ولو كان الأمر كذلك لوجب علينا الحكم بأن شعراء (الفيدا)[٤] كانوا يجهلون معنى (العرفان بالجميل) لخلو هذه الملحمة الشعرية العظيمة من كلمة تدل على (الشكر) كما انتقد الجاحظ[٥] وسخر من أولئك الذين لاحظوا خلو اللغة اليونانية من كلمة (الجود) فاتخذوا منها دليلاً على بخل الروم واليونان. وانتقد بأسلوبه الفكه أولئك الذين اتخذوا خلو اللغة الفارسية من كلمة (نصيحة) دليلاً على غش غريزي في القوم.

---

(٤) Vedas أي المعرفة بالسنسكريتية. معظم الكتب القديمة الهندية يعتقد أنها وحي إلهي وهي أساس الديانة الهندوسية، هناك أربعة كتب تنضوي فيها (تسامهيتا) وهي ريك وياجور وساما وأثرفا، وقد يعود تاريخ أقدمها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

(٥) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٧٧٥-٨٦٨ ميلادية): من أئمة الأدب العربي، ثاقب البصيرة متزن العقل دقيق التعليل كتبه مدرسة للعلم والأدب. وصلنا معظم مؤلفاته ومن أهمها كتاب الحيوان والبيان والتبيين والبخلاء والمحاسن والأضداد وغيرها.

إن شئنا أن نعدّل في حكمنا على الإسلام، فعلينا الموافقة على واقع وهو أن في تعاليمه قوة فاعلة تتجه أصلاً إلى الخير وإن الحياة البشرية طبقاً لتلك التعاليم الكامنة في تلك القوة يمكن أن تبني بسهولة ويسر حياة بشرية سليمة لا غبار عليها من الوجهة الأخلاقية والسلوكية.

ومجمل هذه التعاليم كما نجدها واضحة في القرآن وأحاديث الرسول العربي تطلب رحمة ومحبة لجميع أبناء البشر مخلوقات الله وتدعو إلى الأمانة في علاقات هذا الخلق بعضهم مع بعض والإخلاص في الواجب والعمل وقمع الغرائز العدوانية أو الدنيا كالأثرة والأنانية. وكل ذلك لا يشذُّ عما تطلبته الأديان السابقة من فضائل. وقد أُثِر بها الإسلام جمعاً، كما أثبت محمد بأنه آخر سلسلة الأنبياء وباعثي الأديان.

والإسلام كشريعة يُخضع المؤمنين به إلى أعمال وطقوس شعائرية، ليس فحسب بموجب التعاليم والتقاليد التي استند إليها في أثناء مراحل نموه وتطوره، بل لأن معينها الأول وهو القرآن يعتبر «الأعمال بالنيات» ويعدّ النية معياراً للقيمة الدينية ويرى أنه إن لم تقترن دقة الاحترام وتطبيق الشريعة بأعمال رحمة وخير وعدل فإنها قليلة القيمة أو لا قيمة لها إطلاقاً فـ«ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب، ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وأبناء السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون».

ويروي الصحابي الكبير (أبو ذر الغفاري)[٦] أن الرسول أوصاه قائلاً: (صلاة في مسجدي هذا تعدل ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام. وصلاة في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة في غيره، وأفضل من هذا كله صلاة يصليها

---

(٦) جندب ابن جنادة (توفي في ٦٥٢ ميلادية أي ٣٢ هجرية) يوصف بأنه من أقرب الصحابيين إلى الرسول العربي، عرف بتقواه واحتقاره متاع الدنيا وبثورته العارمة على الحكام المسلمين وانتقادهم علناً في جمع من الناس. روى كثيراً من أحاديث الرسول. وقضى ردحاً من حياته في الشام. كان يلوذ به البائسون والمعدمون والفقراء ليصغوا إلى أحاديثه وكلها بذمّ الأغنياء والمتجبرين. هاجم معاوية وهو حاكم الشام لإسرافه وظاهر أبهته وتصرفه الحر بمال المسلمين. فقبض عليه وأعاده مخفوراً إلى المدينة، وهناك ضاق به الخليفة عثمان ذرعاً فنفاه إلى (الربذة) وهي قرية تبعد عن المدينة زهاء سبعين ميلاً وتوفي هناك.

الرجل في بيته حيث لا يراه إلا الله عز وجل، يرجو بها وجه الله).

إنك لا تجد فرقاً بين هذا الحديث وما ورد في إنجيل متى عن لسان المسيح (ومتى صليت فلا تكن كالمرائين. إنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس أما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل لأبيك الذي هو في الخفاء، فأبوك الذي هو في الخفاء يجزيك في العلن).

مع هذا فقد ارتُكبت جنايات كبيرة بحق هذين الدينين، ارتكبها أولئك الذين نصّبوا أنفسهم دون أن ينصّبهم أحد قوّامين عليهما، ومن تلك الجنايات تلك القيود والتخريجات والتآويل والطقوس المعقدة التي كبلوهما بها والألوان الصارخة التي أسبلت على وجه بساطتهما قناعاً كثيفاً شق على سليمي النية والعباد والصالحين النفوذ منه إلى الحقيقة[٧].

---

(٧) تحفل صحف الغرب بأنباء عن رجال دين مسيحيين حكم عليهم بالسجن لجرائم احتيال ونصب وتصرف جنائي بالأموال المودعة إليهم بحكم مركزهم الديني، وباتهام عدد كبير منهم بجرائم أخلاقية تتراوح بين ممارسة أعمال جنسية شاذة بتلاميذ وصغار أوكل أمر تربيتهم إليهم، وبين الزنا واغتصاب القصر. ولا تطال يد القضاء عدداً كبيراً من أمثال هؤلاء في العالم الناطق بالعربية الذين دأبوا تحت ستار الدفاع عن الإسلام على تبرير بل الإجازة بل الأمر بالإقدام على جنايات حرّمها القرآن وفرض عليها عقاباً، حتى ليبدو الله من خلال تخريجاتهم وحججهم وتبريرهم وكأنه بحاجة إلى معونة مخلوقاته للدفاع عما أنزل به من فرائض وأحكام، وإنه أعجز سبحانه عن إنزال العقاب بمن يريد سوءاً بعباده وسننه!

ليس هناك ضرر أفدح من الضرر الذي يلحقه بسمعة الدين من التطبيق الخاطئ والوعظ الشاذ لأولئك الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عنه. ويحضرني في هذا المقام حادث عظيم الدلالة لا أراني قادراً على اغفال روايته هنا: ربطتني أيام إقامتي في إيران صلة صداقة حميمة بضابط سابق في الجيش الإيراني برتبة رائد يدعى (سيد محمود) هو من طبقة السادة ينحدر من أسرة غنية تقية، استقال من الخدمة قبل الثورة الإسلامية مشمئزاً من الوضع العام السائد آنذاك. وعرف بعطفه الكبير على المطاردين الإسلاميين المعارضين، بل كان أحياناً يجعل مزرعته مخبأ لأقطاب لهم. في ذات ليلة اقتحم رجال الحرس الثوري بيته خطأ وهو غائب وهم في سبيل البحث عن فار فوجدوا بمحض الصدفة سيف الخدمة وناظوراً عسكرياً وبندقيتي صيد فحملوها تاركين مذكرة تأمره بالحضور في (قم) والمثول أمام محكمتها الثورية. حمل صديقي وثائق ملكيته وإجازة البندقيتين المجردتين وفق الأصول. ورحل إلى (قم) معتقداً أن الموضوع مجرد خطأ، ومثل أمام حجة الإسلام (عندليب) رئيس المحكمة، لكنه لم يعد إلا بعد ثمانية أيام وجدته بعد عودته كئيباً واجماً لا يرد على أسئلتي، فانتحت بي زوجه لتخبرني بأنه كان مسجوناً خلال هذه المدة وأن حجة الإسلام (عندليب) أصدر بحقه حكماً بالسجن المعلّق (مع وقف التنفيذ) لمدة =

= سنتين مع مصادرة المبرزات. وقد علمت أن هذا القاضي اجتاحته سورة غضب من موقف المتهم فأسرع بزجه في السجن قبل المحاكمة. رحل (سيد محمود) إلى (قم) مؤمناً بالإسلام وعدالته. وعاد كافراً به يملأه غضب كلما ذكر بإيمانه وتقاه الماضي. وحاولت مع أصدقاء له بكل ما حضرنا من منطق إقناعه بأن الدين الإسلامي ليس (عندليب) ولا من نصبه قاضياً. فيزداد عصبية ويرد ثائراً (كلا كلا بل هذا هو الإسلام الحقيقي وأنا الذي كنت غافلاً عن هذا طوال خمسين سنة).

وبقي يتابع قضية الحكم والمصادرة بدأب أربع سنوات كاملة بالمراجعات وعاونته في كتابة المذكرات القانونية المرفوعة إلى كل جهة رسمية وغير رسمية واستندت بأصدقاء لي من علماء الدين، وكنا نستشهد في مجهوداتنا هذه بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء والأئمة، بل بنصوص من كتاب الإمام الخميني (توضيح المسائل). بالأخير أُعيدت إليه الأشياء المصادرة وأُلغي حكم السجن، لكن لا بطريق قانونية بل بوسائل يعرفها الإيرانيون. إلا أن سيد محمود فارق دينه فراقاً أبدياً وقد تركته وهو كذلك.

وأفدح من هذا كله جناية العصر الكبرى على الإسلام التي ارتكبها كاتب خامل الشأن بالمشاركة مع فقيه عظيم القدر وأقصد بأولهما الكاتب الهندي المسلم سلمان رشدي صاحب (القصائد الشيطانية) مصدر الضجة الكبرى. أخطأته الشهرة والثروة في ثلاثة كتب تافهة لم تنل أي رواج ولم تحظ باهتمام أي ناقد ذي شأن. فوجد أسهل سبيل إليهما هو التعريض بالمقدسات الإسلامية وقيام الدولة الثيوقراطية في إيران وبما يرتكبه بعض المهووسين من جرائم وإرهاب باسم الإسلام. صيغ التعريض التافه السخيف في قالب رمزي وظهر بكل القصور الفكري ووضوح الفكرة، وهو النقص الذي يشكو منه الكاتب والسبب في خمول ذكره وفشله السابق. فبدأ التعريض محشوراً حشراً في السياق ومتقصداً فعلياً بقناع الرمزية الذي يلجأ إليه الفاشلون، وبحيث ماكان متوقعاً أن تثار الضجة العالمية الكبرى التي كان يصبو إليها المؤلف لولا أن قيّض لها شريك كان السبب الأول والأخير في انتشار الكتاب وشهرة المؤلف وغناه. عندما أصدر حكمه الغيابي من دون محاكمة ومن دون معرفة شخصية بمضامين الكتاب بإعدام المؤلف وإباحة دمه للمسلمين، فقفز به إلى مصاف كبار أحرار الفكر المضطهدين في عقيدتهم وما أبعد (رشدي) عن أصحاب العقيدة. فضلاً عن وضعه في مصاف ذوي الثروة والغنى من المؤلفين. وبعد أن أبلغ هذا (الحكم) مبيعات قصائد شيطانية حدود المليون ونصف المليون نسخة وتهافت دور النشر الأجنبية على ترجمته بدافع فضول القراء وحب الاستطلاع، وأنا الذي صبرت على أشق الكتب وأكثرها ملالة ما استطعت الصبر على هذيان المؤلف وقذفت بكتابه هذا مشمئزاً وقد بقي منه صفحات قلائل. فكيف بأولئك القراء العاديين؟

وكان على أولئك الذين انبروا للدفاع عن رشدي باسم حرية الفكر أن يدركوا غلطتهم الكبرى بعد أن خذلهم صاحبهم هذا بإعلان توبته وندمه وعودته إلى حظيرة الإسلام بعد تحقيق غرضه طبعاً، وأن ينبذه أولئك الذين ثاروا على ذلك (الحكم) الذي دفعته العاطفة أكثر مما دفعه العقل والمنطق وتعاليم الإسلام الحقيقية. وأولئك الذين عقدوا له الندوات و دعوه إلى حفلات التكريم أما كان عليهم أن يدركوا بأن صاحبهم هذا لا يشتري حرية الفكر بدانق، وإنه إنما =

الإسلام بوجهه العالمي شارك مشاركة فعالة في وضع بصمات خالدة على التقدم الحضاري، رغم كل الإساءات التي وجهت إليه وإلى بانيه الذي تعرضت سيرته إلى التشويه في مجرى عملية النقد العامة.

بالنسبة إلى المسلمين كان محمد وسيبقى دوماً مثالاً للفضائل الإسلامية، كالتواضع والصبر على المكاره والفكاهة والرقة والسخاء والوقار وأصالة الرأي والحكمة. والغربيون الذين خاضوا حروباً ومعارك مع المسلمين حيناً وفاوضوهم حيناً وحالفوهم حيناً، كتبوا ما كتبوه عنه واشتطوا وعتوا حتى خرجوا بكتاباتهم عن حدود المعقول والبديهي. وصفه أحد كتاب القرون الوسيطة بأنه أسقف انحرف نتيجة طموحه وفشله في الوصول إلى كرسي البابوية! وقال آخر عنه إنه تاجر انقلب إلى قاطع طريق. وزعم ثالث بأنه مكابر دعيٌّ أصدر أمراً للجبل أن يأتي إليه! وآخر قال إنه مريض بداء الصرع وخامس قال إنه مأفون وملتاث العقل.

ليس في كل هذا ذرة واحدة من الحقيقة، وهو تخريف وجهل واضطغان. لكن

= يضحك على الجميع ويستغل الجميع بما في ذلك حكم الموت الصادر عليه. وماذا عن الملايين التي أنفقتها دولة ينتسب إليها بالتجنس لحمايته من القاتل المزعوم؟ أليست هي أيضاً من كسب الصيت والشهرة وترويج الكتاب؟

ما من شك في أن الضرر الذي أحدثه ذلك الفقيه الذي أفتى بقتل المؤلف هو في نظري أعظم بما لا يقاس بسمعة الإسلام واسم الإسلام من الكتاب نفسه. لا أدري في الواقع مدى اطلاع ذلك الفقيه على تاريخ تطور الفكر الإسلامي والعقيدة السمحاء وهي تُفحص وتُمتحن أشد امتحان وأعنفه على علمائها وفقهائها وأدبائها ومفكريها، استهدفتها طعون هائلة بلغت حد التشكيك بالنبوة وبالكتاب والعقيدة أصلاً قبل أحد عشر قرناً وما بعده. من بين هؤلاء سأذكر الشاعر الكبير أبا العلاء المعري ٩٧٥-١٠٥٧ ميلادية الذي جاءنا كل ما قاله من شعر ونثر في إنكار الأديان والرسل. والراوندي الفيلسوف ٨٧٠-٩١٠ ميلادية الذي طعن بصحة القرآن وبالنبوة في كتابه (الدامغ) بما لم يحلم سلمان رشدي بقوله. والكندي الملقب بفيلسوف العرب الأكبر ٧٩٦-٨٧٣ ميلادية، وقد نقل لنا المؤرخون أقوالهم ونصوصاً من كتبهم لاسيما الطبيب الشهير عند العرب باسم: أبو بكر محمد بن زكريا الرازي صاحب المكتشفات والمصنفات الطبية الرائعة أشهر أطباء عصره على الإطلاق ٨٦٤-٩٣٢ ميلادية لم يتحرج قط في إثبات نظريته الواقعية التي تضمنت نكران الأديان، كغيره ممن سبقه ولحقه وهم كثيرون لم يجسر حاكم على قتلهم أو الأمر بتقييد حرياتهم، ولم يحاول فقهاء عصرهم الافتاء بإعدامهم الحياة بل جالسوهم وناظروهم وبادلوهم الآراء. وقد ماتوا حتف أنوفهم، فكيف بالإسلام الآن وله من الأتباع والمؤمنين (٩٠٠) مليون وهم في زيادة لا نقصان بوجود سلمان رشدي أو بدونه.

علينا الإقرار هنا بأن المسيحي واليهودي المؤمنين بدينهما لا يقرّان بنبوة (محمد) أو بأنه كان يعمل بمشيئة الله وينقل ما يوصيه به عن طريق الملاك جبرائيل.

إن حياة أي إنسان عالمي الشهرة تغدو بمثابة عدسة أو مرآة ينظر الناس إلى أنفسهم وإلى العالم من خلالها أفراداً أو جماعات، والمؤرخ أو الكاتب يركز عادة على وقائع معينة فيها ويحذف أو يطمس معالم أخرى منها. والقارئ يمسك بنقاط معينة مما يطالع وتقوم مخيلته بتضخيمها وتجسيمها أو تقليصها لتوافق صورة سبق له تكوينها عن تلك الشخصية.

فكيف أحكم على الرسول العربي؟

من كل ما قرأت وتأملت وهو غير قليل، أراه بمرآتي بشراً سوياً رفيقاً حانياً صادقاً مع نفسه ومع الآخرين شديد الإيمان والثقة برسالته، أكثر واقعية ودنيوية ممن صحبه وتبعه. كان يضيق بهجاء الشعراء ويطرب لمدحهم. ويؤمن من أعماق نفسه بالله وبنفسه وبأنه مبعوث من لدنه وبأنه آخر الأنبياء، وقد وجد من مقتضى رسالته أن ينذر العرب وغير العرب بيوم الحساب، وقد عزم عزماً لا رجعة فيه أن يجعل من قبائل الجزيرة العربية المتناحرة الممزقة (أمة) ومن المسلمين في دائرة أوسع مجتمعاً يستطيع فيه المؤمنون بأفضل ما يمكن اتباع تعاليم الكتاب وتهيئة أنفسهم للموقف الرهيب في يوم الحساب. والتهيئة تتم بالأعمال والنوايا في هذه الحياة.

لا جدال في أن محمداً كان تاكتيكياً بارعاً وسياسياً باقعة أهّلاه بجدارة ليكون حَكَماً ومصدراً للقانون وقائداً عسكرياً. وفي الواقع كان المسلمون يرجعون إليه في كل شيء، ولم يقم قبله ولا بعده من أفلح في توحيد العرب. وعندما قبل هو برسالة النبوة وقف أمام خيارات حادة وتحديات هائلة تفوق طاقة البشر السوي. ألجأته مما ألجأته إلى أن يعاف مسقط رأسه ورخاء العيش وتركهما إلى مستقبل مجهول. وما بلغه من سلطان ورفعة وقوة والشهرة التي حظي بها اسمه لم تكن واضحة إلا بعد وفاته. فقد ترك وراءه فراغاً عظيماً في المجتمع العربي (الأمة التي خلقها). إذ لما كان هو المرجع الوحيد، فقد خلقت وفاته أزمة لهذا الشعب الجديد. ومع أن خلفاء له اكتشفوا قادة وحكاماً جداً ووقفوا صامدين أمام التحديات والانشقاقات القبلية وتغلبوا عليها ووجهوا تلكم القبائل المتمردة إلى الفتح واحتلال أراض وكسب شعوب جديدة للإسلام ونجحوا أعظم نجاح في إذلال الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، إلا أن هذا الفوز الكبير جلب معه الخلاف وأدى فيما بعد إلى ذلك النزاع الدنيوي - المذهبي الذي لم يلحم صدعه

حتى هذه الساعة. لكن مقدرة الإسلام على امتصاص الأزمات الأولى أكد بقاءه وضمن بناء حضارته، التي قدر لها في فترة طويلة أن تكون مصدر إلهام العالم المسكون بكل تراثه الباقي.

وبإجماع من أهل السنة لم يسم محمد خلفاً له وتمسك الشيعة بالقول أنه سمى علياً صهره وابن عمه، والمسألة هنا شائكة ومعقدة، إذ يقول بعضهم إن ذلك كان إغفالاً منه متعمداً أو غير متعمد، وأنا مع الآخرين الذين يرون خلاف ذلك. لأن شيوخ العرب ورؤساء قبائلهم لا يسمون عادةً من سيحل محلهم ويتركون الأمر لرأي عقلاء القبيلة وكبارها، ثم كيف يمكن تخصيص المهام التي يمكنه إيداعها إلى خلفه بوصفه رسول الله، كان يعتبر نفسه خاتماً للأنبياء وكذلك أنزله المؤمنون برسالته، إذن فليس في إمكان أحد أن يتسلم الوحي الإلهي.

ثم إن (الأمة) نفسها لم تطلب لنفسها نبياً بعده، لذلك لم تكن هناك حاجة تدعو إلى نظير ثان بعد أن كفاها من ذاته، وإنما كانت في حاجة إلى نوع من الزعامة قد يرقى إلى مرتبة شيخ مشايخ قبائل متحالفة متحدة.

قبل أن يموت الخليفة الثاني أقام مجلس شورى لاختيار من يعقبه. وقد استخدم الكتّاب العرب هذه الصيغة من الانتخاب (الشورى) للبرهنة بأن الإسلام الأول كان يعرف الديمقراطية ويمارس واحداً من مظاهرها الحديثة. والواقع هو أن تلك اللجنة الصغيرة إنما كانت مؤلفة من ستة مكيين من صحابة الرسول وكلهم تجار أو ذوو يسر ومن قريش، وربما كان سبب المنافسة الشخصية والعقاب الهائل الذي فرضه (عمر) على الأقلية[^8] أن اضطروا إلى الاتفاق على اختيار أضعفهم وربما أقلهم كفاءة حسماً للخلاف، وربما لأنه أكثرهم غنى بدليل أنه كان من ذلك البيت الذي خاصم (محمداً) وناوأه من الأول إلى الأخير.

حاول كتاب الماركسية وعلماؤها دراسة الإسلام وتعليل ظهوره على ضوء المادية

(٨) قال لصهيب الرومي وهو من الصحابة صلّ بالناس ثلاثة أيام وأدخل هؤلاء الرهط (الستة) بيتاً وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ (إضرب) رأسه بالسيف. وإن اتفق أربعة وأبى اثنان، فاضرب رؤوسهما، وإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكّموا عبدالله بن عمر (وهو ابن له)، فإن لم يرضوا بحكمه فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس (الطبري. وابن الآثير وغيرهما). وجه الغرابة هنا أن يطاع أمر أصدره الحاكم، وبعد وفاته يتضمن القتل!

الديالكتية أو ما سموه بالاشتراكية العلمية، لاحظت أعينهم الحادة كل شيء فيه وبحثت في زواياه وخفاياه، لكنها أغفلت أهم عنصر فيه وسبب وجوده الوحيد وهو شخصية (محمد). ولإغفالهم ذلك ذهبوا في التعاليل مذاهب شتى متناقضة رغم اهتدائهم بنظرية واحدة. فاختلفوا فيما بينهم حول الأصول المبدئية والجذور الاجتماعية للإسلام الأول. فقال بعضهم إنها حركة بدو رحل استهدفت المدينة وطبقة التجار والنبلاء، وهي بالأصل تحرك من أجل حيازة الأرض.

وزعم آخرون منهم بأن القاعدة الاجتماعية التي بنيت عليها الرسالة المحمدية هي المزارعون الفقراء من أهل المدينة، وإن البدو الذين انضموا إلى الحركة صاروا فيما بعد قوتها الضاربة العسكرية التي حسمت المواقف. في حين رأى فريق ثالث منهم أن الإسلام الأول كان حركة تجار صغار ومن الطبقة الوسطى قامت ضد نبلاء مكة التجار، فهي ثورة ذات وجه برجوازي. وذهب آخرون مذهب فردريك انگلز أحد مفكري الاشتراكية الثلاثة الكبار فقد ذهب في كتابه (Zar Gschict des Urchristentums) بأن مختلف المجموعات الاجتماعية عند العرب اتحدت تحت لواء الإسلام، وهو من جهة دين لسكان المدينة الذين احترفوا التجارة والصناعات اليدوية، وهو من جهة أخرى دين للبدو الرحل. والإسلام أصلاً (حركة) تعكس مصالح وتطلعات القبائل البدوية التي تعاني من أزمات اقتصادية دورية وهي قوام القوة العسكرية للإسلام، في حين كان سكان المدن وهم أول من آمن (بمحمد) قادة تلك الحركة.

وأما بخصوص العقيدة Dogma، فالديالكتيون يرون أن فرائض الإسلام وسلوكه الأخلاقي وشرائعه قامت فيما يبدو على مبادئ مسيحية - يهودية استُعيرت لبنية اجتماعية أكثر بدائية، قوامها العادات والتقاليد القبلية الآيلة إلى الزوال. وإن الأيديولوجية الإسلامية هي أكثر بساطة من أيديولوجية الديانتين السابقتين وأوضح للجماهير لاسيما بدو آسيا وهم الفلاحون والمزارعون. فتعاليمها وأوامرها ونواهيها لم يشُبْها تعقيدٌ، وتطبيقها هو من السهولة بمكان[٩].

والمقام لا يتسع هنا لبيان الخطأ في هذه التفاسير والتعاليل قدر ما تهمنا آثارها الضارة على الحركة القومية العربية فيما بعد وبعمل القوميين الاشتراكيين. إن التقيد بالنظرية ومحاولة تطبيقها على كل ظاهرة سياسية أو حركة اجتماعية عقائدية والتخوف

---

(٩) على سبيل المثال: سيرجي توكاريف Sergie Tokarev، تاريخ (موسكو ١٩٨٦) وغيرهم.

من الخروج عليها أوقع الماركسيين في مآزق تحليلية غير واقعية بالمرة. ومثلهم في هذا مثل الحصان الذي يحاول جاهداً إدخال العربة الكبيرة التي يجرها في باب سهل عليه هو دخوله. غفل الماركسيون عن واقع الإسلام الذي اجتمع فيه ما لم يجتمع في سابقيه، فقد اهتمّ بأمور الدنيا والدين معاً فهو دين وسياسة، ومن هذا السبيل جاءت محاولة القوميين العرب لاسيما قومية عبدالناصر تطبيق بعض النظم الاشتراكية الحديثة والتمسك بالتعاليم الإسلامية في آن واحد.

أغفل الماركسيون العنصر الفاعل الحقيقي في الدين الإسلامي وهو شخصية (محمد) وقوى (محمد) الروحية التي يترجمها المسلمون بالوحي الآلهي. كيف بنى (محمد) من تلك القبائل المشتتة المتناحرة شعباً وأمة بتلك المبادرة الفذة التي نعزوها عادة إلى رجال التاريخ العظام بناة حضارات الأمم. كانت المسألة عند غير الماركسيين واضحة: الصرح الاجتماعي العربي كان مقاماً على أساس رابطة الدم، القبيلة تدعي انحدارها من رب أسرة واحدة تسكن رقعة أرض معينة يرتبط أفرادها فيما بينهم بدين وتقاليد وعادات واحدة إلا أن رابطة الدم كانت أوثق الروابط طرّاً أحقيقية أو موهومة، فالمجتمع العربي القديم - الجاهلية - أسوة بالمجتمعات البدوية كانت وحدته الاجتماعية الجماعة لا الفرد، والفرد لا يعتد بشخصيته بل بالقبيلة التي ينتسب اليها.

تناول (محمد) هذا البناء الاجتماعي فهدمه من أصوله وجذوره وأقام بدلاً عنه صرحاً اجتماعياً جديداً على قاعدة تتفق وأعمق غرائزه، عمل باهر لم تخطئه عين (ابن خلدون) النفاذة، فقد هدم محمد شكل القبيلة ومحا منها الطابع الفردي Gents وكنس معه الحلف والموالاة وأحلّ محل ذلك رابطة العقيدة: (من يدخل حمى الإسلام فعليه أن ينسى روابطه كلها، ومنها القربى والولاء القبلي ويتبرأ منهم «إذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَّبعوا، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب»).

ذلكم هو النظام الجديد الذي خلقه محمد ودعا إليه، ومنه بدأت قيمة الفرد تتضح وبرزت كينونته البشرية خارج نطاق القبيلة. إذ صار يستمد حقوقه وواجباته من عقيدته ويستقيها من شرائعها لا من روابطه العرفية القبلية.

هذه (الجماعة) الجديدة صاحبة العقيدة الجديدة فضّلت على غيرها باعتبارها الجماعة الممتازة، أو الشعب المقدس الذي عهد بمهمة بث الخير والصلاح ومحاربة الشر والباطل. فهو رسول الله إلى الشعوب الأخرى مثلما كان (محمد) رسول الله إلى العرب. عقيدة (محمد) جعلت من العرب شعباً أو قومية بالمصطلح الحديث. وهذه

القومية لم تبن على رابطة الدم أو وحدة التراب أو اللغة بل على أساس العقيدة (إخوة في الدين شركاء في الفيء حلفاء على العدو). فالتعاون السياسي والاجتماعي واجب قانوني وفرض ديني في الوقت نفسه.

عرّفنا القانون بأنه مجموعة من قواعد سائدة أقرّها شعب من الشعوب إمّا رأساً وإما عن طريق ممثلين له. ولسلطان القانون سمة من الإدارة والإدراك، والأخلاق والعادات. ولا يسمى القانون قانوناً إلا إذا وافق الحاكم والمحكوم على احترامه وإلا كان شيئاً تافهاً لا يعتد به.

إلا أن التفسير الإسلامي للقانون هو خلاف ذلك. فإن أقر بأن (الله) هو رأس المجتمع الإسلامي وسائسه الأعلى، فالقانون الموضوع لا شيء أمام إرادته، والقاعدة القانونية هي القاعدة التي يطبقها المشترع الأعظم على شعبه المختار، والخضوع لهذا القانون هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن يخرج عليه لا يأثم أمام النظام الاجتماعي القائم، بل يأثم أيضاً أمام دينه، إذ (لا حق ثم لما ليس لله فيه نصيب).

النظام القضائي والدين، القانون والأخلاق، هما شكلان لا ثالث لهما لتلك الارادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه. فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة تحكيم عقلي بحد ذاتها. فما هي طبيعة هذا القانون؟ ما هي وظيفته؟ (كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير) لتكون شريعة للحرية وقانوناً للرحمة التي شمل بها الله الجنس البشري وللتخفيف من صرامة الكتب المقدسة الأخرى. إنه عودة إلى القانون الطبيعي الذي ابتعد به اليهود والنصارى عن غرضه الحقيقي. الشريعة الجديدة ألغت القيود الصارمة والمحرمات التي فرضتها شريعة موسى على اليهود وألغت صرامة الرهبانية المسيحية وأعلنت رغبتها الصادقة في مسايرة الطبيعة البشرية والنزول إلى مستواها، مستجيبة إلى جميع حاجات الإنسان العملية في الحياة (يسّروا ولا تعسّروا) و(ما جعل عليكم في الدين من حرج) و(من حرم زينة الله والطيبات من الرزق) و(ليس للإنسان إلا ما سعى) و(فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وغيرها وغيرها من التعاليم. وعلى كل حال فـ(لا يكلف الله نفساً إلا وسعها)، لذلك وصف الكاتب والفيلسوف الفرنسي (رينان)[١٠] الإسلام بأنه (دين الإنسان) ولم يكن في ذلك

---

(١٠) Ernest Renan ١٨٢٣-١٨٩٢: كاتب وعالم آثاري كبير أول من بدء التنقيب في سورية، كتابه =

مبالغاً، فجوهر الشريعة الإسلامية يتسم بطابع واضح في فسح المجال الأرحب لمزاولة الأعمال البشرية. وليس ثم مندوحة من اتفاقنا مع فقهاء المسلمين بأن القاعدة الأساسية في القانون هي الإباحة، إلا أن الإباحة لا يمكن أن تكون مطلقة. ففي الإنسان جوانب سلبية خلقت مع طبيعته كالطمع والجشع والميل إلى السطو على مال الآخرين والشح، واستطابة الكسل والخمول والتواكل والأنانية، ومن الواجب كبح هذه الغرائز.

المشترعون الرومان عرّفوا قوة القانون بقولهم (عناصر القانون هي الأمر والنهي والسماح والعقاب Legis virtus est: imperare, vetare, permittere, punire). إلا أن الشريعة الإسلامية أضافت إلى المبادئ الأربعة مبدأين قانونيين آخرين وهما (المستحسن والمكروه)، فإن أسقطنا من التعريف الروماني المبدأ الأخير، أي العقاب وأضفنا بدله المبدأين الإسلاميين تم لنا أوجه خمسة للقانون السائد ويشكله التام الحالي. والمعين الذي تمتار منه الشريعة الإسلامية هو القرآن وأحاديث الرسول أصلاً، ثم تكفّل الفقه وهو علم القانون الذي يمت إلى علم العقائد (اللاهوت) أو علم الكلام بصلة وثيقة، بإضافة معنيين آخرين بعد إدراك الحاجة إلى استنباط أحكام تفصيلية من العموميات التي وردت في الأولين، وهما ما دُعي بالاجتهاد والقياس. وقد عرّف المذهبُ الحنفي علمَ الفقه هكذا: (معرفة الناس ما لها وما عليها، بغية وصولها إلى السبيل القويمة في الحياة الدنيا وإعدادها للآخرة).

والقانون، أي الشرع، كلمة جوفاء لا تعني شيئاً إن لم يشرف على تطبيقه مشرف ويحميه حام. فالأسباب التي اقتضت وضع حد لتصرفات البشر ونشاطهم هي التي اقتضت أن يقوم عليهم حاكم يسوسهم ويتولى أمورهم ويحكم بينهم بالقسط. لذلك أكمل الله شرعته بالإمام أو الخليفة وفرض طاعته على الأمة. والله هو الذي (يؤتي الملك من يشاء) لأن الإنسان بغير إرادة الله لا يستطيع أن يتحكم في مصائر إخوانه أو يفرض سلطانه عليهم. وكل وجه من أوجه السيطرة على الناس لا أثر لها ولا قيمة إن لم يدعمها الله ويحللها بوصفه مصدر السلطة ومانحها للناس بمقادير متفاوتة ولبعض دون بعض متوخياً مصلحة الآخرين المحكومين. إذن فقيام الإمام أو الخليفة أو الرئيس أو الحاكم هو واجب ديني، وهو لا يكون إلا لشخص واحد لا يشرك فيها غيره لأن:

= (La Vie de Jesus) حياة يسوع أول محاولة علمية واقعية لدراسة سيرة المسيح، أثارت عليه ثائرة الكنيسة الكاثوليكية وحرم كتابه.

١- وحدة الشريعة تستلزم وحدانية السلطة التي تشرف وتنفذ تلك الشريعة.

٢- لا يتحقق النظام في المجتمع إلا إذا سلمت مقاليد الحكم لشخص واحد لا أكثر، بدليل قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

لكن من هو هذا الرئيس أو الخليفة الصالح أو الإمام؟

تلك هي الصعوبة التي كانت السبب الأساس لتمزيق الوحدة الإسلامية، بل وحدة الناطقين بالعربية من باب أولى.

بالأول يبدو أن مبدأ سموّ قريش على أُسر العرب كان مسلّماً به منذ القديم، وقد تدرّج الأمر ليغدو قاعدة ثابتة. اما الحكمة التي استدعت حصر الإمامة بقريش فهو المبدأ الذي يوجب أن يكون الخليفة عربياً قبل كل شيء.

كان (محمد) يجمع بين صفة رسول الله والرئيس السياسي والقائد والقاضي الأعلى وصاحب القرارات الحاسمة في السلم والحرب. وعندما توفي خلف فراغاً حاول (أبو بكر) حميه إملاءه ولقُب بـ(خليفة رسول الله). وسواء في الأمر أستخدم هذا العنوان بالأصل أو أنه اتخذ لتفسير مقام الخليفة فالمفهوم حينذاك أنه كان نائب الله أكثر من كونه خلفاً لمحمد. فالخليفة هو أيضاً أمير المؤمنين، أي أمير الذين دخلوا حظيرة الإسلام من غير العرب. وهؤلاء الذين خلفوا (محمد) مارسوا كل السلطات التي مارسها هو وحصروها بأنفسهم كما فعل هو.

على أن الفتوح العربية والإسلامية المذهلة وخلال هذه الفترة القصيرة الفريدة في تاريخ البشرية أعطت اللقب ثقلاً خاصاً. لم يكن هناك دولة ما في مكة أو المدينة بالمعنى الذي يُفهم من الحكم القائم في القسطنطينية أو في قطيسفون. فالخليفة كان أشبه بشيخ من الشيوخ، وهو الذي يتقدم المسلمين في الصلاة أي يكون إماماً لهم، وقد أصبح ذلك تقليداً عندما مرض (محمد) وأوصى (أبا بكر) بأن ينوب عنه بإمامة الصلاة (قيل ان ذلك هو الذي سهل اختياره خليفة) وكذلك قيل إن (أبا بكر) أبى قبول لقب (خليفة الله) وقنع بلقب (خليفة رسول الله). ثم درج لقب (أمير المؤمنين) منذ زمن عمر بن الخطاب محدداً بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا الذي هو في الحقيقة ليس عاهلاً، أي ملكاً، ولا رئيس حكومة كما يدل عليه المصطلح الروماني Locum Tenes بل هو مجرد أمير ينطبق عليه المصطلح الروماني Primus inter Pares أي الأول بين الأقران. واسم الإمام الذي يطابق بمدلوله لفظة Antistes أي قائد الصلاة قد بقي إلى الأخير عنواناً لأعظم وأسمى صفة في العاهل الإسلامي وإن

انقلبت الأمور بعد الخلفاء الأربعة الأوائل الذين قبلوا أئمة بالبيعة أو بانتخاب الأقران. وليكن واضحاً إن البيعة هي ليست كالانتخابات التي تجري في الدول الديمقراطية، فوظيفة هذا العاهل الدينية هي أصل كل وظائفه الأخرى، وإذا ذكر الكتاب لفظة (الإمام) غير مشروحة أو موضحة فهم يقصدون رئيس الدولة مطلقاً. يريدون بها الإشارة إلى مصدر جميع السلطات التي تصرف بها أمور البلاد. على إن هذا لا يضفي على الخليفة صفة القداسة أو يسمه بميسم الكهنوت مثلما ادّعى بهذه السمة حكام في تاريخ العالم. إنها ليست سلطة بابوية مثلاً، فحكومة المسلمين لم تكن في أي زمن من الأزمان حكومة دينية Hierarchy ولم يحصل فيها تعاقب رسولي، والإمام في عز سلطانه الدنيوي ليس (رباً). إنه منصب استحدثته الشريعة الإسلامية للخير العام. وهو وكالة منوطة بشخص وجب عليه أن يضع نصب عينيه مصلحة المجموع وأنه يقدم عنها حساباً. هذا تماماً ما عناه (القاضي أبو يوسف) حينما كتب في مقدمة كتابه (الخراج) مخاطباً الخليفة هارون الرشيد العباسي:

«وإني أوصيك بحفظ ما استحفظك الله ورعاية ما استرعاك الله وإنما لك من عملك ما عملت فيمن ولاّك الله أمره وعليك ما ضيّعت منه. فلا تنس القيام بأمر من ولاّك أمره، فلست تنسى»[11].

الانتخابات في عرف القانون هي عملية يمنح بها الشعب السلطة لفرد ما اختياراً. فهو تعاقد وهو ما فهم عن طريقة اختيار الخلفاء الأربعة الأُوَل. لكن ظهرت طريقة أخرى لنصب الخليفة واطردت لتصبح عادة وهو أن يُسمي الخليفة من يعقبه أي أنه ينصبه ولياً للعهد. وقد اعتذر الأمويون وأنصارهم بقولهم إن تعييناً كهذا يساوي التعاقد في الجوهر. فإن قُبل أصبح عقداً، والمراسيم التى يتم بها العقد تُعرف بـ(البيعة) وهي كلمة كانت تستخدم في الجاهلية للدلالة على إبرام صفقة، وهي رمز لمصافحة الكفين التى كانت دليلاً على الرضى والقبول منذ عهد أبي بكر. قال أهل السنّة إن هذا المبدأ طُبق بنجاح كبير في عصر الإسلام الذهبي، فيما خالفهم فقهاء الشيعة ليُوقّتوا بدء

(١١) القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (٧٣١-٧٩٨ ميلادية) مواطن من الكوفة كان صاحباً للإمام أبي حنيفة وعنه أخذ الفقه، وقد تولى القضاء الأعلى في بغداد أثناء حكم ثلاثة من الخلفاء وآخرهم الرشيد. وهو أول من دُعي بقاضي القضاة وميّز العلماء بلباس خاص. وصلنا من آثاره كتاب (الخراج) وهو أهم مرجع اقتصادي - إداري لتلك الفترة.

الانحلال بخلافة أبي بكر وبحرمان الخليفة الرابع من حقه الشرعي. وراح فقهاء الطرفين ينوّهون بعدها بتدهور وانحلال مطرد لابتعاد الإسلام عن أصوله وخروجه عن مبادئه الأساسية، بعد أن حلت الأنظمة الملكية محل الخلافة وهو ما دعي بحكم السيف الذي لا شأن للشريعة الإسلامية به. في الواقع ما عاد الفقهاء المسلمون يتصورون وجوداً فعلياً للخلافة، إذ صارت حكماً فردياً مطلقاً زمن الأمويين وملكية مطلقة في حكم العباسيين على النمط الفارسي سلاحه الظاهري ستر الاستبداد والظلم وفساد الإدارة العام الذي قاد الإمبراطورية الضخمة وبناتها العرب إلى الانهيار والزوال والخمول. إذ ما أهلّ القرن الثالث للهجرة (مائتان من السنين فقط) حتى وجد العرب أنفسهم يخضعون لحكام أجانب وصارت فتوحاتهم إقطاعاً للسلاطين الغرباء والمغامرين العسكريين Soldiers of Fortrne بل آضت بلادهم ومسقط رأسهم تحت حكم هؤلاء. وتقلص نفوذ الخليفة العربي الذي غلب عليه الدم الأجنبي بعد هارون الرشيد ليكون رئيساً فخرياً ورمزاً باهتاً. فالقادة العسكريون الذين برزوا فوق أنقاض الإمبراطورية فرضوا أنفسهم فرضاً وكانوا السلطة الفعلية. ولم يسع الفقهاء إلا أن يقنعوا أنفسهم بما قدر للخليفة من مصير، على أنهم حاولوا التخفيف من شدة وقع هذا الانقلاب رغم صعوبة الأمر وشذوذه. وأجرت مدرستهم تعديلات متتابعة على أحكامها وتعاليلها مسايرة للأحوال والواقع وراحت تبث وتروج لفكرتها القائلة بأن الحكومات القائمة وإن لم تستوف الشروط التي اقتضتها الشريعة أو تسير وفقاً لها، ومع أنها تستمد ديمومتها من الاستبداد والقمع والطغيان إلا أنه يجب احترامها والخضوع لأوامرها لأنها اليد والوسيلة التي تقي المجتمع الإسلامي الفوضى وتحد من استبداد الفرد.

وأدركت مدارس الفقهاء على اختلافها أن النظام القديم الذي تبناه العرب المسلمون بعد وفاة النبي لم يعد يتفق ومتطلبات العصور التالية لاسيما تلك التي يعيشون فيها وسلّم كثير منهم طوعاً أو كرهاً بأن (الإمام) قد لا يكون ذلك الرجل الطاهر الذيل الذي تشترطه أحكام الشريعة، كما أنه قد يتعذر تحقق شروط النسب القريشي[١٢] وأنه ليس صفة جوهرية في الخليفة، وآل بهم الأمر ليجيزوا قيام أكثر من إمام واحد. وقد بسط الغزالي هذه المسألة بصراحته المعهودة، فقال في هذا الصدد:

«ما أبحناه لم نُبحه مختارين، والضرورات تبيح المحظورات، ليس للمرء أن

(١٢) المستصفى، ج١، ص٦٣.

يورد نفسه موارد التهلكة بامتناعه عن ميتة وخمر فحفظ المهجة أهم في الشرع من ترك الميتة والخمر. إن سألنا من يقول بذهاب الخلافة أيهما أفضل؟ الفوضى والجمود في حياة الأمة بغياب السلطة الشرعية أم الخضوع للسلطان؟ لا بدّ لنا من إختيار ثاني الأمرين. وفي الحديث: من رأى من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإن فارق الجماعة شبراً كانت ميتته جاهلية»[١٣].

في فترة تمتد لأكثر من أحد عشر قرناً لعب التاريخ بالناطقين بالعربية وبالعرب لعبات دنيئة سافلة، فقد صدمتهم الانقسامات ومزقتهم النزاعات الداخلية وزلزلت كياناتهم الغارات الخارجية وأذلهم الخضوع إلى سادة أجانب أذاقوهم الويل من النوائب وغرزوا فيهم آمالاً عراضاً مبالغاً فيها كاذبة، وأشاعوا فيهم المخاوف والإرهاب النفسي، إلا أنهم كانوا في أحلك ساعات تاريخهم يعللون النفس بذكريات الماضي والمجد السالف عندما كان أجدادهم يحكمون معظم نصف الكرة الارضية الشرقي، وعندما كان العنصر الأصفر الصيني والأعراق الأوروبية النوردية ترتعد فرقاً منهم وتخطب ودهم، وعندما كانت لغتهم الوعاء الكبير الذي صبت فيه كل ما أنجزته البشرية في العالم والفكر والأدب[١٤]. في هذه الفترة المنحصرة بين ٦٨٥-٩٤٥ ميلادية، وهي الفترة التي بلغ العرب فيها من السيادة السياسية والفكرية أقصاها، ووقفوا وحدهم بلا منازع على رأس سلم المدنية والحضارة، كانت الأسرتان الحاكمتان خلالها من قبيلة قريش وهي القبيلة التي نبغ منها نبيهم. وقتما بدأ شيء شبيه بالوحدة والتماسك كانت الإرهاصات السياسية الفارسية والرومية والسريانية بتقاليدها المؤثلة الحضارية عاملة غير هاجعة. كما بقيت القوة النسبية للشعوب الأخرى التي لم تقبل الإسلام دينياً تجاهد

---

(١٣) إحياء علوم الدين، ج٢، ص٨٠ و٩٢ وغيرها. جاء في (شرح مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين) للتفتازاني (ت ١٣٨٩م): وقد ذكر في كتبنا الفقهية أنه لا بد للأمة من إمام يحيي الدين ويقيم السنّة وينتصف للمظلومين ويستوفي الحقوق ويضعها مواضعها. ويشترط أن يكون مكلفاً مسلماً عدلاً حراً ذكراً مجتهداً شجاعاً، ذا رأي وكفاية، سميعاً بصيراً ناطقاً قريشياً، فإن لم يوجد في قريش من يستجمع الصفات المعتبرة وُليّ كناني، فإن لم يوجد فرجل من ولد إسماعيل فإن لم يوجد فرجل من العجم (ج٢ ص ٢٧١).

(١٤) من أحاط بالشعر العربي قديمه وحديثه سيكون مرغماً على الإقرار بأن ما عالجه هذا النوع من الأدب من العواطف والأحاسيس، وما عبّر عنه بدقة وروعة من خلجات في العقل والقلب، كان ذا صفة شمولية وقد نجح أيما نجاح في التعبير عن أصغر وأدق خلجة ببيان رائع وصدق.

أيضاً من جانبها حينما بدأ الضعف والانحلال يعتور التسلط العربي.

ظاهرة الانحلال الاجتماعي التي وطأت لتغلب (جنود الحظ الأجانب) ونزعهم الحكم من العرب ظهرت بالدول في تلك المدن الإسلامية الجديدة، أو تلك التي مصّرها الإسلام خلال فتوحاتهم وسكنتها أغلبية مسلمة:

في العادة، كان في المدينة المنورة شارع عام رئيس يقوم فيه المسجد الملاصق لمنزل الحاكم أو العامل. والمسجد محل عبادة ومركز سياسي في عين الوقت، يؤمه الناس لصلاة الجماعة يوم الجمعة ليستمعوا إلى الخطبة التي يبسط فيها الخطيب سياسة الدولة، وإلى بيانات الحكومة وأوامرها، وتسهم أمزجة الجماعة بدور هام من ردود الفعل قد يكون سلبياً يترجمه العنف والثورة، إن لم يقم أحد بمهمة الخطيب المرشد. والخطيب يبدأ عادة بالثناء والذكر الحميد للحاكم وهذا يعني الاعتراف بسلطته وقانونية حكمه، كما أن تجاوز الخطيب عن هذا الاستهلال أو تجاهله يفيد عدم الاعتراف به وبسلطته ويعتبر ضربة موجهة للحاكم وثورة على حكمه. والمسجد فضلاً عن ذلك الملتقى الروحي للمدينة المسلمة فيه يجتمع المثقفون وذوو العلم والفضلاء والشخصيات البارزة للتدريس أو المدارسة أو تبادل الرأي.

ومن شأن المدينة المسلمة أو ذات الأغلبية المسلمة أن تُقسم أحياؤها على أساس قبائلي، فيكون لكل حي مسجده وحمّامه وسوقه ثم يفرد أحياء للأجانب من فرس وترك ولذوي الديانات الأخرى[١٥].

في بغداد، وفي الكوفة وأنطاكية والقيروان، كما في غيرها من المدن، لا يفكر شيعي قط بالصلاة في مسجد لأهل السنة والعكس أيضا وارد. وتحفل كتب التاريخ العربي والإسلامي بأخبار تظاهرات يقوم بها حي من الأحياء تنتهي بأعمال عنف، أو تستبطن مذبحة دينية إذا أخذت مأخذ تحد واستفزاز، وهو وضع متوتر دائم تشيع فيه هستيريا فيها يميل الناس إلى العزلة والحياة المغلقة. وفي مثل هذا الجو المشحون يتعذر أن تسود المدينة حياة اجتماعية بالشكل الذي نعرفه اليوم، كما كان يصعب جداً أن يتعرف المسلمون فيه بعضهم إلى آراء بعض في أية مسألة ذات أهمية. وقد حفرت هذه الحالة برزخاً عميقاً واسعاً بين التظاهرات والاحتجاجات العامة والانفجارات

---

(١٥) إلى يومنا هذا يوجد في مدينة (تلمسان) الجزائرية انفصال يكاد يكون تاماً بين السكان الأصليين وبين أولئك الذين انحدروا من صلب الإنكشارية الترك.

الجماهيرية، وبين العقيدة والرأي الخاص. وليس من المستغرب أبدا أن ترى معظم الشباب المسلمين الذين لم يعرفوا الصلاة ولم يؤموا مسجداً في حياتهم، ولم يحفلوا بتطبيق فريضة من فرائض الإسلام، فإذا بهم في لحظة ينقلبون متعصبين له ومن أنصاره المستعدين للذود والدفاع عنه في وجه خصومه إلى حد الهوس والتضحية. إنه لا شك من تأثير الدور الذي يقوم به الدين في إثارة الأحاسيس القومية عند كثير من المسلمين، فمن حيث إن الإسلام كان أعظم وأشرف ما قدمه العرب لأمم العالم في الماضي، لا غرابة في أن يشعر كثير من النشء اليوم بأن من الخطر النأي عنه. فضلاً عن شعور بخجل وحزن إذا ما بدوا وكأنهم قد تخلوا عنه. ومن هنا جاء استحقاقه من الثناء وارتقاؤه إلى الشعور السياسي من قبل أولئك الذين لا يحفلون بتعاليمه ولا يطبقونها في حياتهم الخاصة، ولا عجب والحالة هذه أن تطغى الازدواجية في التصرفات الفردية ويحل محل السلوك المنطقي التمسك بالمظاهر واعتبارها في أحيان كثيرة حجر الزاوية في تعامل أو مناقشة أو تبادل رأي، وأن يكون لها دورها العظيم في بناء الحياة الاجتماعية. فالمجاملة والحفاوة هما الأسلوب السائد بغض النظر عما يختفي تحتهما. ويعرو الغربيين دهشةٌ وبغتةٌ أن يروا مناقشة سياسية حيّة هادئة بين عربيين، تسوء فجأة لتنقلب إلى ملاحاة صاخبة تنضح تعصباً وتحفل بهجر القول والتهديدات وربما تنتهي بأكثر من الشتائم. فبعد عرض واقعي موزون لموقف ما إذا بذلك المثقف المهذب الجذاب القادم من البلاد الناطقة بالعربية يبدو فجأة وقد لبس قناعاً مختلفاً عندما يضرب على وتر سياسي أو ديني حساس فيه.

الطابع النفسي الاجتماعي الذي نجده في البلاد الناطقة بالعربية متأتٍّ من هذه التراكمات التاريخية. السرقة لا تعتبر جريمة إذا أقدمت عليها بفطنة وذكاء معقود بالنجاح. والفساد إن لم تصحبه عملية إيذاء بدني قد يعتبر من الفنون الجميلة، والشيء نفسه ينطبق على الكذب الذي يعتبر في أوروبا وأمريكا عامة من أهول المنكرات هنا يعتبر مجرد وسيلة أو جزءاً من أساليب العيش. فقد رئيس جمهورية هام في الولايات المتحدة منصبه بسبب كذبة أقدم عليها. ولو طبقنا عين هذا القياس عندنا فلن يبقى لدينا في وقت قصير قائد سياسي واحد أياً كان شكله. والفساد والرشوة هو حالة من حالات الضعف البشري لا سبيل لمقاومتها. فالقصد من الرشوة هو ضمان وصول البضاعة أو إنجاز العمل المطلوب وعندما لا يتحقق وصول البضاعة أو إنجاز العمل بحسب المأمول من الرشوة وتعلو الأصوات منذرة بالفساد وتندب الفضيلة وتذرف الدموع

عليها. لكن متى تعلو هذه الأصوات المنذرة؟ إنها ترتفع عندما يتعدى الفساد والرشوة كل حد متصور، أو عندما لا يؤتي الفساد ثمرته المرجوة. إنك ترضى مثلاً بدفع ٥٪ من قيمة إنشاء مدرسة، لكنك تحصل على المدرسة بالأخير. ولكنك لا تسكت عندما تدفع ٣٠٪ منها رشوةً ولا تحصل على المدرسة كما تريدها، والشخص النادم هو ذلك الذي يعترف بسوء عمله، والندامة هي جزء من الترويض ومحاولة للاستقامة. يتعذر أن تجد مسؤولاً في البلاد الناطقة بالعربية يعترف بالخطأ والندامة. خذ الديانة المسيحية التي وضعت قانوناً للندم. عليك أولاً أن ترتكب الإثم ثم تذهب إلى الكاهن لتعترف به ولتحصل على حِلّ منه بعد عقاب معنوي (صلاة أو تصدّق). ثم ترتكب الإثم عينه ثانية، حلقة في سلسلة من الرذيلة طاهرة شريفة، لأن الندامة لا تعني بأنك لن تأثم ثانية ولو كان الأمر كذلك فسوف يصاب النظام الكنسي في الاعتراف بالإفلاس. والتصدق في الإسم على مخالف الشريعة يدخل في هذا المدخل أيضاً.

إنه من آثار التعصب العقائدي والديني إن شئت الدقة، الذي فرضته أجيال إثر أجيال عاشت في إطار ذلك النمط من الحياة الاجتماعية الذي أشرنا إليه. إنه مظهر لذلك التوتر الذي يطفح باستمرار فوق وجه حياة البلاد الناطقة بالعربية - العصرية، توتر التناقض بين الواقع والمثل وتوتر من أثر الجهد المبذول للتوفيق بين العقيدة الدينية والعقيدة السياسية. فعندما تطغى الوقائع لتعلو المواقف المثالية المنشودة تخرج تلك الانفجارات العاطفية بهياج وضجة ويعتدى على قانون الأخلاق بجرأة وصلافة.

وهذا يفسر أيضاً موقف الناطقين بالعربية من المدنية الغربية، إنهم يريدون كل شيء فيها من تكنولوجيا إلى علم إلى ثياب إلى كماليات إلى مستوى معيشة، وهم في عين الوقت يشعرون برغبة ملحة في رفضها والابتعاد عنها إثباتاً للشخصية التراثية المستمدة رأساً من العقيدة الدينية بكل جوانبها النشطة وبكل ما فيه هو من تحفز. ولهذا رأينا مثلاً أن مصير الأقليات الدينية في العالم الناطق بالعربية ذي الأغلبية المسلمة يتوقف بالأخير على مقدار ومدى تبني حركة اليقظة والانبعاث العربيين السياسة العلمانية، ليساعد تلك الأقليات على العيش بسلام وانسجام مع الأغلبية.

وضع كهذا الذي فصّلنا فيه كان مقدراً له أن يطبع العلاقات بين الأغلبية المسلمة الناطقة بالعربية وبين الأقليات الدينية - العرقية غير العربية ضمن البلاد تلك بطابع بعيد عن الانسجام الفكري والتوافق المصيري، وتدفع تلك الأقليات بدورها إلى البحث بشدة وإلحاح عن هويتها القومية هي وكذلك اتخاذها مواقف معينة وقائية.

الإسلام الأول كان سبب ظهور القومية العربية وهو مؤسسها الروحي. وفي أيامنا هذه وبعد سلوك تلك القومية المسلك الشوفيني - كما سنرى - صار يُنظر إلى غير المسلم المدعي بعروبته نظرة تساؤل حاد مفعم بالشك، سيما بعد أن تحققت الحرية والاستقلال للبلاد الناطقة بالعربية وتخلصت نهائياً من حكم الأجنبي. فراحت تبحث جادة عما يذكرها بالتراث التليد وليس فيه إلا ما يذكّر بالرسالة المحمدية.

الفصل الرابع

(تابع) الإسلام والقومية العربية.حركة مذهبية مسلحة (الخوارج). التشيع مظهر لظلامة وسخط. إثبات شرط الوراثة في إمامة المسلمين محصورة في نسل الإمام علي. انتقال دعوة الشيعة إلى فارس. حركة متشددة في المغرب مع إكراه على اعتناق الإسلام. ردة الفعل بمحاكم التفتيش الإسپانية. الأكثرية المسيحية تغدو أقلية. الانصهار في المجتمع العربي – الإسلامي. من يدعي بالأصول العربية بسبب اعتناقه الإسلام. إصرار بعض الشعوب المسلمة على الاحتفاظ بقوميتها. انتشار الآراء السياسية التقدمية الحديثة وأثره في الإسلام. الأقليات العنصرية المسلمة تتبنى خطوطاً علمانية سياسية. إستخدام القوة بدل اللسان في عمليات الإقناع. المنافرة والتشتت في الأهداف القومية. ممارسات قومية شاذة وإرهاب فكري. عَود إلى الشعوبية. طبقة الموالي في عهد الأمويين. التمييز العنصري رغم رسالة المساواة الإسلامية. خشية العباسيين من الفرس وإشغالهم أعلى المناصب دون العرب ثم التشكيك في إخلاصهم. القيادات المدنية والعسكرية تناط بالموالي. نهاية الشعوبية. محاولة استخدامها الآن لإبعاد عقائد سياسية منافسة للقوميين عن الساحة. القوميون يقرنون الشعوبية بالشيوعية، المشابهة اللفظية (الجناس) بين الكلمتين

يعزو بعض الكتاب القوميين العرب ومفكريهم ما حلّ بالعرب من كوارث ونكبات وما جعلهم ينسحبون إلى خلفية التاريخ ويعيشون على هامشه إلى حدثين كبيرين بدت تباشيرهما والإسلام في مراحله الأولى. إذ لم يمض على وفاة النبي أكثر من ثلاثين عاماً حتى كان ثم حركة مذهبية مسلحة قدّر لها أن تشق العالم العربي ومن ثم الإسلامي شقاً لا صدع له هي حركة الخوارج. تكاملت هذه الحركة بمدرستين مذهبيتين سياسيتين نعرفهما اليوم بمدرستي الشيعة والسنة. وقد تزامنت هذه الحركة الدينية مع الأولى بالحدث التاريخي الثاني، الذي كان مقدراً له أن يزيد في اختلاط الدم العربي بالدم

الأجنبي وأن تنشد الأقوام الأخرى، التي دخلت في الدين وأصبحت جزءاً من الإمبراطورية العربية هويتها وتراثها القومي بحركة المساواة التي سعى المسلمون غير العرب إليها مع العرب. وهي حركة علمانية - سياسية عرّفتها كتب التاريخ الإسلامي بـ(الشعوبية) وقد تقدمتها ومهدت لها ما عُرف أيضاً في تاريخ الإسلام بـ(الموالاة).

ليس من أغراض هذا الكتاب التدخل في تفاصيل وظروف وأسباب هذا الانشقاق الديني العظيم، وهي موفورة وبمتناول اليد في مظانّ كثيرة، ولكن سأركّز الآن على مقدار تأثيرها وتأثير الحدث الآخر في فكرة القومية العربية. وهو الجانب العالمي من الدين الإسلامي - أي باعتبار الإسلام إنما جاء للبشرية جمعاء لا لقوم معينين بالذات.

التشيع أو الشيعية هي مظهر استياء وظلامة يتطور كما تطور في الماضي بتطور البنى الاجتماعية والعلاقات بين الحاكم والمحكوم. لاسيما بعد أن حقق الإسلام الثورة الاجتماعية الكبرى بإحلال رابطة العقيدة بدلاً من رابطة الدم وروابط أخرى معها، فجاء معها بمبدأ المساواة. ومع أن مظهر الكفاح أو الخلاف المستحكم بدأ بالنزاع على الخلافة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان فسيبقى التشيع متسماً بهذا التقليد من الكفاح ضد السلطة السنيّة. أو كما ينعتونها بصورة أعم النضال ضد السلطات غير الشرعية أو غير العادلة مهما اتخذت من الأنماط والأزياء وعلى أي حجج ارتكزت وبأي شكل بررت به وجودها. إلاّ أن الشيعة وقعت في مسار تاريخها، وعندما أتيحت الفرصة لها بتسلم السلطة الفعلية، في عين الخطأ الذي عزته إلى السلطات التي حاربتها وناوأتها. فقد نزع حكامها أيضاً إلى الاستبداد وإلى الثيوقراطية بأضيق مفاهيمها عندما أصروا على إثبات شرط الوراثة في إمامة المسلمين لنسل الإمام علي الذي رفعوا درجته أكثر بكثير مما رفعه إليها السنة، فقالوا إن النبي لقّنه علوماً كان يخفيها عن سائر صحابته لأنهم ليسوا أهلاً لها، وإن نسله العلوي توارث هذه العلوم. وكما اختار النبي (علياً) وعينه صراحة خلفاً له فيما بُعث من أجله لهداية الأمم وحكمها وتدبير أمورها فهو كذلك (وصي) أي أنه انتُخب برغبة من النبي وإقراره. لذلك فليس لأحد غير (علي) حق في لقب أمير المؤمنين، هو والنسل الشرعي منه، بوصفهم أئمة ورثوا منصبه في رئاسة الدولة وولاية أمور المسلمين قاطبة وكذلك حملة تركته من العلوم والصفات الروحية التي امتاز بها وبمختصر القول: هي السلالة المباشرة للإمام من زوجه (فاطمة) بنت النبي. وقالوا إن هذا التدبير سبق وأن قضت به مشيئة الله وكتبه وأنه استنّه لكل

العصور، وأن النبي إنما أقره كتقليد إلهي لمنصب الحاكم والولاية، وقد وفق التفسير الشيعي لآي القرآن ببلوغه الغاية القصوى من التأويل في العثور على مواضع منها تؤيد هذا النظام.

ما من شك في أن الشيعة منبتها عرب العراق، وإن ألجأت الظروف السياسية والأحداث التاريخية أن يتبنى الفرس والمغاربة الدعوة في وقت متأخر. هناك رأي للمستشرق والباحث الكبير (السر توماس آرنولد) أنقله نصاً:

«عامل سياسي لم يكن ظاهراً في حينه ولم يبد تأثيره العظيم في سير الأحداث التاريخية، هو زواج الحسين بن علي ب(شهربانو) إحدى بنات (يزدگرد الثالث) آخر ملوك الفرس الساسانيين. وقد رأى الفرس وبشكل عاطفي غامض في أولاد الحسين ورثة ملوكهم الأقدمين. إن هذا الشعور القومي يفسر لنا تعلق الفرس بالإمام علي من جهة وظهور المذهب الشيعي مذهباً جهادياً عسكرياً في بلادهم[1]».

وسواء أصح هذا التعليل أم لم يصح أو كان واحداً من العوامل، ففي رأيي أن النزاعات الفكرية الدينية السابقة التي خلفتها الزرادشتية والمزدكية والمعاملة الحسنة الفضلى النسبية أحياناً التي عامل العربُ الفرسَ بها، فضلاً عن العامل الجغرافي هو الذي سهّل انتقال دعوة الشيعة ضد الأمويين من العراق العربي إلى العراق العجمي ثم إلى أبعد من خراسان، وهي أرض بعيدة جداً عن عاصمتهم دمشق، أرض جبلية وعرة لا تطالها جيوشهم. والواقع هو أن الدعوة إلى التشيّع كان منبتها البصرة وقد أطلقها عبدالله بن سبأ اليمني الموطن وقت خلافة عثمان[2] إذن فمنبتها العرب في أرض سكنها العرب.

---

(١) يصعب قبول هذا التعليل. فالمعروف أن رعايا الساسانيين من فرس وغيرهم لم يكنوا احتراماً أو وداً لحكامهم وملوكهم بدليل ترحيبهم بالفاتحين الذين لم يخوضوا أكثر من ثلاث معارك جدية على أرض العراق العربي، في حين فتح سائر إيران صلحاً أو باشتباكات صغيرة لا ترقى إلى مرتبة المعارك. ومن المفيد ان نذكر واقع كون إيران حتى بداية القرن السادس عشر ذات أغلبية سنية، وبمجيء الصفويين الذين جعلوا المذهب الشيعي مذهب الدولة الرسمي تحول السكان تدريجياً إلى المذهب الشيعي.

(٢) قيل إنه يهودي أسلم وتنقل في الجزيرة واتصل بأبي ذر الغفاري. طردته السلطة من البصرة فرحل إلى الكوفة ليبثّ روح الاستياء من (عثمان) ومن قريش. ولجأ إلى عقد الاجتماعات السرية في منازل الأتباع يدعو فيها للإمام علي. ويعزى إليه مذهب الرجعة (رجعة محمد) كما =

أيدت الشيعة حكومات إسلامية كما أيدت السنية حكومات أخرى. ومن الحكومات الأولى الدولة البويهية في العراق وما حوله (٩٣٢-١٠٥٥م) والفاطمية (٩٠٩-١١٧١م) في مصر وشمال أفريقيا وسورية. ولم يقتصر النزاع بين الحكومات والدول السنيّة والشيعيّة على المناظرة والجدل الكلامي بل تعداه إلى القتال وسفك كثير من الدماء، وكان واحداً من أسباب القتول الجماعية أثناء هجوم التتر[٣]، كذلك سفكت دماء كثيرة في أثناء الجهاد الذي أطلقته دعوة عبيدالله الفاطمي الإسماعيلي عند فتح مصر وشمال افريقيا، والمقام يضيق بتعداد تلك الحروب المذهبية ولا يمكن قط نسيان آخرها وأطولها وأخلفها بالنوائب والكوارث عند قيام الدولة العثمانية والحروب السجال التي خاضتها مع الصفويين ومن عقبهم.

الجهود والأموال والأنفس التي أضاعها الاحتراب بين أهل السنّة والشيعة منذ عهد الإمام علي وبتعاقب خلفائه وحملة رسالته، وقد جاء شرحه في كتاب (مقاتل الطالبين) لأبي الفرج الأصبهاني صاحب (الأغاني) وما أورده المؤرخون من بعده، كانت تكفي بسهولة مثلاً لرد الغارات والعدوان الخارجي من المغول والتركمان الفرنجة على البلاد الناطقة بالعربية.

وبصورة عامة بقي التسامح والإغضاء يسود علاقة الطائفتين المسلمتين بالأقلية الدينية، وربما كانت الحرب الشاملة التي شنّها عمر بن الخطاب هي الوحيدة العديمة المثال لاحقاً، فقد أمر بإزالة معابدهم (بيوت النار) من وجه الأرض وإتلاف كتبهم المقدسة حيثما وجدت، وأُكره بعضهم على اعتناق الإسلام بدعوى شركهم.

كان هذا التسامح والملاينة مع غير المسلمين ملفتاً للنظر أحياناً في سائر العصور الأولى، سيما حينما يأخذ أحد المذهبين بخناق الآخر في أي بقعة من بقاع العالم الإسلامي. والواقع هو أن قليلاً جداً من المسلمين المتعصبين الضيقي التفكير صعد روح التعصب الاعتدائي الذي عزاه العالم المسيحي برمته إلى الإسلام خطأ وافتئاتاً على الحقيقة. ولنا في هذا مَثَل من أولئك الذين عرفهم التاريخ بـ(دولة الموحدين ١١٣٠ -

---

= وضع مبدأ الوصاية بمعنى أن (علياً) هو وصي وخاتم الأوصياء كما كان محمد خاتم الأنبياء. وهو أول من أثبت الحق الإلهي (لعلي) بالإمامة بمعنى أن حكمه إنما هو مستمد من إرادة الله.

(٣) (الخميسي) مثلاً: (كان مجيء هوليگو (هولاكو) فيما يقال: بدعوة من ابن العلقمي الرافضي (أي المتشيع) إذ كان يعتقد أن (هوليگو) سيقتل المستعصم ويعود إلى حال سبيله وعندئذ يتمكن الوزير من نقل الخلافة إلى العلويين.

١٢٣٥م)[٤] أتباع حركة متشددة إسلامية نشرت الإرهاب بأقسى مظاهره في أفريقيا الشمالية وإسبانيا إذ أعملت السيف في رقاب المسيحيين واليهود على حد سواء لإكراههم على اعتناق الإسلام.

وبدا التمييز المهين والمضايقة بشكل أخف كثيراً وعلى نطاق محدود عند بعض الخلفاء العباسيين كإرغامهم على ارتداء أزياء معينة تدل على انتمائهم الديني[٥] لذلك كان اعتناق بعضهم الإسلام وسيلة للخلاص من هذه الأعباء وكذلك من دفع الجزية، ويظهر أن الإقبال كان كبيراً بحيث رد على كثير منهم النطق بالشهادة ولم يشجعوا على دخول المجتمع الإسلامي لأنه يحرم بيت المال من مورد كبير.

كانت حياة هؤلاء صعبة جداً، لاسيما في سورية والعراق ومصر التي بقيت غالبية سكانها على دين آبائهم حتى العهود الأولى من الخلافة العباسية. وكثيراً ما كانت

---

(٤) أسس دولة الموحدين (المهدي ابن تومرت) على أيديولوجية شيعية حاربت دولة المرابطين في المغرب وقضت عليها واحتلت عاصمتهم مراكش في ١١٤٦ ميلادية، وامتد حكمها إلى الاندلس (جنوب اسبانيا) وقام منها سلاطين.

(٥) كان مفروضاً عليهم أن يشدوا زناراً في أوساطهم فوق الثياب. وأن يقتصروا على ألوان معينة من الأكسية (أزرق للمسيحيين، وأصفر لليهود، ورمادي للزرادشتيين) هذا فضلاً عن قيود أخر في مسلك الحياة اليومية والممارسة العقائدية. فيمنع بناء أي جديد من أماكن العبادة أو حتى تجديدها في حالة سقوطها ويمنع كذلك عرض الصليب أو التوارة في الأماكن العامة التي يؤمها المسلمون (كان يسمح للمسيحيين في أحيان بالإحتفال بالطواف بالصليب خارج أحياء المدينة مرة واحدة في السنة) ولا يسمح لأي من أهل الكتاب بامتطاء الخيل. وان لا يتقدموا المسلمين في أي اجتماع وأن يقفوا أمام أي مسلم باحترام ويبادؤوه السلام. وحرم عليهم الاحتفاظ بسلاح في بيوتهم ناهيك عن حمله. وان لا يرتفع بناء الذمي أو أماكن عبادتهم على بيوت المسلمين (كانت هناك ثورة حقيقية في الموصل عندما ارتفعت جدران كنيسة الآباء الدومنيكان على بيوت المسلمين المجاورة وقت بنائها في حدود ١٨٧٨م، مما ألجأ السلطة إلى انتداب الجيش لإخماد الفتنة ووضع البناء تحت الحراسة الدائمة خلال تشييده) ويمنع الذمي من دخول المساجد، في حين يتمتع المسلم بحرية دخول معابد الذميين في أي وقت شاء كذلك وفرض عليهم استضافة المسلم ثلاثة أيام مجاناً في حالة النفير. هناك محرمات بحكم القانون والشرع. فمثلاً يحرم زواج الذمي من المسلمة وقد يفقد حياته بسبب ذلك. في حين يقبل زواج المسلم من الذمية شريطة ان يكون نسلهما مسلماً. ويحرم على المسيحي أو اليهودي الشهادة في مجلس قضاء شرعي بقضية تتعلق بخصوم مسلمين. كما يحرم عليهم اقتناء عبد مسلم وأن لا يقتني نسخة من القرآن. وبمقابل ذلك فإن الإسلام في سائر حقبه لم يحرم على الأقليات الدينية ما حلله شرعها وما حرمه القرآن كشرب الخمر واكل لحم الخنزير أو المهن المتعلقة بالربا مثلاً.

الاهتداءات جماعية بسبب موجة اضطهاد يثيرها عالم متعصب أو حاكم مستبد أرعن يحيا حياة مزدوجة[٦].

وكثيراً ما كان اعتناق الدين الجديد الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الروح لا عن رغبة وقناعة. هؤلاء المهتدون نسلوا وتعاقبت أجيالهم فتنوسي الظرف الذي تم به إسلام أسلافهم. وتتحدث كتب التاريخ عرضاً أحياناً عن بعض الحكام بوضعهم تحت رقابة شديدة وعن تدمير كنائسهم ومعابدهم أو تحويلها إلى مساجد، وكثيراً ما حكموا لهفوة أو لما يبان من زيغ في عقيدتهم الجديدة. وقد يعاملون معاملة المرتدين فيُقتلون وتصادر زوجاتهم وأموالهم ويسترق أولادهم.

إن محاكم التفتيش الرهيبة التي أقيمت في إسبانيا بعد خروج المسلمين من إسبانيا لم تكن إلا ردة فعل لما فعله (الموحدون) بالمسيحيين قبلها.

إن إسلام الأقليات والقوميات التي دخلت في حكم العرب المسلمين كان بالأول وفي الغالب لفظياً لم يتأت عن قناعة بفساد دينها الأصلي، ولا بعامل الأفضلية الروحية والمضاهاة الفكرية. إنه بطبيعة الحال وبنصوص أحكام الشرع أزال تلك الأعباء التي فرضت عليهم وفي مقدمتها الجزية وضريبة الأرض[٧]، إلا أنه لم يرتفع بهم إلى المنزلة الاجتماعية والأدبية في المجتمع الذي يحكمه السادة القادمون من الجزيرة العربية، وتبقى الكنية والأسماء عالقة في جو التعامل والمخاطبة للتذكير بالأصل الكُردي أو الآرامي أو الفارسي أو التركماني أو الرومي، لتحول دون تلك المساواة الاجتماعية التي أرادها المهتدي الجديد لنفسه ولأبنائه.

بطبيعة الحال كانت هناك استثناءات هامة حتى عند المسلمين المتشددين، كالفاطميين الشيعة في مصر الذين حكموا مصر وسورية وفلسطين وجزءاً من شمال

---

(٦) من (تجارب الأمم) لإبن مسكويه: وفيها (أي سنة ٣٢١ للهجرة) أمر القاهر (الخليفة العباسي ٩٣٢-٩٣٤م) بتحريم القيان والخمر وسائر الأنبذة وقبض على كل من عرف بالغناء من الجواري والمخانيث والجواري المغنيات. فنفى معظمهم إلى البصرة وبعضهم إلى الكوفة. وكان (القاهر) مع ذلك مولعاً بشرب الخمر يكاد لا يصحو من السكر، ويسمع الغناء ويختار من الجواري القيان من يريد. ويتحدث المؤرخون عن مجالس شراب لأكثر من عشرين خليفة بينهم هارون الرشيد في عين الوقت الذي يتحدثون عن تقاهم وتمسكهم بأحكام القرآن.

(٧) اعتبرت الأراضي التي استولى عليها المسلمون ملكاً لبيت المال أو للدولة بالأحرى وترتب على الشاغلين المزارعين دفع ضريبة عنها تقوم مقام الإجارة.

أفريقيا ٩٦٩-١١٧١م. وكالأيوبيين السنة الذين حكموا هذه البلاد فضلاً عن نصف الجزيرة العربية الغربي (١١٧١-١٢٨٤م) فقد كانوا أكثر الحكام المسلمين تسامحاً. والواقع هو أن مواقف المسلمين إزاء غير المسلمين كانت متباينة بين فترة زمنية وفترة أخرى، وبين عهد وعهد بل بين مدينة ومدينة. ومن المنطق القول بأن التعصب الإسلامي كان باعثه بدرجة كبيرة واقع تخوف القلة الحاكمة ذات الدين المخالف من الأغلبية المحكومة غير المسلمة في ميدان المنافسة الاقتصادية. وعندما انقلبت النسبة وصارت الأقلية الدينية المسلمة أكثرية انتفى سبب الخوف وتحول الموضوع إلى معاملة عامة، إلى سياسة حكومية أو إلى سلوك فردي خاص.

ومن الجدير أن نلاحظ أن معظم حركات العصبية والتعصب للإسلام العدواني على غير المسلمين كان مصدره غير عربي، أو أن الآمرين به غير عرب، وبالمقابل نحن لا نتعدى الحقيقة إذا ذكرنا مثلاً بأن اليهود لاقوا أهوالاً من المسيحيين في القرون الوسطى، بل حتى في مفتتح القرون الحديثة في أوروبا. وإن المسيحيين كانوا أيضاً يَلِغون بعضهم بدماء بعض كما يفعل المسلمون دائماً[٨] كما إن أقلياتهم الطائفية كانت تقع تحت طائلة اضطهاد أكثريتهم في كل العصور والفرق هو: إن الكاثوليكية في القرون الوسيطة كانت تنكر حق الأديان والمذاهب الأخرى في الوجود، إلا أن الإسلام لم يكن كذلك في أي وقت، وعلى هذا الأساس يمكن القول وبكل اطمئنان أن الجماعات غير المسلمة في البلاد الناطقة بالعربية رغم انقلابها إلى أقلية في المجتمع ذاك كانت أكثر عددياً وأشد اقتداراً وأماناً وحرية بما لا يُقاس من الأقلية البائسة القليلة العدد غير المسيحية في أوروبا القرون الوسيطة.

وتعقيباً على ما نوهنا به سابقاً وبشكل عابر، مرت عهود على البلاد الناطقة بالعربية وفي نهاية القرون الوسيطة على وجه التقريب - بحيث لم يعد لتلك الأغلبية العددية المسلمة في البلاد الناطقة بالعربية أي مكانة في سلم النفوذ الاجتماعي رغم انتماء

---

(٨) بل إلى يومنا هذا، وقد قرأت مؤخراً تقريراً صحفي الصبغة استوقفتني منه فقرة نسبت إلى مقال كتبه المؤرخ الإسرائيلي المعروف (ناثان ناحوم) في جريدة (حداشتوت: ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٣) وهذه هي: عندما حاولت المنظمات الفلسطينية السيطرة على بلاد الأردن في العام ١٩٧٠، قام العرب البدو خلال أسبوع بقتل عدد من الفلسطينيين العرب يزيد على عدد ما قتل من الفلسطينيين خلال خمسة وسبعين عاماً من المواجهة المسلحة مع اليهود» لا أدري مبلغ هذا القول من صدق.

الطبقة الحاكمة إلى الدين الإسلامي. فهذه الأسر والطبقات الحاكمة التي سيطرت على العالم الإسلامي ومنه البلاد الناطقة بالعربية، وكلها من العسكريين الأجانب الغرباء، كانت تنظر إلى سكان البلاد جميعاً وبدون تمييز أو استثناء نظرتها إلى قطعان من الحيوانات والماشية خلقت لنفعها واستغلال طاقاتها دونما رحمة. في حين وجدنا المجموعات العربية الصغيرة والقليلة التي هاجرت واستقرت نهائياً في البلاد الأخرى المسلمة، قد انصهرت تماماً وتمثلت في السكان الأصليين[٩].

رأى عدد من كتاب الغرب أن الدخول في الإسلام صار في فترة ما سبيلاً للانتماء إلى العروبة، أو الاستعراب. صحيح أن اعتناق الإسلام عزز هوية العرب القومية كما يدعون دين العرب المتميز، وهو بالتالي جزء من التراث العربي. كثيراً ما يشعر المسيحي المدعي بالأصل العربي أنه مقبول تماماً. وبأنه إنما ينظر نظرة المسلم العربي في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي إلى المسيحي الذي أسلم أن إسلامه كان بدافع الحاجة ومن أجل الخلاص من حالة التمييز العنصري والمواطنة ذات الدرجة الثانية. وهي النظرة التي كان المسلمون العرب ينظرونها إلى المسيحي واليهودي المدعي بالأصول العربية منذ عهد الفتوح فصاعداً. وبخلاف ذلك وجد المثقفون من القوميين العرب اليوم في الانتماء المسيحي إلى العروبة دعماً ومدعاةً للاعتزاز. ومهما يكن من أمر، فغير العربي أو المشكوك في عربيته عندهم لا يعتبر عربياً باعتناقه

---

(٩) لجأ كثير من (آل البيت) إلى مختلف البلاد الإسلامية هرباً أو تخلصاً من ملاحقة الأمويين والعباسيين، وتواجدت أنسالهم في أقصى ما امتد إليه العالم الإسلامي. واليوم يعد هؤلاء المنتمون إلى نسل الإمام علي صدقاً أو كذباً بعشرات الآلاف من (السادة) تجدهم بين الكُرد والفرس والتركمان والأوزبك والسودان والهند وباكستان وما شئت. لم تبق قطرة دم واحدة عربية في عروقهم لتعاقب التزاوج المحلي والإنسال، وفقد شعورهم القومي تماماً. وقد بوغت الشاعر الشهير أبو الطيب المتنبي (٩١٥-٩٦٥م) وخامره إحساس بالوحدة والانقطاع عن محيطه عندما بلغ (شعب بوان) وهو في طريقه إلى ممدوحه، فذكر ذلك في مطلع قصيدته:

مغاني الشعب طيبا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... (سليمان) لسار بترجمان

و(شِعب بُوان) هو واد عميق بين جبلين اشتهر بجنانه وشجره وينابيعه، يقع في موضع ما من سلسلة بشتكو الجنوبية لا يذكر عنه (ياقوت) ما ينير السبيل إلى موقعه التقريبي. و(سليمان) هو سليمان الحكيم الذي وصف بأنه يفهم جميع الألسنة. وهو ما نوه به القرآن.

الإسلام، ويثير إدعاء المسيحي بالعروبة عند معظم المسيحيين في بعض البلاد الناطقة بالعربية اليوم بعض دهشة ولا يُقبل الا بتحفظ، فإن أتى في ظرفٍ معيّن أثار شكوكاً وتساؤلات. وقد يعدّ أحياناً انتهازية واقتناصاً للفرص تماماً كما يثير استبدال أحدهم المسيحية أو اليهودية بالإسلام(١٠).

ولا عجب فأولاء إنما يرددون أصداء الماضي ويذكرون بصمود أسلافهم أمام ضغط الأغلبية الإسلامية. فبقوا متشبثين بعقيدتهم إلى الأخير ليورثوا إرادتهم هذه لأنسالهم التالية. وهؤلاء هم المنحدرون بايولوجياً من شعوب خضعت للفاتح العربي ومنها بقايا الأرمن والآشوريين والآراميين والقبط والفلسطينيين والفينقيين، وكذلك احتفظ معظمهم بلغاته الخاصة إلى جانب العربية، في حين قصر استخدام بعضهم في الطقوس والمراسيم الدينية.

ولم ينجح الإسلام في تعريب الشعوب المسلمة التي حافظت على هويتها القومية بإصرار وعناد كالكُرد والتركمان والفرس وغيرهم ممن ضمته الإمبراطورية رغم اعتناقهم الإسلام واستخدامهم اللغة العربية بمثابة لغة رسمية كوزموپوليتية في جهات عديدة منها، وربما كان للعامل الجغرافي أثره الكبير في عدم ضياع هويتها القومية كطبيعة الأرض وصعوبة الامتزاج الاجتماعي. وأهم ما يلفت النظر هنا أن الأسلام عند هذه الأقوام اتخذ مظاهر وصفات وصيغاً محلية ذات ممارسات معينة قد لا يجدها المسلمون الملتزمون من الإسلام في شيء.

ولما تبلورت الأفكار القومية في البلاد الناطقة بالعربية، في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وجد دعاتها ومفكروها في الإسلام وتراثه ركيزة وأداة لترويج دعوتهم وراحوا ينبشون أمجاد الإسلام العربية الماضية ويتغنون بها، بل لم يتعفف بعضهم عن كساء ما وجب أن يوارى ويستر من ذلك التاريخ بحلل الخيلاء

---

(١٠) كان لي زميل في مهنة المحاماة كاثوليكي المذهب يردد زعمه بأنه انحدر من آل غسان، القبيلة العربية في عهد الجاهلية. لم يلبث إبان تصاعد المد القومي أيام (الگيلاني) أن أضاف لقب (الغساني) إلى آخر اسمه مدعياً انه من نسل آل غسان. ولم يطل به الأمر، فقد تخلى عنه بعد أن سمع بعض التعليق واللغط. وقد استغرب منه مشاركته في تأسيس حزب الاستقلال ١٩٤٦، وهو حزب قومي صرف يضم أقطاباً بارزين ساهموا في حركة مايس ١٩٤١ الموالية للمحور. في حين غدا أمراً طبيعياً واقع مشاركة عدد كبير من المسيحيين واليهود في تأسيس الأحزاب الأربعة الباقية عند إجازتها في ذلك العام، وهي أحزاب غير قومية ديمقراطية المنحى.

والزهو، وانجرّت جماعات كبيرة منهم بهذه الحماسة إلى إنشاء نوع من الحلف مع القوى الإسلامية النامية. كان ذلك في مرحلة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الشرق الأوسط. المرحلة التي تميزت بانتشار الأفكار الديمقراطية والتقدمية والاشتراكية وتسرب آخر المكتشفات العلمية والطبيعية إلى الأدبيات العربية، كالنظرية النسبية ونظرية داروين في أصل الأنواع ونظرية الذرة الخ. وكلها قوبلت بإنكار أولي عند الفقهاء المسلمين وعلماء الدين. إذا كان الاعتماد القومي على تراث الإسلام مفيداً وحافزاً وسبباً لقوة الحركة القومية بين المسلمين الأغلبية في البلاد الناطقة بالعربية، فقد كان له ردة فعل معاكسة عند الأقليات العنصرية والدينية. ولم يطل الأمر بتلك الأقليات. فإذا بنا نجد الكُرد في العراق خصوصاً وفي سورية حيث يؤلفون أقلية هامة، ينزعون إلى تأليف تنظيمات سياسية واجتماعية ونواد قومية الطابع. ونحا الآشوريون (السريان) نحوهم فأنشأوا تنظيماتهم السرية في موطنهم الأم وأحزابهم السياسية في المهجر. واستقطب الصراع الفكري القومي بعملية تباعد وانفصال للناطقين بالعربية مسلمين وغير مسلمين بتأسيس ما عُرف بالحزب القومي السوري في كل من سورية ولبنان وفلسطين، وإلى حد ضيق في العراق، وهو حزب سياسي ينكر الأساس القومي العربي ويبني تصوراته المستقبلية على وحدة الهلال الخصيب الجغرافية والعرقية.

ولخشية اليهود في العراق من اتهامهم بالصهيونية وهي تهمة قاتلة في حينه، وبسبب كونهم أقلية هامة جداً في المجتمع العراقي، أقبل مثقفوهم وشبابهم المتعلم وما أكثرهم على ولوج باب السياسة عن طريق الإنتماء إلى الأحزاب الوطنية اللاقومية بشوق ورغبة وبرزوا فيها مثلما فعل أقرانهم المسيحيون الذين لم يتسرب الإحساس القومي إلى نفوسهم إلاّ بشكل غامض قائم على الأساس الديني.

أدرك بعض دعاة القومية العربية الواعين خطورة الارتكاز على التراث الديني الإسلامي في هذه المرحلة وحاولوا تقويم الوضع بشعارات وطنية صرفة، إلا أنهم أخطأوا السبيل من جهة بابتعادهم عن المفاهيم الديمقراطية، وجرفتهم من جهة أخرى موجة التعصب وبصورة خاصة اعتمادهم بدل الجدل المنطقي على الأسلحة القديمة التي وجهها الإسلام العربي لمحاربة مفاهيم كان لا بد أن تظهر على الساحة بسبب المنافسة السياسية وتطفو فوق سطح المجتمع الإسلامي الذي خلق منه العرب إمبراطوريتهم. فزاد في التباعد وأثمر التباعد نفرة وشكوكاً حادة ما لبثت أن أطلقت مارد الإرهاب باستخدام اليد بدل اللسان وسيلة للإخضاع لا الإقناع، وكما شق النزاع العنصري - الأيديولوجي

العالم الإسلامي إلى قسمين، تهددت اليوم المجتمعات الناطقة بالعربية بالانفصال الروحي والاجتماعي وبالمنافرة في الأهداف. وزاد في الأمر سوءاً أن الحركات القومية بدأت تميل إلى عقد محالفات مع القوى الإسلامية النامية في الشرق الأوسط، بمحاولة الوقوف جبهة موحدة ضد ما سمّته بالأفكار الغربية المستوردة أو الوافدة، إن لم تكن جبهة فهي على الأقل حالة المهادنة والسكوت عن ممارسات للإسلاميين لا يقرّها الإسلام الصحيح، ولينحدروا بها وبهم إلى ما عرف اليوم بالحركات الأصولية.

حقاً، كان انتشار الإسلام بفضل ذلك الكتاب الذي نزل بلغة العرب على نبي عربي لا شائبة في عروبته[11]، وإن الفضل في نشره كان للعرب، وإن العرب هم أول من اهتدى إليه. لكن الإسلام ليس بالجوهر ديناً قومياً قاصراً على شعب أو أمة دون غيرها كاليهودية مثلاً، فله جانبه الأكبر العالمي (الكوزموبوليتي) المتحرر من التعصب القومي أعني الجانب الانساني.

وقد بدأ الدفاع عن هذا الوجه العالمي ضد التنطع العربي حركة نشأت في أواخر الحكم الأموي ونشطت في القرن التاسع الميلادي واستغرق نشاطها معظم القرن العاشر، ثم زالت معالمها بعد أن انتفت منها الحاجة وطمستها التطورات السياسية والتاريخية اللاحقة، ومنها زوال حكم العرب على العالم الإسلامي في القرون التالية، إلا أن قوميي القرن العشرين العرب أخرجوها من بطون كتب التاريخ ونفضوا عنها غبار القرون ليصفعوا بها أوجه خصومهم السياسيين ومعارضيهم بسماجة وسذاجة. كانت (الشعوبية) وهو الاسم الذي عُرفت به حركة ذات طابع علمي وأدبي صرف ما لبث أن تحولت إلى حركة سياسية غير منظمة، نشأت في العراق وإيران واشتد ساعدها في القطر الأخير وبين الإيرانيين بالدرجة الأولى. وقد وطأت لها عملية اجتماعية عُرفت في تاريخ الإسلام (بالموالاة).

* * *

(١١) بل راح الأمر ببعض المسلمين من غير العرب إلى حد إنكار عروبة الرسول أصلاً وحجتهم في هذا هي أن المؤرخين المسلمين وكتاب السيرة النبوية من العرب وغير العرب يجمعون على أن قبيلة (قريش) التي نبغ منها (محمد) انحدرت من نسل إسماعيل (شموئيل في التوارة) وهو الإبن الطبيعي لإبراهيم الخليل أبي الأنبياء من (هاجر) الأمة القبطية لسارة زوجته، وأن إبراهيم نفسه هو من نسل الكلدانيين في العراق، وقد هاجر من (أور الكلدانيين) الواقعة جنوب العراق إلى فلسطين.

إيران كغيرها من بلدان الشرق الأوسط كانت منذ القديم عرضة لعملية التغيير الديني عدة مرات، منذ أول قيام مجتمعاتها الحضرية والتكوين السياسي الذي فرضته. ومن الناحية العرقية وبغض النظر عن التغلغل العربي، فإن فتوح العرب لم ينجم عنها كما يبدو أي اضطراب أو خلل في التوزيع البايولوجي للشعوب الإيرانية مطلقاً وبكل ما في هذه العبارة من معنى، لاسيما في (فارس). فقد حرص سكانه على هويتهم القومية والتحصن من التغلغل الأجنبي كما فعل الكُرد والديالمة والگيلانيون والتركمان والأفغان والبلوجيون الخ. من خلال هذا الانتشار (الجغرافي) المعقد الذي ضمته الإمبراطورية الساسانية جاء التدخل العربي، والعرب كما مر بيانه لم يعمدوا قط إلى إنشاء مستعمرات خالصة لهم في فارس إلا في الوسط الغربي والجنوب الغربي. وربما كان المانع مناخياً لأن الجمل العربي لم يكن بوسعه تحمل الشتاء الفارسي ولا ثلجه وجليده، ولم يكن معتاداً النفوذ في المرتفعات العالية الصخرية. لذلك توقفت هجراتهم أمام سفوح جبال كُردستان وزاگروس وپشتكوه.

من المهم معرفة هذا، هل إن قبول هؤلاء القوم دين الإسلام وهو دين وشريعة اجتماعية في الوقت نفسه، قد نجم عنه تغيير هام في حياتهم؟ إنهم رحبوا بمبدأ تعدد الزوجات الذي لم يكن غريباً عنهم بل وأكثر من ذلك فإن الفقه الحنفي المتطور الذي عم أصقاعاً واسعة من إيران حلل ما اصطلح القوم على ممارسته سابقاً لاسيما في ميدان التعامل التجاري. وعلينا أن نذكر القارئ بما أثبتناه سابقاً من أن انتشار الإسلام في هذه البلاد وفي البلاد الناطقة بالعربية اليوم كان محدوداً ضيق النطاق خلال القرون الثلاثة الأولى الهجرية ولم يصبح الإسلام أغلبية إلاّ في القرن الرابع وفي فترة حكم الملوك والسلاطين المحليين من غير العرب.

قلنا في أوائل انتشار الإسلام كان غير العرب يشعرون شعوراً حاداً بأنهم مواطنون من الدرجة الثانية رغم صراحة القرآن بالمساواة وبالأخوة في الدين، فكيف إلى هذه المساواة من سبيل؟

نوهت في فصل سابق بالطبقة الجديدة التي خلقها الفتح الإسلامي وهي طبقة (الموالي). إن لهذا المصطلح العربي (ومفرده مولى) عين المدلول والأثر القانوني الذي يعبر عنهما المصطلح الروماني Client ولعين الشخصية القانونية التي يملكها صاحب الصفة.

في أيام الجاهلية كان المولى شخصاً عربياً أنكرته قبيلته وقطعته عنها لسبب من

الأسباب فوضع نفسه في حماية قبيلة أخرى أو شيخ من شيوخها. ما أن اكتشف السكان المحليون هذا حتى أسرعوا للافادة منه بوضع أنفسهم في حماية قبيلة أو شخصية عربية بارزة أو متوسطة من جماعات الفاتح محافظة منهم على وضعهم الاجتماعي. فمن مزايا (الموالاة) التي يصح وصفها (بالتبني الاجتماعي) أن تلتزم القبيلة أو الجماعة أو الشخصية البارزة التي قبلت هؤلاء الأفراد موالي بحمايتهم ودرء الاعتداء عنهم والتدخل طرفاً في فض خصوماتهم. وقد شملت هذه الصفة أسرى الحرب الذين أُطلقوا لكنهم بقوا متعلقين بآسريهم[١٢]. ولا يتقاضى السيد من المولى أجراً أو يلتزم المولى لمن التصق به غير الولاء والانتصار له عند الحاجة.

في القرنين اللذين نوهنا بهما تواجد الموالي من مختلف الجنسيات والطبقات الاجتماعية في كل البلدان والأقاليم التي دخلت حكم العرب، إلا أن أغلبيتهم الساحقة ومراكز نفوذهم وثقلهم الاجتماعي استقطبت في أقاليم الشرق لاسيما إيران. والسبب في هذا التركيز يعزى إلى أن البلاد التي كانت في السابق جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية استطاع كثير من أكابر القوم وأسرها البارزة الهروب إلى القسطنطينية ومن هناك عملوا على افتداء أسرى الحرب من مواطنيهم، في حين وقعت كردستان وإيران وسائر أملاك الساسانيين شرقاً تحت حكم العراق وسقطت دولتهم سقوطاً كاملاً وأصبحت الأسر البارزة والمتنفذة كلها تحت حكم العرب إذ لم يكن لهم مجال للهروب والاحتماء بدولة أخرى. أضف إلى هذا أن الجزء من تاريخ العرب والإسلام الذي احتكره العراق بسرعة وبواقع كونه في السابق جزءاً من الإمبراطورية الساسانية وفيه عاصمتهم الشتوية (قطيسفون - المدائن) كان لقرون عديدة قد تزيد على الثمانية اعتباراً من فتح بابل على يد كورش، مجالاً للتغلغل والاستقرار الإيراني مما كسب للموالي الإيرانيين الساكنين فيه أهمية توازي السكان العراقيين الأصلاء. أضف إلى هذا أن مساحة إيران الكبيرة وكثرة السكان أدّيا إلى تزايد عددهم في العراق. ويمكننا القول أيضاً بأن إقبال الإيرانيين على طلب الحماية أي (الموالاة) يعود إلى طبيعة الروابط الاجتماعية والعقائدية التي درجوا عليها في دينهم المزدكي السابق الذي هو صيغة متطورة للزرادشتية - فقد انتابها وهن شديد بالانشقاقات

---

(١٢) كان (أبو لؤلؤة الفارسي) الذي قتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مولى للقائد العربي (المغيرة بن شعبة) ومن أسارى حربه في العراق.

المذهبية والتناحر في حين نجحت المجتمعات المسيحية واليهودية إلى حد ما في وقف تحول أبنائها إلى الدين الجديد. مع هذا فقد تحول عدد كبير من الآراميين العراقيين (النبط في كتب التاريخ العربي) إلى الإسلام وأصبحوا موالي. فمن شروط الموالاة التحول إلى الإسلام، وهذه تعني الخطوة الأولى المبدئية لعملية الاندماج في المجتمع الإسلامي، بقيام الموالي بمهمة الحلقة التي تتوسط سلسلة مجتمعيْن وثقافتيْن وتقديمها لهما تقديماً جيداً وإن كان القصد منه قيام الموالي هؤلاء بقيادة السادة الجدد من العرب إلى مجتمعاتهم وحضارتهم وتقاليدهم، أي قيام الموالي بدور الوسيط والمترجم بين مواطنيهم وبين الفاتحين. فإلى أي درجة نجحت الموالاة في الوصول إلى هذا الهدف؟

لم يجد العرب في أنفسهم أي رغبة في أن ينزلوا أنفسهم إلى عين مستوى الآراميين والنبط والإيرانيين في العراق الذين ضبطت أراضيهم رغم إسلامهم، ولم يكونوا راغبين برفعهم إلى مستواهم أيضاً. وبقي الفاتحون يعتبرونهم أبناء لأسرى حرب أُطلق سراحهم أو أقنان أرض أو مجرد فلاحين ومزارعين وهي مهنة حقيرة عند العربي. في الواقع أن معظم هؤلاء كما قلنا كانوا من أنسال الأسرى الذين أُسروا أو أعتقوا أو من سكان المدن التي سلمت صلحاً للفاتحين دون مقاومة فوالوا العرب سعياً وراء الحماية مختارين. لكنهم ظلوا في نظر العرب أجانب بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية التي ينتمون إليها. يعاملونهم بترفع واحتقار ويجندونهم للحرب راجلين ولا يشركونهم في الغنائم، ومن تعاملهم ما يعيد إلى الذهن قوانين التمييز العنصري التي كان يمارسها الجنوب الأمريكي مع السود. هناك دلائل وأنباء نقلها المؤرخون تفوق الحصر عن تلك المعاملة: لا يسيرون في الطريق التي يسير فيها الموالي. ولا يجالسونهم ولا يؤمون الأمكنة التي يغشونها. لا يسمح لهم بركوب الخيل. لهم مساجدهم الخاصة وللعرب مساجدهم وأماكنهم العامة التي يحرم ولوجها على المولى أو غشيانها. والتزاوج بينهم وبين العرب يعتبر جريمة اجتماعية. وكان الحكام الأمويون بصورة عامة ينظرون إليهم بشك عظيم وتقزز. وقد هال معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول عددهم الكبير في العراق كما يقول صاحب (العقد الفريد) وأدرك ببعد نظر منه خطرهم الداهم، فراح يفكر جدياً بقتل عدد كبير منهم ونفي البقية. ثم استقر رأيه بالأخير على تهجير بعضهم وإسكانهم سواحل سورية وأنطاكية متفرقين، ثم أدرك أن التجربة مقضي عليها بالفشل فعدل في آخر الأمر.

بدأ ظهور الموالي قوة سياسية يعتد بها ويخشى خطرها بتحول مركز الخلافة بمشيئة الإمام علي الخليفة الرابع من المدينة إلى الكوفة وهي المدينة الإسلامية الجديدة التي بنيت بالقرب من (الحيرة) المدينة المسيحية الآرامية. وفي عهده بقي أكثر من نصف سكانها من غير العرب وهم الموالي ومعظمهم من ذوي الحرف اليدوية المتواضعة والأعمال العضلية البسيطة والزراعية. أفسح لهم العرب في مدنهم ليقوموا عنهم بأعمال وخدمات لم يكن يراها الفاتحون لائقة بهم، بل كانت مدعاة للخجل إذ كانوا يعدون أنفسهم رجال حرب فحسب لا يليق بهم مزاولة أي مهنة أو صناعة لأنها تحط من قدرهم. احتقروا الموالي إن لم يكن لشيء فلمهارتهم وكفاءتهم وحذقهم مما جعل وجودهم مفيداً غير مُستغنى عنه.

كان الإمام علي على الضد من سلفه عثمان شديد الحدب والرعاية للموالي يعاملهم بالحسنى ويقدر فيهم النبوغ إلى الحد الذي أخذ أبناء قومه ذلك عليه وصاروا يلومونه ويشكون منه. وقد فاق غضبهم كل حد عندما أقر لهم بالمساواة مع العرب في كل وجه، إلاّ أن ذلك لم يطُل.

عندما تم الانشقاق الداخلي الذي فصل الشيعة عن باقي المجتمع الإسلامي، ما وجد الموالي أنفسهم إلا وهم إلى جانب العرب اليمانيين أنصار (علي) فتم دخولهم في الصراع السياسي الداخلي العنيف بين العرب. إنه السبيل الوحيدة لإظهار نفرتهم وكرههم للنظام السياسي الأموي. فالتشيّع كان أفضل أرضية منظمة ضد بني أمية.

في أعماق إجلال لشيعة للإمام علي وفي جوهر المفهوم بأن قيادة المجتمع هي وظيفة إلهية فائقة العادة يستقر - كما نوه به بعض المفكرين غير المسلمين - وبشكل غامض ذلك الاعتقاد الإيراني القديم بأن (أورا) وتعني (فري ايزدي) أي القوى الإلهية يجب أن تكون الامتياز الأصلي لممارسة السلطة. وهذا التخريج لا يعني مطلقاً وبأي حال من الأحوال الاستنتاج بأن عقيدة الشيعة في الولاية الإلهية مستمدة من المفاهيم الدينية الإيرانية إلا أن جاذبية هذه الاعتقادات التي تفرد بها الإيرانيون كانت وبمقياس واسع نتيجة التساوق مع المفاهيم القديمة ورجع صداها. إن اهتمامنا لا يمكن أن يغفل ظهور أنواع متطرفة من غلاة التشيع كالكيسانية والخشبية والخطابية والراوندية التي لقيت أعظم مساندة وحظيت بأكثر الأنصار بين الموالي العراقيين من فرس ونبط وآراميين.

وبخلاف هذا يمكن القول بأن (الخوارج) الذين يمكن تشبيههم بالبيورتان

(المطهرين) الإنكليز[١٣] كانوا يميلون إلى التطرف الديمقراطي القريب من الفوضوية. إن كان لديهم هدف معين ما فربما سار في اتجاه خلق مجتمع إسلامي لا يمكن لأي فرد فيه الزيغ عن تعاليم القرآن وأحكامه حتى الخليفة نفسه، وعندهم أن ارتكاب أي إثم كبير يعني قطع مرتكبه عن الجماعة ومعاملته معاملة الكافر.

عندما نازع الخوارج حكم بني أمية في مسألة انتخاب الخليفة وجدوا الموالي العراقيين والإيرانيين يقفون إلى جانبهم، بسبب مفاهيم المساواة والعدالة التي كان يدعو إليها الخوارج إن لم يكن بسبب حقدهم على الأمويين. وتوالى انضمام الموالي إلى كل حركة مسلحة مناوئة للحكم الأموي يقاتلون إلى جانب العرب[١٤] الخصوم ضد العرب

---

(١٣) Puritans طائفة متزمتة من البروتستانت الإنكليز تدعو إلى نوع بسيط من العبادة والتمسك الحرفي الشديد بتعاليم الكتاب المقدس، وتدعو إلى حياة شخصية وعائلية طاهرة وإلغاء طبقة الكهنوت وإلى الديمقراطية في العبادة. اضطهدتهم الكنيسة الانكليكانية وشنت عليهم حرباً في أوائل النصف الثاني من القرن السادس عشر. اضطر قسم كبير منهم بعد ثورة البيورتان المسلحة إلى ترك انكلترا إلى العالم الجديد والاستقرار فيما يعرف الآن بـ(نيوانگلند).

(١٤) البغدادي: (الفرق بين الفرق) رغم انقسام الخوارج إلى فرق عدة (أنظر باب الخوارج في: الملل والنحل للشهرستاني) فقد اتحدت كلمتهم في وجوب مقاومة الخليفة الجائر. ومن هنا مال الموالي إلى الإنضواء تحت قيادتهم. فقد كانوا يرزحون تحت وطأة الخوارج في المدن كما في الريف. فمثلاً ورغم احترامهم للإمام علي ما وجدوا أنفسهم إلا وهم في صف الخوارج، وقد ضاقوا ذرعاً بالخراج الثقيل المفروض عليهم. وكان (أبو مريم) من بني سعد تميم قد هدد في (٦٥٨م) الكوفة بجيش معظمه من الموالي. وفي فترة الفراغ الذي خلفته وفاة يزيد بن معاوية في (٦٨٣ م = ٦٤هـ) وجدنا إقليمي الأحواز وفارس مرسحاً لثورة الخوارج التي امتدت حتى مشارف الري (بالقرب من طهران). وقد وضح اتفاق أهداف الموالي مع دعاة الخوارج عند قيام (عبيد الله بن الماحوز) أحد قادة الأزارقة وهم شعبة من الخوارج بمشاركة عدد كبير من الموالى في بلاد الرافدين وإيران. وساندوا أيضاً الشاعر التميمي قطري بن الفجاءة (٦٩٧م = ٧٨هـ) الذي انتخبه الأزارقة خليفة لهم بعد (نافع بن الأزرق) وقد تمكن من السيطرة على بلاد فارس وكرمان فترة من الزمن. على أن النزاع بين الموالي وبين العرب لم يتعد قط دائرة الخوارج في إيران ففي حين وضعوا المولى (عبد ربه) نظيراً لقطري بن الفجاءة وتسببوا بذلك الانشقاق الذي عمل على هلاك الأزارقة أكثر مما عمله سيف القائد الأموي (يزيد بن المهلب). يذكر (أبو حنيفة الدينوري: الأخبار الطوال، ص٢٩٣، القاهرة) أن الموالي كانوا مع الشيعة وأنه «انتخب المختار لابن الأشقر: عشرين ألف رجل وكان جلهم من أبناء الفرس الذين كانوا بالكوفة ويسمون الحمراء. آه» وهم موالي الكوفة ويذكر الطبري في (تاريخ الأمم والملوك) أن العدد الهائل من الموالي الذي التحق به جعل حركته تبدو وكأنها موجهة ضد عرب العراق. وذكر على سبيل المثال أنه لم يكن يسمع في معسكره كلمة عربية =

= واحدة. وبفضلهم تمكن (المختار) من أن يتخذ الكوفة عاصمة له مقدار سنة واحدة وستة أشهر يحكم منها على أرض السواد والموصل والجزيرة وكُردستان وخراسان ويستوفي منها الخراج. وقد بلغت ثقته بهم حداً أن أوكل حماية شخصه لحرس خاص من موالي الحمراء. وارتفع شأنهم بمساواتهم الفعلية مع بقية المقاتلين العرب. فبعد أن كانت المخصرة السلاح الوحيد المسموح لهم بحمله عند تجريدهم للحروب الخارجية، وهي العصا الغليظة، وبعد أن منع محاربوهم من ركوب الخيل ولا يدخلون المعركة إلا راجلين أركبهم (المختار) الخيل وسلحهم بسلاح العرب. ولم يمنع عنهم نصيبهم من الغنائم، كما جرى عليه الحكام السابقون بل وعدهم بأن تكون لهم أملاك كبار العرب. وزاد (إبراهيم بن الأشتر) في تكريمهم وهو قائد (المختار) العسكري، فقال بهم مادحاً إنهم من أولاد فرسان مرازبة فارس وعدهم أشد على أهل الشام في القتال من أي طائفة مما أثار غضب العرب الشيعة الكوفيين فراحوا ينسلون من صفوف المختار تدريجياً لينضموا إلى جيش (مصعب بن الزبير) شقيق (عبدالله) الذي بويع بالخلافة في مكة. وبدت المعركة التالية وكأنها معركة الموالي ضد العرب لا ضد الأمويين. ولما كتب النصر لمصعب وقتل المختار واستولى على الكوفة أطلق العرب لينالوا ثأرهم من الموالي وأوقع بهم مقتلة عظيمة واسترقّ نساءهم وأولادهم، وقيل إنه قتل منهم أكثر من سبعة آلاف حتى لقب (بالجزار).

وخشي الحجاج بن يوسف الثقفي منهم (أي الموالي) فجنّدهم في جيش قريبه عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث وأرسلهم إلى أفغانستان لفتح كابول والسند. وهناك عصي ابن الأشعث وثار على قريبه وعاد إلى العراق ليلحق به المزيد من الموالي والخوارج والشيعة. وعندما تمكن الحجاج من إطفاء الثورة أوقع بهم مقتلة عظيمة وصلت تفاصيلها إلى الخليفة عبدالملك فثار ضميره لها وأرسل خطاب توبيخ شديد للحجاج (أنظره في المسعودي).

ولم تبق ثورات الموالي على بني أمية قاصرة على إيران والعراق فالمؤرخون المسلمون يحدثوننا عن ثورات لهم بالاتحاد مع أبناء جلدتهم غير المسلمين في مراكز الحكم الأموي نفسه أي سورية ولبنان. من أهم تلك الانتفاضات تلك التي وقعت أيام حكم الخليفة عبدالملك بن مروان (٦٤٦-٧٠٥م). بدأت بثورة أهل الجرجومة (الجراجمة) في العام ٦٨٨م. وهي مدينة في جبل (اللكام) المشرف على مدينة أنطاكية نقطة اتصال جبال طوروس بجبال لبنان وقد تقدم ذكرها. واستنادًا إلى ما ذكره ابن الأثير في (الكامل) فالقائمون بالثورة من الجراجمة استطاعوا أن يجتذبوا إلى قضيتهم النبط والآراميين من أهالي الشام ولحق بهم أُبّاق من عبيد المسلمين الذين هربوا من أسيادهم. كما يذكر أن هؤلاء الجراجمة كانوا في أول الفتح العربي للشام قد صالحوا القائد حبيب بن مسلمة الفهري على أن يكونوا أعواناً للمسلمين إذا حضروا معهم حرباً وقد دخل من كان معهم في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط ومن أهل القرى ومن معهم في هذا الصلح، فسموا بالرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم (ج٤. ص٣٠٤ بيروت ١٩٦٥). لم ينوه أحد من مؤرخي العرب باسم قائد الثورة لكن يذكرون أنهم خرجوا بمجموعهم إلى لبنان وانضم إلى قائد الثورة كثير من الأشياع فيها وتحصن بها وامتنع عن عبدالملك الذي أرسل من يغريه بالمال، وبالأخير تمكن من إخماد الثورة بجيش من الموالي! =

الخصوم. وتواصل دور الموالي في كل الثورات التي قامت ضد الأمويين حتى ظهور الدعوة العلوية، فساهموا فيها بعين الاندفاع والتلقائية ورجحوا كفة الدعوة العباسية وأمنوا لها النصر.

هناك دلائل لا تحصى على ما لقيه الموالي من العرب في زمن الأمويين يعادل من أوجه كثيرة معاملتهم للرقيق. لم يكن الأمويون في جباية الخراج والإذلال والمعاملة السيئة يفرقون بين المولى المسلم وبين الذمي غير المسلم.

طوال حكم بني أمية ورغم تخفيف قيود كثيرة لم ينس لا الموالي الجدد ولا الأبناء وأحفاد الموالي الأقدمين واقع انتمائهم العرقي. وظل الحكام يتجاهلون مبدأ المساواة الإسلامي الذي قررته أحكام القرآن عملاً. إلا أن هؤلاء المسلمين الجدد راحوا يفرضون أنفسهم فرضاً اندماجياً مع العرب القادمين من الجزيرة بمؤهلات خاصة أنماها عامل الاضطهاد والتمييز العنصري الاجتماعي واقتربت منهم كثرة من الأنسال التي أنجبها العرب من زوجات ومحظيات أجنبيات. وبدوا في العقود الأخيرة من الحكم الأموي طبقة اجتماعية في المدن والأرياف لها خطرها لا في ميداني الاقتصاد والصناعة وحدهما بل في ميادين أخرى حسب العرب لفترة من الزمن أنها وقف عليهم. فقد ولج الموالي بجرأة وتفرغ باب الشعر والأدب العربيين، ونفذوا إلى أغوار العلوم العقلية في فترة قصيرة جداً من الزمن ليخلفوا أثرهم الباقي في الحضارة الإسلامية عامة وحياة البلاد الناطقة بالعربية بصورة خاصة، وعالجوا أبواب الفنون وأقحموا أنفسهم في الحياة العامة وشاركوا في الخصومات والتحزبات والجدال الفقهي والديني وبرز منهم من فرض احترامه وهيبته فرضاً على المجتمع ورجال الحكم.

إن مشاركتهم في بناء الدولة العباسية تمثلت بشكلها الصارخ في واقع التكوين العرقي للجيش الذي حقق انتصار العباسيين وتقويض حكم بني أمية. فقائد الحركة هو من الموالي المختلف في أصله الكُردي أو الفارسي. والمغلوب (مروان بن محمد بن الحكم) كان نصف كردي وجيشه كان يتألف فضلاً عن العرب من الآراميين السوريين

= وقتل قائدها. وليس هناك من شك في أن الباعث على الثورة هو نقض العهد الذي تمت المصالحة عليه بسبب حاجة بني أمية إلى المال وتعميمهم جباية الجزية والخراج حتى لمن أسلم تسديداً لنفقات الحروب الأهلية في العراق وفارس وهي حروب طاحنة استغرقت معظم حكم هذا الخليفة الطويل. ومما يجب ذكره هنا أن بني أمية استعانوا بالمسيحيين الشاميين العرب وغير العرب في فتح العراق وفارس ومصر.

واللبنانيين الموالي، في حين كان جيش العباسيين خليطاً عنصرياً كبيراً من فرس وديالمة وجرجانيين وكُرد وخراسانيين.

وفضّل الخلفاء العباسيون تزويد إداراتهم ودواوينهم وجيوشهم بالفرس بالدرجة الأولى، وتحاشوا استخدام العرب في المناصب الحساسة بشكل واسع وأبعدوهم قدر المستطاع لأسباب تتعلق بسلامة حكمهم. فأنصار البيت الأموي والبيت العلوي الذي انتشرت الدعوة العباسية تحت لوائه وباسمه كانا مثل سيف (ديموقليس) مسلطاً فوق رؤوسهم، لاسيما في فترة حكم الخلفاء الستة الأوائل. إلا أن الدعوة إلى المساواة بين العرب والموالي والمسلمين الآخرين كافة كانت قد عمت بشكل أرغم الحكام العباسيين على القبول الظاهري بها والاستسلام لها، الأمر الذي فسح في مجال صعود الموالي وتسنمهم أعلى المراتب القيادية العسكرية والمدنية بسهولة وبحكم اللياقة والجدارة والاستحقاق. وأدى بالمقابل إلى تمتعهم بنفوذ كبير زاد في اضطغان العرب ونقمتهم عليهم وانقلب هذا ليبدو في مناقشة جادة جدلية أطلق عليها الكتاب العرب اسم (الشعوبية) تحقيراً وازدراء.

كانت في مبدئها حركة أدبية صرفة تعاورها الكتّاب والأدباء الفرس، دعت إلى تطوير لغتهم (الفهلوية الحديثة) وتعميم استعمالها في بلادهم بدلاً عن العربية وبدت عند أمثالهم من الموالي الفرس المتضلعين في العلوم العربية النقلية والعقلية واللغوية وعند طبقة جديدة من فقهائهم وفي مقدمتهم طبقة المعتزلة في حدود القرن الثاني والثالث الهجريين، أكثر إلحاحاً في ضرورة تحقيق المساواة لا بين اللغتين بل بمعناها الواسع الشامل لمختلف الانتماءات القومية والعرقية في عالم الإمبراطورية العباسية. في المبدأ أطلقوا على أنفسهم اسم (أهل التسوية) وبالمقابل وجد العرب عموماً في هذا المطلب جرأة وقحة ثم أثار فيهم مخاوف على صعيد الحاضر والمستقبل. فانبرى كبارهم يقاومون النزعة الجديدة عن طريق المناظرة والجدل الحادين، ووصفوا هؤلاء المنادين بالمساواة المدنية والاجتماعية بالشعوبيين وحركتهم بـ(الشعوبية) وهي لفظة لا تتضمن بحد ذاتها تعريضاً بنقيصة أو تنم عن شعور سيّئ دفين. ولعلها أقرب شبهاً بكلمة cosmopolitan الشائعة في أيامنا هذه. إلا أنها باتت بعد احتدام المعركة عند العرب سُبة وتهمة يُرمى بها من يعتنقها ويروج لها لاسيما عندما خرجت دعوى المساواة عن حدودها المعقولة والتجأ الجانبان إلى التنابز بالألقاب وإلى المفاضلة القومية والعرقية وقد نوهنا بذلك في الفصل الثاني.

كانت في واقع الأمر الأداة والمرقاة الرائعة لأحفاد الموالي الفرس وغيرهم المتطلعين إلى الجاه والرفعة. استخدموها بالأخير بكثير من الحنكة والدهاء لاسيما طبقتهم البيوروقراطية بتفوقهم الذهني وطول باعهم ووقوفهم على الأدب العربي وتمكنهم من اللغة، للبرهنة أولاً على مساواتهم بالعرب مهتدين بالفكرة العامة وهي الدعوة باسم القرآن وأحاديث الرسول إلى المساواة في الفرص السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمسلمين كافة من العرب وغير العرب (الأعاجم). وعندما احتدمت المعركة وراح كل فريق يبرهن على تفوقه العنصري ويفخر بما أنجز أسلافه، خرجت الحركة عن حجمها الطبيعي وإطارها الذهني وظهر متطرفون وغلاة من الجانبين. فرأى الفرس أنهم أبناء وأحفاد أولئك الذين بنوا إمبراطورية عظيمة هيمنت على الشرق الأوسط والأدنى قروناً دون منازع وزرعت في أرجائها ثقافة ومدنية باقية ما زال العرب المتقحّمون يمتارون منها ويستندون إليها في حكمهم وحياتهم اليومية، حصل هذا في وقت كان هؤلاء الأعراب يطاردون الجمال في الصحراء. وأسرع العرب برد الحجة فاتهموا الشعوبيين والشعوبية بالكفر والإلحاد[١٥] وبأنها تهاجم الإسلام وبنيته الروحية، مستشهدين بأقوال غلاة الشعوبيين في تمجيد ديانتهم الغابرة وشعرائهم في الحنين إليها. وردّ الشعوبيون من جانبهم بأن آي الوحي التي نزلت على محمد لم تجد كلمة طيبة واحدة تقولها بحق العرب وإنما نوهت بأمة إسلامية واحدة لا فضل فيها لعربي على أعجمي إلاّ بالتقوى. وإن (محمداً) لم يُبعث للعرب وحدهم بل بعث للبشر قاطبة. وجاء التهديد الفعلي من خراسان مركز الدعوة العباسية والتشيّع حيث فقدت دمشق السيطرة

---

(١٥) يورد المسعودي رواية خيالية صنّفها في الظاهر نديم للخليفة العباسي (أبو العباس السفاح) بغية إمتاعه، بطلتها جارية شاعرة خبيرة بأنساب العرب عالمة بما يعزى إلى قبائلهم من مثالب ومناقب. لقيت شخصاً راح يدعي لها بانتسابه تباعاً إلى اثنين وأربعين قبيلة عربية فكانت ترد عليه كل ادعاء بالتمثل ببيت شعر فيه عيب معين يعزى لتلك القبيلة. ولما أعياه أمرها أخيراً ادعى أنه من الموالي فتمثلت له بقولها:

ألا من أراد الفحش واللؤم والخنا   فعند الموالي الجيد والطرفان

فادعى بأنه خوزي (أي من أهل خوزستان) فقالت:

لا بارك الله ربي فيكم أبداً   يا معشر الخوز إن الخوز في النار

أخيراً ادعى بأنه من أولاد حام (يقصد الأفارقة) فقالت:

فلا تنكحن أولاد حام فإنهم   مشاويه خلق الله حاشا بن أكوع

(مروج الذهب، ج٣، مؤسسة دار الهجرة، الص ٢٧٩-٢٨٠، ط إيران ١٩٨٨)

عليها وحيث ساهم أهلها في تقويض صروح الدولة الأموية، وأسرع الخليفة العباسي الثاني (المنصور) بالقضاء على من قوّض حكم بني أمية واستئصال شأفتهم ومطاردة أشياع البيت العلوي والفتك بمناصريهم وجلّهم من الموالي. وبلغ الخوف بالعباسيين أعظمه عندما راح الفرس يكونون دويلات لأنفسهم ذات حكم ذاتي. كذلك القائد العسكري (طاهر بن الحسين) الذي أسس الدولة الطاهرية (٨٢٠-٨٧٣م)، ويعقوب الصفار مؤسس الدولة الصفارية (٨٨١-٨٦٥م). وكان هناك شعوبيون عرب انتصروا لغير العرب وساندوهم في قضية المساواة مثلما وجد من الفرس والأجانب من انتصر للعرب.

أفاد (أهل التسوية) أو الشعوبيون من الحرية الواسعة ومن النفوذ الكبير الذي وقع بأيدي أبناء جلدتهم من الموالي وغير الموالي لنشر معتقداتهم والإشادة بماضي قومهم وتراثه. لكن ما أن أهلّ فجر القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوبية أثراً بعد عين وانتهى الصراع الفكري تلقائياً لاسيما بعد أن أصبح العرب أقل تميزاً عن السكان المحليين بتسارع هؤلاء إلى قبول الإسلام وهي عملية احتث خطاها الحكم البويهي، وكذلك باستيلاء السلاطين والحكام الأجانب على السلطة.

ليس في إمكاننا قط دراسة الحركة الشعوبية على أسس من التطور الديني - السياسي. أي: العرب ضد العرب، لكن يمكن أن توصف بأنها حركة مسلمين ضد مسلمين. وهي كذلك تختلف بالجوهر عن النزاع المذهبي الذي شقّ العالم الإسلامي إلى شيعة وسُنّة. وكان في حينه متمثلاً في الصراع بين أنصار العلويين وأتباع العباسيين: الشيعي قد يكون شعوبياً وقد لا يكون. والأمر بالسنيّ سواء بسواء كذلك. وتتضح هذه الحقيقة إذا ما عرفنا مثلاً بأن الأغلبية الساحقة من سكان إيران والعراق آنذاك كانوا على المذهب الحنفي وهو أكبر مذاهب السنة وأوسعها انتشاراً.

على أنه يجب التنويه بأن أعنف معارضة لغلاة الشعوبيين ولأولئك القائلين بالتفوق القومي الإيراني على العرب إنما جاءت من الإيرانيين أنفسهم لاسيما من تلك الأسماء التي لمعت في سماء الأدب والعلم واللغة والفقه أمثال الزمخشري أبي القاسم محمود (ت ١١٤٤م) الذي أوسع العرب لوماً وتأنيباً في مقدمة كتابه (سر الأدب في مجاري كلام العرب)، والثعالبي أبو منصور عبدالملك (٩٦١ -١٠٣٨م) من أعلام فقهاء اللغة[١٦]

---

(١٦) من مقدمة كتابه (فقه اللغة وسر العربية): «من أحب النبي أحب العرب ومن أحب العرب أحبّ اللغة العربية، التي نزل بها أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عنّي =

والأديب والشاعر ورجل الدولة الصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمداني صاحب المقامات. ومنهم أيضاً أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المعروف بشيخ الطائفة مصنف التفسير الشهير (التبيان) ومؤسس مدرسة النجف العلمية الشهيرة الباقية حتى هذا اليوم (٩٩٥-١٠٦٧م). ومن المتوسطين غير المغالين ذكرنا في وضع سابق الشاعر (مهيار الديلمي) واستدللنا بأبيات له.

إلى جانب هؤلاء نجد الغلاة الذين دفعهم التعصب القومي غير العربي إلى حالة الاستفزاز. ويقرن بأول قيام الشعوبية اسم الشاعر (إسماعيل بن ياسر) وابنه (إبراهيم) قدم أولهما دمشق في زمن الخليفة هشام بن عبدالملك (حكم ٧٢٤-٧٤م) من إيران وذاعت قصائده التي مجّد فيها بالماضي الإيراني وأشاد بملوكهم. وبلغت به الجرأة حداً أن راح يعظمهم أمام الخليفة نفسه الذي حمى غضبه فأمر بإلقائه في بركة ماء وهو أول المشاهير الذين لقبوا بالشعوبيين. وعبدالله بن المقفع (ت٧٥٩م) صاحب كتاب (كليلة ودمنة) و(الأدب الكبير) و(الأدب الصغير) قتله أبو جعفر المنصور. ومنهم أيضاً (بشار ابن برد) مولى آل عقيل زعيم حركة التجديد في الشعر العربي بلا منازع (٧٠٤-٧٨٤م) لم يكفه الإشادة بماضي الفرس والفخر بانتمائه إلى بيت الملوك بل راح يمجد بالدين المجوسي كقوله من قصيدة مطولة:

الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة مذ كانت النار[١٧]

* * *

= بها وثابر عليها وصرف همه إليها. ومن هداه الله للإسلام وشرح صدره للإيمان واتاه حسن سريرة فيه اعتقد أن محمداً (ص) خير الرسل والإسلام خير الملل والعرب خير الأمم والعربية خير اللغات والألسنة والإقبال على تفهمها هو من الديانة».

(١٧) اجترأ هذا الشاعر على أعلى مقام ديني فشتم الخليفة (المهدي) وقذفه بأحطّ التهم الأخلاقية التي لا يصبر عنها اليوم أو يتجاوز أي حاكم كبير في بلد يحكمه القانون وتشيع فيه المبادئ الديمقراطية كقوله فيه:

خليفة يزني بعمّاته ... يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره ... ودسّ (موسى) في حر (الخيزران)

(الدبوق والصولجان هي لعبة الكرة شبيهة بـ(الهوكي) وهي لعبة الصبيان في ذلك العصر يترفع عنها البالغون و(موسى) هو الخليفة الهادي ابن المهدي ووليّ عهده وأخو هارون الرشيد من محظيته ثم زوجته الفارسية (الخيزران)، والحر هو الفرج.

كذلك يعرّض بأفن المهدي وعبثه وانصرافه عن شؤون الدولة بما يتضمن تحريضاً على الثورة:

غابت (الشعوبية) و(الشعوبيون) من سماء التاريخ الإسلامي ما زاد على عشرة قرون. كما بدت في كتب التاريخ حدثاً هامشياً من الأحداث الجانبية التي تتخلل الوقائع الكبرى، ولا تأخذ منها حيزاً كبيراً، وفي الغالب ينوه بهما عرضاً في حكايات وطرائف متفرقة. إلا أنها لم تغب عن ملاحظة المستشرقين والباحثين الأجانب فخصوا هذه الظاهرة بجانب من اهتمامهم دون إيلائها أهمية خاصة(١٨). هؤلاء الكتاب المتأخرون ما أظنهم كانوا يقدرون بأي حال، ولا دار في خلدهم أنه سيأتي يوم على الأقطار الناطقة بالعربية ينبش فيه هذا المصطلح البغيض من قبره وتماط عنه أكفانه لتستخدمه الحركة القومية الناصرية في مطلع النصف الثاني من قرننا سلاحاً تهاجم به خصوماً عقائديين معينين وكل من وصفتهم بأعداء القومية العربية، أي قومية عبدالناصر فيما بعد، ولتأخذه عنه الحركات القومية الأخرى فيما بعد.

وجهت الدعاية الناصرية تهمة الشعوبية أولاً للوطنيين المصريين الذين تحدثوا عن مصر الفرعونية لا مصر العربية يحاولون إحياء شعار مصر للمصريين الذي شهرته الحركات الوطنية بوجه المحتل البريطاني وهؤلاء هم الاشتراكيون الفابيون والاشتراكيون اليساريون والشيوعيون، ثم عندما أنزلت الناصريةُ إلى سوق المضاربة السياسية أسهمَ (الوحدة العربية) ووقف الشيوعيون في البلاد الناطقة بالعربية ضد مفهومها الناصري وأنكروها وتحدوا صاحبها.

= بني أمية هبّوا طال نومكمو ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم ... فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

(ويعقوب بن داود بن طهمان هو من أبناء الموالي وزير المهدي المتحكم المطلق في شؤون الإمبراطورية، غضب عليه المهدي فسجنه في جب سنيناً عدة ثم أطلقه الرشيد وقد كف بصره). كعادة مؤرخي العرب والإسلام في سرد الأحداث والوقائع من دون تعليق وتعليل أو الإدلاء برأي خاص - غمض علينا سر سكوت المهدي عن بشار مدة طويلة ليناله فيما بعد ويقتله بحد شرعي (تهمة الزندقة والإلحاد).

(١٨) مما وقفنا عليه بحث قصير للأستاذ گِب R.A.H. Gibb بعنوان أثر الشعوبية الاجتماعي The social Significance of The Shuubyya نشره في مجلة دراسات شرقية Oriental Studies كوبنهاكن Janni Pedersen Dicta الص١٠٥-١١٤ في ١٩٥٣. وكذلك مادة (الشعوبية) في دائرة المعارف الإسلامية Die Encyclopedia of Islam ومقال آخر بعنوان (الشعوبية) للمستشرق الكبير اگناس گولدتسيهر بعنوان Shuubyya: Mohammadinoche Teile- Halle 1898 ضمن كتاب في جزءين عن الإسلام وقد حرصنا على أن نقتبس من كل هذه البحوث شيئاً في بحثنا هذا.

بلغت المعركة الإعلامية أوجها عندما تردّت العلاقات بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية (قاسم) في العراق. وذلك عندما كان على (عبدالناصر) أن يواجه في عقر داره وفي سورية المقاومة العقائدية لأولئك الذين ذكرناهم. وكان الدين الإسلامي قطب الرحى في مطاحن القوميين العرب والركيزة التي تنطلق منها تهم الإلحاد والكفر على الآخرين. القوميون العرب مسلمون والآخرون كفار زاغوا عن الدين بتبنيهم عقيدة مخالفة للإسلام. وفي أثناء احتدام المعركة قفزت كلمة (الشعوبية) ولاءمت الموقف كل الملاءمة.

لم يكن بإمكان عبدالناصر مهاجمة الشيوعيين والاشتراكيين بصراحة الاسم إلا بوضع علاقاته الحميمة مع الاتحاد السوفياتي موضع خطر أكيد فوجدت وسائل إعلامه ضالّتها في الجناس والتقارب اللفظي العجيب والصدفي بين كلمتي الشعوبية والشيوعية فضلاً عن التقارب الفكري من ناحية كون الشعوبية تدعو إلى المساواة الطبقية والاجتماعية بين الشعوب التي اقتبلت الإسلام، والاشتراكية والشيوعية التي كان من مبادئها إزالة الفوارق الطبقية وشجب التميز العنصري.

بهذا الشكل أقحمت دعوة القومية العربية الدين الإسلامي في معركة سياسية صرفة. استبطنت في الواقع معركة على الزعامة الكبرى زعامة الوطن العربي وشدّت نفسها برباط تعذر عليها الخلاص منه عندما طغت موجة الأصوليين المسلمين في العالم الناطق بالعربية وأرغمت القوميين على الانسحاب إلى الخلفية كما سيأتي تفصيله. إلا أن الناصرية وحزب البعث والقوميين الاشتراكيين اضطروا في حينه إلى إقامة جبهة مع الحركة الإسلامية الناهضة بقيادة الإخوان المسلمين وحزب التحرر الإسلامي ضد الآخرين وكان أمراً عجيباً ونقيضاً لا يستقيم مع منطق. فالمجموعات الإسلامية التي ذكرناها لا تؤمن بالقومية أو بقيام نظام سياسي على أسس قومية وتتطلع إلى الجامعة الإسلامية الكبرى وهي أهداف تتفق والمفهوم الشيعي.

المذهب الشيعي هو مذهب غالبية قومية لا تمت إلى البلاد الناطقة بالعربية بصلة، وكل مجموعهم في هذه البلاد لا يساوي ثلث الـ٩٥٪ من الشيعة الإيرانيين. وفضلاً عن هذا فإن الشيعة العرب في البلاد الناطقة بالعربية لا يفكرون بمستقبلهم السياسي على أساس قومي. إن العالم الشيعي يؤمن بالجانب الكوزموبوليتي من الإسلام ويلحق بهم بطبيعة الحال الكُرد والترك وغيرهم وهم يهتدون بذلك بسورة البقرة من القرآن ﴿وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وماكان من المشركين،

قولوا آمنّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [سورة البقرة، الآيتان ١٣٥ و١٣٦].

وقد أبان صاحب (الميزان في تفسير القرآن) السيد محمد حسين الطباطبائي ذلك بوضاحة وصراحة حين قال:

«إن من طبيعة هذه الحياة الأرضية الدنيوية التغيير والتحول في عين الجري والاستمرار كنفس الطبيعة التي هي كالمادة لها، ويوجب ذلك أن تتغير الرسوم والآداب والشعائر القومية بين طوائف الملك وشعباتها. وربما يوجب ذلك تغييراً وانحرافاً في المراسم الدينية وربما يوجب دخول ما ليس من الدين في الدين أو خروج ما هو منه. وربما حلت الأغراض والغايات الدنيوية محل الأغراض الدينية الأصلية وهي (بلية الدين)، وعندئذ يصطبغ الدين بصبغة القومية فيدعو إلى هدف دون هدفه الأصلي ويؤدب الناس غير أدبه الحقيقي فلا يلبث حتى يعود المفكر وهو ما ليس من الدين معروفاً يتعصب له الناس لموافقة هوساتهم وشهواتهم»[١٩].

وقد زاد نأي الشيعة الناطقين بالعربية عن أفكار القوميين بعوامل أخرى، منها اتهامهم بعروبتهم. فكثيراً ما سمعنا من القوميين وقد غلب على تكتلاتهم الطابع السني ما يطعن بعروبة الشيعة وكثيراً ما وجدنا الشيعة مقابل ذلك يضطرون في أحيان كثيرة إلى الدفاع عن عروبتهم بتحدي القوميين وبمحاولة البرهنة بأن العروبة الأصلية إن وجدت فهي في معشر الشيعة. ويستغل بعض الحكام الصلة المذهبية التي تجمع بين قومية وأخرى للإيقاع بخصوم وأعداء مثلما فعل القوميون البعثيون في العراق خلال السنوات العشرين ١٩٧٠-١٩٩٠ من خلال محاولة تجريد العرب والكُرد الشيعة من هويتهم العراقية بزعم أصولهم الإيرانية.

وأحدث التسمك القومي العربي بأهداب الإسلام وجعله وسيلة للترويج لأهداف

---

(١٩) آخر عهدنا باستخدام مصطلح الشعوبية والشعوبيين ضد من كان يتهم بالشيوعية ما نشرته جريدة تنطق بلسان حزب البعث العراقي المنشق عن النظام العراقي بقيادة قطرية مقرها في دمشق، عندما هاجمت تكتلاً ديمقراطياً يساري النهج بمقال صدّرته بهذا العنوان المثير: (أيها الشعوبيون، هذه زمرتكم وتاريخكم الأسود، فلا غرابة في حقدكم على ثورة ٨ شباط) وكان ذلك في العام ١٩٨٥.

أصحابه ردة فعل مماثلة عند الأقليات القومية والدينية في البلاد الناطقة بالعربية - كما كانت من أسباب حثها هي الأخرى على التجمع الطائفي والقومي، وأن تتحصن وراء تقاليدها ورموزها ولاسيما عندما يجتمع في الحركة القومية التعصب العرقي والديني ليأخذ شكلاً استفزازياً لا ضرورة له البتة، كأن يكون دليلاً على تمسكهم بقوميتهم وكإصرار بعض الحكومات القومية على إثبات ذلك في قانونها الأساسي ودساتيرها بوضع مادة منفصلة تشير صراحة إلى أن (الإسلام هو الدين الرسمي) وهي عبارة جوفاء بحد ذاتها خالية من كل مضمون أو أثر عملي لا تزيد من رفعة الحكم ولا من قوة النظام، ولا تضيف إلى الإسلام والمسلمين ما ينقص أولهما وما يفتقر إليه ثانيهما. فالدين هو رسمي للمؤمن به. وفي اليوم الذي نعيش وقد أشرفنا على نهاية القرن. وشهدنا عصراً من الانفتاح العالمي على الديمقراطية وعودة النظرية الاشتراكية الماركسية إلى نقطة البدء بعد الأخطاء النظرية الفظيعة التي وقع فيها مروجوها والجنايات الرهيبة التي ارتكبها مطبقوها بحق البشرية؛ وبعد تنبه الأمم والشعوب إلى أهمية التراث والتقاليد والمصالح المشتركة في بناء الكيان الوطني. إننا ما رأينا الدين ولا الانتماء المذهبي عاملاً فاعلاً أو جوهرياً من عوامل اليقظة القومية بل رأينا رباط المصالح الاقتصادية وأسلوب الحياة والتراث التاريخي والأدبي أقوى من ذلك العامل، أمنفردة أُخذت أم مجتمعة. العامل الديني أو الطائفي أو المذهبي في أغلب الأحيان قد يكون جزءاً من العامل التراثي أو الحضاري إن شئت الدقة. ويكون كذلك أسلوب دفاع عن الهوية لأنه جزء منها عند الأمة المستضعفة والمهددة، كما يفعل الكُرد المسلمون اليوم والمسيحيون غير العرب. الكُرد لأنهم غالبية مستضعفة في بلاد يؤلفون فيها أقلية قومية متغلبة، والمسيحيون لأنهم أقلية دينية وقومية لجأت للاحتفاظ بهويتها إلى درع الدين وحمايته.

قرأت قبل سنين عدة مقالاً في مجلة (المجلة الجغرافية الوطنية National Geographic Magazine) الأمريكية الشهيرة - حول الأرمن وأرمينيا اليوم، ولفت نظري فيه فقرة جاء فيها إن الكاهن عندما يختتم مراسيم عماد الطفل ينطق بهذا: (الآن أصبحت أرمنياً). والآشوريون أنفسهم بقيت مشاعرهم القومية وهم تحت حكم قوميات جائرة مرتبطة ارتباطاً محكماً بكنيستهم كنيسة الشرق، حتى الدرس القاسي الذي نالته يقظتهم القومية بسبب تلك الرابطة. فراحت حركاتهم السياسية تنأى تدريجياً عن رجال الدين الذين تزعموها سابقاً لتغدو علمانية سياسية صرفة.

وها هي ذي القومية العربية تمتحن امتحانها الأكبر بظهور حركات المتشددين الإسلاميين أو الأصوليين الانتحاريين كما يطلق الإعلام العالمي عليهم في سائر البلاد الناطقة بالعربية. وتلك واحدة من نتائج الإخفاق الفكري في استخدام العقيدة الدينية استخداماً صحيحاً يتفق وروح العصر، لا أن تُدخل كمقوم أصيل من مقومات القومية نظرياً كان هذا الدخول أم عملياً. ذلك مأزق زجّت حركات القوميين العرب أنفسها فيه من غير تبصر فعاد عليها بأفدح الضرر وكان سبباً في تمزقها وتشرذمها وغموض رسالتها.

الفصل الخامس

اللغة العربية الركازة الرئيسة. عامل إعلان قومية. وعامل يقظة في البلاد الناطقة بالعربية فكرياً وسياسياً. اصول العربية. كانت لغة متكاملة عند نزول القرآن. لغة مضر (لغة قريش). خواص الشعر العربي الفريدة. إيقاعه الغنائي وموازينه. ما يدين الغرب لها. استعمال الصفر واختراع الارقام العددية واستخدام الأوروبيين لهما دون ارقامهم اللاتينية الأمر الذي ادى إلى ثورة في العلوم. مرونتها وقابلية اشتقاقها الفذة. اللغة العربية تغدو لغة عالمية. الروابط الثقافية في عصر محمد علي الكبير. الانفتاح العلمي والثقافي عن طريق مصر وساحل البحر المتوسط إلى الغرب. الإرساليات وبعثات التبشير. قيامها بادوار تثقيفية هامة منذ أواسط القرن السابع عشر. عملية اليقظة بآثار الحروب المصرية وثورة جبل لبنان ١٨٦٠. وظهور المصلحين الاجتماعيين من الأدباء والشعراء. التعامل البعثي مع الأقليات. البروز القومي الحماسي للأقلية المسيحية في الساحة القومية. نماذج للعطاءات. استقراءات ابن خلدون وآراؤه في اللغة العربية والمتكلمين بها. راي الدكتور ساطع الحصري.

إن تاريخاً مشتركاً للعرب مستمداً من مختلف الأقاليم الجغرافية ومستنداً إلى استمرارية حضارية بين هذه الأقاليم يجب ألا يُفهم على أساس قوة الهوية الغلابة أو الكاملة للغتهم وطرز حياتهم ونظام عقيدتهم وعلى ضوء تجاربهم التاريخية وممارساتهم الاجتماعية شأنهم في ذلك كشعب بنى إمبراطورية واسعة الأرجاء وحكمها ردحاً من الزمن، ربما قد تقرن بمشاركتها في مظاهر خاصة وملامح معينة اهتبلها القوميون العرب ليجدوها غلابةً بارزة تثبت هوية مشتركة. ولهذا نجدهم في أحيان كثيرة وفي بعض الأحوال في مواقف حاسمة مطلقة يبرزون عامل اللغة المشتركة الواحدة على سائر العوامل الأخرى ومنها العقيدة، رغم تباعد لهجات اللغة العربية وتباين ممارساتها المحلية في العالم الناطق بالعربية.

ولا أريد أن أستبق الرأي الذي سيكوّنه القارئ برأي شخص يحدد له إطار تفكيره ويعوق حرية استنتاجه في أيهما كان أبرز وأقوى العوامل الذاتية لصياغة الهوية. وما أريد قوله هنا فحسب، إن لدعاة القومية العربية مبرراً قل أم كثر في إعطاء اللغة أهميتها بوصفها عاملاً ذاتياً لابتعاث الشعور بالقومية أو اليقظة القومية وتغليبها على ما ذكرناه في صدر هذا الفصل. وها نحن قد أخرجنا التعامل العنصري (العرقي) تقريباً من مجال الإثبات في الفصول السابقة.

وحكايتي في هذا الفصل سأبسطها حول عامل اللغة، بوصفه عامل ابتعاث قومي دون تحديد لقوته وأثره.

العربية كما يقول علماء اللغات هي عضو في المجموعة السامية[١] الجنوبية وهي أقرب أخت من المجموعة إلى اللغتين العبرية والآرامية، وكلتاهما تنتميان إلى المجموعة السامية الغربية الشمالية.

ما من شك في أن العربية كانت لغة دقيقة التعبير كلاماً وكتابة عند نزول الوحي القرآني، وفي أنها كانت تزهو وتدلّ على غيرها من اللغات السامية الشمالية بخصائص حققت لها التقدم ثم السيادة عليها جميعاً لتحتل موقعاً لم تزاحمها فيه واحدة منها، لاسيما انتصارها الأبدي على اللغتين الأختين المتداولتين في ذلك الحين، أي العبرية والآرامية. ففي العصر الذي شهد رسالة المسيح كانت اللغة الأولى قد اختفت تقريباً من الشارع والبيت واحتمت بأسوار بيوت العبادة ومدارس الدين مفسحة للآرامية بلهجاتها المحلية التي كانت لغة التخاطب عند اليهود أنفسهم. ومالبثت هذه الأخيرة بعد الفتح الإسلامي أن انسحبت بالتدريج أمام السيادة العربية السياسية واللغوية - لتعيش في حمى الكنائس ولتبقى لغة ثانية لمسيحيي الهلال الخصيب، بعضهم لا كلهم حتى يومنا هذا[٢].

---

(١) السامية والساميّ (نسبة إلى سام المذكور في التوراة) هي تسمية حديثة للغات والشعوب ابتدعها في العام ١٨٧١ العالم النمساوي (أ. شيلوتسير) للتفريق بين اللغات والشعوب الحامية (نسبة إلى حام في التوراة) واللغات الشرق أوسطية فدرج استخدام المصطلحين بالشكل والنطاق الذي نألفه اليوم.

(٢) ظهرت السريانية واستظهرت في مجال نمو وتطور اللغة الآرامية الأم. ومنها اليوم لهجات متباينة فيما بينها تبايناً طفيفاً في النبرة والنطق وتوزيع الحروف الصوتية، وهي اللغة الطقسية الكنائسية - إلى جانب العربية عموماً - للطوائف المسيحية الشرقية (الأرثوذكس، اليعاقبة، السريان =

يقول علماء اليهود ولغويوهم بلهجة لا تخلو من حنق وحسد أحياناً إن لغة العرب ما تفوقت وسادت إلاّ لأنها بقيت مستقرة متماسكة مقننة أكثر من أي لغة رسمية أخرى. ويقرون بأنها وبسبب من ذلك ساعدت كثيراً في نحت وفهم وتحسين كثير من التعابير والمصطلحات في العبرانية القديمة لاسيما عبرانية التوراة.

وقد وجد في جزيرة العرب أكثر من لغتين متداولتين على الألسن، يتخاطب باللغتين الغالبتين من ينخرط تحت وصف (عرب) و(عربي) وهما بقول المؤرخين العرب لغتا حِميَر ومُضر. أولاهما انتشرت على ألسن سكان سواحل الجزيرة الجنوبية وما يليها من أرض بعمق متفاوت، وثانيتهما اللغة التي سادت بقية أنحاء الجزيرة، وهي لغة قريش التي نزلت بها آي القرآن. وقد زاد ياقوت تفصيلاً في هذا الباب، فقال:

«لم يسمح لأحد من سكان جزيرة العرب أن يُقال له عربي إلاّ لرجل أنطقه الله بلسانهم. فإنهم وأولادهم أهل ذلك اللسان دون سائر العرب، ألا ترى أن بني إسرائيل قد عمروا الحجاز فلم ينسبوا عرباً لأنهم لم ينطقوا فيها بلسان لم يكن مثلهم وبالخط. وفي البحرين المسند، وفي عمان منهم بمنزلة بني إسرائيل لم ينطقوا فيها بلسان لم يكن قبلهم وكانت بها عاد وثمود وجرهم والعماليق وطسم وجديس وبنو عبدالدار ومن أشد تقارب في النسب وموافقة في القرابة، وأشد تباعد في اللغات بنو إسماعيل وبنو إسرائيل أبوهم واحد وهؤلاء عرب، وهؤلاء عبر لأنهم لم ينطقوا بلغة العرب».

ويحصر الألسنة العربية الستة بأسمائها: وهي العربية، الزبور، الزقزقة، الحويل، الرشق، المبين، ويفصّل في هذا ويقول:

«والمسند كلام حمير، والزبور كلام بعض أهل اليمن وحضرموت، والرشق كلام عدن والجند، والحويل كلام مهرة، والزقزقة كلام الأشعرين، والمبين كلام معد بن عدنان وهو الغالب عند العرب»[٣].

= الكاثوليك، الكلدان، الموارنة، كنيسة الشرق الآشورية التي لا تستخدم اللغة العربية إطلاقاً). وهي لغة محلية أصلية عند غالبية مسيحيي العراق وأنحاء من شرق سورية وعند مسيحيي إيران وتركيا. كانت السريانية التي خرجت من رحم الآرامية (كما خرجت اللغة الإيطالية من رحم اللاتينية) لغة الدبلوماسية والتجارة والعلم والفن في القرون السابقة للميلاد، وأثّرت تأثيراً كبيراً في تطور الثقافة العالمية - ومن ضمن ذلك تأثيرها الكبير في اللغة العربية كما سنرى.

(٣) تبين من النقوش اليمانية التي يعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد أن اللغة العربية الجنوبية =

ولايسعنا وليس هناك من حجة نستند إليها أقوى من القرآن، إلاّ الإقرار بأن ما نقل إلينا باعتباره من الشعر الجاهلي وهو تراث اللغة الوحيد تقريباً للفترة التي سبقت الرسالة المحمدية لم يكن كله منحولاً كما ذهب إليه بعض الباحثين المتأخرين ومنهم طه حسين. والعجب يزول في تفضيل نزول الرسالة بلغة مضر دون غيرها. إذ يظهر أنها كانت اللهجة السائدة التي يفهمها سكان جزيرة العرب إطلاقاً. وأقف هنا خشية الاسترسال والانتقال إلى بحث لغوي تاريخي صرف بتتبع مراحل تطور اللغة وهو ما يخرج بي عن موضوع البحث، أعني المدى التي صلحت العربية له في إثبات الهوية القومية، والخدمات التي أسدتها للحركة القومية العربية الحديثة وكم أسهمت في دفع الريح إلى شراع سفينة النهضة واليقظة القومية.

ما من شك في أن اللغة هي عنصر هام حيوي في تركيب الثقافة، ولخصوصيات اللغة وميزاتها دور كبير في التقدم الحضاري للشعوب المختلفة ألسنتها. فالعربية هي كغيرها من اللغات وسيلة لنقل الأفكار بين أبناء الأمة الواحدة، كما هي وسيلة لنقل واستيراد الحضارات بين الأمم ولا يتم ذلك بالسماع فقط بل بالكتاب. وكغيرها كانت العربية سماعية عندما بدا للعلماء والآركيولوجيين بأن المحاولة الأولى لكتابة الكلام العربي كانت مرتبطة باستخدام حروف الهجاء الجنوبية[٤]، التي انتشرت نقوشها الحجرية على طول طريق التجارة التاريخي الذي يبدأ باليمن وينتهي بدمشق ماراً عبر الحجاز وفلسطين وسورية. فقد كشف الآثاريون نقوشاً لحروف صماء لا أصوات فيها يعود تاريخها إلى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وهي الكتابة العربية القديمة. وقد بدأ استخدام حروف الهجاء الآرامية لها من قبل عرب الأنباط وتدمر في القرنين الثالث والرابع للميلاد ومنها اشتقت هيئة الكتابة التي غدت أساساً للخط العربي المتطور بفضل معاهد (الحيرة) الدراسية في دياراتها وكنائسها فقد كاد يكون شبه إجماع على أن هذه المدينة هي مصدر الحروف الأبجدية العربية أو على الأقل أهم مصدر لها.

وإذا صدقنا ما كتبه العرب حول هذه المدينة[٥] في القرون الثلاثة التي سبقت الفتح

= كانت أول لغة تنفصل عن المجموعة الجنوبية وتتميز فيها اللهجات السبئية والقتبانية والحضرموتية وأسماؤها مأخوذة من دول كانت تستخدمها.

(٤) يذكر بهذه المناسبة نقش (نمارة) في جنوب دمشق، ويعود تاريخه إلى العام ٣٢٨ الميلادي، قُرئت فيه مآثر (إمرُؤ القيس اللخمي... ملك جميع العرب).

(٥) أطلالها تقع بين النجف والكوفة. وقد جرت فيها تنقيبات آركيولوجية حديثة.

العربي فإنها كانت مدينة نصرانية أهلها من أتباع كنيسة الشرق السريانية - النسطورية ويسميهم مؤرخو العرب بالعبّاد، أي بعبّاد عيسى ويختلفون في أصولهم العرقية. ويذكر بعضهم أنها كانت محل سكنى طوائف ثلاث: عرب الضاحية والأحلاف والعبّاد. أما عرب الضاحية فهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والأخبية الذين لم يسكنوا بيوت المدر وهم التنوخيون الأوائل الذين هاجروا من اليمن على قول (الطبري) وكانوا قد نزلوا بين الحيرة والأنبار.

والعبّاد وهم أول من سكن الحيرة وابتنوا بها على قول (إبن العبري) قوم من نصارى العرب ينتمون إلى قبائل شتى اجتمعوا وانفردوا عن غيرهم وبنوا بيوتاً (قصوراً على حد قوله) وإنهم سموا بالعبّاد تفريقاً عن العبيد، فالأول لا يُضاف إلاّ إلى الخالق والثاني يُضاف إلى المخلوق والخالق. أما الأحلاف فهم الذين لحقوا أهل الحيرة وليسوا من السابقين.

إلى جانب هذه الطوائف الثلاث كان يقيم فيها أيضاً جالية من (النبط) العراقيين وهم بقايا سكان العراق الأقدمين من الكلدانيين والآشوريين والآراميين والبابليين وكذلك جماعة من اليهود والفرس وهم سادة البلاد وقتذاك إذ كان الأكاسرة يبعثون بموظفيهم وممثليهم إلى هناك ليشاركوا في الحكم زمن قيام ملوك الحيرة من آل نصر اللخميين. والعباديون الذين اشتهروا بمعرفة القراءة والكتابة هم الذين علّموا العرب كتابة لغتهم التي استقرت لها بحروفها وكيفية نطقها، كما ذكر لنا مؤرخو العرب.

وللبلاذري[٦] حكاية عن تعلم العرب الكتابة من نصارى الحيرة، وهو مؤرخ حجة لم يتوجه إليه أحد من المؤرخين العرب بنقد أو مخالفة. قال ما خلاصته:

«إن بشر بن عبدالملك الكندي صاحب دومة الجندل[٧] يأتي الحيرة فيقيم فيها لحين. فتعلم الخط العربي من أهلها وعنه تعلم الكتابة سفيان بن أمية بن عبدشمس وأبو قيس بن عبدمناف بن زهرة».

وذكر (ياقوت) أن الصبيان في (النعتيرة) وهي ضاحية من ضواحي الحيرة كانوا

---

(٦) أحمد بن يحيى (ت ٨٩٢م) مؤرخ عربي بغدادي صاحب كتابي (فتوح البلدان) و(أنساب الأشراف). وكلاهما من المصادر المعتدلة التي لم يوجه إليها مطعن في صحة الرواية.

(٧) في بادية الشام، متوسطة بين العراق والأردن على أرجح القول. (وعن ياقوت هي حصن بين المدينة ودمشق).

يتعلمون الكتابة والقراءة في كنيسة هناك، وأن القائد خالد بن الوليد وجدهم عند مسيرته إلى الحيرة منطلقاً من عين التمر، ومنهم (حمران) مولى الخليفة عثمان بن عفان.

ويُتفق بشبه إجماع على أن الخط الحيري هو أساس الخط العربي وأقدم شكل له وهو بدوره مشتق من الخط الآرامي. ويوضح (البلاذري) نقلاً عن عباس بن هشام بن محمد بن الكلبي (ت٨١٩) قوله إنه كان يغشى كنائس الحيرة يستخرج من مدوناتها وسجلاتها أخبار العرب وأنساب قبائلهم التي نزلت غرب العراق الجنوبي[٨]. ويمضي في حكايته نقلاً عن ابن الكلبي أيضاً مفصلاً فيقول إن ثلاثة نفر من طيء اجتمعوا بـ(كبقة) وهي من ضواحي الحيرة (مرار بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة) فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية.

ومن المعروف أيضاً أن الخط العربي الشهير بالخط الكوفي[٩] إنما هو تطور يسير من الخط الحيري عرفه العرب في الحجاز عن طريق الحيرة قبل ظهور الإسلام بزمن قليل. وليعلم أيضاً أن الخط الحيري هو من آثار الخط السرياني السطرنجيلي.

كل هذا يؤكد شدة الارتباط اللغوي بين أقوام وشعوب الجزيرة العربية وبين تلك التي سكنت الهلال الخصيب منذ أقدم الازمنة. وقد بقي الغرب لا يدرك أواصر القربى التي تربط بين العرب وبين الآشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكلدانيين والنبط والكنعانيين حتى قيام (راولنسن)[١٠] وغيره من العلماء بفك رموز الخط المسماري وقراءة نصوصها، فدرست العربية والسريانية والعبرية والآرامية والأمهرية والآشورية - البابلية دراسة مقارنة - وأذهلتهم النتائج، إذ وجدوا صلة حقيقية جوهرية فيما بينها لا

---

(٨) وأظهرهم بنو تنوخ الذين تنصروا وأقاموا جنوب سورية. أما أولئك الذين نزحوا إلى جنوب لبنان فقد اعتنقوا الديانة الدروزية في تاريخ لاحق ولذا يرجعون أنسابهم إلى ملوك لهم من آل نصر بالحيرة.

(٩) يستخدم الخط الكوفي في أيامنا بنطاق محدد لأغراض الزينة والنقش الحجري وأحياناً عناوين للكتب.

(١٠) العقيد سر هنري كرزويك راولنسن ١٨١٠-١٨٩٥م من أفذاذ مؤسسي علم الآشوريات. استطاع في أثناء إقامته بكرمانشاه أن ينقل كتابات (نقش بيستون) ببصمها على ورق مقوى وهي كتابة بالخط المسماري للغة الفارسية والبابلية، فوفق إلى حل الرموز الأخيرة بمقارنتها بالفارسية القديمة. فكان كشفاً عالمياً خطيراً فتح باب دراسة حضارة الشرق الأدنى وتاريخه على مصراعيه.

تستطيع أن تفخر بمثلها وفيما بينها اللغات الأوروبية الحديثة[١١] إلى حد ما.

كانت اللغة السبب الأكبر في الاستنتاج بأن أسلاف شعوب الشرق الأدنى هذه، من الآشوريين والكلدان والبابليين والعرب والفينيقيين[١٢] والعبرانيين (اليهود) والأحباش والكنعانيين والعموريين وغيرهم، كانوا في زمن سحيق ما قبل التاريخ أمة واحدة من وطن واحد قبل انشعابهم إلى أقوام وأمم.

ومن المفيد أن نذكر هنا بأنه كان لعرب الحيرة لهجة من اللسان العربي يستخدمونها في الحياة اليومية، إلاّ أنهم استخدموا السريانية في مكاتباتهم شأنهم شأن النبط والتدمريين الذين تكلموا نوعاً من العربية وكتبوا السريانية، واليهود الذين تكلموا الآرامية وقرأوا أسفارهم بالعبرية. وفي جنوب غرب الفرات قام المسيحيون بدور المعلمين للعرب الوثنيين في سائر أنحاء الجزيرة العربية[١٣].

وكما أن لفظ (العرب) بمعناه الواسع يشمل سكان الجزيرة على الإطلاق، وبمعناه الخاص يقصد به عرب الشمال الذين لم يكن لهم شأن في الأمور الدولية قبل الإسلام، فكذلك كانت اللغة العربية تدل بمعناها الواسع على لغة سبأ (حمير) ولغة الحجاز الشمالية. إلاّ أن الأخيرة عندما ثبتت لغة للإسلام والمسلمين، فأبادت لغات الجنوب، أصبحت هي اللغة العربية الفصحى بلا نزاع.

* * *

قل ما نجد بين الأمم أمة كالعرب في غرامها بالكلام الرشيق المؤنق في مجالس الخطابة والحفلات، إلى جانب شغف بجمال اللغة مكتوبة أو مسموعة. وقد بدأت آدابها بالشعر الموزون المقفى. وبقي الشعر العربي منذ أول قصيدة وصلتنا حتى العقود

---

(١١) ها نحن أولاء نجد جذر الأفعال في كل هذه اللغات يتألف من ثلاثة أحرف وأحياناً حرفين. وللزمان عندها صيغتان هما الماضي والمضارع. وتتشابه بينها تصاريف الأفعال، كما تتشابه أصول المفردات ومنها الضمائر والأسماء وأحرف العلة، ولاسيما الأسماء الدالة على القرابة الدموية (أب، أخ، أخت، ابن، أم) والأعداد، ويتشابه بعض أسماء أعضاء الجسم تشابهاً كاد يكون مطابقة تامة.

(١٢) استقر الباحثون على الرأي القائل بأن أصل الفينقيين من ساحل الخليج الغربي.

(١٣) يتحدث الجغرافي الكبير ابن رسته في (الأعلاق النفيسة) ومثله ابن قتيبة في (المعارف) عن ذلك بقولهما، إن قريشاً إنما أخذت الكتابة من الحيرة مثلما أخذت الزندقة (كلمة زنديق هي تصحيف من الكلمة الفارسية زنديك أي عابد النار).

الأخيرة من القرن الماضي يتقدم في الشهرة والاهتمام الأعمال الأدبية الأخرى النثرية. ويلمع اسم الشاعر العربي بقصيدتين أو ثلاث بشكل لا يحظى به الأديب بكتابين أو ثلاثة. ويأتي ذلك من الخصائص اللغوية وسهولة الحفظ في الذاكرة، فلموازين الشعر العربي إيقاع غنائي ولحني واضح المعالم يؤكد العلاقة الوثيقة بين الموسيقى وبين هذا النوع من الأدب، وهو ما انفردت به العربية عن سائر اللغات(١٤) كما يقول المستشرقون.

لدينا شاهد على مبلغ سمو مكانة الشاعر من فقرة نقلها السيوطي في كتابه (المزهر) في فلسفة اللغة(١٥) عن إبن رشيق:

«كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصفت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزامر كما يصنعن في الأعراس وتتباشر الرجال والولدان. لأنه حماية لأعراضهم وذب عما أصابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة لذكراهم».

وإنك لترى الشاعر والخطيب اللسن الآن يقوم في الحفل منشداً أو متكلماً فيثير ويستفز ويرتفع بالنفوس إلى أعلى درجة من الانفعال والحماسة، رغم أن كثيراً من السامعين البسطاء الذين لم يحصلوا على قدر كاف من العلم باللغة وفنونها، لا يفهمون بعض ما يسمعونه أو معظمه فيصفقون ويهتفون بمناسبة أو غير مناسبة تشجيعاً، ويستعيدون وتأخذهم في ذلك النشوة التي تشيعها في نفوسهم فخامة اللفظ والنطق بالمخارج الواضحة التي يزيد في وقعها حروف هجاء مخصوصة، إيقاعية يندر أن تجدها في لغة أخرى.

يقول الجاحظ قالت العرب: «إن الكلمة وقعت على ثلاث، عقل الإفرنج وأيدي

---

(١٤) عن Keilinschritliche Bibliothek, II, pp 243: كشفت كتابة لآشور بانيبال (القرن السابع ق.م) عن أن الأسرى والعمال العرب الذين كانوا يكدحون لسادتهم الآشوريين فيمضون ساعات العمل في غناء (أليلي) و(شرو) على إيقاع موسيقي (ننكوتي) فيطرب لها السامعون الآشوريون ويطلبون المزيد منها. وقد أقام الأستاذ ستيفن لانكدون S. Langdon العالم الآثاري الثقة في الآشوريات أن كلمة (شرو) بمعنى المرتل عند الآشوريين قد يقفى أثرها في كلمة (شاعر) عند العرب والغناء الآشوري هو (شيرو) و(شعر) العربية معناها معرفة الأشعار. و(أليلي) يمكن ربطها بكلمة (موال) العربية.

(١٥) أبو علي الحسن القيرواني (٩٩٥-١٠٦٤م) العمدة في صناعة الشعر ونقده.

أهل الصين ولسان العرب»[١٦]، والقصد هنا الفصاحة التي ألمعنا إليها - أي المقدرة على الكلام والإجادة. وبسبب هذا الاعتزاز العظيم بلغ علم الفيلولوجيا عند العرب أعلى درجة من الكمال لم تبلغ شأوه أي لغة أخرى لأي قوم.

ثم نزل القرآن بلسان مضر فجمع ما في اللغة من بيان رائع وما في العقلية العربية من الذكاء والخيال والخلج النفسي، ولذا كان إعجاز القرآن أقوى حجة يتمسك بها المسلمون في دفاعهم عن صحة الدين والكتاب، ولا ريب في أن انتصار الإسلام كان يعني انتصاراً للغة العرب لا يضاهيه انتصار مماثل آخر في تاريخ تطور اللغات على مدى علمنا. وفي ذهننا من اللغات القديمة: اليونانية واللاتينية، واللغة اليونانية القديمة (الكلاسيّة) وقد كاد معظم آثار فلاسفتها يضيع لولا العربية التي قامت على إحيائه وقدمته للفكر الحديث.

ولقد أشرت سابقاً إلى الخصائص التي تمتاز بها هذه اللغة إشارة عابرة والآثار التي خلفتها في اللغات الحية ولاسيما اللغات الآرية بعد انتقالها من لغة سماع إلى لغة كتابة وبعد نزول القرآن. ولي هنا أن أفصّل قليلاً:

بتمادي الزمن تقاربت لهجات القبائل وتقدمت الجميع لهجة القبيلة التي نبع منها الرسول العربي وهي قريش بلا نزاع. القريشيون كانوا تجاراً محترفين يتعاملون مع الخارج. تعاملوا مع اليونان ثم الرومان وبعدهم تعاملوا مع الفرس والبيزنطيين. والتجارة تفترض استخدام أسلوب المراسلة وكتابة الصكوك وتنظيم القوائم، كل ذلك كان سبباً من أسباب تطور الكتابة العربية ولا أدلّ على ذلك من أثر تاريخي طريف يذكرنا بذلك العهد الذي كان التجار القريشيون يكتبون رسائلهم العربية بالخط السرياني المنفصل. وقد بقي هذا الأسلوب حياً حتى يومنا هذا في بعض الكتب الطقسية المسيحية، وهو ما يعرف بـ(الگرشوني) أي كتابة العربية بأحرف الهجاء السريانية. فكلمة (گرشوني) التي لا تجد لها أصلاً بالسريانية إنما هي تصحيف لكلمة قريشي (كريشي).

التطور الذي حصل للعربية كان سريعاً ومدهشاً، فمن خصوصياتها التي لم تشاركها لغة أخرى قبلها - ثم اقتبستها منها اللغات الأخرى فيما بعد - هو أسلوب مزج الحروف وربطها بعضها ببعض (وقد أخذته اللغات الأوروبية عن العربية في القرن

---

(١٦) (الرسائل).

العاشر عن طريق الأندلس) وكذلك التفنن في الكتابة وتزيين الأحرف وتجويد الخط والبلوغ فيه مرتبة فن قائم بذاته. فالموسوعات العربية وكتب السيرة الكبيرة التي وصلتنا انفردت عن نظائرها في موسوعات البلاد الأخرى بذكر الخطاطين البارزين في أعداد مشاهير أهل العلم والأدب والفن.

واللغة العربية يعود لها الفضل العالمي الباقي وهو تعليم المدنية الحديثة استعمال (الصفر 0) في الحساب واختراع الأرقام العددية(١٧)، التي يستخدمها معظم الدول الآن عدا العرب والدول الناطقة بالعربية! وهي غير الأبجدية الكلاسيّة العربية. فاستغنى الغرب عن الأرقم اللاتينية، وحقق بهاتين الاستعارتين تقدمه العظيم في مختلف فروع الرياضيات وسائر العلوم. بل وأكثر من هذا، فأثرها في اللغات الحية الحديثة باق لا تقوى أية محاولة على إزالته - بدليل استعارتها وبإسراف أحياناً ثروة تلك اللغة الوصفية ومفرداتها الرائعة وحصيلة اكتشافات علمائها في العلوم كالفلك والرياضيات والطب والكيمياء(١٨).

---

(١٧) معظم الدول العربية يستخدم الأرقام الهندية في الواقع. وقد بدأت في خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، العودة إلى استخدام الأرقام العربية الأصلية (الأرقام التي نعرفها اليوم بالأوروبية). في المبدأ وجد العرب أن الأقباط في مصر يستعملون نظام الترقيم بأبجدية لغتهم بينما يستعمل السوريون (الآراميون) الأبجدية اليونانية للغرض نفسه، فقلدوهم ووضعوا لكل حرف من الألفباء العربية (أبجد هوزالخ) رقماً خاصاً به وهو الجدول المعروف بالأبجدي الذي استخدمه الشعراء والناظمون لنظم تواريخ المناسبات شعراً، أما الأرقام العربية - الدولية الحالية، فقد عُرفت بالأرقام الغبارية التي انتقلت إلى الغرب من الأندلس وعُرفت هناك بالأرقام العربية، وحلت تدريجاً محل الأرقام اللاتينية التي اقتصرت على الزخرفة، والأرقام العربية المستحدثة والمستخدمة في أوروبا وسائر أنحاء العالم بنيت أساساً على تلاقي الفواصل التي تحدث الزوايا مثلاً (5.8.3.2.1: ١، ٢، ٣، ٨، ٥) على التوالي. واتخذ العرب الصفر الهندي على شكل نقطة (٠) في حين كان عند الهند على شكل دائرة (٥) فلم يأخذوا بها خشية حصول التباس بينها وبين رقم (٥) إلا أن الدائرة التي ترمز إلى الصفر دخلت الأندلس في القرن الثامن واستخدمت بمثابة الصفر. فانتشر استعماله بهيئته الحالية (٠). ولقد شرحت ذلك شرحاً وافياً في كتابي (تراث الإسلام) الصادر في ١٩٥٣ وتجده في الصفحة ٥٩٣-٥٩٤ من الطبعة الرابعة له (دار الطليعة - بيروت).

(١٨) لا يعرف علماء اللغات وأصولها عن أية لغة أخرى سبقت العربية في تصنيف معجم (قاموس) لها كما يوصف بالمعنى الحديث. فمعجم (الخليل) المسمى (بالعين) ألفه صاحبه في منتصف القرن الثامن الميلادي على الأرجح، إن لم يكن قبله بسنوات. ويكاد نصف المعجم الإسباني والفارسي الحديث يتألف من كلمات عربية. فهناك أكثر من ألفي كلمة عربية أو ذات اصل =

فضل هذه اللغة على التقدم الحضاري البشري أكثر بكثير مما يمكن إجماله في بحث طارئ كبحثنا هذا، وما أردت الخوض فيه إلاّ لأبرر بعض تبرير تقديم القوميين للغة كعامل من عوامل إثبات القومية ولتعليل شدة إعتزاز الناطقين بها وفخرهم.

لا غرابة في اعتزاز أي شعب بلسانه مهما صغر حجمه وشأنه ولكل لغة ما تمتاز به، ميزة قد تفتقد في غيرها، إلاّ أن هناك أموراً معينة انفردت بها لغة العرب وامتازت لتحقق لها ولأهلها انتصار البقاء والمقدرة على استيعاب ما استحدثه التقدم البشري في القرنين التاسع عشر والعشرين، رغم الوهن العظيم الذي انتابها وانتاب الناطقين بها خلال تلك القرون التي عرفناها بالقرون المظلمة.

اني أقصد بهذا مرونتها وظاهرة الاشتقاق العجيبة فيها، فمن مصادرها الخالصة كان من ايسر الأمور ابتداع ونحت تعابير جديدة، واستخلاص مصطلحات في غاية الدقة وفقاً لمتطلبات العلوم والفنون القديمة والمستحدثة.

يقول البيروني[19]:

«إلى لسان العرب نقلت العلوم من أقطار العالم وحلت في الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كل أمة تستحلي لغتها».

وأرى البيروني هنا يكتب وفي ذهنه تلك المرحلة التاريخية الرائعة التي سجلها للغة العربية العالم الكبير (حنين بن إسحق العبادي الحيري) وتلامذته. فإليه يعود الفضل في نقل اللغة العربية من لغة شعر وأدب إلى لغة علم وسعت كل ما خلفه

= عربي في المعجم الاسباني الحديث انتقل كثير منها إلى اللغات الأوروبية الحديثة (الفرنسية، الإنكليزية، الألمانية). وتركيا الكمالية التي حاول مجددوها باندفاع حماسي من تعصبهم القومي للغتهم (تنقية) معجم لغتهم من الكلمات العربية (الدخيلة) كما وصفوها فما أفلحوا قط، فهناك كثير من الأوصاف والمفردات العربية لا تجد لها مشابهاً في لغتهم الأصلية. كذلك كان تأثيرها في اللغة الأوردية (الشائعة في باكستان وهم كذلك يكتبون بالخط العربي كالفرس والأفغان)، وتدين اللغة العبرية الحديثة إلى العربية بقواعد الصرف والنحو. فقد نشط علماؤها منذ القرن العاشر على إحياء لغتهم، التي كادت تندثر، باستعارتهم قواعد التصريف والنحو العربيين، وحققوا بذلك تجديد لغتهم العبرية التي هي لغة دولة إسرائيل الرسمية.

(١٩) (الآثار الباقية من القرون الخالية) ٩٧٣-١٠٤٨م. ولد الريحان محمد في بيرون من أعمال خوارزم، وهو عالم كبير ألف في الرياضيات والفلك والطب والتاريخ وعلوم الهند واليونان. ولكتابه هذا ترجمات إنكليزية دقيقة وترجمة فرنسية. ابتكر في علم الفيزياء طريقة لتحديد الوزن النوعي لثمانية عشر معدناً وحجراً كريماً تحديداً دقيقا قبل اكتشاف الطريقة الحديثة بعدة قرون.

علماء السريان واليونان والفرس من علوم. حقق (حنين)[٢٠] هذا الانتصار العظيم بفضل مرونة اللغة الاشتقاقية وجرأته على انتقاء التراجم القديمة وأسلوب المقارنة ورفض الترجمة الحرفية، وبذلك ابتدع أسلوباً في الكتابة العربية سار عليه تلاميذه من بعده. وقد أثارت تراجمُه اعجاب أهل العلم والثقافة في ذلك الحين من أمثال محمد بن موسى بن شاكر، وثابت بن قرة الصابئي ويوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع إمام أطباء زمانه.

ما الذي نقصده بالاشتقاق، ذلك السر العظيم الذي انفردت به العربية عن سائر لغات العالم المتداولة اليوم؟

نبدأ فنقول إن أهم ما يميز اللغات السامية هو فعلها المجرد عن أحرف الزيادة، وهو فعل لا يزيد عدد حروفه عن الثلاثة إلاّ ما شذّ وهو قليل نادر لا يستحق ذكراً. وهذا ما أدى إلى بعد اللغة العربية المطلق عن الكلمات المركبة تركيباً مزجياً للدلالة على أفكار أكثر تعقيداً، فما كان من أعجب العجائب أن تستوعب لغة كهذه كل العلوم والفنون التي خلفتها الأقوام الأخرى بدءاً من الهند والصين وانتهاءً باليونان وإيطاليا، دون أن يجد الكتاب والمترجمون صعوبة أو يتكلفوا جهداً في نقلها؟ السر هو مقدرتها الفائقة في التعبير عن العلاقات وشؤون الحياة بإيجاز يفوق مقدرة اللغات الآرية بمراحل، وهذا بشهادة من المستشرقين وعلماء اللغة الثقاة.

فخاطرة أو جذر (عمل) مثلاً يأتي منها الفعل عمل، وعامل وتعامل واعتمل

---

(٢٠) هو تصغير لاسم (حنا) أو (حنانيا) ٨٠٩-٨٧٣م: من نصارى الحيرة رئيس اطباء بغداد والإمبراطورية أيام الخليفة المتوكل، من «رسالته» المطبوعة مؤخراً علمنا بأنه ترجم إلى العربية جميع آثار (گالينُس) الطبية التي استوعبت (٣٩) كتاباً، ونقّح تراجم لكل آثار هيبوقريطس (أبقراط) وترجم كتاب المترادفات لأورباسيوس، والكتب السبعة لپولس الاجنيطس. وكتاب (المادة الطبية) لديسقوريدس (٦٠م) وكثيراً من آثار ارسطو. وترجم التوراة من اليونانية، إلى جانب مخطوطات عربية محفوظة في مكتبات عواصم عديدة كإسطنبول ولندن وپاريس ومدريد. أما مؤلفاته فهي كثيرة يزيد عددها عما ترجمه، وكتابه (عشر مقالات في العين) الذي نشره المستشرق الألماني الدكتور ماكس مايرهوف في الثلاثينيات فيُعد بشهادته وشهادة الباحثين اقدم كتاب مدرسي منتظم عرفه البشر في أمراض العين. والمخطوطات التي خلفها (حنين) هي مزيج من عبقرية هذا الطبيب والعالم ومقدرة اللغة العربية على استيعاب العلوم، فهو أسلوب سهل المتناول خال من التعقيد إذا ما قورن بأصله اليوناني مع دقة في التعبير وخلو من الركاكة والحشو.

واستعمل وتعمّل مع مصادرها وأسمائها، وتلحق بها اسم: العمل والعميل والعمالة وأعمال وعمولة وعملية وعملي وما إلى ذلك من الاشتقاقات ذوات المعاني المتباعدة التي تفقد أصلها في المعنى وتحتفظ بالأحرف الأصلية للجذر(٢١).

ليس القصد من هذه الإلمامة بميزات لغة العرب إبراز محاسنها وأفضليتها على اللغات الأخرى، بل كان الهدف مناقشة المدى الذي يبلغ بها القوميون العرب ليقدمها بعض القوميين ولاسيما دعاة الوحدة العربية منهم على جميع عوامل إثبات الهوية القومية الأخرى، وليرفعها بعضهم إلى مرتبة العامل الأوحد والأول والأخير في إثبات الهوية العربية.

اللغة العربية هي لغة عالمية قبل أن تغدو الفرنسية ثم الإنكليزية (لغة التفاهم الدولية Lingua Franca) والمنزلة التي تبوأتها لم تحلم بتبوئها اليونانية والسريانية واللاتينية في أوج عز هذه اللغات الثلاث كلاً بدوره. فقد بقيت تحتل هذه المكانة زهاء خمسة قرون وعندما عادت في أيامنا هذه لتتبوّأ مكانها بين اللغات الرسمية في المحافل

---

(٢١) باتخاذنا الإنكليزية للمقارنة: فلفظة (عمل) تقابلها لفظتا work, act: وإليك الآن ترجمة الألفاظ العربية التي وردت في المتن لتجد كم هي بعيدة عن الأصل: عمل Work, Act عامل to treat تعامل to do treatments وto deal اعتمل to irritate و to rankle استعمل to use العامل labourer وworker وfactor وagnet والعميل customer وagent والعُملة: currency والعملة: هرذهيشرف m evil doing وأعمال: bussiness وعمولة: commission وعملية operation وعملي practical ومعمل factory أو workshop. وليلاحظ أن معظم الاشتقاقات الواردة هنا حديثة استنبطها الكتاب العرب دون أن يتكلفوا أي جهد أو يحتاجوا إلى نقل الكلمة الأجنبية الحديثة لها كما هي أو لا تعرف لبعضها معان في القواميس العربية القديمة كالمعاني والمدلولات التي تستخدم لها وترى أيضاً أن التغيير العظيم يتم بإضافة حرف أو حرفين أو ثلاثة من حروف الهجاء إلى الكلمة من أحرف مخصوصة عشرة (س.د.ل.ت.م.و.ن.ي.هـ.أ) صماء مع استخدام علامات الصوت القصيرة (الفتحة أو الكسرة أو الضمة وتضعيفها) لتجد عند كل تغيير على الجذور الألف التي تتألف منها اللغة - كلمة جديدة ذات معنى جديد وكل ذلك يتسق اتساقاً صوتياً مع شبيهه شكلاً ليخلف في الأذن إيقاعاً طبيعياً لا تخطئه. عندما ينطق الإنكليز أو الفرنسيون أو الإسبان بفكرة مجردة، فإنهم لا يفكرون قط بالمعنى الأصلي للكلمة التي نطقوا بها. خذ مثلاً كلمة adgecent فهي تبدو منقطعة الصلة بكلمة (Jaere) اللاتينية وتلفظ (ياجيري). فالإنكليز لا يملكون هذه اللفظة ولا لفظة ad في حين أن أصل الكلمة العربية كما رأيت من الأمثلة السابقة لا يبقى مبهماً على الإطلاق عند تجريد الكلمة الجديدة من أحرف الزيادة فالأصل باق.

الدولية، بدت مستعدة أتم استعداد لذلك لسعة حجم الساحة التي يحتلها الناطقون بها والمستفيدون منها فوق ظهر البسيطة باعتبارها لغة الدين والعقيدة(٢٢) التي يدين بها قرابة تسعمائة مليون إنسان.

والواقع هو أن لغة العرب كانت عند طلوع فجر اليقظة القومية في البلاد الناطقة بالعربية، الوسيلة الفعالة لنقل وشحذ العواطف والآمال في التحرر والنهضة بفعل شعرائها وكتابها وخطبائها وصحفييها الذين أحسنوا استخدامها وإخراجها حية فاعلة من أقبية القرون المظلمة وسراديبها. في اللغات الأخرى تعد المحسنات البديعية والبيانية وترديد الجمل الرنانة المفخمة في المعنى الواحد لغواً لا قيمة له ومضيعة للوقت، لكن ذلك يعتبر بلاغة غريزية عند الناطق بالعربية. وقد رأينا أن الإيمان بسمو اللغة العربية المطلق هو من الدين عند المسلمين كافة، فما بالك بالعرب الأصلاء أو بمدعي العروبة؟ وعلى أساس من هذا فإن امتلاك ناصية البيان في الدوائر المثقفة هو السمة التي تميز الرجل المهذب. ويعاب على الكاتب الأديب والصحافي خطأ ارتكبه في قواعد الصرف والنحو وإنك لتجد في الأسواق أكثر من كتاب عمل خصيصاً لتنبيه هؤلاء إلى الأخطاء الشائعة عندهم وضرورة اجتنابها. مع هذا كله فمن نافلة القول بأن لغة جزيرة العرب الفصيحة لا نجدها إلاّ عند أدباء وشعراء ما قبل الإسلام وما بعده بقليل، وقد أورد مؤرخو العرب الأوائل وكتابهم حكايات تشوبها السخرية والفكاهة عن خلفاء وزعماء عرب عجزوا عن تفهيم غرضهم لعرب أقحاح قادمين من الجزيرة(٢٣).

ولم تكن اللهجات العامية وهي كما ذكرنا(٢٤) لهجات متباعدة عاملاً مثبطاً

---

(٢٢) نصت المادة ١٦ من القانون الأساسي (الدستور) الصادر في ١٩٨٠ لجمهورية إيران الإسلامية على هذا: بما أن لغة القرآن والعلوم والمعارف الإسلامية هي اللغة العربية، وبما أن الآداب الفارسية ممتزجة بها امتزاجاً كاملاً، لذا وجب تدريس هذه اللغة بعد المرحلة الابتدائية حتى نهاية المرحلة الثانوية في جميع الصفوف والفروع الدراسية.

(٢٣) ومنها حكاية ذلك الخليفة الأموي مع قادم من الجزيرة: سأله عن ابنة له: فقال زوجتها، فسأله الخليفة (ومن ختنَك؟ (بفتح النون). فأجابه بأنه لا يتذكر الذي ختنه لأنه كان صغيراً. فقال الخليفة: لا أسألك عن هذا وإنما سألتك عمن يكون زوج ابنتك. قال الأعرابي: أعز الله أمير المؤمنين هلا قلت من ختُنك؟ (بضم النون).

(٢٤) على سبيل الفضول والمماحكة سألت مرة أحد الكتاب البلغاء الإيرانيين لماذا لا يعمدون إلى التخلص من الألفاظ العربية الدخيلة كما فعل الأتراك الكماليون؟

فهتف مستنكراً كمن يحكم على الفارسية بالموت: أترى مع كل المجهود المستميت الذي =

للمحاولات الناجحة المستميتة التي تبذل اليوم، كما كانت من قبل لإتقان اللغة وتعابيرها[٢٥] لاسيما الحرص على البيان القرآني المشرق وعدم الإخلال بمبادئه، فقد كان أول كتاب عربي نثري موحد النص ما فيه ريب.

كان العرب كما ذكرنا نسبة ضئيلة جداً بالقياس إلى البلاد التي خضعت لحكمهم، ومع أن المبادرة والثقة بالنفس وبالكتاب المنزل وحكم التغلب فرض اللغة رسمياً، إلاّ أن العامل الأعظم لانتشارها وتطورها السريع يرجع في نظرنا إلى مقدرتها الذاتية وميزاتها تلك التي أشرنا إليها، فقد حقق لها في فترة قصيرة جداً نصراً على كل اللغات السائدة. ولم تتمكن هذه من الصمود أمام العربية في مجال المقارنة برصيد الكلمات وتعدد الصفات على الحالة الواحدة، ويتضح ذلك من سعة وغزارة أي قاموس عربي.

لم يكن اعتزاز القوم بلغتهم والحالة هذه مجرد حمية قومية، فقد شاركهم هذا الحرص والاعتزاز جمهرة من اللغويين وعلماء النحو الأجانب تفوق أمثالهم من العرب. هؤلاء أتقنوا اللغة وبرعوا فيها فكتبوا وخلفوا آثاراً جليلة ضخمة، فقدموا للعرب خدمة لا يمحوها كرور الأيام.

= حاوله مصطفى كمال استطاعوا الخلاص من المفردات العربية؟ نظرة عابرة واحدة إلى قواميسهم تثبت لك استحالة ذلك.

(٢٥) منها تلك المحاولات التي تبذل في بلاد المغرب والجزائر وتونس لفك الطوق اللغوي الفرنسي عن الألسن. مثال قريب جداً ما نشرته جريدة (الحياة) في العدد ١١٥٠٩ الموافق ليوم ٢٢ من آب ١٩٩٤ وهذا نصه:

«دعا الملك الحسن الثاني إلى تدريس اللهجات المحلية في مراحل التعليم الأولى وأكد في خطاب وجهه إلى الشعب أن درس اللهجات المحلية ويقصد بها اللغة التي يستخدمها سكان المغرب (البربر) مثل اللغات الأمازيغية والريفية والسوسية نسبة إلى مناطق التوزيع الجغرافي للبلاد، يساعد في المحافظة على مقومات المغرب وخصوصياته. وتذهب مصادر مهتمة إلى إضفاء بعد سياسي على القرار.

وقد برزت دعوات إلى التعاطي مع اللهجات المحلية من خلال درسها في الكليات والجامعات ضمن خطة للمحافظة على مقومات التنوع العرقي في البلاد وخصوصياته. ويستطيع أي مراقب أن يرصد الآن وجود مجلات وصحف عدة مكتوبة بالأمازيغية. يتشكل البرابرة من قبائل عدة لا تستخدم لغة موحدة، لكنها تتداول بلهجات محلية، كالريفية في الشمال والأمازيغية في جبال أطلس وسط البلاد والسوسية في الجنوب إضافة إلى اللهجة (الحسانية) التي يتحدث بها سكان المحافظات الصحراوية وهي تختلف عن اللهجات الأخرى».

يبلغ عدد نفوس البربر المنتشرين على طول الشمال الأفريقي أكثر من ١٨ مليون نسمة ابتداءً من مصر حتى مراكش.

والتغلب الأجنبي على البلاد الناطقة بالعربية لم يقو على إضعاف سيادة العربية بل كان عاملاً غير مباشر على تقويتها وانتشارها. فخلافاً لاستعارة ألفبائها والهجوم الكاسح على تعابيرها ومصطلحاتها، بقيت عند معظمهم لغة المراسلة الرسمية بين الزعماء والملوك المحليين (ملوك الطوائف) وكذلك بينهم وبين حكومات الآخرين في أوروبا. لكنها لم تجعلهم عرباً. مع ذلك كله، فقد كانت هناك أبداً حوافز سيكولوجية عميقة تدعو العربي المتعلم الواعي سياسياً إلى الفخر بلغته الأم، رغم ما جرّها إليه القوميون العرب وجنوا عليها بأدبياتهم ومنطقهم ونقلهم إليها الضحل من الأفكار. اليقظة القومية الداعية إلى التحرر والسيادة الوطنية، أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده، لقد برهنت في هذه المرحلة بالذات على مقدرة فذة لا في استيعاب الأدب الأوروبي الكلاسي منه والحديث، بل لاقتبال آخر حصيلة الأفكار الغربية في علوم السياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها من العلوم التجريدية.

النشاط اللغوي تزامن مع بوادر اليقظة القومية وفعالية التحرر الفكري والسياسي، وفي سورية تم المخاض وكان التنسيق العظيم بين الظاهرتين، فها هنا يرى تعاون اليد الأجنبية مع رواد الحركة التحررية. فهؤلاء الرواد وغالبيّتهم الغالبة من المسيحيين المتحمسين أوجدوا أولى الصحف والمجلات العربية، ونظموا طلائع الجمعيات الثقافية وأسسوا أحدث المدارس وطبعوا أفضل الكتب وأحدثها وأحيوا التراث الأدبي والعلمي العربي التليد. ولأنتقل هنا، وهو ما لا سبيل لي إلى إغفاله وفي الإعادة إفادة، لأقدم عرضاً تاريخياً موجزاً لهذه المعجزة.

وجد فجر القرن التاسع عشر سورية كجاراتها غارقة في ظلام القرون المظلمة، هذه العتمة مع إنها انزاحت في فترة أمدها عشر سنين من الانفتاح والتسامح والنور الذي أتاحه لها الاحتلال المصري والمنتهي بالعام ١٨٤١م، فقد عاد مرة أخرى ليخيم بظله الأسحم.

كانت مصر في عهد محمد علي الكبير أولى البلاد الناطقة بالعربية التي حققت روابط ثقافية مع أوروبا الغربية. ولم يكن عمل الترك العثمانيين قاصراً على قطعٍ مقصود لأنفسهم ورعاياهم عن أي تماس ثقافي وفكري مع الغرب، فأدى ذلك إلى حرمان البلاد الناطقة بالعربية من فرصة ثمينة في وقت حرج، عندما كانت أوروبا تمر خفافاً بمرحلة التنوّر التي سادت القرن الثامن عشر، ثم عندما أصبحت لتخوض غمار الثورة

الصناعية. وأصر الترك العثمانيون على أن لا ينضموا إلى قافلة التقدم الأوروبية ومنعوا انضمام الآخرين إليها.

إن التكنولوجيا المتقدمة الوحيدة التي سمح الأتراك لها باختراق ستارهم الحديدي هي التكنولوجيا العسكرية، وليس في هذا فائدة للعرب ولا للبلاد الناطقة بالعربية.

إذن كانت سورية[٢٦] في مفتتح القرن التاسع عشر تعيش حياة القرون الوسيطة في كل جانب منها: (المجتمع، الأسرة، التعليم) وهذا الأخير كاد كله يكون احتكاراً لرجال الدين، ومعظمهم إن لم يكونوا كلهم من المحافظين المتزمتين، والمهن والحرف كانت عائلية يتوارثها الابن عن الأب. والزراعة بدائية والعلم بالمفهوم الحديث لا وجود له إطلاقاً. والطب يعتمد على الحلاقين وآثار إبن سينا والأنطاكي الطبية[٢٧].

إلاّ أن هذه الصورة تغيرت بشكل روائي سريع. ونقطة التحول ربما أمكن تحديدها بالعقد الأول من متنصّف القرن التاسع عشر، عقب الحرب الأهلية في لبنان التي امتدت نيرانها لتلفح وجه دمشق، فإذذاك هرع الأوروبيون، بعضهم مشبع بروح الإنسانية وبعضهم لتثبيت مصالح تجارية، لمساعدة المنكوبين في المنطقة. وقد قصد ببعض من هذه المساعدة معالجة سريعة للوضع، إلاّ أن بعضها كان ذا قيمة لا تُقدر وقد آتت ثمارها حقاً.

التدخل العسكري الفرنسي في لبنان تمخض بمنح لون من الحكم الذاتي للجبل يقوم على رأس إداراته متصرف (محافظ) مسيحي، وبرعاية الدول الأوروبية والولايات المتحدة صارت هذه البقعة البؤرة الرئيسة لتسرب النفوذ الثقافي وانعكاسه على المناطق المجاورة، وتزامن هذا مع حدث دولي آخر ذي طابع مختلف، وأقصد به افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩م للنقل العالمي، وقد كان هذا بدوره عاملاً في إنهاء العزلة البدنية والفكرية وراح يمسح تدريجياً عن وجه البلاد الناطقة بالعربية أوضار الجمود والتحجر ليعيد بعض دورها التقليدي كحلقة وصل للقارات الثلاث.

---

(٢٦) المقصود بسورية هنا الجزء الشمالي الغربي من بلاد الشرق الأدنى وهي سورية ولبنان وفلسطين وإسرائيل والأردن.

(٢٧) هو داود الإنطاكي (ت ١٥٩٩) صاحب كتاب التذكرة الطبية الذي ألفه في القاهرة وهو مجموعة من الوصفات الطبية القديمة البلدية.

وفي لبنان الجديد هذا الذي اقتبل أول تنظيم سياسي رفع بنتيجته إلى حد ما يد العثمانيين الثقيلة، كان بوسع الوكالات التبشيرية والجمعيات الثقافية أن تنشط في جو من الحرية لا مثيل له في أي بقعة أخرى من الإمبراطورية العثمانية.

ولم تكن تلكم الولايات والجمعيات وأخصها الكاثوليكية منها - بحاجة إلى دعوة، فبعضها كان موجوداً منذ عهد حكم الأمير (فخرالدين المعني ١٥٧٢-١٦٣٥م). فرهبانية (الكبوشيين) مثلاً كان لديها مراكزها قبل القرن التاسع عشر في أنطاكية ودمشق وبيروت وحلب وغيرها. وكانوا قد فتحوا أول مدرسة لتعليم الصبيان في دمشق العام ١٧٧٥م. وهي أقدم وأول مدرسة حديثة لا في هذه المدينة وحدها بل ربما في سائر العالم الناطق بالعربية. ثم عقبتها مدارس مماثلة في سائر المدن السورية، بل امتدت إلى عدد من القرى اللبنانية. وبقيت بإشراف المسيحيين وإداراتهم. ولم يبطء البروتستانت في اللحاق بالركب، فقد قدمت إرسالية (كايزر سفرت) الألمانية بعد حرب ١٨٦٠م الأهلية مباشرة وانشأت مركزاً لتعليم وتدريب أيتام الحرب في مدينة صيدا. وبعدها نقلته إلى بيروت ملحقة به معهداً للتمريض وآخر للتعليم العالي وفي السنة عينها اقتحمت الميدان بعثة تبشيرية بريطانية فأُسست مدارس للصبيان والصبايا في كل من دمشق وبيروت وبعلبك ومدن أخرى، منها الكلية الشهيرة لتدريب البنات وتعليمهن.

وجاء الأمريكيون بأساتذتهم ومربيهم وأموالهم وتوجوا جهودهم الثقافية بتأسيس (كلية سورية البروتستانتية) في العام ١٨٦٦م، ذلك المركز الثقافي العظيم الذي يعرف اليوم باسم (جامعة بيروت الأميريكية) الذي تخرج فيه كثير من مشاهير دعاة القومية العربية. فما كان من الفرنسيين إلاّ وأقدموا في العام ١٨٧٤م على إنشاء جامعة مماثلة تعرف اليوم بـ(جامعة القديس يوسف) وكلاهما أقدم جامعتين علمانيتين عصريتين في البلاد الناطقة بالعربية والشرق الأوسط. وقد تزودت منهما خلال نصف قرن من الزمن بمعظم أطبائه وصيادلته وأدبائه وعلمائه، فضلاً عن عدد كبير من رجال الفكر والسياسة برز منهم قادة قوميون ووطنيون ولمعت أسماء بعضهم في عالم الفكر والعلم والأدب. من خلال هذين المعهدين العلميين العالميين ولجت سورية باباً إلى فترة جديدة من التقدم بهؤلاء الخريجين المتحمسين الطَلَعة، وقد نوهنا بذلك في سياق الفصل الأول.

هؤلاء الخريجون أسسوا أولى الصحف وأصدروا أولى المجلات العربية ونظموا أولى الجمعيات الثقافية وفتحوا أحدث المدارس وطبعوا أفضل الكتب ونشروا أبدع ما

خلفه الفكر العربي من تراث علمي وأدبي وقدموا لقراء العربية بترجماتهم خير ما أبدعه الفكر الغربي من العلوم والأدب والفنون.

وأقدم الأمريكيون وهم في سبيل تطبيق مناهجهم التعليمية على تأسيس أول وأكمل مطبعة عربية في ١٨٣٤م، وبعدها بتسع عشرة سنة أسس (الجزويت) وفي بيروت أيضاً مطبعتهم الشهيرة المعروفة اليوم بالمطبعة الكاثوليكية مع مسبك وأجهزة كاملة لسبك تلك الحروف العربية الجميلة التي هندستها ورسمتها يد العلامة والأديب الكبير (الشيخ إبراهيم اليازجي).

وقد أصبحت أنموذجاً وأساساً لسبك جميع الأحرف التي تستخدمها المطابع العربية العصرية، وكل المطابع التي تستخدم الألفباء العربية من إيران حتى ماليزيا. إن المرء ليقف حائراً ذاهلاً وهو يتأمل قائمة الكتب التي أصدرتها تلك المطبعة خلال قرن ونصف قرن. كانت مصدراً لا يُثمن للفكر العربي الحديث، فقد أحيت جانباً هاماً من التراث الأدبي والعلمي العربي الغابر، إلى جانب حشد ضخم من الكتب الأدبية والعلمية المترجمة عن مختلف اللغات الأوروبية، فضلاً عن كتبها الدراسية القيمة التي تتأثر بخطى أحدث المكتشفات العلمية وتقدم آخر ما توصل إليه الفكر البشري من التقدم الحضاري.

ومن هاتين الكليتين نبغ أدباء وشعراء وكتّاب كبار وبفضل الحركة العلمية التي أحدثتها المدارس. ووجد علماء اللغة سوقاً رائجة لجهودهم فأغنوا اللغة العربية التي أصابها صدأ بطول العمر ومحدودية الفكر فعمدوا إلى صقلها وحقنوها بمصل الحياة الجديدة فانطلقت جامحة صائلة لتغدو واسطة لنقل أعمق الأحاسيس وأدق الأبحاث العلمية.

إن الزخم الذي أحدثه نقل الأفكار العصرية في العلم والسياسة والأدب هتك أستار التقاليد القديمة وعبث بها أيما عبث، بل زلزل أركان المعتقدات القديمة والمؤسسات ذات الحرمة، كذلك خلق توتراً وأزمات وتخلخلاً في كيان النظام الاجتماعي.

كانت فعلاً فترة انتقال بطلها المغوار لغة العرب وككل فترة انتقال تمر بحالة شدة وضغط عظيمين: الروابط القديمة يشيع فيها الانحلال، الولاءات التقليدية تتحول، وموازين القيم السائدة تتبدل، وفوق كل هذه الأشلاء تبرز معضلة التوفيق بين القديم والجديد.

كان المجتمع من قبل يتألف من طبقتين: الطبقة الأولى وتضم الملاك

والأرستقراطيين والأغنياء ورجال الدين، والطبقة الثانية تشمل الفلاحين وأهل الريف والصناع والكادحين والفقراء، وبين هاتين الطبقتين ما لا يُعتد به من تجمعات. أما الآن فقد برزت إلى الوجود طبقة وسطانية جديدة تضم الأطباء والمعلمين والمحامين والكتاب والصحفيين والمهنيين إلى جانب أصناف كثيرة من أعمال لم يكن لها وجود من قبل برزت فجأة، وما برحت حتى راحت تمارس نفوذاً خطير الشأن في الحياة العامة. بهذا الشكل بدأ الخلل في النظام الاجتماعي السائد فتصدعت الولاءات وأصيب البناء العائلي بضربة قاصمة. في المدن على الأقل طالبت النسوة بشيء من الحرية ونالت قسطاً محدداً مما طالبت به، وخرجت الزيجة عن مبدأ تنظيمها من قبل الآباء، واقتضى التغيير الاجتماعي استقلال الأسرة الجديدة بمنزل خاص. وما حصل كان متوقعاً: شيئاً شبيهاً بما حصل في الغرب. فالأغنياء ازدادوا ثراءً والفقراء ازدادوا فقراً. وفي العام ١٨٦٣م شُقّ طريق ممهد بأموال فرنسية بين دمشق وبيروت[٢٨]. وفي ١٨٩٤ سار القطار بين هاتين المدينتين وحوران ثم امتد الخط حتى تركيا والعراق والحجاز، ولأول مرة في تاريخ العالم الناطق بالعربية أصبحت القرى والمدن في متناول اليد. وحصل التقارب وتوثقت عراه وتسربت إليها الكتب والمجلات والصحف التي كانت تخرج من مطابع بيروت ودمشق ثم القاهرة ومعها تسربت الأفكار والرؤى الحديثة.

كانت اللغة مستعدة تمام الاستعداد للنهوض بهذه المهمة التاريخية العظيمة بيسرها ومرونتها وبمقدرتها الاستيعابية على اقتبال الأفكار الغربية وعلومها وكل نتاج عصر النهضة الأوروبية بجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لتكون بالأخير اداة فعالة وعاملاً جليل الشأن من عوامل اليقظة القومية والتحرر السياسي.

* * *

لغة العرب لغة عالمية. قبل أن تغدو الفرنسية ثم الإنكليزية كذلك بقرون عديدة وقد تبوّأت مركزها هذا لأسباب كثيرة، منها ذاتية ومنها موضوعية. وكان ثمة سبب آخر طاب لي أن لا أنوّه به قبلاً ليأتي في موقعه المناسب وهو ها هنا، وأقصد به الخدمات الجليلة التي قدمها غير العرب لهذا اللسان. تلك الخدمات التي أمّنت لها تطورها

---

(٢٨) في أوائل القرن التاسع عشر كان عدد نفوس بيروت (٤٠٠٠) نسمة فبلغوا في نهايته (١٢٠٠٠٠) وكان عدد نفوس دمشق (١٠٠٠٠) فبلغوا (١٧٠٠٠٠) لعين المدة.

الطبيعي ووضعتها في إطارها التكني الحالي، وأول من فطن إلى ذلك المؤرخ الكبير والمفكر العربي (ابن خلدون)، قال:

«من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم من العجم. لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية، إلاّ في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته[٢٩] فهو أعجمي في لغته ومرباه ومشيخته».

ويسترسل (ابن خلدون) ليقرر واقعاً آخر:

«فأول من كتب في علم النحو والإعراب أبو الأسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة من (علي) رضي الله عنه، لأنه تغير الملكة فأشار عليه بحفظها ففزع إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة... إلى أن انتهت إلى الخليل ابن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد، وكان الناس أحوج لها لذهاب تلك الملكة من العرب. فهذّب الصناعة وكمّل أبوابها وأخذها عنه سيبويه[٣٠] فكمّل تفاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدها، ووضع فيها كتابه المشهور الذي صار إماماً لكل ما كتب فيها من بعده.

ثم وضع (أبو علي الفارسي)[٣١] وأبو القاسم الزجّاج[٣٢] كتباً مختصرة للمتكلمين يحذون فيها حذو الإمام سيبويه. فها هنا خمسة من أئمة اللغة وأركانها إثنان منهم عرب وثلاثة عجم».

كان غير العرب - وعلى أهل العروبة أن يقرّوا - مساهمين مساهمة حاسمة خالدة في علم النحو والمعاجم، وقد أصاب (ابن خلدون) كبد الحقيقة. وها نحن هنا وقد مرت عشرة قرون على هؤلاء الأئمة. نرى بعين (ابن خلدون) وبكل العجب الذي استولى عليه قيام طبقة مماثلة في القرن التاسع عشر كادت تكون كلها من غير العرب.

---

(٢٩) يعرّف العرب كل من ليس عربياً بـ(أعجمي) وقوله عربي في نسبته إنما يقصد الأجانب الذين انتسبوا إلى العرب بالموالاة أو استعربوا.

(٣٠) هو أبو بشر عثمان (ت ٧٩٦م) من الموالي، وكتابه في النحو (الكتاب) كان مرجعاً لسائر النحويين واللغويين الذين عقبوه.

(٣١) الحسن بن أحمد بن عبدالغفار بن أبان الفارسي (ت ٩٧٣م) يذكر له ابن خلكان (وفيات الأعيان) خلافاً لكتاب التذكرة الشهير أحد عشر مؤلفاً في اللغة.

(٣٢) أبو إسحق إبراهيم السري (٨٤١-٩٢٣م) من علماء النحو الكبار يعدد له ابن خلكان عشرة كتب في اللغة والنحو.

حمل أفرادها على العواتق والمناكب والكواهل ثقل بعث النهضة اللغوية. وبعثوا دماً جديداً في عروقها وأهّلوها لاقتبال كل نتاج الفكر الحديث بيسر وسهولة ما بعده يسر وسهولة، وأقصد بهذه الطبقة مسيحيي جبل لبنان.

فوق ذلك كله هؤلاء الرواد العظام جعلوا اللسان العربي أداة فاعلة وعاملاً جوهرياً من عوامل اليقظة القومية العربية وتحررها السياسي والفكري من قيود الفترة المظلمة في كل البلاد الناطقة بالعربية. وقدموا مما قدموا فن الصحافة وأحدثوا ثورة في علم المعاجم وفتحوا أبواباً في الشعر العربي ونثره لم تعرفها هذه اللغة من قبل، الشعر السياسي والشعر الذي يعبّر عن الخلجات النفسية الذاتية بوحدة لم يعرفها هذا الفن الأدبي من قبل.

معظم هؤلاء النوابغ كانوا أفراداً من أسر علمية، يتعذر علينا ذكرهم بغير كنيتهم وانتمائهم العائلي ورابطة القرابة التي جمعتهم. كآل اليازجي ومنهم الشيخ ناصيف وابنه العبقري إبراهيم وشقيقته وردة[٣٣] وآل البستاني: بطرس وسليم وسليمان وعبدالله ووديع وبطرس الثاني[٣٤] وآل الشرتوني[٣٥] ورشيد الخوري وسعيد الخوري ومحبوب

---

(٣٣) الشيخ ناصيف (١٨٠٠-١٨٧١م) الأديب والشاعر واللغوي، صاحب كتاب (طوق الحمامة) في النحو و(مجمع البحرين) جرى فيه على أسلوب مقامات بديع الزمان الهمداني والحريري، وهي أولى محاولة لإحياء فن القصة اللغوية. ابنه الشيخ إبراهيم (١٨٤٧-١٩٠٦) الكاتب والشاعر وإمام اللغة في عصره، ورأس طليعة النهضة الأدبية، صنع بيده أحرف السبك العربية الشائعة اليوم وأسس مجلة (الضياء). من آثاره اللغوية (نجعة الرائد وشرعة الوارد والمترادف والمتوارد) ويقع في مجلدين، و(الأغلاط الشائعة) التي أحصى فيها الأخطاء اللغوية التي يقع فيها كتاب عصره. ووردة (١٨٣٨-١٩٢٤) شقيقته وهي واحدة من رائدات الأدب العربي النسائي في نهضته الحديثة، صاحبة ديوان (حديقة الورد)، وهو أول ديوان شعر تصدره شاعرة في البلاد الناطقة بالعربية.

(٣٤) تقف أسرة البستاني في مقدمة الرعيل الأول الذي فتح باب الفكر الحديث وحمل بعض أفرادها راية التحرر السياسي والقومية وروّجوا لنزعة الاستقلال وأولهم بطرس (١٨١٩-١٨٨٣م) من أعظم أركان النهضة. أنشأ المدرسة الوطنية في بيروت ١٨٦٣م وكان أول من نادى بتعلم المرأة وهو من رواد الصحافة الأوائل. أسس أربع صحف شهيرة هي (نفير سورية، الجنان، الجنة، الجنينة). عالم موسوعي ولغوي صاحب دائرة المعارف (الانسكلوپيديا) التي أكمل منها ستة مجلدات ضخمة. وهو أول من وضع قاموساً عربياً على الأسلوب الحديث وأسماه (محيط المحيط). وسليم (١٨٤٧-١٨٨٤) ابنه صاحب التآليف الكثيرة في التاريخ الحديث والاجتماع والقصة فضلاً عن امتهانه الصحافة العربية. وسليمان (١٨٥٦-١٩٢٥) الأديب والشاعر والناقد =

الخوري[٣٦] وآل الخوري، وآل الشدياق[٣٧] وآل الخازن[٣٨]. ومن غير الأسر العلمية واللغوية هناك نوابغ أحدثوا أثرهم الخالد في مسار تقدم الفكر العربي ولسانه، ويتصدر قائمتهم الطويلة الصحافي والقصصي والعالم الكبير جرجي زيدان ومدرسته (دار الهلال)[٣٩] ومثلاً مدرسة يعقوب صروف صاحب (المقتطف).

= الكبير، أبو النقد الأدبي الحديث. مترجم ملحمة (إلياذة) للشاعر هوميروس شعراً بأكثر من عشرة الآف بيت. وعبدالله (١٨٨٨-١٩٣٠) أول ناقل لرباعيات الخيام شعراً وأحد الرواد الأوائل في حركة الإستقلال القومي توج حياته الأدبية بنقل ملحمة (المهابهارتا) الهندية الشهيرة. وبطرس (١٨٩٨-١٩٦٩) الصحافي صاحب جريدة (البيان) واحد من أساتذة الأدب العربي الكبار مؤلف غزير المادة في الأدب العربي (أدباء العرب، معارك العرب، الشعراء الفرسان) وغيرها من المؤلفات.

(٣٥) من آل الشرتوني سعيد ١٨٤٩-١٩١٢ من أئمة اللغة في عصره مؤلف معجم (أقرب الموارد)، ورشيد شقيقه (١٨٦٤-١٩٠٦) الأديب واللغوي الذي بقيت كتب النحو والصرف التي ألفها مرجعاً للمؤلفين والمتدارسين طوال نصف قرن. وأخيراً محبوب (١٨٧٧-١٩٣١) أحد شعراء المهجر المجددين في الشعر العربي.

(٣٦) بعض من حمل لقب (خوري) قد لا ينتسب إلى بعض بصلة القرابة. فلقب (الخوري) لقب شائع جداً في لبنان وهو موروث عن أجدادهم الكهنة المارونيين عندما كانوا يتزوجون. يُذكر منهم خليل (١٩٠٧ -١٨٣٦) مؤسس المطبعة السورية في دمشق في العقد الثامن من القرن ١٩، وصاحب جريدة (حديقة الأخبار) وهي أول الجرائد العربية الأهلية تصدر في دمشق. كتب في الأدب العربي ونظم الشعر. ومنهم رشيد سليم الخوري (١٨٨٧-١٩٦٨) الشاعر المهجري الذي يعتبر أبا الشعر الغنائي العربي، وقد عرف بلقبه (الشاعر القروي). ومنهم سليم جبرائيل (١٨٤٣-١٨٧٥) صاحب معجم (آثار الأدهار) وشكري (١٨٧٢-١٩٣٧) الأديب والصحفي من أعلام أدباء المهجر. وقد قدمنا بعضهم وغيرهم في الفصل السالف.

(٣٧) أحمد فارس يوسف ١٨٠٤-١٨٨٨ من رواد الصحافة العربية الأوائل وائمة اللغة، صاحب جريدة (الجوائب) ومؤلف (الجاسوس على القاموس) وكتاب (الساق على الساق). ويذكر أيضاً من الأسرة طنوس يوسف أخوه (١٧٩٠-١٨٦١) المؤرخ واللغوي.

(٣٨) أسرة عريقة أنجبت خلال أكثر من أربعة قرون أساتذة ومعلمين وأدباء ورجال إدارة وأحبار كنيسة كبار ويعنينا منهم هنا الشيخ فيليب (١٨٦٥-١٩١٦) صاحب جريدة (الأرز) وأخوه الشيخ فريد (١٨٦٩-١٩١٦) اللذان سلبهما جمال باشا حياتهما مع قافلة شهداء عالية. عرفا بكتاب (لمحة تاريخية في استقلال لبنان) ونشطا في حركة التحرر الوطنية وترجما من الفرنسية كتباً في السياسة والاجتماع. ويوسف (١٨٧٣-١٩٤٤) الصحافي صاحب جريدة (الأخبار) ١٨٩٦ ومجلة (الخزانة) ١٩٠٠ ، وجريدة (بريد الأحد) ١٩٠٢ في مصر، وفي لبنان أصدر جريدة (الأرز) في ١٩٢٢ ثم (البلاد) في ١٩٣٣.

(٣٩) ١٨٦١-١٩١٤: من النازحين اللبنانيين إلى مصر. مؤسس دار الهلال ومجلاته العديدة. =

معظم هؤلاء وكثير ممن أسدى يداً لنهضة اللغة العربية، لاسيما أولئك الذين اشتغلوا في الصحافة وشاركوا في الأحداث السياسية وحركات التحرر القومي، تركوا لبنان إلى مصر والعالم الجديد لينتجوا ويؤلفوا في جو من الحرية لا يتسامح به الحكم العثماني.

فـ(إبراهيم اليازجي) مثلاً ثقل عليه جو لبنان واضطر بسبب ملاحقة السلطات العثمانية إلى سكنى مصر، حيث بات بؤرة استقطب حولها المتنورون العرب ودعاة الفكر القومي والتحرري من سوريين ولبنانيين وفلسطينيين ومصريين. وكغيره من أساطين اللغة وكتابها وأئمتها لم يقف لحظة ليشك في عروبته وهو الناطق بها منذ أن تحرك لسانه في فمه. وغلب عليه مثلما غلب على غيره الشعور بالمأساة الكبرى التي يعيشها الناطقون بالعربية في ذلك الزمن، ليكتب وينظم في مجالها حاثاً ومستنهضاً وهو القائل:

تنبهوا واستفيقوا أيهــــا العرب　　　فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

= مؤرخ باحث في تاريخ الأدب العربي. هو أول من عالج فن القصة التاريخية الطويلة (Novel) بسلسلته القصصية الشهيرة التي أتى في رواياتها الخمس عشر على أهم احداث تاريخ العرب والإسلام على غرار قصص الكساندر دوماس الأب (١٨٠٤-١٨٧٠) وميشيل زيفاكو. وضع أساس القصة العربية ذات الحبكة الفنية. كان لدار الهلال التي أنشأها الفضل في تخريج ونبوغ جمهرة من كتاب العربية وأدبائها المصريين الذين وضعوا بصماتهم الخالدة في سجلها المشرف. كان جرجي زيدان ركناً هاماً من أركان النهضة الفكرية في البلاد الناطقة بالعربية. وقد بقيت (داره) حتى يومنا هذا تتبنى صحفاً ومجلات وتصدر كتباً شهرية أو دورية على مدى علمي. ولا يفوتني هنا أن أذكر زميلتها مجلة (المقتطف) لصاحبها الدكتور يعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٢٧) وفارس نمر المجلة العلمية الوحيدة في العالم العربي التي أنشآها في ١٨٧٦ بلبنان ونقلاها في ١٨٨٥ إلى القاهرة، وبقيت تنقل إلى العالم الناطق بالعربية آخر ما توصل إليه العلم في الغرب بجميع فروعه ستة وسبعين عاماً. وأغنى صروف اللغة بترجماته الرياضية والفلسفية، كما قدم صديقه الدكتور شبلي شميل١٨٦٠-١٩١٧ الطبيب اللبناني الشهير بترجماته الرياضية والفلسفية وكثير غيرهم. وقد حاولت جهدي أن أعثر على نظائر لهؤلاء الذين ذكرتهم في العالم الإسلامي الناطق بالعربية فما وجدت. وأقول هذا بكل أسف - من يرقى إلى مقام من ذكرتهم ولا يمكن أن يبلغ منهم مستوى التأثير الذي أحدثوه في النهوض باللغة والفكر العربيين. وكل ما وجدته من مشاهير محليين صحافيين كأحمد الحلبي (١٨٧٤-١٩٢٤) صاحب جريدة (لسان الشرق) وشهيد عاليه أحمد طبارة (١٨٧١-١٩١٦) صاحب جريدة (الاتحاد العثماني) وزميله عبدالغني العريس (١٨٩١-١٩١٦) صاحب جريدة (فتى العرب).

فيم التعلل بالآمال تخدعكم؟ وأنتمُ بين راحات القنا سَلَب
كم تطاعون ولستم تشتكون وكم تستغضبون فلا يبدو لكم غضب؟
بالله (يا قومنا) هبوا كشأنكم فكم تناديكم الأشعار والخُطَب

الشيخ إبراهيم كما ترى لا يعرف له قوماً غير العرب.

والتفّ حول (جرجي زيدان) ودار نشره جمهرة من الكتاب والأدباء الذين لمعت أسماؤهم فيما بعد في عالم الأدب والفن، ليجعلوا هم والرواد الأوائل لغة العرب أداة جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ضد الاستعمار العثماني والإستقلال القومي بغض النظر عن نسبة الدم العربي الذي يجري في عروقهم، أو تفكير في نجادهم وأصولهم العرقية.

لا يحضرني لغة أخرى كاللغة العربية كان لها الدور الجوهري على الوعي القومي والحركات القومية التحررية لشعوب أخرى، فلم تكن اللغة الفرنسية قط عاملاً من عوامل الوعي القومي الفرنسي الذي عقب ثورة العام ١٧٨٩، وكذلك لم يكن للغة الإنكليزية علاقة روحية بثورة الاستقلال الأمريكي. بالنسبة لعصر التحرر الذي مرت به البلاد الناطقة بالعربية، كان لماضيها التاريخي قوة هائلة تبدو اليوم من طموح القوميين الناطقين بها إلى المحافظة على التفاهم المتبادل ومحاولة الخروج من دائرة اللهجات المحلية، زاد في عمله الإدراك القومي صقلاً وبريقاً. وإذا كان الهدف هو الوحدة الفكرية وتلك أول مرحلة من مراحل التحرر والاستقلال، فاللغة وحدها لا يمكن أن تكفي لإثبات الهوية القومية، وإن كانت الحماسة وقلة الفطنة تدفع بعض القوميين العرب أو المستعمرين إلى جعلها حجر الزاوية في إثبات الهوية العرقية، والخطأ الأكبر هنا هو تفسير الفخر والاعتزاز الذي يكنّه العربي والمستعرب بتاريخهما الماضي الذي كان يمكن أن تنقطع صلتهما به لو رفضا لغة الأدب الكلاسي. لقد بقيت لغة القرون الوسطى رغم المستنقع الذي هوت فيه غنية مرنة تتقبل كما تقبلت في العصر الأسبق ألفاظاً وتعابير جديدة لتبدو في مطلع القرن التاسع عشر مستعدة لتلبية متطلبات القرن العشرين، وبقي القاسم المشترك الأعظم الفصيح منها لغة القرآن. لا ينكر أن الوجود العملي de facto للغة العرب في شمال أفريقيا والشرق الأدنى قد برر إلى حد كبير استخدام تعبير (الأمة العربية)، وارتقى بهذه الأمصار إلى اتحادها تحت هذا العنوان، رغم غموضه التكنولوجي ورغم فروق لا تحصى بين جماهير هذه (الأمة) طبقياً وسياسياً وجغرافياً واقتصادياً بل وأهدافاً وطموحاً.

في حكم الإسلام فقدت الشعوب العظيمة العريقة المستقرة في الشرق الأدنى

هويتها تقريباً، ووجد الأبناء المنحدرون بايولوجياً منها أنهم يتخلون عن لغاتهم الأم (أو يحتفظون بها في الخفاء) وليغدو معظمهم مسلمين ينطقون باللغة العربية ويتحمسون لها. إلاّ أن الشعوب التي سكنت عقدة جبال الشرق الأدنى الشمالية واعتنق بعضها الإسلام مع من اعتنقه، بقيت تحافظ بعناد على لغاتها الأصلية كلغات تفاهم محلية أو لغة مجتمع كامل أو لغة دين.

في قاع الانقلاب أو الثورة التي حصلت في القرن التاسع الميلادي وحولت الشرق الأدنى إلى مجتمع تجاري (مجتمع سوق) وصناعي بيروقراطي، ووقت أن كان الغرب مدفوناً في قاع المجتمع الفلاحي الذي يحكمه نبلاء وفرسان وأمراء إقطاع، كانت اللغة العربية حلقة الوصل التي لا يستغني عنها هذا المجتمع الهائل باتساعه السكاني والأرضي. فقد أصبحت منذ بدء القرن العاشر حتى نهاية القرن الثالث عشر لغة الأساس لا للعرب والمستعمرين وحدهم بل كذلك لتلكم العناصر العرقية والقومية الباقية، وبضمنهم البربر في شمال افريقيا والأقباط المصريون والفينيقيون اللبنانيون، حتى اليهود الذين استخدموها لكل شيء إلاّ في صلواتهم الدينية. ومفهوم (شعب عربي) أو (أمة عربية) إن تسامحنا به على أساس اللغة المشتركة، فإنه لم يظهر إلى الوجود إلاّ في أثناء الحرب العالمية الأولى وعند قيام (الشريف حسين بن علي) على الحكم العثماني بما وصف فيما بعد بالثورة العربية الكبرى، وقبل ذلك لم يكن هناك دولة واحدة مستقلة تستخدم اللغة العربية كلغة رسمية. ومع أن هناك اثنتين وعشرين دولة مستقلة حالياً تعتبر اللغة العربية لغة رسمية لها، فإن قول (ابن خلدون) في هذه الرقعة المترامية من سطح الكرة الأرضية ما زال يصدق ويرن صداه فيها، وبينه وبينها ستة قرون:

«وهي (أي لغة العرب) مع أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر ولكنها مع ذلك تختلف باختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم. فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معها وكل منهم متواصل بلغته إلى تأدية مقصوده والإبانة عما في نفسه وأما أنها أبعد عن اللسان الأول من لغة هذا الجيل فلأن البعد عن ذلك اللسان إنما هو مخالطة العجمة. فمن خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الأصلي أبعد، أما أفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم فغلبت العجمة فيها على اللسان العربي الذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب لما ذكرناه، فهي عن اللسان الأول أبعد، وكذا المشرق لما غلب العرب على

أممه من فارس والترك، فخالطوهم وتداولت بينهم لغتهم في الأكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا زرايات وإطارا ومراضع، ففسدت لغاتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى. وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والإفرنجة. وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف مضر وتخالف أيضاً بعضهم كما نذكره وكأنه لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم».

فالعربية اليوم شاء القوميون أم أبوا هي كاللغة الإنكليزية أو الفرنسية أو الاسبانية أو الألمانية، فالايقوسي أو الايرلندي لا يصير إنكليزياً لأنه يتكلم الإنكليزية، كذلك الهندي والأمريكي وعلى هذا قس الإنكا والأزتيك وغيرهم من سكان أمريكا الجنوبية، فهم لا يصبحون إسپاناً بمجرد استخدامهم الإسپانية والسنغالي والكونغوي لا يغدو فرنسياً رغم كل فصاحة لسانه الفرنسي ولو سكن فرنسا عمره.

وللتفاهم لم يكن ثمة بد والحالة هذه من اللجوء إلى العربية الفصحى أو ما هو قريب منها وهي لغة الكتب والكتابة ولا أقول لغة الخطابة، فأنت اليوم لا تجد ذلك الخطيب على السليقة الذي يخلو كلامه من اللحن والخطأ. إلاّ في الجوامع والمساجد وبعض الكنائس غالباً، أما أن تحاول العثور على صنو لـ(واصل بن عطاء)[٤٠] فدونك ودون ذلك خرط القتاد.

وبعكس ذلك فالإنكليزي والفرنسي والإسپاني يستخدم لغة الكتابة والكتب في كلامه الاعتيادي فلا يلحن ولا يخطئ. والعربية الفصحى نفسها فأنت لا تقدر على استخدامها بنجاح تام إلاّ مع من أصاب قدراً جيداً من التعلم، وقد يغلق أمكرها على رجل الشارع الامي في أي بلد من البلاد الناطقة بالعربية، مثلما تغلق عليه لهجة عربية غريبة عن مواطنه. ولا أريد إشغال القارئ بالأمثلة والواقع هو هذا.

وبعدما ذكرت وأطلت في بيان الأسانيد على عالمية اللغة العربية، أجد الوقت قد أزف لأضع القارئ أمام آراء بعض دعاة القومية العربية، ولا أقول القوميون العرب

---

(٤٠) أبو حذيفة، ويلقب بالغزال (٦٩٩-٧٤٨). إمام المعتزلة وأعظم مفكريها من أهل المدينة. عاش في البصرة كان يلثغ لثغاً قبيحاً بحرف الراء فيتجنب في خطبه وأحاديثه كل كلمة فيها هذا الحرف، فلا تشعر بغيابها، وهو دليل على سعة هذه اللغة. وفي هذا يقول الشاعر:

ويجعل (البر) (قمحا) في تصرفه   وخالف (الراء) حتى احتال للشعر
ولم يطق (مطرا) والقول يعجله   فعاذ (بالغيث) إشفاقاً من المطر

هؤلاء الذين ارتكزوا في إثبات الهوية العربية على اللغة، ليحكم بنفسه على مدى صحة هذا الحكم القاطع أو علة غلوه أو بعده عن الواقع. فهذا هو المفكر القومي الأستاذ (ساطع الحصري) يقول:

«إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم اللغة العربية هو عربي ومهما كان أصله ونسبه، وسواء أكان مسلماً أو مسيحياً وسواء أكان سنياً أم جعفرياً أم درزياً وسواء أكان كاثوليكياً أو بروتستانتياً فهو من أبناء العروبة»[٤١].

* * *

إلى أين سيؤدي تعريف للقومية العربية كهذا الذي وضعه الاستاذ الحصري، تعريف قاطع جازم كأنه زرد محكم النسج لا تنفذ منه قطرة ماء أو تخترقه إبرة أو يخترقه ضياء. كم من دعاة القومية العربية ومفكريها يتفق في تعريفه هذا؟

هناك مئات الألوف من الكُرد والمسيحيين (آشوريين، كلداناً، سرياناً، أقباطاً، مارونيين) والبربر لا ترى غالبيتهم وجهاً أو مبرراً لمحاولة ربطهم بالعروبة والقومية العربية لأنهم لا يعرفون غير العربية لساناً - إما بتعريف أو بقوة قانون أو بأمر حكومي أو بمقالات وأبحاث علمية[٤٢].

في القرن التاسع عشر كاد يحتكر التجديد اللغوي في العالم العربي عناصر لم تدّع بالعروبة أو بالقومية العربية في سورية ولبنان، والقول يصدق على الإنتلجنسيا المصرية من أدباء وشعراء، فهم إما مسلمون أولاً ومصريون ثانياً وإما مصريون أولاً وأخيراً.

---

(٤١) الحصري: أبحاث مختارة في القومية العربية، ص١٥٧. لا أرى لي مندوحة من الإشارة هنا إلى ثلاثة أخطاء لغوية مكررة في هذه الفقرة الصغيرة: فقوله (سواء أكان) هو تعبير ينكره عليه اللغويون. والصحيح هو أن يقال: (وسواء في الأمر أكان) أو أن يؤتى بالفعل مع حرف السؤال منفرداً دون ان يُسبق بكلمة (سواء).

(٤٢) من ذلك ما جرى في إحصاء النفوس العام لسكان العراق في العام ١٩٧٧. فقد فُرض على الآشوريين والمسيحيين عامة أن يختاروا بين القوميتين العربية والكردية. وإن أصرّ أحدهم على إثبات قوميته شطب المسجل الرسمي ذلك واعتاض عنه بتسجيل واحدة من القوميتين (الرسميتين). ففي مناطق بغداد والجنوب كان الآشوري يخير بين القومية العربية أو الكردية. وفي الشمال كان يفرض عليه أن يكتب (عربي). وهذا ما حصل في الإحصاءات اللاحقة. والعجيب في الأمر أن الحكومة، وهي حكومة حزب قومي عربي كانت قبلها بخمس سنوات (في نيسان ١٩٧٢) قد أصدرت قانوناً بـ(منح الحقوق الثقافية للمواطنين الناطقين باللغة السريانية من الآشوريين والكلدان والسريان) معترفة لهم بقومية وتراث قومي بمثل هذه الصراحة!

بهذا الشكل بدت اللغة عند العاطفيين المتحمسين قومياً، فهي صلة الوصل الوثيقة وحبل الوتين الذي يشد كل السكان الذين ينطقون بها إلى القومية العربية، وبالماضي العربي وبالإسلام قد يبدو لهم كافياً أن يقوم أصل إثنوغرافي مشترك، يغرس شعوراً بالهوية الواحدة عند مختلف المجتمعات الناطقة بالعربية. فالإسلام باللغة العربية وهو غرسة عربية بحتة بدا عنده للنظريين القوميين العرب سهلاً قولهم بأن هذين العاملين المترابطين، أنشأ في كل مجتمع مسّه واقتبله عقدةً من المشاعر الواحدة والقيم المشابهة، ارتفعت فوق الفروق المعتادة التي أملتها العوامل الجغرافية والمناخية والاجتماعية والعرقية التقاليدية والماضي الأبعد من الإسلام وغيرها وغيرها.

إنك لا تجد بل لم يوجد أدب حجازي أو عراقي أو سوري أو مصري، فأي شيء ما يكتب أو ينظم بالعربية يمكن أن يدعيه كل الناطقين بالعربية أينما كانوا. وبتصاعد أهمية اللغة في تبني العواطف والنزعات والمشاعر المتصلة بالقومية، كان التفاعل بين القومية والإسلام يتضمن كتحصيل حاصل إعطاء القرآن دوراً خاصاً في حقبة كادت النصرانية تكتسح العالم وتغدو سيدة الميدان دون سيادة فيه للغة معينة. صحيح أن العلمانية وجدت سبيلاً لها للنفوذ إلى المجتمع الإسلامي الذي أرخى قبضته التي تشد على خناق الخيال الديني. إلاّ أن الإسلام مع هذا كان وسيبقى الأساس في وحدة ما للعالم الإسلامي، مثلما سيبقى سنداً لا يمكن الاستغناء عنه يخفر العامل اللغوي الذي يتمسك به النظريون القوميون العرب للاهتداء إلى الهوية وتشخيصها، مهما حاولوا إخفاءه أو التجاوز عنه، وهي نقطة ضعف في دعوتهم تقض مضجع التقدميين منهم.

ما من شك هناك في أن نفوذ القرآن المطلق هو الذي حمى اللغة العربية وصانها وبالخصوص من خطر قيام لهجة مخاطبة عامة بديلة عن العربية الفصحى، تماماً مثلما قضت لغة القرآن (لغة مضر) على اللغات العربية الأخرى. وإذا كان تأثير القرآن على الأدب والكتابة قليلاً بسبب من أسلوبه الفريد الذي لا يمكن احتذاؤه، فقد بقي نموذجاً ومرجعاً لكل ما يكتب بالعربية والسند الذي يدعم اللغة الكلاسية[٤٣]. وكان تأثيره شبه

(٤٣) أجد بعض الكتاب العرب يعمدون إلى إثبات كلمتي (رومانتيك وكلاسيك Classič Romantic) الأجنبيتين بإضافة ياء النسبة العربية هكذا (رومانتيكي وكلاسيكي) بينما أداة الإضافة الإنكليزية (ic) والفرنسية (que) وغيرها تقابل أداة النسبة العربية. فبقولنا كلاسيكي إنما نجعل الكلمة تحمل أداتي نسبة، والصحيح في نظري أن نقول كلاسي بدلاً من كلاسيكي.

السياسي عميقاً جداً في إنشاء رابطة كلامية موحدة داخل منطقة هائلة الجرم. ولولا رابطة هذا الكتاب المقدس وعربيته الفصحى لحفلت هذه المنطقة برطانات لغات غير مفهومة. أو بالأقل لبعدت شقة الفروق بين لهجات العربية السائدة اليوم إلى درجة أكثر بكثير مما نجدها اليوم. كان هذا الكتاب المقدس الوسيلة الفعالة للمحافظة على الوحدة اللغوية، والقوميون العرب لا يستطيعون اليوم أن يتخلصوا مما يجره على دعوتهم. وتبعاً لذلك أن الذي حصل في القرون الوسيطة هو أن العربية الكلاسية خدمت كأساس متفاوت التأثير والاتجاهات الأدبية والسياسية، حتى آلت إلى تطورها لتغدو لغة الأدب الحديث ولغة الصحافة، وهما أعظم وسيطين للصلة الجماعية الفكرية.

ومع أن القرآن كان أرفع وأسمى من التداول والاستعمال اليومي يخفيه دخان كثيف من الاحترام والقدسية عن الاهتمام الاعتيادي، فقد بقي أساساً للثقافة والتعليم في البلاد الناطقة بالعربية ابتداءً من المدرسة المحافظة وانتهاءً بالمدارس اليسارية التقدمية، وإنك لتجد دراسة النصوص القرآنية تحتل موضعاً دائماً في مناهجها التعليمية.

واستتبع ذلك أن يكون هذا الكتاب واحداً من الرموز التي يتمسك بها متناقلو الأسطورة القومية السائدة في يومنا هذا. وهي أن بروز اللغة العربية كلغة عالمية عالية المقام في القرون السحيقة الماضية هو نوع من المعجزة بحد ذاتها ولذاتها، إذن فكل شخص تلقّى علومه بالعربية هو وارث شرعي لذلك التراث الضخم المتراكم من فترات رائعة للجهد اللغوي الخلاق الذي غطى هذه المنطقة المترامية منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً.

ويعزز هذا التراث قدر كبير جداً لم تملكه لغة أخرى من منتوج الأدب والفن والتاريخ الرفيع ما زالت المطابع منشغلة به، أقبل عليه أدباء وصحافيون ومثقفون ونهلوا من معينه وأقاموا بواسطته النهضة الأدبية الحالية ومنحهم الوسيلة والإدراك والأسلوب لنقل مشاعر الوحدة الثقافية. ويجد دعاة القومية العربية والإنتلجنسيا العربية من السهل عليهم أن يقفزوا فوق القرون العشرة، التي بدأ بها انسحاب البدو العرب إلى صحرائهم، تاركين لغتهم لمجتمع كوزموپوليتي مصممين رغم انسحابهم التراث الفريد لأجدادهم العرب الأقحاح.

في أحيان كثيرة لم يكن هذا مفيداً للدعوة القومية. ففي الجو الخيالي الحافل برؤى الأمجاد التليد والماضي ينزلق كثير منهم ليتخذ منه قدوة وأحياناً نقطة شروع، وفي أكثر الأحيان بمثابة مشعل ينير لهم سبيلهم إلى الوعي القومي والتكتل القومي.

وتلك هي مخاطر تعرضت لها الدعوة القومية العربية، فأوغلت فيها وأوقعت أهلها في مآزق وأحياناً أدت بهم إلى مآس، بل وأورثتهم هموماً أبعدتهم كثيراً عن تلك الروح القومية الليبرالية التي عطرت أواخر القرن الثامن عشر والقرن الذي تلاه، وقربتهم من نوع آخر من الاتجاه القومي السيّئ العقبى. قومية العنف والتعصب والتنكر للقوميات الأخرى ومحاولة صهرها وابتلاعها.

* * *

كانت اللغة مستعدة تمام الاستعداد للنهوض بهذه المهمة التاريخية العظيمة مهمة التقارب القومي وزرع بذور التحالف بسبب المصالح المشتركة. كانت عاملاً فاعلاً بيسرها ومرونتها وبمقدرتها الاستيعابية على اقتبال الأفكار الغربية وعلومها وكل نتاج عصر النهضة الأوروبية بجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لتكون بالأخير أداة فعالة وعاملاً جليل الشأن من عوامل اليقظة القومية والتحرر السياسي.

الفصل السادس

المصطلحات القومية. وصولها إلى المجتمع العراقي في ١٩٢٠. نموها إلى جانب الاتجاه الوطني. حوربت القومية من جانب اليسار والاشتراكية. اتهامها بالرجعية. ملاحقة القوميين. الولاء للدولة العلمانية. حداثة فكرة الدولة القومية. البيوريتان، الرواقيون، المصلحون الدينيون. كالڤن، جون ملتون، توماس جفرسن، توم پين، جان جاك روسو، كارليل. تعريف الليبرالية. أبو الوحدة الإيطالية (يوسيپي ماتزيني) حياته، كفاحه القومي الديمقراطي الإنساني. استعراض اتجاهات المفكرين الإنكليز والروس والألمان: جورج إليوت، أنتوني ترولوف، چارلس ديكنز، شوبنهاور، نيتشه، فيخته، ريشارد ڤاكنر، كروپوتكين، فيورباخ پليخانوف وغيرهم. الدولية الثانية ١٨٩٦. الاشتراكية تتبنى مبدأ حق تقرير المصير كما ورد في الدستورين الأمريكي والفرنسي الثوريين. الحكومات الاشتراكية المستحدثة تجاهلته وازدرت به. الماركسية والقومية. الماركسية تنكر قيام دولة على أساس قومي باعتبارها مخالفة للنظرية التي تهدف أساساً إلى بناء دولة العمال. التذبذب أخيراً بين دولة للعمال ودولة قومية (بين الشيوعية والقومية). دول مستقلة في آسيا وافريقيا بعد الحرب العظمى. عصبة الأمم ثم الأمم المتحدة. الأعضاء من الدول الناطقة بالعربية. الحرب العظمى الأولى وفرض الانتداب على بعضها. نهاية الانتداب. طبيعة الإنسان العربي بمنظار غربي.

بدءاً من العام ١٩٢٠ وهو عام تأسيس الدولة العراقية راحت تعابير الأمة العربية، العرب، الوحدة العربية، العروبة، الجامعة العربية، القومية العربية تتسلّك إلى الأفواه وآثار الكتّاب والصحافة وشعر الشعراء ببعض حياء وخفر في أرجاء العالم الناطق بالعربية وبمقادير متفاوتة دون أن تحاول منافسة نعت آخر رائج ذي شأن خطير يكاد يحتل المشهد برمته، وأقصد به لفظ (وطنية ووطني ووطن)[١].

---

(١) كما تقدم ذكره، الوطن في اللغة هو المنزل، وقد استعلمت مجازاً. والقومية من المقام أو =

كان قبل ذلك في سورية ولبنان قبل العراق. مثلما كان في مصر بدءاً من أواخر القرن التاسع عشر. وببدء الظهور القومي زحف تعبيرا (الوطن العربي) و(الوطن العربي الكبير).

وكلمة القومية ونسبتها (قومي) ذات معنى مستحدث في لغة القاموس السياسي العربي وهي تقابل لفظتي Nationalist, Nationalism في اللغات الأوروبية باختلاف تصويرها كتابةً عند كلّ. في الوقت عينه فكلمة وطنية ووطني Patriotism, Patriot بأشكالها كافة عند تلك اللغات تعني الغيرة على الوطن والتمسك به، ويلاحظ أن الفرق في العربية بالمدلول أظهر.

في أيام حكم (قاسم) اتخذت كلمة قومي صفةً كريهة وتهمةً يرمي اليسار بها معارضي الحكم ودعاة الوحدة العربية وبعض الرجعيين، ووضعت مقابل (وطني) ليُنعت بها من يراد إبعاد الشبهة عنه ولتعني بلغة السياسة في ذلك الحين أن الشخص لا غبار على خطه السياسي عموماً، واستخدمت لفظة (ديمقراطي) إلى جانب (وطني) أو بديلاً، عندما ترتفع أهمية المنعوت بالإشارة إلى أنه عضو في الحزب الشيوعي أو مؤيد أو نصير.

وعلى هذا الأساس انقسمت أحياء برمتها في معظم المدن والبلدات والقرى الكبيرة، فما استظهر فيها من هذه الفئة أو تلك سميت بالمنطقة أو المحلة القومية أو الوطنية تبعاً. وقعت اشتباكات دموية أحياناً بين تلك الأحياء أدت إلى سقوط آحاد قتلى من الجانبين. وزُجّ كثير من (القوميين) في المعتقلات والسجون وعذبوا لاسيما إثر فشل محاولة العقيد الشواف الانقلابية(٢). ثم دارت الدورة على (الوطنيين) وكانت

= محل الإقامة. والقوم هم الجماعة من الرجال بأي عدد متصور، وكذلك قوم الرجل هم أقرباؤه الذين يجمعهم معه جد واحد أو انتساب واحد، وهكذا وردت في القرآن: (قوم نوح، قوم عيسى، قوم ابراهيم) الخ. ووردت بنَفَس أكثر عمومية: (القوم الظالمون) (القوم الكافرون) (القوم الصالحون).

(٢) أذكر بعدها (صيد السحرة Witch hunt) كما يقال: يجري على قدم وساق ضد القوميين وأنا مار في شارع، وكان ثمّ شاب يافع يحمل عدداً من الإيقونات الصغيرة عليها صورة لعبدالكريم قاسم، يعرض بضاعته هذه على المارة منادياً (عبدالكريم قاسم بعشرة أفلس، عبدالكريم قاسم بعشرة أفلس). واتفق أن اعترض ماراً آخر مقدماً له واحدة من إيقوناته، ويظهر أن هذا المستطرق كان سريع البديهية حاضر النكتة، إذ ابتدر البائع الجوّال وهو يربت على كتفه (أي نعم عزيزي هالقدر يسوي!). وإذذاك صاح البائع: هذا قومي خائن! مستنتجاً طبعاً بأن إهانة =

العاصفة الدموية الهوجاء والطامة الكبرى في أيام شباط ١٩٦٣، باستظهار القوميين وإزالة حكم قاسم لتغدو لفظة (وطني) معادلة لكلمة (ديمقراطي وقاسمي) وهي أكثر من شبهة وتهمة بل جناية قُتل بسببها مئات وعذب واعتُقل وسُجن أكثر من مائة ألف بكثير(٣).

إنها حالة عقلية يشعر فيها الفرد وبسببها بأن كل شيء في وجوده يعود الفضل فيه إلى ولائه علمانياً للدولة التي يحمل جنسيتها. والمقصود بالدولة القومية الدولة الحديثة التي تتألف من شعب يختلف عن شعب دولة أخرى. والقومية Nationalism هي في الواقع حركة حديثة. ففي مراحل التاريخ الغابرة كان الفرد مرتبطاً بأرضه حيث وجد أبوه وأجداده وأسرته وقبيلته واستقروا، أي مسقط رأسه، ولذلك كان من جهة أخرى مرتبطاً بتراث أسلافه وتقاليدهم وبالسلطة القائمة الفعلية.

لا ندري كم من القرون مرت على هذه (الحالة العقلية) لكن ومما اجتمع لدينا من تاريخ علاقات البشر وبنتيجة فحص دقيق له، وجدنا أن قيام الديانات التوحيدية الثلاث كل بدوره لم يؤثر كثيراً في هذه الحالة العقلية بصورة عامة. لكن ما أشرف القرن الثامن عشر الميلادي على نهايته حتى بدت القومية شعوراً معترفاً به وبقابليته على صياغة الحياة العامة والخاصة، وبأنها واحد من أعظم العوامل في تقرير وقائع التاريخ الحديث، إن لم يكن أعظمها طرّاً. وبسبب حيويتها الدينامية ولطبيعتها الشمولية كثيراً ما ظُن بأن الفكرة القومية قديمة وليست حديثة، وأنها صاحبة (رسالة خالدة) فعلاً. ما أشرف العقد السابع من القرن الثامن عشر على ختامه حتى راح المؤرخون والمفكرون يقرّون في ما يكتبون بأن هذا الشعور الانتمائي هو الأصل في بناء حياة الإنسان.

هناك اتفاق كاد يكون عاماً عند الباحثين وعلماء التاريخ الاجتماعي بأن أول تجلّ عملي لهذا الشعور كان في الثورة الأمريكية وبعدها في الثورة الفرنسية. بعد هذا سرى الشعور القومي الجديد متوغلاً في مجتمعات أمريكا اللاتينية، ثم انثنت ريحه لتلفح

= (قاسم) المقصودة لا تصدر عن غير قومي. واجتمع الناس عليهما وفي الموصل الناس يكادون يعرفون بعضهم بعضاً. فهذا يشهد على أنه وطني والآخر يريد أن تأخذ العدالة مجراها، وحسم الموقف شيوعي بارز صديق للمشبوه.

(٣) المجموعة الإحصائية السنوية الرسمية التي صدرت عن دائرة الإحصاء المركزية للعام ١٩٦٤ تثبت عدد المعتقلين المشبوهين أو المتهمين بالوطنية والديمقراطية بأكثر من مائة وعشرين ألفاً للعام ١٩٦٣. [انظر كتبنا: إسقاط الحكم لا يكون بهذا. الطبعة الثالثة، ١٩٩١ ستوكهولم].

وجوه شعوب أواسط أوروبا في أوائل القرن التاسع عشر، وانداحت في حدود نهاية نصفه إلى شرق وجنوب شرقها. وما جاء القرن العشرون حتى أخرجت نبتاتُها شطأها في أرض آسيا القديمة وأفريقيا.

القرن التاسع عشر هو عصر القومية في أوروپا بلا جدال، والقرن العشرون شهد قيام الحركات القومية في كل من آسيا وأفريقيا وتابع نضالها. وعلى ضوء السياسة العالمية لا يمكن فهم الفكرة القومية إلاّ بالتعرف على الدولة أو المملكة والشعب كواحد، وبعبارة أخرى تحديد مدى إقامة الدولة على مبدأ الانتماء العرقي المفرد. وفي أول انتشار النزعة القومية رأى دعاتها عموماً وجوب احتواء الدولة على كل فرد ينتمي إلى صبغتها القومية، وهو أمر غير مسبوق في التاريخ قبلاً. ففي الماضي لم تكن البلاد الخاضعة لحكومة أو سلطة واحدة لتُعرف بقومية أو عنصر بشري معين. ولم يكن المحكومون أو الرعايا يمحضون ولاءهم على أساس دولة قومية، بل كانوا يخضعون لأنماط مختلفة أخرى من النظم السياسية لا تمت بأية صلة لطابع قومي.

كان ثمّة أشكال شتى من الحكومات والدول: إمبراطوريات متعددة الأقوام. دولة المدينة City State والإقطاع والإمارة، والمملكة التي تقوم على رأسها أسرة، والدولة التي تحكمها مجموعة دينية، أو طائفة. . . الخ.

والواقع هو أن الدولة القومية ما كان لها وجود قبل هذا في تاريخ البشر. وفي تلك الدول التي سبقت عصر القومية لم يكن الفلاسفة وعلماء الاجتماع، ولا اقول الناس العاديون، ينظرون إليها كمثل أعلى أو مطمح، فقد تقدمتها مطامح أخرى. فمثلاً في ٣١٣م، عندما أصبحت المسيحية ديناً حراً معترفاً به رسمياً في أكبر وأعظم إمبراطورية، بدا آنذاك وخلال أربعة عشر قرناً تالية وكأن هناك مطمحاً خيالياً أعلى في قيام دولة عالمية جامعة، تنكر أي ولاء لغيرها أو لأي وحدة سياسية لا تنتمي إليها. وإلى حد ما كان هذا مطمح الإسلام وهو في أوج قوته. وفي القرن السابع عشر وُجد عدد من الكتاب يلهجون بإقامة ما دعوه (الجمهورية المسيحية Repoblic Christiana) كذلك كان مطمح الإسلام.

ليكن معلوماً أيضاً أن الولاء السياسي قبل عصر القوميات لم يتقرر على الأصل العرقي، ولذلك لم يكن التقدم الحضاري يُنظر إليه بوصفه حصيلة قومية، أو تراثاً مختصاً بشعب أو أمة معينة دون سواها. ففي القرون الوسيطة كان الولاء مبنياً على أسس دينية أو ناشئاً عنها. فقد كانت هناك حضارة واحدة لكل القوميات في الدين

الواحد. هناك حضارة مسيحية، وهناك حضارة إسلامية، في الأولى كانت تتولاها لغة واحدة هي اليونانية ثم اللاتينية، وفي الثانية كانت هناك أيضاً لغة واحدة هي الآرامية ثم العربية. وهي لغات أقوام آخرين غير اليونان أو الرومان والآراميين والعرب. والقاسم المشترك الذي اجتمع لهذين المحفلين البشريين هو حضارة كلّ، أي ما نقلته تلكم اللغات من عوامل التقدم. فاللغة هي وسيلة لنقل الأفكار لا مصدراً لها أو منبعاً.

في عصر النهضة Renaissanse، وهو العصر الذي تقدم العصر الحديث مبتدئاً بالقرن الثامن ومنتهياً على وجه التقريب بختام القرن الرابع عشر، كانت المدنية اليونانية والرومانية وآثارهما الفكرية قبلة الغرب وهي عُملةٌ سعرها ثابت عند الأوروبيين في كل وقت. وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن الذي تلاه حلّت المدنية الفرنسية محل هاتين وناسبت الإنتلجنسيا والمتعلمين من كل الجنسيات والقوميات، وفيه تحددت وتقررت بظهور القومية ووضع مبدأ جديد لم يكن معروفاً من قبل، وهو أن الفرد لا يمكن أن ينمي مداركه ويبني ثقافته إلاّ بلغته لا بلغة أخرى أو تراث آخر أو زمان غير ذلك الزمان. والأمر سواء أكانت هذه اللغة قديمة أو ناقلة تراثاً أدبياً لقوم آخرين بلغوا درجة كبيرة من الرقي.

وهكذا صارت قومية الثقافة وأساليب الحياة العامة تماشي خطوةً خطوةً قوميات الدول والولاءات السياسية إذ بدأ الأدباء كتّاباً وشعراء مع جمهرة من الفلاسفة والمفكرين والباحثين يبرزون القومية الثقافية ليدخلوا دماء جديدة كل إلى لغته الخاصة. فيرتقون بلغة الادب والعلم إلى أعلى المستويات وينفذون إلى أغوار الماضي القومي ما طاب لهم. وبهذا وذاك أقاموا الأسس للادعاء السياسي بالدولة القومية. هؤلاء الدعاة للدولة الجديدة لم يظهروا فجأة ليملأوا صفحة في التاريخ البشري. فقد كان ثمة دلائل على وجود مشاعر قومية مستوفزة عند مجتمعات مخصوصة في ظروف زمانية ومكانية معينة، لاسيما في ظروف الأزمات والشدة، أو وقت أن يضطر مجتمع متجانس إلى خوض صراع مع مجتمع آخر. وشجع تعاظم الشعور القومي وصعوده إلى مرتبة الأهمية السياسية الكبيرة عوامل عدة معقدة، منها قيام دول مركزية كبيرة المساحة كثيفة السكان يسوسها حكام وملوك ذوو صلاحيات مطلقة نجحوا في تحطيم الولاء الإقطاعي القديم.

ومن تلك العوامل الطارئة، علمانية الحياة والتعليم وخروجه على رقابة السلطة

الدينية واحتكارها، ومنها ارتقاء عملية الإنتاج الزراعي والاقتصادي وانتقاله من الفردية إلى الجماعية. كل هذا وغيره شد من أواصر العلاقات الحيوية وارتقى باللغات المحلية الدارجة وأضعف الروابط مع الكنيسة وأعمل هدماً بالانتماءات الطائفية.

ومن العوامل أيضاً اتساع نطاق التبادل التجاري الذي كان يتطلب لنفسه بطبيعة الحال مجالاً رحباً، أي وحدات إقليمية واسعة تفسح لدينامية الطبقات الوسطى النامية ولمشاريعها ذات الطابع الراسمالي وتؤمن لها الحركة والحرية الضروريتين. هذه الوحدات الإقليمية الكبيرة، أو الدول الموحدة الكبيرة مساحة وسكاناً التي طلع عليها فجر القرن الثامن عشر، بمركزيتها السياسية والاقتصادية، وجدناها مطعمةً بروح وثابة، بنوع من الحماسة واليقظة العاطفية شبيهة بعاطفية وحماسة الحركات الدينية في الماضي. وفي أجوائها بدأ الكتاب الاجتماعيون والفلاسفة يذيعون آراء جديدة ويطرحون نظريات حول حقوق الإنسان وسيادة الشعب. فرأينا الشعب أو الأمة بتأثيرها يحل بالتدريج محل الملك أو الحاكم بمثابة بؤرة ومركز للوطن الواحد. ولم يعد الملك يُنظر إليه بأنه الدولة أو الشعب. وأضحت الدولة دولة شعب، دولة قوم، دولة الوطن الأم فسميت الدولة باسم الشعب وعرفت مدنية قوم أو شعب بمدنية قومية.

تطور كهذا خالف في مسراه المفهوم الذي ساد الفكر السياسي عشرين قرناً خلت، فعلى ضوء الشرائع الدينية وغير الدينية كان (الإنسان) يمثل الكون والعالم[٤]، كما كان ينظر إلى نوع من الوحدة البشرية نظرة طوبائية، نظرة رغبة طاغية وهدف سام تطمح النفوس إليهما. وانقلبت الآية إذ صارت الفكرة القومية تؤكد الخصوصيات الفردية ومحدوديتها، والاختلافات فيها، وتشدد على الشخصية القومية، وأخذت هذه الإتجاهات سبيلها إلى الوضوح تدريجاً باستقطاب النزعة القومية وتمركزها.

في مبدأ الأمر لم يكن وجه القومية السلبي أو بالأحرى طابعها الأقل جاذبية بدرجة كافية من الوضوح. كانت مقاييس مدنية الغرب التي سادت القرن الثامن عشر والقرن الذي سبقه لا تخرج عن النظر إلى الإنسان بوصفه كائناً عالمياً، ويتأتى من هذا الإيمان المطلق بالعقل وبأنه واحد ومتشابه في كل زمان ومكان، وأن بوسع هذا العقل البشري

---

(٤) تخرج هذه الأفكار بين آن وآخر في آثار الكتّاب وقصائد الشعراء حتى يومنا هذا، ويحضرني في هذا المقام بيت للشاعر السوري (عمر أبو ريشة) قوله مخاطباً الإنسان:

وتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

إدراك البديهيات والأوليات. وبلغ التأثير المسيحي والرواقي[٥] درجة من قوة التأثير بحيث حالت معه بين تطور الفكر القومي وبين النزعة القومية ونفوذها في المجتمع. بذلك اعتبرت النزعة القومية عند أول نشأتها واحدة من المعتقدات الكوزموپولتية، ووضعت في عين المستوى بكل ما صاحب ذلك من إطلاق العنان لحب البشرية جمعاء دون تفريق وهذا ما ظهر في غرب أوروپا وشمال أمريكا.

ذكرت فيما سبق شيئاً حول وجود مشاعر قومية قبل القرن الثامن عشر فاشية في مجتمعات بشرية. وقد رأى مَن تقدمني في التطرق إلى هذا الموضوع أن أول مظهر لها بالمفهوم الحديث تمثل في ثورة اليپوريتان[٦] في إنگلترا. في حينه كان الإنگليز طليعة الروح العلمية وبلادهم قائدة رائدة في عالم التجارة والفكر والزخم السياسي. وبنتيجة ذلك شاعت في أعطاف أفراد هذا الشعب ثقة عظيمة بالعصر الحديث حتى باتوا يشعرون وكأنهم يتحملون وحدهم حكم التاريخ ورسالتهم. كما تملكهم إحساس غلاب بأنهم موشكون على ولوج مرحلة انتقالية عظيمة تتولى زمام حركة إصلاح حقيقي، وأنهم على أبواب حرية من نمط لا عهد لهم بها من قبل. هذا ما كانت تفصح عنه كتابات مفكريهم وأدبائهم وشعرائهم بنهاية من الوضوح. في هذا الشعور (الثوري) الجديد كانت الإنسانية المتفائلة تتفاعل مع المبادئ الخلقية الكالڤينية[٧] التي ارتكزت

---

(٥) الرواقية (Stoicism) فلسفة تنسب إلى (زينو Zeno) من (أكتيوم) وجاء اسمها من (رواق Stoa) في أثينا حيث كان يعلم في حدود ٣٠٠ ق.م وهو يرى أن الإنسان يجب أن يلتزم الاستقامة في حياته وأن يتمسك بالفضيلة بوصفها خلقاً جيداً لا نظير له وأن ينسجم مع الطبيعة. والفاضل من الناس يجب أن يكون عدم مبالاته باللذة مساوياً لعدم اكتراثه بالألم والنكبات. وهو بهذا يرتفع فوق كل تصاريف القدر ويصل إلى مقام التحرر الروحاني والانسجام مع العقل الإلهي المسيطر على الطبيعة كافة.

(٦) ونسميهم (المطهرين) وهم فرقة پروتستانتية إصلاحية تهدف إلى إحلال أبسط نمط للعبادة وتتمسك بتعاليم الكتب المقدسة وحياة خاصة وعائلية طاهرة وإلغاء الكهنوت. كان معظم أتباعها من (الكالڤنيين) واستخدم الاسم الذي عرفوا به في العام ١٥٦٠م لإطلاقه على أولئك الذين سخطوا على التسوية الأليزابثية لكنيسة إنگلترا. وعلى إثر مؤتمر (هامبتن كورت) انفصلوا عن الكنيسة، فشن عليهم رئيس الأساقفة حرباً عنيفة أدت ببعضهم إلى الهجرة إلى أمريكا. هذه الحرب الأهلية الإنگليزية وتسمى أيضاً بـ(حرب اليپوريتان) أدت إلى ظهور طائفة المعمدانيين المسيحية الحالية، واستقر النازحون منهم في (نيو إنگلند) بأمريكا وعرفوا بشدة اهتمامهم بالثقافة والتعليم وديمقراطيتهما.

(٧) نسبة إلى المصلح الديني (جون كالڤن J. Calvin) (١٥٠٩-١٥٦٤) وهو لاهوتي فرنسي فرّ إلى =

على التعاليم التوراتية والتفاعل الذي صاغ القومية الجديدة، فما تعكس لنا آثار أهل الفكر والقلم في تلك الحقبة يقودنا إلى الاستنتاج أن الإنكليز بدأوا ينظرون أنفسهم كما ينظر شعب إسرائيل توراتياً إلى نفسه أي (شعب الله المختار).

رسالة علمانية إلهية لا عهد للبشرية والتاريخ بمثلها من قبل ليست قاصرة على القوم الذين يسكنون إنكلترا، بل هي موجهة لسائر الأقوام، عبّر عنها الشاعر (جون ملتون)[٨] في رؤياه الشهيرة.

رأى هذا الشاعر العبقري الضرير فكرة التحرر تنتشر من إنكلترا الشهيرة منذ عصور لا يُعلم مبدؤها وباعتبارها تربة لنمو الحرية أصلح من أية تربة أخرى، لتعم كل ركن في الأرض. فيقول:

«يخيل لي والجموع الحاشدة تكتنفني من كل جانب
بأني أنظر إلى أقوام الأرض وهي تستعيد
تلك الحرية التي افتقدتها زمناً طويلاً
وان شعب الجزيرة ينشر نعم الحرية في المدن والممالك والشعوب».

وعلى أساس من هذا بدت فكرة القومية الإنكليزية أقرب إلى نسج الدين وسداه ولحمته من الفكرة القومية، التي جاءت في أعقابها فاكتسحتها وأزاحتها عندما أحرزت العلمانية في الحياة المتطورة تقدماً دنيوياً وابتعدت عن المصادر الروحية وموحياتها.

عندما انبثقت فكرة القومية العربية - ولا بد لي من توجيه انتباه القارئ إلى هذا - بقيت رغم انتقالاتها المتطورة تعتمد على القيم الروحية الإسلامية البحتة ولم تقطع حبالها بالدين والعقيدة الروحية المستوحاة من الإسلام ولم يبتعد دعاتها بها كثيراً عنه كما ابتعد المفهوم عند الغرب. أي أن دعاة القومية العرب بقوا مثلما بقي نظراؤهم في

= سويسرا وراح يبث تعاليمه التي صارت أساساً للطائفة البروبستارية (المعمدانية) اليوم. وموجز تعاليمه هو التشديد على أن الله وليس الإنسان هو المركز الأسمى، وأن الكتاب المقدس هو المصدر الوحيد للعقيدة. ويؤكد على خلاص النفس وينكر الإرادة الحرة بعد سقوط آدم في جنة عدن.

(٨) جون ملتون John Milton (١٥٠٨-١٦٧٤) من أشهر شعراء الإنكليز مؤلف ملحمة (الفردوس المفقود) ١٦٦٧م، أتى فيها إلى وصف ثورة (لوسيفر) ضد الله، وسقوط آدم وحواء. أملاها وهو مكفوف البصر، لتكون واحدة من أروع تراث الأدب الإنكليزي. ولدى هذا الشاعر آثار أخرى سبقت الملحمة، تنطق بنزعته البيوريتانية في أثناء الحرب الأهلية، وقد كتب عدداً من الرسائل الفلسفية، بعضها في الدفاع عن حرية الصحافة.

أوروبا القرن الثامن عشر يشاركون الدعاة الأول حماستهم وشوقهم إلى التحرر مختلطاً بالدين، إلاّ أنهم اختلفوا في تشديد هؤلاء الأخيرين على الطابع الإنساني (الكوزموپوليتي) واهتمامهم بأحوال الفرد وحقوقه وبالتأكيد على أن المجتمع البشري هو أسمى وأرفع من كل القوميات وسنعود إلى هذا بالتفصيل.

واختطت القومية الإنگليزية بهذا سُنّة للدعوات القومية الأخرى بقيامها على أكتاف الطبقة الوسطى (المستجدة على العالم) ذات الطموح الاقتصادي والتجاري ووجدت في فلسفة (جون لوك)[٩] السياسية تعبيرها الفصيح وقانونها. كان تأثيرها صاعقاً في قيام القومية الأمريكية والفرنسية في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. وربما كانت القومية الأولى أفضل نموذج لقومية ذلك القرن. فالمستوطنون الإنگليز الذين اضطروا إلى النزوح بعد الثورة الپيورتانية والاضطهاد الذي شن عليهم يعتنقون التفسير العقلاني الذي قدمه لمفهوم فكرة التحرر الإنگليزية وآراء الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين المعاصرين من أمثال (ڤولتير وروسو وديديرو) وغيرهم.

لم يطل الزمن بالمستوطنين الجدد إلاّ ليجدوا أنفسهم (قومية) تناضل من أجل التحرر وضمان حقوق الفرد ضد السلطة. مهتدين خلال ذلك النضال بالفكر السياسي الذي ساد القارة الجديدة ولاسيما بالشكل الذي بسطته كتابات مواطنيهم توماس جفرسن[١٠] وتوماس پين[١١].

---

(٩) جون لوك JOHN LOCKE (١٦٣٢-١٧٠٤م) من أوائل الفلاسفة التجريبيين، أثرت كتاباته السياسية في تقدم الفكر الأوروبي الحديث نحو نظرية الدولة وتكوينها، ومثّل كتابه (الحكومة المدنية) ١٦٩٠م، التعبير الكلاسي لنظرية العقد الاجتماعي التي بسطها (روسو) فيما بعد بشكلها الواضح.

(١٠) توماس جفرسن Thomas Jefferson (١٧٤٣-١٨٢٦): أحد موقعي وثيقة الاستقلال الأمريكي، والرئيس الثالث للولايات المتحدة، وأبو الدستور الأمريكي وشريك (جورج واشنطن) في إعلان الإستقلال. مؤسس الحزب الجمهوري الحالي وهو الذي اشترى ولاية (لويزيانا) من فرنسا.

(١١) ت. پين. T. Paine (١٧٣٧-١٨٠٩): ولد في إنگلترا وعاش في أمريكا. من أبرز شخصيات الثورة الأمريكية ١٧٧٦م. حفز كتّابه الموسوم (البديهيات common sense) المقاطعات الأمريكية وحرّضها على إعلان الاستقلال ورسالته الشهيرة حول القومية بعنوان (الأزمة) كانت أول إيحاء بتأسيس جيش عقائدي. وفي إنگلترا أصدر كتابه (حقوق الإنسان) دفاعاً عن الثورة الفرنسية وكان عضواً في جمعيتها العمومية إبانها.

كانت القومية الأمريكية منذ ولادتها قومية (ليبرالية) إنسانية تنظر إلى أمريكا بوصفها طليعة المجتمع البشري في مسيرته نحو التحرر والمساواة والسعادة الشاملة.

وبهذا وجدت الفكرة القومية للقرن الثامن عشر تعبيرها ثم نجاحها السياسي الذي توج بوثيقة إعلان الاستقلال وميلاد الشعب الأمريكي أو القومية الأمريكية، هذه الولادة التي ضربت الوتر الحساس من آلة الثورة الفرنسية بعد سنوات معدودات.

ومهّد (روسو)[١٢] التربة الفرنسية لنبتة القومية الفرنسية بتأكيده مبدأ السيادة الشعبية والتعاون الجماعي من أجل خلق الإرادة القومية (الشعبية) وباعتباره الرجل العادي أو البسيط المصدر الحقيقي للمدنية.

وقومية الثورة الفرنسية هي في الواقع أكثر من هذا، إذ كانت التعبير الظافر للإيمان العقلاني بالإنسانية الجامعة والتطور التقدمي الليبرالي، فبشعارها الثلاثي الشهير(حرية، مساواة، إخاء) وبإعلانها لائحة (حقوق الإنسان والمواطن) لم تبق قاصرة على الفرنسيين، بل بدت مبادئها شاملةً القوميات الأخرى أي البشر جميعاً، أي حرية الفرد، أي المساواة، أي الإخاء لجميع الشعوب والأمم. حجارة ثلاثة مثل الأثفيّة رَكِب فوقها كل حركة قومية ليبرالية ديمقراطية تالية.

وعلى ضوء ما أوحته هذه الثورة، طُوّرت نواميس وأُنشئت تقاليد جديدة وممارسات مستحدثة لتحل محل المناسبات والنواميس القديمة وأغلبها ديني الطابع: من مواكب وتظاهرات وأعلام وشعارات واجتماعات سياسية وموسيقى وشعر وأدب ذوات شكل جديد، وأيام عطل قومية ووطنية مستمدة من التاريخ والأحداث الشهيرة، وخطابات قومية تسمع فيها اسم الشعب الفرنسي وفرنسا. انقلاب كبير في كل مظهر من مظاهر الحياة، وكالثورة الأمريكية خلقت جيشاً دفاعياً جديداً قوامه متطوعون من مواطنين غير محترفين ولا مدربين، إلاّ أنهم ممتلئون حماسة واندفاعاً غير معهودين في الجيوش المطوعة المحترفة المدربة تدريباً عالياً التي تدخل المعارك بدون دافع من

---

(١٢) جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨): كاتب وفيلسوف سويسري الأصل فرنسي التبعة. نظري سياسي يدين بأول شهرة له بمقال شرح فيه كيف أن العلوم والفنون تفسد السلوك البشري. وكتابه (العقد الاجتماعي) كان له التأثير الكبير في قيام الثورة الفرنسية وسلوكها النظري. بسط فيه أنه عندما أقدم البشر على عقد اجتماعي فيما بينهم للعيش مجتمعين فإنهم أودعوا السيادة بيد سلطة، إلا أن السيادة النهائية كانت للشعب وهو الذي يستطيع سحب الوديعة عند الضرورة.

شعور قومي وتتقاضى عن ذلك أعطيات ورواتب.

أكدت قومية الفرنسيين القوية خيار الفرد في اتخاذ القرار السياسي، وفتحت باباً لقيام طرز جديد من الدول والشعوب ذوات كيان يختلف عن الكيان العام السائد في الماضي، لتتبوّأ موضعاً في الأسرة الدولية عن طريق حق تقرير المصير. وبات الانتخاب والاستفتاء أداتين بهما يعبّر القوم عن إرادتهم.

ومن خلال كل هذا لاح في النهضتين القوميتين اللتين رسمهما العالم الجديد وفرنسا، ما يعتبر مساراً معاكساً عند شعبين امتازا بحضارة عريقة. وفي أثناء مرورهما بمرحلة اليقظة القومية وشروعهما في عملية الوحدة القومية. وقد قدّر لهذا الاتجاه المعاكس الرجعي الشديد الخطورة أن يتعدى أثره، فلا يقتصر على شعوب أوروبية معينة، بل امتد تأثيره إلى أمم وأقوام أخرى ومنها البلاد الناطقة بالعربية. فقد غلب على نهضتها القومية هذا الاتجاه الخطر واصطبغت الفكرة القومية عندها، وهي جنين، بطابع يختلف عن الطابع الإنساني التقدمي وعن فكرة المساواة والإخاء العالميين بين الشعوب وسيأتي تفصيل ذلك.

* * *

نشرت جيوش (نابليون) الروح القومية لا في أوروبا وحدها، بل في الشرق الأدنى عبر البحر الأبيض المتوسط، كما نفخت روح الثورة على الاستعمار الإسپاني والپرتغالي في أمريكا اللاتينية وجزر الأطلنطي. إلا أن الفتوح الناپوليونية والانكسارات العسكرية التي منيت بها الدول المتصدية له كان لها أثر غير حميد. ففي ألمانيا المقسمة إلى دول ودويلات ومدن مستقلة رفض أدباؤها ومفكروها وفلاسفتها الدعاة إلى النهضة والذين قادوا مسار فكرة الدولة القومية - أقول: رفضوا كل المبادئ التي قامت عليها الثورتان الفرنسية والأمريكية، وازورّوا عن جوانبها الإنسانية والتحررية ذات الطابع القومي بدافع النفرة والاحتجاج على يد المحتل الثقيلة. وخاب ظن بعض الفنانين والأدباء الإنسانيين ممن كان يعتبر بوناپرت رسول الثورة وحامل مبادئها، من أمثال الملحن الكبير بيتهوفن والشاعر والمؤرخ شيللر والأديب الكبير غوته.

القومية الألمانية أكدت منذ خروجها من الرحم مظهراً غريزياً تليداً مضاداً للعقلانية والأفكار الجديدة التي شاعت في المفهوم القومي. وكردّ فعل للتسلط العسكري الناپوليوني تغلبت قوة التقاليد وآثار التراث التاريخي على المحاولات التقدمية العقلانية. مع تقصير عن استيعاب مفهوم للقومية أكثر جدوى ودقة، بل ركزت على الفروق

التاريخية والتراث العنصري بين الشعوب واحتقرت الآمال والتطلعات المشتركة التي تشد الأمم والشعوب كافة بعضها إلى بعض. فكانت نظرتهم إلى الثورة الفرنسية أو الليبرالية القومية[١٣] والمساواة لا تعدو اعتبارها فترة قصيرة من ضلال وشذوذ وزيغ يقف بمواجهتها سدّ من الأسس الخالدة للنظام الاجتماعي الذي لا يلبث أن يتغلب عليها.

واتضح مبلغ خطأ التفسير الألماني للتطورات السياسية التي حصلت في القرن التاسع عشر وأحداثه الجسام، بدءاً بانحسار ظل الغزو النابوليوني. فقد عادت القومية الليبرالية لتحتل الميدان وتؤكد نفسها في بقاع عديدة من أوروبا، بل انداحت رقعة نفوذها إلى قوميات عديدة ونفذت تعاليمها إلى أغوار النفوس نفوذاً مطّرداً، وتبنتها الطبقة المتوسطة التي أبرزها القرن التاسع إلى الوجود قوةً مهيمنة في المجتمع، كما اعتنقتها البروليتاريا الجديدة. وتمخضت بثورات العام ١٨٤٨م، ذلك العام الذي لقب (بعام ربيع الشعوب). حتى بدت للمفكرين والفلاسفة والقوميين التقدميين الليبراليين وكأنها تعمل لتحقيق آمال الشعوب في الإخاء والحرية والمساواة، في طليعة هؤلاء يقف (يوسبّي ماتزيني) عَلَماً مفرداً، ذلك المجاهد الذي أوقف حياته كلها على العمل لإيقاظ الشعور القومي الإيطالي ووحدته بالأساليب الديمقراطية فحسب، وليس بالعنف والثورة الدموية. هو في الواقع أبو الوحدة القومية الإيطالية وباعثها، وواحد من رسل القومية وأبنائها البررة في كل زمان ومكان، بتعاليمه وأسلوبه النضالي الإنساني البعيد عن العنف. ومع أن آماله العاجلة منيت بالخيبة، إلاّ أن فترة السنوات الاثنتين والعشرين المنتهية بالعام ١٨٧١م حققت آماله.

(ماتزيني) هو نبي القومية الليبرالية الديمقراطية. وهو المثال الذي يجب أن يحتذيه كل داعية قومي، ولا أراني في هذه المناسبة قادراً على إغفال الحديث في أطراف من سيرته وتعاليمه. شهد المؤرخ الإنگليزي توماس كارليل[١٤] «بدقته الأصيلة وإنسانيته

---

(١٣) بات مصطلح (Liberalism) يعني تلك الفلسفة السياسية التي تقوم على الإيمان بالتقدم والإستقلال الذاتي للفرد، أي حريته في اتخاذ القرار. وهو يؤول بالأخير إلى حماية الحريات السياسية والدينية من اعتداء المركزية والتحكم؟

(١٤) توماس كارليل (Thomas Carlyle) ١٧٨٠-١٨٨١: مؤرخ أسكتلندي الأصل وفيلسوف عُرف عالمياً بكتابه عن الثورة الفرنسية. كان يعتقد بأن التقدم هو من عمل الأبطال الأفراد. وسخر من المساواة المطلقة. ما زالت كتبه تقرأ وتقتنى.

ونبل عقله» ويقوله عن هذا الذي أنكره قومه ووضعوه في الخلفية حيناً من الزمن.

وقال عنه (باخونين)[١٥] «إنه أسلم معظم رؤوس أوروبا المتوجة إلى ليال مسهدة».

نُفي وهو ابن السادسة والعشرين. وفي فرنسا أسس جمعية (إيطاليا الفتاة) وفيها وفي سويسرا وإنگلترا طور مفهومه لإيطاليا متحدة قومياً، ديمقراطية نهجاً. في العام ١٨٤٩م أُختير رئيساً لجمهورية روما القصيرة العمر، التي قضت عليها جيوش نابليون الثالث. وفي إنگلترا ساعدت شخصيته المغناطيسية واستقامته وتواضعه الجم ومواظبته في التأثير على إيقاظ الشعور القومي الثوري وجمع الشمل الإيطالي رغم البعد الكبير. وعند الڤكتوريين[١٦] صار مثابة سحرية للتقديس بسبب إنسانيته وصراحته وتفانيه. كانت مقابلة واحدة لأنتوني ترولوف[١٧] كافية لتقنعه بأنه يواجه «رجلاً خارقاً لا كالرجال» ونعته بيجهوت[١٨] بالرجل المعجزة وفي النهاية من الكمال والحكمة والاعتدال. ورأت فيه جورج إليوت[١٩] «البطل الحقيقي الذي لا يستغنى عن معرفته». وكان القصصيان الشهيران ثاكري[٢٠] وديكنز[٢١] يجمعان التبرعات لجمعية (إيطاليا الفتاة) ولمختلف

---

(١٥) باخونين، ميخائيل ألكسييڤچ (Bakhunin) ١٨١٤-١٨٧٦: ثوري روسي مؤسس المذهب السياسي المعروف بالفوضوية (Anarchism). كان مشاركاً في انتفاضتي پاريس ١٨٤٨ ودرسدن ١٨٤٩. نُفي إلى سيبيريا من حيث هرب إلى إنگلترا وشارك في الدولية الأولى وفيه كانت خصومته الحادة مع ماركس الذي نجح في طرده وأتباعه من المؤتمر.

(١٦) أو العصر الڤكتوري نسبة إلى الملكة ڤكتوريا التي حكمت إنگلترا بين ١٨٣٨ و١٩٠٩. وقد تميز عهدها بقيم خلقية وسلوكية عالية، وبلغت بريطانيا خلالها أعلى درجة من النفوذ الدولي بوصفها أكبر إمبراطورية في العالم.

(١٧) أنتوني ترولوف (Antony Trollofe) ١٨٢١-١٨٨٢: اشتهر برواياته التي يدور محورها على الطبقة الوسطى، مشاكلها، أسلوب عيشها، سلوكها الاجتماعي والسياسي. ومن أشهر رواياته (رئيس الوزراء).

(١٨) ولتر بيجهوت (Walter Bagehot) ١٨٢١-١٨٧٧: من علماء الاجتماع الإنگليز وناقد أدبي خطير الشأن، رئيس تحرير مجلة (الإيكونومست) المعروفة، من أهم كتبه (الدستور الإنگليزي).

(١٩) جورج إليوت (George Eliot) ١٨١٩-١٨٨٠: وهو الاسم المستعار للروائية الإنگليزية (ماري آن إيڤانز). رواياتها أشاعت روحاً جديدة في الفكر الثقافي باعتمادها على الحبكة الفنية والسلوك الخلقي العالي، كان تأثيرها بيناً على من لحق بها من القصصيين.

(٢٠) وليم ثاكري (William Thackery) ١٨٦٣- ١٩١١: مفكر وروائي وكاتب ورسام وصحافي =

ندواته ونشاطه السياسي ومعاونة اللاجئين، كما اجتذبت شخصيته رئيس الوزراء الإنكليزي (دزرائيلي) وهو أديب أيضاً، فعمل منه شخصية في رواية له. وقالت عنه صديقة حميمة «لم أر مثله بشراً متفانياً جعل من ذاته قطعاً نثاراً من اللحم للإنسانية».

في ١٨٤٩م وعندما رفض البابا بيوس التاسع العودة إلى روما، أقدمت الجمعية الوطنية المنتخبة ديمقراطياً على انتخاب ماتزيني رئيساً لمجلس السيادة الثلاثي فأعلن الجمهورية، لكنه رفض رفضاً قاطعاً اقتراحاً بتوليه سلطة الدكتاتور ذي الصلاحيات المطلقة. وكسف بسحره العظيم شمس العسكري گاريبالدي، أحد أركان الوحدة الإيطالية. وبقي وهو رئيس الجمهورية يعيش عيشة الكفاف في غرفة واحدة مستأجرة ويتناول طعامه في مطعم حقير. وصمد أمام جيش لويس نابليون الذي أحدق بروما وأخضعها، إلاّ أنه ضرب مثلاً أعلى للطراز الذي يجب أن يكون عليه الداعية والمناضل القومي المكافح في سبيل تحرير بلاده واستقلالها. وهو مثل لم يُحتذ قط ولا تجد نظيراً له بين كل دعاة القومية اللاحقين في كل زمان ومكان.

راقب هذا المفكر القومي بعين ملؤها الأسى كيف اتخذت مسيرة التحرر القومي مساراً لاديمقراطياً ليذوق هو نفسه طعم التحكم التوتاليتاري الذي مارسته حكومة الوحدة، عندما اقتحم البوليس غرفته وصادر كل مغلفات ذكرياته، رسائله، خاطراته، كتاباته، فضلاً عن رموز نضاله. وانساق الفكر القومي الإيطالي مع الفكر القومي الألماني، مزدهياً بتحقيق الوحدة وحقق تفوقاً وقتياً لكنه انتهى بعد أقل من نصف قرن إلى عين المصير الألماني، بقيام فاشية (موسوليني).

وهكذا فلفترة معينة بدا الفكر القومي في أوروبا وكأنه ينحو منحى مركزياً إلى التفوق العنصري. ورنّت في الأجواء أصداء المجد المؤثل العريق للشعب الجرماني وإمبراطورية الرومان القديمة. وكثيراً ما لقي تعبيره في استعراض القوة العسكرية واستخدامها في حروب عدوانية مخطط لها، أو في مغامرات استعمارية خارج أوروبا،

= بارز، مؤلف القصة التي اشتهرت عالمياً (Vanity Faire) وتتضمن سخرية رقيقة بالطبقة الوسطى الجديدة.

(٢١) چارلس ديكنز (Charles Dickens) ١٨١٢-١٨٧٠: أحد أعظم القصصيين الإنكليز. تُرجمت قصصه الطويلة والقصيرة إلى معظم اللغات الحية، نحا فيها منحى جديداً في فن القصة. حارب فيها الشر الخلقي والفساد والجريمة. وكان تأثيره عظيماً على الروائيين الروس (القرن ١٩) وبصورة خاصة دستويفسكي.

وكان طلاق بائن لا رجعة فيه بين هذا المنحى القومي الشاذ وبين الفكر القومي الأمريكي، الذي نمت أغراسه وأثمرت برعاية من المفهوم الرومانتي لشعب حر متماسك مرصوص البيان ليخلق «بعناية الله ورعايته» كما جاء في ديباجة صك الإستقلال، [اتحاداً جديداً متقناً متحرراً للأبد من الأمراض الأوروپية ومواطن الضعف فيها].

التفسير الالماني للقومية نجده في آراء شوبنهاور(٢٢) ونيتشه(٢٣) وفيخته(٢٤) من الفلاسفة والسياسيين، وكذلك تفوح رائحة قوية له من أعمال (ڤاگنر) الموسيقية الرائعة(٢٥) هذا الاتجاه المعاكس لمحتوى ودروس الثوريين الأمريكية والفرنسية ونهج ماتزيني وأضرابه لم يبق دون تحد. فقد اتخذ من جهة سبيل التطرف اليساري وآل إلى الفكر الفوضوي الذي تزعمه (باخونين وكربوتكين)(٢٦) الروسيين. واتخذ التحدي من جهة أخرى سبيل اشتراكية الصراع الطبقي والنظرية المادية في تفسير التاريخ، التي تقدم

---

(٢٢) آرثر شوبنهاور (Arthur Schopenhauer) ١٧٨٨-١٨٦٠: فيلسوف ألماني واضع مبدأ الإرادة والتشاؤمية المنظمة في كتابه (العالم، كإرادة وفكرة، ١٨١٩). وهو يرى أن الإرادة هي نهاية الحقيقة. إلاّ أنه دافع عن سلبية الإرادة في اجتناب الألم والمعاناة ونشدان السلوى في الفلسفة والفن. كان لآرائه تأثير عميق على نيتشه والوجودية الحديثة.

(٢٣) فردريك نيتشه (Friederich Nietzche) ١٨٤٤-١٩٠٠: فيلسوف ألماني من ناقدي المسيحية. وفي كتابه الشهير المنقول إلى العربية (هكذا تكلم زرادشت) تقدم بمفهوم للإنسان الكامل الفائق البطل ذي الروح العظيمة الذي يرتفع عن عبودية الأخلاقية المسيحية. قوته الدافعة هي العاطفة الأسمى لقوة الإرادة التي توجهه نحو الإبداع وتميّزه عن سائر المخلوقات المنحطة. استخدم القوميون الألمان (النازيون) تفسيره هذا (للسوپرمان) تبريراً للمفاهيم الخاصة في تفوق الجنس الآري عنصرياً على غيره من الأجناس.

(٢٤) يوهان گوتلبيل فيخته (Johonn Gotlbil Fichte) ١٧٦٢-١٨١٤: أول شارح للمثالية الأخلاقية ومفهومه للقومية وللشعب كتجلّ لنظام إلهي. تعصبه العنصري بعث نشاطاً في الشعور القومي الألماني وابتعث روح الوحدة القومية.

(٢٥) ريشارد ڤاگنر (Rechard Wagner) ١٨١٣-١٨٨٣: ملحن أوپرا كبير أتى في عدد من أوپراته إلى تمجيد وإحياء الأساطير الجرمانية ووقائع أبطالها.

(٢٦) (Kropotkin) پيتر ألكسيڤج ١٨٤٢-١٩٢١: أمير من نبلاء الروس، نظري من زعماء الفوضوية تخلى عن الحياة الارستقراطية في ١٨٧١ ومارس النشاط الثوري. وبكل سعة مداركه وثقافته الهائلة عدُّ شخصيةً علميةً عالمية. سُجن في ١٨٧٤، وهرب إلى أوروپا وسُجن في فرنسا وعاش في إنگلترا. كان متفرغاً للكتابة وإلقاء المحاضرات وكتابه (التعاون المتبادل بين الحيوانات) نال اهتماماً عالمياً. عاد إلى روسيا بعد ثورة أكتوبر إلاّ أنه شجبها وهاجمها.

بها (فيورباخ)[٢٧] وطورها ماركس وكلاهما ألماني، فعرفت بالمادية الديالكتية الداعية إلى الأممية الشيوعية، بمساهمة من (بليخانوف)[٢٨] وهو روسي. وقد أدى هذا التحدي بأصحاب هذين السبيلين بالأخير إلى إنكار القومية كركن من أركان التقدم الحضاري، ولاقت رفضاً محدوداً عند الاشتراكيين الماديين (الفريق الثاني) ورفضاً مطلقاً عند الفوضويين الثوريين.

المحدودية التي نظّرها الاشتراكيون الماديون تبدو في مؤتمر الأممية المنعقد في ١٨٩٦ متفقة في الجوهر مع وجهة النظر القومية الليبرالية الإنسانية ومبادئها التي وضعتها الثورتان الكبريان. فقد تبنت شعار حق تقرير المصير (نظرياً) وسبقت به مبادئ الرئيس وودرو ويلسن. إلاّ أن الدول الشيوعية التي انبثقت في ما بعد، لاسيما الدول المتعددة القوميات أو ذات الأقليات الإثنية الكبيرة، لم تحفل بهذا المبدأ عند التطبيق وعاشت حكوماتها مزدرية به، وتنوعت مواقف الاتحاد السوفياتي منه. فكان آناً يُتخذ ركيزة للسياسة الخارجية في مساندة الدول النامية أو المستعمرات في أفريقيا وآسيا أثناء نضالها في سبيل الاستقلال والتحرر من سلطان الأجنبي، وآناً يغفله تماماً في التعامل مع جمهوريته القومية عندما يخطر بباله ان يفعل ذلك. فهو بين الإغفال والاهتمام، حتى داخل الحركة الشيوعية العالمية. وفي رأيي أن تراث ماركس وأنگلز القلمي والفكري المتناقض هو الذي خلق كل الارتباك أو الجانب الأقل منه على أقل تقدير.

يصرح البيان الشيوعي (بأن الرأسمالية قد سحبت من تحت قدمي الصناعة الأرض القومية التي تقف عليها. وأن النظرية القومية وضيق الأفق القومي لا مكان لهما، وهما مستحيلان وزائلان بشكل مطرد، فليس للعمال وطن).

زرع هذا الجذب والشد المتوتر بين المفهومين الاشتراكيين للقومية والأممية، وفي

---

(٢٧) (Feurbach) لودفيگ أندرياس ١٨٠٤-١٨٧٢: فيلسوف مادي كان عظيم التأثير على ماركس، رفض مثالية هيگل في كتب له من أمثال (جوهر المسيحية) وفيه حلل مفهوم الله عند المسيحيين بقوله إنه تحقيق وهمي لحاجات الإنسان السيكولوجية.

(٢٨) (Plekhanov) جورجي فالنتينوفتش بليخانوف ١٨٥٦-١٩١٨: مؤسس الحركة الماركسية وقائدها الفكري في روسيا لعدة سنين. مؤسس منظمة العمل التحررية وصاحب كتاب (التفسير المادي للتاريخ). شدد على ضرورة مرور روسيا بمرحلة البرجوازية القومية مثل الاشتراكية. وفي ١٨٩٨ انضم حزبه إلى الحلقات الماركسية الأخرى لتأسيس حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، الذي انشعب في ١٩٠٣ إلى بلشفيك وإلى الفشنيك بزعامته. وحاول الحيلولة دون استيلاء البلشفيك على السلطة في ١٩١٧ فأخفق.

أوقات معينة بدا وكأن كلاً منهما يطرد الآخر من الحلبة، فالأمر يبدو معقداً وغير منطقي عند اختيار القومية بين الانفصال وتأسيس كيان قومي، وبين الدفاع عن الحدود السياسية القائمة، لاسيما بالنسبة للأقليات المضطهدة قومياً. في الماضي عندما كان يقوم الشيوعيون بالجدال حول المسألة القومية بغية الخروج من المأزق، كانوا يميزون بين حالتين نظريتين مختلفتين؛ بين علاقة الاقتصاد بالسياسة وبين قضية الطبيعة الطبقية للدولة، وكل نتيجة يتوصلون إليها لا تخرجهم من المأزق. وفي هذا الصدد يحضرني قول للشيوعية البارزة (روزا لوكسمبورگ) وهي پولندية، في مناسبة تبريرها الاحتلال الروسي لبلادها قالت:

«بما أن پولندا تابعة اقتصادياً لروسيا، فليس بالإمكان أن تستقل سياسياً!!»

في المسألة القومية ركّز ماركس دراسته على التاريخ الإيرلندي بتفصيل، فافترض بالنتيجة وانسجاماً مع نظرية القومية في القرن التاسع عشر بأن تحرر إيرلندا سيتحقق عن طريق الحركة الشارتية[٢٩] في إنگلترا، ونعت الحركة بالثورة. إذن فلا ضرورة هناك تدعو إلى الانفصال، إلاّ أن الحركة الشارتية ما لبثت أن تراجعت وخمل ذكرها في منتصف القرن، وبمقابل ذلك اشتد ساعد النزعة القومية الليبرالية لتكون الأيديولوجية السياسية المهيمنة على الحركة العمالية البريطانية إلى جانب بث ثورات العام ١٨٤٨ روحاً جديدة في أركان الحركات القومية، لاسيما تلك الحركات المرتكزة على الريف. هذا ما أدى بـ(ماركس) إلى أن يدور على نفسه دورة كاملة، إذ راح فجأة يؤيد المطالب القومية الإيرلندية دون تحفظ.

والخلاصة توصل ماركس في أخريات آثاره إلى تخريج توافقي فقال: إن فكرة خلق الدول القومية في غالبية الأحوال هي مجرد مرحلة حتمية لا بد أن تمر بها الشعوب كافة وهي تغذّ السَّير لانتقالها من مرحلة الإقطاع إلى الرأسمالية.

---

(٢٩) (Chartism) محاولة أو حركة متطرفة عمالية كبرى فاشلة للعمال البريطانيين الذين حرموا حق التصويت للحصول على مزيد من المساواة الاجتماعية والاقتصادية، كما كانت واحدة من أعظم أولى الحركات السياسية للطبقة العاملة البريطانية. ولقبت الحركة بالشارتية نسبة إلى اللائحة (Chart) الشعبية التي نظمها في ١٨٣٨ قائد عمالي من جمعية عمال لندن يدعى (وليام لوفيت)، وتتضمن المطالبة بحق الانتخاب العام الحر والتمثيل المتساوي لجميع المناطق وإلغاء شروط الملكية الخاصة لطلاب الوظائف وتخصيص رواتب پرلمانية وقيام پرلمان سنوي والاقتراع السري.

والمحصلة؟ هي أن ماركس ظل يربط بين القومية وبين التطور السياسي. ولحقه في هذا لينين، إلاّ أن هذا النبي الاشتراكي الثاني واجه وضعاً معقداً أملته عليه تمخضات العقدين الأول والثاني من القرن العشرين.

في العام ١٩١١-١٩١٢ كان ستالين يتسكع في مقاهي (زوريخ) محل سكن لينين لا عمل له، فأشار عليه لينين بأن يدرس المسألة القومية ودله على المراجع، وكان يراجع معه ما يكتبه ويتناوله بالحذف والتنقيح ليخرج الكتاب حاملاً آراء لينين(٣٠). هذا الكتاب الذي أوصى به لينين وحث الشيوعيين على مطالعته والاهتداء به طُبع فيما بعد بعنوان (الماركسية والمسألة القومية)(٣١) وبقي في العهد الستاليني إنجيلاً تهتدي به الأحزاب الشيوعية كافة خلال أكثر من نصف قرن.

يعرّف كتاب ستالين الأمة بهذا:

«هي رابطة مستقلة متطورة تاريخياً في اللغة والأرض والحياة الاقتصادية والتركيب النفسي. وتتمثل في ثقافة مشتركة. وينبغي التأكيد على أن أياً من هذه الضوابط لا يكفي بمفرده لحصر الصفات المكونة للأمة، إلاّ أن غياب أي ركن منها يلغي وجود الأمة إلغاءً تاماً».

رغم المظهر الشمولي لهذا التعريف، فإنه يتعرض لمطعنين أساسيين، أولهما: إن تحديداً كهذا مرتكزاً على الروابط الثقافية والاقتصادية والنفسية، أو أية رابطة رابعة أو خامسة أو مما يعد من مكونات قومية الأمة، إنما يجرد الماركسية من سلاحها ويضعها في مأزق إزاء الحركات القومية الليبرالية (البرجوازية) عند وضع المعادلة فوق أرضية القومية نفسها.

وثانيهما: وهو المطعن الأهم الحاسم، إن هذا التعريف لا يمكن إلاّ أن يؤدي إلى اتخاذ موقف غامض معيب بالنسبة إلى التحرر القومي، لأن خلق ضوابط ومعايير نظرية يجري عبرها وبوساطتها قياس شرعية الحركات القومية، إنما يؤدي في معظم الحالات إلى شق فجوة يتسلل منها الالتزام المبدئي العام بحق تقرير المصير، وهو حق لا يمكن

---

(٣٠) هذا على الأقل ما روته كروبسكايا زوج لينين في مذكراتها المطبوعة، وما أكده تروتسكي وغيرهم ممن كان في معية لينين آنذاك.

(٣١) عنوان الكتاب الذي ظهر بالألمانية أولاً وطبع بفيينا في ١٩١٣: الماركسية والمسألة القومية Der Marxism und die Nationale Frage

أن يخضع قط لمثل هذا التعريف، إن يراد له أن يكون ذا معنى.

لا يمكن أبداً لأي حركة قومية ذات قاعدة جماهيرية واسعة بين قومها أن تقف موقف تساوم أو توافق مع الاشتراكيين الماركسيين، الذين يُخضعون حقها في الوجود والتحرر السياسي إلى هذا اللعب بالتعريفات النظرية. لأن الحركة القومية الليبرالية الهادفة إلى التحرر ستصر والحالة هذه على حقها في تحديد مبررات قيامها ووجودها من ذاتها.

ومن هنا يتضح أن المأزق الماركسي لا يكمن في الشرعية النظرية لحركة قومية ذات طابع سياسي ولا فيما إذا كانت تلك الحركة ستحبس نفسها ضمن نطاق نضالها الثقافي والتراثي، بل في وجود الحركة بالذات. وقد أصرّ لينين على هذا النهج، إلاّ أنه أراد استخدام الحركة القومية سلماً في عملية سرقة. فتراه يقرر بأن للمسألة القومية مهمة من أكثر المهمات خطورة وإلحاحاً وهي «جر الطبقة العاملة بعيداً عن قياداتها البرجوازية»، ذلك لأن أمضى سلاح في يد القوميين الليبراليين «البرجوازيين» هو أن البروليتاريا «الطبقة العاملة» تنكر بالأساس حق تقرير المصير القومي، لاسيما عند الحركة العمالية الناشئة في« الأمم الظالمة». وإنكارها هذا يستند إلى الوحدة الطبقية لذا تراه يقول:

«إن عُمّال الأمم التي كانت في عداد الأمم الظالمة وتحتمي بظل النظام الرأسمالي يجب أن يحرصوا حرصاً لا مزيد عليه بعدم جرح المشاعر القومية للأمم المظلومة. والواجب يقضي عليهم أن لا يقصروا جهودهم على إحلال المساواة الحقيقية فيما بينهم، بل أن يتعداه إلى تطوير لغة وآداب الشغيلة في الأمم المظلومة سابقاً، ليزيلوا كل آثار سوء الظن، وعوامل الفرقة الموروثة عن الرأسمالية».

ونجده يقول في موضع آخر:

«نحن نطالب بحرية تقرير المصير، أي الاستقلال، أي حرية الانفصال للأمم المظلومة. لا لأننا نحلم بتجزئة بلاد ما أو بإقامة دويلات، بالعكس نحن نريد دولاً أكبر حجماً، نريد مزيجاً من الوحدة بل حتى الاندماج بين الأمم على أساس ديمقراطي أممي حقيقي، وهو ما لا يمكن تصوره بدون حرية تقرير المصير».

وهذا كله يترجم بعبارة قصيرة هي تحصيل حاصل: إن المساواة الحقيقية وإزالة

كل آثار سوء الظن وأسباب الفرقة والعدوان لا يمكن أن تتحقق إلاّ بعد إخضاع حق الأمم المظلومة في تقرير المصير أو غيره، لشروط مستمدة من النظرية الماركسية!

رأيُ الفوضوية في الحركات القومية وفي القومية يعبّر عنه الأمير كروبوتكين، فقد حدد مفهومه لها بمقال نشره في العام ١٨٨٥ بعنوان (فنلندا تلك القومية الصاعدة) - فيه أيّد حقوق القوميات في الاستقلال وحق تقرير المصير واعتبرهما مبدأين من المبادئ الأساسية للاشتراكية الثورية الأممية الحقيقية. وقبل برأي الفيلسوف والكاتب الاجتماعي الفرنسي (آرنست رينان) القائل بأن الأمة تولد من التراث المشترك للتقاليد والآمال والحسرات والتطلعات والتصورات. وانتهى إلى القول:

«إن العالم الطبيعي يضيف إلى هذه السمات الجوهرية في الأمة التمايز الضروري عند الأمم والكينونات الاجتماعية الأخرى، كما إنه يضيف العامل الجغرافي إلى تلك المكونات ويراه نوعاً من اتحاد يقوم بين شعب وأرض يسكنها على سبيل الاستقرار، فيتلقى منها شخصيته القومية ويطبعها هو من جانبه بطابعه الخاص، ليصنع من البشر والأرض كياناً واحداً غير قابل التجزئة».

* * *

هذه التعاريف والتحديدات النظرية وقد ازدحم بها النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعكس ردّ الفعل الذي أحدثه الاتجاه المعاكس الليبرالي الذي اتخذه المسار القومي في ألمانيا وإيطاليا، إضافة إلى ظهور المبادئ الاشتراكية ودعوتها الأممية ولوحدة الطبقة العاملة.

إن النزعة المتحررة للقومية التي تمخضت بوحدة ألمانيا وإيطاليا ورومانيا لم تكن كما شاءها (ماتزيني) وأشياعه - تلقائية بعيدة عن العنف، إنسانية الإتجاه. فالأولى قامت بدسائس سياسية وعلى إثر سلسلة من الحروب. والأخيرتان قامتا بعون فعّال من الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث. على أن القومية الليبرالية التي هبّت ريحها عبر الأطلنطي في الستينات شهدت انتصارات في نمو الشعور القومي، لاسيما في كل من إسپانيا وروسيا. ففي هذه الأخيرة ألغيت عبودية الفلاح[٣٢] واسترقاقه، وتمت بذلك

(٣٢) إلى العام ١٨٦٢، كان ٧٠-٧٥٪ من الروس أرقّاء يتنقلون بيعاً وشراءً مع الأرض التي يملكها الإقطاعيون. والسلطة التي يملكها المالك على أقنانه ما كانت تختلف عن سلطة مزارعي =

ولادة الشعب الروسي الحقيقية. كما شهدت الأولى تقدما ليبرالياً عظيماً في التأكيد على الإرادة الشعبية ضد حكم آل البوربون المطلق، ولم يقدّر لليبرالية القومية حظ من النجاح في ألمانيا بسبب سياسة المستشار الألماني (أوتو فون بسمارك) واليونكرز والعسكرية الپروسية في توحيد الشعب الألماني على أسس محافظة رجعية استبدادية، وبكل ما خلفته من آثارها المدمرة لا في ألمانيا وحدها، بل في العالم أجمع.

قيام الألمان بعد انتصارهم على فرنسا في العام ١٨٧٠ بضم مقاطعتي الإلزاس واللورين خلافاً لرغبة سكانهما وإرادتهم الحرة كان ضد الفكرة القومية المبتنية على حق تقرير المصير وإرادة الإنسان الحرة. إذ أصر المنتصر على أن السكان الألمان لأسباب عرقية وموضوعية رفضها أولئك وتمسكوا بانتمائهم إلى القومية التي اختاروها.

إمتدت اليقظة القومية في أثناء ذلك إلى الدول ذات القوميات والهويات العرقية المتعددة كإمبراطوريتي هابسبرگ وآل عثمان، وكلتا الدولتين كانت تقوم على أسس الولاء السابق. فأعملت فيهما هدماً وتمزيقاً وأخرجت دولاً جديدة قائمة على أسس قومية.

وفي روسيا القيصرية نجم عن تغلغل الفكرة القومية إثر تحرير أغلبية الشعب الروسي من أغلال العبودية مدرستان فكريتان متناقضتان: المدرسة الغربية كانت تريد قياماً لروسيا على المنحى الغربي متبعةً تيار القوى التقدمية الليبرالية. في حين أكدت المدرسة الثانية الطابع المميز للشخصية الروسية ولروسيا Russianism وعلى رسالتها المستقبلية التي تختلف في نظرهم عن رسالة الغرب. متأثرة ولا شك بالمنحى القومي الألماني، لاسيما بالمفكرين الرومانتيين الألمان بدون شك. هؤلاء (عباد العرش) بنوا دعوتهم على الماضي الروسي الديني الأوتوقراطي ومنهم خرج دعاة العنصرية السلافية الذين وجدوا في روسيا منقذهم الوحيد الأكبر والمستقبلي من غرب قوّضت صرحه الليبرالية وتراث الثورتين الأمريكية والفرنسية. أدى هذا إلى انحسار المد الليبرالي الذي شاع في روسيا خلال العقود الأربعة التي عقبت هزيمة ناپليون في العام ١٨١٣ ومن آثاره تحرير الرقّ الروسي.

وكردّ فعل عنيف لهذا الاتجاه القومي الأوتوقراطي وقصور التربة الروسية عن

= الجنوب الأمريكان على أرقّائهم الزنوج. فهي سلطة مطلقة تتناول حياة الرقيق المهدورة التي لا يحميها قانون.

إنبات مفكرين اجتماعيين قوميين لهم تطلعات (ماتزيني) وإنسانيته، وتأرجح الأدب والفكر الروسي العظيم بين الرومانتية والواقعية عند أدبائه وقصصييه الخالدين، وجد التطرف الاشتراكي والفوضوية الثورية تربة خصبة في قعر الطبقة الوسطى النامية والأجيال التالية المنحدرة من الأرقاء المحررين، الذين كانوا أكبر مصدر للطبقة العاملة (الپروليتاريا) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. لذلك كان الاتجاه نحو الاشتراكية الثورية الماركسية في روسيا أظهر منه في أي بلاد غربية أخرى.

حتى توهم كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع إلى العقود الاخيرة من قرننا هذا، وقبيل هزيمة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الشرقية، بأن ثورة أكتوبر البلشفية في العام ١٩١٧ قضت على فكرة التفوق القومي الروسي وادعائه بزعامة القوميات السلاڤية، عندما تسلم هؤلاء بزعامة لينين السلطة من القياصرة الروس. فالبولشفيك بدورهم وبعد أن استتب الأمر لهم ادّعوا زعامة الحركة الشيوعية العالمية، كما ادعى القياصرة زعامة الشعوب السلاڤية. وقدّر لهذه الدعوة أن تغدو أداةً للسياسات القومية الروسية في آخر الأمر، لاسيما في أسلوب تعاملها القاسي مع القوميات الأخرى التي كوّنت إمبراطوريتهم الموروثة. ولم يبدُ ذلك جلياً في أول الأمر بسبب التغطية الرسمية العمدية وأيضاً للانتصار الذي أحرزته القومية في أواسط أوروپا وشرقها إثر الحرب العالمية ١٩١٤-١٩١٨. فمن أنقاص إمبراطوريتي هابسبرگ وآل عثمان ورومانوف ظهرت دول قومية جديدة: النمسا، المجر، چيكوسلوڤاكيا، پولندا، يوغسلافيا، فنلندا، استونيا، ليتوانيا، لاتڤيا، ومع أن بعضها عانى بدوره مشاكل النزاع القومي الداخلي والخارجي مع الجيران على الأرض والسكان.

وبدأت تتسرب الأنباء عن تهجير جماعي واستمرار الاضطهاد العنصري للتتار ولليهود تتخلله المذابح Pogroms يقابل ذلك تشجيع وانتصار للحركات القومية والاستقلالية في أنحاء العالم كافة، لاسيما تلك الحركات الرامية إلى التخلص من نفوذ الغرب الليبرالي، وتلك التي بدت فيها اتجاهات غير ليبرالية.

سياسة مزدوجة. لكنها بالنسبة للروس أنفسهم كانت قومية الطابع. وقد رأينا في غضون الحرب العالمية الثانية كيف كان ستالين يستنهض الهمم بإثارة الشعور القومي في الروس مذكّراً إياهم بالوطن الأم والتراث الروسي والتاريخ الروسي، بل حتى بالكنيسة الأرثوذكسية الروسية، التي عانت خلال ربع قرن من حكم البولشفيك ما لم تعانه أية طائفة دينية مسيحية في العصر الحديث.

وبقيت القومية مشكلة مستعصية لحكام الكرملين بعد الحرب العامة الثانية أيضاً. كانت من أصعب العقبات التي قامت بوجه الهيمنة السياسية والتوسع الإقليمي في شرق أوروپا وآسيا، وأيضاً في تلك الدول التي سلمت من صفقة اقتسام النفوذ بين السوڤيات وبين الغرب في مؤتمرات يالطا وطهران وبوتسدام. هذه السياسة تنكرت تماماً لمبدأ حق تقرير المصير، فكان هناك ڤيتنامان وكوريتيان وألمانيتان. وبسبب من هذا التناقض ظهرت نزعة قومية عند تلك الدول الاشتراكية المعروفة بدول الكتلة الشرقية، مالبثت أن اتخذت لها اصطلاحاً غريباً عن المفهوم الأممي للاشتراكية والماركسية، وهو (الشيوعية القومية). وكان بداية ذلك في العام ١٩٤٨. فجأة ومن غير توقع انطلقت حمم نارية من موسكو تتهم فيها الزعيم الشيوعي اليوغسلافي (جوزيف بروز تيتو) بالقومي المرتد الخارج على المبادئ الماركسية، صديق الغرب. وأعقب ذلك قطيعة ثم تلت حركات ثورية ذات طابع قومي في البلدان الاشتراكية تلك. وما إن تبددت لعلعة المدافع وهزيم سرفات الدبابات وكفّت المشانق وساحات الإعدام عن استقبال ضحاياها، حتى بدأ الساسة المؤرخون يفلسفون ما حدث. فقالوا إن نمطاً جديداً من الشيوعية ولد في أعقاب الشقاق والتمزق في الكتلة السوڤياتية، وأطلقوا عليه اصطلاح الشيوعية الأوروبية.

مبدأ الشيوعية القومية فُسِّر على هذا الأساس:

«لكل قومية أو شعب وسائله الخاصة للوصول إلى الأهداف الشيوعية النهائية. وهذه الوسائل يجب أن تمليها عليه أوضاعه القومية الخصوصية. لا بالوسائل أو المنوال أو الشكل الذي تتخذه قومية أخرى».

ارتبط هذا التفسير بتأكيد الشيوعيين الغربيين ضمن الكتلة - استقلالهم عن عامة الاتحاد السوڤياتي. ووقف الكرملين موقفاً صارماً إزاء هذا التحول القومي المفاجئ. لا لأنه يناقض المبادئ الماركسية، بل لسببين سياسيين خالصين. أولهما؛ الرغبة الروسية التقليدية القديمة جداً في وجود منطقة موالية صديقة على طول حدود روسيا الجغرافية مع أوروپا الغربية حماية لنفسها من العدوان. وثانيهما؛ الجهود السوڤياتية المستميتة للتغلب على التحدي الصيني للزعامة السوڤياتية المهيمنة على العالم الشيوعي.

والسبب في ظهور الشيوعية القومية هو سياسي في الجوهر أيضاً. كان (تيتو) أول من عرض الشيوعية القومية بمواجهة السياسة السوڤياتية، عند محاولته اتباع سياسة

مستقلة. فطُرد حزبه الشيوعي من الكومنفورم[٣٣]. وبعد هذا تتابعت حركة التطهير الشبيهة بحركة التطهير الستالينية في روسيا ١٩٣٤-١٩٣٩ لتعم شرق أوروبا مستهدفة إزالة ما دُعي بـ(التيتوية) من صفوف الأحزاب الشيوعية.

أجل، كانت القومية عاملاً قوياً مؤثراً في تلك الحركات الثورية، التي قامت في پولندا في العام ١٩٥١ وأدت إلى احتلال عسكري سوڤياتي فعلي. وتكرر ذلك في العام ١٩٥٦. وانداحت الثورة لتغزو دولاً اشتراكية أخرى، ولم تُقمع تلك الانتفاضات إلاّ باستخدام القوة العسكرية الباطشة، والتصفيات الدموية، إلاّ أنها خلّفت آثارها الملموسة في كل من رومانيا وهنگاريا وچيكوسلوڤاكيا ودول البلطيق[٣٤].

* * *

---

(٣٣) اصطلاح مختصر لما عُرف بـ(مكتب الاعلام الشيوعي) أو منظمة الإعلام الشيوعية، أحلّه ستالين محل الكومنترن في العام ١٩٤٧ تبديداً لشكوك الغرب من نوايا الاتحاد السوڤياتي، قصُرت عضويته الكاملة على الأحزاب الشيوعية في الاتحاد السوڤياتي ودول الكتلة الاشتراكية في أوروپا فضلاً عن الحزبين الشيوعيين الفرنسي والإيطالي. وقد حلّه خروشوف في العام ١٩٥٦. والكومنترن أو الدولية الثالثة أوجدها لينين في العام ١٩١٩ لتكون رأس رمح الثورة العالمية ثم ألغاها.

(٣٤) على إثر طرد الحزب الشيوعي اليوغوسلافي من (الكومنفورم)، أمر ستالين بعمليات تطهير بين صفوف الحزب الشيوعي الپولندي في ١٩٤٩ لمن سماهم بالقوميين الپولنديين، وسُجن (كومولكا) السكرتير الأول للحزب، بعد تجريده من مناصبه. ولا يُعرف عدد من أُعدم. إلاّ أن انتفاضة ١٩٥٥-١٩٥٦ أطلقت سراح مائة ألف سجين سياسي پولندي، وعاد (كومولكا) ليتسلم زمام الأمور. وفي هنگاريا قاد حركة الشيوعية القومية (ايمري ناجي)، الذي كان خلفاً لـ(راكوزي) في زعامة الحزب. وفي ١٩٥٥ عمل (خروشوف) على التخلص منه كترضية لـ(تيتو) وكمحاولة لإعادة يوغسلافيا إلى المنظومة الاشتراكية. كان (راكوزي) قد أهان (تيتو) شخصياً. وفي ٢٣ من تشرين الأول ١٩٥٦ خرج طلاب جامعات ومدارس بودابست في تظاهرة عظيمة انضم إليها الجمهور، وانتهت بتقديم مذكرة وتصدت لها الشرطة بإطلاق النار. فانقلبت التظاهرة إلى ثورة وانضم الجيش إلى الحركة وطردت الوحدات السوڤياتية التي دخلت المدينة. وسرعان ما انبثقت مجالس محلية خارج العاصمة وعاد الفلاحون إلى احتلال حقولهم المؤممة، وذابت بيروقراطية الدولة وانهار النظام الشيوعي بأكمله في يوم واحد، وفُتحت أبواب السجون وأُطلق سراح (١٥) ألف سجين سياسي. ونودي بـ(إيمري ناجي) رئيساً للحكومة. وانطلقت النداءات والشعارات القومية والوطنية من كل جانب. ألّف (ناجي) حكومته من ائتلاف لأحزاب المالكين الصغار، والديمقراطيين الاشتراكيين والأحزاب القومية الفلاحية، التي خرجت إلى الوجود فجأة، وكأنها على ميعاد. وفي الأول من تشرين الثاني أعلن (ناجي) انسحابه من (حلف وارشو). وكان هذا أكثر مما يتحمله السوڤيات. فأُمرت الدبابات السوڤياتية باقتحام =

الأثر الطفيف الذي خلّفه الاحتلال النابليوني القصير لمصر أولد شعوراً غامضاً بالقومية المصرية استغله محمد علي الكبير استغلالاً استقلالياً، والنهضة الفكرية والأدبية التي بثّها أدباء سورية وعلماؤها عن طريق إحياء التراث اللغوي بقيت زمناً طويلاً يقظة فكرية إصلاحية بحتة لا ترمي إلى التحرر القومي والإستقلالية. وخلاصة القول لم تعرف البلدان الآسيوية والأفريقية ولا شعوبها إلى الفكرة القومية ذات الطابع التحرري الليبرالي النازع إلى الإستقلال الشبيهة بتلك التي سادت الغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ولم تبد بالملامح تلك إلاّ قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أثنائها.

العوامل والأسباب التي دعت إلى اليقظة القومية في هذا الجزء من العالم كانت تختلف اختلافاً بيّناً عن تلك التي سادت أوروبا، وتلك التي أدّت إلى نشوء القوميات والدول القومية في الأمريكتين.

في الغرب وجدنا أرضية الشعور القومي البكر توطأ وتُمهد بفلاسفة ومفكرين وبنزول زعماء وقادة ميدانيين (مجاهدين)، في حين وجدنا حملة لواء التحرر القومي في هذا الجزء من العالم وخلال الفترة التي حددتها يجمعون بين الصفتين. أضف إلى هذا كله - وبسبب من ذلك أيضاً، أن البلدان الآسيوية الأفريقية بقيت مع شعوبها تجهل إلى حد كبير فلسفة القومية الليبرالية التحررية الحقيقية تلك التي سادت أوروبا فاضطربت المفاهيم واتخذ النضال القومي في بعضها مسارات شبيهة بمسار المدرسة الألمانية.

= بودابست. وجرت معارك شوارع دموية وهرب (ناجي) لاجئاً إلى السفارة اليوغسلافية، وقُبض على العقيد (ماليتير) القائد العام الجديد للجيش الهنگاري وأعدم. واستمر القتال رغم إعلان (يانوس كادار)، وهو شيوعي قومي تأليف حكومة جديدة. تم القبض على (إيمري ناجي) أثناء محاولة تهريبه ونقله إلى رومانيا، ثم أعدم. وكان من نتيجة هذه الانتفاضة لجوء ما يزيد عن مائة وخمسين ألف هنگاري إلى البلاد الأوروبية. وفي چيكوسلوڤاكيا حاول (ألكسندر دوبتشك) الذي انتخب سكرتيراً أول للحزب الشيوعي هناك في ٥ كانون الثاني ١٩٦٨ خلفاً لـ(نوفوتني) تمرير إصلاحات اقتصادية وإعطاء حرية للصحافة تحت شعار «إعطاء وجه إنساني للاشتراكية» وساندته الصحافة وجماهير الطلبة. ودعا إلى مؤتمر استثنائي للحزب للمصادقة على جملة الإصلاحات، التي عدتها موسكو رجعية قومية واتجاهاً غربياً. وفشلت محاولات الإقناع التي مارسها (دوبتشيك) مع الزعماء السوفيات. وفي ليلة ٢٠-٢١ من آب ١٩٦٨ غزت قوات (حلف وارشو) چيكوسلوڤاكيا واحتلتها. وبعد مفاوضات عقيمة طرد (دوبتشيك) وآل به الدهر إلى تعيينه حارساً للغابات في سلوڤاكيا!

الحركات القومية هنا دفعت بقادة وزعماء مزدوجي المهمة، من أمثال سعد زغلول القاضي في مصر، والجنرال مصطفى كمال في تركيا، والشيخ القبائلي عبدالعزيز آل سعود في الجزيرة العربية، والمحامي غاندي في الهند والدكتور (سن يات سن) في الصين، وربما كان الأخيران أقرب من غيرهم إلى تفهم القومية من جانبها التحرري الليبرالي والإنساني.

في العام ١٩٢٣ وبعد أن تحقق طرد آخر جندي يوناني نجح مصطفى كمال الذي خُص بلقب (أبو الترك: أتاتورك) تشريفاً في إحلال جمهورية علمانية عصرية الطابع محل النظام الأوتوقراطي الوسيطي[٣٥] للسلطنة والخلافة العثمانية - الإسلامية، زعم أنها تقوم على مفاهيم قومية ليبرالية، إلاّ أن الجوهر بدا أوتوقراطياً متعصباً يقوم بالأساس على مفاهيم المدرسة الألمانية للقومية. فقد أقيم الصرح القومي على أساس قوميات متعددة (كردية، أرمنية، آشورية، عربية، يونانية) أي تتريكها، أي صبغها بالقومية التركية، بدليل قمع النظام القومي الجديد انتفاضات قومية للكرد بوحشية غير مسبوقة، وضم منطقة تسكنها غالبية من الناطقين بالعربية سكنى قرار إلى حدودها. وباتباع سياسة تنقية دينية بالنسبة للمسيحيين، سياسة أرغمت ألوفاً من الأرمن والآشوريين والسريان على ترك البلاد[٣٦].

في مصر حمل سعد زغلول وزملاؤه على عواتقهم دعوة القومية المصرية المستقلة (مصر للمصريين)، وحققت هذه الدعوة تآلفاً واتحاداً قومياً مصرياً غير مسبوق منذ الفتح العربي بين الأقباط والمسلمين، وانسحبت النعرة الدينية إلى الخلف المظلم ولم يعد لها أثر إلاّ في نداءات المتظاهرين (١٩١٩) بعناق (الهلال والصليب). ووجدت مصر نفسها في العام ١٩٢٢ وهي على عتبة واحتها من الاستقلال القومي.

وربما وجد في السياسة البريطانية خلال هذه الفترة بعد نظر وشيء غير يسير من الحصافة في توفيقها بين أطماع الإمبريالية الانكلوفرنسية وبين التطلعات القومية في البلاد الناطقة بالعربية. وربما وجدنا لوناً من المرونة والحذق السياسيين في إيجاد نقاط

---

(٣٥) نسبة إلى القرون الوسطى.

(٣٦) في العام ١٩٢٦ أجرت الحكومة التركية أغرب عمل تبادل قومي: فقد شحنت عشرات الألوف من الأتراك الأقحاح المسيحيين إلى اليونان مقابل يونانيين مسلمين، معتبرة الدين دليل إثبات للقومية!

لقاء مع القوى القومية الجديدة ومصالحها. وقد تبدت هذه الروح في تعاملها مع الثورة القومية الفكرية التي أطلقها (غاندي) في أربعمائة مليون إنسان. إذ فسحت الإمپريالية البريطانية المجال للمؤتمر القومي الهندي، الذي يعود إنشاؤه إلى العام ١٨٨٥ بتثبيت ونشر الوعي القومي على الأسس الليبرالية المستمدة من الأسلوب والنظام البريطاني، ليغدو أكثر تطرفاً وأقوى ساعداً في العام ١٩١٨، وهو العام الذي اقترن بانتقال النضال الهندي إلى مرحلة العمل على الإستقلال.

إلاّ أن القومية اليابانية التي تأثرت بخطى المدرسة الألمانية وملكها إله يُعبد مالبثت بعد انتصارها العسكري على روسيا في حرب ١٩٠٤-١٩٠٥ أن استخدمت تقدمها السريع الهائل في التكنولوجيا الصناعية لتضعه في خدمة أهدافها التحكمية العدوانية التي شلّت كل تحرك محلي نحو الليبرالية. فباندفاعها التوسعي كادت تقضي على ما حققه الوعي القومي الليبرالي، الذي اتبعته جهود الدكتور (سن يات سن)[٣٧] في الصين، وكان من نتيجته ولادة الجمهورية الصينية وقيام الحزب الوطني الذي عرف باسم حزب الكومنتانگ.

الجمهورية الصينية التي قامت على حركة البعث القومي، هددها التسلط القومي الياباني من جهة والشيوعية الصينية المدعومة بالاتحاد السوڤياتي من جهة أخرى، كما نخر في عظامها حكم (شن كاي چيك) المطلق. وعندما آلت السلطة فيها للشيوعيين أسرع حكامها الجدد هؤلاء ينأون بها عن الشيوعية التي ارتفعت عن (القومية الأممية super national communism) تماماً مثلما حاولت فئة من الدول الشيوعية فعله في أوروبا.

---

(٣٧) ولد في ١٨٦٦ وتوفي في ١٩٢٥: درس الطب في هونگ كونگ ثم في كانتون مسقط رأسه. تكامل وعيه السياسي في وقت مبكر، فألف في ١٨٩٤ ما عرف بـ(جمعية بعث الصين) وهي الأصل في مجموعات ثورية ألف فيما بينها ورئسها. بعد الفشل الذي مني به في انتفاضة كانتون ١٨٩٥ هرب من البلاد، وقضى في الولايات المتحدة ست عشرة سنة يعمل للحصول على دعم مادي وسياسي لحركته السرية. وعاد إلى الصين في مطلع الثورة التي عصفت بالحكم الملكي وأزالت حكم أسرة (فنگ) وانتخب رئيساً للحكومة المؤقتة. إلاّ أنه استقال مختاراً بعد اشهر قلائل احتجاجاً على الجو المحافظ الذي خلقه زملاؤه. ولم تتسن له السيطرة التامة إلا في ١٩٢٣، فعاد رئيساً للبلاد وأعلن نفسه قائداً عاماً. وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحكم حكّم أسس الحزب الوطني الصيني، الذي كان قد ألفه في العام ١٩١٤.

بدأ الجانبان يتراشقان بتهم ظاهرها أيديولوجي، وباطنها قومية صينية تأبى الخضوع للشيوعية الأممية. من مظاهر تلك النزعة القومية رفع (ماوتسي تونگ) إلى مقام الشرف الذي انفرد به (لينين) حتى ذلك الوقت. وكذلك تناقص نفوذ الصين عند الدول الأفروآسيوية الحديثة الولادة بسبب من نزعتها هذه، التي تُرجمت عند تلك القوميات بالتسلط القومي.

* * *

ويطيب لي قبل التطرق إلى تقويم الوعي القومي في البلاد الناطقة بالعربية خلال الفترة عينها أن أستعرض للقارئ تطور النزعة القومية وتقدمها في هاتين القارتين بشكل مختصر.

تاريخ عصبة الأمم التي تأسست بعيد الحرب العالمية الأولى يعكس ذلك كما يعكسها تاريخ الأمم التي تأسست عقب الحرب العالمية الثانية.

إن (معاهدة ڤرساي) هيأت في العام ١٩١٩ لقيام عصبة الأمم. تلك الحرب أزالت الإمبراطوريات الثلاث الألمانية والعثمانية وإمبراطورية هابسبرگ. ووزعت المعاهدة المستعمرات الألمانية في أفريقيا على شكل انتدابات لكل من بريطانيا وفرنسا وبلجيكا. كما قسمت مستعمراتها في المحيط الهادي بين كل من اليابان وأستراليا ونيوزيلاند بعناوين وأنماط سياسية مختلفة وبقدر ما كانت تلك المستعمرات تطمح إليه في تحقيق التحرر القومي والاستقلال. وكانت العصبة تضم وقت حلها في العام ١٩٤٦ اثنتي عشرة دولة أفروآسيوية[٣٨]. ومن الدول المنتدبة التي أنشئت على أشلاء الإمبراطورية العثمانية ووضعت تحت وصايتها لم يتحقق غير استقلال ثلاث دول أثناء وجودها وهي العراق وسورية ولبنان.

وفي العام ١٩٤٥ عند الإعلان عن قيام الأمم المتحدة كان فيها اثنتا عشرة دولة أفروآسيوية مؤسسة من أصل (٥١) دولة.

ما مر على الأمم المتحدة نحو من ربع قرن حتى أضافت إلى جمعيتها ستاً وستين دولة، منها خمس وخمسون دولة أفروآسيوية. ففي حين لم تكن نسبة عدد الدول

---

(٣٨) عند تأسيس العصبة كان هناك خمسة أعضاء مؤسسين من آسيا هم الهند والصين واليابان وتايلاند وإيران وعضوان من أفريقيا هما ليبيريا واتحاد جنوب أفريقيا. وفي أثناء حياتها انضمت إليها ثلاث دول آسيوية هي العراق وأفغانستان وتركيا.

الأعضاء من هاتين القارتين في العصبة تزيد عن ثلث عدد الأعضاء الكلي، وجدنا دولها في الأمم المتحدة تمثل نصف عدد الأعضاء الكلي بعيد الحرب العظمى الثانية. أما الآن فهي تزيد عن النصف بكثير. بعد الحرب العالمية الثانية حققت الهند وپاكستان وسريلانكا وبورما والملايو والفلپين استقلالها سلماً، وكذلك كان الأمر في أفريقيا في استقلال غانا وغيرها. أما الدول الأخرى فقد كان عليها أن تخوض غمار قتال مرير في سبيل تحررها ضد الفرنسيين في تونس والجزائر وڤيتنام ولاوس وكمبوديا وإندوونيسيا الخ.

من خلال حركات التحرر القومي في كل من هاتين القارتين حاولت الشيوعية بشكليها الصيني والسوڤياتي تجنيد أنصار لها في صفوف تلك الحركات الاستقلالية بإسداء المعونة في نضالها ضد الدول الرأسمالية الغربية، ثم بعد استقلالها بغية اجتذابها عن طريق تقديم المساعدات المالية والفنية والعسكرية.

إن سياسة الأمم المتحدة المعقدة، والمترددة أحياناً بين الجرأة والتخاذل، تقدم للباحث الاجتماعي والمؤرخ السياسي صورة طريفة لمشاكل القومية الحديثة. إنه لمن العبث الخارج عن الصدد محاولة تقديم سجل كامل أو نماذج لتلك المشاكل، وربما عدنا بذاكرة القارئ إلى بعض الامثلة: كنضال المستعمرة الهولندية في آسيا الذي تمخض بولادة الشعب الإندونيسي، ومواصلة وتوسط الأمم المتحدة في النزاعات حول إيريان (غينيا الغربية الجديدة) الذي دام حتى الستينات، وتدخل الأمم المتحدة المتكرر في النزاعات الشرق أوسطية منذ قيام إسرائيل ١٩٤٨، وأزمة السويس ١٩٥٦، ومعركة تحرير الكويت ١٩٩١، والنزاع العربي الإسرائيلي الذي لم ينته حتى كتابة هذه الأسطر. وفي أفريقيا يمكنك أن تعدد ما تشاء من هذا القبيل، فالمشاكل القومية ومشاكل الحكم هناك تبدو وكأن لا نهاية لها.

* * *

أين نضع القومية العربية في هذه الصورة العامة؟

ما هي تلك العوامل التي أدت إلى تبلور فكرة القومية لتكون لا هدفاً للتقدم الاجتماعي والحضاري وحدها، بل لتؤول إلى العمل على تحقيق هدف وحدة عربية يجمعها كيان سياسي كبير واحد يضم كل الدول الناطقة بالعربية دون استثناء وإن كان بعضها لا يفقه من العربية إلا بضع جمل فلا بأس.

بل من هو هذا العربي وكيف تحدد صفاته؟

وكما بينت في صدر هذا الفصل يندر أن تسلم التعاريف التي يضعها المفكرون الاجتماعيون والباحثون في السياسة والتاريخ من مطعن أو اعتراض. فإن توقع قارئي تعريفاً مني لمن يحق له الإدعاء بالعروبة أو يسمي نفسه عربياً فإني سأخيب ظنه، وكل ما أتصور وأنا تائه غريق في لجة التعاريف والتحديدات هو أن شعوراً غلاباً تحدده عوامل عديدة تختلف عند فرد وآخر قد يكون ظرفياً أو عرضة للتبدل أو الديمومة بيئية كانت أم حياتية أم اجتماعية أم لغوية أم اقتصادية أم سياسية أم مصلحة شخصية، أو عوامل لا تدخل تحت حصر. في رأيي أن الهوية العربية كغيرها من الهويات القومية تشبه النطق بالشهادة عند المسلمين. فمن ينطق بعبارة لا الله إلاّ الله ومحمد رسول الله ونبيه عن قناعة أو إخلاص أو بمؤثرات خارجية، عد مسلماً ولا جدال في إسلامه.

وهذا العربي؟ ما هي صفاته؟ كيف تراه الأقوام الأخرى غير العربية؟ هناك وصف عرضه الأستاذ (جول كارمايكل) في كتابه «العرب اليوم»[39] لا يخلو من مطاعن إلاّ أنه يتضمن قدراً كبيراً من الحقيقة:

«الميل إلى التطرف في كل شيء، فمن الإيثار إلى حد التضحية بالنفس إلى الأثرة إلى حد الأنانية المفرطة. ومن الحب العذري إلى التهتك، من الصداقة النادرة إلى الحقد الأعمى، من المثالية إلى الشغف بالماديات، من الديمقراطية الحقيقية إلى عبادة الشخصية المطلقة، ومن نهاية الاعتداد بالنفس والاعتماد عليها إلى سرعة اليأس والقنوط والاستسلام عند أول عقبة تعترض سبيله».

بعبارة موجزة إن في هذه الأمة التي تعرف بالأمة العربية قوى كامنة عظيمة تدفعها تارة إلى أنبل الأعمال وأشرفها وطوراً إلى أدناها وأتفهها. وبسبب من ذلك ترى هؤلاء القوم العظام الأذكياء والعقلاء بدون ريب، يعيشون بعواطفهم القومية ويتمسكون بها مهما باعدت بينهم وبين التقدم الحضاري، أكثر مما يعيشون بعقولهم وثقافتهم التي حصلوا عليها، ويصرفون حياتهم وأعمالهم اليومية بقوة المصالح الشخصية التي لا تترك سبيلاً لبلوغها إلاّ سلكته.

وتاريخ العرب كقومية رغم قصره، يشهد بأنهم ذوو ألمعية ومقدرة على مباشرة أي

---

(٣٩) أستاذ زائر في جامعة (روتركر) الأمريكية وباحث أقدم في جامعة نيويورك :Joel Carmichael .Arabs Today

عمل وأنهم ذوو نظر بعيد تفسده سرعة الانفعال والتأثر، إذ يفقدون قوة التوازن والرؤية فجأة ودون سابق إنذار، يتنابهم خمول وجمود عندما تداهم أحدهم مصيبة ويعيش فيها زمناً، وإن تحقق له أمل صبا إليه أخذته سورة من الغبطة يكاد معها يفقد رشده. وهذا ينطبق بصورة عامة على الفرد والمجموع والكبير والصغير والعالم والجاهل إلاّ فيما ندر.

من المتوارث في خلقهم عن الأجداد خصلة إخفاء العيب أو الهفوة أو السقطة استحياء أو استكباراً أو خجلاً، فيتجنبون التصريح بها ويعملون على إخفائها في أعماق الذاكرة. ويكرهون التذكير بها لأنفسهم أو لغيرهم، وهو أمر يؤدي بحسب رأي علماء النفس إلى عقدة معينة.

الشخص العربي يُستفز بسرعة وتنتابه سورة غضب حتى من أقرب الأقربين إليه لأقل تعريض به أو ما يعده من قبيل الإهانة أو الانتقاص، ويصفح وينسى بعين السرعة بالمديح والكلمة الطيبة.

وكل ذلك يجد تفسيراً في غرائب تصرفات الحكام الذين تسلطوا على مقادير أهل البلاد الناطقة بالعربية فيما بينهم ومع رعاياهم منذ أول دخولهم التاريخ حتى يومنا هذا.

وفي العربي قابلية للصبر وقوة احتمال غريبة يقف أمامها الغربي حائراً[٤٠] بالقدر الذي يقف ذاهلاً أمام رقة غريبة وهشاشة عود تكاد تنقصف عند أول هبة ريح. وينطوي تحت هذه الرقة عواصف من الكرم والمروءة والبذل تخرج عن جميع الموازين الطبيعية.

وبعامل التعايش والبيئة والظروف التاريخية تختلف الأقليات القومية غير العربية هنا بما هو شبيه بها، وربما استطعنا إسناد كثير من هذه الحالات النفسية إلى غير أهل العروبة. وربما كانت هذه المشابهة سبباً عند بعض القوميين العرب إلى إدراج بعض

---

(٤٠) بهذه المناسبة يحضرني حديث للطبيب الجراح العسكري (كيري ايڤانز) الذي رافق الحملة البريطانية في بلاد الرافدين. ومارس خلال بقائه طبه بين الأهلين. عزت له گيرترود بل في رسالتها المؤرخة في ٢٥ من كانون الثاني ١٩١٨ قالت إن هذا الطبيب بعد مئات من العمليات الجراحية أجراها للأهالي استخلص «أن مستوى الحيوية والتحمل هنا هما أعلى بما لا يقاس من ذلك في أوروبا، فالناس هنا يخرجون من عمليات جراحية لا يجرُؤ طبيب في بلادنا عليها، إن جهازهم العصبي أشد وأكثر احتمالاً وصموداً وإحكاماً بكثير، إنهم لا يتأثرون باطنياً بالصدمات.»

هذه الأقليات التي اختلطت اختلاطاً وثيقاً بمجتمع الأغلبية إلى عدّهم عرباً. وعلى أية حال، فإن مدلول (شعب) عربي أو وطن عربي أو أمة عربية لم يظهر إلى الوجود إلاّ في مثار نقع الحرب العالمية الأولى. وقبلها كانت لفظة «عرب» فحسب. وتداولت الألسن هذه العبارات إثر انتقاض شريف مكة على الحكم العثماني ورفعه راية الثورة، التي اشتهرت عند بعضهم فيما بعد بالثورة العربية الكبرى. في حين تجاهل أثر تلك الثورة بل ووجودها عرب آخرون. وقبل هذه الثورة لم يكن هناك دولة مستقلة واحدة تستخدم اللغة العربية لغة رسمية.

ربما كان ثم مصطلح العروبة Pan- Arabism يمثل أمنية الدولة القومية، وهو شعار كان غامضاً لوقت ما يشير إلى حركة وحدة عربية تضم أولئك الذين ثبتت أصولهم الإثنوغرافية، على أنها مع هذا أولدت أعظم قدر من النشاط والحرارة، لا في تحقيق الوحدة، لكن في التحرر من قيود الاستعمار والنفوذ الأجنبي.

والتحرك نحو الوحدة العربية بين الدول المستقلة التي استخدمت اللغة العربية لغة رسمية إنما بدأ قبيل الحرب العالمية الثانية بعقدين من السنين على الأكثر. ولم يكن تأثير الدعوة محسوساً قبل محاولة (الناصرية) تطبيقها عملياً. مع هذه المحاولات وفي خلالها وعلى إثر فشلها - ليس في إمكاننا القول من حيث المبدأ إنها لقيت تقدماً ما في أي وقت من الأوقات، أو أنها مدّت خلال المحاولات جذوراً عميقة.

وبخصوص هدف «العروبة» السياسي النهائي والأفق الذي امتد إليه نضالياً، علينا الإقرار هنا بحقيقة تاريخية. وهي أن كل ثورة أو صِدام أو حرب نشأ في أية بقعة من العالم الناطق بالعربية خلال قرننا هذا، إنما كان بهدف استقلال وتحرر كل بلد لذاته. سواء في الأمر أكانت هذه البقاع أجزاء وأقاليم أملتها الطبيعة، أم هي من عمل الأجنبي المحتل وتخطيطه.

كان ثمّة أصداء بعيدة تسمع أحياناً حول «وحدة عربية» من خطب وبيانات وكتب ومحافل في مناسبات عامة متباعدة فحسب. والتعبير الرسمي الوحيد الذي فتح الباب للتحرك نحو «العروبة» أو الوحدة العربية كان اختراعاً أجنبياً. فقد صدر من بريطانيا اقتراح وزير خارجيتها (السر أنطوني إيدن)[٤١] أثناء الحرب بتأسيس جامعة للدول

(٤١) سر أنتوني إيدن (Anthony Eden) ١٨٩٧-١٩٧٧: دبلوماسي بريطاني ووزير خارجية بريطانيا في معظم سني الحرب العالمية، مثير أزمة السويس ١٩٥٦ عندما كان رئيساً للحكومة. =

العربية تطبيقاً لسياسة حكومته العامة التي كانت ترمي في حينه إلى محاربة الآراء النازية المتفشية في البلاد الناطقة بالعربية وكوسيلة من الوسائل لمحاربة دول المحور. فالصرخة ل(إيدن) والجامعة صداها.

ورجوعي إلى ظهور الحركة القومية العربية بهدف الوحدة الشاملة ومحاولتي وضعها في إطار تطلعاتها، إنما يرمي إلى استكشاف منبتها ونسجها التاريخي. وأول ما أراه هو أن الافتراض المبتسر بردّها إلى عشرات الملايين التي يجمعها اللسان العربي إنما ينطوي على تناقض واضح بين الفكرة والواقع. فكما جاء ذكره، إن الفتوح العظيمة التي حققها العرب المسلمون قبل ثلاثة عشر قرناً إن كانت زرعت اللغة وأثبتتها حقاً، فقد فشلت فشلاً كاملاً في خلق قومية بسبب قصر اهتمامها على نشر العقيدة الدينية. إن حركة قومية تستند إلى اللغة ويحتضنها الإسلام في القرون الوسيطة كانت مستحيلة مثلما هي اليوم. كانت القومية العربية عند العرب الفاتحين لا تعني أكثر من الترفع والتعالي على الأقوام التي خضعت لهم والإدّلال عليهم بالقوة والسلطة وأصل الدين. وهكذا كان أقدم شعور بالقومية العربية في فترة من فترات الحكم الأموي (٦٦١-٧٥٠م) حين بلغ الشعور بالتفوق غايته القصوى. وليس لنا إلاّ أن نصدق بقول صاحب (العقد الفريد) وحكايته الطريفة في هذا الباب. ونتخذها دليلاً على ما أثبتناه، قال ابن عبد ربه[٤٢]:

«كانت العرب في أيام هذه الدولة - أي الأموية - يترفعون على سائر الأمم من الموالي وأهل الذمة ويعدّون أنفسهم فوقهم جبلّة وخلقة وفضلاً. وكان العربي يعد نفسه سيداً على غير العربي ويرى أنه خلق للسيادة وذاك خلق للخدمة. وتخاصم عربي ومولى بين يدي (عبدالله بن عامر) صاحب العراق، فقال المولى مخاطباً خصمه: لا كثّر الله فينا مثلك.

= وبخصوص تأسيس الجامعة العربية، فقد بدأت المداولات حوله قبل نهاية الحرب بسنة واحدة وبعض سنة. وتم تأسيسها رسمياً في ٢٢ من آذار ١٩٤٥، أي قبل نهاية الحرب بحوالي الشهرين. وأعضاؤها المؤسسون هم (مصر، اليمن، المملكة العربية السعودية، سورية، لبنان، العراق، الاردن) وهي اليوم تضم ٢٢ عضواً.

(٤٢) أحمد بن محمد (٨٦٠-٩٤٠م) من أدباء الأندلس وشعرائهم. اشتهر كتابه (العقد الفريد) وهو دائرة معارف أدبية وشعرية وتاريخية تمت طباعته عدة مرات بستة أجزاء. وعبدالله ابن عامر هو على ما أرجّح أحد رجال الحكم في عهد الخليفة الوليد بن عبدالملك. وينتسب إلى ربيعة.

فقال العربي: بل كثّر الله فينا مثلك.

فقيل له: أيدعو عليك وتدعو له؟

قال: نعم. يكسحون طرقنا (يعبدونها) ويخرزون خفافنا (أي يخيطون نعالنا) ويحيكون ثيابنا».

هؤلاء العرب الأقحاح وهم البدو المنتمون إلى القبائل الكبرى تراجعوا إلى صحرائهم وآض المجتمع السكاني الناطق بالعربية يحكمه حكم شبه عسكري متسلطون أجانب. والافتراض التعميمي بأن هؤلاء السكان - ولنسمّهم عرباً - لم يقعوا في إسار الحكم الأجنبي إلاّ عندما أتم العثمانيون الاستيلاء على بلادهم وحكموها أربعة قرون (١٥١٧-١٩١٧) هو افتراض مضلل إلى حد كبير. فالمجتمعات التي انطلقت تطالب بوحدتها القطرية وتدافع عنها بحافز ذاتي وشعور إقليمي في القرن العشرين كانت تخضع لحكام أجانب قبل الفتح العثماني ولفترات طويلة وبالأخص أولئك السلاطين الكُرد والترك والتتر والمغول والمماليك الذين حكموا ما يتألف منه اليوم مصر والعراق وسورية والحجاز وساحل الخليج بين ١١٨٠ و١٥١٧. المماليك في مصر كانوا في فترة من الزمن قوة مهابة الجانب تحتل مكانة عالمية وهذا واحد من الأسباب التي أبقت مصر متفوقة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً وثقافياً على الأقاليم الأخرى. فقد كان بوسعهم مثلاً تجنيب مصر الاحتلال المغولي الذي عانى منه العراق وسورية في انتصارهم بعد عامين من سقوط بغداد على جحافل المغول في معركة (عين جالوت) العام ١٢٦٠م.

حتى بداية القرن التاسع عشر، وهو مبدأ تمكن الدول الأوروبية من إرخاء قبضة العثمانيين عن شرقي البحر الأبيض المتوسط، كان كل البلاد الناطقة بالعربية تحت سيطرة عصابات من العبيد الحَرَس، تعود أصولهم بلا استثناء إلى منابت عرقية أخرى ولا شيء يربطهم بالبلاد التي يحكمونها غير سلبها. والدين الذي جمع الحاكم والمحكوم كان في أغلب الأحيان غطاءً مزيفاً لأطماع الحاكم وجرائمه.

لم يكن لهؤلاء العبيد الحَرَس متسع من الوقت لغير النهب وامتصاص دماء محكوميهم، ومحاربة بعضهم بعضاً على حساب أرواح المواطنين وبؤسهم. هذا التناحر الدؤوب ذو الطابع المدني لم يكن قاصراً على إضعاف أهالي البلاد، بل أدى إلى ميوعة حدودها وغموضها وإلى أن تكون مفتوحة لغارات البدو وغير البدو مستغلة ضعف الحاكم وعدم مبالاته. وقد أدى مما أدى إلى شلل النشاط الزراعي وإهمال

استغلال الأرض عمداً وتقليص إنتاج الغلة بقدر المستطاع كيلا يحتفظ الفلاح بفائض قد يؤول إلى المصادرة أو إلى النهب[٤٣].

وخلال الحكم العثماني الطويل زاد الوضع الحدودي غموضاً واضطراباً، إما بتسلط حكام (ولاة) لا يدينون بالطاعة للخليفة السلطان إلاّ بالاسم، وإما باعتماد المركز تقسيم الأقاليم الناطقة بالعربية على أساس يقصد منه تسهيل جباية الضرائب. وهذه (الولايات) نفسها لم تتمتع بأي استقرار حدودي بسبب من ذلك، فهي دائماً عرضة للدمج أو التقليص أو الإلغاء. تنشأ ولاية جديدة من ضم جزء من هذه وتلك لتختفي بعد حين. وتتقلص ولاية باقتطاع جزء منها وضمه إلى ولاية أخرى. وتدمج ولاية بولاية ثم تفصل الواحدة عن الأخرى. وبهذا تواصل العمل إلى آخر سني الإمبراطورية.

إن نشوء كيانات سياسية متميزة بالاسم من هذه الولايات، قدمت نفسها للعالم بوصفها دولاً عربية، إنما كان نتيجةً مباشرة لحدثين تاريخيين هامين. أولهما: بروز حزب تركيا الفتاة (جون ترك) في العام ١٩٠٨ وتسلمه زمام السلطة الفعلية في الإمبراطورية. وهذا الحزب هو الفرع المتطرف من حزب الاتحاد والترقي الموغل في التعصب للقومية التركية «الطورانية». وكما يلحظ القارئ هذا، فهؤلاء القوم لم يأخذوا من (يوسبّي ماتزيني) (إيطاليا الفتاة) غير الاسم والتغطية المزيفة بشعار الثورة الفرنسية المثلث (حريت. عدالت. مساوات)[٤٤].

تحت هذا الشعار انضمت طائفة قليلة من رجال البلاد الناطقة بالعربية المشتغلين في الأمور العامة ومن طلاب المراكز والمصالح[٤٥] في حين لم تُخدع الغالبية من مفكريها وحملة لواء النهضة المثقفين، بمناداة هؤلاء الانقلابيين بالمساواة بين جميع الرعايا العثمانيين دون تمييز أفي العرق أو الدين أو اللغة أو الأرض. وأبدوا شكاً في تنظيم الاتحاد والترقي وفرعه المتطرف. أولاً: لأن قادتهما جميعاً ومن غير استثناء هم

---

(٤٣) يعزو بعض الباحثين البايو - اجتماعيين أن هذا الوضع هو المسؤول عن حالة سوء التغذية العام الوراثي الشائع في البلاد الناطقة بالعربية خصوصاً، وبلدان الشرق الأوسط عموماً.

(٤٤) هكذا كانت تكتب بالتركية التي كتبت بالألفباء العربية.

(٤٥) من هؤلاء: المفكر القومي الدكتور ساطع الحصري، ورشيد عالي الگيلاني. فقد كانا من أنشط أعضاء الاتحاد والترقي أولهما في إستنبول وثانيهما في بغداد.

ماسونيون(٤٦) وثانياً: لأن يهود سلانيك (في اليونان) كانوا قلب الجمعية النابض ومموليها.

والى ما ذكرت يضيف الكاتب (ستون واطسن)(٤٧):

«الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الإتحاد والترقي هي انها ليست تركية وليست إسلامية. فمنذ تأسيسها لم يبرز من قادتها زعيم تركي خالص الاصل. فـ(أنور باشا) هو ابن رجل پولندي اعتنق الإسلام. و(جاويد بگ) من الطائفة اليهودية المعروفة بالدونما في اليونان (أسلمت طائفة منها في وقت قريب). و(كراسو) من اليهود الأسپان الذين قطنوا (سلانيك). و(طلعت بگ) بلغاري غجري (كاولي) إعتنق الإسلام. و(احمد جمال رضا باشا) الملقب بـ(السفاح) نصفه جركسي ونصفه الآخر هنگاري. و(محمود شوكت باشا) جركسي من أولاد المماليك (الكولمند). ليس بينهم تركي واحد».

بدافع من هذا الشك، ولظهور النوايا، عمد هؤلاء إلى تأسيس جمعيات سرية عديدة في مختلف الأقطار الناطقة بالعربية وفي العاصمة العثمانية نفسها. بعضها نادى بعين شعارات تركيا الفتاة وغطائها جمعية الإتحاد والترقي. إذ لم تكن لديها فكرة معينة للدعوة إلى قومية عربية جامعة تهدف إلى إقامة دولة أو دول مستقلة مثلما فعلت دول البلقان (صربيا، مونتينگرو، ألبانيا، اليونان الخ) كيانها منفصل عن الدولة العثمانية. بعد تعليق دستور ١٨٧٦ العثماني(٤٨). بدأ هؤلاء يطالبون بعودة الدستور والإصلاح

---

(٤٦) أخوية أو جمعية سرية، من أكبر وأقدم الجمعيات في العالم، يمارس أعضاؤها طقوساً ومراسيم معقدة. والأعضاء على درجات، تنتهي بالرئيس الأعلى لجميع المحافل الإقليمية. وتقصر عضويتها على الذكور. ولأصحابها معتقدات دينية خاصة لا يبوحون بتفاصيلها. وأقدم محفل لهم هو المحفل الإنكليزي المؤلف في ١٧١٧م. وهناك محافل فرعية ومستقلة لهم في أنحاء العالم كافة. وقيل إن عدد أعضائها الكلي قد يزيد عن ستة ملايين. حاربت الماسونيةَ الأديانُ كافة ورمتها بالإلحاد والزيغ. واتُّهم أعضاؤها في بلاد كثيرة بالتجسس والعمل لمصلحة الأجنبي صدقاً أو كذباً في حين ماكانوا يقبلون للعضوية ملحداً. وهذا من أعجب العجاب.

(٤٧) نهوض القومية في البلقان (Stone Watson: The Rise of Nationality in The Balkan) ص١٣٥.

(٤٨) استنّه مدحت باشا والي بغداد الشهير ثم الصدر الأعظم (رئيس الوزراء). أخذ بالأساليب الديمقراطية الحديثة (الانتخابات، البرلمان. الحد من صلاحيات السلطان). أعلن عبدالحميد الثاني تطبيقه والتقيد بأحكامه ساعة نصبه خلفاً لأخيه المخلوع عبدالعزيز، لكن ما لبث أن تنكّر =

تحت تأثير الجامع الديني. ما إن اتضح هدف (الجون ترك: تركيا الفتاة) للعيان إثر انقلاب ١٩٠٨، واعتماد الانقلابيين سياسة التتريك، حتى راح قادة الرأي والمثقفون العرب يفكرون بمستقبلهم على أساس قومي وبالأسلوب الذي احتذاه الثوار الترك قبلهم، فطفقوا يؤسسون جمعياتهم السرية الخاصة للدفاع عن حقوق العرب، لكن ضمن الإطار العثماني.

لم تكن هناك نزعة استقلالية قط ولم يبد شيء من هذا في برامج أي جمعية من تلك الجمعيات[٤٩]، إلاّ أنها على كل حال أيقظت شعوراً قومياً واضحاً دفعت به أحداث الثورة الحجازية، التي عرفها بعضهم بالثورة العربية الكبرى إلى الأمام، وبلورت الفكرة الاستقلالية منه بلورة تامة.

* * *

وبالرجوع إلى التعبير الوحيد للحياة العربية بالمعنى العرقي الضيق تبرز لنا الحركة الوهابية، التي نبطت في قلب جزيرة العرب ونادت في القرن الثامن عشر بالرجوع إلى مبادئ الإسلام الأولى. وهي حركة مبدئية فكرية خالية من أية ميول قومية قصرت اهتمامها على تنقية الإسلام من الممارسات الدخيلة والخرافات التي لصقت به عبر القرون. مع هذا فقد قدّر لها أن تعمل عمل مبدأ تنظيمي لبدو الشمال اشتم منه نسمات من ريح الاستقلال والتحرر. وتلك ظاهرة غريبة بحد ذاتها نواجه فيها واحداً من

= له وأبطل العمل به واستاق مدحت وكل من زامله في عمل الدستور إلى محاكمة صورية بزعم التآمر على حياة أخيه المخلوع. ونُفي أبو الدستور إلى الطائف حيث دبر أمر قتله خنقاً في السجن ١٨٨٤ وله من العمر ٦٢ عاماً.

(٤٩) بين الجمعيات السرية التي تسنى لي إحصاؤها: (جمعية العربية الفتاة) وتعرف بالفتاة فقط أو بـ(العربية الفتاة) في سورية ولبنان، و(الجمعية الثورية السرية) في سورية و(جمعية الإخاء العربي العثماني) و(المنتدى الأدبي) و(الجمعية القحطانية) و(جمعية العلم الأخضر) و(حزب العهد). هذه كلها تأسست بالأصل في البصرة وعمادها الضباط: (الجمعية الإصلاحية) في البصرة. (النادي الوطني العلمي) في بغداد. (حزب اللامركزية الإدارية العثماني). وكان لمعظم هذه التنظيمات فروع في غير محل تأسيسها. لم أجد شخصية مصرية بارزة تشارك في هذه الأحزاب غير شخصية الضابط عزيز علي المصري، أحد مؤسسي حزب العهد. فقد كان في مصر أثناء تلك الفترة وقبلها أحزاب مصرية بحتة وأظهرها (الحزب الوطني) الذي تزعمه مصطفى كامل و(حزب الأمة) الذي تزعّمه أحمد لطفي السيد و(حزب الإصلاح) على المبادئ الدستورية. وهي من الأحزاب التي سبقت حزب الوفد وخمل ذكرها بقيامه، أحزاب مصرية صرفة لا علاقة لها بالعروبة.

النقائض الاجتماعية - التاريخية. فمع إن الوهابيين عرب أقحاح، إلاّ أن اهتمامهم القاصر انصبّ على تنقية الإسلام من الشوائب التي علقت به وجعلهم مسلمين أولاً. وعلى أساس من هذا، فإن وعياً سياسياً للعرب شبيهاً بذلك الوعي الذي زال وتفوّق بنجاح في نشر وتعميم الدين الإسلامي عند أول ظهورهم على خشبة مرسح التاريخ البشري، لا تستطيع أن تجده في أنسالهم هؤلاء. تراهم دون شعور منهم يقطعون مسافة طويلة للعودة إلى أقدم فترة من فترات البداوة القبائلية وهي الفترة التي تتقدم الوعي القومي. وأعني بذلك الوعي الذاتي للعرب الأقحاح (البدو) إزاء المستعربين أو مدّعي العروبة، وهم سكان المدن أو الحضريون، من دون مقدرة ولا إرادة في إحياء تراث العرب والإسلام الفريد. وها هوذا دين عالمي ولغة عالمية. أمن الممكن أن يستخدما معاً لتغطية حالة تفردت بها اللغة في تحديد المجتمع ذي الجنسيات المتعددة تحديداً يستبطن صهراً وإذابة؟

مع هذا كله، فنحن نخطئ خطأ بيّناً إذ نقول بأن التفوق القومي العربي قد زال. فما برحت حتى يومنا هذا شجرة نسب تعود بصاحبها إلى قبيلة عربية معروفة أو إلى أسرة النبي أو قبيلته، أو إلى أصلاب الخلفاء راشديهم وأمورييهم، حرزاً ثميناً ومدعاة فخر ووثيقة إثبات للعربية الأصلية. وإن كان هذا التفوق يخلو اليوم من معنى كبير(٥٠).

كذلك من العبث أن نبحث عن تجربة تاريخية مشتركة جمعت كلاً من مصر واليمن والعراق ومراكش، لا لأن الفروق بينها عميقة بطبيعتها بل لأن التفاعل الناجم عن التماس والروابط قبل إنشاء دولها الحديثة لم يكن له وجود. بل حتى عندما كان الإسلام حقيقة ساطعة لامعة تنبض بالحياة. فتلك الدول التي قامت قبل هذا العهد لم تعمل معاً وبانسجام حتى ضد الغزاة المغول والصليبيين والتتر والأتراك. وعلى الصعيد السياسي لم يؤطر تناسقه الأيديولوجي بأي إطار من الوحدة الصميمة. ففي خلال السنوات الألف التي سبقت الحرب العالمية الثانية كانت هذه الدول التي عُرفت بعدها بالدول العربية تنافس إحداها الأخرى وتنازعها بدرجات متفاوتة.

---

(٥٠) عند البدو الأوائل كان ينظر إلى المنحدر من صلب الأم بعين المستوى الذي يُنظر به إلى المنحدر من صلب الأب، لكن منذ قيام الخلافة العباسية لم يعد للأول منهما قيمة. إذ كان معظم أمهات الخلفاء من الإماء والمحظيات الأجنبيات. حتى الأئمة العلويون وأنسالهم فلم تخل دمائهم أيضا من دم الأجنبي لعلّة التزاوج اعتباراً من الإمام الرابع فصاعداً.

كانت مفاهيم القومية العربية في الواقع موضع اهتمام وخصوصية أقلية ضئيلة، والأغلبية لم يكن قد مسّها ولو عن بعد مفهوم للقضية واضح المعالم، كانت تبدّت القومية خلال الحربين العالميتين فهي أشبه بانفجارات عاطفية حماسية كثيراً ما استخدمها الساسة المحليون أداة سيطرة ومساومةٍ وعنف وتحريضٍ غوغائي.

ومصر بالذات وهي أكبر بلد مسلم ناطق بالعربية، الدولة التي تعتز بأطول كيان سياسي حديث وهوية، كادت تكون منغلقة على نفسها منشغلة بذاتها خلال العقود الأربعة الأواخر والأربعة الأوائل من القرنين التاسع عشر والعشرين. لم يكن هناك محل للعروبة أو القضية العربية. فقد سيطرت على تفكير كتابهم ومفكريهم والمشتغلين في الأمور العامة منهم مسألة التخلص من السيطرة البريطانية والامتيازات الاجنبية. ومن نتيجة ذلك ولدت القومية المصرية وراحت بعيداً عن القومية العربية واتخذت صبغة إقليمية بحتة. وبقيت كلمة عربي عندهم تعني البدوي في مصر. كانت نسبة الفلاحين ٩٠٪ من مجموع السكان وكان من الصعب حتى أن تشرح لهم كيف إن مجرى الأحداث جعل بدو الصحراء الدخلاء عليهم تاريخياً (وأحياناً الأعداء) صنواً معادلاً لهم وهم فلاحو أقدم دولة فلاحة في العالم.

والقبط والآشوريون (قاطبة مسيحيي العراق) وهما أقدم مجتمعين عرقيين مسيحيين في الوجود لم يتأثروا بريح القومية العربية ولم تفز منهم بطائل، ولم يعلق منها شيء في أذهانهم خلال العقود الثمانية التي حددناها آنفاً. إن استجابتهم الوحيدة الواضحة إلى وسطهم الإسلامي هو استجابة التعايْش في الوطن الواحد خلال حقب موغلة في القدم، استجابة محيط وبيئة وخضوع متساو تقريباً لتعامل سياسي معين، ولحاكم أجنبي واحد.

والأمر يختلف في سورية ولبنان، ففضلاً عما ذكرناه، استخدم المسيحيون هنا فكرة القومية بمثابة جسر يصلهم بالأغلبية المسلمة، لكن في الوقت الذي وجد علماؤهم وأدباؤهم ومفكروهم أن رفع شأن اللغة العربية وبعث تراثها العلمي والأدبي وأن تهيئتها لاستقبال منتوج الحضارة والفكر الغربيين سيؤديان إلى بلورة الدعوة للقومية العربية، بقي القبط مشدودين إلى وجهة النظر الفرعونية التأريخية التي قُدّر لها في حين من الزمن أن تسري عدواها إلى المسلمين المصريين بشد الطرفين إلى الماضي المصري العريق المؤدي إلى الوطنية المصرية البحتة. لهذا بقيت مصر مدة غير قليلة بعد الحرب العالمية الثانية مشدودة إلى فكرة الوطن المصري ومشاكله لاسيما مع الدولة صاحبة

النفوذ فيها. وكل ذلك يتجلى فيما كتبه سياسيوها الأدباء ونظمه شعراؤها العظام وعلماؤها الاجتماعيون وأدباؤها الخالدون في سفر تاريخ اللغة العربية.

كان الوضع البائس المزري للأغلبية الساحقة من المصريين لا يسمح لهؤلاء بفسحة من الوقت ليلهوا بترف المناداة بالعروبة والوحدة العربية، بل التعصب لفكرة قومية مهما كان نوعها. وما كانت الدعوة إلى الفرعونية إلاّ جزءاً من محاولة مقارنة لهذا الوضع الشقي بالتذكير بالماضي المجيد.

كان المصريون المسلمون يشعرون بإسلاميتهم وبارتباطهم الديني مع البلاد الناطقة بالعربية وبعض كتابهم وسياسييهم المتأدبين دعوا عملاً إلى توثيق هذه الرابطة بشعور منهم على أية حال بأنهم أعضاء في الجمعية الإسلامية الكبرى الواسعة الرحاب. وفي داخل هذا الإطار بقي ارتباطهم المحلي قوياً بارزاً. إنه لموقف يتفق تماماً مع تعاليم الإسلام ونهجه. فالدين في الإسلام فوق القومية.

في هذا المجال لا يسعني تجاهل ما كتبه «من المختارات» العام ١٩٦٧ المفكر والأديب الكبير سلامة موسى، وهو قبطي يمثل طائفة الوطنية المصرية:

«في العام ١٩٣٠ أكثر ما كنت أخشاه هو أننا سنتغلب على المستعمرين ونطردهم لكننا سنعجز عن التغلب على العصور الوسطى في حياتنا ونهفو إلى الدعوة القديمة: العودة إلى الأقدمين. إن الثورات الاجتماعية والتكنولوجية والسياسية في عصرنا هذا خلقت مجتمعاً جديداً معقداً غريباً، بحيث لم يعد في الماضي العربي دروس مجدية، وشريحة كبيرة منهم تعمل حثيثاً لإحياء المجد الضائع. وهو أقوى الآن من أي وقت مضى والسبب بسيط: النصف الماضي من هذا القرن قد جلب للعرب ست حروب كبيرة وعدداً آخر أصغر منها، معظمه كانت عاقبته الهزيمة على يد دولة حديثة جداً، صغيرة جداً تستند في دعواها بالأرض إلى تاريخ قديم. وهي أيضاً تجد قوة معنوية كبيرة في دينها، إلاّ أنها تكيفت بنجاح يفوق أي نجاح آخر بلغته الدول العربية بمراحل وفقاً للأساليب الحديثة والتطور الحضاري الذي بلغه العلم. الوجود الإسرائيلي منغرز في الفكر العربي بوصفه إنكاراً لماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم. ولتفسير تلك المحنة استمر العرب في لوم القدر واليهود والغرب والله. والمؤامرات والأكاذيب».

في حين يكتب (عبدالرحمن عزام) وهو أول أمين عام للجامعة العربية (العام ١٩٤٦):

«المؤمنون في جميع أطراف الأرض إخوان لا تفرقهم الأوطان ولا العصبيات ولا المنافع ولا الخوف ولا المنفعة ولا العبودية ولا سبب من الأسباب. للمسلم حق الأخوة على المسلم أينما حل وأينما كانت الدار. **فلا جنسية تميز الجنسية المشتركة التي يكفي لثبوتها شهادة لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسوله.**

والدعوة المحمدية **لا تعرف الوطنية والعنصرية** بالمعنى الحديث. فوطن المسلم ليس له حدود جغرافية فهو يميد مع العقيدة بل هو في الحقيقة وطن معنوي والمسلم أخو المسلم أينما كان، أجاوره أم تباعدت به الأرض. والمسلم أينما حل في دولة إسلامية فقد حل في وطنه».

وقبله كتب الصحافي والشخصية العلمية المصرية (رشيد رضا)[٥١] في مجلته الشهيرة (المنار- ١٩١٤) من مقال بعنوان (الجنسيات في المملكة العثمانية):

«لم يوجد دين من الأديان ألّف بين شعوب وقبائل مختلفة في جميع روابط الجنسية وجعلها أمة واحدة وجنسية واحدة إلاّ الدين الإسلامي وقد بينا هذا مراراً فلا نعيده الآن... **إن العصبية الجنسية في هذا العصر قد دخلت في طور سياسي جديد وكان العرب آخر الأجناس شعوراً به، الآن سوادهم الأعظم مسلمون يكادون لا يشعرون بغير الجنسية الدينية».**

من هذا يتضح للقارئ موقف اللامبالاة الذي اتخذته مصر من الانطلاقة الحجازية في العام ١٩١٥ التي عُرفت بالثورة العربية الكبرى، وقد نبتت فكرتها في مصر التي كانت أيضاً قاعدة تموينها وتمويلها وإسنادها عسكرياً وفي معزل تام عن المصريين كما سنرى. وكل هذا سيأتي بحثه بتفصيل.

على أن عبدالرحمن الكواكبي السوري النجاد ميّز في كتابه (طبائع الاستبداد) بين المسلمين العرب والمسلمين غير العرب...

---

(٥١) محمد رشيد رضا ١٨٦٥-١٩٣٥: أصله من لبنان، إلاّ أنه عاش طوال عمره في مصر. هو مؤسس مجلة (المنار) ورئيس تحريرها، من علماء الدين الإسلامي وأحد رجال النهضة المصرية. ومن تلاميذ الإمام الشهير محمد عبده.

«تلك المكانة الخاصة التي يجب أن يحتلها العرب في الإسلام بفضل لغتهم وشرف نسبهم ولأن عرب الجزيرة هم المؤهلون لإعادة مجد الإسلام لأن العناية الإلهية حمتهم من الفساد الخلقي الذي ألمّ بالأتراك. . .».

فهو يستبعد والحالة هذه كل من يرى نفسه عربياً من غير المسلمين، وكما ترى أيضاً لا تجد في هذا القول دعوة إلى القومية، فتركّزه منصب على الإسلام بالدرجة الأولى[٥٢].

قبل أن يعلن السلطان عبدالعزيز آل سعود عن قيام مملكته بعنوانها الحالي كان بوسعه أن يقول دون تردد بأنه مسلم أولاً وعربي ثانياً. وكثير من حكام الدول العربية القوميين عقيدة وتسلكاً لا يستطيعون إلاّ مجاراته في هذا. إن موقفاً كهذا من الملك السعودي، وهو موقف يعيد إلى الذهن الأحوال السياسية التي سادت القرون الوسيطة ساعده على أن يستخدم لإدارة بلاده مسلمين من العراق ومصر وسورية وغيرها من البلاد الإسلامية. دون أن يجد في ذلك أي حراجة. القرن التاسع عشر كله لم يعرف قضية للعروبة وللعرب في المحافل السياسية الدينية. وقليلاً ما كانت لفظة «عربي» أو «عرب» بالذات تطلق في الوثائق والسجلات الرسمية على سكان الجزء العربي من الإمبراطورية العثمانية، تماماً مثلما كانت الصفة بعيدة عن الكتب والمؤلفات التي وصلتنا من القرن الثاني عشر فصاعداً، بالأحرى كانت تطلق على بدو الصحراء وإلى حد ما على بعض سكان الأرياف. فالمتعارف المتفق عليه هو إطلاق لفظتي مسلم أو مسيحي لبيان الفرق حيثما دعت الحال[٥٣].

في عراق القرن التاسع عشر، بل قبل الحرب العالمية الأولى، كان قسم كبير من السكان لا يشعرون باختلافهم عن الترك طالما جمعتهم رابطة الدين. والأغلبية الشيعية فيه بقيت مستكنة للتسلط العثماني ومماليك الحكام لأنهم كانوا إسلاماً على أية حال. العراقيون جميعاً ومن ضمنهم الأقلية المسيحية كانوا يعتبرون الدولة العثمانية دولتهم والخليفة السلطان رئيسها غير المنازع. وإليك ما يكتبه (توفيق

---

(٥٢) ١٨٤٩- ١٩٠٢: كاتب اجتماعي وصحافي سوري - حلبي أنشأ في مدينته جريدة (الشهباء) في ١٨٧٧ ولاحقه الأتراك بسبب آرائه في الحرية. (انظر عن سيرته في هوامش الفصل الأول).

(٥٣) اعتاد الأتراك أن يطلقوا على هؤلاء عبارة (پس عربلر) أي العرب القذرين وأمثالها من العبارات المهينة.

السويدي)[٥٤] في هذا الصدد:

«كل الذي عرفه أهل العراق عن انقلاب (الجون ترك ١٩٠٨) هو أنه سيجعل المسلم وغير المسلم إخواناً في الوطن الواحد وأنه سيحدّ من سلطة الخليفة وهذا ما لم يرضه أحد منهم، حتى أن أكثر المصلين في المساجد (ببغداد) بكوا على سلطانهم (عبد الحميد) عندما ورد في خطبة الجمعة لأول مرة اسم السلطان محمد الخامس».

وليس من قبيل التكرار أن نعيد هنا ما أثبتناه من قول للرحالة والمبشر البريطاني (ويگرام) في كتابه (مهد البشرية) لوجه الشبه بين القولين عن الموصل لعين المناسبة:

«الحق يقال إن هذه المدينة هي من أشد مدن الإمبراطورية العثمانية تعصباً وهي بالتأكيد البقعة الوحيدة التي كان رجالها يبكون في الشوارع عندما سمعوا نبأ خلع السلطان عبدالحميد، ويندبونه بحرقة قلب. فبينما كانت البهجة تعم أرجاء الإمبراطورية بسقوط الطاغية، أقيمت في الموصل مناحات تتحدى الحكومة، كنت تسمع خلالها هذه العبارة الرائية: اليوم هوى ركن من أركان الإسلام».

في وقت متأخر لهبوب الريح القومية لقبت هذه المدينة بقلعة العروبة والقومية وحملت لقبها بجدارة في أحداث آب ١٩٣٣ الدموية.

المسيحيون الناطقون باللغة العربية منقسمون على أنفسهم رغم أنهم الأوائل في تبني الفكرة القومية. فالتظاهر الشديد بالإسلام عند القوميين العرب خلق ردة فعل عميقة أدت إلى بحث جدي بينهم عن حقيقة هويتهم القومية، وقد حمل لواءه الآشوريون في بلاد ما بين النهرين في عين الوقت الذي أعلن المارونيون احتجاجهم على تسميتهم عرباً. المارونيون كانوا أول المنضوين من كنائس المشرق تحت راية الفاتيكان، وكان ذلك في العام ١١٨٠م، أي قبل سقوط الخلافة العباسية بحوالي ثمانين سنة، ثم وضعوا أنفسهم تحت الرعاية الفرنسية منذ أوائل القرن التاسع عشر - هؤلاء والطوائف الأخرى المسيحية اقتبلوا اللغة العربية بمثابة سبيل للخروج من عزلتهم

---

(٥٤) توفيق السويدي ١٨٩٢-١٩٦٨: من أسرة عربية عراقية اشتهرت بعدد من العلماء والأدباء. تولى رئاسة الحكومة العراقية ثلاث مرات. وكان وزيراً في عدة وزارات. ذو دور هام في عالم السياسة العراقية والعربية.

التقليدية. لكن سرعان ما انكفأوا على الأعقاب وعادوا إلى وضعية الدفاع عن النفس إزاء المحيط الإسلامي الذي اكتنفهم بعد اقتبال المسلمين الصيغة الشوفينية المتعصبة من القومية - أي بعد صيرورة مسلميهم عرباً قوميين، مقترنة قوميتهم بتلك الصحوة الإسلامية المتشددة. وبدأوا هم من جانبهم يبحثون عن هويتهم القومية مقترنة أيضاً بالصحوة المسيحية إن جاز لنا التعبير، فدعا أدباؤهم وساستهم ومفكروهم إلى إحياء ما دعي بالقومية السورية. والأصل الآرامي والفينيقي وما لا أدري. ومثلهم في هذا مثل مسيحيي العراق العربي.

في العقدين الأولين من القرن العشرين لم يكن هؤلاء يشعرون بعاطفة قومية واضحة تشدهم إلى الماضي. وفي المبدأ لم يكن يعنيهم في شيء أن يصنفهم القوميون الجدد في عداد العرب، أو أن يعاملوهم كما عاملتهم الدولة العثماينة من قبل، أي اعتبارهم (ملة) أو(طائفة) على أساس الدين فحسب. لأن «العثمانية» كانت الخيمة التي نُشرت فوق كل القوميات في الإمبراطورية. إلاّ أن الاحتلال البريطاني غيّر كل شيء بالنسبة إلى علاقة الأقليتين الهامتين المسيحية واليهودية بالأغلبية المسلمة.

في العام ١٥٥٢ انضم فريق من أتباع كنيسة المشرق إلى الفاتيكان وعرفوا منذئذ (بالكلدان) وإزداد عدد المنضوين إلى الكثلكة طوال قرنين من الزمن لتغدو هذه الطوائف المنشقة عن الكنيسة الآشورية (كنيسة المشرق) أغلبية طائفية واضحة في القرن العشرين. هذه الطائفة المستجدة ربما شعرت بنوع من الامتياز والرعاية خاص بسبب قيام علاقات دبلوماسية بين السلطان العثماني وبين ملك فرنسا وپاپا روما ضمنتها وعززتها معاهدات خُصت فيها فرنسا والفاتيكان بامتيازات معينة تتعلق بحرية التجارة والتبادل الاقتصادي وبحرية نشاط البعثات الدينية. وقد حصل في العراق مثلما حصل في سورية ولبنان لكن بنطاق أضيق.

وبخلاف أتباع كنيسة المشرق (الآشوريين) سكان الجبال والقرى والبلدان في قلب كردستان، بقي حضريو المسيحيين العراقيين حتى العقد الثاني من القرن العشرين، والشعور القومي مبهم لديهم غاية الإبهام لا يهمهم في شيء إن صُنفوا في عداد العرب أو أخرجوا من دائرته. إلاّ أن الحال انقلبت فجأة عندما ارتفعت يد الأتراك عن هذه البقعة من الأرض بالغزو ثم الاحتلال البريطاني.

بالأول عرف العراقيون السلطة المحتلة بهويتها المسيحية، وقد حاربوا جيوشها الغازية إلى جانب الأتراك بحمية الدين المشترك وجهلوا أو ربما تجاهل العارفون منهم

علمانيتها وبأن رئيس دولتها لا يشبه خليفة إستنبول المسلم بأي حال، بمعنى إنهم صنفوا السلطة الجديدة على الأسس التقليدية القديمة، وكانت شبه مقاطعة لاسيما من الأغلبية الشيعية. وبشعور واضح لهذه الحالة لم يكن بالمستغرب قط أن يشجع البريطانيون الشعور القومي العربي، كمحاولة للحد به من الشعور الديني المتعصب ضدهم. وقد جاءت ومعها طاقم للحكم مشبع بالحماسة القومية العربية من رجال الثورة العربية الكبرى، وهيأتهم لتسليمهم مقاليد الحكم والإدارة من المبدأ حتى الاستقلال. ثم وبعد تأمينهم استغلال النفط لم يعد يهم البريطانيين إن ذبح العراقيون بعضهم بعضاً أو تصافوا، فهم مع القوميين أو مدعي القومية عندما يجدون فيهم آلة لتحقيق التوازن في الداخل من شأنه أن يبعد الخطر عن النفط، وهم ضد الأقليات القومية عندما يجدون إن المطالبة بالحقوق والمساواة قد يضع استغلالها النفطي في خطر. وليفكر القوميون العرب ما يفكرون وليفكر الشيعة ما يفكرون وليفكر الآشوريون ما يفكرون وليفكر الكُرد ما يفكرون، فالنتيجة واحدة لأن الهدف واحد.

يقول القوميون العرب إن بريطانيا هي التي حرضت الكُرد وهي التي حرضت الآشوريين ضد القومية العربية، والآشوريون يرفعون ظلامتهم للعالم كله بسبب وقوعهم ضحية الخيانة البريطانية، والكُرد يحملون اللوم والتبعة على القوميين العرب المتعصبين الذين يلاقون تشجيعاً بريطانياً على سحق انتفاضاتهم وثوراتهم بإرسال سلاحهم الجوي علناً لدك قراهم ومعاقلهم. والجميع ضحايا هذا الخداع البالغ التعقيد ولم يكن هناك عاقل واحد بين الأغلبية العراقية ولاسيما القوميين منهم من ينتبه إلى هذا.

ولتشجيع البريطانيين فكرة القومية العربية في العراق سبب حيوي آخر يتعلق بإنجاح سياستها في بناء عراق بحدوده الجغرافية الحالية، فقد كانت هناك مطالب جدية لإقامة كيان كُردي مستقل، وكان هناك تهديد تركي بقطع ولاية الموصل عن هذا الكيان، فضلا عَن مواجهة التهديد الشيعي في الجنوب. وقد دفع البريطانيون ثمناً فادحاً لهذا في ثورة العشرين والثورات الكُردية المتلاحقة.

كان البريطانيون بحاجة إلى أيديولوجية قومية لبناء هذا الكيان وقد وجدوها في القومية العربية واختاروا لها خير من يمثلها في نظرهم!

ما عتم البريطانيون أن وجدوا الطريق ليس بالسهولة التي ظنوها. كانوا بحاجة ماسة إلى متعلمين وموظفين وكتبة وعمال ومستخدمين. وإزاء المقاطعة الشيعية، وقلة هذه الأصناف بين العراقيين الآخرين المسلمين، لم يكن هناك بد من استخدام

المسيحيين واليهود لملء هذه الشواغر، وأقبل هؤلاء، وبينهم نسبة كبيرة جداً من المتعلمين ذوي الكفاءات المطلوبة، دون حرج من دين وبدافع الحاجة. ومن هنا بدأ الشك القومي في أن المحتل يخص هاتين الأقليتين برعاية خاصة وأنه يريد أن يخلق منهم طبقة جديدة تساند وجوده الدائمي في البلاد. وارتفع الشك إلى شبه اليقين عندما عمدت القيادة العسكرية إلى تجنيد الليفي الآشوري[٥٥] ورؤي كل ذلك كنوع من المحاباة والارتفاع بالصلة الدينية بين السيد المحتل وهؤلاء.

وإلى حد ما كانت النظرة إلى الأقلية الهامة اليهودية مشابهة، على أن اليهود بقوا طوال خمسة وعشرين قرناً وأكثر في بلاد الرافدين محتفظين بهويتهم مع أنهم لم يعرفوا في حياتهم إلاّ العربية. ولم يستخدموا لغتهم العبرية إلاّ لقراءة التوراة. وظلوا يتمسكون بطقوس دينهم ولم ينقسموا إلى فرق وطوائف ولم تؤثر فيهم الإرهاصات التي طرأت على إخوانهم في أوروبا وأمريكا. كما إنهم لم ينتسبوا إلى قومية، ولم يطلقوا على أنفسهم إسماً لقومية. لم تصلهم ريح النهضة القومية وعصر الانفتاح القومي للقرن التاسع عشر، ذلك العصر الذي كان هؤلاء ضحيته في كل مكان. وقد وفقت الحركات القومية ذات الطابع الإنساني الليبرالي في القضاء على عوامل التمييز العنصري والديني إلى حد كبير. لكن عندما أخذت القوميات الأوروبية تواجه الحكام الأتوقراطيين في صراع دموي، وجد اليهود أنفسهم في موقف خطير. فهؤلاء اعتادوا الخضوع للنظام السائد مهما كان لونه، وتعلموا أباً عن جَدٍّ عن سلف قيمة الولاء لصاحب السلطة الفعلية. فكان القوميون ينظرون إليهم دائماً كأعداء زرعوا في وسطهم، وفي عين الوقت كان هؤلاء الحكام في محاولة منهم لتحويل العاصفة وتخفيف الضغط عنهم، يثيرون اهتمام خصومهم باستعداء شعبي وإثارة جماهيرية ضد هذه الأقلية باستخدامها كباش فداء. فيثيرون مذابح قد تكون عفوية وقد تكون منظمة، وفي هذا تلتقي الأقلية اليهودية والأقلية المسيحية في البلاد الناطقة بالعربية قبل قيام دولة إسرائيل. فقد وقع كلاهما ضحية هذا الاستعداء، فكانت مذبحة آب ١٩٣٣ في الآشوريين وهي تذكرة أليمة بمذبحة المسيحيين في دمشق العام ١٨٦٠، وبعدها كانت مذبحة اليهود في بغداد عقب فشل حركة مايس ١٩٤١ القومية الموالية للنازية.

---

(٥٥) في السنتين الأوليين من تأسيس وحدات الجيش العراقي، كان تعداده (٢٠٠٠) في حين بلغ عدد جنود الليفي في خدمة البريطانيين حدود أربعة الآف!

اتخذت الفكرة القومية والدعوة لها في العراق من المبدأ اتجاهاً بعيداً عن القومية الليبرالية الإنسانية ذات الاتجاه الديمقراطي. وسلكت سبيلاً مشابهاً إلى حد كبير لسلوك جماعة (الجون ترك) الاستعلائي التحكمي ونزوعهم إلى سياسة الصهر والإذابة - للأقليات العنصرية، بل التصفية عند اللزوم مثلما حصل للأرمن. فقد كان الضباط العراقيون العرب أو الناطقون بالعربية الذين سلمتهم السلطة المحتلة مقاليد الحكم نتاجاً خالصاً للذهنية التركية كضباط (الجون ترك) زملائهم في الدراسة وفي الخدمة العسكرية، وقد خاضوا حروباً معاً دفاعاً عن الإمبراطورية في مختلف ميادين القتال وقبلها تلقوا تعليمهم وهم صغار على أيدي معلمين أتراك وبعين العقلية كانوا يمارسون الحكم. وك(الجون ترك) ظل هذا الجيل من القوميين العرب ينقمون على الغرب ودوله لا بوصفها عند القدماء منهم والمحدثين دولاً مارست وما تزال سلطة المنتصر على العدو المغلوب، بل لغيرة وحسد خفيين غامضي الحدود - على التقدم الحضاري الذي أصابوه. وقد كانت ومانزال عقدة نقص خطيرة بدت في أحيان كثيرة بشكل إعجاب يمازجه حقد في كتاباتهم وآرائهم، وسنقدم منها نماذج طريفة في فصول لاحقة.

* * *

ليس هناك الكثير مما يقال حول يقظة قومية عربية في بلاد شمال أفريقيا الأخرى.

بقيت هذه الأقطار بعيدة عن الحركات القومية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، كان هؤلاء بصورة عامة يدينون للعثمانية بنوع ما من ولاء، ولما انتزعت فرنسا هذه البلاد قبل قرن ونصف قرن تقريباً بدا وكأن كل شيء يسير وراء الثقافة الفرنسية الجديدة وتراجعت اللغة العربية إلى الخلفية وحصرت بين جدران المساجد والمدارس الدينية. وتصدرت اللغة الفرنسية مقام اللغة الأولى[٥٦].

في القرن التاسع عشر لم يوجد في هذه الأقطار طبقة متنورة واعية سياسياً مثلما كان في مصر وسورية ولبنان. الدائرة العربية كانت استمراراً ضيقاً للماضي البعيد

(٥٦) في ٢٧ من كانون الأول ١٩٩٠ استن البرلمان الجزائري قانوناً سمي (قانون التعريب) ويقضي بتعريب المراسلات الرسمية الحكومية. كان ذلك بعد مرور (٢٨) عاماً على الاستقلال. ويزداد العجب أن هذا القانون لم يمر مروراً هادئاً طبيعياً، فقد لقي معارضة شديدة داخل البرلمان وسخطاً في أوساط جزائرية واسعة.

متقوقعة على نفسها منكمشة، وقد حرّض الاستعمار الفرنسي على عدم الإقتراب منها بعد سحق ثورة عبدالقادر الجزائري(٥٧). ويغلب العنصر البربري في هذه الأقطار. هؤلاء الذين تعدادهم ثمانية عشر مليوناً أو أكثر في يومنا هذا، عاشوا شبه منفصلين مع الغزاة ثم المهاجرين العرب رغم دخولهم التدريجي في الإسلام ابتداءً من القرن الثامن الميلادي، لكنهم لم يحاولوا الامتزاج معهم. ويبدو للباحثين أنهم متصلون لغوياً بالمصريين القدماء. فاللغة البربرية والمصرية القديمة وفرعها القبطي تنتمي في عرفهم إلى (الأسرة الحامية) من مجموعة اللغات السائدة. كانوا أكثرية مطلقة عندما بدأت هجرة عربية جماعية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين ودخل الجمل العربي معهم، فتبناه البربر وانقلبت غالبيتهم إلى البداوة وغدوا رحّلاً ومربي جمال(٥٨) واحتفظوا بلغتهم ولهجاتهم.

---

(٥٧) زعيم طريقة صوفية (١٨٠٨-١٨٨٣) نفي إلى فرنسا بعد فشل حربه العقائدية مع الفرنسيين خلال خمسة عشر عاماً (١٨٣٢-١٨٤٧)، استسلم بعدها ونقل إلى فرنسا بحفاوة وإكرام، ثم أعلن رغبته في سكنى سورية. فنقل إليها بعد تعهد منه أن لا يعود إلى الجزائر أو يعاود نشاطاً. وقد شارك أبناؤه وأحفاده مشاركة فعالة في النشاط السياسي السوري.

(٥٨) في العشرين من آب ١٩٩٨ أصدر الملك الحسن الثاني مرسوماً يقضي بتدريس اللغة الأمازيغية (لغة البربر) في المراحل الابتدائية وأكد في خطاب وجهه إلى الشعب بمناسبة ذكرى (الثورة) أن درس اللهجات المحلية (يقصد الأمازيغية والريفية والسيوسية) السائدة في مناطق التوزيع الجغرافي يساعد في المحافظة على مقومات المغرب وخصوصياته. تعلق جريدة الحياة في عددها المرقم (١١٥٠٩) على هذا بقولها: (تذهب مصادر مهتمة إلى إضفاء بعد سياسي على القرار. وقد برزت دعوات إلى التعاطي مع اللهجات المحلية من خلال درسها في الكليات والجامعات ضمن خطة للمحافظة على التنوع العرقي ويستطيع أي مراقب أن يرصد الآن وجود مجلات وصحف عدة باللغة الأمازيغية..) آه. نقول: بقي البربر عنصراً أنثروبولوجياً تحف به الأسرار منذ بداية التاريخ وأصلهم مختلف فيه قد يرجع كما يقول علماء الأجناس إلى مجموعات عرقية جاءت من أوروبا (كلتية أو اليوسية) اختلط بها فيما بعد الفينيقيون واليونان ثم الرومان. وغزتهم قبائل الفندال (الأندلسية) الإسپانية وامتزجت بهم ونتج عن كل هذا التفاعل كثرة في بياض البشرة وزرقة العين والشقرة وطول القامة. كانوا قوام الجيش العربي (بالإسم فقط) في فتوحاته الأوروبية وطارق بن زياد فاتح إسپانيا بربري. ثاروا على العباسيين وتبعوا الخوارج. وكانت منهم سلالات ملكية حاكمة في كل من جنوب إسپانيا (الأغالبة، الرستميون، المرابطون، الموحدون) وزالت هذه الدول في أواخر القرن الثالث عشر واختلط أهل المدن منهم بالعرب النازحين من الجزيرة واعتصمت الأكثرية في جبال أطلس والريف والصحراء، وهم مقيمون على عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم.

لم تمسّ هؤلاء ريح القومية بربرية أكانت أم عربية، ولم تحاول الأسرة الحاكمة التي هي أسرة علوية مهاجرة أن تمسّ ولو مساً خفياً بمسألة القومية أو الادعاء بالقومية العربية. لكن إحياء الثقافة والتراث العربي الأدبي لم يعترها وهن، بل زادت نشاطاً ولكن في حدود الثقافة والدين. البربر هم أكبر أقلية في عالم الدول الناطقة بالعربية بعد زنوج السودان.

* * *

ليس هناك ما يمنع حصول تجانس قومي والادعاء بالقومية بالرجوع إلى الماضي التليد وقد يحتاج دعاة القومية إلى هذا مبدئياً. إلاّ أن الغلوّ فيه وشدة التمسك به قد يخلق رد فعل سيّئ.

الفرنسون يقولون في تاريخهم أنهم أحفاد الغاليين Gauls والإيطاليون يفخرون بأن الرومان هم أسلافهم، حتى الأمريكان أنفسهم فقد وجدوا لهم أسلافاً يفخرون بانتسابهم إليهم، فأنسال المهاجرين بصرف النظر عن أصولهم العرقية وأرومتهم ينظرون إلى (الآباء المؤسسين) للولايات المتحدة نظرتهم إلى آبائهم وأجدادهم.

لم يكن ثم محيص للوعي الذاتي الإسلامي المسيحي في القرن التاسع عشر في إنبات وغرس بذرة القومية - إلاّ أن يربط بالماضي وليس هناك خير من ماض مؤثل للتقدم الفكري والعلمي المذهل الذي حققته البلاد في فترة معينة من سيادة العرب المسلمين. في عين الوقت ليس هناك مندوحة من الاعتراف باختلاف الماضيين المسيحي والإسلامي في أمور كثيرة جوهرية. لقد استثني الماضي المسيحي من أجندة القومية العربية الإسلامية لمدة طويلة. واستهين بكل ما يعتز به هؤلاء ويفخرون، بل جرت محاولات هوجاء من بعض القوميين العرب لعملية صهر وإذابة لتلك القوميات الصغيرة في القدر العربي الكبير بتزوير فاضح في الوقائع التاريخية الثابتة.

تاريخ كل أمة أو شعب أو دولة لا يخلو من مواقف مخجلة. ولم ينج أي من الشعوب والأمم من سقطات وعثرات ابتلاها بها حكامهم وأولو الأمر فيهم. وهو مما لا يمكن إخفاؤه. وكثير من الأمم الواعية تشجع مؤرخيها على إبراز هذه العثرات وعدم إخفائها والتحريض على النقاش فيها. وفي تاريخ العرب والإسلام[٥٩] أحداث ووقائع

---

(٥٩) يعتز الكلدوآشوريون كل من جانبه أو مجتمعاً بتاريخ أسلافهم عندما كانوا في عصر ما سادة الدنيا. إنه اعتزاز كاد يكون جزءاً من شخصيتهم، ومن أمثلة ذلك التزوير ما يحاوله قوميو =

لا تدخل في عداد الأمجاد والماضي الذي يمكن الفخر به. إلاّ أن كتابات وآثار القوميين العرب، لاسيما في إبان الحماسة الطاغية لها وفي أوقات مخصوصة، ظلت تعمد إلى إخفاء هذه الثغرات وتغطيتها وتحرص على الإشادة بالماضي المؤثل المثقل بالأمجاد والمفاخر إلى حد التنفر والقرف الذي دعا بعضهم إلى التحذير من هذا وبيان أخطار التمسك المغالي بالماضي إلى حد نسيان وجوب العمل للحاضر والمستقبل.

وتحضرني في هذا أبيات للشاعر العراقي (معروف الرصافي) من قصيدة مشهورة:

تقدم أيها العربي شوطاً ... فإن أمامك العيش الرغيدا

وأسس في بنائك كل مجد ... طريف واترك المجد التليدا

ووجه في عزمك نحو آت ... ولا تلفت إلى الماضي جيدا

ودعني والفخار بمجد قوم ... مضى الزمن القديم بهم حميدا

وأذكر للشاعر نفسه أبياتاً من قصيدة قالها عند استيلاء الليفي على (الفلوجة) في حركة مايس ١٩٤١:

أيها الإنكليز لن نتناسى ... بغيكم في مساكن الفلوجة

ذاك بغي لن يشفي الله إلا ... بالمواضي جريحه وثبيجة

يوم عاثت زبان آثور فيها ... عبثة تحمل الشنار سميجة

فاستهنتم بالمسلمين سفاهاً ... واتخذتم من اليهود وليجة

قوات الليفي التي حاربت في اشتباكات مايس كانت تتألف من ٦٠٠ كردي و٧٠٠ عربي و٩٠٠ آشوري وفق أوثق المصادر.

= العراق الحاليون وهم حكامه. ففي ١٩٨٠ سخرت السلطة قلم الكاتب والصحافي الفرنسي المرتزق (پيير روسي) ليصدر كتاباً كبيراً مصوراً باللغات الفرنسية والإنگليزية والعربية عنوانه الغريب: (العراق أرض النهر الجديد) أنفقوا عليه فيما يبدو من نفاسة طبعه مالاً طائلاً اقتبس منه العبارات التالية مترجمة حرفياً من طبعته الإنكليزية: «وعلينا أن نحذر على أي حال من الخلط بين مدلولي لفظتي عربي ومسلم، فموسى يقصد موسى الكليم كان عربياً إلا أنه لم يكن مسلماً شأنه في هذا شأن آشوربانيبال ونبوخذنصر. إن لفظة (عرب) لم تكن قط تطلق على مجموعة عرقية، لكن على شعب يسكن رقعة مترامية انصهرت في داخله وذابت مجموعات عرقية عديدة باختيارها وبتأثير حضارة العرب»، ص٣٥. «ومملكة أكد أقامها الملك والقائد العربي سرگون أو شروكين بالآرامية، كما أن خلفاءه أسسوا مملكة بابل في السنة ٢٣٠٠ ق.م»، ص٤٣. «ونتحرك صعداً بحسب أحد قوانين التاريخ إلى بقعة استقر فيها العرب الآشوريون»، ص٤٦. «الإحتلال الأجنبي للعراق الذي تم بعد سقوط العرب الآشوريين»، ص٥١.

ولو قدّر للمدّعين بالعروبة والعاملين لإقامة وحدة عربية أن ينجحوا كمقدمة تمهيدية في بناء أمة على أساس اللغة المشتركة والأرض، فسيكون هناك ٩٠٪ أغلبية ساحقة، وهذه الأرجحية العددية ستؤثر اجتماعياً وسياسياً على علاقتها بالأقليات.

كان على القوميين العرب منذ البداية أن يعملوا على إزالة الوعي الذاتي الإسلامي أو التخفيف منه بقدر المستطاع، إلاّ أنهم لم يفعلوا بل تقصدت أكثرية الدعاة لها أن تبرز العامل الديني وبشكل صارخ. فإلى جانب تنكّر القوميين العرب للروح الليبرالية والإنسانية والديمقراطية التي نادت بها الثورتان الأمريكية والفرنسية والثورات القومية الأخرى لم يتسنّ لهم الأخذ بآراء فلاسفتها ومفكريها من أمثال (ماتزيني وروسو وتوم بين) وأضرابهم، وبالانجذاب وراء نظرية القوة والأتوقراطية، ربطوا الفكرة القومية بالدين ربطاً محكماً، فأصبح حلمهم بشعب عربي أو أمة عربية واحدة حلماً يوثوبياً يغدو بكرور الزمن أكثر استحالة. ولقد خلف هذا الارتباط فيما خلف مسحالاً من الدماء وصبّ كثيرا من الويلات - أثناء فشل المحاولات القومية المتلاحقة، بل وأكثر من هذا فقد وطّأ لقيام حركات التشدد الإسلامية في الأقطار الناطقة بالعربية كبديل بشكل ما.

الأقلية المسيحية التي أسهمت في الدور الأعظم في تثبيت دعائم الفكرة القومية الحديثة وجدناها منذ مذابح آب ١٩٣٣ فصاعداً تجتاز وضعاً معقداً، سيما بعد قيام الأزمة اللبنانية التي أظهرت هشاشة الوضع المسيحي في الوسط الإسلامي. فلجأت طوائف كثيرة منهم إلى البدء في إعادة التفكير في مواقفهم. وقد وجدنا أولئك الذين بقيت مشاعرهم الدينية متينة يعودون إلى تراثهم القديم، وكانوا قد هجروه منذ العقد الرابع من القرن الماضي. أما الآخرون وهم اليساريون والقليلو الاحتفاء بالدين، فقد انحازوا إلى المعسكر الآخر بأمل قيام مجتمع صحي ديمقراطي يجدون أنفسهم فيه على قدم المساواة مع الأغلبية.

كانت أهمية العامل الديني في تاريخ العرب مسألة مركزية. عامل كان له أكبر الأثر لعدة قرون في تكوين الشرق الأوسط السياسي والاجتماعي وأحياناً في تقرير مصيره. وكان على القوميين العرب أن يدركوا بأن مصير الأمم والشعوب وتقدمها لا يخضع لمعايير لا يستمدها الخلف عن السلف بقدر ما يستمدها من التقدم الحضاري وتطور العقل البشري ونظرته للحياة الجديدة. ومن المؤسف جداً أن عدداً كبيراً من الذين يعنون اليوم بتاريخ العرب المعاصر إما لا يعرفون هذا التاريخ بالشكل الذي ينفع

الحاضر وإما لا يعرفونه معرفة صحيحة، وإما أنهم ينظرون إليه من خلال زجاج ملون لا يعكس لهم الآراء السياسية والقومية العلمانية الحديثة، فيتجاهلونها عمداً أو إهمالاً.
إن القوميين الذين يريدون أن يتفهموا العالم الناطق بالعربية فهماً صحيحاً يجب عليهم أن يدرسوا الإسلام من وجهه السمح المتسامح، كما يجب أن يدرسوا مشاكل الأقليات وعلاقاتها بالأكثرية درساً بعيداً عن شهوة التعصب والعصبية ونيات الصهر والإذابة القومية الكريهة.

الفصل السابع

كتابة التاريخ عند أبي إسحق الصابي. الثورة العربية في الحجاز. الحقائق من الأساطير. المصادر. الابتعاد عما جرى عليه العرف والتواتر واجتناب الأحكام المسبقة. الموقف البريطاني حول مستقبل الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب. تفكيك الإمبراطورية بدل المحافظة عليها وفق السياسة القديمة. مكماهون في مصر. خطط الفرنسيين لسورية بعد الحرب. الاتصال بالعرب والزعماء المسلمين. إساءة فهم الإسلام. الأمير عبدالله بن الحسين يتصل بالاستخبارات البريطانية في القاهرة. صلة الاستخبارات بالمبعدين السياسيين العرب. موقف الشريف حسين. التلويح بمنصب الخلافة في التصريح البريطاني الأول. حياة الشريف المثالية في منفاه بإستنبول. أبناء الشريف: فيصل. التفكير البريطاني في مستقبل البلاد العربية. تاسيس المكتب العربي في القاهرة. استيناف المفاوضات مع الشريف في صيف ١٩١٥. محمد شريف الفاروقي، الهياج الذي اثاره في المكتب العربي. المفاوضات تتواصل. المنازعة على تقسيم النفوذ بين بريطانيا وفرنسا في الأقطار الناطقة بالعربية. اتفاق سايكس- پيكو- سازانوف. فلسطين والصهيونية. الوضع الحربي في العراق. نكبة الكوت.

لما استولى (عضد الدولة ابن بويه)[1] على بغداد، نَقِم على (أبي إسحق الصابي)[2] في أمور، فأمر بالقبض عليه. ولما كلمه فيه بعض الشفعاء قبل أن يسكت عنه ولا يوقِع به، ولكن يظل في محبسه ويشغل نفسه بتأليف كتاب في مآثر الدولة

---

(١) توفي في ٩٨٣م. من الذين خلدهم المتنبي بشعره. وهو واحد من إخوة ثلاثة وأشهرهم. جعل بلاد فارس والعراق دولة موحدة تحت حكمه. باسم دولة بني بويه (٩٣٢-١٠٥٥م). وهو الذي أظهر قبر الإمام علي بن أبي طالب في النجف وبنى عليه.

(٢) إبراهيم بن هلال من صابئة حران. أشهر كتاب العربية في عصره إطلاقاً. تقلد ديوان الرسائل في دولة بني بويه. اشتهر برسائله التي نشرها له المؤرخ والكاتب الدرزي الأمير شكيب أرسلان (١٨٧١-١٩٤٩).

الديلمية (البويهيّة). حتى إذا فرغ من تأليف الكتاب أخلى (عضد الدولة) سبيله وأطلقه. وقبل (الصابي) الشرط وشرع في تأليف الكتاب المطلوب وهو في السجن. وكان إذا فرغ من جزءٍ منه، حُمل إلى (عضد الدولة) حتى يقرأه ويتصفحه ويزيد فيه وينقص منه. فلما تكامل الكتاب على نحو ما أراد (عضد الدولة)، قرئ عليه جملةً في أسبوع إلاّ أنه لم يطلق (الصابي) الاّ بعد مرور سنة واحدة على إنجاز الكتاب. وقد دخل على (الصابي) بعض أصدقائه وهو في الحبس. وكان مشغولاً بتبييض وتسويد صحائف الكتاب. فسألوه ماذا تكتب يا أبا إسحق؟ فأجابهم «أباطيل أنمقُها وأكاذيب ألفّقها».

ولئلا أرمى بعين ما قال الصابي عن نفسه، أو أقف من القرّاء عين الموقف الذي وقفه مؤرخو الإسلام والعرب المتأخرون بعد (الصابي) وهو عندي على الأغلب موقف اتهام إمّا بعجز عن تفهّم الحقائق أو قصور في تفسيرها أو إغفالها أو كتمها عمداً أو تزويرها - فقد خرجت في فصولي التالية حول الثورة العربيّة عن الخط الذي التزمه بإعفاء القارئ من إثبات المراجع والمظانّ التي اعتمدتها في كلّ كتابي. وأثبتُ هنا مصادري بوضوح حيثما استدعى السياق. فأنا أخشى أن ما سيجده القارئ فيها قد يُزلزل ثقته بما قرأ قبلاً أو حُمل على الاعتقاد بصحته في مراجع ومصادر أخرى.

* * *

وضعت في الفصل السالف عاملين تاريخيين هامين لتطور الفكر القومي عند دعاة القومية العربية، كان لهما تأثير سيّئ العقبى على مسارها وتطورها اللاحق.

تناولت أول العاملين بالشرح. وأنا الآن بصدد الكلام عن العامل الثاني.

وقد سبق لي التنويه بظاهرة تاريخية لا يمكن إغفالها ولا تصح المجاراة فيها. وهي التي كانت البلاد الناطقة بالعربية ميدانها. كل ما وقع من حروبٍ وثورات وأعمال عنفٍ ذات طابع عام في هذه البلاد خلال قرننا هذا كان يهدف بالأساس لتحرير كل بلدٍ لذاته من حكم استبدادي محلي أو محاولة إزاحة نفوذ أجنبي أو من أجل الاستقلال الوطني، لا من أجل رؤى وأهداف قومية عربية شاملة. وسواء في الأمر أكانت حدود البلد طبيعية أم مصطنعة أم هي عمل الأجنبي. وقد شذّ عن كلّ هذا تلك الثورة التي أعلنها الشريف حسين بن علي في مكّة. فقد أعلنت لا باسم مكّة ولا باسم الحجاز ولا باسم الجزيرة بل باسم العرب - أعلنها ثورة على الحكم العثماني وما إن قطعت شوطاً حتى ثبت لها مفهوم واضح. وانتهى بها الأمر لتطمح إلى شمول جزءٍ كبير من البلاد الناطقة بالعربية، وبضمنها الهلال الخصيب بل تعدتها إلى المطالبة بأقاليم وبلدان لا

يقطنها ناطق بالعربيّة - بلدان لا تربطها بالقومية العربية صلة الاّ صلة الدين في بعض الأحيان.

القصّة الحقيقية لهذا الحدث التاريخي لم تكتب بعد في رأيي. ربمّا لأن مؤرخي القضايا العربية العارفين بحقائق الأمور كانوا يتهيّبون النفوذ إلى أعماقها والكشف عن أسرار فيها قد تكون مصدر حرج وإزعاج لمن سبقهم في الكتابة عنها وجعل من كتابته آيات مسطرة منزلة لا يأتيها ريب. بل وربما لم يكن قصر باعهم متأتياً عن قصد في عدم المتابعة والاستقصاء، أو قصورهم في التحريّ العلمي الأمين. ففي غضون العقود الأربعة الأخيرة من قرننا هذا صدر العديد من الكتب والدراسات التاريخية في العالم الغربي حول كل ما تعلّق بأحداث الحرب العظمى الأولى وآثارها ومقدماتها وأدوار الأشخاص والساسة فيها إلى جانب المذكرات والسير الشخصية. والمؤلفات التي تدور حول تاريخ الشرق الأوسط الحديث والشؤون العربية المتأخرة تكاد تجتمع في مكتبة كبيرة. ولا أذكر هنا من جملتها ما احتواه مركز الوثائق الرسمية البريطانية بعد أن فتحت أبوابه للباحثين يغترفون منه ما شاؤوا وهو في الحقيقة أهم مصدر بالنسبة إلى ما أدوّنه.

للمركز هذا ملفّات عديدة ضخمة تضمّ آلاف الرسائل والتقارير والمذكرات والمحاضر لاسيما تلك التي كانت لندن تتبادلها مع المكتب العربي في القاهرة. وهي بمجموعها وبحدّ ذاتها تحتضن وقائع الثورة العربيّة بدقائقها وتفاصيلها ووقائعها الخفيّة.

وفي أيامنا هذه هناك فريق في البلاد الناطقة بالعربيّة ينزل هذه الثورة منزلة التقديس وفريق يهمل أمرها. هناك حكومات ودول تستعيد ذكراها باحتفال وأعياد في حين تتجاهلها حكومات ودول. نجدها تقع أحياناً موقع صدارة في آثار تاريخية معينة، في حين تغفل أمرها آثار أخرى. وفي كلّ هذه المواقف تجد العامل السياسيّ والمشاعر الشخصيّة بكلّ ما طبع عليه سكان البلاد الناطقة بالعربية وحكامهم من غلوّ عاطفيّ وسرعة تحوّل.

سأترك للقارئ الحكم، بعد محاولة النفوذ في أعماقها وتحرّي الحقيقة في تفاصيلها ليكون له كامل الحرية في تقويم تأثيرها على حركة الوعي القومي العربيّ، وعلى النضال في سبيل التحرر القومي، لأني بالخصوص لا أريد أن يقال عني كما قال (الصابي) عن نفسه.

ولا سبيل لي إلاّ إلى تمهيد تاريخي:

* * *

في العام ١٧٩٨ عجز نابوليون بونابرت عن تحقيق حلمه عندما غزا مصر وسار نحو سورية معتزماً كما ادعى فيما بعد انتهاج سبيل المجد والخلود الأسطوري للزحف بعدها إلى بابل ثم إلى الهند. وقد أُوقف ونكص على أعقابه إلاّ أنه حاول إقناع حليفه قيصر روسيا المأفون (بولس) بوضع الجيش الروسي في خدمة هذه الفكرة.

كان الردّ البريطاني واضحاً. فهذه الأصقاع هي جزءٌ من الإمبراطورية العثمانية. وإيران وأفغانستان درعان للهند. إذن فالوقوف إلى جانب هذه الإمبراطورية المتداعية والمحافظة عليها واجبٌ بريطاني، لأنه يتضمن أيضاً وقوفاً ضد التوسع الأوروبي.

بمقتضى هذه السياسة لم تكن بريطانيا - خلافاً لإدعاء كثير من المؤرخين العرب - ترغب قط في بسط سيطرتها على أي إقليم في الشرق الأوسط تابع لآل عثمان أو مستقلّ عنها. وكلّ ما طمحت إليه هو منع الدول الأوروبية الأخرى من التسلل إليها.

هكذا وجدنا الحكومات البريطانية المتعاقبة طوال القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين تتبع سياسة نجدة الدول الإسلامية المتداعية في آسيا ودعمها ضد التدخل الأوروبي، وقد خاضت من أجل ذلك حروباً وعاونت على مقاومة غزاتها. وفي هذا المجال لم تكن لا فرنسا ولا ألمانيا من الخصوم الرئيسة. بل كانت روسيا القيصرية.

ومضى القرن التاسع عشر برمته مع الأجيال المتعاقبة من الساسة والدبلوماسيين والعسكريين والموظفين البريطانيين يستطيبون هذه «اللعبة العظمى» ويراهنون بالغالي عليها. يورد الكابتن (كلايتن) وهو غير ذلك سيتردد اسمه كثيراً في هذه الفصول قولاً للورد (كرزن) نائب الملك في الهند حول هذا الرهان:

«تركستان، أفغانستان، شرق قزوين (كردستان)، بلاد فارس، إنها أسماء لا توحي للكثيرين إلاّ بشيء بعيد، أمّا عندي وأنا أقرّ بهذا فهي قطع فوق رقعة شطرنج تجري فوقها لعبة السيطرة على العالم»[٣].

وأمّا الملكة فكتوريا فقد وصفت اللعبة بوضوح كاف:

«إنها مسألة السيادة الروسية أو البريطانية في العالم».

كلّ ساسة بريطانيا حتى العام ١٩١٤ كانوا يتبنون سياسة المحافظة على

---

(٣) كليتون G. D. Clyton: «بريطانيا والمسألة الشرقية Britain and the Eastern Question» لندن ١٩٧١. ص١٠٤.

الإمبراطورية العثمانية مهما بلغت فداحة الثمن. وهاهو (سر مارك سايكس) صاحب الدور الكبير في الانقلاب السياسيّ الذي سيتمّ وخبير المحافظين في الشؤون التركية يقول في مجلس العموم (١٩١١):

«ان اختفاء الإمبراطورية العثمانية هي بدون شك الخطوة التمهيدية لاختفاء إمبراطوريتنا»[٤].

مع هذا، لم يقتض لبريطانيا أكثر من مائة يوم في ١٩١٤ لتتغلب على سياسة اتبعتها أكثر من مائة عام ولتنطلق جادةً في تحطيم هذه الإمبراطورية الهرمة بعد أن ركبت الأهوال وخاضت المرير من الحروب لصيانتها.

مائة عام. بمائة يوم! إنهّا أيام العدّة للمطلّقة في الشريعة الإسلامية!

عند إعلان الحرب وقبل انضمام تركيا فيها إلى دول الوسط، وجد البريطانيون حاجة ماسة إلى تفسير طبيعة التواجد البريطاني في كل من مصر وقبرص وكلاهما جزءٌ من الإمبراطورية العثمانية.

دخلت مصر عسكرياً في العام ١٨٨٢ واحتلتها احتلالاً فعلياً بعد قمع ثورة أحمد عرابي[٥] وحكمتها حكماً غير مباشر من خلف (الخديوي) والخديوي رسمياً هو نائب السلطان العثماني ويتمّ تعيينه بإرادة ملكيّة. وفي حين كان ثم دوائر حكوميّة بلندن تفكر في فصل مصر عن جسم الإمبراطورية، نجد الفكرة الغالبة باقية وهي أن هذا يُعدّ خرقاً لتعهد بريطاني بالجلاء عمره (٤٥) عاماً تبتدئ بقيام مشكلة ديون القناة. وإن الوجود العسكري في تلك البلاد هو وجود مؤقت.

في نهاية العام ١٩١٤ - وعندما أرسل السر هنري مكماهون معتمداً بريطانياً إلى مصر ليخلف اللورد كتشنر قاهر المهدي في السودان الذي عين وزيراً للحرب - كانت الشائعات تدور بأن الخديوي (حسين كامل)[٦] الذي اتخذ لقب (سلطان) يفكر في

---

(٤) جورج كورسون George Curson: «بلاد فارس والمسألة الفارسية Persia and the Persian Question» المجلد ١. لندن ١٩٦٦.

(٥) (١٨٤١-١٩١١) كان ضابطاً في الجيش المصري برتبة عميد. تزعم ما دعي في حينه بالحزب القومي المصري. وكانت ثورته بالأصل تعبّر عن نقمة الضباط المصريين الأقحاح على الضباط الأتراك الكبار حول الترقيات وقد اتسع مفهومها وهدفها إلى طرد البريطانيين. حوكم وحكم عليه بالموت، ثم استبدل الحكم بالنفي إلى جزيرة سيشل.

(٦) تولى الخديوية في العام ١٩١٤.

الحلول محلّ السلطان العثماني خليفةً للمسلمين وحاكماً لجميع البلاد الناطقة بالعربيّة، أعني تجزئة الإمبراطورية العثمانية إلى نصفين.

المعتمد البريطاني الجديد رجل لا حظ كبير له من الذكاء. قضى جلّ حياته موظفاً في الهند وقد شارف سن التقاعد، بطيء الفهم عادم اللون. إلاّ أن المجموعة التي كانت تحفّ به مثلت أنبغ العقول وأفضل القابليات فالجنرال (ريجنالد وينگيت) سردار (قائد) الجيش البريطاني وحاكم السودان كان رجلاً أريباً ذكياً يتقن العربيّة بلهجاتها. ويمثله في القاهرة (گلبرت كلايتن)(٧) الذي ادّخر لينهض بأعظم أعباء الثورة العربيّة. وإلى جانبه دبلوماسي آخر لا يقلّ عنه شأناً هو السر رونالد ستورز السكرتير الشرقي في دار المعتمد السامي، وآخرون سيرد ذكرهم فيما بعد.

* * *

في ٢٣ تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩١٤ عند دخول تركيا الحرب بدأ الفرنسيون بعد صدمة الحرب الأولى يعدون كالبريطانيين خططهم لإلحاق سورية بمستعمراتهم. وتشير المصادر الفرنسية إلى أن دبلوماسييها في كلّ من القاهرة وبيروت كانا يلحّان(٨) على حكومتها بضرورة إنزال قوات عسكرية في لبنان. إلاّ أن الحكومة الفرنسية التي أجليت عن العاصمة باريس أمام الاندفاع الألماني نحوها، واستقرت في (بوردو) في الأول من تشرين الثاني كانت في شغل شاغل بسبب تركيزها على وقف الاندفاع في الجبهة الغربيّة فلم تعر الاقتراح اهتماماً في حينه.

هناك سبب آخر: كانت فرنسا ترى أن المحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية في ذلك الوقت أهم بكثير من ضمّ سورية إلى أملاكها. فقد كان ٤٥٪ من أموالها

---

(٧) كان سكرتيراً خاصاً لونگيت (١٩٠٨ حتى ١٩١٣) ثم عينه ممثلاً له في القاهرة. وفي عين الوقت تولى رئاسة استخبارات الجيش البريطاني في مصر منذ ٣١ تشرين الأول ١٩١٤ ويبدو من واصفيه إنساناً رفيع الخلق لطيف المعشر جمّ المعارف واسع الذكاء. يتقن العربية الفصحى واللهجة المصرية. ومن الجدير بالذكر هنا أن جميع من استخدم (كلايتن) في دائرة استخباراته وفي متابعة الثورة العربية كانوا من أولئك المغامرين الطموحين والتلاميذ الأركيولوجيين وصغار المستشرقين الذين تقاطروا إلى القاهرة ليعملوا في إدارته. ولم يجد أحد منهم على كثرتهم كلمة سوء واحدة تقال بحقه بل أجمعوا كافة على امتداح سلوكه والإشادة بقابلياته.

(٨) تضمن اقتراح قنصل فرنسا إنزال (٢٠٠٠) من المشاة في بيروت وتعهد بأن يعزز هؤلاء حال نزولهم بثلاثة آلاف من المتطوعين المحليين.

الخارجيّة موظفاً في الاقتصاد العثماني ولها من الديون التي استقرضتها الحكومات التركية ٦٠٪ من مجموع الديون العثمانية الخارجيّة العامة[٩].

عندما توقف (هنري مكماهون) في باريس وهو في طريقه إلى القاهرة لمزاولة وظيفته وقابل صانعي السياسة في وزارة الخارجية، ولم ينجح في إعطاء أجوبة صريحة مباشرة عن أسئلة وجهت إليه بخصوص سياسة بلاده في البلاد الناطقة بالعربية لجهل ومحدودية في عقله، حسب الفرنسيون عجزه العقلي حيلةً وروغاناً ذكياً وترجموا قصوره هذا بالدهاء وهم الدائمو الشك في نوايا البريطانيين ولم يسعهم إلاّ الاستنتاج بأن صاحبهم هذا يتعمد اخفاء النوايا البريطانية الحقيقية، وأدّى بهم هذا الاستنتاج إلى الاعتقاد بأن البريطانيين يتهّيأون لغزو سورية. وعندها أوعزت الحكومة الفرنسية بتشكيل حملة إنزال في سورية حال قيام البريطانيين بمثله - سواء أدعوهم للمشاركة أم لم يدعوهم.

بعد ثلاثة أشهر ونيف - وفي الاجتماع الذي تمّ بين وزيري خارجية البلدين في شباط ١٩١٥ - أكد البريطاني لزميله بأن حكومته لا نية لها في غزو سورية. واتفقا على أن لا تعارض بريطانيا التواجد الفرنسي في سورية عند تجزئة الإمبراطورية، في الوقت الذي أعربا في عين الوثيقة عن تفضيلهما عدم تجزئة الإمبراطورية.

وعندما استقر رأي الحكومة البريطانية على الاتصال بالعرب والزعماء المسلمين لم يحاول أي طرف منهما التغلّب على عقدة نقص متبادلة وهي علّة سوء فهم مزمن خلّف ثروة من هفوات سياسية مضحكة وكان أساساً لمشاكل تالية في العلاقات بينهما لا أوّل لها ولا آخر.

بالأول كان البريطانيون والفرنسيون يعتقدون أن العالم الإسلامي مركزيّ الكيان تقوم على رأسه سلطة عليا تأمر فتطاع وأن الإسلام وحدة كاملة مثلما هو تنظيم متراص البنيان يقوم على أساس طاعة المسلم لرئيسه الروحي. فكَسْبُ هذا الرئيس أو إخضاعُه كفيل بتأمين السيطرة على العالم الإسلامي كلّه. لذلك كانت الحكومة البريطانيّة تعتقد بأنه من الممكن شراء الإسلام أو توجيهه أو تطويعه بشراء أو أسر أو توجيه رئيسه الديني الأعلى. وكما سنرى فقد استهوتهم حتى زمن ما فكرة مؤداها أن كلّ من يسيطر

---

(٩) «مذكرات سر رونالد ستورز The Memoiris of Sir Ronald Stores» نيويورك ١٩٣٧. ص٢٠٦.

على شخص الخليفة فهو يسيطر على الإسلام!

بلغ من تأثير هذه الفكرة على صانعي السياسة في لندن حداً اعتقدت أكثريتهم معه بوجوب تشجيع فكرة إناطة الخلافة بعد الحرب بشخصية عربيّة لأن باعث الدين الإسلامي هو عربي. والغرض المتوخى هو بسط سلطانهم على قلب جزيرة العرب وسواحلها الشرقية الشمالية، التي أخفقوا في إدخالها ضمن منطقة نفوذهم طوال القرن التاسع عشر.

هرع الموظفون البريطانيون في دار المندوب السامي بالقاهرة يمطرون لندن باقتراحاتهم المستوحاة من هذه الفكرة ليزيدوها رسوخاً في عقول ساستهم وركزوا على أن المرشح الظاهر والمناسب لتبوّؤ منصب الخلافة هو شريف مكة العربي سليل النبيّ، وأنهم حققوا صلةً به منذ وقت يسير.

لم تكن هناك صلةً في الحقيقة. وكان الموظفون البريطانيون إلى حينه يكذبون على لندن ليزيدوا في اقتراحهم رسوخاً. كل ما في الأمر ما يتذكره (كلايتن) حول زيارةٍ قام بها (عبدالله) ابن الشريف المكيّ للقاهرة قبيل اندلاع الحرب وأعرب في مقابلة يتيمة عن تخوّفه من قيام حكومة (جون ترك) بعمل ضدّ والده وأنه يتطلع إلى مساندة من الخارج.

هناك أيضاً لقاءان سابقان لعبدالله باللورد كتشنر في القاهرة ولقاء آخر مع ستورز لعين الغرض. والوثائق البريطانية ليست واضحة بخصوص ما عرضه عبدالله وما قيل له. والظاهر أنه كان في كلّ هذه اللقاءات يحاول الحصول على وعدٍ من البريطانيين بالمساندة في حالة إقدام الباب العالي على عزل أبيه. ويظهر أن الردّ البريطاني لم يكن مشجعاً، بسبب تمسك لندن حينذاك بسياسة المحافظة على الكيان العثماني. إلاّ أن الشريف توصل إلى استرضاء الباب العالي بعد هذه اللقاءات وزالت أسباب الخلافات بدليل أن (عبدالله) لم يطرق باب المندوب السامي في القاهرة بعدها.

يذكر (ستورز) في مذكراته أن عبدالله ادعى كذباً في أثناء مقابلته بأن زعماء الجزيرة العربيّة وشيوخها (المتنافسين والمحتربين دوماً) مستعدون للانضمام إلى أبيه لمقاومة نوايا الباب العالي السيئة فيه، وأنه اقترح إقامة علاقة سياسية مستقبلية بين بريطانيا وبين جزيرة العرب على غرار تلك العلاقة التي أقيمت مع أفغانستان والكويت وعدد من إمارات الخليج. فقد كانت أَسَرُها الحاكمة تمارس حكماً محلياً، في حين تقوم بريطانيا بمهمة الإشراف على العلاقات الخارجية والحماية. ويذكر (ستورز) أنه لم

يشجع (عبدالله) على الفكرة[١٠]. والملم بأحوال جزيرة العرب وقتذاك لا يخرج بغير نتيجة واحدة: لم يكن أي شيخ أو زعيم عربي فيها مستعداً قط للجلوس مع آخر، ناهيك بالاعتراف بزعامته.

وكما يبدو فإن الاستخبارات البريطانية لم تكن تعلم حتى ذلك الحين بهذا الواقع وبمدى الخلاف والعداء الذي يكنّه واحدهم للآخر، فمصادرها في هذا الباب كانت مضللة مغرقة في الخيال بعيدة كل البعد عن الواقع. وهي بجملتها وقضها وقضيضها عصبة من المنفيين والمبعدين إلى القاهرة من البلاد الناطقة بالعربيّة وابرزهم وأكثرهم حُظوة الرائد (عزيز علي المصري)[١١] وقد أساءت الاستخبارات البريطانية فهم مراميه

---

(١٠) المرجع السالف. وانظر أيضاً: إيلي خضوري، حُسني ومترجموها» في التيه الأنكلو عربي، مراسلات مكماهون «In The Anglo - Arab Lalyrinth: The Mcmahon Husayn Corespondence» حُسني ومترجموها (١٩١٤-١٩٣٩): لندن ١٩٨١.

(١١) من أصل جركسي. أحد أعضاء «جون ترك» البارزين. ولد في مصر ودخل المدرسة الحربية في استنبول. كان في هيئة أركان الجيش العثماني برتبة رائد عندما تولى زميل الدراسة (أنور) وزارة الحربية. وهما ابنا دورة واحدة، وكان الكره بينهما متبادلاً. و(عزيز) يستصغره ويستخف بعقليته ولا يجعل من ذلك سراً. من أجل هذا انقلب على الاتحاد والترقي ونقم، وعبرّ عن نقمته بتأسيس جمعية أو حزب العهد وهو تنظيم سرّي صغير يتكون من ضباط أصولهم من البلاد العربية، رفضوا الإدارة المركزية التي اتبعها الاتحاد والترقي الحاكم وجأروا بالاحتجاج على حرمان بلادهم سهماً أكبر في السلطة المركزية للإمبراطورية الخ
أمر أنور بإلقاء القبض على عزيز علي وأحاله إلى مجلس عسكري بتهم لا أساس لها في أوائل ١٩١٤ وصدر حكم الموت عليه. فتوسط له (اللورد كتشنر) المعتمد السامي في مصر آنذاك - عند (جمال باشا) الذي نجح في استصدار عفو عنه وإبعاده إلى مصر. فوجد عزيز نفسه فيها يتقمص دور الثوري العربي رغم أنفه إذ كان بالأصل يطمح لزعامة أو قيادة في الإمبراطورية كلها لا في جزء منها. إلى جانب هذا فقد كان معارضاً منذ صغره احتلال البريطانيين مصر. يكره الإنكليز قدر ما يحب الألمان ويعجب بهم. (ظهر ذلك في الحرب العالمية الثانية كما سيأتي بيانه) ويهمه بقاء الإمبراطورية العثمانية موحدة غير مجزأة. قُدر لهذا الضابط أن يتولى في زمن متأخر رئاسة أركان الجيش المصري في أواخر حكم الملك فاروق. جاء في مذكرات جمال باشا عنه ما يخالف هذا، قال:
«ولما عين أنور باشا في النهاية لوزارة الحربية أظلمت الدنيا في عيني عزيز بگ (المصري) فإنه لم يستطع صبراً على أن يبقى وهو الذي كان زميلاً لأنور في المدرسة الحربية وقام بأعمال نافعة وأظهر قسطاً عظيماً من الوطنية بكباشياً (مقدماً) بسيطاً في هيئة أركان الحرب بينما منافسه صار وزيراً للحربية، فأدى به إلى استنتاج هذه النتيجة السيئة وهي أن اشتراكه في العمل مع الأتراك لم يعد عليه بالربح أو يكسبه مجداً إذن فلتحيا الثورة العربية. وقد بلغت دسائس عزيز بگ مبلغاً =

ونواياه تلك. وجدته من أشد الناقمين على الاتحاد والترقي وتوهمت أن يد الإنكليز في إنقاذه من موت محتّم ضامنة ولاءه وصدق نصيحته وظنّوا فيه حليفاً عظيم الإمكانات.

اقترح (عزيز علي) قبل نشوب الحرب بشهر ونصف الشهر - على (كلايتن وستورز) أن تشرع لندن بحوار مع الشريف بهدف إحلاله خليفةً للمسلمين بدلاً من السلطان العثماني. وعلى إثر ذلك كتب (ستورز) تقريراً بالمقابلة ذكر فيها مخطئاً (ربما بتضليل من عزيز علي) ان كلاً من حاكم العسير واليمن، (ابن الرشيد) في نجد، بل حتى (عبدالعزيز بن سعود) مستعدون للانضمام إلى الشريف حتى «تغدو أرض العرب للعرب» هكذا كما ورد نصاً.

في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩١٤. خُوّل (ستورز) بناء على تقريره هذا، إرسال مبعوث إلى (عبدالله) ليطرح عليه السؤال: «أستكون الحجاز مع بريطانيا أم عليها في

= خطيراً حتى نفد صبر أنور باشا فأصدر أمره بالقبض عليه وإرساله إلى المحكمة العسكرية بتهمة اختلاس ثلاثين ألف ليرة سلمها له أنور قبل مغادرته طرابلس بصفتها من أموال الحكومة. ماكاد يذيع نبأ القبض على عزيز بگ حتى علت الضجة بين الشبان العرب في الاستانة وكنت وقتئذ وزير العمل فواصل أعضاء النادي العربي سعيهم لدى الوزراء وأرباب النفوذ وكانت وزارة الحرب أرسلت الحكم (بإعدام عزيز) للباب العالي واقترحت أن تخفف الإرادة الشاهانية حكم الإعدام إلى السجن المؤبد. وفي مساء اليوم الذي أذيع عرض الحكم المعدل على جلالة السلطان للتصديق أقيمت مأدبة فخمة في دار السفارة الفرنسية وهنا لقيت (جورج ريموند) المراسل الحربي لمجلة (لوستراسيون الفرنسية) فخاطبني قائلاً: «بلغني أن التهمة الموجهة لعزيز بگ هي اختلاس أموال عهد بها إليه للدفاع عن الوطن. لنسلم أنه من الثوار العرب وأن آراءه تختلف مع أنور باشا لكنه على التحقيق ليس لصاً وأنا واثق بأنك تستطيع إنقاذ عزيز بگ من عقاب لا يستحقه». وجاء بعد ريمون عدد كبير من أصدقائي الفرنسيين والأتراك عسكريين وملكيين يسألونني التدخل لمصلحة عزيز بگ وأدركت في الحال أن الرأي العام أشد سخطاً على أنور باشا منه على عزيز بگ وفوق ذلك رأيت أن عزيز بگ من أشجع الثوار العرب وأكثرهم أمانة وقد خطر لي أنه من العبث أن نعلن عفواً عن جميع الثوار الآخرين ونحرم عزيز بگ، فلهذا السبب اهتممت حقيقة بإنقاذه فلما عدت إلى الدار كتبت الرسالة الآتية لأنور باشا: «بالرغم من البينات التي جمعتها المحكمة ضد عزيز فإن الرأي العام غير ساخط إلا عليك والسخط عليك بهذه الطريقة يحدث لك ضرراً أكثر مما لعزيز جراء سجنه بضع سنين». وفي اليوم التالي أبلغني أنور باشا تلفونياً أن جلالته أصدر عفوه عن عزيز بگ ثم حضر إليّ أخوه مع (جورج ريموند) وقد وصلهما الخبر يشكرانني فأخبرته بوجوب سفر أخيه إلى مصر في الحال وعدم التدخل في السياسة التركية». [من كتاب «مذكرات جمال باشا» ترجمة علي أحمد شكري، بغداد ١٩٦٣، منشورات دار البصري، الص ٧٦-٧٧].

حالة نشوب الحرب؟». بعد أسابيع ورد جواب غامض. لكن عصبة القاهرة وجدته مشجعاً. فقد طُلب من وزير الحرب (كيتشنر) أن يفصح عما يجول في ذهنه عن النتيجة المتوخاة من التعاون. وما هو الشكل الذي يريد له؟

في ذلك الحين كانت دائرة المعتمد السامي على اتصال وثيق ومستمر (بعزيز علي) وبعدد كبير من المبعدين واللاجئين العرب في مصر، وهؤلاء كانوا يواصلون فيما بينهم وفي المقاهي والمنازل، المناقشة حول من هم العرب، ومن هم غير العرب؟ وما هي مكانة سكان البلاد الناطقة بالعربيّة في الإمبراطورية؟ كانت الهوية القومية شغلهم الشاغل وقضية الساعة تلك التي بدأت في دمشق وبيروت واستونفت في القاهرة وفي حي الطلاب بباريس. هاهم الآن يناقشونها مع البريطانيين في القاهرة بحميّة وجدية.

هؤلاء المبعدون الذين يتكلمون العربيّة كانوا بنظر السلطات العثمانية وفي مجال سياستها المحلية وأهداف الجون ترك شرذمة من المتآمرين على الإمبراطورية.

وممَّ تتألف تلك الإمبراطورية؟

دولة خضعت فيها إلى حكم حوالي ٤٠٪ يتكلمون التركية والغالبية تتألف من نسبة مماثلة تتكلم العربيّة، فضلاً عن ١٠٪ تتكلم الكردية و١٠٪ تتكلم لغات أخرى. في حين لا يتولى من المناصب الكبرى ذات المسؤولية من مواطني البلاد الناطقة بالعربية غير نسبة ٣ إلى ٥٪ من مجموع تلك المناصب التي يكاد كلها يكون وقفاً على الأتراك. ونقم الجون ترك كثيراً كما نقموا على السلطان عبدالحميد الثاني لأنه فَسَح المجال أمام العرب والكرد للمساهمة في الحكم بشكل لم يسبق له مثيل، وقبل الكثير من أبنائهم في الكليات العسكرية وأسندت إلى طائفة كبيرة مناصب هامّة، فمثلاً اتخذ (عزت بگ العابد) السوري صدراً أعظم.

هؤلاء المبعدون الذين تسميهم كتب التاريخ بالقوميين أو بدعاة القومية العربيّة الأوائل لم يطلبوا استقلالاً بل طالبوا فحسب بحصّة أكبر في الإدارات المحلية. إنهم ما عارضوا في ان يحكمهم الترك، والترك على كلّ حال مسلمون مثلهم. وهم بهذا يختلفون عن القوميين الأوروبيين. لأنهم أناس وحّدتهم عقيدتهم الدينية أكثر مما وحدتهم أصول عرقية علمانية، يعيشون داخل سور الإسلام بالشكل الذي لم تعشه أوروبا داخل سور المسيحية منذ مطلع القرون الوسطى. ولو أُخِذت كل شخصية منهم على حدة لخرجنا بحقيقة لا مجال كبير للطعن فيها هي أنهم لا يمثلون مجموعة عرقية واضحة المعالم. فكما ألمحنا سابقاً إن العنصر العربي الخالص والحقيقي هو سكان

جزيرة العرب تاريخياً وعملياً. وإن المواطنين الذين يتكلمون العربيّة في الولايات العثمانية أمثال بغداد والموصل والبصرة وحلب ودمشق وبيروت إلخ أو في مدن شمال أفريقيا أمثال القاهرة، الجزائر، الإسكندرية، تونس، الخرطوم وغيرها هم خليط من العناصر العرقيّة الطارئة والمستقرة بخلفيات وأصول تحدرت من سيل دافق متوال لقوميات وثقافات وشعوب سكنت في رقعة تمتد من المحيط إلى الخليج. والواقع هو أنه في يوم نشوب الحرب العالمية لم يكن هناك من المجاهدين القوميين العرب - ولنسمهم بالانفصاليين كما أطلق عليهم الترك في حينه - إلاّ عشرات قليلة ناشطة عملاً بين خضم هائل من مواطنين لا يعرف سكان قريةٍ ما يحصل لقرية مجاورة ولو دكت وانقلب عاليها سافلها إلاّ بعد زمن.

وجلّ نشاط هؤلاء كان اتصالاتهم بدائرة الاستخبارات البريطانية ودار المعتمد السامي. إنهم النخبة الواعية المثقفة الحسنة الصلة بالحزب التركي الذي طردهم من بين صفوفه، والذين يشعرون بخطر سياسة الجون ترك، وعن طريقهم كانت الاستخبارات البريطانية تتزود بالأنباء ومنهم كانت تستخلص الخطط السياسية الواجبة الاتباع.

* * *

في الشهر الأوّل من إعلان تركيا الحرب على الحلفاء كتبت وزارة الحرب لـ(ستورز) تشير عليه كما مرّ بتجديد صلته مع (عبدالله) وفق أسس وضوابط وتعليمات. فقام هو و(كلايتن) بترجمة النص إلى العربيّة ترجمة موسّعة المفاهيم، فبدت وكأنها تعهّد بالدعم البريطاني لتحرير العرب بهذا الشكل:

«إذا ساعد الشعب العربي بريطانيا في هذه الحرب التي فرضتها تركيا عليها، فإن بريطانيا تضمن بأن لا يحصل أي تدخل خارجي في جزيرة العرب. وستقدم لهم كلّ عون ممكن ضدّ أي اعتداء خارجي».

[المقصود بالعرب هنا سكان الجزيرة][١٢].

والمعنى واضح: إن تمكن الزعماء العرب من تحرير جزيرتهم من حكم السلطان العثماني وأعلنوا استقالهم فإن بريطانيا ستساعدهم في حمايته من أي اعتداء أو غزو خارجي.

---

(١٢) جورج أنطونيوس George Antonius. «يقظة العرب: قصة الحركة القومية العربية The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement» نيويورك ١٩٦٥. ص١١٦.

ربما أوحى هؤلاء المبعدون (لكلايتن) بأن عرب الحجاز ما زالوا يشكوّن في النوايا البريطانية. هذا الاحتمال ربما قوي عنده عندما لم يتلقّ من (عبدالله) ردّاً مرضياً. والواقع هو أن الشريف ماكان يفكر في أي شيء غير الاحتفاظ بمنصبه. وما اتصاله بالإنگليز إلاّ من قبيل الاحتياط: عملية قد يلجأ إليها في أسوأ الاحتمالات. وهذا الإحجام فسّره المبعدون القوميون لـ(كلايتن وستورز) بأن عرب الحجاز ما زالوا في شك من النوايا البريطانية.

وعكس (كلايتن) هذا لحكومته، فخوّلته إصدار إيضاح جديد لرسالتها الأولى. وللمرة الثانية ذهبت مؤسسته مسافةً أبعد من ترجمتها السيئة للرسالة الأولى بإصدار تصريح لا يقتصر على الجزيرة بل يشمل كل البلاد (والدول) الناطقة بالعربية في الشرق الآسيوي!

التصريح هو وعدٌ من بريطانيا بضمان استقلال تلك البلدان إذا ما تخلصوا من الحكم العثماني. وإن أخذ الوعد بحرفيته وبقدر المقصود منه، فهو وعدٌ معقول رغم تخطيه الحدود التي رسمتها لندن. فلندن لم تعط قبل هذا أي تعهّد مناقض له بخصوص مستقبل الولايات العثمانية الناطقة بالعربية أعني: لو تمكن أهلوها بشكل ما من تحرير أنفسهم، فليس هناك أي سبب وجيه يحول دون الضمان والعهد البريطانيين في حماية حريةٍ واستقلال نالهما هؤلاء بمجهودهم وعرق جبينهم. بل سيكون ذلك في مصلحة بريطانيا وحلفائها أثناء الحرب وبعدها. لكن الرسالة خُتمت بما يشبه انفجار قنبلة:

«الأمل هو أن يتولى العرب ذوو العنصر العريق زمام الخلافة في مكّة أو في المدينة. وإنّ بعد العُسر يُسراً».

وبقي الجهل كالسابق يسود القاهرة ولندن فيما تمتد إليه سلطة الخلافة وأخطأ الجانبان خطأً فادحاً في اعتقادهما بان سلطة الخليفة يمكن أن تكون قاصرة على الشؤون الروحية. وبقي الجميع لا يدرون بأن الخليفة في شريعة السنيّة يملك تصريف شؤون الدين والدنيا كالسلطان العثماني حالياً، وكما هي عقيدة الشيعة في الإمام. لم يدروا بأن الخليفة هو الحاكم المدني المطلق وأمير الحرب وإمام الصلاة في الوقت عينه. كذلك فاتهم ذلك القدر العظيم من الشقاق والشنآن والتشرذم الذي يعانيه الإسلام عموماً.

من مقتضى التصريح البريطاني الأخير مثلاً، أن يعترف (عبدالعزيز بن سعود) ذلك

الزعيم الوهابي المتشدد بالسلطة الروحية بل كذلك بالسلطة الزمنية لأمير مكة الشريف (حسين)، أي أن يخضع له سياسياً. وأن يكون على شيخ الشريعة المجتهد الأكبر الشيعي في النجف الاعتراف بإمامته ومن ثمّ إطاعته. وهي احتمالات مستحيلة غير واقعيّة. الإسلام كان وسيبقى - كالمسيحية - عشرات من المذاهب والطوائف والطرق المتناحرة يشهر واحدهما خنجره بوجه الآخر دائماً ويكفرّه أحياناً.

من ناحيةٍ أخرى، فمفهوم تلك الرسالة يتضمن أيضاً عرضاً بأن يكون أمير مكّة حاكماً مملكةً مترامية الحدود. وهكذا فهمها الشريف وما كان عليه أن يفهمها بغير ذلك. وقد حمله هذا فوراً على استئناف الحوار مع البريطانيين. هذه المرّة حول الحدود التي تمتد إليها مملكته المقبلة! والوثائق البريطانية تشير إلى أن (ستورز) اعتراه ذهول لردّ لم يكن هو ولا رؤساؤه في لندن يتوقعونه. فالنية في الوعد لم تكن تتعدى حدود الحجاز. كان البريطانيون يؤيدون ترشيح الشريف لمنصب شبيه بمنصب (پاپا) روما وهو منصب لا حدود له. إلاّ أنهم دون أن يدروا شجعوه في محاولته حكم العالم الناطق بالعربية، بل ربما هم الذين غرزوا في عقله هذه الفكرة التي ماكان ليطمح إليها أو يحلم بها[١٣].

ومن الجدير بالتنويه والشيء بالشيء يذكر أن الكابتن (وليم هنري شاكپير) المقيم السياسي في الكويت خلال الأيام التي سبقت الحرب، كان قد أقام علاقة وطيدة انقلبت إلى صداقة شخصية مع (ابن سعود). وكان هذا النجم الصاعد في سماء الجزيرة قد أعرب أكثر من مرّة عن رغبته في أن يكون ك(عبدالله) زبوناً لبريطانيا عند بدء الحرب. الاّ أن (شاكپير) أعرب له كما أعرب له (ستورز) أن حكومتهما لا تريد التدخل في شؤون محلية صرفة تخصّ تركيا. بدليل أن وزارة الحرب البريطانية كانت تميل إلى

---

(١٣) بلغ نبأ هذا التصريح وزارة الهند في ١٢ كانون الأوّل ١٩١٥ فقامت قيامة رئيس الدائرة السياسية، الخبير (السر أرثر هرتزل) وتهوّل الأمر وسوء العقبى وأسرع ينتقد ما نعته «بتلك المراسلة البالغة الخطورة في إشارتها إلى الخلافة بهذا الشكل وأن وزارته ما كانت ترى قط أن يقدم على خطوة كهذه. وكانت وزارة الهند وحكومة الهند التي تشرف إشرافاً كاملاً على علاقات بريطانيا بالمحميات العربية والشؤون العربية تعتقد أنه إذا كان الرّأي هو إثارة العرب على تركيا، فالمرشح المناسب لذلك هو (ابن سعود) لذلك لم تكن الجهتان راضيتين عن الخطوة التي أقدمت عليها القاهرة بدعم من وزارة الحرب بخصوص التعامل مع الشريف. (انظر في الوثائق البريطانية لاسيما KB 30157. QQ. 38).

دعم (ابن الرشيد) الموالي للسلطان في نزاعه الدموي مع ابن سعود. وفضلاً عن (ابن سعود) فقد كان هناك الشيخ (مبارك الصباح) القوي المهاب الجانب الصديق الصدوق لبريطانيا، وثم أيضاً الشيخ (خزعل) أمير المحمرة، بل وجد في البصرة (طالب باشا النقيب) ذلك «المخاتل الخطر» كما وصفه (هرتزل).

ولدعم اعتراض (هرتزل) استشهدت (دلهي) بتقرير (للسير پرسي كوكس) الدبلوماسي الشهير صاحب الدور الجوهري في إقامة الكيان العراقي والنظام الملكي الدستوري فيه، كتبه في ١٥ من كانون الأوّل ١٩١٥ إثر مقابلة جرت له مع (ابن سعود والشيخ مبارك) قال فيه: إنهما لا يعيران أي اهتمام بمسألة الخلافة وإن (ابن سعود) قال له بالحرف الواحد:

«إنكم لا تجدون بين سائر الزعماء العرب من يكترث بإطلاق لقب خليفة على نفسه. وإن مذهبي لا يعترف بعد الخلفاء الأربعة الأولين بأي خليفة آخر».

كما جاء في التقرير أيضاً أن الشيعة لا يعترفون إلاّ بخليفة واحدٍ ويرون البقية أدعياء غاصبين.

وجه الغرابة هنا أن لا أحد في لندن حاول إدراك هذه الحقيقة ولا أن يستخلص النتائج عندما وضعت سلطة الخليفة على المحكّ بإعلان السلطان محمد رشاد (الجهاد)[١٤] بوصفه خليفةً للمسلمين في تشرين الثاني ١٩١٤ ضدّ بريطانيا، فلم يستجب له صوت ذو شأن.

* * *

كان الشريف الحسين بن علي يحكم في الحجاز بموجب (فرمان) صادر من السلطان - الخليفة وبوصفه نائباً عنه. وشرط التولية أن يكون سليل الإمام الثاني الحسن بن عليّ بن أبي طالب[١٥] وتلك سنّة اتبعها السلاطين العثمانيون منذ اتخذوا لقب الخلافة. وهم يختارون الشريف بأنفسهم، وقد اختاره السلطان (عبدالحميد) من

---

(١٤) تم له الإعداد للمناسبة في العاصمة استنبول بمظاهرات وخطب الميادين العامة، وعزفت موسيقى الجيش وجوقات أخرى في الميادين. وأثيرت ضجة دعائية كبيرة دون نتيجة.

(١٥) لم يجز العثمانيون أن يكون شريف مكة سليل الحسين الإمام الثالث. والسبب لا أظنه سيخفى عن القارئ. من مقتضى البروتوكول العثماني (قانون الالقاب). كان مقام أمير مكة يساوي مقام خديوي مصر، ومقام رئيس الوزراء (الصدر الأعظم). أمّا من ناحية السلطة الفعلية فالشريف لا يملك أياً من صلاحيات شبيهة بتلك التي يملكها هذان.

بين مرشحين متنافسين ومن عشيرة (ذو عون)، رغم ممانعة الاتحاد والترقي الذين أيدوا ترشيح منافس آخر. في العام ١٩٠٨ وقبل التولية بزمن قصير وجدنا الشريف (حسيناً) وهو ابن الرابعة والخمسين أسيراً في استنبول معظم سنيّ حياته يحيا حياة مترفة ولم تسجّل عليه نقيصة ولم يشع عنه أي شائعة تتضمن طعناً بخلقه ولا فضيحة من بين كلّ الفضائح التي عزيت إلى مشاهير تلك المدينة بل أُثر عنه أنه كان يقضي جلّ أوقاته في الصلاة والعبادة. وهو ما أمن له الحصانة من تخرصات أعدائه وأقاويلهم.

محض الشريف ولاءه المطلق من دون مواربةٍ، وبكل صدق، وساءه كثيراً أن يتولى الحكم في استنبول شبّان أغرار لا ينتسبون إلى أسر معروفة عريقة وكلّ مطمح له في الحياة أن يفوز بإمارة مكّة وأن يحتجز المنصب لنفسه ولسلالته وأن يزيد من سلطته. وعند توليه المنصب كانت الحجاز ولاية بعيدة كلّ البعد عن المركز. تستمد أهميتها فحسب من وجود الأماكن المقدسة الإسلامية فيها[١٦].

قليل من الرحّالة الأجانب وُفق في الوصول إلى مكّة ودخولها فذلك محرّم على غير المسلم. والأوروپيون الذين نجحوا في ذلك، اتفقوا على أنها وإن كانت مدينة مقدّسة، الاّ أن ممارسات مشبوهة لا أخلاقية كانت متفشية فيها. وبحسب ما ذكر في الانسكلوبيديا البريطانية نقلاً عن المتواتر أن الأقاويل والشائعات التي انتشرت عنها في العالم الإسلامي كانت ترقى إلى مرتبة الفضائح وهي أبداً مصدر فزع واستنكار الحجاج الأتقياء. فمثلاً كانت تحت غطاء الحج تجري عمليات تصدير واستيراد عدد كبير من الإماء والعبيد، إلى جانب أمور أخرى لا تقرّها الشريعة الإسلامية.

---

(١٦) دائرة المعارف (الانسكلوبيديا) البريطانية (طبعة العام ١٩١٠: أي بعد نصب الشريف) تصف ولاية الحجاز جغرافياً بأنها: «أقفر بقعة في جزيرة العرب وأشدّها وحشة. مجاهل قاحلة لا ماء فيها ولا نبت. يبلغ طولها حوالي ٧٥٠ ميلاً (١٣٠٠ كم) وعرضها في أوسع موضع ٢٠٠ ميل (٤٦٠ كم). ولا يزيد عدد سكانها عن ثلاثمائة ألف. نصفهم حضريون ونصفهم بدو. ومع أنها جزء من المملكة العثمانية إلاّ أن بعدها عن العاصمة يزداد وعلاقتها تبعاً لذلك تزداد تعقيداً ومشقة لصعوبة المواصلات. لذلك بقيت دوماً تمارس لوناً من الحكم الذاتي. يؤمها سنوياً حوالي سبعين ألف حاج والوظيفة الرسمية لممثل الحكومة هو أمن الحجيج وردّ غارات البدو عليهم. وقد اعتادت السلطة إغراء بعض القبائل بالمال لإقناعهم بأن حماية الحجاج أكثر غنماً من سلبهم وقطع الطريق عليهم. ومكة عاصمة الولاية تبعد عن أقرب ميناء في ساحل البحر الأحمر بحوالي (٤٥) ميلاً. أي برحلة يومين على ظهر الجمال وتقع في وادٍ مقفر شديد ولا يزيد عدد سكانها عن ستين ألفاً.

لكن لدائرة المعارف تلك حديثاً آخر حول صفات عالية في سكانها العرب فتقول:

«العرب جسدياً هم من أقوى وأصلب وأرشق وأنبل القوميات في العالم. شديدو المراس قلما خضعوا لقومية أخرى مادام ذلك ممكناً. وهم عقلياً يفوقون معظم الأعراق البشرية المعروفة، وتأخرهم وانحطاطهم إنما يعزى فحسب إلى افتقارهم للمقدرة التنظيمية. وعجزهم عن القيام بعمل جماعي. والإهمال والقصور هو الطابع الذي يطبع الحكم عندهم. بل هم لا يصبرون على حكم أو نظام».

اعتزمت حكومة الاتحاديين بسط سلطانٍ حقيقي على الحجاز عن طريق مدّ السكة الحديد التي تبدأ بدمشق وتنتهي بالمدينة لإيصالها إلى مكّة ثم إلى ميناء جدّة، وهو أعظم ما كان يخشاه الشريف المعين حديثاً. فهو عملاً وواقعاً يهدد البدو أصحاب الجمال بقطع أرزاقهم وإنهاء سلطانهم المطلق على طريق الحجّ. بل كان الاتحاديون بهذا يهددون استقلال الشريف باستخدامهم السكة الحديد والتلغراف للسيطرة المباشرة على المدينتين المقدستين وبقية الحجاز.

وقد أجاب الشريف على هذه النوايا بإثارة القلاقل والاضطرابات. وكان قبل هذا يستخدم الحامية النظامية التركية ضدّ البدو وشيوخهم لفرض سلطته، إلاّ أن المبادرة التركية الجديدة صارت تلجئه لا إلى إعادة النظر في سياسته وحدها، بل إلى التفكير الجدي في تغيير ولائه وتحويله عن السلطان. والتبس الأمر عليه فترةً من الزمن. فاختار بين مساندة الإمبراطورية آناً، ومعارضة حكومتها آناً آخر.

في السنوات القلائل التي سبقت الحرب كانت الجمعيّات السريّة العربيّة في دمشق إلى جانب بعض شيوخ العرب وزعمائهم المتنافسين في الجزيرة كثيري الاتصال فيما بينهم لاستطلاع مدى قدرتهم على الاتحاد والتضامن في وجه الاتحاديين (جون ترك) دعماً للمطالب العربيّة التي أشرنا إليها.

ففي العام ١٩١١ مثلاً، قصد عدد من نواب البلاد الناطقة بالعربية في مجلس (المبعوثان) الشريف حسيناً وسألوه عما إذا كان يرغب في تزعم البلاد الناطقة بالعربية بهدف الخلاص من الحكم التركي. فرفض رفضاً قاطعاً وأبى مستنكراً. وأعادت الجمعيات السريّة الكرة في ١٩١٢ فاتصلت لا بالشريف بل بمنافسيه وخصومه للغرض نفسه. وفي ١٩١٣ توصلت هذه الجمعيات والقوميون العرب إلى أن الشريف «لا يعدو

إلا أن يكون أداة طيّعة بيد الترك يحركونه لضرب العرب»[١٧]. هذا في الوقت الذي كانت الحكومة التركية لا تثق به ولا تأمن جانبه ووقتما كانت تبحث عن الوسائل للتخلص منه.

إثنان من أبناء الشريف عرفا بنوع من النشاط السياسيّ: (عبدالله) الابن المفضل و(فيصل)، اولهما كان نائباً في مجلس (المبعوثان) عن مكّة وثانيهما نائب عن جدّة. أشار أولهما على والده بمقاومة الحكومة وفي اعتقاده أن هذا ممكن بدعم بريطاني وتأييد من الجمعيات السريّة. في حين نصحه (فيصل) بعدم مقاومة الحكومة. وبين جرأة الأول وحذر الثاني بقي الشريف معلقاً مذبذباً بحبل الولاء. ومن منصبه المتأرجح القلق أفلح خلال السنوات الخمس التي تلت تعيينه في تثبيت مركز أسرته بضرب الشيوخ أحدهم بالآخر. ونجح بسعة حيلة في إضعاف نفوذ خلايا الاتحاديين في مكة والمدينة. مع هذا، فقد وجد نفسه في العام ١٩١٣ والعام الذي تلاه مهدداً بأعداء خوارج من شيوخ عرب من الجنوب والشرق. فضلاً عن أولئك الذين سميناهم بالانفصاليين في دمشق والقاهرة ومنهم من يعدّه مجرد موظف تركي لا يمكن الاطمئنان إليه. كما كان ثم البريطانيون الذين تسيطر قواتهم البحريّة على سواحل الحجاز الطويلة دون عائق، وهو على علم بأنهم سيكونون من أعدائه لو بقي ولاؤه لتركيا وألقى حظوظه مع حظوظ أسياده هؤلاء. أخيراً هناك الحكومة التركية الاتحادية التي تتربص به الدوائر وتعمل للإطاحة به. إلاّ أن الحرب ارغمت الاتحاديين على إيقاف مَدّ السكة الحديد، كما أرجأت مسألة عزله واستبداله. بل أوعزت إليه بدل ذلك بتجهيز وإعداد جنود للخدمة في الجيش. وكان من السهولة بمكان أن يدرك معنى هذا التكليف. إنهم سيرسلون الجنود العرب إلى ميادين قتال بعيدة في حين يسوقون جيشاً نظامياً تركيّ القوام إلى الحجاز للسيطرة على الموقف.

ما كان في يد الشريف من حيلة إزاء ذلك إلاّ المساوفة والمساومة. بعث أوّلاً يسأل خصمه (عبدالعزيز آل سعود) عن موقفه من إعلان الجهاد. أسيكون معه أو عليه؟ كان إعلان الجهاد ضدّ الكفرة أضحوكةً كبرى. فتركيا تحارب إلى جانب الكفرة أيضاً وتساند قضيتهم!

---

(١٧) أرنست داون Ernest C. Dawn: «مقالات حول أصول القومية العربية. من العثمانية إلى العروبة From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism» ص١٤ وما بعدها. ط. شيكاغو ١٩٧٣.

وناقش (فيصل) مندوبه مسألة القيام بعمل مشترك ضدّ تركيا مع رجال الجمعيات السرية في دمشق، في عين الوقت الذي أكدّ للترك بأنه سينفذ أمرهم بتجنيد متطوعين وطلب منهم مالاً لهذا الغرض!

وفي نهاية العام ١٩١٤ عندما تهيأ (جمال) للهجوم على القوات البريطانية في السويس، كتب الشريف للقائد التركي تعهداً بإرسال قوات للمشاركة في الهجوم، كما بعث (عبدالله) في الوقت عينه إلى القاهرة مؤكداً لـ(ستورز) بأنه قرر الانحياز إلى بريطانيا حال نشوب القتال موضحاً ذلك بقوله: «ويجب أن يبقى ذلك سراً، لأن الوقت لم يحن بعد للكشف عن نية التحالف. وأنا أيضاً لا أتمكن من القيام بأيّ عمل».

والمراسلات المحفوظة في مركز الوثائق البريطانية بترتيب تدلّ على أن القاهرة كانت مرتاحة من هذا الموقف. ففي ٢٧ من كانون الثاني ١٩١٥ كتب (ستورز) معبراً عن رضاه:

«ما زلت على اتصال حيّ وثيق بشريف مكة وأنا على ثقة تامة بأنه أكثر اهتماماً بمصالحنا وأدعى إلى اهتمامنا به من أي شيخ محلّي آخر مهما بلغ شخصياً من حَول وطول، فليس بمقدور أحدٍ سواه من ممثلي الإسلام كسب ولاء السنة في أي بقعة من بقاع العالم»[١٨].

* * *

بدأت لندن التي استقرت على سياسة تجزئة الإمبراطورية العثمانية تفكر في مستقبل الولايات العثمانية الناطقة بالعربيّة. ومن أجل هذا ألّفت الحكومة لجنة عرفت بـ(لجنة دي بنسن) نسبةً إلى رئيسها. وإلى هذه اللجنة ضُمّ فيما بعد الشخصية التي قدر لها أن تضع بصماتٍ خالدة على خريطة تلك البلاد. وتدمغها بطابع سياسيّ وقومي ما زالت آثاره باقيةً إلى يومنا هذا، بكل حسناته وسيئاته، وخطئه وصوابه. إنه السرّ مارك سايكس.

ما لبث (سايكس) أن تولى أمر اللجنة وغدا هو خبيرها وروحها الفعّالة. وهو الذي

---

(١٨) رسائل ستورز، لاسيما المرقمة: Kew. 30157. 47. QQ. 15. والواقع هو أن جلّ ما كانت لندن تريده من الشريف هو بقاؤه حياً وفي منصبه. ولذلك نجد البليد (مكماهون) يكتب لوزير الحرب في ٢ شباط ١٩١٥: «لا ضرورة هناك تدعو إلى عمل سريع كل ما كان ضرورياً عمله مع شريف مكة قد تم» (عين المرجع).

كتب تقريرها. أسرعت لندن في إرسال (سايكس) إلى القاهرة ليبحث توصياته مع المسؤولين هناك في أوائل ١٩١٦. ومنها قام بعدة رحلات إلى الخليج الفارسي وجنوب ميسوپوتاميا والهند استغرقت ستة أشهر استطلع خلالها وجهات نظر مختلفة من مسؤولين بريطانيين وشخصيات محليّة. وفي مصر اجتمع بـ(كلايتن) و(ستورز) وقدّمه هذان إلى الشخصيات العربيّة الصديقة لبريطانيا.

إقتنع سايكس بوجاهة فكرة بقاء سورية لبريطانيا، وتعويض فرنسا عنها في مكان آخر، كما اقتنع أيضاً بفكرة رفع الشريف إلى سدّة الخلافة، كما انحاز إلى رأي (ستورز) في مشروع إقامة «إمبراطورية مصريّة»[١٩] وإلى خلق كيان موحد للبلاد الناطقة بالعربيّة مشمول بسيادة الخليفة الروحيّة فقط على أن يكون رئيس الدولة السياسي خديوي مصر، وأن يحكم هذا الكيان من القاهرة بإشراف وهداية المندوب السامي البريطاني الذي سيكون اللورد كتشنر لا غيره!

لكن المعارضة الفرنسية الحازمة خربّت هذا المشروع برمّته. وعلى أي حال كان هذا تصوراً مستقبلياً فحسب. أما النتيجة العملية من ذلك الاجتماع فهو الموافقة على اقتراح تأسيس «مكتب عربي» في القاهرة. في حين كانت لندن ترى إقامة «مكتب إسلاميّ» بالأحرى، ففي كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ أمر رئيس الحكومة البريطانية بعقد مؤتمر موسّع يتمثل فيه كل الإدارات المعنيّة لبحث اقتراحها في تأسيس «المكتب الإسلامي». لكن المؤتمر أقرّ اقتراح (سايكس) بدل ذلك أي بإقامة مكتب عربي، شريطة أن لا يكون إدارةً بذاتها، بل دائرة تابعة للاستخبارات في القاهرة، كما خولت القاهرة صلاحية استخدام موظفيه، وإنشاء إدارة خاصة تحتفظ الاستخبارات بحق الإشراف عليها، وتقرر تعيين (ديڤيد هوگارت)[٢٠] رئيساً له. وكان هناك أسباب ودوافع لهذا التدبير.

---

(١٩) كانت في حينه تدور شائعات بأن الخديوي حسين كامل (تولى الخديوية في ١٩١٤) الذي اتخذ لقب السلطان، يفكر في الحلول محلّ السلطان العثماني خليفةً للمسلمين وحاكماً لجميع البلاد الناطقة بالعربية وبعبارة أخرى تجزئة الإمبراطورية إلى نصفين.

(٢٠) عالم آثاري بالأصل، خريج أكسفورد، كان قبل تعيينه يشغل منصب ضابط استخبارات البحرية البريطانية. شخصية غامضة كان يعمل مع المخابرات البريطانية قبل الحرب. ما يذكر عنه أنه جاء بالسر كيناهان كورنوالس من السودان ليكون نائباً وهو عينه مستشار الداخلية في العراق عند قيام الأزمة الآشورية. كما صحب معه المدعو (توماس ادورد لورنس) الشاب الذي كان واحداً =

ولنعد إلى الوراء قليلاً.

في صيف العام ١٩١٥ اعترت الدهشة المسؤولين البريطانيين في القاهرة من رسالة بعث بها الشريف بعد ستة أشهر من انقطاع، طلب فيها دون سابق إنذار ومن دون إعطاء أي تفسير أن يتكوّن من كلّ عرب آسيا مملكة مستقلة تحت حكمه.

ماكان هناك سبب يدعو إلى الدهشة في الواقع. فهذا ما عرضوه عليه في السابق عندما زينوا له أن يكون خليفةً للمسلمين كافةً، وهو ولا غروَ منصب يقلّ عن منصب «خليفة للعرب». لم يندهشوا فحسب، بل استنكروا وتندروا وهزئوا. علق (ستورز)على الرسالة بقوله:

«على حسين أن يكون شاكراً بقناعته بحكم الحجاز، ربما كان طلبه هذا يهدف إلى جعله أساساً لمفاوضات يطرح فيها طلبات أكثر بكثير مما يحق له أو يأمل به، أو يقوى عليه، أو يتوقعه»[٢١].

إلاّ أن مكماهون وبعقلية الدبلوماسي التوفيقية الضيقة لم يشأ إشاعة خيبة عند الشريف. وأجابه بمنتهى الرّقة أن البحث في شؤون حدود الشرق الأوسط يجب أن يؤجل إلى نهاية الحرب.

لم يكن طلب الشريف المفاجىء بإقامة مملكة عربيّة طلباً مبتسراً أو غير معقول بالنسبة إليه، وكما بدا للمكتب العربي فـ(مكماهون وستورز) كانا يجهلان وقتذاك التطور الفجائي الذي حصل في مكة خلال كانون الثاني (يناير) ١٩١٥. فقد وقع بيد الشريف دلائل خطيّة تشير بوضوح إلى أن الحكومة الاتحادية اتخذت قراراً بعزله حال نهاية الحرب. وأن تأجيلها ذلك كان بسبب الحرب ليس إلاّ. عندها أرسل (فيصل) إلى استنبول لمواجهة صديقه (الصدر الأعظم) ومنه علم هذا بأن قضية عزل والده مبتوتٌ فيها.

وعلى أساس من هذا بعث الشريف برسالته المفاجئة إلى القاهرة، بعد قيام فيصل

= من تلاميذه المساعدين في المتحف الأشمولي بأكسفورد، إلى جانب عدد كبير من المغامرين طلاب الشهرة ومنهم أصدقاء لسايكس وسيأتي الكلام عن أدوارهم ومساهمتهم في الثورة وفي عالم السياسة الشرق أوسطية.

(٢١) روجر أدلسن Roger Adlson: «مارك سايكس، صورة لهاوٍ Mark Sykes: A Portrait of an Amature لندن ١٩٧٥. ص١٨٧.

باستطلاع آراء الجمعيات السرية في دمشق وهو في طريق العودة. كان هؤلاء قد أعلموه قبلاً وهو متوجه إلى استنبول (آذار ١٩١٥) بأن هناك ثلاث فرق عثمانية معظم ملاكها من العرب ترابط في منطقة دمشق وهم يعتقدون بأنها ستكون طوع أمرهم وقيادتهم. كما تحدثوا عن تزعم ثورة على تركيا غير أنهم أبدوا تحفظاتٍ منها اعتقاد بعضهم أن ألمانيا ستكسب الحرب بعد أمدٍ قصير ومن الغباء وقصر النظر أن يكونوا إلى جانب الخاسر. ثم إنهم من جهة أخرى يفضلون أن يحكمهم المسلمون الأتراك على المسيحيين الأوروبيين إن كان بيدهم الخيار.

كلّ من كتب من المؤرخين الأجانب حول هذا كانت تنقصهم المعلومات الدقيقة وكذلك نحن أيضاً. ماذا كان قوميّو دمشق يخططونه آنذاك؟ أين هو المصدر العربي الموثوق الذي يمكن الاستناد إليه؟ وأنا ما لديّ من حيلة إلاّ الاستقراء والاستنتاج. فالذي يبدو لي أن القوم هناك جمعياتٍ وأفراداً كانوا يميلون إلى عرض الولاء العربي في سوق المنافسة بين تركيا وبريطانيا. وجدناهم ينصحون الشريف عن طريق مبعوثه (فيصل) بألاّ ينحاز إلى الحلفاء إلاّ إذا تعهدت بريطانيا بمساندة مطلب استقلال معظم البلاد الناطقة بالعربية في آسيا. وفي حالة حصولهم على وعدٍ كهذا فيسيعودون إلى تركيا ويعرضون عليها الشروط عينها.

إلاّ أن (فيصلاً) لم يجد دمشق عند عودته (٢٤ أيار ١٩١٥) مثلما استقبلته وهو متوجه إلى استنبول. لم يبق شيء! فقد وفق (جمال باشا) في ضبط وثائق بالأسماء تشير إلى وجود مؤامرة عربية. فلم يضع وقتاً في اجتثاثها وقضى على الجمعيّات السريّة بإلقاء القبض واعتقال عدد كبير من زعمائها. وأرسل طائفة منهم إلى المشنقة، وشتت شمل البقية، ثم أعاد النظر في ملاكات الفرق الثلاث وأجرى تغييرات كبيرة في تشكيلاتها، وأرسل عدداً كبيراً من ضباطها إلى جبهة غاليبولي وچناق قلعة وجبهة القفقاس[٢٢] والعراق غيرها.

من نفر باق لهذه الجمعيات[٢٣] عَلِمَ فيصل أنهم ماعادوا قادرين على إشعال فتيل الثورة وأنّ على أبيه أن يقوم بذلك. فتسلل (فيصل) في غيهب من الليل وهرب وقد

---

(٢٢) ت. أ. لورنس: «رسائل سرية من جزيرة العرب Secret Despatches from Arabia» ص٦٩. لندن. ربما كان طبعه في ١٩٣٨.

(٢٣) ستة أشخاص عند (لورنس) وتسعة عند (داون). (المرجع السالف).

علم أن (جمال) يبحث عنه[٢٤] ويجدّ في طلبه. كان رجال الجمعيات قد كتبوا وثيقةً عينوا بها الحدود والأراضي «العربية» التي سيشملها الاستقلال. وقد عرفت فيما بعد بـ(برتوكول دمشق) أقرّوها في شهر آذار (مارس) ١٩١٥. ودونك النصّ الخاص بالحدود الذي كان فيما بعد الأساس الذي دارت عليه مراسلات الشريف لمكماهون:

١- اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربيّة الواقعة ضمن الحدود التالية:

شمالاً: الخطّ الممتد بين (مرسين) و(أدنه) بموازاة خطّ العرض (٣٦) ومن ثم امتداد لخط بيره جك - أورفه - مدياث - الجزيرة - عماديه حتى الحدود الفارسيّة. شرقاً: الحدود الفارسية الحالية حتى الخليج الفارسي. جنوباً: المحيط الهندي، باستثناء عدن التي تبقى بوضعها السياسي الحالي (أي محمية بريطانية). غرباً: البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى (مرسين).

٢- إلغاء الامتيازات الاستثنائية الممنوحة للأجانب بموجب المعاهدات الاستسلامية الماضية (المعاهدات التي أرغم عليها الباب العالي).

٣- إقامة حلفٍ دفاعي بين بريطانيا العظمى وبين الدولة العربية المقبلة.

٤- منح الأفضلية لبريطانيا في التعامل الاقتصادي.

عندما أَبلغ الشريفُ القاهرة بهذا البرتوكول بوصفه صادراً عنه لم يُؤخذ كلامه مأخذاً جدياً.

* * *

في غفلةٍ عجيبة من غفلات التاريخ ومنعطفاته الحادة قدر لهذه المرحلة ولضابط صغير خامل الشأن، ولأكذوبة صغيرة اخترعها، ان يحدث تغييراً جوهرياً في سياسة الحكومة البريطانية إزاء البلاد الناطقة بالعربية وأن ترتفع حرارة العلاقات بين القاهرة ومكة إلى الدرجة القصوى غير المتوقعة قط. قصّة أهملها مؤرخو العرب إهمالاً تاماً في حين كانت جزءاً هاماً من التاريخ القومي وتاريخ الثورة.

---

(٢٤) بعض الكتاب ينفي ذلك. وبعضهم يثبته. إلاّ أن المؤرخ والباحث (محمد كُرد علي) الذي زعم في مذكراته (دمشق ١٩٥٥ ج٣) بأنه كان أحد المتوسطين والشفعاء عند جمال للعدول عن تنفيذ حكم الموت الصادر بحق المحكومين القوميين أثناء وجودهما في القدس. لكن القائد التركي بسط أمامه البينات والوثائق التي أدينوا بموجبها وتثبت أنهم كانوا يعدون للانقلاب. لا ينسى هذا العالم الكبير أن يتوجه باللوم إلى (فيصل) بقوله إنه الذي ورط المحكومين وتركهم لمصيرهم متسللاً من دمشق. ويصفه بالجبن والأنانية.

حمل (سايكس) معه إلى لندن شيئاً يفوق اقتراح تأسيس المكتب العربي أهميّة: حمل أنباء مثيرة عن شاب ضابط عثماني برتبة ملازم ثان يُدعى (محمد شريف الفاروقي) ويبلغ من العمر ٢٤ عاماً ومن أهالي مدينة الموصل[٢٥] ادّعى أنه عضو في

---

(٢٥) في خريف تلك السنة فرّ (الفاروقي) من جبهة غاليبولي وعبر خط النار والمنطقة الحرام وسلم نفسه للبريطانيين مدعياً أنه يملك معلومات خطيرة جداً تهّم المخابرات البريطانية، فأرسل إلى القاهرة فوراً للتحقيق. ربما كان فراره بدافع خوفه من وشاية أو قلق من وجود وثائق في دمشق عند قيادته تدينه أو لعله كان يسعى إلى شهرة من لعبةٍ خاصة يلعبها في ميدان السياسة الدولية. فقد ظهر فيما بعد أنه كان يتصرف ذاتياً ولم يثبت للبريطانيين ولا لغيرهم أن جماعة أو أحداً ما يقف وراءه ويحركه. كما ثبت أيضاً أنه لا يمثل أية جهة. كان قليل الحظ من الإنكليزية ولذلك بدا من الصعب عزل ما كان ينوي قوله عن ما عُزي إليه من اقوال أو ما وضعه مستجوبوه في لسانه وزعموه عنه وفي نيتهم ان يحبوا سماع كل ما ادعى أنه من بنات افكاره. لم يكن آنذاك يعرف عن الفاروقي إلاّ القليل. وقد ظّلت شخصيته يكتنفها الخمول حتى يومنا هذا. ومن القليل الذي جاء في الوثائق البريطانية أن الشاب هبط كالشهاب الثاقب في خريف على المكتب العربي واستأثر باهتمام الحكومة البريطانية طوال العام ١٩١٦ ثم لفّه ضباب الخمول وخبت ناره ولم يظهر له اسم أو صيت خلال الاحتلال البريطاني للعراق وأنه قتل في العراق العام ١٩٢٠ في أثناء غارة عشائرية في الطريق العام. وأرجح أنه من أسرة آل العمري المعروفة في الموصل وهي نسل الخليفة عمر بن الخطاب الملقب بالفاروق. كان عضواً في واحدة من الجمعيات السرية بدمشق عندما توقف فيصل فيها وربما كان أحد الذين اجتمعوا به هناك. وإن لم يحصل هذا فربما أنهى إليه زملاؤه بتفاصيل محادثاتهم مع فيصل. وقد شملته تنقلات (جمال). لفترة ما اعتقد البريطانيون اعتقاداً جازماً بأن صلته بالجمعيات الدمشقية لم تنقطع ومنهم علم بتفاصيل مجهودات (فيصل) وأبيه في الانحياز إلى بريطانيا وإعلان الثورة. مثلما علم بنبأ البروتوكول. وقد جاء ذكره في مذكرات جعفر العسكري. ويظهر أن الفاروقي استطاع أن ينال ثقته - قال جعفر:

«بعد انتقالي إلى دار الدكتور بيتر اتصل بي أن ضابطاً شاباً عراقياً من الموصل يسمى شريف الفاروقي وصل إلى القاهرة ممثلاً لجلالة الملك حسين لدى السلطات البريطانية في مصر فذهبت لزيارته وكانت معرفتي به قديمة لأنه كان أحد تلاميذي القدماء لما كنت مدرساً في المدرسة العسكرية في بغداد ففهمت منه أنه هرب من الجيش التركي والتحق بالجيش الإنكليزي وادعى انه ممثل للجمعيات العربية وبيّن استعداده للاتصال بالشريف حسين للقيام بحركة واسعة النطاق على الإمبراطورية العثمانية في جميع الأقطار العربية وأنه فعلاً أرسل إلى جلالته وكانت النتيجة أن الملك حسين عينه ممثلاً عنه لدى السلطات العسكرية البريطانية للحصول على الأسلحة والذخائر ولإرسال المتطوعين إلى الحجاز لخدمة الشريف حسين. ولما كانت شخصية ذلك الشاب وتصرفه في الأمور على غير ما يرتاح إليه رجال العرب لذلك كان تأثيره قليلاً وكان يخامره الشك في أمر الذين يقابلونه ويتخوف منهم لئلا يفقد مركزه عند الشريف والإنكليز لأن

جمعيّة العهد السريّة العسكرية. واستشهد بذكر رئيسها في دمشق العميد (ميرآلاي) الركن (ياسين الهاشمي) رئيس أركان الفرقة الثانية عشرة. ومع أنه أقرّ بأنه لم يُخول حق «التفاوض معكم رسميّاً» إلاّ أن (كلايتن) قبله بوصفه ناطقاً باسم حزب العهد يعرض مقترحاته. وصدقت الاستخبارات به اعتماداً على (كلايتن) رغم أنها لم تتأيد لها عن

= العراقيل التي وقفت في سبيلي في بادئ الأمر في قضية انضمامي إلى الشريف كانت نتيجة مخاوف شريف الفاروقي هذا لأنه كان يحسبني من الاتحاديين نظراً إلى الصلة الشخصية التي كانت بيني وبين أنور باشا. وفي خلال هذه المدة التي قضيتها في مصر كنت أقابل من حين لآخر شريف الفاروقي منتظراً منه أن يبلغني جواب الكتاب الذي كتبته إلى جلالة الملك حسين طالباً السماح لي بالانخراط في سلك جيشه لنجدة العرب وكنت أشعر بمماطلة وتسويف وأصررت عليه ليبيّن لي الأسباب التي تؤخر البت في أمري فحاول أن يبيّن لي من طرف خفيّ أن السلطات البريطانية هي المرتابة في أمري لأنها تخشى أن أفلت من يديها فأرجع إلى صفوف الجيش العثماني» [مذكرات جعفر العسكري: تحقيق وتقديم نجدة فتحي صفوت، دار السلام، لندن ١٩٨٨، الص ١٠٢-١٠٤]

بالعودة إلى نهاية محمد شريف الفاروقي التي ادخرها له القدر ما يستدل منها على شجاعة وشهامة في الرجل. لم يكن مقتله في ساحة حرب أو في ثورة العشرين كما علق الأستاذ (صفوت) بل كان بيد بدوي وهو في طريقه من الموصل إلى بغداد دفاعاً عن مسيحي، وأظن الصديق (صفوت) استمد ذلك من كتاب كوتولوف (ثورة العشرين، الترجمة البيروتية ١٩٧٥) المليء بالأكاذيب والمختلقات فقد قال هذا عن مقتله ولا أدري من أين جاء مصدره: «إن مقتل الفاروقي هو من بين الأعمال الوطنية التي قام بها الأنصار عقب انتهاء الثورة»!!. والحقيقة هي أن الذين اغتالوا الفاروقي لم يكونوا من الأنصار بل من قطاع الطرق النشطين على طريق الموصل - بغداد، وكانت طريقاً غير مأمونة حتى الثلاثينيات تجول فيها عصابات التشليح وسلب المال إلى حدّ القتل. غادر شريف الفاروقي الموصل في ٢٤ تشرين الأول ١٩٢٠ إلى بغداد وكان في قافلة مؤلفة من خمس سيارات وفي موضع بين الشورة وحمام علي اعترضتها عصابة من البوحمد مؤلفة من ١٥٠ خيالاً برئاسة شيخهم (بليبل آغا) وكان بين الركاب رجل من أسرة بشيون المسيحية (يدعى عزيز) فدنا منه رجل من العرب وسأله هل أنت نصراني؟ فأجابه بحدة نعم نصراني، فصرخ الرجل في وجهه يا خنزير ثم فتك به. والظاهر أن الفاروقي حاول أن يردع الرجل ولعله انتهره ظناً منه أنهم يعرفونه فتوهم (بليبل) بأنه نصراني مثله فتقدم منه وأطلق النار عليه دون معرفة به ثم قامت العصابة بنهب السيارات وتشليح أهلها.
ألقي القبض على بليبل وسيق إلى المحكمة في الموصل بتهمة قتل هذين ولم تثبت عليه التهمة بسبب عدم تقدم أحد للشهادة خوفاً من الانتقام فبرئ. والتقى به بعد البراءة عبدالمنعم الغلامي ونقل عنه قوله "والله ياخوي ما آني قاتل شريف لكن الذين قتلوه اتهموني وجعلوني مسؤولاً عن دمه ليضربوا عصفورين بحجر واحد كما يقول المثل" (قحطان أحمد عبوش، ثورة تلعفر، بغداد ١٩٦٩، الص ٣٨١-٣٨٣، نقلاً عن جريدة صدى الأحرار، ٢ آذار ١٩٥١).

مصادر أخرى ولم تجد حاجة للتحقيق في صحة مزاعمه.

لم يكن في الواقع يمثل أي جهة ولا ناطقاً باسم «العهد» والواقع هو أن كلايتن كان ضحية خدعة. والأمر الذي حمل كلايتن على تصديقه هو معرفة الفاروقي بأدق التفاصيل حول المراسلات بين الشريف والقاهرة، وكذلك علمه بمطالب الشريف الأخيرة.

هاهنا مطلبان متفقان يأتيان من جهتين مختلفتين فأي برهان أقوى من هذا؟ وكلاهما يطابق ما عرضه مؤسس حزب العهد نفسه (عزيز علي المصري) وغيره من المبعدين العرب في القاهرة منذ أولى أيام الحرب. الاستنتاج المنطقي الوحيد المبنيّ على هذه الفرضية الخاطئة هو:

(إن كانت الجمعيات السريّة تدعم الشريف فلا إمكان بعد هذا للتمسك بالوهم بأنه لا يمثل أكثر من الإقليم الذي يحكمه في جزيرة العرب. وإذا كانت الجمعيات السرية بهذه الدرجة من القوة كما يزعم (الفاروقي) ويقنع به (كلايتن) فالشريف والحالة هذه إنما يتحدث بلسان مئات الألوف من الجنود الناطقين بالعربية في الجيش التركي وباسم ملايين من رعايا بلادهم في الإمبراطورية).

مضى (الفاروقي) في لعبته وقد زادته حماسةً شدة اهتمام هؤلاء الرجال الخطيرين بأقواله وجذْبَتهم في الأخذ بها. فأنذر (كلايتن وستورز) ورفاقهما بوجوب الإسراع في الموافقة على مطالب الشريف وزاد قائلاً بأن على البريطانيين ضمان استقلال البلاد العربيّة إذا رغبوا في أن يقوم حزب العهد بإشعال نار الثورة في قلب الإمبراطورية وأعطاهم (كذا!) مدة أسابيع قليلة لقبول هذه المطالب «وإلاّ فإن الحركة العربية ستدعم ألمانيا وتركيا بكل إمكاناتها!».

لم يسأل أحد من البريطانيين أين هو العهد هذا؟ وماذا فعل؟ ومن هم رجاله؟ ولم يكونوا على إدراك بأن (جمال) أوقع بهم وأحال حزبهم أثراً بعد عين. ابتلع البريطانيون الكذبة كأيّ سمكة. وأصيبت القاهرة بحمى وهياج. فكتب (ستورز) لوزير الحرب كتشنر في ١٠ من تشرين الأول (أكتوبر):

«بلغت القضية العربيّة انعطافاً حاداً».

ونظم (كلايتن) بدوره تقريراً لخص فيه محادثته مع الجنرال (ماكسويل) قائد القوات البريطانية العام في مصر. وعلى إثر ذلك وبنتيجتها أبرق هذا القائد لوزيره بالآتي:

«إن منظّمة قوية جداً تنشط خلف خطوط العدّو. وإنها مصدر طلبات شريف

مكة فعلاً. إنْ تمّ التوصل إلى اتفاق نهائي معها فسينحاز العرب (كذا!!) إلى جانب العدّو».

لم يفكر هذا الجنرال لحظة ليسأل نفسه قبل إرسال البرقية. عَمّا هو موقف العرب تلك الساعة؟ أهم على الحياد حقاً؟ أليسوا هم جزءاً من العدوّ على الأقلّ تكنياً؟

الواقع هو أن الفكرة التي سادت بريطانيي القاهرة بعد «الإنذار» (الفاروقي) الصاعق أنّ ثورة عربيّة عارمة ستكون عاملاً مساعداً يضمن إنقاذ القوات الحليفة التي كانت تقاتل قتال المستميت في غاليبولي، حيث راح قائدها الجنرال (أيان هاملتن) يحث (مكماهون) على تلبية مطالب العرب بسرعة. فكان هذا عند حسن ظنّه ولبّى طلبه بردّه الشهير، وكما يوحي بذلك تصريحه الذي أدلى به بعد سنة واحدة، نافياً عن نفسه مسؤوليته في رسم صورة تلك الثورة العربيّة المزعومة التي بان فشلها وإخفاقها قبل ميلادها وهذا هو نصّ التصريح:

« كان يوماً من أنحس أيام حياتي وأتعسها عندما ألقي على عاتقي مسؤولية الحركة العربيّة. وأرى أن كلمات قليلة هي ضرورية جداً لإيضاح موقفي؟ ألا فليُعلم بأن لا علاقة لي بهذه المسألة مطلقاً. إنها أولاً وآخراً مسألة تخصّ الجيش وقد بدأت بنداء عاجل من الجنرال (السرّ أيان هاملتن) يناشدني فيه القيام بعمل فوري يهدف إلى إخراج العرب من الحرب. في تلك الساعة كان قسم كبير من القوات الغربيّة في غاليبولي وفي ميسوپوتاميا. وكاد كلّ القوات فيها يكون من العرب»[٢٦].

وفي الوقت الذي راحت دار المعتمد البريطاني في القاهرة تطلب من لندن الموافقة العاجلة على مطالب «الفاروقي - الشريف» ذكرت أن «الباب ما زال مفتوحاً للتفاوض، وقد يقوم هذا الضابط العربي بتنازلات عند الحاجة!».

بخارقةٍ من خوارق التاريخ، ومفارقاته المذهلة، وجد (محمد شريف الفاروقي) نفسه في الأسابيع بل في الأشهر القلائل التالية قطب الرحى وفي المركز العربي الأعلى للمفاوضات والحوار حول مصير البلاد الناطقة بالعربيّة. وفي الوقت الذي وجب على هؤلاء الموظفين أن يزيحوا طرفاً من الغشاوة عن أعينهم ليتبينوا بأن الأمر كله ليس غير

---

(٢٦) الوثائق. المرجع السالف. انظر أيضاً «The Chalham House Version and other Middle Eastren Studies» ص١٤. نشرها الكاتب والباحث العراقي إيلي خضوري. لندن ١٩٨٤.

خدعة كبيرة، وجدنا (الفاروقي) مجدّاً يرسم لهم ويعيد رسم حدود البلدان والإمبراطوريات في أثناء تبادل الرسائل وكتابة التقارير وإبداء وجهات النظر - بين المندوب السامي وبين الشريف والقوميين العرب في القاهرة، وكلّ طرفٍ من هذين الأخيرين يعتقد بأنه يمثل الطرف الآخر وينطق باسمه!

الفاروقي قُدمّ لأمير مكة بوصفه عضواً خطيراً في حزب العهد ومحلّ ثقة من البريطانيين. في حين زعم هو لبريطانيي القاهرة بأنه يمثل الشريف وينطق بلسانه.

وقد حاول (فيصل) عبثاً أن يكشف عن هوية هذا العربي الغامضة الذي أصبح في القاهرة شخصية بالغة الأهمية والخطورة فلم يظفر بأكثر من اسمه فكتب لأبيه في رسالة:

«وأمّا عن الفاروقي هذا، فأنا لا أعرفه ولا أعرف عنه شيئاً»[٢٧].

انداحت دوائر الحصاة التي القاها الفاروقي في بحيرة السياسة البريطانية الشرق أوسطيّة لتشمل النوايا والسياسة والأطماع الفرنسية في سورية وسائر البلدان الناطقة بالعربية. وهنا أيضاً اتفقت مقترحات (الفاروقي) مع عين الفكرة التي كان (كلايتن) قد رسا عليها في السابق باعتزامه معارضة الادعاء الفرنسي بداخليّة سورية في خطّ يمتد من حلب حتى دمشق ماراً بكلّ من حمص وحماه. وكان كلايتن يدرك بأن فرنسا لا يمكن أن تتنزل عن ساحل سورية ولبنان حيث يعيش المسيحيّون بحماها.

واستناداً إلى تقارير (كلايتن)، إن (مكماهون) اقتبس قول الفاروقي وضمنه برقية إلى وزارة الخارجية، مؤداه أن أمير مكّة لن يصرّ على مطالبه الاصليّة، أي أن تمتد حدوده الغربيّة إلى البحر، لكنه سيعارض بالسلاح أي محاولة فرنسيّة لاحتلال (مناطق)[٢٨] حلب وحمص وحماه ودمشق.

وطلب هذان تخويلهما بقبول شروط الشريف بعد التعديل ودأب (كلايتن) يلحّ على حكومته بإعطاء الأسبقية للقضية العربيّة. ووجد لراحته وفرحه في (سايكس) حليفاً قوياً عظيم النفوذ في لندن، ذلك الرجل الذي انقلب بتأثير الجو القاهري والعدوى

---

(٢٧) الوثائق وأوراق اللورد كتشنر .R.R. 26. 30157. 48.

(٢٨) شجعه على ما أوحاه الفاروقي له بأن الشريف سيوافق ويتنازل عن ادعائه بهذه الأماكن. ولا يعرف ماذا كان يقصد (مكماهون) بالمناطق. هل يقصد بها ولاية أم مدينة مع ضواحيها. (مركز الوثائق. ومجموعة اللورد ليڤربورك - وثائق مجلس اللوردات: أوراق لويد جورج No. 17. F .205-3.

«الفاروقية» إلى نصير عظيم للقضية العربية، وعدوّ لدود لمن كان يحترمهم ويحبّهم بالأمس[٢٩] أعني الأتراك. ومن هذا الانقلاب نبطت فكرة المكتب العربي كما بيّنا.

* * *

على أثر العاصفة الفاروقية، أُبلغ (مكماهون) بأن يقدم التعهد الذي طلبه الشريف. وتمت الموافقة على فتح حوار حول تعيين الحدود التي ستمتد إليها مملكة الشريف. إلاّ أن مكماهون بقي يستخدم أسلوب المواربة والعموميات والصيغ العريضة المدلول. ففي رسالته المؤرخة في ٢٠ من تشرين الثاني (نوڤمبر) وافق من ناحيةٍ على أن ينال العرب استقلالاً بعد الحرب. إلاّ أنه أشار من ناحيةٍ أخرى إلى ضرورة وجود مشاورين وموظفين أوروبيين لتنظيم الإدارة في البلاد المستقلّة، وشدد على أن يتم اختيارهم من البريطانيين فحسب. وبعبارة أكثر صراحة إن أيّ استقلال تناله مملكة عربية في الشرق الأوسط سيكون تحت الحماية البريطانية.

وماذا عن الحدود التي ستمتد إليها مملكة الشريف؟

قال مكماهون بتقسيم الأراضي التي ادعى بها الشريف إلى مناطق أربع وأضاف: إن بريطانيا لا يسعها ربط نفسها بتعهد يؤدي إلى مساندة الشريف في ضم أية منطقة منها. وأشار بوجوب صرف النظر عن ادعائه بمناطق دمشق وحلب وحمص وحماه. ثم انتهى بقوله:

«إن المملكة العربية التي يتصورها الشريف ويطمح إليها لن تشمل لبنان وسورية وفلسطين ولا الولايات الشرقية بغداد والبصرة، ولأن لبريطانيا مصالح فيهما فستتخذ بشأنهما تدابير إدارية خاصّة. [لم ينوه مكماهون بشيء ما حول ما إذا كانتا ستدخلان في حدود مملكة الشريف أم لا]. وامّا بخصوص

---

(٢٩) تعود (سايكس) احترام الطبقة الحاكمة التركية وحظيت قابلياتها بتقديره دون رعاياهم الآسيويين الذين كانوا موضع احتقاره. وكثيراً ما لجأ في كتبه إلى أقبح النعوت في وصفهم. كذلك عرف بالقفز على الآراء واقتناصها وهي سانحة دون أن ينفق أي وقت في تمحيصها، فلا عجب إن وجدناه ينقلب فجأة ليكون من أشدّ المدافعين صرامة عن قضايا شعوب الشرق الأوسط على أنه بقي وهو الكاثوليكي المتعصب لا يكن ذرة من احترام لليهود. وبقي يمسكه خوف عظيم منهم ومن نواياهم لم يفارقه حتى مماته في العام ١٩١٩ وهو ابن الأربعين. ولم يجد حرجاً وهو في موقفه الأوّل المتعاطف مع الترك، في أن يتبنى مأساة الأرمن ويدافع عن حقهم في كيان مستقل (المرجع السالف، مارك سايكس: «صورة لهاو»).

المناطق الغربية أي سورية ولبنان وفلسطين فإن يد بريطانيا لن تكون حرّة فيها إذا ما اعترضتها مصالح حليفتها فرنسا فيها. ولما كانت الحليفة تدعي بها فليس بوسع بريطانيا دعم مطلب الشريف فيها أيضاً مثلما كان أمر دمشق وحلب وحمص وحماه».

هذا ما كتبه (مكماهون) بناءً على تعليمات دقيقة من حكومته.

إذن، لم يبق غير الجزيرة العربية. وهذه موزعة النفوذ على عدد من الشيوخ والزعماء والأمراء والشريف واحدٌ منهم ليس إلاّ. ولبريطانيا مع طائفة منهم كبيرة معاهدات واتفاقيات حماية، وبينهم (ابن سعود) خصم الشريف العنيد.

وفي هذا الصدد أكّد (مكماهون) للشريف بأن حكومته لا يسعها أن تعده بشيء قد يخلّ بعلاقاتها مع الزعماء العرب الآخرين. وبالتالي فهي لا تستطيع ربط نفسها بوعد يتضمن دعم مطالبه في أي مكان منها. وأجاب الشريف بما ملخصه: إنه لن يوافق على مسألة دمشق وحلب وحمص وحماه، وكذلك يصرّ على أن تكون ولايتا بيروت وحلب ضمن حدود مملكته، وأمّا عن الفرنسيين فقد أجاب بالحرف الواحد:

«إن أيّ تنازل منتوى يتضمن منح فرنسا أو أية دولة أخرى شبراً واحداً من الأراضي في تلك الأنحاء هو أمر خارج عن الصدد».

في لندن، لم تجد وزارة الخارجية حكومتها مرتبطةً بأي تعهد بخصوص استقلال عربيّ. فقد اشترطت لإعطائه قيام نصف سكان الإمبراطورية العثمانية الذين يتكلمون العربية وينتسبون للقومية العربية بثورة ضدّ السلطان. وهو ما لم يحصل وما لا يعتقد بأنه سيحصل. فالمسألة والحالة هذه لا تعدو صفقة معاوضة. مادام العرب عجزوا عن تنفيذ الجزء المتعلق بهم فإن بريطانيا في حلّ من تنفيذ الجزء الخاص بها. والواقع هو أن لندن في العام ١٩١٦ لم تكن تعتقد بأن العرب سينحازون فعلاً إلى الحلفاء. وبهذا الصدد خاطب وزير الخارجية اللورد (إدورد كري)[٣٠] زميله (أوستن چمبرلين) وزير

---

(٣٠) إدورد كري Edward Cray (١٨٦٢-١٩٣٣): تولى وزارة الخارجية إحدى عشرة سنة (١٩٠٥-١٩١٦) وهي أطول مدة لوزير خارجية في تأريخ إنگلترا. إنه صاحب العبارة المشهورة التي ذهبت مثلاً. قالها عند نشوب الحرب العظمى: «انطفأت المصابيح في كل أوروپا ولن نراها تنير ثانية طوال ما بقي من عمرنا». كان مهندساً والقوة الدافعة لمعاهدة بندن السرية مع إيطاليا ١٩١٥ التي جرتها للحرب مع الحلفاء.

الهند[٣١] بقوله مُطمْئِناً:

«لا عليك ولا تقلق حول العروض التي تقدمت بها القاهرة فالأمر كلهُ لا يعدو بناء قلعة في الهواء لن تتمخض بشيء!».

وقليل من الانفصاليين القوميين في البلاد الناطقة بالعربية من أدرك بأن الوعود البريطانية لا تسوى الحبر الذي كتبت به ولا الورق الذي دونت عليه. والمخادعة والمخاتلة لم تكن من جانب العرب وحدهم. فهي مخادعة مزدوجة متبادلة. ومن هذا القليل المدرك يُشخّص (عزيز علي المصري) الذي كتب للورد كتشنر:

«إن بريطانيا لا تستطيع تحقيق أهدافها في الشرق الأوسط الناطق بالعربية إلاّ إذا كانت ذات رغبة خالصة في ترك أهلها أحراراً يمارسون استقلالاً تاماً من دون حماية ومن دون ضمّ»[٣٢].

* * *

كانت المشكلة عند بريطانيا أنها لا تستطيع تحقيق أهداف ما بدون تسوية مع فرنسا. وهي الآن بحاجة إلى الموافقة الفرنسية على تحويل جزء من قواتها إلى مصر عندما تحين ساعة الهجوم على فلسطين وسورية. لكن فرنسا بقيت مترددة في إرسال قوات. فالوضع في الجبهة الغربية كان عصيباً للغاية والألمان يهاجمون في (ڤردون) وقبلها في (السوم)[٣٣] ومع هذا وجدت لندن - خوفاً من تردد الشريف - من الضروري البدء في مفاوضات مع فرنسا وكان (سايكس) المسموع الكلمة في وزارة الحرب قد أنذر:

«إن لم نحلّ خلافاتنا هذه مع فرنسا بسرعة فقد يتم عزل الشريف أو يقتله

---

(٣١) سير ج. أوستن چمبرلين Sir J. Austen Chamberlain (١٨٦٣-١٩٣٧): وزير الهند أثناء الحرب. وزير الخارجية بين ١٩٢٤ و١٩٢٩. من حزب الأحرار، وهو الأخ غير الشقيق للسير نيڤل چمبرلين رئيس الوزارة البريطانية وقت نشوب الحرب العظمى الثانية وصاحب الاتفاق مع هتلر الذي أطلق يد الأخير في چيكوسلوفاكيا. كان وزيراً للهند خلال ١٩١٥-١٩١٧. وعضواً في وزارة الحرب إلى جنب زميله (كري) وهو مهندس وصاحب فكرة معاهدة لوكارنو الشهيرة.

(٣٢) الوثائق: رقم 8 RR -30175 .48.

(٣٣) جرى في ڤردون (١٩١٨) أعظم معركة وأشدها هولاً في التاريخ البشري. قتل فيها وجرح وأسر وأصيب بالغاز السام من الجانبين سبعمائة الفٍ. وفي معركة السوم بلغت الخسارة عند الطرفين ما مجموعه مليوناً ومائتي ألف جندي.

الترك. وقد يشتعل فتيل الجهاد الذي أعلنه السلطان في الأراضي المقدسة وليس بإمكاننا أن نتعهد بشيء للشريف دون موافقة فرنسا».

بدأت المفاوضات بعد كتاب مكماهون في لندن ببحث مستقبل سورية وحدودها، ومن أجل إطلاق يد بريطانيا حرةً في التعامل مع الشريف وانتهت باتفاق سايكس- پيكو- سازانوف المشهور. وعلى الضدّ مما يروج له عدد من المؤرخين لم يكن باعث هذه المفاوضات خطاب مكماهون للشريف مُطلقاً(٣٤). بل كان ثم أسباب أخرى أكثر أهميةً.

فإلى جانب الأهداف الستراتيجية التي توخاها (سايكس) من الاتفاق، أراد تقديم عوض للحصول على الموافقة الفرنسية في حالة قيام الجيش البريطاني بالتحرك نحو فلسطين وسورية. ولهذا وذاك كان هو ورئيسه على استعداد حتى للتضحية بالمصادر النفطيّة التي تزخر بها ولاية الموصل في سبيل وضع فرنسا بمواجهة البرابرة الروس(٣٥).

---

(٣٤) بدأت المفاوضات في ٢٣ من تشرين الثاني. ورأس الجانب البريطاني أولاً (سر أرثر نيكلسن) معاون السكرتير الدائم لوزارة الخارجية في حين مثل الوفد الفرنسي (جورج پيكو) وتواصلت المفاوضات أسبوعاً وكانت قد بلغت طريقاً مسدوداً عند عودة (سايكس) فاستبدل بـ(نيكلسن) فوراً. كان من خطة (پيكو) التظاهر بإصرار فرنسا على حكم سورية حكماً مباشراً، لقاء تعديل الحصول على تنازلات مقابلة، كما كان يأمل في مدّ النفوذ الفرنسي شرق البحر المتوسط إلى أقصى ما أمكن ليشمل ولاية الموصل ذات الأغلبية الكردية. وكان يجهل أن (سايكس) وعضيده (كتشنر) ينويان أيضاً التنازل لفرنسا عنها، إذ كانا يحبذان أن ينداح النفوذ الفرنسي شرقاً كذلك ليغدو الفرنسيون بمواجهة الروس وليكون نفوذهما متعادلاً في المناطق التي سيستوليان عليها. وبهذا يتمّ اجتناب احتكاك بريطاني - روسي أو تصادم مصالح في الشرق الأوسط. أي أن تكون فرنسا هناك بمثابة سور الصين الشهير يحمي الأملاك البريطانية في الشرق الأوسط. كان هذان الرجلان على استعداد للنزول عن الكثير في سبيل تحاشي نزاع دموي مع الروس دام أكثر من مائة عام هناك. ولم يجد سايكس الكاثوليكي المحبّ للفرنسيين أي مانع في الموافقة عندما أنذر (پيكو) بأن «مسيحيّ سورية لن يقبلوا بأي شكل من الحكم يفرضه شريف مكة». وشدّد (كامبون) السفير الفرنسي على ضرورة ذلك وكيف أنه سيحول دون حرب أهلية دينية الطابع. وقال وكأنه يقرأ صفحات الغيب: «يكفي أن نتأمل في تلك المنافسة المسعورة بين مختلف الطوائف والأديان في الشرق للتنبوء بعنف الاحتراب الداخلي في لبنان عندما تفتقد قوة خارجية لاحتوائه». (أندرو وكانيا فورستر Andrew and Kanya Forster: «أوج التوسع الفرنسي الإمپريالي In Climax of french Imperial Expension» لندن ١٩٦٧. ص٨٩.

(٣٥) موريان كنت Murian Kent: «النفط والإمپريالية، السياسة البريطانية وميسوپوتاميا Oil and Empire: British Policy and Mesopotamia 1900-1920» لندن ١٩٦٧. ص٨٩.

وبالنتيجة حصل الطرفان كلّ على ما يريده من الآخر. فرنسا ستحكم لبنان الكبير، وتمارس نفوذاً من غير منازع على سورية، فضلاً عن امتدادٍ إلى ولاية الموصل. في حين تبقى ولايتا بغداد والبصرة للبريطانيين. وبقيت فلسطين عقبة، وتنازع الطرفان عليها. وأصرّ (پيكو) على ضمّها إلى النفوذ الفرنسي، ثم توصلا إلى اتفاق يقضي بأن تحصل بريطانيا على ميناءي حيفا وعكا مع حزام أرضي تُمدّ فوقه سكة حديد منهما إلى ميسوپوتاميا. وتناط بقية فلسطين بإدارة هيئة دولية. وما تبقى بعد هذا من أقاليم ناطقة بالعربية يؤلف منه دولة عربية الطابع أو نوع من الكنُفدرالية العربية تضمّ عدة أيالات (دويلات) مستقلة إسمياً وتخضع عملياً إلى مجالي النفوذ الفرنسي- الإنكليزي. وجاء في نصّ الاتفاق أنه يبقى سرّاً مع الحلفاء ولا ينفذ إلا بعد إعلان الثورة العربية. على أن (سايكس) لم ينجح في إقناع الفرنسيين بمقدرة الشريف في المساهمة بعمل مفيد لقضية الحلفاء.

وُقع هذا الاتفاق في ٣ من كانون الثاني ١٩١٦.

وجدت جماعة القاهرة في هذا الاتفاق نكثاً بالعهد الذي قطعته للشريف بقيام دولة عربية مستقلة. لم يقولوا إن (سايكس) غدر بهم، بل قالوا إنه غدر بالعرب. حتى لكأن العرب وليس هم الذين رغبوا في سورية لبريطانيا![٣٦].

كان على (سايكس) أن يضمّ روسيا إلى الاتفاق، فشدّ الرحيل إلى سان بطرسبرغ. ولم يكن يعلم بأن الحكومتين الفرنسية والروسية قد توصلتا قبلاً إلى حلّ لقضية مستقبل فلسطين المعقدة عن طريق معاهدة سرية ثنائية صادقتا عليها في ٢٦ من نيسان ١٩١٦. وفيها فصّلت الحدود التي سيمتد إليها نفوذ كلّ من الدولتين بعد زوال الإمبراطورية العثمانية. ومما تضمنه المعاهدة تعهداً روسيّاً لفرنسا بدعمها في أية مفاوضات تجري

---

(٣٦) الوثيقة QQ. 30/57. 47. (مركز الوثائق) تؤيد اعتقاد (سايكس) بأنه كسب للعرب في هذا الاتفاق ما طمح فيه كل من الشريف حسين والفاروقي (الذي وصفته بممثل الجمعيات السرية العربية). ووُصِف العرب في هذه الوثيقة التي دوّنها سايكس بشكل تقرير «بأنهم يفتقرون إلى إدراك لمعنى الوحدة القومية الفعلية إلاّ باعتبارها مثلاً أعلى. وإن وحدة كهذه لا تتحقق لأنها لا تنسجم مع عبقريتهم القومية كما لا يمكن تصورها في وجهة النظر الإدارية والمالية. وأنهم لا يملكون تلك الروح القومية بالمعنى الذي نفهمه، بل يملكون بدل ذلك روح اعتزاز بأصولهم وأعراقهم. وهو أيضاً شيء حسن. لذلك كان عليهم أن يقنعوا أنفسهم بكونفدرالية دول ناطقة بالعربية يحكمها عرب. إن ما غاب عن (سايكس) هو أن الشريف والجمعيات السرية إنما كانت تطالب بدولة عربية تامة السيادة لا بحماية أوروبية.

مع بريطانيا حول مستقبل فلسطين السياسي. وأشارت إلى أن التسوية التي جاء بها اتفاق (سايكس- پيكو) هي تسوية غير عملية وأن نفوذاً فرنسياً يجب أن يحل محلّها. وبخلاف ذلك فقد قبلت روسيا بالاتفاق وضم (سازانوف) وزير الخارجية توقيعه عليه[٣٧].

لم يكن الروس يحتفظون بأيّ عطف على اليهود، ولا على ادعائهم بأرض الميعاد وأقنعوا (سايكس) ولم يكن بحاجة إلى إقناع بأن الصهيونية اليهودية هي قوة خطرة معادية لهم كما هي معادية أيضاً لاية بلاد أخرى. وأسرع (سايكس) إثر ذلك بإبلاغ وزارة الخارجية باقتراح مؤداه أنه وفي الوقت الذي أكدّ لـ(پيكو) في حينه بأن بريطانيا ليست حريصة على حيازة فلسطين، فهي في عين الوقت مطمح الصهيونية، واليهود يريدونها لأنفسهم وعلى الحلفاء أن يحسبوا حسابهم. وهو يقترح بأن يُقطِعوا جزءاً منها إن شاءت الدول الحليفة بعد ربح الحرب عن طريق السماح لشركات لهم بشراء أراضٍ هناك.

وجاءه جواب فظّ مقتضب من الوزارة: «لا تتدخل فيما لا يعنيك. واحتفظ بأفكارك لنفسك».

* * *

في الوقت الذي بقي المكتب العربي يأمل بقيام ثورة عربيّة عارمة، يكون فيها القضاء على الإمپراطورية، طلبت منه وزارة الهند التدخل لكنس أوضار حملة عسكريّة سيئة العقبى في مجرى الحرب مع تركيا. تلك هي الحملة العسكرية في ميسوپوتاميا. والكارثة التي نزلت بها في وقعة الكوت.

في بدايتها وللغرض الذي رُسم لها كانت حملة محدودة الأهداف ضيقة النطاق. لكن حصيلتها الأولى كانت نكبةً وخذلاناً عسكرياً يفوق فشل حملة (غاليبولي) بمراحل.

قبل نشوب الحرب بشهر واحدٍ أمرت لندن حكومة الهند وكتدبير احتياطي بإعداد قوة عسكرية تبحر إلى الخليج الفارسي لحماية إمدادات النفط من مصفاة في عبادان. وفي ٦ من تشرين الثاني (نوڤمبر) ١٩١٤ أي يوم إعلان بريطانيا الحرب على تركيا. تحركت هذه القوة وبعدها بأسبوعين سقطت قصبة (الفاو) بعد رشقات قليلة من مدفعية

(٣٧) بقي الاتفاق سرّاً حتى فضحته حكومة أكتوبر السوڤياتية في ١٩١٧.

الزوارق الحربيّة. وما لبثت البصرة أن وقعت بيد الحملة. وهي تبعد زهاء ١٠٥ كيلومترات عن الساحل.

الفكاهة في الأمر هو أن الحملة لم تقم بحماية النفط من تعرض مسلّح يقع عليها في الأراضي الإيرانية، بل استخدمت في مغامرة عسكرية لم يُخطط لها ولم تكن واقعة في الحساب.

كانت المقاومة التركيّة ضعيفة، فالبصرة تبعد مئات عدة من الكيلومترات عن بغداد، لذلك سهل جداً صَدّ الهجمات التركية المقابلة. وأدرك الغرور قائد الحملة الفريق (سر جون نيكسون) وهو عسكري طموح متهوّر(٣٨) وطمح بالمزيد من الانتصارات فدفع باللواء (چارلس تاونزد) صعداً بمحاذاة دجلة وأمره بدون هدف ستراتيجي معين بالزحف والاستيلاء على بغداد، رغم احتجاج تاونزد وتطيّره، وهو قائد لامع وستراتيجي بارع لا يفتقر إلى الشجاعة والإقدام. رأى هذا القائد وبكل وضوح أن الزحف الظافر نحو بغداد من البصرة يحتاج لا إلى خبرة سوقية عالية وحدها بل إلى قوات كبيرة ووسائل نقل نهرية كافية، معدات وافرة ومستشفى عسكري كامل ومدفعيّة وأرزاق وعتاد لم تكن حكومة الهند قادرة على تأمينها لحملة كهذه الحملة. ثم إن قوة (تاونزد) كانت تتقدم عبر أراضي قفر ومستنقعات وأهوار لا طرق فيها ولا سكة حديد، بمحاذاة دجلة الضحل الكثيرة الالتواءات التي يضيع مجراها عند ولوجها عالم الأهوار المترامي والبلاد كلّها موبوءة بالملاريا وغيرها من أمراض المستنقعات المعروفة. مع كل هذا قاتل (تاونزد) بضراوة واستماتة وشق طريقه بموهبة قيادية فذّة تقارب العبقرية، وكاد يحقق نصراً عزَّ نظيره في تاريخ الحروب لو وصلته الأرزاق والامداد الذي طلبه وألحّ فيه.

وفي (سلمان پاك) التي تبعد عن بغداد بحوالي ٤٠ كيلومتراً علم (تاونزد) وبالقوة الصغيرة تحت إمرته أن الفيلد مارشال (كولمان فون دركولتسه) - الذي كان يعدّه واحداً من كبار ستراتيجيي عصره - قد أنيطت به القيادة العليا للقوات العثمانية في ميسوپوتاميا، كما عَلِمَ أيضاً بأن الثلاثة عشر ألفاً من الجنود الترك الذين يواجهون قواته الأربعة آلاف والخمسمائة، سيعززون بثلاثين ألفاً أخرى.

وأدرك هذا القائد بحصافةٍ أن أقرب موضع للصمود فيه يبعد عن بغداد بحوالي

---

(٣٨) تسلّم القيادة في نيسان ١٩١٥.

(٣١٠) كيلومترات جنوباً وعلى ضفاف دجلة إلاّ أنه قرر من دون تردد وبعد تقهقر عصيب بمسافة ١٧٠ كيلومتراً خسر فيه ألفاً من قوته الصغيرة، قرر أن يقف وقفته في الكوت[٣٩]. وبعد حصار فيها تخللته هجمات معاكسة ومحاولات فك حصار دامت (١٤٦) يوماً وافقت وزارة الحرب على استسلام القوات. وخوّلت المكتب العربي في القاهرة اختيار مندوبين يبحثان مع القيادة التركية شروط الاستسلام. فأرسل النقيب عضو مجلس العموم (أوبري هربرت) وهو شخص معروف عند الترك، وصحبه النقيب (لورنس)، الذي لم يشرّف بعد بلقب لورنس العرب وهو لقب لا يستحقّ أي جزء منه كما سيأتي بيانه:

كان (تاونزند) وقد أفقدته حمى الملاريا توازنه قد عرض على الأتراك مبلغ مليون پاون سترليني مقابل رفع الحصار عنه. إلا أنّ (لورنس) ورفيقه بتخويل من المكتب العربي ضاعفا المبلغ - «وبغاية من الخجل» حسب تعبير لورنس - فرفض (أنور پاشا) الذي بدا مستمتعاً بإذلال البريطانيين في رفض هذا العرض وأصرّ على الاستسلام دون قيد أو شرط.

من آثار هذه النكبة العسكرية أن زاد الميل عند القاهرة ولندن إلى الاعتماد على الشريف، والجديّة في دفعه إلى تحرك عسكري ضدّ الترك. في جبهة ميسوپوتاميا، لم يتخلل وقائع الحرب مجهود بريطاني يذكر في كسب الولاء المحلي عن طريق

---

(٣٩) كانت الكوت وقتذاك قرية صغيرة أبنيتها من طين. تقع كما تقع اليوم على منعطفٍ حادٍ ويكتنفها مجراه من جوانب ثلاثة. احتمى بها تاونزند وخندق واستحكم في الجانب الرابع. فغدا أمنع من عقاب الجو، في قلعة حصينة حبس نفسه فيها أو صعب عليه الخروج منها قدر ما صعب على الترك اقتحامها. عمد (فون در گولتسه) إلى ترك قوات كافية لحصارها وللحيولة دون وصول نجدات بريطانيا. ولجأ (تاونزد) إلى خطة إنقاذ ضيّع فرصة نجاحه فيها. فمع أنه كان يملك أرزاقاً وعتاداً تكفيه حتى نيسان ١٩١٦، فقد أبرق للقيادة بقصد استعجالها يقول إنها لا تكفيه لأكثر من كانون الثاني ولم يكن بوسع القيادة تحشيد تلك الاستغاثة الملحة غير المتزنة، ما ألجأها إلى تجريد حملة انقاذ ضعيفة، فشلت هجماتها المتكررة ولولا ذلك لأمكن اختراق تحكيمات الترك وانقاذ قوة (تاونزند). وبعد فشل المفاوضات اضطر المحاصرون إلى الاستسلام وأتلفوا مدافعهم وأسلحتهم وعومل تاونزد معاملة طيبة في الأستانة إلاّ أن جنوده سيقوا مشياً على الأقدام مائة وثمانين كيلومتراً حتى بغداد فضلاً عن ٨٠٠ كيلومتر أخرى حتى الأناضول وسخروا للعمل جوقات في مدّ سكك الحديد. ولم ينج منهم غير القليل. خسرت قوة تاونزند عشرة آلاف بين الشروع في التقدم نحو بغداد وبين الاستسلام كما خسرت القوات البريطانية ٢٣ ألفاً في محاولة إنقاذهم.

استنهاض وعي قومي أو وطني، ولا محاولة اتصال بشخصيات قوميّة معادية للترك لغرض التعاون. فقد كاد كلّ رجال الأحزاب السريّة يكونون في الخارج موزعين على جبهات قفقاسيا وغاليبولي (چناق قلعة) والسويس. وقد ألغي البدل العسكري وسيق كلّ قادر على حمل السلاح إلى الخدمة. وأخليت المدارس الإعداديّة في المدن وجند تلاميذها. ومن بلغ من الذكور أراذل العمر سيق أيضاً للخدمة في (جيش الشغل).

استنهضت همم بعض العشائر في أول مراحل الحملة فشاركت في وقائع الحرب الأولى[٤٠] وبدوافع دينية غامضة استطاع العلماء والمجتهدون في النجف وكربلاء تحريكها في النفوس القبلية لفترة قصيرة وقد اضطروا أمام «غزو إسلامي كافر» أن يطووا عداءهم التاريخي الطويل للسلطات العثمانية السيئة السياسة والنوايا. إلا أن الدرس الذي تلقته العشائر كان كافياً للعزوف عن الإصغاء إلى نداءات «نجدة الإسلام» الصادرة من الأماكن المقدسة في النجف وكربلاء وبغداد. تلك النداءات التي بدأت تضعف تدريجياً بالانتصارات التي بدأ الغزو البريطاني يحققها في أواخر العام ١٩١٦ وما تلاها.

* * *

في كتاب نشره (أحمد جمال پاشا) والي دمشق وقائد الفيلق الرابع، برر بأدلّة وبينات عرضها امضاء حكم الموت عمّن سمّاهم بالخونة والمتآمرين وجاء فيه شرح

---

(٤٠) كان تحت تصرف القائد التركي (سليمان عسكري) حوالي (٦٠٠٠٠) من الجنود النظامية، كما اجتمع لديه من رجال العشائر زهاء (١٠٠٠٠) تشتتت وتفرقت أيدي سبأ عند أول اشتباك في وقعة الشعيبة: (١٣-١٤) نيسان ١٩١٥. وهذه أول وآخر مشاركة عشائرية محلية جدية في هذه الحرب. فقد وجد رؤساء الجنوب القبليين بكلّ عدائهم التاريخي للترك، وبقدر ما نالهم من ظلم وتنكيل منهم، الخير كلّ الخير في الجلوس على التلّ وعلى أهبة منح الولاء لمن ترجح كفته بالأخير. من جانب آخر وفي محاولة إثارة الشعور الديني خلف خطوط البريطانيين نجدهم بقصر نظر عجيب وغباء منقطع النظير يحاولون في تلك المرحلة إقناع ابن سعود واسترضاءه بالتحرك ضد القوات البريطانية من الخلف رغم مساندتهم العسكرية الطويلة لخصمه ابن رشيد. فبعثوا إليه بوفد من بغداد مؤلف من أصدقاء وأشياع للوهابية (محمد شكري الآلوسي وعلي علاءالدين الآلوسي، والحاج نعمان الأعظمي) ففشلوا وعادوا قانعين منه بوعد بحياده! فضلاً عن هذا فقد كان جلّ الشباب المتعلم والموظفين المحليين غير المحبذين وهم من الأسر المعروفة الوجيهة في بغداد أعضاء نشطين في جمعية الاتحاد والترقي، مدافعين متحمسين للعثمانية. منهم رشيد عالي الگيلاني. وآل فائق (حكمت سليمان) وإخوته وآل الجميل والدفتري وغيرهم وغيرهم.

واف لنشاط الجمعيات السرية. ونفى عنهم صفة الوطنيّة والقومية[٤١]. وسواء في الأمر أهو بسبب تلك الضربة التي أوقعها (جمال) أو بدونها، فإن ولاء المواطنين الناطقين بالعربية لم يعتره ضعف لا للحكومة العثمانية ولا للإسلام. وهذا ما توصلت إليه بريطانيا أيضاً كما تنطق به وثيقة بريطانية هامة صدرت بشكل مذكرة عن الاستخبارات في القاهرة، مبنية على مقابلات واستجوابات للضباط الأسرى العرب في المعسكرات:

«ومن هنا يتبين أن معظم هؤلاء الضباط يؤيد حكومة الجون ترك (الاتحاديين) فعلاً. بل حتى تلك الأقليّة التي لا تؤيدهم تجد نفسها غير قادرة على إقناع ضمائرها في القيام بانقلاب عسكري ضدّ تركيا»[٤٢].

وضيّع الحلفاء فرصة كبيرة واضحة تهدف إلى تقويض صرح الإمبراطورية، إلا أنهم تعمدوا إهمالها، ولا تفصح الوثائق البريطانية عن سبب لعدم الإفادة منها وهو أعجب العجاب. تلك الفرصة عرضها (جمال) بنفسه. وهو الوحيد بين ثلاثي الحكم الذي نأى بنفسه عن المشاركة في مذابح الأرمن. وهدفه أن يبقي طريقاً مفتوحاً بينه وبين الحلفاء[٤٣].

عندما بدأ الترك يفتكون بالأرمن ويجلونهم عن أوطانهم اتصل (جمال) بالحلفاء وطلب معونتهم على انتزاع العرش العثماني لنفسه. تقدم بهذا العرض بتوسط حزب (الطاشناسيون) الأرمني القومي، متوهماً بأن مجهوداته في إنقاذ الأرمن والمسيحيين هو هدف عام رئيس عند الحلفاء غير مدرك بأنهم إنما يستغلون كارثة القوم لغرض الدعاية فحسب.

ففي كانون الثاني ١٩١٥ أبلغ الدكتور (ظفريان) المبعوث الطاشناسي الحكومة الروسية أنّ (جمال) مستعد لإسقاط الحكومة التركية. وكان ذلك بعد مرور شهر واحد على بدء الحلفاء بالانسحاب من (غاليبولي). وكان من المتوقع بعد هذا الخذلان أن

---

(٤١) صدر في استنبول باللغة الفرنسية وبعنوان: الحقيقة في المسألة السورية La Verite sur La Question Syrienes من منشورات الفيلق الرابع.

(٤٢) أوراق سايكس: Middle East Papers. Oxford. D. R. 888. 25.

(٤٣) كان (جمال) بعد فشله في حملة السويس قد استقر في دمشق والياً على سورية التي عوملت وكأنها إقطاع له لا ينازعه في حكمها أحد ولا يعبأ بتنفيذ أمرٍ لا يعجبه صادر من العاصمة.

يستجيب الحلفاء لهذا العرض وأن يدفعوا مثل هذا الثمن مقابل إنهاء حالة الحرب مع تركيا والتفرغ لميدان آخر(٤٤).

وارتأى الروس قبول مقترحاته. إلاّ أن فرنسا رفضت العرض رسميّاً في آذار ١٩١٦ وأصرّت على أن يكون لها سورية الكبرى وكيليكيا. كذلك أبدى وزير الخارجية البريطاني عدم رغبة بلاده في مساندة ثورة تركيّة صرفة خلف خطوط القتال. لأن ذلك يعني التخلي عن الأراضي التي فتحت واستولي عليها في تركيا الآسيوية وقد وعدت بها حلفاءها. الطمع وحده أعمى بصيرة حكومات الحلفاء، وأضلهم عن الحالة التي ستؤول إليها غنائمهم الإقليمية المقبلة. ربح الحرب فقط هو الذي أعماهم عن جائزة الخروج من الحرب بأقل خسارة في الأرواح والأموال.

لم يكتشف (طلعت وأنور) اتصالات جمال السريّة. ومضى (جمال) يقاتل الحلفاء بدل أن يكون معهم. واتجهت الأنظار إلى ما سيفعل الشريف وما ستتمخض به ثورته الموعودة. فقد بقي هذا البيدق فوق رقعة الشطرنج ساكناً لم يتحرك أو يُحرّك بالأحرى.

(٤٤) شروط (جمال) كما فصلها سازانوف وزير الخارجية الروسية (مذكراته Vospminaniya 1910-1916) المترجم في ١٩٢٧ إلى الإنگليزية بعنوان: «السنوات المصيرية The Fateful Years 1910-1916» كالآتي: تركيا آسيوية مستقلة تتألف من سورية وولايتي بغداد والبصرة. أما أرمينيا المسيحية والآشورية وكيليكيا وكردستان، فكل منها تتمتع بحكم ذاتي وأن يرأس جمال هذا التشكيل السياسي الفدرالي سلطاناً. ووافق جمال على الطلب الروسيّ المحتوم، أي التنازل عن استنبول ومضايق الدردنيل كما عرض أن يتخذ خطوات فورية لإنقاذ الأحياء من الأرمن والمسيحيين وأن يزحف إثر ذلك على استنبول بمساندة الحلفاء ويخلع السلطان ويسقط حكومة الإتحاد ويعلن اتحاداً فدرالياً. وطلب معونة مالية بعد إتمام ذلك لإعمار ما خربته الحرب في تلك البلاد. قتل (جمال) ١٨٧٢-١٩٢٢ غيلة في تفليس.

الفصل الثامن

تتمة: الثورة العربية. إعلان الثورة. جمال باشا (السفاح) والقضاء على أقطاب من الحركات السرية السورية. التحرك العسكري التركي. إعلان ثورة الشريف. حماية الأسطول البريطاني للشريف حسين، القصف من البحر. الأموال التركية والبريطانية المدفوعة للشريف. خيبة الأمل من استجابة عامة للثورة. قلة حجم قوات الشريف. تدخل القوة الجوية البريطانية لإنقاذه. النشرة العربية. الشريف يفتقد إلى إسناد أي منظمة عربية. لويد جورج والشرق الأدنى. كليمانصو رئيساً للحكومة الفرنسية. سير العمليات في سيناء ونشاط لورنس. احتلال القدس وبيان اللنبي. تصريح بلفور. إعتراف الزعماء القوميين السوريين بالمجهود الحربي الصهيوني!. اجتماع فيصل بوايزمان. اليهود في أوروبا. التعقيدات بعد تصريح بلفور. جيش فيصل. وساوس الإنكليز من نوايا الشريف. لورنس وفيصل جهود في سبيل نصب فيصل ملكاً على سورية. إساءة تقدير سايكس وكتشنر لقوة الحركة الوهابية. بعض نجاح عسكري تحرزه القوات العربية قبيل نهاية الحرب. فرض فيصل ملكاً. موقف الزعماء السوريين من فيصل. قرارات اللنبي بخصوص سورية. خدعة لورنس. تنظيم دخول القوات العربية دمشق قبل دخول جيوش الحلفاء

لمّا أعلن الشريف ثورته المرتقبة في الحادي عشر من حزيران ١٩١٦ الموافق للتاسع من شعبان ١٣٣٤هـ، وجد فيها رجال المكتب العربي نجاحاً لسياستهم ومساعيهم وقالوا: إنها نصر لكلايتن عظيم. في حين أن الشريف ما أعلنها إلاّ بعد يقينه بأن أيامه في حكم مكّة باتت معدودات وأن أمر العزل قد يرده في أيّ لحظة.

وعند الشريف نفسه، كان إعلانه الثورة مساوياً لاعترافه بإخفاق سياسته وخطه الذي انتواه من المبدأ وقرر السير فيه إلى الأخير وهو أن يبقى محايداً، يجمع الرشاوى من الجهتين ويلعب على حبليهما. لم يكن في الثورة التي أعلنها أي محتوى قوميّ أو

باعث مشابه، إلاّ أنها انتهت لتكون عامل يقظةٍ قوميّة وهو ما سنوضحه فيما بعد. المسألة كلها كانت تدور في محور السياسة والطموح الشخصي فحسب. وقد أرغم الشريف على هذا التحول بكثير من التردد، وبسبب اعتزام الاتحاد عزله. وبدأ خوفه يتعاظم عندما باشر (جمال باشا) في عملية القضاء على زعماء الجمعيات السريّة.

كان القائد التركي قد حصل على وثائق الإدانة من القنصليتين الفرنسيتين في دمشق وبيروت، وفيها أسماء الزعماء وتفاصيل عن صلاتهم وما يخططون. فضلاً عن فضحها وكيلاً بريطانياً هامّاً[1]. فتم اعتقالهم واستجوابهم وعُذّبوا. وفي ٢١ من آب ١٩١٥

---

(١) لا تذكر الوثائق البريطانية اسمه ولكنها تؤيد أنه كان بين من أعدم الحياة. [راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب] ونضيف هنا من مذكرات جمال باشا، المرجع السالف، ص ٢١٤:

«بعد وصولي إلى دمشق مباشرة شرعت في إعداد معدات الحملة على القناة وحولت جهدي لإيجاد جو مملوء بالحماسة الدينية والغيرة الوطنية في جميع البلاد العربية فأقمت حفلة أدبية بواسطة زعماء الثورة العربية مثل عبدالقادر الخليل والدكتور عبدالرحمن الشهبندر وغيرهما ممن كان يسمى بالمصلحين وفي خلال الحفلة التي أفصح فيها الخطباء بعدة خطب وإنشاد القصائد الحافلة بمآثر العرب وأشاروا بالتمجيد إلى حبهم للعلم وشغفهم بالمعارف هي صفات تتجلى في العنصر العربي ورتلت الأغاني التي رددت الآمال في تحقق الوحدة العربية وكادت الأنشودة العربية الوطنية:

نحن جند الله شبان البلاد نكره الظلم ونأبى الاضطهاد

فارفعوا الأعلام وامشوا للجهاد...

تزلزل فوق رؤوسنا وتهز سقف المكان الذي كنا فيه». ثم يقول في ص٢١٧: «ولايسعني إذا ما قارنت بين ما وصلت إليه الحال اليوم وبين المظاهرات الدينية التي جرت وقتئذ في دمشق وحلب وحماه وحمص وبيروت بل في لبنان أيضاً إلا أن أستنزل اللعنات السماوية على الشريف حسين وأولاده لأنهم هم وحدهم المسؤولون عما أصاب الإسلام من الكوارث والمحن».

وحول الإعدامات يقول في ص ٢٤١ وما بعدها: «وفي اليوم الثالث نفذت أحكام الإعدام في بيروت ودمشق. ويقول البعض لقد كان ينبغي ألاّ ينفذ الحكم إلا بعد تصديق السلطان، ورداً على هؤلاء أقول أولاً إني خولت السلطة القانونية أن أفعل ما فعلت، وثانياً إن المبادرة بتنفيذ الحكم كانت في نظري الوسيلة الوحيدة للضرب على أيدي الخونة. وفي بلاد العرب يرى الإنسان لأرباب الحيثيات نفوذاً كبيراً حتى أن وجود أحدهم في الغالب قد يكون له من التأثير ما ليس لفيلق من الفيالق. فإن أراد قائد مثلي ليس له إلا القليل من الموارد أن يحافظ على سلطة الحكومة وسطوتها ونفوذها في بلاد سممتها الدعوة الإنگليزية والفرنسية عدة سنين كان من أهم الأمور أن يجرى بحيث يؤمن الأهالي المدنيون بمقدرته على الأخذ بناصية أي شخص كائناً من كان ومعاقبته أشد معاقبة بدون استئذان المراجع العالية في الأستانة. إن الفضل في عدم حدوث ثورة ما في سورية خلال العامين ونصف العام اللذين أعقبا إعلان الشريف حسين استقلال بلاده =

حكم المجلس العرفي العسكري على أحد عشر منهم بالموت شنقاً ونفذ فيهم. وكانت ثمّ اعتقالات ومحاكمات أخرى في أشهر تالية لعدد من كبار القوم ومبرزيهم نفذ حكم الموت في ستّ وعشرين ضحية أخرى من بينها عسكريون ذوو رتب كبيرة.

من بين من استُجوب بالتعذيب كان هناك من يستطيع أن يفضح تفاصيل محادثات (فيصل) مع أعضاء جمعيتي العهد والفتاة. ووعود الشريف لكلّ من (كتشنر) و(مكماهون). ولم يكن الشريف متأكداً بأن هؤلاء الذين توقلوا درج المشنقة أو نالوا الأقل من العقاب قد بقوا ساكتين وحفظوا سرّه. وحاول أن يكشف ذلك بالتدخل بالكتابة إلى كلّ من (جمال) و(الباب العالي) طالباً الرحمة والتخفيف. إن فعل هذا التدخل شيئاً فقد زاد من الشكّ فيه. ولم يجبه جمال عن رسالته، بل أقدم على ما أكدّ له بأن قوّة منتخبة ومدربة تدريباً عالياً تتألف من ٣٥٠٠ جندي على وشك «التحرك من دمشق نحو الحجاز، ثم السير والوصول إلى نهاية الزاوية الجنوبيّة من الجزيرة بغية قيام ضباط ألمان مرافقين بنصب مركز تلغراف هناك». كان في هذه أكثر من الكفاية للقضاء عليه، والأمر سواء أهو المقصود بها أصلاً أم أن تصفية الحساب معه ستتم في أثناء مرورها بالحجاز. كان عليه أن يعمل بسرعة.

طلب أولاً الحماية من الأسطول البريطاني على طول الساحل وكان قد تسلم قبل ذلك ٥٠٠٠٠ ليرة ذهبيّة عثمانية عداً ونقداً من الباب العالي وهو المبلغ الذي طلبه لتجهيز القوة المطلوبة منه لـ«قتال البريطانيين» كما حصل على ما يعادل ١٠٠٠٠٠ باون ذهبي سترليني من البريطانيين كأوّل دفعةٍ لتجهيز قوات تقاتل الأتراك[٢]. في الواقع إن الثورة أعلنت في وقت ما بين الخامس والعاشر من حزيران، إلاّ أن الشريف والآخرين أثبتوا لها التاريخ الذي ذكرناه وقرنوها بحكاية دخلت التاريخ. وهي أن الشريف صعد سطح بيته وبيده بندقية من نوع (هنري مارتيني) وهي واحدة من البندقيات الجديدة التي أرسلتها الحكومة التركية إليه وأطلق منها إطلاقة واحدة إيذاناً بالثورة.

وأسرع الأسطول البريطاني بالحركة على طول ساحل الحجاز لصدّ القوات التركية

= إنما يرجع إلى أحكام الإعدام التي وقعت في نيسان ١٩١٦. وبقطع النظر عن ذلك فإن أنور باشا وهو وزير الحربية وطلعت باشا وهو وزير الداخلية قد وافقا على تنفيذ أحكام الإعدام بدون استئذان المراجع العليا».

(٢) أرنست داون: المرجع السالف ص٣٣.

الألمانية. ومنعها من التقدم خطوةً واحدة. وكان في اعتقاد المكتب العربي أن إعلان الثورة سيلقى استجابة ودعماً حماسياً من العالم الإسلامي الناطق بالعربيّة، والأهم من هذا اعتقاده بأنّ مساندة الثورة الحقيقية الفعّالة ستأتي من الأغلبية العربيّة التي تألفت منها الجيوش العثمانية. إذ كان الشريف وابنه فيصل قد أكّدا في رسائلهما بأنهما يتوقعان أن يلتحق بالثورة حوالي مائة ألف من الضباط والجنود العرب، وهو يناهز ثلث ملاك القوة القتاليّة العثمانية. وقد عكس المكتب العربي ذلك على حكومته[٣]. في حين أكدت نصوص أخرى أنهما توقعا أن يلتحق بالثورة ربع مليون أو كلّ الجيش العثماني الذي هو في ساحة القتال[٤]. لكن ما حصل فعلاً أن الثورة المتوقعة لم تحصل قط وأنه لم تنضّم إليه أية وحدة من وحدات الجيش العثماني مهما قلّ عددها. ولم تلتحق به أية شخصية سياسية أو عسكرية بارزة، لا به ولا بالحلفاء. وتلك الجمعيّة السرية الضخمة ذات الشبكات والأذرع الطويلة الممتدة في أحشاء البلاد، التي أشاد بها الفاروقي[٥] ووعد بها لم يبن لها أثر. وإن وجدت حقاً فإنها لم تجرُؤ على إظهار نفسها والتعريف بوجودها.

كان قوام قوة الشريف لا يتجاوز الآلاف الأربعة، بل ربما زادت قليلاً ثم نقصت بحسب المزاج الخاصّ، وبحجم الهبات والعطايا للبدو وبحسب سيولتها أو انقطاعها من المكتب العربي والأموال البريطانية. ولم يكن عنده جيش مدرب كما لم يحظ بدعم من خارج الحجاز لا من جيرانه ولا من أي جزءٍ من أجزاء العالم الناطق بالعربيّة.

كان الشريف بحاجة إلى ضباط ومدربين وقد استطاع البريطانيون تأمين خمسة أو ستة من أسرى الحرب ومن أولئك الذين طردوا وأبعدوا وبعضهم اشترى حريته بالانضمام إلى الثورة[٦]. مشكلة أخرى بدت في مقدمة المشاكل. فقوات الشريف

---

(٣) نصوص الرسائل الأصلية في Fo. 882, vol 19, kew. AB/ 16/5.

(٤) أوراق سايكس: OR. 588 (D 8244.4).

(٥) يراجع الهامش في الفصل السابع.

(٦) مثل نوري السعيد. ومن المرجع السالف: «أن ضباطاً كثيرين من أبناء العرب الذين كانوا أسرى حرب في الهند انضموا إلى الشريف». وفي (ص١٠٥) «زارني فوزي بگ البكري (وزير داخلية الشريف) مع الدكتور عبدالرحمن الشهبندر ورفيق العظم وطفق يبين لي الصعوبات الجمة التي يلقونها لعدم وجود ضباط وجنود مدربين لمواصلة الحرب على الأساليب العسكرية الحديثة وأنه لا يمكن التغلّب على المواقع العسكرية التي يحتلها الجيش العثماني بلا وسائل حربية حديثة».

البدوية وقفت مشلولة أمام المدفعية التركية. ومنيت بالفشل هجماتهم على حاميتي مكة والطائف وهزموا كذلك في المدينة وفي جدة.

ما كاد المكتب العربي يدرك أن إعلان الثورة سيؤدي إلى الإطاحة بالشريف وبها حتى هبّ لإنقاذهما. انطلقت القوة الجوية الملكية RAF، والقطع البحرية البريطانية تضرب (جدّة) ضرباً عنيفاً. ثم أنزلت جنوداً مسلمين تابعين للجيش المصري، وتقدمت الحملة إلى الداخل لمعاونة الشريف في تحكيم قبضته على (مكة) والاستيلاء على الطائف وعلى ميناء (رابح) الذي كانت حاميته التركية لا تزيد عن ثلاثين جندياً تمّ أسرهم دون مقاومة. كذلك كان الأمر في (ينبع). وبهذا الشكل أنجز الأسطول البريطاني سيطرته التامّة على ساحل البحر الأحمر الشرقي وثبّت أقدامه في موانئه.

إلاّ أن الشريف ظلّ يعارض في إنزال وحدات مسيحيّة والحركة بها إلى الداخل. وتدلّ الوثائق البريطانية على أن الانفصاليين في القاهرة كانوا يتأففون من هذا السلوك ويعدونه تنطعاً لا معنى له وضيق أفق في الرؤيا يفسد عليهم وعلى الشريف تحقيق نصر سريع واختزال في الوقت. وحجة الشريف هي أن هذا يلحق ضرراً بمركزه في العالم الإسلامي وقد ينقم المسلمون عليه لسماحه لغير المسلمين بوطء الأرض التي تضمّ الأماكن المقدسّة. والمشكلة على أية حال هي أن الشريف لم يكن قطّ نداً للأتراك. ولهذا كتب (وينگيت) وكان في حينه حاكم السودان العام يلحّ على (كلايتن) بعمل كلّ ما يستطيع لحمل (لندن) على إنزال قوات في الحجاز أرض الشريف أرَضيَ أم لم يرض وأنه شخصياً يوافق من دون أي تحفظ على إنزال قوة عسكرية في الحجاز[٧].

كان (كلايتن) بدل ذلك يحاول باستماتة الاستعانة بالضباط الأسرى والمبعدين في القاهرة للطواف في معسكرات الأسرى والاجتماع بالضباط والجنود لحثهم على الالتحاق بقوات الشريف حسين. وفي مذكرات جعفر العسكري ما يفيد أن طوافه هو و(عزيز علي المصري) لم يصب كثيراً من النجاح[٨]. لم توافق (لندن) على الحملة ولكنّها صعّدت بدل ذلك من كمية المال والأعتدة والمهمات الحربيّة المرسلة وعلى

---

(٧) أركيف السودان (جامعة دورهام) أوراق گلبرت كلايتن 47/40, G. D. Cloyton: «بريطانيا والمسألة الشرقية: من ميسولونجي إلى غاليبولي: Britain and the Eastern Question: Missolonghi to Galiboli ط. لندن ١٩٧١.

(٨) جورج أنطونيوس: المرجع السالف ص١٦٧.

إمداد الشريف بالخبرة العسكرية ما أمكن من الضباط والجنود المتطوعة. وأوصى البريطانيون وبإلحاح كبير بتعيين الرائد (عزيز علي) رئيساً لأركان القوات التي كان يقودها (علي) الابن الأكبر للشريف، فتسلم منصبه في أواخر العام ١٩١٦ ولم يمكث فيه أكثر من شهر واحدٍ. إذ نحي بدسيسةٍ فخلفه جعفر العسكري الكفوء وهو عقيد ركن سابق كرديّ عراقي مستترك ثم مستعرب، ونحي أيضاً هو الآخر بدسيسة.

يذكر مجيد خدوري[٩] ويؤيده ألبرت حوراني[١٠] أن (عزيز علي المصري) بدأ يتآمر لانتزاع القيادة من الشريف وليقوم بعدها بمفاوضات مع الأتراك بهدف الانحياز إليهم وفق شروط تقضي بجلاء القوات العثمانية عن الحجاز وموافقة الباب العالي على المطالب العربيّة بالحكم المحليّ.

وأساس القضيّة هو أن (عزيزاً وجعفراً) وأضرابهما كانوا يعتقدون بأن ألمانيا سترِبح الحرب لا محالة. لكن وبعد مرور أكثر من سنتين، وعندما بدا واضحاً أن النصر سيكون معقوداً للحلفاء، بدأت مواقف بعضهم تتغير. في حين بقي موقف الآخرين ثابتاً كياسين الهاشمي رئيس جمعية العهد السريّة الذي استطاع بدهاء وسعة حيلة أن ينجو بنفسه من أحبولة جمال الدموية: ثم إن البريطانيين من جانبهم بقوا إلى الأخير غير مدركين أهداف الجمعيات السرية العربيّة بالعمق الكافي وهي أهداف تخالف غايتهم ومخططاتهم للشرق الأوسط كلّ المخالفة. في مبدأ الحرب التزمت الجمعيات العربيّة الجانب التركي، ووقفت ضدّ الفتح الأوروبي[١١] وظلت طوال الحرب تقريباً مخلصةً على هذا. فقد كانت تفضل الحكم الذاتي. أو الاستقلال إن أمكن. فإن لم تفز بطائل من هذين، فالحكم التركي هو أفضل من الحكم الأوروبي.

والشريف نفسه واصل بعد إعلانه الثورة اتصاله بالاتحاديين بهدف العودة إلى حمى الإمبراطوريّة وانحيازه إليها في الحرب. وقد ظهر ما يؤيد ذلك في عدد ٢٥ من تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٦ للنشرة العربية التي بدأ يصدرها المكتب العربي في القاهرة وكان

---

(٩) من مقالة لمجيد خدوري Middle East Magazine١٩٨١ ,: عنوانه «عزيز علي المصري والحركة القومية العربية» جامعة كاليفورنيا.

(١٠) ألبرت الحوراني Albert Hourani: «ظهور الشرق الأدنى The Emergence of the Middle East» ط. لوس انجلس ١٩٨١. ص١٤٤.

(١١) أرنست داون: المرجع السالف، ص٤٧.

اتهاماً صريحاً للشريف من (عبدالعزيز آل سعود)(١٢):

«إن نيّة حسين الأساسية هي اللعب بالورقة البريطانية ضدّ الترك من أجل نيله منهم استقلالاً بضمانة ألمانيا. . .

وأساس مفاوضة الشريف كالسابق: سلطة أكبر بوصفه أميراً من أمراء الإمبراطورية الكبار، وحكم وراثي أشبه بحكم الخديوي في مصر، وعدم وجود والٍ عثماني في الحجاز، وأن تكون القوات العسكرية خاضعة له يستخدمها لسيادته على الجزيرة».

وراحت مراسلات الشريف السريّة تنكشف تباعاً للبريطانيين، إلاّ أنهم أخذوا بسرعة يفقدون احترامهم له لأسباب غير هذه. ففي الظاهر أنهم ماكانوا يرون فيها نكثاً بالعهد ومخاتلة. فهي حيل دبلوماسية فهروهم فيها ولم تكن في أي وقت من الأوقات وقفاً عليهم أو احتكاراً لهم. كلاّ فالسبب ليس هذا. والسبب الحقيقي أنهم وجدوا الشريف حسين أبعد من أن يصلح قائداً للقومية العربيّة الوليد الجديد، وإنما مجرد حاكم قليل الاكتراث بالعروبة يركز كلّ اهتمامه في الفوز بسلطات إضافية ورقعة من الأرض أوسع وأرحب.

وقد علّق هوگارت رئيس المكتب العربيّ على هذا بقوله: «من الواضح أن الشريف لا يرى في الوحدة العربيّة إلاّ مُرادفاً لملوكيته». فقد أصّر الشريف على إعلان نفسه ملكاً للعرب رغم تحذير (ستورز) وإنذاره بألاّ يقدم على هذه الخطوة وكتب فيما بعد:

«إنه [يقصد الشريف] يدري أكثر منّا بأنه قاصرٌ عن إضفاء هذا اللقب الضخم على نفسه، أن يكون ملكاً لكل العرب؟ إن ادعاءه هذا هو أشبه بمأساة هزلية»(١٣).

---

(١٢) كان يطبع من هذه النشرة ٢٦ نسخة فقط. وهي شبه سرّية. وبالمناسبة أثبت هنا جزءاً من مقال كتبه لورنس (قبل أن تستطير شهرته) في أول عدد منها (٦ حزيران ١٩١٦) حول ثورة الحجاز المعلنة مشيراً فيه إلى مشكلة توحيد العرب حتى من أجل القيام بثورة فيقول: «ما أن يعقد اجتماع قبائلي حتى تظهر المشاكل، والترك يعرفون نقطة الضعف هذه فيهم. لذلك تجدهم لا يأتون بحركة، يسكتون ويتربصون. ويتأخرون في اتخاذ أي إجراء على أملٍ مؤكد بأن التنابز والتنازع القلبيين لن يلبثا أن يشتتهم».

(١٣) مذكرات ستورز: ص١٦٧ نيويورك ١٩٣٧.

ويشير العدد السادس من النشرة العربية (٢٣ من حزيران) إلى أنّ الثورة التي أعلنها الشريف لم تحقق إلاّ اليسير. وهذا اليسير من النجاح يعود الفضل فيه إلى البريطانيين. فالقوات التركية المرابطة على الساحل وقعت بين قطع الأسطول البريطاني وطائراته وبين العرب المتربصين، فاحتمت خلف المتاريس والجدران، ولم تستسلم بحربٍ بل بسبب نفاد الماء والطعام ليس غير. ولأن الآبار التي يمتارون منها ماءهم كانت خارج استحكاماتهم. كما أكد الأسرى الذين استسلموا للقوات البريطانية أن القذائف البريطانية من الجو والبحر عجلت في الاستيلاء على (جدّة).

رجال الشريف لا فائدة منهم كجنود، فهم مجموعات عشائرية غير مدربة على الحرب الحديثة لا تملك مدفعيةً ولا رشاشات، تفضل معارك العرض الروائي الزاهي المظهر على الاستتار والتخفي والمناورة. ويصعب جمعهم كوحدة تتلقى الأوامر فتنفذها لأي فترة من الزمن مهما قصرت إلاّ بإغرائها بالمال والأرزاق العسكرية، فهذان هما اللذان يجتذبانهم ويحدثان أثر السحر فيهم(١٤).

وقعت دعوة الشريف إلى الثورة في آذان صمّاء في كلّ من العالمين العربي والإسلامي. تماماً مثلما كان حظ دعوة خليفة المسلمين السلطان إلى الجهاد ضدّ الكفّار. وكتب (هوگارت) بعد مرور عام واحد من إعلانها:

«إنها لم تحقق الآمال التي عقدت عليها، ولا يبدو أي أمل في مستقبل يعقد عليها. فالعرب البدو هم مجرد أنصار فحسب simply guerillas وليس من النوع الجيّد أيضاً حتى إذا أمكن إعداد جمع كبير منهم في عمليات الحصار الأولى فلم يكن هناك أي شك في أنهم سيحجمون عن مهاجمة القوات النظامية التركية ولن يصمدوا لها. وأفضل ما كان يرجى منها في المستقبل هو الثبات في مواقعها فحسب»(١٥)

وليس هذا بالمردود الجيد للبريطانيين لقاء الأتعاب والمصاريف والهبات. فبحسب

---

(١٤) علق لورنس على هذه الظاهرة في العدد ٣٢ من النشرة العربية (تشرين الثاني ١٩١٦): «في رأيي أن سرية واحدة من الجيش التركي مخندقة بشكل صحيح في أرض متطامنة تستطيع دحر كل قوات الشريف. إن قيمة القبائل القتالية هي الدفاع فحسب. ومجالها حرب أنصار لا غير. إنهم (أي البدو) فرديون إلى أقصى الحدود فلا يخضعون لقيادة. ولا يقاتلون صفاً متراصاً واحداً ولا يساعد أحدهم الآخر. ومن المحال أن يجعل من هؤلاء قوة نظامية».

(١٥) النشرة العربية Arab Bulletin: العدد ٥٢ (٣١ أيار ١٩١٧).

ما أثبته (ستورز)[١٦] إن الحكومة البريطانية أنفقت على الثورة العربية ١١ مليون پاون سترليني وبحساب ذلك الزمن كان المبلغ يعادل ٤٤ مليون دولار، بقوة شرائية تعادل اليوم ما قيمته ٦٠٠ مليون دولار على أقل تقدير. وأما الأتعاب أو بالأحرى التبعات السياسية والعسكرية التي تحملتها من أجلها فهي الأخرى جسيمة. وفي ٢١ من أيلول (سپتمبر) ١٩١٨ كتب (وينگيت) الذي خلف (مكماهون):

«إن المسلمين بصورة عامة ظلّوا حتى يومنا هذا ينظرون إلى ثورة الحجاز ومساهمتنا فيها بنفرة وشك. لكن كان مهمّاً لنا أن لا نجعل الشريف حسين يبدو فاشلاً كي تحافظ بريطانيا على ماء وجهها»[١٧].

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على إعلان الثورة، أبلغت وزارةُ الحرب مجلس الوزراء بمذكرةٍ رسميّة بأنّ البلاد الناطقة بالعربية لم تلبّ نداء الشريف. وفي مذكرة سِرية أخرى هيّأتها هيئة الأركان الإمبراطورية لمجلس الحرب الأعلى. في ١ من تموز ١٩١٦ جاء:

«إن الشريف حسين كان يزعم لنفسه دوماً في مراسلاته مع المعتمد السامي صفة الناطق باسم العالم العربيّ لكن وبقدر ما تبين لنا إنه لا يتمتع بإسنادٍ من أية منظمة عربيّة».

وتوصي مذكرةُ الحكومة في الختام بأن لا تفترض موافقة الزعماء العرب الآخرين على أي اتفاق يتمّ معه[١٨].

وفي أيلول أشارت تقارير الإستخبارات من القاهرة إلى أن الثورة العربية في الحجاز هي في طريقها إلى الانهيار وبأسرع مما كان متوقعاً وعلى أثر ذلك رأى (سايكس) أن يعزز قوات الشريف بنجدات عسكرية، فلم يؤخذ برأيه ورفضت هيئة الأركان نقل أي مقدار من قوات الجبهة الغربية أو بذل أي مجهود في هذا الشأن. بالأخير اهتدى البريطانيون إلى علاج، إذ فكروا في إرسال مئات قليلة من أسرى الحرب المعتقلين في الهند نتائج عمليات حملة ميسوپوتاميا (العراق). وبقيت قيادة الجيش مصرّة على موقفها من نجدة الشريف.

---

(١٦) المرجع السالف: ص١١٧.

(١٧) أيلي خضوري: المرجع السالف.

(١٨) أوراق سايكس: المرجع السالف.

واتصل (مكماهون) بعد موافقة حكومته بالحكومة الفرنسية يسألها إرسال نجدة للشريف. وتلكأت السلطات الفرنسية في بادئ الأمر ولم تستجب فوراً، لأن ذلك يقتضي سحب قواتٍ من الجبهة الغربية ثم ما لبث أن أدركت أن هذا الطلب يستقيم مع خططها المقبلة في التواجد العسكري هناك. وفي أواخر صيف العام ١٩١٦ بعثت بقوّة باسم (البعثة العسكرية الفرنسية) بقيادة الكولونيل (أدورد بريمون) قوامها ٤٢ ضابطاً و٩٨٣ جندياً نقلوا بحراً، واستقبلهم العقيد (ولسن) الضابط البريطاني الأقدم في الحجاز. ووصفت الوثائق الفرنسيّة مهمة القوة بأن «الغرض منها تعزيز قوات الشريف بكادر من المحترفين والمشاورين العسكريين من مسلمي المستعمرات الفرنسية».

لم يدر في خلد البريطانيين أن فرنسا التي رفضت بإصرار في السابق أيّ تواجد عسكري لها في الثورة. وكان سماحها لمكماهون بالاتصال بفرنسا مجرد مناورة يقصد منها تأكيد الرفض الفرنسي السابق، أن ترسل قوة بمثل هذا الحجم فكان ذلك مفاجأة غير سارّة، الأمر الذي حملهم على إرسال دفعة أخرى من القوات البريطانية. وفكر الكولونيل (بريمون) من جهته بزيادة عدد «بعثته» وكتب لرؤسائه إلاّ أنه لم يجد تشجيعاً.

في ذلك الوقت بدأ (عبدالله) يصارح البريطانيين بخوفه من قيام الحامية التركية في المدينة بشنّ هجوم على مكة يتضمن الاستيلاء على كل المواقع بين المدينتين، مما حمل (ستورز) على السفر إلى الحجاز لمدارسة الوضع عن كثب، وكان يرافقه (عزيز علي المصري) وشابٌ يبلغ من العمر ٢٨ عاماً هو (توماس إدوارد لورنس) بعينه ذلك الشاب الذي اصطلحت ظروف غريبة وواحدة من غفلات التاريخ لتضع اسمه في قائمة المشاهير الخالدين. وليعرف في الموسوعات والكتب بلقب «لورنس العرب» أو «لورنس الجزيرة» وهي مكانة في التاريخ لا يستحقها ولم يكن لها أهلاً، وكثيراً ما تخلفت في التاريخ فراغات ملأها أمثال لورنس عبر الأجيال. ربما تأتّى مصدر المجد الذي ناله لورنس من اتفاقه في الرأي مع المكتب العربي والحضور البريطاني السياسيّ في كلّ من مصر والسودان، بخصوص إبعاد الفرنسيين قدر ما أمكن عن شؤون الشرق الأوسط، والحيلولة دون تدخلهم في الجزيرة، لاسيّما في عملية إنقاذ الثورة العربيّة المحتضرة. (راجع الذيل).

* * *

وطرأ على سياسة بريطانيا تحول مفاجئ عند تولي (لويد جورج) زعيم حزب الأحرار رئاسة حكومة ائتلاف بدلاً من (اسكويث) ووزير خارجيته (لورد گري) اللذين

كانا يعارضان في مدّ رقعة النفوذ البريطاني إلى الشرق والشرق الأوسط. فقد بقي (لويد جورج) يعتقد أن الشرق ذو أهمية عظيمة في ربح الحرب. وكان يمقت الترك مقتاً شديداً وهو الذي أثر تأثيراً بالغاً على نهجه السياسي في كثير من الأحيان.

وفي فرنسا فإن تعاقب حكومات عدة أثناء الحرب لم يحدث عند أيّها تحولاً مفاجئاً في سياسة البلاد العامة حتى أيار ١٩١٧ عندما تولى رئاسة الحكومة الجديدة (جورج كليمانصو)[١٩] وهو من المتطرفين محام وصحافي لامع محارب طوال حياته. جاء إلى الحكم وهو ابن ٧٦ عاماً.

وهو يكره الألمان كلويد جورج. إلاّ أنه كان بخلافه لا يستسيغ التوسع الأقليمي وينفر من الاستعمار.

في نيسان ١٩١٧ عُين (سايكس) رئيساً لبعثة سياسيةٍ إلى القيادة العامة في مصر، وفي آخر لقاءٍ له مع (لويد جورج) بمحضر من (لورد كرزن) اقترح عليهما «إحياء الثورة العربيّة الميتة» بدفع العرب إلى القيام بعمليات أنصار وتخريب خلف خطوط العدو أثناء الهجوم العام المرتقب، فوافقا شريطة أن لا يعطى الشريف أو العرب بصورة عامة أيّ تعهدٍ بريطانيّ لا يتفق والمصالح البريطانية، ونبّه بصورة خاصّة بألاّ يقدم على أي عمل من شأنه أن يزيد في العلاقات البريطانية - الفرنسية سوءاً وأن لا يخلق لها مشاكل جديدة. وأن يضع نصب عينيه:

«أهمية عدم التعرض للحركة الصهيونية والتزام الحياد في معالجة أمرها والبحث في إمكان تطويرها تحت الرعاية البريطانية»

ويمضي محضر المقابلة المدوّن في سجل محاضر مقابلات مجلس الوزارة ليذكر أيضاً بأن رئيس الحكومة شدد على أهمية إضافة فلسطين إلى منطقة النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط بعد الحرب. وحذر (سايكس) من إعطاء العرب أي وعدٍ يتعلق بفلسطين[٢٠].

مع أن رسائل (سايكس) إلى وزير الخارجية (بلفور) من پاريس كانت حافلة

---

(١٩) حكومات (ڤيڤياني، وريبو، وبريان) سمح لها البرلمان بالاستقالة إلاّ أنه أسقط حكومة (پول بوليڤيه) ونصب (كليمانصو) مكانه.

(٢٠) أركيف رحبوت، إسرائيل وايزمان Rohobot, Israil Weisman Archieve: سلدمير روپر Sledmere Roper: ملحوظات عن المؤتمر المنعقد في داونگ ستريت Notes of Conferance held at Dawning Street» بتاريخ ٣٠ من نيسان ١٩١٧.

بالتفاؤل حول الموقف الفرنسي وتوقع تعديله. وفي مصر قام (سايكس) بأخذ صديقه (پيكو) إلى الزعماء العرب المبعدين والمغتربين في زيارة تعريف، كما صحبه في زيارة للشريف وفيها أطلعاه على الاتفاق الثلاثي [سايكس پيكو سازانوف]. وخلافاً لتحذير المكتب العربي لسايكس بأن الوجود الفرنسي في الشرق الأوسط سيجلب معه الشرّ والكدر إلاّ أنه لم يأبه بالتحذير وراح يحاول التقريب بين وجهات نظر پيكو وبين الشريف وأولاده. وفي النهاية كتب برقيته هذه في ١٢ من أيار ١٩١٧:

«توصل پيكو إلى التفاهم مع الممثلين العرب»

وبعد أسابيع كتب لصديق:

«يغلب على ظنيّ أن فرنسا ستكون على استعداد للتعاون معنا في اتباع سياسة مشتركة إزاء الشعوب الناطقة بالعربية».

وفي أثناء ذلك انطلق الجنرال (سر آرچيبالد موري) في هجومه عبر سيناء، لكنّ رُدّ على أعقابه في فجر يوم ٢٦ آذار وهو على أبواب (غزة). إذ كان القائد الألماني اللامع (كرِسْ فون كرِسِنْشتاين) قد حصن القاطع تحصيناً محكماً فلم ينل منه الهجوم مأرباً. وأعاد البريطانيون الهجوم في ٢٩ من نيسان فرُدوا على أعقابهم أيضاً بعد أن تكبدوا خسائر جسيمة، عندها أصدرت وزارة الحرب أمرها بعزل القائد وعينت (الجنرال أللنبي) في محلّه فتسلم القيادة في حزيران ١٩١٧.

كان هذا ضابط خيّالة أبدى حنكة وبراعة في الجبهة الغربيّة مالبثت أن ظهرت باستيلائه عنوةً على غزة وانحداره إلى (بئر السبع). وتعززت انتصاراته التالية عندما بدأت قوات فيصل المحمولة بحراً إلى العقبة (حوالي ١٠٠٠ بدوي) من مواني الحجاز تشاغل القوات التركية على جناحه الأيمن بعد تعزيزها بحوالي (٢٥٠٠) جندي أسير وتقضّ مضاجعها بغارات موضعيّة تراوحت بين الفشل والنجاح(٢١).

في أثناء ذلك وباقتراب القوات البريطانية شعر (جمال) بشكل مبهم بنشاطٍ معادٍ عربي- يهوديّ وراء خطّ القتال. فأقدم في عيد الفصح على إخلاء مدينة (حيفا) من سكّانها إخلاءً تاماً وبقي حائراً لا يدري ماذا يفعل بهؤلاء الآلاف المؤلفة وإن كان يتحدث عن محاولة إسكانهم في سورية. هذه العملية أعادت إلى الذاكرة مأساة الأرمن

---

(٢١) راجع الذيل لهذا الفصل. للوقوف على تفاصيل هذه العمليات يحبذ مراجعة مذكرات جعفر العسكري. لندن ط. دار السلام ١٩٨٨.

في قارس وأردهان والآشوريين في حكاري (١٩١٥).

كان من توقعات قيادة (أللنبي) أن أسرى الحرب هؤلاء الذين أُلحِقوا بقوات (فيصل) ستحولها إلى شيء شبيه بالجيش النظامي. فكانت خيبة أمل أوليّة فيهم؛ حتى أن ممثلاً لوزارة الخارجية الأمريكية في القاهرة كتب لمرجعه في نهاية العام ١٩١٨:

«إن جيش (فيصل) بقي عاجزاً عن إخضاع أفراده للنظام والانضباط»[٢٢]

إلاّ أن الحياة بدأت تدب في هذه القوات بعد احتلال أورشليم القدس. واكتسبت عمليات [اضرب واهرب] صفة الاستمراريّة. إلاّ أن الجنود الأسرى الذين كانوا تحت قيادة العقيد (جويس) المباشرة والذين تولى المقدم (هربرت يونگ) أمر نقلهم لم يحققوا ما كان مأمولاً منهم. إذ ماكان بوسعهم الصمود أمام الأتراك[٢٣].

وفي القدس تلا (أللنبي) بياناً وُضعت المدينة بمقتضاه تحت الحكم العسكري. مبرراً ذلك لـ(پيكو) بأن المدينة تقع ضمن منطقة العمليات الحربية ومن الطبيعي أن تنحصر السلطة بيد القائد العسكري الأعلى وله وحده أن يحدد مدة سريان الأحكام العسكرية ويقرر إنهاءها، ولذلك فلن يعمل باتفاق [سايكس پيكو سازانوف]. من خطّة (أللنبي) مواصلة الزحف على دمشق ثم على استنبول. لكنه توقف مضطراً، بسبب إرسال معظم قطعاته إلى الجبهة الغربية لصدّ هجوم ربيع العام ١٩١٨ الخطير لاسيما بعد أن نقل الألمان مجموعة جيوشهم من الجبهة الشرقية إثر عقد معاهدة الصلح مع الحكام السوڤيات. على أنه تلقى نجداتٍ في أواخر العام ١٩١٧ وأوائل العام التالي فاستعدّ للتقدم نحو دمشق.

كان (أللنبي) قائداً عاماً لجيوش الحلفاء في هذه الجبهة. ومع أن معظم قطعاته

---

(٢٢) حوالي أربعين ألفاً.

(٢٣) رونالد ساندرز Ronald Sanders: «أسوار أورشليم العالية The High Walls of Jerosalim» نيويورك ١٩٨٣ ص٤٩٣. (وهو تاريخ لتصريح بلفور وقيام الانتداب البريطاني على فلسطين). من مذكرات جعفر العسكري: «كثيراً ما كنا نتعب مع أهالي الحجاز واليمن سواء كان ذلك في تنفيذ الأنظمة الضرورية أو إلباسهم البزة العسكرية وكانوا يسمون السراويل (شنقيطاً) وينفرون من لبسها النفور كله وكانت النظافة والعناية بالشؤون الصحية على ما يرام ولاسيما بعد ورود الجنود اليمانية وتكاثف المعسكر. وتفشت الكوليرا بين هؤلاء فأخذت تفتك بهم فتكاً ذريعاً. وكان الدكتوران أحمد حمدي وحسن شرف وباقي الأطباء ينادون بمقترحات صحية لدفع الغائلة مما يصعب تطبيقه على هؤلاء الناس».

بريطاني يرفع العلم البريطاني إلاّ أن زحفه كان يرفع إلى جانبه أعلاماً كثيرة. ومنها علم الثورة العربيّة المستحدث.

وكان (سايكس) قد اقترح على الشريف عند بدء الثورة اختيار علم لقطعاته وبعد دراسة مستفيضة قام بها المكتب العربيّ لتاريخ العرب والرايات التي كانت ترفعها دولهم الغابرة والأزياء السائدة لمختلف العهود. تمّ رسم نموذج لعلم يتألف من الألوان الأحمر والأبيض والأسود والأخضر. وقدم (سايكس) الرسم للشريف. يقول سايكس إن الاعتراض الوحيد الذي أبداه الشريف عليه أن اللون الأحمر كان فاتحاً. ثم أوصى بتسليم التصميم إلى معامل الجيش البريطاني في القاهرة. فخاط عدداً منها وأرسلت للشريف، وتحت هذه الراية سارت الخيالة العربية الثلاثمائة في شوارع دمشق عندما تم فتحها[٢٤].

* * *

لم ينشر تصريح (بلفور) الشهير عند فتح (أورشليم). فقد انشغل بال المكتب العربي ووزارة الخارجية في حلّ مشكلة حساسّة: التوفيق بين الوعدين المتناقضين الذين أعطيا للعرب عن طريق الشريف، ولليهود عن طريق (وايزمان).

وفي القاهرة اجتمع الجنرال (كلايتن) بزعماء سوريين من القوميين والوطنيين وانتزع منهم اعترافاً بأهميّة اليهود في المجهود الحربي. وقد أعلمهم خلال ذلك أن اليهود لا ينوون إقامة حكومة في فلسطين، وأن بريطانيا ليست مستعدة لذلك حتى لو صحت نيتهم. وبعدها هيّأ لقاء بين (فيصل) و(وايزمان) ويظهر أن هذا فوجئ بما لم يكن يتوقعه من فيصل فقد كتب لزوجه عنه:

«إنه أوّل قومي عربي اجتمعتُ به. زعيمٌ بحق، ذكيّ جداً، صادق إلى أبعد حدّ، وسيم، جميل المحيا حاسّ جداً ذو يدين جميلتين تشبهان يد أنثى أصابعهما تتحرك دوماً بعصبية عندما يتكلم لكنه قوي العزم قلق بخصوص تسويات ما بعد الحرب لكني نصحته بوجوب وضع الثقة في أن دول الحلفاء ستعامله معاملة منصفة وقد وجدته غير مهتم بأمر فلسطين. إلا أنه من جهة

---

(٢٤) غدت هذه الراية العلم الوطني العراقي ثم الأردني ثم السوري وبعد قيام الوحدة تبنتها الجمهورية العربية المتحدة مع بعض تغيير في الترتيب. إلاّ أن الألوان الأربعة لم يعترها تبديل ولم تنقص. وقد تغير شكل العلم العراقي أربع مرات إلاّ أن الألوان كانت دوماً متمثلة فيها.

أخرى يريد دمشق وكل إقليم سورية الشمالية، وهو يحتقر عرب فلسطين الذين لا يعدّهم عرباً أصلاً»

وهكذا تبدو قضيّة الزحف اليهودي إلى (أرض الميعاد) وكأن لا محيص لنا من التطرق إليها جانبياً هنا. فها هي ذي يقظتان قوميتان استحدثتا من عامل الدين واللغة والتراث والاضطهادين العنصري والسياسي قوّتهما في الدعوة إلى السيادة والوطن والوحدة. تزامنتا، وتشاء المقادير أن تتشابكا في ميدان واحدٍ، حيث أثرت الواحدة منهما في الأخرى تأثيراً عميقاً وخاضتا باسم القوميّة حروباً طاحنة متساجلة فيما بينهما زهاء نصف قرن من الزمن. ليس هذا وحده، فقد كان القول في مستقبلهما زمن تلك الصحوة القومية مرهوناً كليةً بسياسات حكومات إمبراطورية متغلبة واحدة. لم تقم جهودهما الخاصّة في بناء الصرح القومي الذي جاهدا في سبيله إلا بدور صغير. ولم يعملا الشيء الكثير في تحويل هذه السياسات وإن استفاد من تقلباتها وإرهاصاتها الذكي الأريب مهما قصر عن ذلك الجاهل الأرعن.

وقد كتب الكثير والكثير حول هذا. كتب ما يتسع لمكتبة ضخمة، ومن المقالات الصحافية ما يملأ مخازن وأهراء وهو يختلف بين الحماسة والعاطفة وبين الرزانة والتعقّل. وأنا ما اعتقدت بأني سأضيف شيئاً جديداً إلى هذا الركام الهائل وما أقدمت إلاّ وكُليّ تردد وخوف من إشاعة الملل إلى القارئ بترديد ما قرأه هو أو كتبه غيري. ولذلك سأتحرى الاختصار الشديد وأحصر القول في أضيق نطاق يسمح لي به تسلسل الأحداث والوقائع. وفي اعتقادي أني لن أثير زوبعة بعد التطور السياسي الكبير في العلاقات بين دولة إسرائيل ومعظم الدول الناطقة بالعربيّة وكان رائده الأول (السادات) رئيس الجمهورية المصرية.

كان الرئيس الأمريكي (ودرو ويلسن) و(لويد جورج) قد وعدا شعوب الإمبراطورية العثمانية بحياة أفضل. لكن وفي الوقت الذي كان أولهما يهدف من الوعد تمتع تلك الشعوب بحق تقرير المصير وبحكم ذاتي، وجدنا ثانيهما يقترح الدعوة إلى التحرير القومي أي إعطاء شعوب الشرق الأوسط حكماً أفضل مما تستطيع هي أن تعطيه لنفسها. ومن أولى خطواته في هذا المجال هو أمره الصادر للقوات البريطانية في البلاد المصرية بالتحول إلى الهجوم بقصد الاستيلاء على سورية وتصعيد العمليّات العسكرية في العراق بغية الاستيلاء عليه. وكان قد اعتزمَ في سِرّه أن لا يمنح الفرنسيين ما رسم به اتفاق سايكس پيكو سازانوف.

الاتفاق بحدّ ذاته لم يكن ذا أهميّة عند الحكومة البريطانية الجديدة. ولا يقوم عقبةٌ في وجه خططها السياسية، فالاحتلال العسكري هو الأصل. وفي هذا الصدد يذكر المؤرخون أنه قال للسفير الفرنسي في نيسان ١٩١٧ عن فلسطين:

«سنكون هناك بحقّ الفتح وسنبقى فيها»[٢٥]

كان الوحيد بين أعضاء وزارته الذي يريد فلسطين لبريطانيا وتبعاً لذلك كان تشجيع استيطان اليهود فيها أمراً مرغوباً عنده. فهو يحقق لتلك البلاد تطوّراً كما كان يعتقد. وقد عجب زملاؤه لهذا الإصرار. لكن كان ثمّ خلفية لتفكير (لويد جورج) لم يفطن إليها هؤلاء - تكونت جرّاء دراسته الكلاسية وتاريخ الشعوب القديمة في الأراضي المقدسة، كما أنه كان يعلم بأن هناك ميلاً ورغبة تمتد إلى عدة قرون ماضية عند رجال الدين الإنگلكان وغيرهم في إعادة اليهود إلى صهيون. وبقدر ما يتعلق الأمر بالعودة إلى صهيون (أرض الميعاد) كاد لويد جورج أن يكون آخر المسيحيين الصهاينة في بريطانيا، أولئك المهووسون المغفلون الديّنون في إنگلترا الذين كانوا يحلمون بإمكان اعتناق العائدين من اليهود الدينَ المسيحيّ!!

وبدأ دخول الأتراك الحرب موطّئاً لظروف سياسيّة جعلت من حلمهم هذا أملاً لا يخلو من واقع. وفي حينه تساءل الكاتب الإنگليزي الشهير بنبوءاته العلمية إج جي ويلز H.G. Welles في رسالة صحفية مفتوحة ساعة دخول تركيا الحرب: «ترى ما الذي يمنع اليهود من حيازة فلسطين وإعادة دولة يهوذا حقيقية؟»

وكانت هناك فكرة مماثلة تختلج في قحف رأس (سر هربرت صموئيل) وزير البريد في الحكومة السالفة وأحد قادة حزب الأحرار، وبها كتب مذكرةً لرئيسه أسكويث. مقترحاً أن تكون فلسطين محمية بريطانية بسبب أهميتها الستراتيجية للإمبراطورية، ومبيّناً الفائدة من تشجيع الهجرة اليهوديّة إليها بنطاق واسع. وقد وزعت نسخة واحدة منها في السنة عينها (١٩١٥) على أعضاء الوزارة لكنها لم تلق أهتماماً أو معاضدة. بل نالت تعليقاً ساخراً من (أسكويث) إذ قال:

---

(٢٥) رسائل أوراق حييم وايزمان The letters and papers of Haim Weisman: ط. إسرائيل مجلد ٨ ص٢١٠.

نوّه إسحق رابين بذلك اللقاء قبل أسابيع قليلة عند أول خطاب له بمحضر من الملك حسين. وهو لقاء اختتم بمعاهدة سلام.

«من الغرابة بمكان أن يكون لويد جورج النصير الأوحد لهذا الاقتراح. لا حاجة لي إلى القول إنّ الرجل لا يهتم قلامة ظفر باليهود، لا بماضيهم ولا بحاضرهم»[٢٦]

المسألة هي أن (لويد جورج) ما اعتنق هذه الفكرة إلاّ خوفاً من استئثار فرنسا بفلسطين. لكن (أسكويث) لم يفهم ذلك. ففي الوزارة نفسها اعترض (كتشنر) بشدّة مبيناً أن فلسطين ليست مهمّة قطّ لبريطانيا من الناحية الستراتيجية[٢٧].

والحركة الصهيونية تلبس الآن ثياب القرن التاسع عشر القومية بوصفها حركة جديدة. إلاّ أن جذورها قديمة قدمَ تلك الدولة اليهودية التي أزالتها (روما) من خريطة العالم وشتتت معظم مواطنيها في مشارق الأرض ومغاربها خلال القرن الثاني الميلادي. إلاّ أنهم أقاموا على دينهم وتشبثوا به وحافظوا بحرص عزّ نظيره على طقوسه وتقاليده وتحملوا ما يتحمله مواطنو الدرجة الثانية من أهمال واحتقار واضطهاد ومذابح عدة، ومن طردٍ ونفي من بلدٍ لآخر، الأمر الذي زاد من شعورهم بهوية منفصلة ومصير خاص كالآشوريين والأرمن والأقباط. وقد نصت تعاليمهم بأنّ الله سيعيدهم في النهاية وبعد كلّ المحن إلى صهيون، ولذلك تراهم جيلاً بعد جيل يرددون في صلواتهم عند احتفالهم بعيد الفصح «السنة التالية في أورشليم». وهم يزينون بيوتهم ومحلات عملهم حيثما تيسّر بلوحة كتبت عليها بالعبرية المقولة التوراتية الشهيرة التي نطق بها أحد أنبيائهم في المنفى:

«إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني»

والعودة إلى فلسطين وأورشليم بقيت رؤيا رسالية إلى أن حولتها أيديولوجيّة القرن التاسع عشر القومية في أوروبا إلى برنامج سياسيّ. وتتمثل بفكرة سائدة زرعتها في ذلك الزمن وفي كلّ مكان وطأة جيوش الثورة الفرنسية، فنمت واشتدّ عودها. الفكرة التي أتينا إلى شرحها في فصول سالفة وهي أن لكل شعبٍ الحق في بلادٍ مستقلّة لنفسه. رغم أن قضية مكوّنات الشعب ما زالت حينذاك قضية مفتوحة غير مستقرة. وقد لخص جوزيف ماتزيني الذي نعتناه بأبرز المناصرين لهذا المبدأ المحصلة بعبارة بسيطة:

---

(٢٦) محاضر مجلس الوزراء: المرجع السالف.

(٢٧) رسائل اسكويث: المرجع السالف، ص٤٠٦.

«كل شعب يجب أن يتحرر ليحقق ألمعيته الخاصة ويتابع رسالته في خدمة البشرية ورقيّها».

ومعنى هذا أن قومية أي شعب لا تقتصر على خدمة مصالحه الخاصة بل تخدم أيضاً مصالح جيرانه. وقد وجدنا القوميين الثوريين في كل عصر ومن كلّ لون سياسي يقاتلون في ميادين نضال شعوب أخرى غير شعوبهم. إلاّ أن اليهود في أوروبا واجهوا الجانب المظلم من القومية. فكان هذا سبباً في دفع عجلات مركباتهم إلى أرض الميعاد بشدّة ولهفة.

السبب الأساس في بعض أمراض العالم أن بعض الشعوب حيل بينها وبين تحقيق هويتها واستقلالها بالقوة الغاشمة. حتى أن (ماتزيني) الوادع الذي كره العنف وشجبه اقترح على أتباعه القيام بالتغيير عن طريق الحرب والثورة. ذلكم هو الجانب المظلم من القومية. طريق العنف الذي لا بُدّ منه وعدم التسامح في استعمال حق تقرير المصير بالانفصال أو الانسلاخ. يجب أن يتحد الناس شاؤوا أم أبوا. ذلك هو الوجه الكالح من القوميّة، التشدد وعدم التسامح مع مجموعات تخالف الأكثرية[٢٨].

وكالكرد والمسيحيين في الشرق الأوسط فهم ما زالوا يواجهون كما واجه اليهود في أوروبا حالة مماثلة، ففي البيئة القومية التي انتقلت إليها أوروبا الغربية كما انتقلت البلاد الناطقة بالعربية إليها في ظل الحكم العثماني، اتخذت القضية اليهودية مظهراً جديداً خرج عن النطاق الديني.

هل إن يهود ألمانيا هم ألمان؟

هل إن يهود إنكلترا إنكليز؟

ويهود روسيا؟ هل هم روس؟

إن كان الأمر كذلك فماذا عن هويّتهم الخصوصية؟

ذلك طبق ما يواجه مجموعات الشعوب والطوائف التي لا تدعي بالقومية العربيّة في البلاد الناطقة بالعربيّة.

---

(٢٨) من أمثلة ذلك الحرب الأهلية في سويسرا (١٨٤٧) عندما حاولت كانتونات سبعة الانسلاخ عن الاتحاد السويسري. والحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦٠-١٨٦١) حين حاولت إحدى عشرة ولاية أمريكية الانسحاب من الاتحاد. وفي الحالتين سحقت المحاولتان بجيوش الحكومتين الفدراليتين.

بنهاية القرن التاسع عشر تحقق لليهود في غرب أوروبا التحرر القانوني، إذ زال كثير من القيود المدنيّة والاجتماعية التي كبلتهم بها القوانين خلال قرون عديدة وصار بوسعهم أن يتركوا أحياءهم الخاصة المغلقة ghettos إلى المناطق الأخرى وأن يزاولوا التجارة ويمارسوا الحرف بحسب اختيارهم ومن دون قيد وأن يبتاعوا عقاراً ويتمتعوا بحقوق المواطنة، إلا أنهم ظلوا يواجهون موجة عداء من الآخرين الذين مافتئوا يعتبرونهم أغراباً.

على أن الحال كان مختلفاً في أوروپا الشرقية وفي الإمبراطورية الروسية التي تضمّ پولندا ودول البلطيق وأوكرانيا بنوع خاص. إذ بقي اليهود هناك يعيشون في ظلّ خطر دائم مداهم. وكان معظم يهود العالم إذذاك يعيش في هذا الجزء من «خط السياج: Pale»[٢٩]. ستة ملايين من اليهود الروس لا يسمح لهم أن يتسمّوا روساً، لم يكن الأمر قاصراً على تكبيلهم بأصفاد القانون بل ظلوا هدفاً للانتقام والاضطهاد. وكانوا ضحايا مذابح منظمة: Pogroms.

وبما أن القومية اعتبرت حينذاك الدواء الشافي لهذه الأسقام الاجتماعية فقد بات في حكم المحتوم أن يقوم بين هؤلاء - مثلما قام بين الناطقين بالعربية - دعاة للقومية اليهودية، ممن يفترضها جواباً وحَلاً لمأساتهم. فبدأت عبارات الوحدة القومية وحق تقرير المصير تظهر في عدة كتب. ومن الخطأ القول مثلاً بأن (ثيودور هرتزل)[٣٠] كان أوّل الدعاة السباقين. لكن النقطة الهامة التي يجب أن نقف أمامها مكبرين هي أن صهيونية هرتزل السياسية كانت أبعد أفقاً عمن سبقه. صحيح إنها دعت إلى أن يكون لليهود دولة خاصّة بهم إلاّ أن موضعها وأرضها لم يكونا ذا أهميّة خاصة رئيسة عنده. ألا فلتكن في أفريقيا أو في أمريكا أو في أستراليا، لا يهم. تجده في كلّ ما كتب يعترف بأنه يكاد لا يعرف شيئاً لا عن اليهود ولا عن أورشليم وهو صحافي عصريّ التفكير ومراسل لصحيفة نمساوية يمثلها في پاريس لا يهمّه من أمر اليهود شيء وقد نسي أصله اليهودي فعلاً إلى أن جاء ذلك الزلزال الفرنسي المدمّر ضدّ الساميّة على أثر قضية

(٢٩) لفظ مشتق من كلمة هي اسم الوتد الخشبي. وتستخدم أعداد منه لإقامة سياج.

(٣٠) ممن سبقه موسى هسّ Moses Hess بكتابه: «روما وأورشليم» ١٨٦٢. وليو بنسكر Leo Pinscker: بكتابه «التحرر الذاتي» ١٨٨٢ وغيرهما. تزامنت هذه الكتابات القومية مع الآثار الأدبية والسياسية التي نشرها دعاة القومية العربية كما يلاحظ.

(دريفوس)[٣١] التي أقنعته بضرورة الجهاد في سبيل إنقاذ اليهود المنتشرين في أرجاء العالم من محنتهم التاريخية، فشرع فوراً بتأسيس الجمعيّة الصهيونية في العام ١٩٠٢ ولم تسفر مفاوضاته مع السلطان عبدالحميد عن شيء، وبقي نشاط هذه الجمعيّة بكل ما سجله التاريخ عنها محدوداً وعلى نطاق نشرات وكراريس وصحف دورية موسميّة.

بتشجيع الاستيطان اليهودي في فلسطين خلال العقد الأوّل من قرننا أخذت فكرة الوطن التاريخي تنزل من علياء الخيال والرؤى إلى ما يشبه الواقع. ونقلتها الحرب إلى الصعيد السياسيّ الجدّي بإدراك من زعماء الصهيونية بأنها فرصتهم التي لا يمكن أن تفوّت. وفي شباط ١٩١٧ انتخب [حييم وايزمان] رئيساً للاتحاد الصهيوني البريطاني، وكان هو وزميله (ناحوم سوكولون) قطباها ومدار رحاها واستغلّ أولهما مكانته التي تبوّأها اختراعه في المجهود الحربي[٣٢] ليدفع بالقضية القومية إلى أروقة الوايت هول. وخطا خطوته الأولى بلقاء مع النجم السياسي الصاعد ولم يكن غير صاحبنا (سايكس) الذي يدسّ نفسه في كل شيء كان إذذاك يتحرى عمن يكون قادة المنظمة الأعلين ولم يكن (وايزمان) حينذاك يدري بأن فلسطين والأراضي المقدسة ومستقبلها من مقتضى اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) أن توضع بعهدة إدارة دولية. في حين بدأ (سايكس) بعد مرور عام عليها وكأنه يريد أن يضع قضية الشرق الأوسط كلها ضمن هذا الاتفاق الثلاثي الذي هندسه وقد اهتدى خلال ذلك إلى القضية اليهودية وتبناها بالحماسة المعروفة عنه. وها قد ظهر الآن وضع جديد: الوطن اليهودي!

نتيجة اللقاء توصل (سايكس) إلى فكرةٍ، مالبث أن اقترحها على الحكومة البريطانية. مؤدى الفكرة هي أن هويّة الوحدة اليهودية في فلسطين يجب أن توضع تحت حكم بريطاني - فرنسي مشترك: Condominium، على أنه لم يصارح

---

(٣١) اتّهم الكابتن دريفوس Dryfus اليهوديّ الفرنسيّ ظلماً وبسياسة من ضباط فرنسيين في وزارة الحرب (١٨٩٧) بالجاسوسية وبيع أسرار عسكرية للألمان فحكم عليه مجلس عسكري بالسجن مدى الحياة وطرده من الجيش وأرسل إلى جزيرة الشيطان وفيها أسوأ سجون فرنسا بالباسيفيك. وإزاء ثورة الرأي العام في الداخل والخارج ساهم فيها الكاتب الكبير أميل زولا في كتيب شهير عنوانه: «إني أتهم» أعيدت محاكمته وتبينت براءته بعد ظهور فساد الأدلة ضده.

(٣٢) كان وايزمان من عباقرة علماء الكيميا. وقد اهتدى إلى طريقة إنتاج مادة (الأسيتون) الرئيسة في عمل المفرقعات والمتفجرات من نبات الذرة. وقدم اختراعه هذا هدية للحكومة البريطانية التي كانت في أشدّ الحاجة إلى هذه المادة وقتذاك.

(وايزمان) بسبب استقراره على هذا الحلّ، ولم يكن مُتفقاً لا مع نوايا (لويد جورج) ولا مع آمال (وايزمان) الذي كان يريد أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية فحسب.

واقترح جماعة (وايزمان) أن تؤخذ القضية إلى رئيس الحكومة. لكن (وايزمان) وقد اكتشف نقطة الضعف في (سايكس)، فضّل أن يعمل على تغيير نهج (سايكس) بالأول. وفي عين الشهر التقى الجميع به واتهموه بصراحة وقالوا إنهم يعارضون فكرة الحماية المزدوجة ويريدون أن تكون الأراضي المقدسة تحت الحماية البريطانية دون شريك وأثر عن (سايكس) أنه أجاب على هذا بالقول:

«إن المشكلة هي فرنسا، وليست العرب. مسألة العرب يمكن احتواؤها».

وفي اليوم التالي أخذ (سايكس) الزعيم الثاني الصهيوني (سوكولوف) لمقابلة زميله (پيكو) وعلى أثر محادثة طويلة وَعَد (پيكو) بأنه سيعمل كلّ ما في وسعه لتعريف حكومته بأهداف الصهيونية. لكنه شخصياً لا يرى ثمّ احتمالاً في استعدادها للتنازل عن دعواها بفلسطين. وفي الواقع إن ٩٥٪ من الفرنسيين يريدون فلسطين لفرنسا[٣٣]. إلاّ أن الجميع اتفق على التريث والانتظار. وبعد أسابيع قامت ثورة أكتوبر في روسيا ودالت دولة القياصرة. ثم دخلت الولايات المتحدة الحرب.

لم يقتض ل(سايكس) طويل وقت ليدرك تأثير هذين الحدثين على اتفاقه الثلاثي. وكان ما كان من أسراع (لويد جورج) بإصدار أمر الهجوم في جبهة سيناء، وأسرع (پيكو) ليجد في هذا الأمر هجوماً على المصالح الفرنسية وكتب لحكومته إثر ذلك هذه البرقية:

«لندن تعتبر إتفاقنا ميّتاً. الجيوش البريطانية ستدخل سورية من الجنوب انطلاقاً من مصر وفلسطين وستشتت أنصارنا هناك»[٣٤]

كان (وايزمان) خلال هذه المدة قد حقق اتصاله بلويد جورج وعرف نواياه وأدرك العقبة الفرنسية الكأداء التي تحول بين رئيس الحكومة البريطانية وبين تحقيق هدفه في حيازة فلسطين. إلاّ أن صبر (لويد جورج) كان حينذاك قد نفد من الادعاءات الفرنسية في الشرق الأوسط، فأبلغ (وايزمان) بـ:

«أن مستقبل فلسطين هو مسألة سيكون حلها بين بريطانيا واليهود فحسب. وأنا

---

(٣٣) المرجع السالف: رونالد ساندرز: «أسوار أورشليم العالية» ص٤٦٦. نيويورك ١٩٨٣.

(٣٤) كريستوفر م. آندرز وكانيا فورستر. المرجع السالف ص١٢٤.

لا أدري لماذا هذا الاهتمام الكبير الذي يوليه (سايكس) للفرنسيين. إن فلسطين بالنسبة إليّ هي من شؤون الحرب التي تشغل بالي وتستولي على اهتمامي حقاً»[٣٥]

وعندها اقترح (وايزمان) رئيس الحكومة أن تعلن حكومته على الملأ التزامها بإسناد مشروع الوطن اليهودي في فلسطين. وكان قبل هذا جنّد للفكرة اثنين من كبار الموظفين البريطانيين ذوَي حول وطول هما (لورد روبرت سيسل) الوكيل البرلماني لوزارة الخارجية، و(سر رونالد گراهام) من الباحثين المعتبرين وأحد البارزين في تلك الوزارة. وهو الذي عهد إليه بوضع مسودّة تصريح بلفور.

استقر الرأي على إصدار تصريح. لكن كيف سيمرر؟

والعقبة الفرنسية ما زالت قائمة؟

الفرنسيون ينظرون إلى الصهيونية نظرة احتقار، يهزأون بها ويسخرون، ويراها جزءٌ كبير من الرأي العام عندهم بأنها نصيرة للألمان، ويعادونها بسبب من ذلك. والأنكى من هذا أنها لم تلق مناصرة أو تشجيعاً من يهود فرنسا أنفسهم. كان الوضع على الأقل بهذه الصورة حتى ثورة أكتوبر في روسيا. تلك الثورة التي جعلت اليهود يبدون سياسيّاً أكبر أهمية مما هم في الواقع[٣٦]. كذلك كانت وزارة الخارجية الفرنسية تخشى أن يترجم إحجامها عن مدّ يدها إلى الصهيونية بالتخلي عن ادعائها بفلسطين. ولهذين السببين وبدهاء وسعة حيلة من (ناحوم سوكولوف) حُلّت القضية وذُللت العقبة الفرنسية. فقد تعمد في أثناء لقاءاته بمسؤولي الخارجية الفرنسية أن لا يثير النقطة الحساسّة: أيّ من الدول ستضع يدها على فلسطين؟ واستنتج الفرنسيون من هذا بأن الصهيونية لا تهتم بمن سيكون سيد الأماكن المقدسة وأنها ستقف على الحياد أثناء

(٣٥) أولسن: سايكس. المرجع السالف ص٢٢٥: «بعد سنوات من انقضاء الحرب. اخترع لويد جورج في مذكراته قصة خيالية لا أساس لها تبريراً لموقفه من قضية فلسطين. فزعم أنه لم يوافق على تصريح وزير خارجيته بلفور إلاّ إقراراً بفضل وايزمان في إهدائه اختراعه للحكومة البريطانية». نقول: إختراع (وايزمان) كان حقيقياً إلاّ أن اختراع لويد جورج هذا التعليل كان زائفاً.

(٣٦) من ذلك لوحظ وجود شخصيات يهودية في السلطة السوڤياتية الجديدة تقف في أعلى درجات السلم السياسي. منها (ليف تروتسكي) الشخصية الأولى في الحكم التي تلي (لنين). و(كانيف) عضو المكتب السياسي وواحد من أبرز النظريين البلاشفة وغيرهما.

الاحتراب عليها بينها وبين بريطانيا. ولم يكن يدور في خلد وزارة الخارجيّة كما يبدو احتمال نجاح اليهود في تحقيق هوية قومية انفصالية ذات خصوصية مميّزة في كلّ اجتماعات موظفيها. والحاصل أن الوزارة لم تجد ضرراً في إعطاء الصهاينة كلمة تشجيع مادامت لا تعني شيئاً ولا تؤدي إلى شيء ما. كانوا يعتقدون بأن هؤلاء الذين غرقوا في أحلام اليقظة قد يمكن كسبهم باعطائهم نوعاً من التشجيع الأدبي القولي الذي لا يتضمن التزاماً حقيقياً[٣٧].

وبمقابل هذا التشجيع القولي وعد (سوكولوف) بأن يشدّ الرحال إلى روسيا ليستخدم نفوذه عند يهودها في صالح فرنسا. وفي الرابع من شهر حزيران فاز من (جول كامبون) المدير العام لوزارة الخارجية بتصريح خطيّ هذا نصّه: [الخطاب موجّه إلى سوكولوف]:

«كنتَ بدرجة كافية من الحصافة والكياسة في شرح وتقديم المشروع الذي أوقفت عليه جهودك. ذلك المشروع الذي من شأنه تطوير الاستيطان اليهودي في فلسطين. وكنت من جهة أخرى مصيباً في رأيك بأن استقلال الأماكن المقدسة وبالظروف المتاحة يجب أن يصان. وأن إحياء القوميّة اليهودية بحماية الدول الحليفة سيكون إجراءً عادلاً وتعويضاً لها في تلك الأرض التي نفي منها شعب إسرائيل منذ قرون خلت. إن الحكومة الفرنسية التي دخلت الحرب دفاعاً عن شعوب هوجمت ظلماً واعتداءً، وواصلت النضال لتحقيق نصر الحق على الباطل والجبروت، لا يسعها إلاّ أن تنظر بعين العطف على قضيتكم التي يرتبط نجاحها بنصر الحلفاء. إنه يسعدني حقاً إعطاؤك مثل هذا التأكيد»[٣٨]

صياغة التصريح بقدر ما تعلق الأمر بالحكومة الفرنسية كانت صياغةً محكمة دقيقة لا تحتوي وعداً قد يتضمن نقطة ارتكاز للفكرة الصهيونية الأصلية أي وجوب إحياء القوميّة اليهودية في نطاق وحدة سياسيّة خاصة بها. زد على هذا أن الأماكن المقدسة التي نّوه بها التصريح على أساس بقائها مستقلة بعيدة كل البعد عن الوعد بالوطن، في مجالات كانت اتفاقية (سايكس پيكو سازانوف) قد حددتها وهي مساحة شاسعة من

---

(٣٧) أندرو وكانيا: «التوسع الإمبريالي الفرنسي»، المرجع السالف، ص١٤٩.

(٣٨) كينيث روز (المرجع السالف): أسوار أورشليم العالية، ص٥٣٤.

الأراضي تشمل مما تشمل معظم فلسطين المأهولة غرب نهر الأردن، فلو قدر التطبيق لهذا التحديد فإن «العطف الفرنسي» على شعب يهودي في فلسطين سيكون قاصراً على حيفا وحبرون وشمال الجليل وصحراء النقب فحسب[٣٩].

كان التصريح بمجمل القول - خالياً من اي إلتزام.

في بعض الأحيان يشار إلى أن تصريح (بلفور) التالي هو الآخر غامض غموض تصريح (كامبون). إلاّ أن الأوّل منهما نشر رسمياً وأشار إلى فلسطين بالذات، كما أشار كذلك إلى خلق وحدة كانت مقدمة وتمهيداً لتكوين قوميّة يهودية واضحة المعالم، أي وطن قومي.

مع هذا فما من شك في أن الفرنسيين وقعوا في الفخّ الذي نصبوه لغيرهم وورّطوا أنفسهم من حيث قصدوا توريط غيرهم. فتأكيدهم الخطيّ هذا رغم أنف كل الحذر والدقة اللذين روعيا في صياغته أنار بالضوء الأخضر طريق بريطانيا إلى تصريحها البلفوري الخاص. وهكذا فأنت ترى، ما إن يصبح للصهيونية تصريحان صادران من حَليفين، بالغ ما بلغا من غموض وإبهام، حتى تغدو الحركة ذات دور هام في اختيار أي من الدول تضع نفسها في حمايته، وستختار بريطانيا بطبيعة الحال.

بعد وقوع هذا الخطاب في يد الجماعة الصهيونية دبت الحركة في نصيريها (سيسل وگراهام) ولم يبذلا كثيراً من جهد مع وزير خارجيتها الذي كان بدوره متهيئاً. وفي أواسط حزيران تلقى (وايزمان) منه دعوة للمشاركة في صياغة البيان.

المناقشة حول الأسلوب المناسب والجهة التي سيوجه إليها التصريح استغرقت معظم الصيف وتأخر التصريح أيضاً بعائق غريب غير متوقع. فقد كان هناك فريق من يهود بريطانيا وهم من ذوي الحول والطول والكلمة في السياسة البريطانية يرون في التصريح خطراً على مستقبلهم وعلى مركز اليهود في بريطانيا وتزعم هذا الفريق «مونتيگو» وزير الهند وابن خالته (أو عمته؟) السر هربرت صموئيل ولورد ريدك روفوس ايزاك. هؤلاء كانوا ينطقون بلسان الأغلبية اليهودية في بريطانيا أو هكذا كانت الدلائل تشير.

فبتاريخ ١٩١٣ وهو آخر تاريخ نجد فيه أرقاماً عن الحركة الصهيونية لم يكن متمياً

---

(٣٩) قارن بين هذا التحديد وبين قرار التقسيم الصادر من مجلس الأمن في العام ١٩٤٨.

إليها أكثر من ١٪ من مجموع يهود العالم[٤٠]. أما تقارير الاستخبارات البريطانية فقد أشارت إلى نوع من تعاطف في المناطق الروسية المسيحية مع الحركة الصهيونية أثناء الحرب دون ذكر أرقام. ووجد (مونتيگو) وصحبه من المؤيدين كلاً من (اللورد كرزن) وزير الهند و(آندرو بونار لوو) زعيم الأغلبيّة البرلمانية في وزارة الائتلاف وقد أيّدت الولايات المتحدة نصيحة هؤلاء بتأخير نشر التصريح حتى ١٧ من تشرين الأوّل. كان الرئيس الأمريكي (ويلسن) ممن يعطف على الصهيونية، إلاّ أنه بقي يشك في نوايا البريطانيين وبدا وكأنه يفضل فلسطين يهودية، على فلسطين بريطانية.

وعمد الزعماء اليهود إلى حيلة بارعة لاحتثاث بريطانيا على التعجيل في نشر التصريح باللّعِب على مخاوف الحكومة وهواجسها، فأوعزوا لجماعتهم في ألمانيا فقام هؤلاء بالواجب!

في صباح يوم ١٧ حزيران ١٩١٧ خرجت جريدة برلينيّة لا تتمتع بانتشار واسع أو شهرة سوى أنها مقربة من حكومة القيصر، خرجت بخبر مدسوس لا أساس له، مفاده أن البريطانيين يدرسون فكرة دعم الصهيونية من أجل الحصول على فلسطين لتكون لهم بمثابة جسر أرضي يوصل مصر بالهند واقترحت الجريدة على الحكومة الألمانية عرقلة هذه الخطة بمناورة استباق بريطانيا إلى دعم الحركة الصهيونية!

لم تكن الحكومة الألمانية مهتمة مطلقاً بتبني الحركة وهو ما كان يجهله البريطانيون. أسرع (وايزمان) بالمقال ووضعه أمام (گراهام) فهرع هذا يبدي مخاوفه بحماسةٍ لبلفور وكتب مذكرة ختمها بالعبارة:

«. . . وقد نواجه في أية لحظة تحركاً ألمانياً لصالح القضية الصهيونية، من الواجب أن نتذكر بأن الصهيونية وإن لم تكن من بنات أفكار اليهود الألمان إلاّ أنها على أية حال فكرة يهود النمسا»[٤١]

وفي ٢٦ من تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٩١٧ خرجت جريدة التايمس اللندنية بمقالها الرئيس تهاجم فيه التأخير المتوالي في إصدار التصريح مشيرة إلى الخبر:

---

(٤٠) رحبوت، إسرائيل: أركيف وايزمان (رسالة سر گراهام إلى الجنرال ريجنالد وينگيت) مؤرخة في ٢١ من أيلول ١٩١٧.

(٤١) سجلات مجلس اللوردات. مجموعة بيفربروك. أوراق لويد جورج ٣-٢-٣٤ (يلاحظ أن النمسا كانت تقاتل إلى جانب ألمانيا. والنمساويون ألمان عنصراً).

«غاب عن ساستنا أن يدركوا كم هو ثمين لقضية الحلفاء عطف كل يهود العالم قلبياً عليها. ذلك التعاطف الذي يمكن أن يكسبه تصريح قاطع حاسم عن السياسة البريطانية إزاء أمانيهم القومية. كانت ألمانيا سريعة في إدراك الخطر على مشاريعها ودعايتها المتأتي من الرابطة الكائنة بين الحلفاء وبين أماني اليهود القوميّة ولم تكن عاطلة في محاولة عرقلتنا وإعاقتنا».

وتمّ في ٣١ من تشرين الأول تغلّب الوزارة على المعارضة التي ترأسها فيها (مونتيگو وكرزن) وخولت وزير خارجيتها (بلفور) بإصدار التصريح، لكن بعد إجراء كثير من التنقيح والحذف والتعديل على الصيغة التي اقترحها (وايزمان). وأسرع (سايكس) يزفّ إليه نبأ الموافقة بقوله:

- دكتور وايزمان. إنه وَلَدٌ ذَكَر!

إلاّ أن الزعيم اليهودي لم يكن قطّ سعيداً بهذا الوليد الذكر بكل التغيير الذي جرى على الصيغة الأصليّة.

وُجّه البلاغ إلى أشهر شخصية يهودية في بريطانيا بشكل خطاب من وزير الخارجية إليها مؤرخ في ٣١ من تشرين الأول (أكتوبر):

عزيزي لورد روتشيلد

ببالغ السرور أنقل إليك نيابة عن حكومة صاحب الجلالة التصريح التالي بالتعاطف مع أماني الصهيونية وقد عرض على مجلس الوزراء فصادق عليه:

«إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى قيام وطن قوميّ للشعب اليهودي في فلسطين وأن تستخدم أفضل مجهوداتها لتسهيل الوصول إلى هذا الهدف. وليكن مفهوماً بوضوح أنها لن تقدم على أي أمر من شأنه أن يلحق ضرراً بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المتواجدة الآن في فلسطين ولا بالحقوق أو الشخصية السياسية التي يتمتع بها اليهود في أي بلدٍ من البلاد الأخرى. وسأكون ممتناً لو تفضلتم بإبلاغ هذا التصريح إلى الإتحاد الصهيوني».

(بلفور)

لم يتوقع الزعماء البريطانيون ردّ فعل سيّئ من حلفائهم العرب وما زالوا يجدون في فرنسا مشكلتهم الوحيدة التي تمّ حلّها. وقد كتب لويد جورج فيما بعد عن الموقف العربي:

«على مايدو لي لم تكن فلسطين تثير عند العرب كثيراً من الاهتمام أو تورثهم قلقاً. . . إن حكومتنا أبلغت الملك حسين والأمير فيصل بخطتها في إعادة خلق كيان قوميّ يهودي في الأماكن المقدّسة. ولم يكن بوسعنا اذذاك الاتصال بالعرب الفلسطينيين فقد كانوا يحاربون في صفوف العدو»(٤٢)

وتبين فيما بعد خداع (سوكولوف) فقد كذب على وزارة الخارجية الفرنسية حين وعد بالاتصال باليهود في روسيا. لم يفعل شيئاً ولم يجرؤ على الرحيل. وقد نقلت ثورة أكتوبر السلطة إلى البلشفيك.

في المقابلة التي تمت بين (فيصل) و(وايزمان) كان العقيد (جويس) رئيس أركان فيصل المنتدب من القيادة حاضراً. وقد أبلغ رؤساءه برأيه الذي كوّنه عنها فكتب:

«رحب فيصل بفكرة التعاون العربي - اليهودي. بل وجدها في الواقع عاملاً جوهرياً في تحقيق الأماني العربيّة القومية، إنه وإن لم يكن بوسعه التعبير عن وجهة نظر دقيقة معيّنة دون تخويل من أبيه، لكنه يقبل بفلسطين يهودية إن كان ذلك يؤثر تأثيراً إيجابياً على الحلفاء في دعم ادعائه بسورية»(٤٣)

إلاّ أن (وايزمان) لم يجد عند الفلسطينيين ما وجده عند ممثل الثورة العربيّة (فيصل). لم يجد تحمّساً لفكرته هذه لا بين مسلميهم ولا بين مسيحييهم. وبدأ شكه يتعاظم بسبب موقف الإدارة البريطانية هناك عندما طلب منها العمل بالسياسة التي رسمتها لندن فرفضوا ولم يعيروا طلبه اهتماماً.

حُلّت مشكلة فلسطين مع زعماء الثورة العربيّة بهذا الشكل ولم يخرج من فم الزعماء العرب الآخرين ولا الجمعيات السريّة صوت احتجاج على التصريح أو انتقاد له. ومَرّ الحدث التاريخي بالسهولة التي تمّ فيها الاستيلاء على دمشق. فقد انحل الجيش الرابع التركي قبل دخول معركة من أجلها، وتفرق إلى جماعات وهرب قائده (جمال).

أجمعت الوثائق البريطانية المحفوظة على أن الجيش الذي قاده (فيصل) هناك كان عدد أفراده يتراوح بين الثلاثة آلاف والثلاثة آلاف وخمسمائة من الجنود العثمانيين

---

(٤٢) لويد جورج: محاضر الصلح ١٩١٩. مجلد ٢ ص٧٣٧.

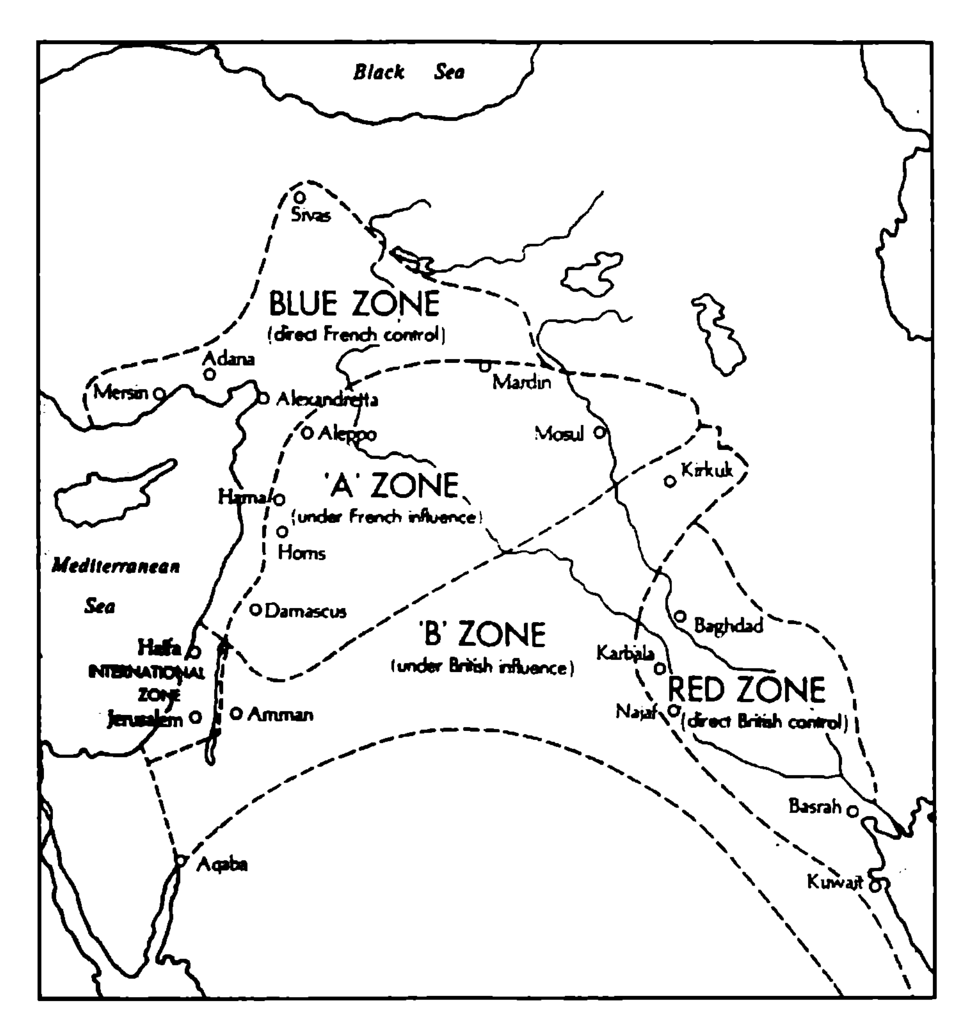
(٤٣) مركز الوثائق العامة (أوراق المكتب العربي 882 vol 24. وكذلك Fo. 10588174. Kew. vol. 20 M 1/19/3.

السابقين الذين لقوا تدريباً ما. في حين أن الدعاية البريطانية كانت تلهج بذكر عدد يتعذر إحصاؤه من المجاهدين المقاتلين الملتحقين براية أمراء الحجاز. وفي السِرّ كان للبريطانيين قصة أخرى مختلفة عن تلك القوات وعمّا أنجزته في ميادين القتال. فوثائق الحكومة التابعة في محاضر العام ١٩١٩ أشارت بأن الأتباع قُدّروا عددياً خلال الحرب تقديراً مبالغاً فيه بشكل خرج عن كل اعتدال وبينها تقرير صادر عن الوكالة (المقيمية) البريطانية في (جدّة) ١٩١٩ يصور الشريف (الملك الآن) كمية مهملة عسكرياً:

«ربما بلغ أتباعه ألفاً من المدربين و٢٥٠٠ من غير النظاميين، وربما قد ينضاف إليهم آلاف قليلة أخرى من البدو بقيمة قتالية تافهة وزعوا على أولاده الثلاثة. إن الملك حسين غارق في أحلام جنونية من الفتوح، إلاّ أن انسحاب البريطانيين سيتركه تحت رحمة ابن سعود ذلك النجم الوهابي الصاعد»

في شهر كانون الثاني ١٩١٨ أفضى الشريف للرائد (كيناهان كورونوالس) الضابط في المكتب العربي وبعد أن أعلن نفسه ملكاً أنه يفكر أيضاً في إعلان نفسه خليفةً للمسلمين. فحاول هذا الضابط[٤٤] أن يثنيه عن عزمه مستهدياً بسياسة المكتب العربي وقتذاك، تلك التي ماعادت تهتم قطّ بحسين، مذكّراً إياه بالمشاكل الخطيرة التي قد تنجم عن محاولته ارتداء بُردة النبيّ. وأزاء هذا المطلب وجد جماعة المكتب أنفسهم في موقف فيه من الإحراج ما فيه. أدركوا موقفهم العسير عندما تذكروا بأنهم مع أستاذهم وزير الحرب الراحل شجعوا الشريف فيما مضى على اطّلاب الخلافة! لم يجدوا سبيلاً للخروج من المأزق إلاّ بتجاهله ثم القيام بإتلاف الرسائل والخطابات التي كتبوها بهذا الصدد، بنزعها من ملفاتها الرسمية أو القيام بعمل نسخ معدّلة منها عندما يتعذر إتلافها. فمثلاً تجد (لورنس) يزعم في كتابه (أعمدة الحكمة السبعة) كذباً طبعاً بأن (كتشنر) وجماعة المكتب العربي كانوا مؤمنين بتفوق القومية العربية منذ البداية. في حين تثبت الوثائق أنهم ماكانوا يؤمنون بها إطلاقاً بل كانوا يركزون على الجانب الإسلامي من الشريف وثورته. كانوا يؤمنون بقدرة الخلافة على تغيير مسرى الحرب مع الترك مثلما كانوا يؤمنون بقدرة الشريف على اطّلابها لنفسه ولهم. ولا يرون أي جدوى في قومية عربيّة تنهض بالبلاد العربية، بل إن الدين هو كل شيء. ولو كانت

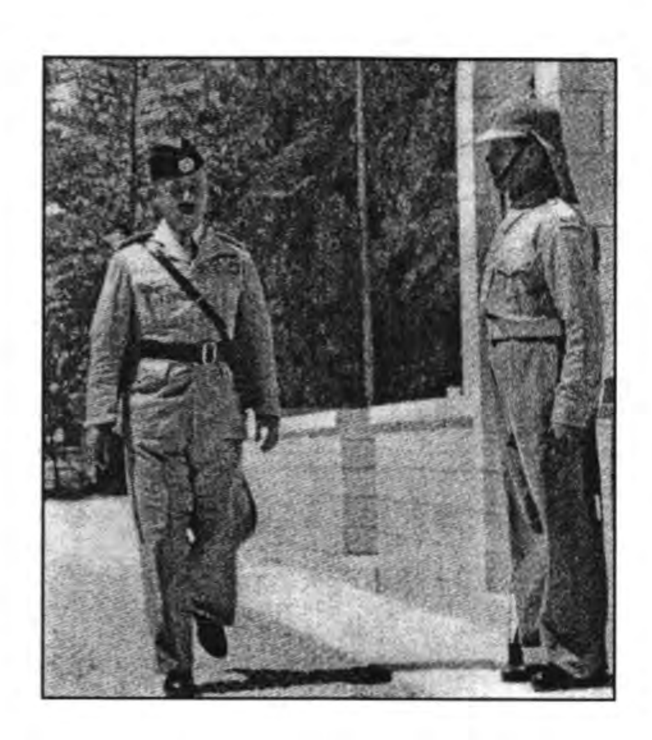
(٤٤) هو عينه الذي كان مستشاراً لوزارة الداخلية العراقية أيام الأزمة الآشورية في ١٩٣٣. وكذلك السفير البريطاني أيام حركة مايس ١٩٤١.



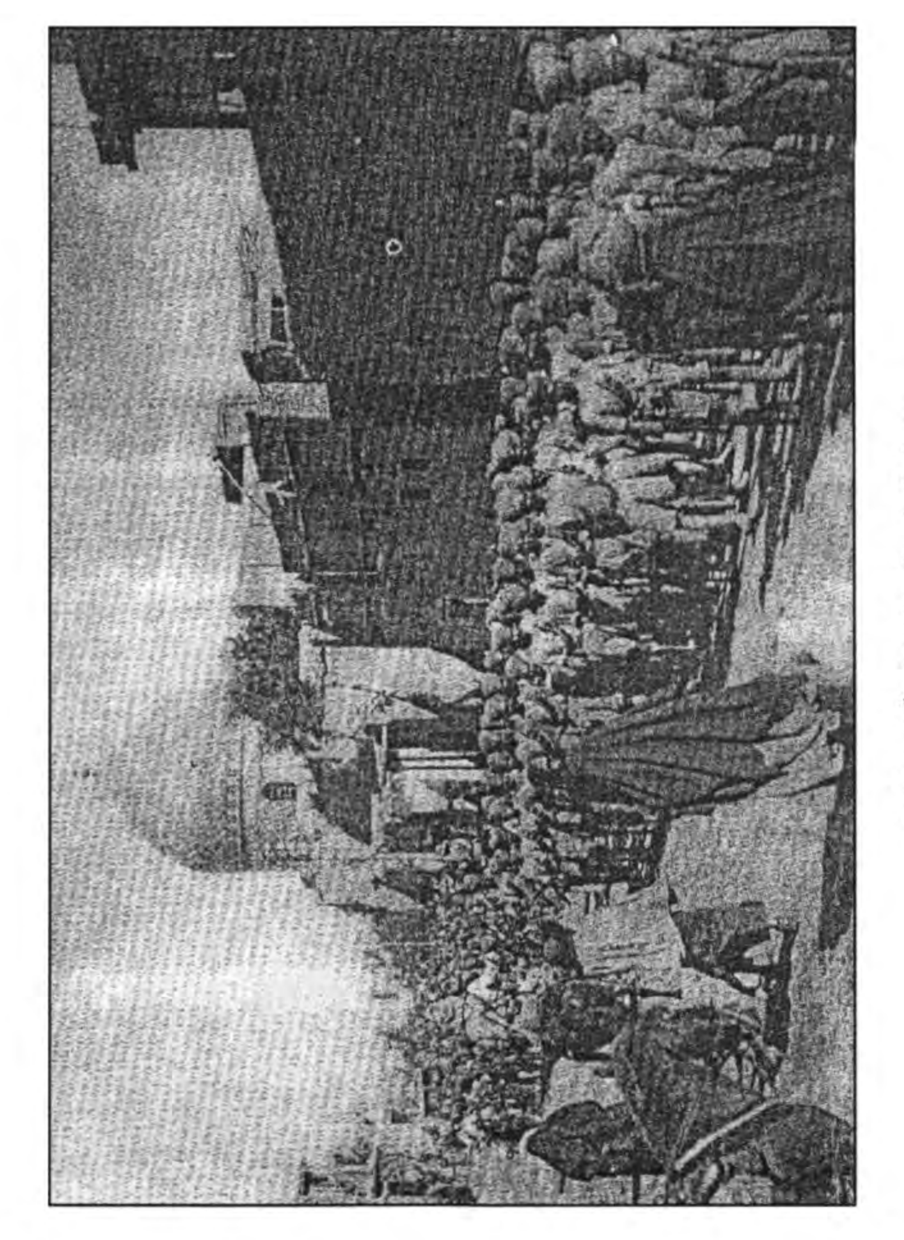
خارطة تبيّن اتفاقية سايكس - پيكو (١٩١٦)



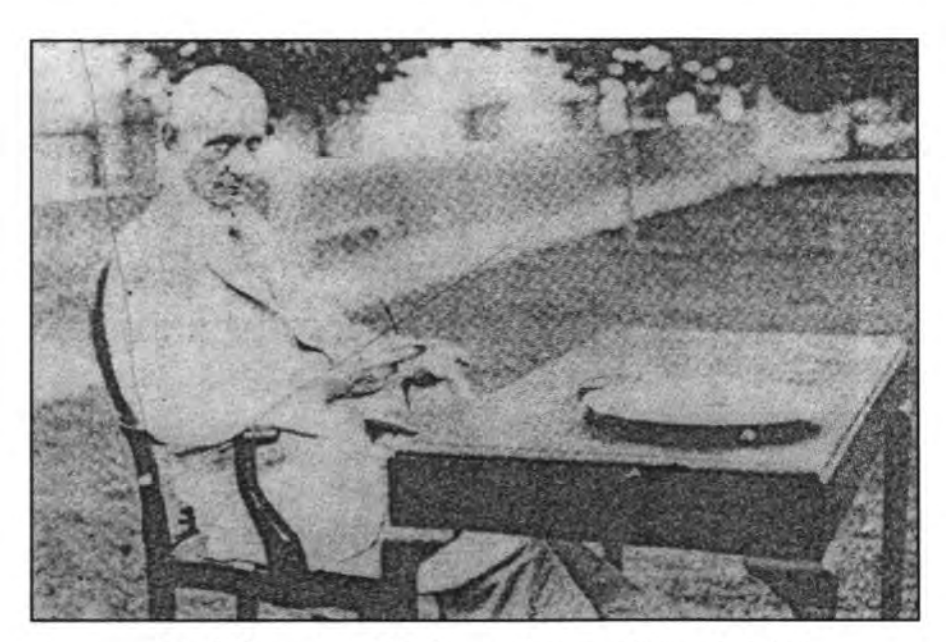
من اليمين:
پيرسي جويس -
فيصل - جعفر باشا
(آب ١٩١٧)



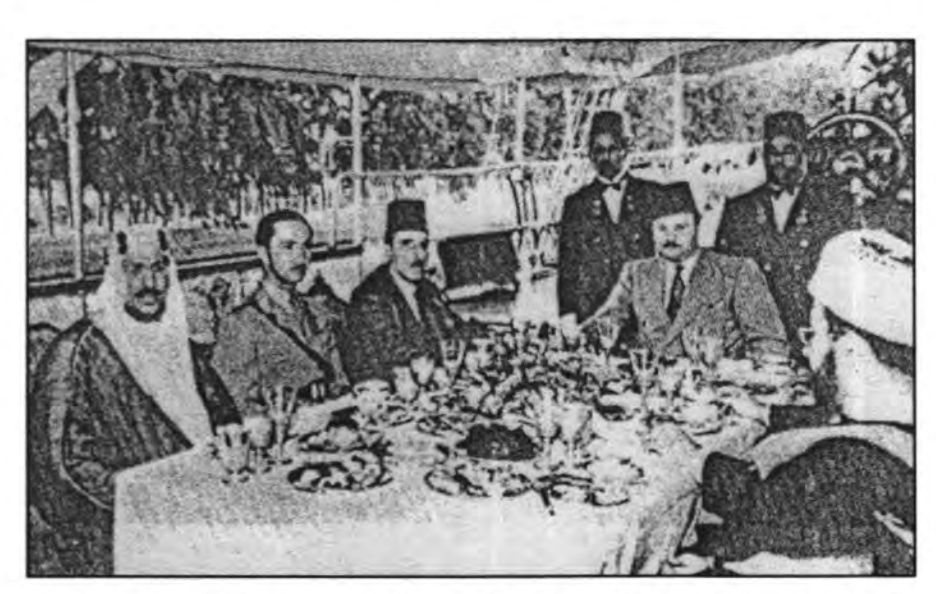
أبو حنيك
(السر جون باجيت)



دخول القوات الهندية بغداد (آذار ١٩١٧)



كيناهان كورونواليس مستشار وزير الداخلية وسفير بريطانيا ببغداد



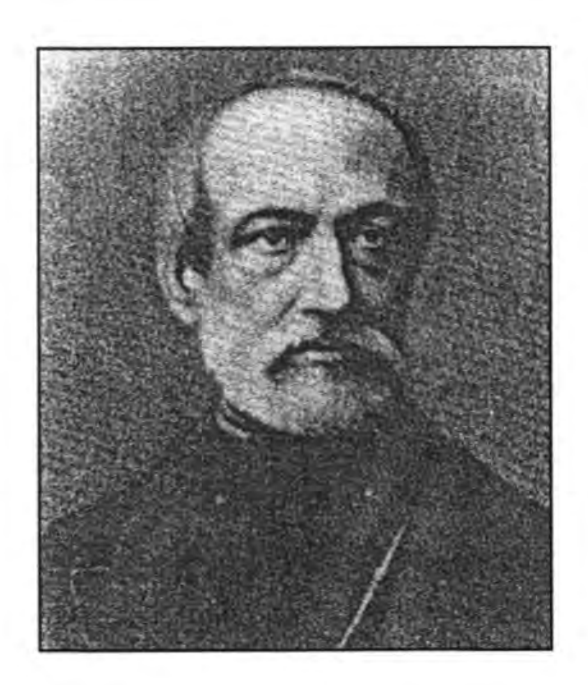
اجتماع قادة ورؤساء وملوك العرب في القاهرة لمناقشة قضية فلسطين في العام ١٩٤٨ :
فاروق - الرئيس السوري - عبدالإله - سعود بن عبدالعزيز - ملك اليمن



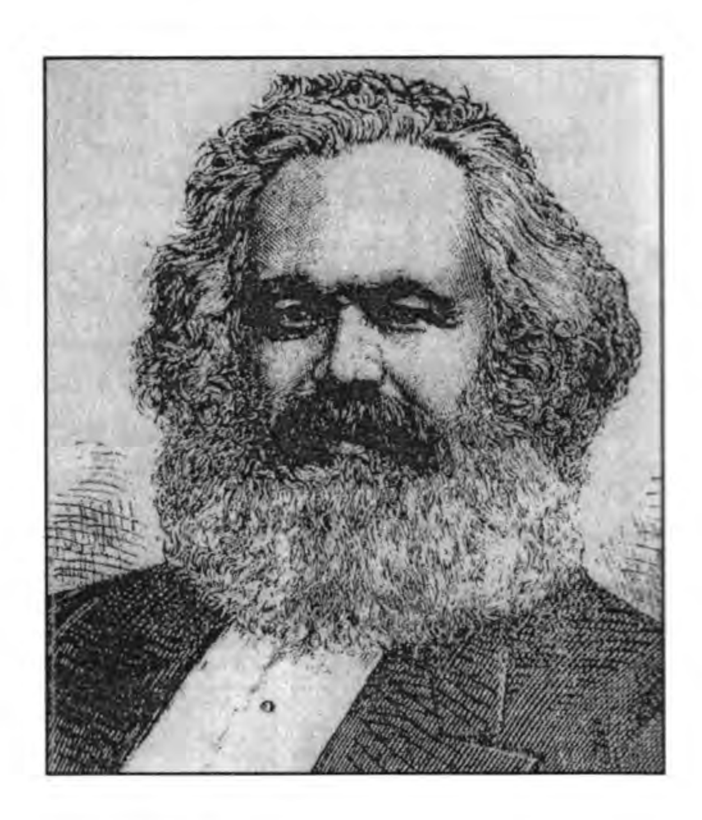
جعفر العسكري قبيل اغتياله



إدموندز



جوسيبي ماتزيني
(١٨٠٥-١٨٧٢)



كارل ماركس



ثلاث معلمات في مدرسة ابتدائية صوّرن داخل مدرستهنّ. كنّ ينزعن عباءاتهنّ السود حال دخولهن المدرسة. ففي وقت سريان هذا القانون لا تجرؤ المرأة على الخروج دون عباءة في المحلات العامة إضافة إلى البرقع الأسود للمسلمات منهن.

استغلّت بائعات الهوى والقوّادون هذه الفرصة الثمينة ليرفعوا أثمان اللذة لطلابها، بإلباس بنات الهوى بزة الفتوة وتقديمهن للزبائن باعتبارهن معلمات. وقد ثار المجتمع العراقي في حينه لهذه اللعبة الشنعاء التي تمسّ بشرف المعلّمات «الحقيقيات» وحصل ما يشبه التحدي والاعتصاب والثورة فاضطرت السلطة بالأخير إلى إلغاء لبس بزة الفتوة الرسمية للمعلمات ولطالبات المدارس الثانوية والمتوسطة.

غايتهم القومية العربية فإن (الشريف) هو آخر من يفكرون في نصبه قائداً لها وزعيماً ورمزاً، وآخر من يفكرون في استخدامه وتقويته. إنه رجل عينه الأتراك لرعاية أمور الأماكن الإسلامية المقدسة طالما استخدم الجيش التركي لإخضاع القبائل العربية الخارجة عليه. ولو كان للمكتب العربي أي إيمان بقدرة القومية العربية وجدواها في هذه الحرب لاختاروا زعيماً عسكرياً قومياً آخر. أدرك (لورنس) هذه الحقيقة من الأول فحاول في كتابه أن يجعل من (فيصل) لا من أبيه قائداً قومياً لكن بعد خراب البصرة كما يقول المثل العراقي السائد.

من أعظم المواقف الفاشلة التي مني بها المكتب العربي واستخبارات وزارة الحرب هو تجاهل حركة البعث الوهابية المدهشة تحت راية إبن سعود - تلك الحركة التي تمخضت بميلاد حركة الفدائيين المشهورة باسم (الإخوان) في العام ١٩١٢. فضلاً عن أكثر من قرن ونصف قرن من حربٍ سجال بين الدعوة الوهابية وبين الحكومات العثمانية. فالوقائع التي سجلت لمؤتمر لجنة وزارة الحرب المنعقد بتاريخ ١٦ كانون الأول ١٩١٦ لسماع شهادة (سايكس) حول القضايا العربية تشير إلى أن (كتشنر) تساءل بقوله:

- أما تزال الوهابية موجودة؟

فأجابه (سايكس) على الفور:

- أجدها ناراً تلفظ آخر أنفاسها.

وبعدها بسنتين أي بعد مرور ستة أعوام على قيام حركة (الإخوان) كتب (كلايتن) لـ(سايكس):

«لدينا ما يشير إلى انتعاش كبير في حركة قائمة على الخطّ الوهابي في قلب الجزيرة، حركة تشبه تماماً ما حصل في السابق عندما تدنّت مكانة الإسلام إلى أدنى مستوى. لسنا بعد في وضع يمكّننا من تقدير قوة هذه الحركة، إلاّ أن الأوضاع السائدة تساعد على تقويتها والقضية تستأثر منا باهتمام كبير. وقد يكون من شأنها تغيير الموقف كله تغييراً جوهرياً»[٤٥]

وكتب كلايتن لـ(سايكس) في أواسط العام ١٩١٨ عن الثورة العربية:

«إن الأهمية الحقيقية لهذه الثورة تكمن في أنها أشعرت الآخرين بوجودها وأن هذا

---

(٤٥) أوراق سايكس DR. 5881251. DS 149.

الشعور قد ازداد خلال الأشهر القلائل الأخيرة. ونطاقها يتسع يوماً بعد يوم. ولكن علينا في الوقت ذاته الإقرار بأن ٩٠٪ من جنود الشريف هم لصوص. وأن العرب لم يجرؤوا على إعلان الثورة على الأتراك إلاّ بعد الإنزال البريطاني والاستيلاء على ساحل الحجاز ومن ثم دعمهم مالياً وعسكرياً. بكلمة أخرى إن ثورة الشريف اعتمدت أولاً وآخراً على مبلغ قابلية البريطانيين على إحراز تقدم عسكري»[٤٦]

لم يوافق (سايكس) على هذا التخريج وظلّ مقيماً على ولائه للشريف معتقداً بأن (فيصلاً) وأخوته يسهمون مساهمة جيدة في المجهود الحربي. وحجته في هذا هي أن ثورة الشريف كانت في العام ١٩١٨ تستأثر باهتمام (٣٠٠٠٠) جندي تركي سواء في الجزيرة العربية أو في ميادين فلسطين وسورية. وتعترف مذكرات الجنرال الألماني (ليمان فون ساندرس) بهذا في قوله[٤٧]: «في ١٩١٨ عندما بدأ الجنود يفرون من صفوف الجيش العثماني وجدوا أنفسهم يعانون ضربات أليمة من البدو العرب».

ولهجة (كلايتن) نفسها كانت تشعر بأن القوات العربية في شرقي الأردن نجحت في إشاعة الفوضى في المناطق التي يسيطر عليها الترك.

وعلى أية حال ففي أوحال السياسة وأعاصيرها آنذاك بقيت مسألة تقويم مساهمة (فيصل) في نصر الحلفاء مُبهمة وستبقى إلى يومنا هذا وبعده[٤٨]. في تلك الفترة - وبعد دخول الحلفاء دمشق - أثير هذا السؤال السياسي:

---

(٤٦) أوراق المكتب العربي (المرجع السالف) Vol 17. D. 20.

(٤٧) المفتش العام للجيش التركي. مذكرات ليمان فون ساندرس Liman Von Sanders: «خمسة أعوام في تركيا Five Years in Turkey» انابوليس - الولايات المتحدة ١٩٢٧. ص٣٠٦-٣٢٠.

(٤٨) خير مرجع بالعربية يمكن الركون إليه في هذا الباب هو المذكرات التي دونها (جعفر العسكري) عن تلك الفترة وهو رئيس أركان فيصل في عمليات الجناح الأيمن. وتبدو لي رزينة تكاد تخلو من المبالغة والتبجح اللذين تشاهدهما في أغلب ما كتب. ويستفاد منها أن العمليات التي كانت تقوم بها وحدات فيصل لا تخرج عن اشتباكات محلية تقوم بها مجموعات قد لا يزيد تعداد أكبرها عن ما يؤلف سرية واحدة بالمصطلح العسكري العراقي (حوالي ١٠٠-١٢٠ جندي). ولا يذكر العسكري أعداداً. وإنما يتحدث عن جيش فيصل. وفرقة فلان أو فلان ويتكلم كذلك عن (مفارز) ولا يذكر حجمها. ومن الجدير بالتنويه هنا أن صاحب المذكرات يؤكد «أن المناوشات الحربيّة في منطقتهم انتهت بعد ٢٥ من أيلول ١٩١٨». ولا يتحدث بشيء عن دخول دمشق وإنما ينتقل رأساً إلى الإجراءات المدنية بعد الاحتلال مباشرة و«عن تقدم القوات إلى الشمال وتوزيعها على المناطق المحتلة وتسريح الراغبين في الرجوع إلى أهلهم».

أكان واجباً على بريطانيا دعم الشريف وابنه (فيصل) بمواجهة الزعامات القومية السورية الحقيقية؟ ثم أكان واجباً عليها مساندة (فيصل) ضدّ أبيه؟

ففي ذلك الحين كانت العلاقات بين الاثنين قد اشتدت توتراً. وكان (فيصل) قد قطع صلته تماماً بالحجاز وبأسرته وصار يدور عملاً في الفلك البريطاني وكانت الاستخبارات البريطانية تعترض سبيل البرقيات التي يرسلها الشريف وكلها شكوى ومضاضة؛ ومن ذلك:

«إنهم حوّلوا ابني ضدّي. ليعيش في بلاد أخرى. فيصل غير صادق، ثائر على أبيه، العيش تحت أوامر هذا الابن العاقّ الخائن أثقل كاهلي فوق ما أشعر به من بؤس»

وتراه يهدد بقوله:

«إن ظلّ فيصل يصر على تدمير مستقبله ووطنه وشرفه فمن الضروري إقالته وإقامة مجلس حربٍ في مكانه»[٤٩]

وبعيد دخول دمشق بقوات من الجيش العربي، تشير تقارير المكتب العربي إلى أن ناطقاً باسم «الوطنيين» السوريين صرح بأنهم قد يقبلون (بفيصل) ملكاً دستورياً شريطة أن يكون مستقلاً بأمره لا أن يمارس الحكم بوصفه نائباً عن أبيه. وعلى أثر ذلك اضطر الحلفاء إلى إعادة النظر في تقويمهم للشريف الذي اتخذ لقب الملك. وركز (كلايتن) جهوده للوصول إلى تفاهم مع أولئك الذين أطلقنا عليهم اسم الانفصاليين في كل من القطرين السوري والعراقي بعد احتلال بغداد (وهذا ما سيأتي تفصيله في الفصل التالي)، فعرف أنهم ينفرون من حكم يتولاه غير مسلمين. وكان عددٌ من الساسة البريطانيين يرى أن الأنتلجنسيا[٥٠] السورية مشكلة تفوق أعقد مشاكل الشرق الأوسط.

---

(٤٩) [الوثائق Fo. 882 Vol 17 Do 33]. في الواقع ظلّ فيصل ينقم على أبيه مما كان يعتبره سوء تصرفات له ويعدها أساساً لكل ما لقي من سورية من متاعب. هناك شاهد على ذلك لا يتطرق إلى أقواله شك - وأقصد به العلامة ورجل الدولة الدكتور داود الچلبي الموصلي (أنظر كتابنا: «العراق في عهد قاسم» ج٢ ص٥٩١ وما بعدها) ففي جلسة ضمتهما ولا ثالث معهما كان فيصل وهو ملك العراق يحاول إقناع الچلبي الذي يعتذر عن مواقفه بأنه إنما يفعل ذلك تثبيتاً لملكه وولاءً لأبيه. فيصيح به فيصل غاضباً: «دكتور داود إياك أن تذكرني بوالدي فهو علة كل ما نزل بنا من مصائب».

(٥٠) Intlligentcia: التعبير أصله روسيّ. وربما كان (بوبورايكن) الصحافي مخترعه وأول من استخدمه في العقد السادس من القرن الثامن عشر ويعني بهم تلك الفئة الاجتماعية التي تألفت =

وقد كانت مصدر قلق سايكس العظيم وبصورة خاصّة معرفتة بأن هؤلاء المثقفين السوريين سيرفضون اتفاق [سايكس پيكو سازانوف] ولن يرضوا قطّ بالشروط التي اتُفِق عليها بين الشريف ومكماهون.

في خريف العام ١٩١٨، الذي ضاقت أجواؤه بضجيج صحف بيروت ودمشق القومية الجديدة، وفي زخم الاجتماعات الجماهيرية والمؤتمرات المعقودة في السرّ وفي العلن، اقتنعت فرنسا بالتوقيع مع بريطانيا على تصريح جديد حول نوايا الحلفاء بهدف تبديد مخاوف العرب، وشكوك الأمريكان في الأطماع الاستعمارية للدولتين الإمپرياليتين، بحسب تقويم[٥١] (لنين) في حينه. وفي ٨ من تشرين الثاني ١٩١٨ صدر التصريح الانكلوفرنسي وقد صيغ بشكل عموميّ الطابع منوّهاً «بالمساندة الكاملة لخلق حكومات محليّة في الشرق الأوسط» ولم يشر بصيغة دقيقة إلى «استقلال البلاد الناطقة بالعربية». ومهما كانت يد الحكومة الفرنسية في هذه التعمية فبريطانيا كفرنسا ما كانت قطّ على استعداد لسلوك السبيل المثالية التي اختطها الرئيس الأمريكي ولسن، ورغب فيها (سايكس).

وبعد فتح القدس ودمشق سأل (أللنبي) لندن حول الشكل الذي ستتخذه الإدارة هناك. فأكدت له وجوب اتباع النهج الذي رسمه اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) والتقيّد بالحدود المرسومة فيه، على أن الخلاف بين أعضاء الحكومة كان شديداً في هذه المسألة[٥٢].

= من نخبة من المثقفين العصريين الذين حصلوا على تعليم مساو لمعاصريهم في أوروپا الغربية وممن لا ينتمون إلى الجهاز الحكومي. والعرب، كغيرهم، نشأت أولى براعم القومية عندهم في تربة الأنتلجنسيا وليس بمحض الصدفة أن يكون أول دعاتها قد بدأوا بالبعث الثقافي واللغوي والأدبي لينتقلوا إلى الهدف السياسي كما ذكرنا.

(٥١) خطأ (لنين) الكبير في تعريف الإمپريالية كان له تأثير عميق في الفكر السياسي اليساري والقومي الحديث، عند تعريفه لها بأنها اطّلاب المزيد من المستعمرات وأنها سبب الحروب. وباستقراء تأريخ التوسع الأستعماري الأوروبي وأخذ كل حرب نشبت خلال القرن التاسع عشر في أوروپا وغيرها، يتضح أن معادلة (لنين) إنما وضعت بشكل معكوس للإمپريالية فالخسائر المادية كانت تدفع الأطراف المتحاربة إلى التعويض عنها بالبحث عن أرباح أخرى. والمجال هنا لا يتسع للتفصيل في هذا مثل قطعة مطاط قصيرة لسحبها فوق مسطرة (المادية الديالكتية) الطويلة جداً باعتبارها تفسر كل شيء. لاسيما وأن أسباب الحروب كثيرة لا تدخل تحت حصر.

(٥٢) أوراق ملنر Melner Papers: أكسفورد. المكتبة البودلية، فلسطين (Oxford Bodlien Library, Palastine) 40/64, 140/54, 140/2

وطبقاً لهذا أمر (أللنبي) أن يستخدم ضباط فرنسيون في كلّ الأقاليم السورية للإدارة المدنية فحسب. وتوالت عليه برقيات وزارة الحرب توصيه بالعمل قدر الإمكان على إقامة إدارة عربية مرتبطة بالفرنسيين، في الوقت الذي سمح برفع علم الثورة فوق دمشق وسائر المدن السورية الهامة بناءً على أوامر صريحة صادرة من وزارة الخارجية. كان هدف الوزارة من هذا مزدوجاً: تذكير فرنسا بأن داخلية سورية ستتمتع باستقلال عربي اسميّ على الأقل. ودعم دعوى الشريف بالسيادة على سورية.

كان عدد سكان دمشق وقتذاك يناهز ثلاثمائة ألف فهي والحالة هذه أكبر مدن الهلال الخصيب وجزيرة العرب[٥٣] وأهمية السيطرة عليها وإخضاعها لإدارة معينة فيه من الآثار والمعاني ما فيه. وكان ثم تناقض في الأوامر: أوامر (أللنبي) الموجهة لفاتحها الجنرال (هنري شوڤال) قضت ببقاء الوالي العثماني وإدارته يمارسان عملهما:

«إذا سبب لكَ فيصل أي مشكلة فعالجها عن طريق لورنس!»[٥٤]

إلا أن وزارة الخارجية البريطانية أعلمت نظيرتها الفرنسية بأن (أللنبي) سيعالج مسألة الإدارة العربية المؤقتة وفق ما رسمه اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) ومن خلال ضابط ارتباط[٥٥]، الأمر الذي يدل على أن وزارة الخارجية كانت تتوقع قيام (أللنبي) بتنحية الإدارة العثمانية ووضع إدارة عربية في محلّها خلال وقت طال أم قصر وأن اتفاق (سايكس پيكو سازانوف) لن يطبق إلاّ بعد تمام هذا. وعلى أساس من هذا حثت وزارة الحرب على إرسال تعليمات خطيرة الشأن لـ(أللنبي):

«الأراضي السورية التي يحتلها الجنرال أللنبي تعامل معاملة بلادٍ حليفة وتتمتع بشخصية دولة مستقلّة ولا تعتبر أراضي محتلة من بلاد العدوّ. ومن المحبّذ أن يُصاغ بيان اعتراف بذلك وأن يقام حكم عربي محلّي تصاحبه مظاهر وإجراءات ذات طابع رسميّ وإعلامي كرفع علم عربي وتأدية التحية له في المراكز والدوائر الرسمية والمحلات العامة»[٥٦].

في الوقت عينه صدر هذا الأمر من المقر الميداني العام لقيادة أللنبي:

---

(٥٣) يقابل ذلك حوالي مائتي ألف نسمة لبغداد وضواحيها.

(٥٤) الوثائق العامة. أوراق المكتب العربي: رقم الوثيقة ٣٦٧٥٧.

(٥٥) مركز الوثائق العامة Fo. 882. Vol 24.

(٥٦) أوراق ملنر: المرجع السالف ٦٤/١٤٠.

«الجيش العربي الذي يقوده فيصل هو الجيش الوحيد الذي سيدخل دمشق ويحتلّها».

كان وراء هذا الأمر العقيد (جويس) والمقدّم (هربرت يونگ) والهدف منه واضح: تحاشي النقمة والامتعاض المحتملين اللذين قد يشيعان في نفوس الأهلين بمشاهدة جيش غير مسلم يدخل المدينة. وكتب (كلايتن) لوزارة الخارجية في تحبيذ ذلك:

«أزاح هذا العمل جانباً كبيراً من شكوك الفرنسيين في نوايانا بسورية».

كانت قوات (فيصل) تبعد عن دمشق مسيرة ثلاثة أيام في حين انشغلت الخيالة النيوزيلاندية في تعقيب فلول الجيش العثماني المنحل. ومع أنها أبلغت بعدم دخول المدينة، وبأن تبقى أعمال المطاردة والتعقيب قاصرةً على الضواحي إلاّ أن تحريرها لم يسِرْ طبق ما رسمته القيادة. إذ مالبثت الإدارة العثمانية أن ذابتْ بكل موظفيها ومسؤوليها ظهرَ الثلاثين من أيلول وتركت المدينة تشيع فيها الفوضى. وعندها نهض الأمير (عبدالقادر) الجزائري وشقيقه (سعيد)[٥٧] للسيطرة على الموقف وبادرا إلى رفع العلم الشريفي من تلقاء نفسيهما ومن دون أن يكون عندهما فكرة عن قرار ميدانيّ قضى بذلك وفقاً لرغبة وزارة الخارجية البريطانية وتعليماتها، رفعه الدمشقيون تلقائياً وتلك من غرائب الصدف وتوارد الخواطر. في عين الوقت وجد القائد النيوزيلاندي ألاّ محيص له من دخول دمشق بوصفها أقصر الطرق إلى مطاردة بقايا الجيش العثماني وأسرها وحسب الأميران وأعيان المدينة أنه هو الفتح. فالتأم جمع منهم لاستقبال القطعات الإنگليزية الداخلة استقبالاً رسمياً! تماماً مثلما كانوا يستقبلون الوالي العثماني الجديد.

وهكذا فشلت خطة (كلايتن - جويس - يونگ - أللنبي) وراح الجنرال (شوڤال) قائد القاطع السوري يجدّ في البحث عن (لورنس) ضابط الارتباط بفيصل دون جدوى. فقد انسلّ هذا مع النقيب نوري السعيد[٥٨] الملتحق بفيصل وأخذا يضربان في طول النواحي وعرضها بجهود مستميتة لجمع ما يمكن جمعه من البدو والجنود الأسرى والهاربين لتنظيم مسيرة دخول إلى المدينة. أخيراً دخل (فيصل) على رأس كوكبةٍ من الفرسان تفاوت تقدير عددها بين ثلاثمائة وستمائة.

وسارع فيصل بنصب (علي رضا الركابي) حاكماً عسكرياً لدمشق. بعد تنحية اللواء

---

(٥٧) هما حفيدان للأمير عبدالقادر الجزائري.

(٥٨) يعطيه جعفر العسكري صفة رئيس أركان جيش فيصل (المذكرات).

شكري الأيوبي[٥٩] عن الإدارة وكان قد تسلمها من وكيل الوالي العثماني الهارب. ثم مالبث أن عينه حاكماً عسكرياً لبيروت عندما قام فيصل باحتلالها دون مقاومة بمائةٍ من خيالته. ورفعوا العلم الشريفي على سارية السّراي في ٥ من تشرين الأول.

في اليوم التالي رست سفن فرنسية حربية في ميناء بيروت وأنزلت قطعات عسكرية صغيرة. وفي ٨ من الشهر عينه دخلتها قوات جيش أللنبي وسيطرت عليها. وأُمر (فيصل) بإنزال علمه وسحب قواته فوراً فانصاع، وما تمّ ذلك حتى تسلّم الفرنسيون الإدارة وحدهم دون المداخلة. وبعدها بقليل قدم (پيكو) أحد ثلاثي الإتفاق، بوصفه الممثل السياسي الفرنسي في قيادة (أللنبي) للمناطق المحررة.

إتفقت إرادة الجميع على قتل اتفاق (سايكس پيكو سازانوف): كلايتن، وكرزن وزير الهند، والمكتب العربي، وسايكس الذي هندسه، بل حتى (لويد جورج) رئيس الحكومة، فقد رأى هذا أن الأحداث استبقت الاتفاق فأوردته حتفه - وعلينا أن لا ننسى أنه كان ضدّه من المبدأ. فهو في رأيه: «اتفاق سخيفٌ من أي ناحية نظرتَ إليه»[٦٠]

ويتضح رجوع (سايكس) عنه من رسالة مؤرخة في ٣ آذار ١٩١٨ موجهة إلى كلّ من (كلايتن) و(وينگيت) اعترف فيها بوجوب صرف النظر عن تطبيق الاتفاق:

«بسبب تعاقب أحداث معينة، كدخول الولايات المتحدة الحرب ونقاط ولسن الأربع عشرة والثورة البلشفية ونشرها بنود الاتفاق مما جلب عليه سخط الرأي العام العالمي»[٦١]

وفي ١٠ من حزيران ١٩١٨ بادر إلى إبلاغ الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية بأنه وفي الوقت الذي لا يحق للشريف والزعماء العرب الآخرين أن يتظلموا من هذا الاتفاق أو يسخطوا عليه لأنه أبلغهم بكل بنوده وأنهم وافقوا عليه، فعلى بريطانيا الآن أن تطلب من فرنسا إلغاء الاتفاق الذي لم يعد محلّ ولا مجال لتطبيقه[٦٢]. وبعدها بشهر واحدٍ أبلغ الدائرة بأن (سايكس پيكو سازانوف) هو اتفاق ميّت شاء الفرنسيون أم أبوا،

---

(٥٩) من أسرة صلاح الدين الأيوبي. وهي أسرة معروفة في سورية اليوم.

(٦٠) لويد جورج: «ذكريات الحرب War Memoirs 1933-1937» بوستن ص٨٤.

(٦١) من الجدير بالذكر أن الإدارة البريطانية المحتلة منعت نشر النقاط الأربع عشرة في البلاد الناطقة بالعربية. فلم تظهر حتى ١١ من تشرين الأول ١٩١٨.

(٦٢) محاضر الدائرة الشرقية (الوثائق).

والمطلوب الآن هو إحلال بديل عنه. فإذا رفض الفرنسيون فإنه مستعد للمباشرة في مفاوضة حول شروط لإدارة الأراضي المحتلة على أساس قيام الاتفاق.

وفي الخامس من تشرين الأول كتب لورد إيمري في مفكرته(٦٣):

«تحدثت مع سايكس حول ما يجب عمله بخصوص الاتفاق. فقال إنه ابتكر مشروعاً جديداً من أبدع ما يمكن. يتم بموجبه انسحاب الفرنسيين من جميع البلاد الناطقة بالعربية باستثناء لبنان. وبالمقابل يأخذون كردستان كلها مع أرمينيا اعتباراً من أدنه، إلى إيران إلى القفقاس. إلاّ أن الفرنسيين لم يوافقوا».

* * *

رغب البريطانيون في أن يسلّم زعماء العرب بحسن نية الحلفاء، وأن يضعوا فيهم ثقتهم. وعنصر المأساة هنا أن الحلفاء أنفسهم ما كان يثق أحدهم بالآخر بل يعمل على الكيد له. وكذلك كان الزعماء العرب أنفسهم لا يثق أحدهم بالآخر ويعمل على الكيد له. كيف يمكن بناء مستقبل سياسيّ على مثل هذه الثقة؟ فيصل الذي قطع علاقته بأبيه كان يعلم جيداً أن البريطانيين كانوا قبل سنين خلت قد فكروا من وراء ظهره وظهر القوميين العرب بتسوية سلميّة تقضي بتقسيم لا للإمبراطورية العثمانية بل لسورية فحسب، وبأنهم أي العرب سيتركون بمواجهة العثمانيين ليقعوا تحت رحمتهم. بل يغلب على الظن أن هؤلاء القوميين أو الانفصاليين أو دعاة الوطنية والاستقلال أو سمّهم ما شئت، كانوا يعلمون (بعضهم إنْ لم يكن كلهّم) بأن فرنسا وبريطانيا اتفقتا سراً قبل سنوات على تقسيم العالم الناطق بالعربية فيما بينهما عند أول بادرة حربٍ كبيرة. وأن لا تضيعا الفرصة كما ضيعتاها أثناء تدخلهما في إيقاف محمد علي عن زحفه المظفر نحو إستنبول في العام ١٨٣٢.

الثقة لم تكن الجوّ الذي عاش فيه الشريف وأولاده، والقوتلي وفارس الخوري والشهبندر والهاشمي والركابي وجعفر والأيوبي وعزيز علي والعظم وو فهؤلاء كانوا حتى إلى ١٩١٥ يفكرون في الانحياز إلى العثمانيين في أوقات مختلفة من أيام الحرب. والزعماء السوريّون وهم أبرز الناشطين في الحقل القومي لم يكونوا يحتفظون بأي ثقة للشريف. وكانوا كثيري التخوف من تمليك فيصل بل ما كان يهمّهم قلامة ظفر

---

(٦٣) «يوميات لورد إيمري ١٨٩٦-١٩١٩: Lord Amery Dairies» لندن ١٩٨٠ ص١١٤ المجلد الأول.

ما يحصل في الحجاز ولا مصير القوم في العراق. كان المصير السوري بلبنانه وربما بفلسطين إلى حَدّ ما - شغلهم الشاغل، الاستقلال السوري بعيداً عن النفوذ الشريفي في أفضل الأحوال وفي أسوئها استقلال يشوبه نفوذ فرنسي أو بريطاني قد يزيد قليلاً على الامتيازات التي منحت لهذين في بلادهم أيام الحكم العثماني.

هؤلاء قبلوا بفيصل على مضض، وما قبلوا به إلاّ لأن الجيش البريطاني فرضه عليهم فرضاً.

الفصل التاسع

انعكاس إعلان تطبيق الدستور العثماني في ميسوبوتاميا (العراق). التيار الديني المعارض. تظاهرات ضد الانقلاب في بغداد وغيرها. واقع حكم السلطان عبدالحميد الثاني. مجهودات النواب العراقيين في مجلس المبعوثان. الاتحاديون يفتحون مدارس. صدود البدو العرب عن عملية الإصلاح. نزول الحملة البريطانية والفتاوى الدينية للعمل على نبذ الأحقاد والاستجابة لنداء الجهاد. انسحاب سريع للقبائل والقوات غير النظامية من القتال. إنشاء قوات الليفي والتطوع العربي فيها. دخول الجنرال مود بغداد، إذاعته البيان الذي أعده (مارك سايكس). لجنة في لندن لإدارة بلاد الرافدين برئاسة اللورد كرزن. كوكس رئيساً للإدارة في بغداد. عنوان الحاكم المدني العام. أرنولد ولسن خلفاً لكوكس – التعاون مع (كرترود بل). استسلام الحكومة العثمانية. التوقيع على الهدنة. لويد جورج وسياسته. التخوف من التدخل الأمريكي. صفقة بين لويد جورج وكليمانصو والتنازل عن ولاية الموصل. موقف القوميين السوريين من التسويات السرية. حق تقرير المصير. اقتراح الاستفتاء. الضباط العراقيون في سورية لا يعملون على أسس قومية. اقتراح ضم ولاية الموصل إلى الكيان الجديد. معضلة القوميات والطوائف المعارضة العراقية لتولية أمير عربي. ليشمان الضابط السياسي لولاية الموصل. ثورة العام ١٩٢٠. سياسة تخفيض النفقات حجر الزاوية في السياسة البريطانية. مؤتمر القاهرة. عرش العراق يعرض على فيصل فيقبل به. الخلاف حول الإقليم الكردي. طالب النقيب. فرض فيصل. تبني اسم (العراق) للدولة الحديثة بدلاً من ميسوبوتاميا. رفض أمريكا العضوية في عصبة الأمم. ضم ولاية الموصل

تأخرت حركة الوعي القومي في ميسوبوتاميا عن سورية كثيراً. كما تأخر الوعي الوطني (المحلي) عن مصر فترة أطول زادت عن القرن الواحد.

في ما سمي اليوم العراق، لم يجد الفاتح ما أمكن تسميتهُ بالوطن وبالشعب،

فالولايات الثلاث كانت غارقة في خضم ملتطم الأمواج من المتناقضات الاجتماعية. كانت تعكس أرضية موزاييك لشعوب وبقايا أقوام ذات أصول أنثروبولوجية متميزة، منها ما كان مستقراً ومنها ما كان طارئاً دفعت به الهجرات المتعاقبة إلى القرون الحديثة ومنها ما جاء مع الغزاة المغول والتركمان والترك والفرس والعرب. وسلم من هذه الهُجنة الرائعة التي عزّ نظيرها في بلاد أخرى المسيحيون الذين عصمهم تمسكهم الجنونيّ بدينهم ورفضهم التخلي عنه رغم كلّ المغريات وسوء المعاملة وهم بقية من أغلبية مطلقة، وكذلك سلم الجزء الكردي إلى حدّ ما من الهجنة باعتصامهم بمعاقلهم الجبليّة وقسوة العيش فيها على الأغراب. وترسبت نعرات طائفية وعداوات ونزاعات دينيّة، زادها مرور الأيام ومداخلة الفاتحين فيها حيرة وشدّة. وكان ثم انتفاضات دموية وحروب داخلية مدمرّة لا هدف لها ولا تطلعات سياسية مستقبلية. وأظهرها تلك الغارات التي كان يشنّها عرب البادية المنتشرون بامتداد ضفة الفرات الوسطى والجنوبية ومصدرهم نجد والجزيرة - غارات لم تنقطع مطلقاً ضدّ أية سلطة حاكمة منذ الفتح المغولي.

وبلغت هذه الولايات العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وهي خالية من تلك القوى الفكرية بأيّ مستوى عامل على تثبيت مفاهيم سياسية مستقبليّة كتلك القوى التي اتبعها الأدباء والمثقفون السوريون والمصريون قبل أكثر من نصف قرن.

ولم تنشأ على تربة هذه الولايات تنظيمات وجمعيات ولم تقم دعوات كتلك التي نشأت في الأقطار الأخرى الناطقة بالعربية المشار إليها، فمثلاً إنك لا تجد (عراقياً) واحداً يشترك في أول تنظيم قومي سجله التاريخ للعالم الناطق بالعربية. وأقصد به تنظيماً كاد يكون مجهولاً عند المؤرخين العرب، أسسه في باريس طلاب ومثقفون شبان من لبنان وسورية وفلسطين في أوائل العام ١٩٠٥، وعرفه الغرب باسم (عصبة الوطن العربي Ligue de la patrie Arabe) عرّف نفسه لفترةٍ ببيانات ومنشورات دعت مما دعتْ، إلى: إقامة مملكتين عربيتين واحدة تضمّ رقعة الهلال الخصيب وأخرى من الحجاز حيث ستقوم خلافة بدلاً من خلافة سلطان آل عثمان[1] وهو خيالٌ يقف أمامه

---

(١) روسي E. ROSSI: «وثائق حول أصول وتطور القضية العربية Documenti sulle origine et gli Develuppi quertione Araba 1875-1944» روما. (وهو مرجع هام جداً لا يستغنى عنه في تتبع الموضوع الذي كتب من أجله).

المرء باحترام. إذ لم يكن لتلك الجمعيات السرية التي عقبته ذلك الأفق القومي الصحيح المنتهي بالاستقلال. حتى سياسة (الجون ترك) التي اتبعتها في هذه الولايات وأقصد بها سياسة التتريك والعثمنة، لم تدفع قادة الرأي هنا إلى ردّ فعلٍ معاكسٍ بتجريد سلاح القومية العربية، على الأقل دفاعاً عن مصالحها الاقتصادية. ففي بغداد كما في البصرة والموصل والنجف وكربلاء وكركوك والسليمانية، وجدنا العناصر الناشطة اجتماعياً من المتعلمين وغير المتعلمين قد انقسمت إلى فريقين: فريق يمالئ سياسة الاتحاديين ويدافع عنها وفريق يجد في سياسة هؤلاء الطارئين على الحكم خطراً داهماً على الخلافة وعلى الدين والأخلاق والتقاليد. وقد احتدم الصراع بينهما لفترةٍ انقضت بإعلان الحرب والغزو البريطاني.

في ٣٠ من تموز ١٩٠٨ أعلن الاتحاديون تطبيق الدستور على أثر انقلابهم الذي وصفته جرائدهم بأنه واحدٌ من أعظم الوقائع في تأريخ الإمبراطورية العثمانية وشعوبها. إلاّ أن الناس في العراق لم يفهموا منه إلاّ أنه أدى إلى خلع السلطان الذي كان مجرد اسمه يشيع الرهبة في النفوس. وفهمت الأغلبية المسلمة من شعار الاتحاديين المثلث (حريت، عدالت، مساوات) بأنه ساوى بينهم وبين غير المسلمين ووجدوا في ذلك ظلماً وحَيْفاً ما بعده ظلم وحيف، بل عدّوه إهانة لمن تعود منذ قرون عدة أن ينظر إلى النصارى واليهود واليزيدية وغيرهم نظرة تزيد قليلاً على نظرتهم إلى الخدم، تماماً مثلما وجد أجدادهم في (التنظيمات الخيرية) التي أعلنها السلطان محمود الثاني[٢] قبل سبعين عاماً ونيف. فقد ولّدت في حينه نفرةً وأحدثت أسوأ تأثير في النفسيّات.

كان هذا موقف السواد الأعظم الذي لم يكن يتفهم أفضال العدالة والحرية والمساواة إلاّ نفرٌ قليل منه بسبب صلة لهم بالعالم الخارجي أو تتبع علمي أو اتصالهم بجماعة الاتحاديين.

في الجوّ الصاخب الذي أحدثه الانقلاب كثرت في المدن العراقية كما كثرت في غيرها من مدن الإمبراطورية الاجتماعات وإلقاء الخطب. وكان من مقتضى الانقلاب

---

(٢) أو «خط گلخانة» صدر في ١٨٣٩ بعد قضاء السلطان محمود الثاني على الإنكشارية. وهو خطة إصلاح شامل لأجهزة الدولة يتناول مما يتناول تأسيس جيش عصري محترف، وإصلاح جذري في الشؤون القضائية ومن ضمنه إصدار قوانين عصرية ومحاكم مدنية على الطرز الأوروبية. وتنظيم مالي يعتمد على ميزانية للدولة سنوية. ويتضمن إعادة النظر في الضرائب وكيفية جبايتها إلخ...

إلغاء القيود على المطبوعات بصورة مطلقة ورفع كلّ رقابة على إصدار الصحف فلم يعد يُحتاج إلى إجازة لإصدارها. فكثرت في المدن الكبرى الثلاث، وبعضها كُتب له البقاء وبعضها احتجب إلاّ أن قراءها كانوا قلة لا تعد وانتشارها محدود في بلدان وولايات لا تجد فيها من يحسن القراءة والكتابة أكثر من ٥٪[٣].

في هذه الجرائد كتبت مقالات وأبحاث توضح المقصود من الأهداف التي توختها شعارات الاتحاديين. لكن الغالبية كانت تلاحظ بأن ما يقال غير ما يطبق ويجري. يقول أحد المؤرخين:

«كان العجب يساور السواد الأعظم من بقاء القيود على الحريّات كالسابق بل ازداد بالنسبة لمعارضي الاتحاديين. كما كان سوء التطبيق مشهوداً في كلّ أرجاء الإمبراطورية»[٤].

وفي الأوساط الدينية الإسلامية كانت هذه العبارة ومثيلاتها على كل شفة:

«إن كانت الشريعة الإسلامية حيّة فاعلة فأيّ فضل للدستور عليها وما هي الحاجة إليه؟».

التيار الديني المعارض كان يتطيّر من الحريّة المنشودة ويكرهها وبعض رجال الدين يجدها ضربة موجهة إلى الإسلام كعقيدة. ومقصدهم المخفيّ القول بأنه ضربة على سلطتهم الروحيّة. ولم يبقوا ساكتين واجترأوا على الحكومة في خطب الجمعة ثم انتهزوا في بغداد يوم ١٧ رمضان ١٩٠٨ وهو يوم مقتل الإمام عليّ بن أبي طالب. فأخرجوا تظاهرة كبيرة تصدّرها رجال دين وراح المشاركون فيها يضربون الصدور ويندبون موت الإسلام، وينادون بالويل والثبور للإهانة التي لحقت بالشريعة وانتشار الإلحاد والفجور.

كان الهدف الحقيقي منها معارضة الحكومة الجديدة.

وفي مدينة الموصل وقع عزل السلطان عبدالحميد خليفة رسول الله وقوع الصاعقة. وقد وصف أحد المقيمين الأجانب حالة المدينة بهذه العبارة:

---

(٣) مما صدر بالعربية في حينه: بغداد، الوميض، الإيقاظ، الزهور، المصباح، صدى الإسلام، البصرة، الهدف، الموصل، الروضة، مصباح الشرف، التهذيب. ومن المجلات: لغة العرب، تنوير الأفكار، المعلم، النور، الحياة وغيرها.

(٤) ويگرام Wigram: «مهد البشرية The Cradle of mankind: Life in Eastern Kurdistan» من ترجمتنا العربية، بغداد ١٩٧٠.

«هذه المدينة هي من أشدّ مدن الإمبراطورية العثمانية تعصباً، وهي بالتأكيد الأرض الوحيدة التي كان الرجال فيها يبكون في الشوارع عندما سمعوا بنبأ خلع الخليفة عبدالحميد الثاني ويندبونه بحرقة قلب، فبينما كانت البهجة تعمّ أرجاء الإمبراطورية بسقوط الطاغية، أقيمت في الموصل مناحات تتحدى حكومة الاتحاديين، كنت تسمع من خلالها هذه العبارة الرائية: (اليوم هوى ركن من أركان الإسلام)».

لم يكن عبدالحميد قط بأسوأ ممن خلعوه. لم يكن مثلما صوره لنا الإتحاديون وبعض الذين أصابتهم غائلته إصابة لا تزيد عن ركلةٍ خفيفة بالمقارنة بما اجترحه طغاة القرن العشرين ودكتاتوريوهم. وقد أجمع المؤرخون بأن وجوده كان سيجنّب الإمبراطورية العثمانية الحرب وويلاتها ومآسيها التي انتهت بتمزيق الإمبراطورية، لكن الناس يظاهرون الثائرين والانقلابيين أملاً بحال أفضل وهذا عنصر المأساة في كلّ ثورة وانقلاب في الشرق.

وكذلك استقبل الأدباء والشعراء العرب الانقلاب بالبهجة(٥) في أوّل الأمر وعدّوا

---

(٥) هزّ الانقلاب الشاعر المصري المعروف (حافظ إبراهيم ١٨٧٢-١٩٣٢) فنظم بالمناسبة قصيدة أشاد فيها بأبطال الانقلاب وهم ثلاثي (شوكت وأنور ونيازي) جاء فيها:

ثلاثة آساد يجانبها الردى ... وإن هي لاقاها الردى لا تجانبه
يصارعها صرفُ المنون فتلتقي ... مخالبُها فيه وتنبو مخالبه
روتْ قول (بشار) فثارت وانسمت وقامت إلى عبدالحميد تحاسبهُ
إذا الملك الجبار صعّر خده ... مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

وهذا البيت الأخير تضمين من الشاعر الكبير بشار بن برد (٧١٤-٧٨٤) لقصيدة شهيرة له يقول فيها:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صِلْ أخاك ... فإنه مقارف ذنباً مرة وتجانبه
إذا أنتَ لم تصبر مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

في حين نجد زميله ومعاصره أحمد شوقي (١٨٦٨-١٩٣٢) يودع الخليفة السلطان المخلوع بأسى ورثاء وحنين إلى عهده بقصيدة أذكر منها مطلعها هذا:

سل (يلدزاً) ذات القصور ... هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع إجابة ... لبّتكَ بالدمع الغزير
....
عبدالحميد حساب مثـ ... ـلك في يد الغفور

القائمين به أبطالاً ورموزاً للحرية واستبشروا بما حدث، ثم ما لبثوا أن انكفأوا على أعقابهم خائبين فيما أملوا وعادوا ينظرون إلى نوع من إصلاح من عمل أنفسهم وعلى نطاق مجتمعهم الخاص، أي في النطاق الوطني أو القومي أو سمّه ما شئت.

ونشط الاتحاديون في مقاومة التيارين (الرجعي) الذي تمثلوه في رجال الدين وتيار أولئك الذين خاب ظنهم فيهم واستغلوا حرية التعبير للإعراب عن خيبتهم. وكان يقف في طليعة هؤلاء الصحافيون والأدباء الجدد وطلاب كلية الحقوق والطلاب المتخرجون في كليات استنبول[٦].

= سدت الثلاثين الطوال ولسن بالحكم القصير
دخلوا السرير عليك يحتكمون في رب السرير
أنعم بهم من آسريك وبالخليفة من أسير

فما كان من وليّ الدين يَكَن (١٨٧٣-١٩٢١) إلاّ أن يتصدى له بقصيدة معارضة وهو أديب تركي الأصل مستعرب وشاعر من الفحول وأول من عالج القصّة الطويلة وكتابة المذكرات الشخصية في الأدب العربي. شخصية رائعة مرهفة الحسّ تعشق الديمقراطية الغربية والحرية والدستور وتعرض لسخط (عبدالحميد) وملاحقة بوليسه في مصر، وتحدى الطبقة الأرستقراطية العليا التي انحدر منها بزواجه من أرمينية وتسمية ابنته باسم أوروبي (فكتوريا)! تحدّيا وتمرداً على وسطه الديني. ونشر المقالات التاريخية في شجب الاستبداد والطغاة. وأنا أذكر من القصيدة نصف مطلعها قوله يخاطب (شوقي):

وبكيت بالدمع الغزير لباعث الدمع الغزير
ولواهب المال الكثير وناهب المال الكثير
إن كان قد أخنى على ربّ الخورنق والسدير
فلتأهلن من بعدها آلاف آلاف القصور

كان غاية ما تعرض له هذا الأديب حسب ما جاء في مذكراته المطبوعة (المعلوم والمجهول) أن كبس البوليس منزله ثم صدر الأمر بإبعاده إلى إستنبول حيث أسندت إليه وظيفة هامة في وزارة المعارف، لكنه لم يكفّ ولم تهدأ له ثائرة. فعاد عبدالحميد لإصدار أمر بإبعاده إلى (سيواس) بوظيفة أخرى مماثلة! ومن الطبيعي أن يبدو وكأن لا سبيل إلاّ إلى المقارنة بما كان سيحصل له أو لغيره من الأدباء والكتاب في البلاد الناطقة بالعربية يتعرض بالنقد لواحدٍ من كثرةٍ من الطغاة والمستبدين الصغار والقوميين التقدميين منهم بصورة خاصة الذين تعاقبوا على حكم دول في العالم العربي.

(٦) عندما قررت وزارة المعارف العثمانية تدريس اللغة العربية في مدارس الولايات بعد ثلاث سنوات تقريباً من فشل اقتراح النواب العراقيين بتعيين موظفين فيها يحسنون اللغة، عينت لتدريسها معلمين أتراك! وفي العام ١٩١٣ أبلغ والي بغداد جميع الألوية والأقضية التابعة للولاية بأن يكون التدريس في المعاهد العالية ودار المعلمين ومدرسة الحقوق والإعداديات باللغة =

وفي مجلس النواب الذي دعي إلى الانعقاد في الأستانة تقدم النواب العراقيون باقتراح تعيين موظفين في البلدان الناطقة بالعربية ممن يحسن لغة العرب وأحبط الاقتراح بطبيعة الحال، لأنه لا يتفق وسياسة التتريك. وأدرك هؤلاء وغيرهم إلاّ قلة شايعت الاتحاديين بأن دعاة الحرية الترك لا يقصدون غير حريتهم وأنها لا تشمل الشعوب الناطقة بالعربية.

والأنكى من كلّ هذا فإن هذه اللغة المحليّة بقيت تُدرس كالأولى كلغة أجنبية بمعلم تركي وباللغة التركية حتى في تلك المدارس الجديدة التي فتحها الاتحاديون في بغداد والبصرة والموصل على سبيل الدعاية والإعلان. لكن كان ثم مدارس الحوزات الدينية في المدن الشيعية وما تحويه من مكتبات غنية بالتراث الأدبي والعلمي العربي ومدارس البعثات الدينية المسيحية واليهودية في هذه المدن، وبفضلها جلبت المطابع العربية الحديثة إلى جانب ما كان يتسرّب من سورية ومصر من الصحف والكتب والدواوين وهو قليلٌ لا يحظى في الواقع بموضع حسن في مجتمع تجد غالبيته فيه ما يعارض الفكر الديني. لولا هذه العوامل لما استقبل عهد الاحتلال وما بعده أدباء وشعراء وصحافيين من أمثال الرصافي والزهاوي والشبيبي والأزري والهنداوي وأنستاس الكرملي واحمد صالح شكر وعبداللطيف ثينان وإبراهيم حلمي العمري والشاوي والعزّاوي وغيرهم.

وعلى العموم ظلت النظرة الرسميّة والحضرية والأجنبية إلى البدو العرب في الجنوب والغرب والشمال الغربي من البلاد مثلما كانت منذ الفتح العثماني وما قبله: مجموعة لا يؤمن جانبها تحترف قطع الطريق على الحجاج والقوافل وتغير على الحواضر ما تيسّر لها لتسلب ما أمكن سلبه. امتزج عدد كبير من القبائل بمرور الزمن

= العربية باستثناء بعض الدروس. ومما يذكر أن مدرسة الحقوق في بغداد تأسست في مطلع العام ١٩٠٨ واتخذت لطلابها القلائل غرفة دراسة في بناية المحاكم القديمة الكائنة في النهاية النهرية لشارع المتنبي. يذكر الأستاذ عباس العزاوي: «العراق بين احتلالين» ج٨، أن وزارة المعارف العثمانية عينت بعد إعلان العمل بالدستور (١٩٠٨) مديراً للمعارف في بغداد تركي يدعى (حسن رفيق بگ) وهو رجل أميّ جاهل وصفه الشاعر معروف الرصافي بهذه الأبيات:

مـعـارف بـغـداد قـد جـاءهـا	مديـرٌ مـن الـطـيـش فـي مـسـرحِ
حـمـار ولـكـنّـه نـاطـق	صـبـيّ ولـكـنـه مـلـتـحِ
فـيـا أيـهـا الـعِـلـم عـنـهـا ارتـحـل	ويـا أيـهـا الـجـهـل فـيـهـا انـسـلحِ

بقايا السكان الأصليين واحترفوا الفلاحة واستقروا وبقوا جهلة أميين يعيشون كما عاش أجدادهم قبل أربعة عشر قرناً لا تعبأ بمصائرهم الإدارة العثمانية وتجرد حملات تأديبية عليهم كلما اعتصبوا وأبوا دفع الضرائب وفي هذا المجال كان يصيبهم الكثير من قسوة الولاة ووكلائهم وقادة حملاتهم. وكلّ ذلك كان يهون عليهم إلاّ ملاحقة دوائر التجنيد لتطويع أبنائهم في الجيش العثماني المستحدث منذ وضع (خط گلخانه) موضع تطبيق[7] وغالبيتهم من الشيعة بعلمائهم وزعمائهم الروحيين توارثوا الكره الشديد

---

(٧) يقضي قانون الجندية الجديد الصادر في ١٩٠٩ والذي ألغى القانون القديم - على كل عثماني مسلماً كان أو غير مسلم أن يخدم في الجيش عند بلوغه الحادية والعشرين مدة ٣ سنوات خدمةً فعلية، وخمس سنوات احتياط، و٢٥ سنة رديفة (أي الاستجابة للدعوة عند الحاجة)! والخدمة في البحرية هي أيضاً كذلك باستثناء السنوات الخمس الأخيرة. في حين كان القانون القديم يقصر الخدمة الفعلية على خمس سنوات تعقبها سبع أخرى رديفة. لم يكن ثم فرق بين الاثنين في التطبيق العملي فالمجند لا يسرح مطلقاً ويبقى في الخدمة رديفاً حتى يبلغ سن الشيخوخة ويشيب ويبيض شعر رأسه ولحيته أو يخر صريعاً في واحدة من ميادين القتال الكثيرة بعيداً عن مسقط رأسه، وأهل الميت لا يبلغون عادة بوفاته، ولذلك تراهم حين يقع ابن لهم في مصيدة الجندية يعدونه ميتاً حال ارتدائه البزة وكثيراً ما أقيمت مجالس عزاء ومناحات صغيرة عند وداعه. وضاعف القانون الجديد البدل العسكري وهو بالأصل مبلغ كبير جداً للأغلبية الكادحة لا يقوى على دفعه إلاّ ذوو اليسار، ولهذا يلجأ المجندون إلى مختلف الحيل للتهرب إذ كان سبيل الهرب مسدوداً لاسيما بوجه سكان المدن والقصبات، فهؤلاء ولكثير من سكان الريف كان الأسلوب المفضل - وهو الأسلوب الذي جنى على أنسالهم فيما بعد - أن يراجعوا أقرب قنصلية إيرانية ليحصلوا لقاء رشوةٍ بسيطة على وثيقة تشهد لهم بأنهم إيرانيون. فبعد حوالي قرن من الزمن زوّدت هذه العملية سلطات البعث الحاكمة بحجة رغم سخفها وجورها لترحيل عشرات الألوف من العراقيين العرب والكرد خلال سنوات (١٩٧١-١٩٨٤) إلى إيران باعتبارهم من أصول إيرانية لا حق لهم بالجنسية العراقية وفق قانون الجنسية العراقي الصادر في ١٩٢٤ والآخر الجديد الذي نحا نحوه وقد وصف العراقي بالذي انحدر من أب وأم عثمانيين فحسب.
في ١٨٧٠ أسست في بغداد الأعدادية (الثانوية) العسكريّة وكان المتخرجون فيها بعد دراسة وتدريب أمده ٣ سنوات، يرسلون إلى المدرسة الحربية في الأستانة ليكونوا ضباطاً. وكان الإقبال عليها قليلاً. فالطبقة العليا في المجتمع العراقي لم تكن تجد لأبنائها فيها حظاً للترقي ولذلك كان أصل الضباط العراقيين المحترفين الذين تخرجوا من طبقة كادحة أو دون المتوسط عامة أو من أسرة امتهنت الجندية أجيالاً. ويذكر كدليلٍ على قلة الإقبال أنه تخرج في هذه الأعدادية ١٣ طالباً فقط في العام ١٨٨١، ولم يزد هذا العدد إلاّ واحداً بعد مرور عشر سنوات (في ١٨٩٠) ومن تخرج أول دفعة أرسل إلى الأستانة. إن المؤلف ما يزال يذكر القصة المروعة التي رواها له الوالد عن كيفية تخلصه من الخدمة وقت الحرب بحيلة كادت تكلفه حياته. =

للحكومة السنية الباطشة الناهبة، وهم من جهة أخرى ما زالوا تحت تأثير ذلك الصراع العقائدي الذي هيمن على حياة مجتهديهم وعلمائهم في العراق وإيران طوال القرن التاسع. وأقصُد به النزاع بين من عرف بالأصوليين ومن عرف بالإخباريين(*) وقد ظهر مجدداً بوجهه السياسي بإعلان المشروطية في كلّ من إيران في (١٩٠٧) وفي البلاد العثمانية في (١٩٠٨). على أية حال لم يبدل الانقلاب العثماني من مواقفهم ولم يحملهم على إعادة النظر فيها أزاء الحكم: المقاطعة الصامتة لكل ما هو حكومي بقدر الإمكان والامتثال الحاقد المتمرد عند وجود القوة الكافية لحملهم عليه. إلاّ أن الحال طرأ عليه تبدل جوهري عند نزول الحملة البريطانية على شواطئ ولاية البصرة. فهؤلاء الغزاة الجدد هم كفرة، والعثمانيون هم مسلمون على أية حالٍ. كان من الطبيعي والحالة هذه أن تدفن الخلافات التاريخية - العقائدية ولو بصورة مؤقتة. وبقوة من فتاوى المجتهدين والعلماء أمكن تجريد ألوف عديدة من رجال العشائر رأيناهم مع الفرسان الكرد القادمين من السليمانية وشهروزر يشاركون الجنود النظاميين في أوّل وآخر معركة لهم. وهي معركة الشعيبة سيئة الصيت التي ابتدأت في ١٢ نيسان ١٩١٥ وانتهت بهزيمةٍ كاملة للقوات النظامية - العشائرية العثمانية وانتحار قائدها.

بعد أن ذاقت العشائر طعم الخسائر التي أوقعتها بهم أسلحة حديثة مدمرة لا عهد لهم بمثلها، لم تعاود الكرّة وتركت الخصمين يصطرعان ووقفت موقف المتفرج المنتظر ما سيسفر عنه الصراع.

وكتمت الأقلية المسيحية واليهودية مشاعرها المغرقة في الخيال حول المعاملة الممتازة التي ستحظى بها من الفاتح الجديد. وكيف لا؟ فهذه البعثات التبشيرية والدينية الأوروپية سهلت لأبنائهم سبل التعليم ولقنتهم لغات أجنبية إلى جانب علوم أخرى وبيوتهم التجارية اعتمدت على أبنائهم في معاملاتهم، ثم ألم تتدخل القوى الأوروپية عسكرياً ودبلوماسياً من أجلهم في خلال القرون الثلاثة المنصرمة؟ أليس هذا دليلاً على اهتمام أوروپا المسيحية بمصائرهم في دولة متعددة القوميات والطوائف. إن القادمين الجدد هم بالتأكيد ليسوا كالفاتحين السابقين المسلمين الذين لم يترددوا في ذبح بعضهم بعضاً وإن كانوا لهم إخوة في الدين.

= ويذكر كذلك ابن عمّ له ضابطاً برتبة نقيب (يوزباشي) خرّ صريعاً في ميدان قتال سورية (على الأغلب) ولم يعلم الأهل بفقده إلاّ بعد سنين.

(*) أنظر ذيل (١) في آخر هذا الفصل.

إن السأم من القتال الذي أقبلت عليه العشائر في مبدأ الحرب ثم بعدها عن المشاركة فيه، مالبث أن انقلب إلى نوع من التعاون والتقارب مع الفاتح الجديد إثر الانتصارات السريعة المتلاحقة وانهيار المقاومة التركية. بل وأكثر من هذا فقد تبينت العشائر والريف وسكان الجنوب الفرق العظيم في التعامل مع السيد الجديد الذي كان يفرّق المال بسخاء بدل جباية الضرائب. ويبتاع أرزاقه ومؤنه دون مساومة نقداً بدل مصادرتها والاستيلاء عليها عنوةً. لذلك لم يتردد رجال العشائر كثيراً في الإقبال على التطوع في التشكيلات شبه العسكرية التي أقامها المحتل حال احتلاله (الناصرية) وفيما بعد، وقد عرفت باسم (الشبّانة) وكانت نواة قوات (الليفي) التي اقتصرت على الآشوريين والكرد فيما بعد.

* * *

سبع سنوات تصرّمت على وعد الاتحاديين بالحرية والمساواة وتحسين الأوضاع دون أن يتبدل شيء هنا. وإنما زادت الأحوال سوءاً. وظهر جلياً فشل الـ(جون ترك) التام في مجهوداتهم الرامية إلى إعادة تجديد حياة البلاد. كانت العوائق صعبة الاقتحام. والحكام الجدد فضلاً عن تعصبهم القومي يفتقرون إلى الخبرة والتجربة في سياسة تطويع هذا الخليط المجنون من المصالح والمعاملات الذي اصطلح عليه باسم (الحكومة العثمانية). والمصيبة هي أن حياة هذا الخليط المجنون وجب أن تبقى وتستمر والوحيدون القادرون على هذا هم عصابات من الموظفين الفاسدين العفنين الذين كان طردهم وتنظيف دوائر الدولة منهم أول مهمّة لأيّ حكومة صالحة. لكن كان يوجد في العراق أيضاً صنف من البشر، غير أولئك الذين تعودوا الطاعة العمياء والرضا دون سخط بكل صنف من الظلم واعتباره من قبيل القضاء المحتوم والقدر - هؤلاء هم أقليّة ضئيلة لكنها جهيرة الصوت لا يمكن إسكاتها. إنهم صنف من البشر لا يسعهم العمل مع الحكومة أو مع بعضهم بعضاً. ومن هؤلاء خرج المعارضون السياسيّون لها وللفاتح الجديد ولكيانه السياسي الجديد فيما بعد.

كان يوجد أيضاً علماء الشيعة ووراءهم كل من يستطيعون التأثير عليه من المسلمين وقد شدّهم تعصبهم لمذهبهم برباط البغض ذي الحدين: بغض الحكومة، وبغض السنيّة. وهناك أيضاً زعماء الطوائف المسيحية الذين يفسرون مصطلح (ملّة)[8] الغامض

---

(٨) تجد شرح المقصود بهذا التعبير في الكتاب الثاني.

تفسيراً يبتعث الألم الشديد ويضجون بطلب الإصلاح حيثما وجدوا لهم متنفساً أو سامعاً. وهناك عددٌ من الناس لا يمكن تقديره، يفضلون بقاء المياه عكرة موحلة لأنهم خير من يصطاد فيها.

أخيراً هناك من أعضاء وزعماء الـ(جون ترك) من هم في أفضل الحالات أتراك نظريون يطمحون إلى عثمنة كلّ شخص بصرف النظر عن دينه ومذهبه وقوميته غير مدركين كيف ظلّ هذان العنصران التوأمان - الدين والقومية - يسيران كتفاً لكتفٍ في هذه الأرض التي يحكمونها؟

وبصورة عامة بقي الجمهور العراقي بدويّهُ وحضريّه يتفرجون على صراع القوتين الأجنبيتين وقد فقدوا كل حماسة للمشاركة بل لم تحركهم النكسة العظيمة التي حلت بالبريطانيين في الكوت ولا شاركوا في الاحتفال بدخول الجيش الظافر بغداد دار الخلافة.

أرسلت هزيمة الكوت في جسم الحكومة البريطانية والرأي العام الإنگليزي تياراً كهربائياً صاعقاً وألجأها إلى عمليّة تطهير واسعة النطاق في بناء الحملة تناولت مما تناولت أعلى مقام فيها، فسلمت القيادة لأمير اللواء (ستانلي مود) بأمر صادر من وزير الهند الجديد، ونائب جديد للملك في الهند.

ودخل الجنرال مود بغداد بعد قتال حذر طبقت فيه الأصول الحربية المدرسية من دون مغامرة أو مجازفة. كان ذلك في آذار أي قبل دخول البريطانيين (أورشليم القدس ودمشق).

ومع أنه لم يكن واضحاً قطّ الهدف من الحملة على بغداد، وما هو الغرض الذي تتوخاه منها الستراتيجية العامة للحرب، فإن احتلال العاصمة العتيقة المؤثلة باقترانها بقصص ألف ليلة وليلة، وعصر (الرشيد) الذي بولغ كثيراً في وصفه، استهوى خيال (لويد جورج) كما نال ما يستحقه من هتاف وتصفيق في مجلس العموم، وهو ما كان في أمسّ الحاجة إليه وقتذاك. فأوحى إليه كما جاء في مذكراته بفكرة الإلحاح على الجنرال (أللنبي) ليستعجل في احتلال (أورشليم) بتحقيق نصر بريطاني ثانٍ مماثل[٩].

---

(٩) تاريخياً كانت بغداد (مع أورشليم وروما) واحدة من ثلاث مدن كبيرة مقراً لكرسي الحاخام الأكبر (الكاوون) في بلاد المنفى (دياسپورا) قبل ألف وخمسمائة عام وكذلك كانت كرسياً لبطريرك كنيسة الشرق النسطورية التي تضم كل مسيحيي الشرق غير التابعين لكنيسة روما والپاپا. قبل تحول فريق منهم إلى الكثلكة.

النصر العسكري في بلاد الرافدين أثار مسألة دقيقة.

ماذا سيكون من أمر هذه الأقاليم المحتلة؟

كانت حكومةُ الهند تنوي إلحاق ولايتي بغداد والبصرة بإدارتها المباشرة عندما يتمّ سلخهما عن جسم الإمبراطورية. أما (سايكس) ومن ورائه المكتب العربي، فقد مالا إلى أن تدار بما يعتبرونه هم أنفسهم شيئاً مكروهاً. إذ كتب (سايكس) مذكرة في ١٩١٦ أنذر فيها لندن بقوله:

«إن أنيط العمل بالهند فسيؤدي هذا بكم إلى أن تنظروا إلى كلّ التراث القديم على قاعدة الأبيض والأسود. ليس في إمكانكم أن تسوموا العرب على قاعدة الأبيض والأسود».

وقام (سر پرسي كوكس) رئيس الدائرة السياسية الملحقة بالحملة وكبير الضباط السياسيين، بصياغة بيان للأهلين، حدّد قائمة فيه ضمن إطار الدعوة إلى التعاون مع الإدارة البريطانية - الهندية المؤقتة. وطلب الإذن من لندن بإذاعته. إلاّ أن لندن لم توافق عليه وكتبت مسوّدات عديدة هناك، وبعد نقاش مستفيض وأخذ وردّ رست وزارة الحرب على النصّ الذي صاغه (سايكس) أساساً لصياغة أخيرة تم الاتفاق عليها فيما بعد وهو البيان الذي تلاه (ستانلي مود) إثر دخوله بغداد[١٠].

دعا البيان «الزعماء العرب» (لم يكن واضحاً من هم المدعوون بالذات) إلى المشاركة في الحكومة بالتعاون مع السلطات البريطانية. وتضمّن عباراتٍ طنانة منمقةً حول الحرية والانعتاق. مستذكراً المجد الغابر والرقي والعظمة التي ستبلغها البلاد في المستقبل، كما عبّر عن الأمل في أن تجد «الأمة العربية» سبيلها إلى الوحدة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، مشيراً ولو ببعض غموض إلى كونفدرالية عربيّة شرق أوسطية تحت زعامة الملك حسين!

وما أدري إنْ كان (سايكس) يدري بأن معظم سكان ولايتي بغداد والبصرة هم شيعة؟ لم يقرأه (الجنرال مود) إلاّ بعد اعتراضه عليه. فقد رأى، بوصفه عسكرياً، من الضروري أن تقام إدارة بريطانية صرفة لضمان سيادة الأمن أثناء القتال الذي كان يدور شمال بغداد وفي كردستان. كما رأى، فضلاً عن هذا، أن عرض قدر من الحكم

---

(١٠) بريتون كوپر بوش Briton Cooper Busch: «بريطانيا والهند والعرب Britain, India and the Arabs» ١٩١٤-١٩٢١ مطبعة جامعة كاليفورنيا، ص١٢١.

المحليّ لعرب بغداد لم يضع في الحساب واقعاً لا سبيل إلى إنكاره - وهو أن الأغلبية الساحقة من سكان بغداد ليسوا عرباً ولا يمتون إلى أصول عربيّة وإنما هم خليط مترسب من قوميات مختلفة. لكن نصّ (سايكس) فُرض على الجنرال مود وسر پرسي كوكس فرضاً ليسبب فيما بعد كثيراً من المشاكل والمتاعب والاضطراب. إنه ذلك البيان الذي ابتدأ بالقول «جئناكم محررين لا فاتحين» وهو معروف ولا حاجة بنا لإثباته هنا.

بعد خمسة أيام من احتلال بغداد، شكلت وزارة الحرب لجنة لإدارة بلاد الرافدين برئاسة اللورد (كرزن)، وكان من مهمّاتها تقرير شكل الحكم الذي سيقام في الأرض المفتوحة. مبدئياً قررت اللجنة أن توضع ولاية البصرة تحت إدارة بريطانية صرفة لا إدارة هندية - بريطانية. وأن تكون ولاية بغداد وحدة سياسية عربيّة بحد ذاتها أو أن تلحق بأي وحدة أخرى وتوضع تحت الحماية البريطانية. كما قررت وجوب سحب الموظفين التابعين لحكومة الهند منها.

فأبرق (الجنرال مود) لرؤسائه:

«الأوضاع المحلية الراهنة لا تسمح باستخدام أحدٍ في مناصب ذات مسؤولية غير الضباط البريطانيين الكفوئين القادرين على التعامل مع السلطة العسكرية ومع الأهلين. وقبل أن يباشر في تطبيق عملية إنشاء واجهة إدارية عربية صميمة في البلاد، يبدو لي من الضروري أن يُبنى أساسٌ للنظام والقانون بشكل حقيقي وصحيح»[(١١)].

وأثار (سر پرسي كوكس) هذه المسألة بالذات بشكل آخر عندما سئل عمن سيكون زعيم عرب بغداد، فاقترح تعيين ضباط سياسيين يجمعون الصفتين - العسكرية والمدنية، مسخفاً السؤال بإهمال الجواب عنه.

من الواضح أنه كان يرى: إمّا أن لندن لم تحرز القدر الكافي من المعلومات عن حقيقة الوضع السكاني. أو أنها لا تولي أي اهتمام بهذا الخليط الأهلي العجيب في الولايات الثلاث - ولا تقيم وزناً لتلك الكراهية المتوارثة بين الأقلية السنية والأكثرية الشيعية ولا بتلك المنافسة المسعورة القبائلية وتقاليدها في الخروج عن طاعة كل الحكومات ورفض الانصياع لأوامرها. ولا بالتقسيم التاريخي - الجغرافي - الإثني،

---

(١١) المرجع السالف: الص١٢٢-١٢٥.

بين الناطقين بالعربية وبين كُرد الجبال والمرتفعات في ولاية الموصل، ولا بالسيادة المالية والتجارية التي يمارسها اليهود والمسيحيون، وهي سيادة مقرّ بها تعود إلى عدة قرون مضت.

وأثار (كوكس) أيضاً مسائل أخرى ذات صبغة عمليّة آنية لم تفكر فيها حكومته. فالعمّال الهنود غير المقاتلين الذين رافقوا الحملة واستخدموا في أعمال مدنيّة صرفة أثناء الحرب، إن سُحبوا فمن هم أولئك الذين سيحلون محلهم؟ ثمّ إن النظام القضائي كان مرجعه الأعلى محكمة التمييز (المحكمة العليا) في الأستانة في حين أن النظام القضائي الهندي يمنح صلاحية مماثلة للجنرال مود. فماذا سيكون من أمر القضاء وصلاحيات (الجنرال مود) نفسه إن قطعت الصلة بالهند؟

وقفت لجنة اللورد كرزن حائرة أمام هذه المسائل ولم يكن لديها حلول شافية، والحرب ما زالت قائمة والجيوش البريطانية تطارد الأتراك شمال بغداد. وإزاء هذا اضطرت اللجنة إلى الأخذ برأي (كوكس) وقبول العمل بالإدارة الهندية.

وهذا الجنرال (مود) الذي وضعه بيان (سايكس) فوق منبر خطيب يوم الجمعة، يعد بالحياة الأخرى السعيدة وبالعزة والكرامة في ظل حكم وطني أو محليّ، مالبث القرار الأخير أن جعل من خطبته هذه رماداً تذروه الرياح. ووجب عليه أن يستقر على خطة ثابتة خشية أن تؤدي هذه الترقيعات إلى اضطراب ثم نفرةٍ بعد أن تطوّع لقول ما بدا شبيهاً بوعد في استقلال منطقة لم يدر في خلد أهلها أن يطلبوه، وفي الوقت الذي شرعت السلطات العسكرية والمدنية المحتلة تعمل بخلافه وتعدل عن البرّ به!

هاتان الولايتان أوّل أقليمين عثمانيين يحتلهما البريطانيون أثناء الحرب وها هو (الوايت هول) يبدي عجزاً في التفكير بتفاصيل عمليّة لتحقيق وعدٍ أعطي جزافاً وبسخاء لجزءٍ من مواطني تلك الإمبراطورية. كان موقفاً منذراً بسوء العاقبة بالنسبة أيضاً لتلك البلاد التي سيتم احتلالها وهي ولاية الموصل وولايات حلب ودمشق وبيروت وغيرها.

تبنى (سايكس) ورهطه سياسات أوسطية دون اعتبار مسبّق لإمكان تطبيقها بنجاح على ضوء الوضع السائد. ترى كم أثّر هذا على تاريخ البلاد الناطقة بالعربية السياسي أو على الإرهاصات القومية والحركات المنبثقة عنها؟ هذا ما سيكون مدار اهتمامي في الفصول التالية.

والعقدة الآنية التي ما لبثت أن انكشفت هي أن الضباط السياسيين لم يكونوا قادرين على تطبيق عملية (الواجهة الحاكمة المحليّة) ولو ملكوا المقدرة بتوفير

الموظفين المسؤولين من المواطنين، فسيبقى السؤال هل أنهم سيسمحون بتطبيقها؟ من غير جواب.

وهكذا لم تتقدم سياسة الوعد بالتحرر القومي خطوةً واحدة وبقيت ضمن الحدود القوليّة، وكثيراً ما عبّر (كوكس) عن اشمئزازه من الحالة. ولم ينقذه إلاّ اضطرار لندن إلى تعيينه وزيراً مفوضاً لإيران بصورة موقتة واستنابة العقيد (أرنولد ويلسن) خلفاً و(ويلسن) ضابط من المرتبات الهندية يفكر بالعقلية البريطانية الإمبراطورية السيّدة، لم يكن يؤمن باستقلالٍ للبلاد التي يدير أمرها، ولا بدور (الشريف) البعيد عن شؤون العراق. وكان (كوكس) قد خلّف له سكرتيرته الشرقية الشهيرة (مس گرترود بل).

كتبت هذه الخبيرة الخطيرة لصديق قديم لها هو (چارلس هارونگ) نائب السكرتير الدائم لوزارة الخارجية ضمن رسالة في شباط:

«تمّ تحقيق قفزات عجيبة نحو إقامة حكومة منتظمة. ليس عندنا عائق مهم وكلّ ما زادت قدرتنا على تحكيم قبضتنا زاد ذلك من رضى الأهلين وسرورهم، فما يخشونه هو أنصاف الحلول. وليس في بغداد أو في البصرة من يفكر في حكومة عربية مستقلة»(١٢).

ذلك صدى ناشز بعيد التصريح الذي كتبه (سايكس) وتلاه (مود). والمسكين (سايكس) الطيب الحسن النية كان في الوقت نفسه يرى بعين كسيرة وألم دفين تحول السياسة البريطانية عن موقفها إزاء (الشريف) الذي تمسك به وبقي على ولائه له. وكان موقف أمير مكة الذي أعلن نفسه ملكاً للحجاز يتردّى عسكرياً أمام خصمه (ابن سعود) الذي كان يحظى بدعم حكومة الهند الكامل. وجد (سايكس) لدهشته البالغة عند زيارته الحجاز في ربيع ١٩١٧ (الملك الشريف) وخلافاً لما اعتاده منه كثير التنازل مستعداً للتفاهم والرضا بالتعاون مع بريطانيا في بلاد الرافدين، بل حتى مع الفرنسيين في سورية. وأضاف إلى هذا شرطاً:

«لكننا نطلب من بريطانيا العظمى أن تساعدنا!»(١٣).

* * *

---

(١٢) ونستن Winston: «كرترود بل Gertrude Bell» لندن ١٩٧٨، ص٢٠٢ وأيضاً (بريتون بونش) المرجع السالف ص١٢٦.

(١٣) أوراق سايكس: (المرجع السالف). D. R. 588-52.

في الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين من صباح الأحد الموافق لـ ٢٧ من تشرين الأول استسلمت الحكومة العثمانية وصعد الوفد التركي برئاسة (رؤوف بگ) وزير البحرية درج البارجة الحربية (آغا ممنون) الراسية في ميناء مودروس في جزيرة لمنوس اليونانية ببحر إيجه. فقدم له الأميرال (كالثورب) شروط الهدنة ببنودها الأربعة والعشرين. لم يكن ثم بدّ من قبولها، ووقعت في اليوم عينه.

لم تكن هدنةً في الواقع بل استسلاماً مطلقاً يسمح للحلفاء باحتلال النقاط الستراتيجية في الإمبراطورية وقتما تشعر القوات الحليفة بتهديد، أعطى حرية احتلال أية بقعة يريدونها. بقوة هذا الشرط تمّ احتلال كلّ ولاية الموصل التي لم تكن عاصمتها قد وقعت بأيدي البريطانيين عند التوقيع على شروط الهدنة.

ادّعى (رؤوف بگ) وأعضاء وفده عند عودتهم إلى إستنبول بأن شروط الهدنة هي أخف بكثير مما كان متوقعاً. وبتفسير من هذا، أو بالأحرى بكذبتهم الكبيرة، زرعوا بذور الخيبة والنقمة بكل الآثار التي نجمت فيما بعد[١٤].

إن واحداً من الأسباب التي حدت (بلويد جورج) إلى العمل السريع بالنسبة إلى الأقاليم التركية المستولى عليها، ومن ثم تسوية كلّ قضاياها هو خشيته من دخول الولايات المتحدة الميدان. هناك فقرة في يوميات (موريس هانكي) سكرتير مجلس الحرب الوزاري الأعلى مؤرخة في ٦ من تشرين الأوّل تثبت قولاً يدور حول ما كان رئيس الوزراء يفكر فيه أثناء تلك الفترة وهو قول فيه من الصراحة ما هو خارق للعادة:

«اتخذ (لويد جورج) موقفاً في غاية الصلابة، واعتزم العودة إلى اتفاق (سايكس بيكو سازانوف) ليأخذ لنا فلسطين ويضمّ ولاية الموصل إلى منطقتنا، بل مضى حتى إلى إبعاد فرنسا عن سورية، بأن يحتال على الولايات المتحدة بتقديم سورية وفلسطين لها وبذلك يجعل الفرنسيين أكثر استعداداً لمنحنا الموصل وفلسطين وليكون لهم عذرهم في احتفاظهم بسورية. . . كذلك كان كثير الاستخفاف بالرئيس (ويلسون)، كثير الاهتمام بقضية تجزئة تركيا خصيصاً بين فرنسا وإيطاليا قبل التحدث إلى الولايات المتحدة. وكان

(١٤) في الثاني من تشرين الأول هرب ثلاثي الحكم (طلعت وأنور وجمال) إلى ألمانيا مع الخبراء والعسكريين الألمان. وطلب الرئيس التركي الجديد تسليمهم إلاّ أن ألمانيا كانت قد عمتها الفوضى واختفى الهاربون.

يفكر كذلك بأن ازدياد حصتنا من تركيا حالياً، وحيازة سهمنا من المستعمرات الألمانية فيما بعد سيكون أقلّ مدعاة للتساؤل وملاحظة أرباحنا الهائلة من الحرب»[١٥].

بعد شهر واحدٍ من إعلان الهدنة مع ألمانيا وقبل شهرين من انعقاد مؤتمر (ڤرساي) عقد في ١ من كانون الأول ١٩١٨ اجتماع بين (كليمانصو) و(لويد جورج) في مقرّه بـ(داونِنگ ستريت). كان ذلك استباقاً لوصول الرئيس الأمريكي لندن في أواخر ذلك الشهر لبسط آرائه المثالية حول المستقبل.

جلسا وحدهما دون ثالث، ولم يدوّن أيّ منهما ملاحظات. لكن وبعد مرور ثمانية أشهر، رفع اللورد (بلفور) تفاصيل وقائع اللقاء كتابةً إلى مجلس الوزراء. وكان قد استمدها من لويد جورج نفسه وأيّدها هذا في مذكراته - القسم الخاصّ بمعاهدات السلام: وهذه هي الفقرة الخاصة بولاية الموصل:

«برز موضوع الشرق الأوسط في أثناء الحديث الذي بدأ بالمسائل الأوروبية فسأل (كليمانصو) أي تعديل لمطالب فرنسا ترغب بريطانيا فيه؟ أجاب لويد جورج: الموصل. فقال كليمانصو: ستكون لك. أهناك شيء آخر؟ قال لويد جورج: فلسطين. فعاد كليمانصو يقول: ستكون لك أيضاً»[١٦].

في الأيام الثملة الأولى لدعاة القومية العربية في دمشق[١٧] بات واضحاً أن القوميين السوريين ربما كانوا في أثناء الحرب وبعدها يحاولون وصل ما انقطع من نشاطهم في الحقل السوريّ. وهذا عراقي معاصر يقرّ بذلك. يقول (توفيق السويدي) أحد رؤساء الحكومات العراقية في العهد الملكي وربما اتفق كلّ رجال الحكم المتعاقبين في العهدين معه:

«كان اهتمام الشباب السوريّ في العام ١٩١٢ (منصرفاً) إلى ضرورة اعتبار

---

(١٥) ستيڤين روسكيل هانكي S. Roskill Hankey: «رجال الأسرار Men of Secrets» ج١ ص٦٠٩. لندن ١٩٧٠-١٩٧٢.

(١٦) اقتبستها أليزابيت مونرو Elizabeth Monroe في كتابها الموسوم: «المرحلة البريطانية في الشرق الأوسط British Moment in the Middle East 1914-1971» مطبعة جامعة جون هوبكنز ١٩٨١.

(١٧) هوارد م. ساكر Howord M. Sacher: «تاريخ إسرائيل منذ قيام الصهيونية حتى يومنا هذا» نيويورك ١٩٧٩ ص١٢٣.

المؤتمر المنوي عقده في باريس للنظر في شؤون العرب القاطنين في الإمبراطورية العثمانية، نظراً لأن السوريين فقط هم القائمون بالفكرة القوميّة. ولم يتقدم لمساعدتهم أحدٌ من العرب. وقد كان لانصراف الشباب السوري هذا كلّ المبررات لأن موقف العراق والحجاز واليمن من القضية العربية عدا كونه غير مفيد لها فإنه كان في بعض الأحيان مناهضاً لها ومضراً بها كثيراً. فالقسم الأكبر من الحجازيين وخصوصاً أهل المدن يدّعي بأنه لا يمتّ إلى العروبة بأية صلة وإن هو تكلم بلغتها وتثقف بثقافتها لأنه يدعي بأنه أتى من بلاد غير عربية. وإن أنسى فلا أنسى احتجاج الشريف حسين أمير مكة حينئذ على ما قام به المؤتمر العربيّ الأوّل من أعمال اعتبرها خدمة أجنبية (يقصد للأجانب) وخيانة للوطن العثماني. وكنت أحتفظ بنسخةٍ من جريدة (إقدام) التركية التي نشرت برقيته الموجهة إلى الصدر الأعظم متضمنة هذا الاحتجاج. وكذلك لا أنسى في جلسة مجلس المبعوثان سنة ١٩١١، حصلت مناقشة كبيرة قال فيها نواب بغداد أن العراق غير عربي بما فيه بغداد، ومما يذكر هنا أن عضو المجلس (جميل صدقي الزهاوي) وهو كردي كان ضدّهم. وفي المؤتمر العربي الأوّل المنعقد بباريس في (العام) ١٩١٣ كان العرب المسيحيون أعلى الأصوات في (طلب) الاستقلال والانفصال عن العثمانيين».

وعلى هذه الوتيرة فمختلف ضروب النشاط القومي العربي للعراقيين كان ضمن إطار الضباط القادمين من ولاياتها الثلاث والمنضوين إلى جمعيات ماكان يخطر ببالها المطالبة بالاستقلال أو الوحدة السياسية على أساس قومي، لأنهم يعرفون على الأقل أن التركيبة العرقية الجغرافية - التاريخية في وادي الرافدين ماكانت تجعل مطلبهم ذا طابع جدي. وفي دمشق عندما دخلها فيصل وقواته كان هؤلاء الضباط وهم أغلبية يمارسون عملهم ووظائفهم باسم فيصل وأخويه. أغلبية نشأت في أحضان الجون ترك وتشبعت بآرائهم حول القومية، حتى بعد أن تحول ولاؤهم عن العرش العثماني وإلى نهاية الحرب. وبينهم فدائيون ومحترفون، وخصوم لبريطانيا ألدّاء، لا يتوقع منهم إلاّ أن يكونوا خطراً جدياً كمّاً وكيفاً على الخطط البريطانية يزيد كثيراً عن خطر ساسة دمشق وخطبائها وساسة القدس وخطبائها.

إلاّ أنّ الإدارة البريطانية الأولى بمرتباتها في أرض الرافدين لم تَرَ الأمر بهذا

الشكل. فالتوتر القائم بين السكان ذوي الأصول المختلفة والإنتماءات الدينية المتنافرة بدا لها كفيلاً بإثارة أعظم المشاكل. هناك القبائل الكردستانية في الشمال، والقبائل الشيعية في الجنوب خطرها كان متأتياً من فوضى العهد العثماني المتوارثة والاحتراب بين الطوائف الخفي إن لم يكن غياب قومية متجانسة موحدة كان بمثابة تحّدٍ للسلطة البريطانية. كانت أوّلاً تجد في الحديث عن حكم ذاتي واستقلال قومي لغطاً أجوف مصدره الدساسون الطموحون لأمر آخر وذوو الشبهات الذين يغيّبهم ظلام النسيان والخمول وقت أن تتوقف قيادات الحلفاء عن استخدام نقاط ويلسن الأربع عشرة كمادةٍ للدعاية.

بغياب (كوكس) اختلفت وجهات نظر خلفه، ووجهات نظر مساعدته (مس گرترود بل) حول مستقبل بلاد الرافدين، فهذه كانت تميل إلى أن تضع ولايتي بغداد والبصرة تحت الحماية البريطانية فحسب، بينما كان (أرنولد ولسن) يميل إلى الحكم المباشر. لكن كان في العام ١٩١٨ فسحة كافية من الأرض يقفان فيها معاً ويتفقان فوقها. وكتبت مذكرة صادق هو عليها. تقول فيها:

«إن الحديث عن تقرير المصير قبل انعقاد مؤتمر الصلح وفي إثباته هو أمر غير مرغوب فيه».

وكانت قبلاً قد كتبت:

«الأهلون في ميسوپوتاميا، بعد أن رأوا نهاية الحرب الناجحة، باتت فكرة بقاء بلادهم تحت السيطرة البريطانية من قبيل المسلّمات وهم بصورة عامة مغتبطون سعداء بقبول قرار انفصال بلادهم بقوة السلاح. وإن التصريحات المؤيدة لحقّ تقرير المصير القوميّ في مؤتمر الصلح الصادرة من (ودرو ويلسن) وغيره، تفسح المجال إلى احتمالات أخرى ينظر إليها إجمالاً بما يكاد يكون نظرة قلق وتوجّس. ولا تأثير لها يزيد عن كونها تفسح المجال لدسائس سياسيّة تُقدم عليها عناصر متلونة ومتعصبة»[١٨].

بالأخير، لما تبنت الحكومة البريطانية الخطّ الذي رسمه مبدأ الرئيس الأمريكي أو تأثرت به على أقل تقدير، أشارت على وكيل الحاكم المدني العام في ميسوپوتاميا، باستفتاء الأهلين في أي شكل من نظام حكم يريدونه. أو أي دولة يرغبون في إقامتها.

---

(١٨) المرجع السالف.

فأسرع (ويلسن) يجيب جواباً قاطعاً:

«ما من سبيل للتأكد من الرأي العام هنا»[١٩].

في الوقت الذي كان مستعداً لتنظيم إداري في ولايتي بغداد والبصرة ثم ولاية الموصل فيما بعد عندما اعتزم البريطانيون حرمان تركيا منها، لم يكن يعتقد في قرارة نفسه أنه يمكن عمل وحدة سياسيّة منسجمة من هذه الولايات باسم العراق، وهو الاسم الذي اختاره لها البريطانيون، فقد بدا له أن هذه القطع مفككة بدرجة لا يمكن أن يطلق عليها هذا الاسم.

والمركز الستراتيجي الهامّ لولاية الموصل جعل إضافتها إلى العراق ضرورة والاحتمال القوي بوجود منابع نفط غنية في جوفها جعلها ثمينة، لكنها كانت مما دُبر أو افترض أن يؤلف جزءاً من دولة كردستان. وجادل (أرنولد ولسن) في أن نصف المليون من الكرد الأشداء المقاتلين الذين أدخلوا في إدارته لن يقبلوا قط بحكم عربي[٢٠]. ورأت عين (ولسن) معضلة أخرى أساسية وهي رفض حوالي مليوني شيعيّ في البلاد سيطرة أقلية سنيّة في الوقت الذي ماتصوروا تشكيل حكومةٍ ما إلاّ بأكثرية سنيّة. وبدأ الاضطغان بين الطائفتين بأجلى مظاهره عند بدء الدعوة القومية. فقد أسس كلّ منهما جمعية قومية عربية ناهضت إحداهما الأخرى[٢١].

ورأى (ولسن) ضرورة لإدخال الطائفة اليهودية الكبيرة التي تسيطر على الحياة التجارية في الولايتين تقريباً، ولاسيما في بغداد. وكذلك الطائفة الكلدآشورية الكاثوليكية والنسطورية والأرثوذكسية. ولاسيما الآشوريون النازحون إليها من تركيا حكاري.

وصف (ودرو ويلسن) الـ٧٥٪ بالمائة من سكان وادي الرافدين وشرقه وغربه أثناء وجوده في لندن بـ:

«العشائرين الذين لم يُعرفوا بأيّ تراث سابق في إطاعة أية حكومة».

وتعكس (مس بل) عين المسألة أيضاً في رسالة لوالدها فتكتب:

---

(١٩) المرجع عينه.

(٢٠) إيلي خضوري Eli Khadouri: «إنكلترا والشرق الأوسط: القضاء على الإمبراطورية العثمانية «England and the Middle East: The Destruction of the Ottoman Empire 1914-1921 ص١٩١.

(٢١) المرجع السالف: ص٢١٩ (ونستن: كرترود، مس بل).

«الوجهاء المحليون البارزون يعارضون في استحداث أي حكومة عربيّة ويقولون إنهم لا يريدون أن ينجوا من طاغية ليقعوا في قبضة طاغية آخر»[٢٢].

فخلافاً لأولئك النفر من العسكريين القادمين من سورية، وهم قوميون جدد انحصر مجال تفكيرهم في وحدة سياسية، كانت الفئة الغالبة في البلاد تشك في إمكان توحيد هذه الولايات الثلاث. وتتساءل دوماً هل سيكتب لهذه المحاولة المفرطة في التفاؤل النجاح في ميدان التطبيق العملي؟

تقول (مس بل) وهي التي أوقفت كلّ جهودها ومساعيها على هذه الغاية ان مبشراً أمريكياً حذرها بوجوب تجاهل الحذر التاريخي الواقعي أثناء سعيها الحثيث بهذه العبارة:

«إنك لتحلّقين طائرةً بمواجهة أربعة آلاف سنة من التاريخ في محاولتك رسم خطّ حول العراق ثم تسميته بوحدةٍ سياسية، فآشور تنظر دائماً من الغرب والشرق والشمال، وبابل تشخص من الجنوب، وما كانتا في أي وقتٍ وحدةً سياسية مستقلة. عليك أن تخصصي وقتاً ملياً لجمعها وخلطها معاً. ويجب أن يتمّ هذا بالتدّريج. إذ ليس للدولة القومية مفهوم لديها بعد»[٢٣].

لم يعر الموظفون البريطانيون الذين كلّفوا بهندسة البلاد الجديدة اهتماماً بأمثال هذا التحذير. لأنّ الموضوع هو كيفية الجمع والتأليف بين البناء السياسيّ وبين المصالح البريطانية. وبعبارة أخرى أوضح كيف يمكن أن يخدم البناء المتوى المصالح البريطانية على أفضل وجه؟

لم يُوضع قطّ في الحساب خطر نشوب ثورات محليّة. لا أحد وضع في حسابه هذا غير المغضوب عليه (ولسن) الذي كانت (مس بل) تتآمر عليه بكل ما ملكت من طاقة. فقد سبق وحذّر لندن من ثورات في الشمال وفي الجنوب وأنذرهم بأن تسريح القوات البريطانية[٢٤] قد ترك القوات المرابطة عنده في غاية من الضعف. وحدات قليلة جداً لا تكفي لتغطية بقعة مساحتها (٤٥٢) ألف كيلومتر مربع. وأشار إلى الخطر

---

(٢٢) المرجع السالف.

(٢٣) كان كلّ قوام الجيش البريطاني في العام ١٩٢٠ أربعة آلاف عسكري خلافاً لما ذكر (لورنس) في مقالة بجريدة التايمس وقد أشرنا إليه. يدعمهم حوالي ثلاثة أفواج من جنود الليڤي الآشوري فحسب (المرجع السالف).

(٢٤) ونستن H. V. E. Winston: «ليتشمان Leachman» ط. نيويورك ١٩٧١، ص٢٠٨.

المتأتي من أنصار فيصل رغم أن (نوري السعيد وجعفر والهاشمي) وغيرهما ممن خدم بأمرته ما زالوا ممنوعين من العودة إلى وطنهم على أن عدداً كبيراً من أمثالهم كانوا قد تسللوا خفية وبدأوا بنشاط واسع كبير الأثر، في ترويج قرار المؤتمر العام الذي عقد في دمشق بخصوص استقلال ميسوبوتاميا. ولم تبق تركيا عاطلة، فقد بعثت بوكلائها إلى كردستان.

في أيام عيد الميلاد للعام ١٩١٩، طلب (ولسن) من لندن استعارة خدمات العقيد جيرالد ليشمان (لجمن) وهو رجل استطارت شهرة له في صحارى الشرق التي جعلت منه أسطورة.

وصل (ليشمان) في ربيع ١٩٢٠ ليجد في انتظاره نبأ مقتل ستة من الضباط السياسيين البريطانيين قبل عشرة أيام من وصوله. وفي الشهر التالي وُفّق في إنقاذ جماعة من الضباط البريطانيين هاجمتهم عصابة صغيرة في الصحراء. لكنه فشل في إنقاذ ضابطين سياسيين اختطفا واحتفظ بهما رهائن ثم قتلا.

كانت بادية العراق الغربية تعجّ بالجماعات البدوية المغيرة، طبق ما كانت الحال مع الإدارة التركية. ورأى (ليشمان) بصلافته وعنجهيّته التي أوردته حتفه فيما بعد، أن:

«الطريقة الوحيدة للتعامل مع القبائل هي ذبحها بالجملة»[٢٥].

وفي حزيران ١٩٢٠ انتفضت قبائل الجنوب فجأة بثورة كاملة الأبعاد. وبدا سبب نشوبها المباشر الفتيلة التي أشعلتها محاولة الإدارة البريطانية والحكومة المحلية المؤقتة جباية الضرائب المتأخرة.

وفي ١٤ حزيران ادّعت مس بل (وكانت سابقاً تميل إلى الترضية والتوفيق وتذهب بهما إلى أقصى الحدين، وتتقلب آراؤها بتقلب الأحداث):

«بأنها الآن تعيش في جوّ يسوده الإرهاب القومي»[٢٦].

وهي تبالغ بالطبع. إلاّ أن ثورة الفرات الأوسط تمكنت من الاستيلاء على عددٍ من المواقع العسكرية وفتكت بعدد كبير من الضباط وقطعت خطوط المواصلات وأوقعت بالجيش البريطاني ضربة موجعة في جنوب الحلة. ولعلّةٍ ما أو أخرى كانَ ثمّ عدد من الأسباب وعدة جهات من الثائرين تتحرى أهدافاً. إلاّ أن البلاد كلها قامت بوجه

---

(٢٥) ونستن: «كرترود بل» المرجع السالف. ص٢٢١.

(٢٦) ونستن: كرترود بل، المرجع السالف، ص٢٢١.

البريطانيين. واتسع نطاق الثورة وأعلن في (كربلاء) الجهاد ضدّ المحتل. وفي موضع ما من الحدود الغربية الشمالية اقتحمت خيالة عربية بقيادة أحد ضباط فيصل معقلاً بريطانياً في بلدة (تلعفر) ذات الأغلبية التركمانية من السكان وأعملت فتكاً بالبريطانيين المدافعين عنه. ومن ثم سرت أنباء سوءٍ أخرى فـ(ليشمان) الذي ترك بغداد في الحادي عشر من آب لحضور اجتماع بقبيلتين في موضع ما على الفرات قُتل غيلة[٢٧].

في ٧ من آب ١٩٢٠ ظهر في صحيفة التايمس مقال رئيس عن الثورة في بلاد الرافدين تساءلت فيه:

«إلى متى يُضحى بأرواح ثمينة[٢٨] في جهود لا طائل منها لفرض إدارةٍ محكمة فادحة الثمن على السكان العرب، لم يطلبوها ولم يرغبوا فيها؟».

وبعد ثلاثة أيام خرجت بمقال آخر رئيس جاء فيه:

«نحن ننفق في ميسوپوتاميا وفارس مبالغ قد تصل إلى مائة مليون پاون سنوياً لمساندة وتثبيت سياسة خرقاء تقضي بإقامة حكومة في الشرق الأوسط».

خلال الثورة الصحفية، راحت حكومة الهند تدفع بالنجدات وتصبّ الموارد صباً في تلك البلاد لإعادة النظام. فتمّ ذلك بوقت وجيز في المدن حيث قبض على ناصية الحال. إلاّ أن إحكام القبضة على الريف ومناطق البدو لم يتّم إلاّ بعد فترة امتدت حتى شهر شباط. ملكت (الوايت هول) الحيرة في تقويم أسباب الثورة. وتقدم (ارنولد

---

(٢٧) احتيل عليه وأقنع بالاستغناء عن مرافقيه المسلحين. دسّ عليه قاتل فأطلق عليه عياراً نارياً من الخلف بأمر من شيخ عشيرة زوبع (ضاري المحمود). كان قد حلّ عنده ضيفاً. ليس بوسعي كتمان عجبي ودهشتي من كتاب الجيل القوميين الذين أطبقوا على اعتبار هذا الحادث المخجل مأثرة عربيّة تدعو إلى تمجيد فاعله، وعدّها صفحة جليلة من صفحات ثورة العشرين. كيف يغيب عن هؤلاء أن أسمى ما يفخر به العربي ويعدّه جزءاً من تقاليده هو إكرام الضيف وافتداؤه بالمهجة عند اللزوم ولو كان عدوّاً. وما من شك في أن اغتيال المرء وهو في غفلة ومن الظهر، هو ليس من الشجاعة والحميّة في شيء وبالتالي لا يمكن عده من السجايا العربيّة. وها نحن نرى المجرمين في أفلام الغرب الأمريكية (وهي لا تبتعد قط عن واقع ما كان يجري) يترفّعون عن إطلاق الرصاص على خصومهم ومعقّبيهم ويأبون إلاّ أن يقابلوهم وجهاً لوجه. وما من شك في أن الإدارة البريطانية كانت أكثر شهامة ونبلاً عندما أصدرت عفوًا عن ولديْ ضاري (خميس وسلمان) ببيان صدر في ٣٠ من أيار ١٩٢١ شمل كل المحكومين المبعدين والهاربين المشاركين في ثورة العشرين.

(٢٨) بلغت خسائر البريطانيين وفق المصادر الرسمية ٢٥٠ قتيلاً و١٧٥٠ جريحاً و٤٥ مفقوداً. أنظر (بودج): المرجع السالف. ص٤٠٨. كاليفورنيا ١٩٧١.

ولسن) بقائمةٍ من أسباب ثلاثة عشر، مشدداً بالخصوص على ثلاثة منها:

(١) أنصار فيصل، (٢) مداخلة تركيا الكمالية. (٣) وربما بتحريض ومداخلة شركة نفط ستاندر أويل الأمريكية(٢٩)

ثورة الفرات الأوسط أحدثت رجّة عنيفة في الإدارة الهندية - البريطانية وسرت إلى الجذور وكانت إدارة مستقرة سارت سيراً هادئاً اعتيادياً، رغم الثورة. وهو ما دعا (ولسن) إلى التأكيد لحكومته في كانون الأول: «لا رغبة حقيقية في ميسوپوتاميا لإقامة حكومة عربيّة. والعرب من السكان يفضلون حكماً بريطانياً مباشراً»(٣٠).

لو كان الأمر كما يدّعي فكيف يفسر الانفجار الذي حصل قبل خمسة أشهر إلاّ بأنه حركة حملت في بطنها جنين حركة استقلال عربية؟ ويستطرد (ولسن) ليقول: «ما نواجهه هنا هو فوضى وتعصب ليس إلاّ، لا يوجد فيه من الروح القومية إلاّ القليل إن وجد فعلاً. القبائل كانت أيضاً تنتفض على الحكومات السابقة بهذا الشكل»(٣١) وعاد في أواسط آب يكتب: «لم تعد الحركة الثورية منذ وقتٍ ما ذات محتوى سياسي بل غدت فوضى تامة»(٣٢).

ليس هذا بالتفسير المقنع. فهو يأتي في وقت وقفت الانتفاضة العراقية على رأس الاضطرابات والفورات التن سادت الشرق الأوسط كله. ما الذي جعل المصريين يرفضون المفاوضات ويواصلون التظاهرات العنيفة؟ ماذا عن ثورة الفلسطينيين؟ ماذا عن حركة المقاومة السورية العنيدة للمحتل؟

وبقيت الدوائر السياسية والحكومية في لندن عاجزة عن الاتفاق على تعليل ما يحصل في تلك البلاد التي تتكلم العربيّة. وبلغ بها الشطط والحيرة حداً أن وجدت

---

(٢٩) أرون كليمان: المرجع السالف. ص٥٧.

(٣٠) أرون كليمان: المرجع السالف. ص٥٨.

(٣١) ستيفن رويكل هانيكي: المرجع السالف. ص٢٠١.

(٣٢) جون دارون John Darwin: «بريطانيا ومصر والشرق الأوسط. السياسة الإمبراطورية إثر نهاية الحرب Britain, Egypt and the Middle East: Emperiel Policy after the end of war 1918-1922» مطبعة سان مارتن: نيويورك ١٩٨١ ص١٢٠٠. (يميل بي الظن إلى أن ولسن وهو ضابط من مرتبات الهند كتب ما كتب وفي ذهنه وقائع الثورة الهندية في العام ١٨٥٧ وما نجم عنها من متاعب وخسائر. وقد بدأت بتمرد الجنود الهنود على الأوامر عند تزويدهم ببندقيات جديدة يقتضي تزييت عتادها بمزيج من الدهن يحتوي على دهن الخنزير. وكان من آثارها احتلال الثوار مدينة دلهي).

فكرة من الفِكَر أنصاراً لها في لندن، مؤادها أن ما يحصل هو بتأثير تدخل خارجي. أيّ تدخل خارجي هذا في بلد تحكمه أكبر إمبراطورية في العالم يؤدي إلى إنفجار عام فجائي بوغتت به سلطة تملك أدق وأوسع جهاز استخبارات وتجسس في عالم ذلك الزمان؟ أيّ تدخلٍ هذا الذي جعل الانتفاضات السالفة تختار وقتاً واحداً للانفجار، وبرباط يجمعها بشكلٍ ما؟

* * *

أعلن ونستن تشرشل حال تسلمه وزارة المستعمرات سياسته بمقولته الشهيرة: «**كل ما يحصل في الشرق الأوسط، هو ثانويّ بالنسبة إلى تخفيض النفقات**» وكان عند كلمته. فما حل شهر أيلول ١٩٢٢ حتى كان بوسع الحكومة أن تعلن عن واقع انخفاض النفقات إلى الربع، أي إنزالها من ٤٥ مليون پاون سنوياً إلى ١١ مليوناً فقط.

ومن أجل الوصول إلى هذا فضّل تشرشل مسالمة فرنسا، ومال إلى نصب (فيصل) وأخويه حكاماً للبلاد الناطقة بالعربية لأن ذلك:

«سيُغني بريطانيا بستراتيجية اقتصادية تساعد حكومة صاحب الجلالة في ممارسة ضغطٍ في مجال عربي واحدٍ للفوز بما تريده في المجال الآخر»(٣٣).

كان يعتقد أن ممارسة ضغط على فرد من أسرة الشريف سيؤدي إلى أن يحصل على تنازل من أفراد الأسرة الآخرين. وإن أتيح لواحد منهم حكم مملكة فلن تحتاج بريطانيا إلى أكثر من تهديد مملكة أخرى يحكمها عضو آخر من الأسرة، لتحمل الأول على الانصياع والسير بالشكل الذي تريد.

كثيراً ما نجحت أمثال هذه الخيالات الخارقة والمعادلات التجارية التي عشقها تشرشل ولم يتردد في تطبيقها طوال حياته السياسية كلما سنحت له فرصة فيها. ولذلك رأيناه يفكر بين آن وآخر هنا، في الانسحاب الكامل أو الجزئي من الشرق الأوسط. وفي خلال ذلك التفكير عَمد إلى سحب (سر أرنولد ولسن) وإعادة (كوكس) مزوداً بتعليمات صريحة تتضمن التمهيد لتطبيق سياسته، وقفت على رأسها طبعاً مسألة تخفيض النفقات. وإليك هذه البرقية التي أرسلها لمعتمده الجديد:

---

(٣٣) مارتن گلبرت Martin Gilbert: «ونستن تشرشل: العالم المنكوب Winston Churchile: The Stricken World 1916-1922» المجلد الرابع، الباب الأول، ط. بوسطن ص٥٤٥.

«. . . وان لم يكن بالإمكان حكم العراق بأسعار أرخص فإن بريطانيا ستنسحب من سائره مع الاحتفاظ بخطّ الساحل فحسب»[٣٤].

واعتنق في فترة أخرى فكرة (لويد جورج) القاضية بالانسحاب من العراق وفلسطين معاً وإهدائهما للولايات المتحدة. ثم عاد لتنفيذ فكرته الأولى: الاقتصاد في النفقات أي بحكم العراق بـ«الطائرات والمصفحات» فوضع فيه أعظم قوة جويّة تملكها أية دولة في الشرق الأوسط. وسلم القيادة العسكرية هناك للقوة الجوية رغم معارضة المندوب السامي الشديدة. وهو الأمر الذي اضطره إلى ملافاة النقص في القوات البريّة (المشاة) بمضاعفة قوات الليفي الآشوري لتبلغ أربعة آلاف وبسعر أرخص[٣٥].

وفي ٧ شباط ١٩٢١ وصلت (كوكس) برقية من (تشرشل):

«الموضوع قيد البحث (موضوع العراق) لا يمكن تسويته بتبادل البرقيات. وأنا لا أجد لي فسحة من وقت تتيح لي زيارة ميسوپوتاميا. وأنا أقترح والحالة هذه عقد مؤتمر في مصر يبدأ في الأسبوع الأول أو الثاني من شهر آذار. مؤتمر قد يستغرق أسبوعاً واحداً. وسيرافقني إليه رؤساء الموظفين في دائرة الشرق الأوسط التابعة للوزارة»[٣٦].

والتأم المؤتمر الذي عرف فيما بعد بمؤتمر القاهرة في فندق (سميراميس) صباح يوم ١٢ من آذار ١٩٢١. وعُقد خلاله عدد من الجلسات يتراوح بين الأربعين والخمسين وحضره أربعون مشاركاً. كان موضوع المؤتمر الرئيس هو البحث عن وسائل لتخفيض النفقات في ميسوپوتاميا. وانتخبت لجنتان لمناقشة الأمر: عسكرية ومدنية خصصتا الأيام الأربعة الأول لتخطيط مستقبل العراق. وكان حذق تشرشل الذي بدأ هنا بأجلى مظاهره نزّاعاً إلى الأخذ بالنصائح والآراء التي يتقدم بها الموظفون البريطانيون المتواجدون موقعيّاً. وهو ما دعا (مس بل) مرافقة (كوكس) إلى الكتابة بحماسة:

«كان مستر تشرشل رائعاً. كان على أتم استعداد للقاء كل واحدٍ منّا في متنصف

---

(٣٤) المرجع السالف: ص٥١١.

(٣٥) المجند الآشوري في الليڤي كان يكلف الخزينة البريطانية ربع ما يكلفها الجندي البريطاني وأقل من نصف ما يكلفها المجند من المستعمرات.

(٣٦) گلبرت: المرجع السالف، ص١٣٣٤.

الطريق. وكان كذلك أستاذاً باقعة في إدارة دفة الاجتماع السياسيّ الكبير وإرشاد اللجان الصغيرة التي انشعبت إليها. لم يكن بين الظروف المواتية أقلّها شأناً مجيئنا أنا و سر برسي كوكس ومعنا خطّة معينة مدروسة، ما إن رفعنا عنها الغطاء حتى وجدناها تتفق تماماً مع ما يقترحه تشرشل ويريده»[٣٧].

وبعد مرور ثلاثة أيام من بدء المؤتمر أبرق تشرشل لرئيس الحكومة:

«كل المسؤولين هنا توصلوا إلى اتفاق حول جميع النقاط السياسية منها والعسكرية».

كان أمام المؤتمر مسائل أربع للبّت فيها: أولّها عرض عرش العراق على (فيصل) بشرط أن يبذل كل مجهود ممكن ليبدو العرض وكأنه صادر من كل السكان المختلفي القومية والأديان لا من بريطانيا. وثانيها الإبقاء على الوجود العسكري في البلاد على أساس نقل ثقله إلى وزارة الطيران (كان تشرشل حينها وزيراً للطيران بالوكالة)، اتباعاً لستراتيجية الاحتفاظ بالقواعد الجويّة. وثالثها مسألة الأقليم الكردي، وقد اختلف الأعضاء فيما بينهم أشدّ اختلاف حول إدغامه بدولة العراق الجديدة أو إقامة دولة كردية مستقلة فيه. ثم اتفق أخيراً على أن يبقى وحدة منفصلة ترتبط مباشرة بالمندوب السامي وتكون خالصةً من صلاحياته. ورابعاً مشكلة القوميات الأخرى ذات الهوية القومية الواضحة: مطالبها، حاجاتها، تطلعاتها. وهي بالضبط مشكلة الشمال الغربي ومجموعاته، لاسيما المجموعات العرقية التي لا مكان لها ولا سبيل لها للعودة إلى مواطنها الأصلية ومن بينها الآشوريون المسيحيون اللاجئون والأرمن والمجموعات الكردية من إيران وتركيا. واعترف المؤتمر بأنه قليل الحيلة في معالجة مشكلتهم. وبأنه لا يملك عمل الكثير لهم. ونال تشرشل موافقة حكومته على قرارات مؤتمر القاهرة السياسية حول قضايا الشرق الأوسط للبلاد الناطقة بالعربية[٣٨].

واستعّد موظفو الاحتلال في بغداد لعرض التمثيلية التي كتبت على موائد مؤتمر القاهرة بخصوص اختيار (فيصل) للدولة العراقية العتيدة، وحُذروا بأن يكون نشاطهم من وراء الستار قاصراً على التلقين والإخراج. وطمأنهم (فيصل) من جانبه بأنه سيتعاون

---

(٣٧) رسائل مسّ بل: المرجع السالف، ص٢١٣.

(٣٨) سيرد الحديث حول القرارات التي اتخذها المؤتمر بخصوص البلاد الأخرى ذات الهوية العربية في الفصل التالي.

معهم إلى أقصى حدّ يؤهله له مركزه، ونصب (لورنس) وسيطاً بينه وبين (تشرشل). وما عتم هذا الوسيط أن أبلغ سكرتير الوزير الخاصّ بأنه التقى (فيصلاً) فأكد له استعداده للتفاوض مع الحكومة البريطانية من غير الإشارة إلى سورية مطلقاً، وأنه مستعد كذلك للتخلي عن مساندة والده في كلّ أدعاء له بفلسطين.

وفي القاهرة نظم (لورنس، ومس بل، وكوكس، وساسون حسقيل وزير المالية العراقي) جدولاً زمنياً لهذه الغاية مرتباً على فصول يبدأ أولها برحيل (فيصل) إلى مكة. ومنها يرسل برقيةً إلى وجهاء القوم وزعمائهم في العراق الأوسط والجنوبي (انتقيت أسماؤهم وزوّد فيصل بقائمة لها) يذكر فيها أن «أصدقاء!» له حثوه على القدوم إلى العراق، وأنه قرر بعد المداولة مع أبيه وأخوته في هذا الشأن أن «يعرض خدماته على أهالي العراق».

وبعد انتهاء أعمال المؤتمر بعث (لورنس) برسالة عاجلة لفيصل الذي كان في لندن:

«الأمور سارت طبق المأمول بالضبط. أرجو الشخوص إلى مكة حالاً بأقرب طريق ممكن وأقصره. سألقاك وأنت في طريقك وأشرح لك التفاصيل. وبناءً عليه، لا تواجِه أحداً غير والدك ولا تذع أيّ شيء للصحافة وبأيّ شكل من الأشكال»[39].

في حدود ذلك الوقت وردت (كوكس) أنباء مزعجة من الوكيل الذي استنابه في بغداد:

«منذ رحيلك تغيّرت الأمور كثيراً. السيد طالب (النقيب) وهو الزعيم غير المنازَع في البصرة توصل إلى اتفاق مع (عبدالرحمن النقيب)[40] في بغداد. على أساس أن يقوم بمساندة السيد طالب في ترشيح نفسه لعرش العراق. وكلاهما وضع أساس الدعوة لحاكم عراقي النجار. وهناك دلائل تشير بأنّ هذه الدعوة تلقى قدراً كبيراً من التأكيد. وبلا مواربة أظنّ أن ترشيح فيصل سيلقى مقاومة شديدة»[41].

فأسرع (كوكس) عائداً إلى بغداد ليقنع المتنافسين بالانسحاب من الميدان وبينهم

---

(٣٩) گلبرت: المرجع السالف، ص١٤١٤.

(٤٠) نقيب الأشراف في بغداد سليل أسرة الگيلاني وعميدها في العراق ورئيس أول حكومة عراقية.

(٤١) أرون س. كليمان: المرجع السالف: ص١٤٦.

إن كنت لا تصدق عبدالعزيز آل سعود الذي احتجّ على ترشيح سليل الأسرة الهاشمية. فأُمِر بالإنسحاب وشرُي سكوته بالمال وبعطايا أخرى سياسية أغرقه بها البريطانيون.

وفي أثناء ذلك واصل (طالب پاشا النقيب) جولاته في أنحاء البلاد مقابلاً وزائراً شيوخ العشائر ووجهاء المدن، خاطباً في الجمع، مؤكداً «الحاجة إلى التعاون مع بريطانيا» ومنادياً في الوقت ذاته بشعار «العراق للعراقيين»[٤٢]. وتبادر الاستخبارات البريطانية إلى تبليغ (كوكس) بتشاؤم وقلق شديدين:

«إن (طالباً) يقابل بحماسة وحفاوة بالغتين في كلّ مكان»[٤٣].

في متنصف شهر نيسان قصد السيد (طالب) دار المندوب السامي لحضور دعوة شاي ووجد (كوكس) عند وصوله يعتذر لبرهةٍ تاركاً إياه مع قرينته وسائر المدعوين. بعد أن غادر السيد طالب دار المندوب وجد نفسه محاطاً بثلة من الحرس البريطاني وبأحد موظفي السفارة يبلغه بقرار (كوكس) القاضي باعتقاله ونقله رأساً إلى جزيرة سيلان (سريلانكا). وفي اليوم التالي أذاع (كوكس) بلاغاً جاء فيه: أنه أمر بإبعاد (طالب النقيب) حفظاً للأمن والنظام بعد تهديده بإثارة شغبٍ ومباشرة أعمال عنفٍ.

يشكّ كثيراً في أن (طالباً) نطق بما يمكن حمله محمل تهديد بالإخلال بالأمن وكل ما بدر منه هو أنه قال في وليمة عشاء أقامها لمراسل الديلي تلكراف:

«لو أن بريطانيا لن تكون منصفة أو لا تقف موقف حياد إزاء المرشحين المتنافسين فلا يستبعد أن تثور القبائل مرةً أخرى».

ونقل الحديث بصيغ عدة. ويدّعي (كوكس) أن (مس بل) نقلته إليه. ولم تكن موجودة في وليمة العشاء تلك.

ومع هذا وبرغم إبعاد السيد طالب ظلّت مقاومة ترشيح (فيصل) متواصلة وإنْ اتخذت أزياء أخرى. قدمت مقترحات حول إقامة جمهورية أو تفضيل حاكم تركي الأصل. أو فصل البصرة عن بغداد، أو ترك الأمور على وضعها الحالي تحت حكم المندوب السامي المباشر لكن لندن كانت قد بتت في الأمر.

وعلى هدى من المشاورين البريطانيين الذين طلبهم (فيصل) بنفسه، وصل الحجاز وسوّى أموره مع أبيه ثم أقلع إلى البصرة على نفقة بريطانيا. فنزلها في ٢٤ من حزيران

---

(٤٢) المرجع السالف: ص١٤٨.

(٤٣) المرجع السالف: ص١٤٦.

١٩٢١، بعد أن استقبل وهو على ظهر الدارعة التي أقلّته أعضاء مجلس الوزراء العراقي يتقدمهم رئيسهم عبدالرحمن النقيب الذي دعاه ليحل ضيفاً على البلاد.

وظلت الحكومة البريطانية تتمسّك أو تتظاهر بالتمسك بالرواية الرسميّة - أي وقوفها موقف حياد، وعدم انحيازها إلى أحدٍ. أما في السرّ فقد أشار (كوكس) على (فيصل) أن يخرج إلى العلن فيخوض معركة الترشيح لنيل مساندة جماهيرية تعين الموظفين البريطانيين على ادعائهم بأن حكومتهم ما فعلت إلاّ أن نزلت إلى إرادة الشعب بقبولها بنصبه ملكاً عليه.

وفي ١١ من تموز، اتخذ مجلس الوزراء قراراً بالإجماع بقبول (فيصل) ملكاً دستورياً. وفي ١٦ منه أمر المجلس بإجراء استفتاء عام للمصادقة على هذا الاختيار. وفي ١٨ من آب أعلنت وزارة الداخلية بأن (فيصلاً) فاز فوزاً ساحقاً في استفتاء (نعم و لا). وبعدها بخمسة أيام توّج رسمياً. وفي عين هذا اليوم تُركت كلمة (ميسوپوتاميا) الإغريقية وتعني (مابين النهرين) واستعيض عنها رسمياً بكلمة العراق. واختفت الصفة القديمة تدريجاً من المكاتبات الرسميّة.

تشير الوثائق البريطانية إلى أن (فيصلاً) بدأ حتى قبل تتويجه يزعج البريطانيين ويقلق راحتهم بإصراره على استقلال رسمي ورفضه صيغة الانتداب التي فرضتها عصبة الأمم - بسعي من بريطانيا طبعاً - مقترحاً أن تكون العلاقة بين الدولة الجديدة وبريطانيا مبنية على معاهدة واحتج البريطانيون بأنهم لا يملكون حقاً قانونياً في تغيير وضع العراق الدولي من دون تخويل عصبة الأمم. لكنهم وافقوا بالأخير على معاهدة يتم التفاوض حولها، شريطة أن يشار فيها إلى الإنتداب. فرفض (فيصل) تضمينها هذه الإشارة. وتواصلت المفاوضات في لندن طوال سنة واحدة حول هذه النقطة التي كانت تثير غيظ البريطانيين وحنقهم.

في أواخر صيف ١٩٢٢ كتب تشرشل لرئيس الحكومة:

«فيصل يلعب معنا لعبة في غاية الدناءة، فيها من الختل ما فيها».

وأضاف إلى هذا تأكيداً على وجوب اجتماعه مع أعضاء الحكومة للبحث في مسألة طرد (فيصل) أو الانسحاب البريطاني من العراق[٤٤].

وبعد بضعة أيام أبلغ تشرشل زملاءهُ في الحكومة أثناء اجتماع وزاري:

---

(٤٤) المرجع السالف: ص١٩٦٦.

«إن الملك فيصل يثير مشاكل عظيمة ويزيد في حالة العراق اضطراباً، وكان قد احتجّ على الانتداب لكنه أعرب عن موافقته على إبرام معاهدة وهو على أية حال غير مستعد للاعتراف بالانتداب كمبدأ ويراه وصمة عارٍ وُسِم بها العراق، ولم تنفع فيه أي حجة أو تعليل عرضا عليه وهو الآن منحاز إلى المتطرفين، الذين يجدونه اليوم نصيرهم وراعيهم»[٤٥].

وهو لا شك يعني طبقة القوميين الجديدة التي خلقها جوّ التفاوض على المعاهدة مما سنتولاه بالتأمل فيما بعد. بعد ذلك بقليل وجه لـ(لويد جورج) مذكرة أخرى جاء فيها:

«إني عظيم القلق بخصوص العراق. والمهمة التي عهد بها إليّ باتت من قبيل المستحيل فعلاً. ما من صحيفة محافظة أو عمالية أو ليبرالية واحدة إلا وهي تقف بإصرار واستمرار موقفاً معادياً لبقاء بريطانيا في العراق ومن أعماق قلبي أقول إني لا أجد شيئاً يمكن اغتنامه من هذه البلاد. وأنا أقترح أن نوجّه لفيصل إنذاراً أخيراً، إن لم يرضخ له فسأتخلى عنه مبغضاً بالتأكيد».

وكان هذا جواب (لويد جورج):

«كمبدأ عام، أنا ضدّ سياسة إغراق السفينة، أفي مياه العراق أو في مياه غيره» (بعدها أشار إلى الإحتياطي الكبير من النفط الذي يعتقد الخبراء بإنه موجود في جوف العراق)... لو نحن تركناه فقد نجد أنفسنا بعد سنة واحدة أو اثنتين من انسحابنا مسلمين للأمريكان والفرنسيين جزءاً من أغنى حقول النفط في العالم»[٤٦].

* * *

انسحبت الولايات المتحدة من ائتلاف الحلفاء فعلياً في وقت بين ١٩١٩ و١٩٢٠ وتمت القطيعة رسمياً في آذار عندما رفض مجلس الشيوخ الأمريكي التصديق على معاهدة ڤرساي وأبى أن تكون البلاد عضواً في عصبة الأمم. وكذلك رفض دعوة العصبة لانتداب الولايات المتحدة على أرمينيا. وبدا ذلك في جواب لوزارة الخارجية على مذكرة من السفير الفرنسي. فقد أجاب الوزير الأمريكي نيابة عن الرئيس ولسن بأن:

---

(٤٥) المرجع السالف: ص١٩٦٧.

(٤٦) المرجع السالف: ص٨١٨.

«الولايات المتحدة لن ترسل ممثلاً عنها إلى مؤتمر الصلح ولن تضع توقيعها على أية معاهدة مع الإمبراطورية العثمانية ولن تشارك في المفاوضات حولها. لكنها تأمل من معاهدة الصلح أن تأخذ بنظر الاعتبار وجهة النظر الأمريكية، فضلاً عن وجهات نظر الرئيس الأمريكي بخصوص أمور معينة في الشرق الأوسط».

كما أصرّ الجواب على وجوب اتباع سياسة الباب المفتوح، دون تفريق بين الموقعين وغير الموقعين على المعاهدة. متمسكاً بوجوب المحافظة على الحقوق الأمريكية في المنطقة. وهذا يعني أن أسواق منطقة الشرق الأوسط لن تغلق قط في وجوه الماليين ورجال الأعمال الأمريكان. وقد أدّى هذا إلى النزاع السياسي بين بريطانيا والولايات المتحدة، نزاع مرير حادّ كان من آثاره أن بدأ موظفو الإدارة البريطانية في العراق يداخلهم الشكّ في أن المصالح النفطية هي وراء الاعتصاب والانتفاضات والتظاهرات المعادية حتى زعموا بأن دائرة المخابرات البريطانية كانت قد ألقت القبض على واحدٍ من زعماء ثورة العشرين وفي حوزته رسالةٌ من إحدى الشركات التابعة لكارتل (ستاندرد أويل) ظهر منها أن مبالغ أمريكية كانت تدفع لشيعة الجنوب في كربلاء مصدرها القنصل الأمريكي في بغداد[٤٧].

لم يكن هناك ظلّ من الحقيقة في الادعاء. وقد أراد البريطانيون منه ضرب عصفورين بحجز واحد كما ترى.

إلاّ أن النزاع استمر طويلاً. استمر إلى ما بعد أربع سنوات من ضمّ ولاية الموصل رسمياً إلى العراق الجديد وانتهى باتفاق نهائي بخصوص النفط في ٣١ من تموز ١٩٢٨، بعد ستّ سنوات من المفاوضات بين الشركات الأمريكية والبريطانية. وهو موضوع لا تهمنا تفاصيله هنا، إلاّ بقدر التأثير الذي أحدثته مشكلة الموصل على تطور الفكرة القومية العربية في العراق. ومقدار ما دفعته من ريح في شراعها وكذلك مسؤوليتها في الاتجاه المغلوط والخط الذي سلكته دعوة القومية وهو ما سنعرض له في فصول تالية.

* * *

بهذه الطريقة - وبعد ضمّ ولاية الموصل - خرج التكوين السياسي الذي أعطاه

---

(٤٧) ونستن: «المغامرة غير المشروعة The Illegal Advanture» لندن ١٩٨٢. ص٣٤٨.

الفاتح اسم (العراق) وهو اسم تاريخي عربي النجار إيرانيّ الأصل. اتخذه المؤرخون العرب وفرقوا بينه وبين عراق آخر يحدّه غرباً فسموه العراق العربي - تمييزاً عن العراق العجمي[٤٨]. كيان اقتضته مصلحة الفاتح الذي يمثل في ذلك الزمن أكبر وأقوى إمبراطورية في العالم. وكما رأينا، لم تكن لمواطنيه وأهله أيّ يدٍ في إقامة صرحه ولم تستمزج رغبتهم فيه. وهو خليط غير متجانس، باعدت فيما بينهم اللغة واللهجات والهويات والانتماءات والتقاليد. إنها إرادة غالب لا تتوخى من نفع عام إلاّ بقدر ما يفيد مصلحتها ويسايرها. رأت هذه الإرادة في فترات أن تشجيع شعاري الوطنية والوطن العراقي من مصلحتها. وعندما بدأ هذا الشعار يستر بجلباب القومية العربية ليحل محلّه بالتدريج، مزوّداً ببركات البريطانيين، وأحياناً بتشجيع منهم. إلاّ أن السبيل الخطرة التي سلكها دعاتها والآراء والاتجاهات التي دفعوها في صلب الدعوة، مالبث أن أسفرت عن وجههم وجاءت بما لم يكن في مصلحة أي طرف من الأطراف. ولم تبق الأخطاء التي ارتكبت باسمها مجرد أخطاء بل ارتفعت إلى مرتبة جرائم ارتكبت بدعوى الدفاع عنها.

ومن مفارقات التاريخ العجيبة أن تكون ولاية الموصل ولاسيّما عاصمتها التربة التي أخرجت شطء النمط العراقي من القومية العربية - إن صحّ لنا وصفها بهذا - وفي أثناء الصراع على عقائدها الولاية بالذات. ثم جاءت مذابح آب الآشورية التي ارتكبت باسمها. وبعد ربع قرن كانت أيضاً محاولة العقيد الشواف الانقلابية على حكم قاسم وهي التي سمّاها القوميون بالثورة القومية وبكل ما ارتكبت فيها من مقاتل وجرائم وبكل ما خلفته من بصمات في تأريخ العراق الأخير.

---

(٤٨) في التسمية أنظر مادة (العراق) في معجم البلدان لياقوت الحموي. وحول التشكيل السكاني القلق للكيان العراقي أرى من المفيد أن أجتزئ فقرة من خاطرات دوّنها الملك فيصل في مذكرة وزعها على طائفة من رجال الدولة المقربين تتضمن آراءه ومعتقداته في الدولة التي وُضع على رأسها. بدأ مذكرته بهذه الفقرة العظيمة الدلالة لصراحتها وانطباقها على الواقع: «إن البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، وهو الوحدة الفكرية والملية والدينية (يقصد بالملية، القومية)». ثم يقول: «في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي بعد بل توجد كتلات بشريّة خالية من أية فكرة وطنية، مشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة. سمّاعون للسوء ميالون للفوضى مستعدون دائماً للانتفاض على أية حكومة». (النص الكامل في تاريخ الوزارات العراقية. ج٣ ص٣٠٠ وما بعدها. وكذلك في أحد ملاحق كتاب مذكرات جعفر العسكري. والمعتقد أن الملك كتبها في وقت ما من الشهرين الأخيرين للعام ١٩٣١.

الفصل العاشر

عودٌ إلى بدء. النزاع على سورية. القوات العربية تستبق جيش الحلفاء في دخول رمزي إلى المدن السورية. فيصل يلتقي بممثل زعيم صهيوني. تشجيع الهجرة اليهودية والتخطيط لإقامة دولة عربية. لجنة كنك - كرين الأمريكية، فشلها. سحب القوات البريطانية من سورية. شروط فرنسا لإبقاء فيصل. رفض السوريين مؤتمر سان ريمو ووضع الأقطار العربية تحت الوصاية. اعتزال كليمانصو العمل السياسي والتشدد الفرنسي. قرارات مؤتمر دمشق. فيصل يطلب العون التركي. مناورة الفرنسيين. تحرك الجيش الفرنسي نحو دمشق. التخلي عن فيصل وخروجه من سورية. الأمير عبدالله وشرقي الأردن. ولادة الإمارة ووضعها تحت الانتداب البريطاني. لورنس يفشل في حمل الشريف (الملك) حسين على توقيع معاهدة. (عبدالله فيلبي) مستشاراً للأمير عبدالله. أوضاع شبه الجزيرة العربية. الخلاف بين ابن السعود والملك حسين. تحرك الإخوان. هزائم الملك حسين. السياسة البريطانية بين الغريمين. مصر والحماية البريطانية. قيام سعد زغلول ومصطفى كامل. الحزب الوطني وحزب الوفد، نشاطهما. المؤتمر الوطني. التظاهرات في ١٩١٩ في القاهرة والإسكندرية. تدخل الجيش البريطاني. نفي سعد زغلول ورفاقه، ثم عودتهم. الرابطة الإسلامية المصرية. شعار مصر للمصريين. جمال الدين الافغاني - محمد عبده: آراؤه التقدمية، نظرته إلى الإسلام. الأوضاع العامة في الجزائر وتونس، اشتباكات مع الفرنسيين وانشطة وطنية. تواصل النزاع بين الملك حسين والإخوان.

لم تعرف أطماع بناة إمبراطورية بريطانيا لما بعد الحرب في النفوذ إلى البلاد العربيّة حداً. فهؤلاء كما بدا لنا مما سبق لم يكتفوا بسخاء (كليمانصو) الذي تنازل لهم عن الموصل وفلسطين، بل حاولوا حرمان حليفتهم من سورية أيضاً.

ففي مطلع العام ١٩١٩، وزعت سكرتارية مجلس الوزراء على الصحف البريطانية

مذكرةً سريّة حاولت فيها أن تثبت بأن «قوات فيصل ساندت قوات الجنرال أللنبي في فتح سورية مساندة «فعلية» وأنها دخلت المدن الكبرى الأربع فيها (دمشق، حمص، حماه، حلب) «قبل قوات (أللنبي) وقد قامت بهذا لا بوصفها قوات أجنبيةً غازية جاءت من الحجاز، بل كقوات عربيّة محلية لذا كانت الغالبية العظمى من الجنود العرب الذين ساعدوا في تحرير سورية هم من سكان الولايات السورية»[1].

والقصد من هذا إثبات أمرٍ لم يقع أصلاً: أعني التأكيد بأن سورية العربيّة قد ثارت وحرّرت نفسها، فإخضاعُها لحكمٍ أجنبي مخالفٌ للمبادئ التي تقوم عليها الديمقراطية الغربية.

وحصل (لويد جورج) من (فيصل) على تصريح نُشر في حينه، مؤداه بأن العرب جَرّدوا ما بلغ عدده مائة ألف جندي خلال الحرب. وهم إما خدموا تحت قيادته أو كانوا حلفاء له ولأبيه. وقد اعترف (لويد جورج) في مذكراته بعدها أن هذا الزعم ليس صحيحاً وأن «مساهمة العرب في العمليات العسكرية هناك تكاد لا تذكر»[2].

إلاّ أن الفرنسيين لم يأبهوا وتمسكوا بحقوقهم المزعومة بسورية.

واستمرت محاولة بريطانيا في إبعادهم عنها. فادعى مندوبوها في مؤتمر ڤرساي بأحقية (فيصل) في أن يملك على سورية. ودافعوا عن حريته في رفض المشورة الفرنسية لو فضل ذلك. وكان الرئيس الأمريكي بطبيعة الحال مستعداً لمساندة هذا الإدعاء.

و(فيصل) الموجود في باريس كان مستعداً للرضا بكل شيء مقابل بقائه ملكاً في سورية. تراه يبذل قصارى جهده ويدفع من البريطانيين وتشجيعهم لكسب الولايات المتحدة عن طريق النفوذ الذي تمارسه الحركة الصهيونية في البيت الأبيض وفي الكونگرس. والتقى فيصل بـ(فيلكس فرانكفورتر) ممثل الزعيم الصهيوني الأمريكي (لوي برانديس) وعلى أثر المقابلة أبرق الأخير لرئيسه:

«إن القضية القومية العربيّة لم تعد بعدُ تمثل عائقاً في تحقيق برنامجنا أمام مؤتمر الصلح».

لم يكن في هذا شيء مستجدّ. ففي حزيران ١٩١٨ جرت مقابلة وحديث بين

---

(١) وثائق وزارة الخارجية (9) 3-205 .F.O.

(٢) مذكرات لويد جورج: المرجع السالف، الص ٦٦٥-٦٦٨.

(فيصل ووايزمان) أشرنا إليه في ما سبق. وفي خريف تلك السنة وقع الجانبان اتفاقاً كان أحد شروطه:

«تشجيع وتنشيط وتسهيل الهجرة اليهودية والاستقرار الجماعي لليهود في فلسطين مع المحافظة على حقوق الفلاحين العرب والمزارعين المستأجرين».

كما اقترح في مادة أخرى منه أن تقوم المنظمة الصهيونية بإرسال مجموعة من الخبراء لتوضع خدماتها بأمر ما سُمي بالدولة العربية بخصوص مسح الموارد الاقتصادية ومساعدة تلك (الدولة العربيّة) على نيل استقلالها (كذا). الفرق الوحيد بين اللقاءين أن ثانيهما تمّ قبل أن يكون لفيصل صفة رسميّة. في حين تمّ أولهما وهو ملك على سورية.

وكان (فيصل) عند كلمته. فقد عبر للمؤتمر عن وجهة نظره هذه في مذكرة قدمها للمؤتمر بتاريخ الأول من كانون الثاني وبعنوان «مطالب عرب آسيا» أشار فيها إلى أن اليهود والعرب هم قريبون جداً بالدم، وليس بينهم مناقضة في الخلق والعادات. وهم في الواقع يعتنقون مبادئ ووجهات نظر واحدة. وجاء في المذكرة أيضاً:

«إن البلاد الواقعة ضمن خط يمتد من الأسكندرية إلى حدود إيران شمالاً وجنوباً إلى الأوقيانوس الهندي، هي بلاد يسكنها العرب نعني بهم شعباً من الشعوب الساميّة يتكلم لغة واحدة هي اللغة العربية... وإن هدف الحركات القومية العربية التي كان والذي يقودها في أوائل الحرب بعد النداءات المشتركة التي وجهها إليه كلّ من القيادات السورية والعراقية هو جمع شمل العرب وتوحيدهم في نهاية الأمر في إطار أمّة واحدة».

وأبلغ المؤتمر بأنه يستثني فلسطين من التبعية التي حددها وادّعاها لممارسة استقلال عربيّ. كان هذا صدى أجوف لما كتبه بعد ثلاثة عشر عاماً وهو ملك على العراق. وبدت اللعبة سليمة في قاعة المؤتمر. (كليمانصو) يقف من الصهيونية موقفاً صلباً حازماً بعكس (فيصل). وهو أيضاً ضد قومية عربيّة استقلالية الكيان بعكس (لويد جورج) الذي يرائي في العلن ويبدي استعداداً للسماح بأيّ نفوذ يفلح الفرنسيون في ممارسته على حكم (فيصل) في حين يُشجع (فيصلاً) من طرف خفيّ على رفض أي شكل من أشكال الصلة مع الفرنسيين. والفرنسيون يعلمون حق العلم أنه زبون من زبائن بريطانيا لا يخرج عن الخطّ الذي تنتهجه في المؤتمر ويلازمه (لورنس) ملازمة الظل، ولا يدعه يغيب عن نظره مترجماً وصديقاً ومشاوراً وموضع ثقة وضابط ارتباط

ورسولاً. و(فيصل) يزداد صلابة في تعامله مع الفرنسيين اعتقاداً منه أن الإنكليز سيساندونه إلى النهاية بل حتى المخاطرة بعلاقاتهم مع حليفهم هذا.

واستاق الفرنسيون عدداً من الزعماء السوريين إلى المؤتمر ليفلّوا بهم من غُراب حُجة فيصل ويفحموه. قال هؤلاء في مؤتمر الصلح إنه رغم المشابهة في اللغة وفي الدين فالسوريون ليسوا عرباً. وأنهم يستأهلون دولة لأنفسهم لا تمتّ إلى القومية العربية بصلة وأن تكون هذه الدولة تحت الوصاية الفرنسية.

ونفد صبر (كليمانصو) بالأخير، فصارح (لويد جورج) بلهجة حاسمةٍ بأنّ:

«الرأي العام السياسي الفرنسي لا يدع له أيّ خيار في إصراره على حيازة سورية. وهو شخصياً لا يهتم بالشرق الأوسط كثيراً. إلاّ أن فرنسا كانت دائماً صاحبة دور كبير هناك. والرأي العام الفرنسي يتوقع تسوية تتفق ودور فرنسا وأنّه لا يستطيع القيام بأي تسوية مخالفة لهذا الاتجاه».

وأثر عنه قوله لمن حوله:

«لا، لا يسعني التنازل أكثر من هذا. ولويد جورج إنسان مخادع»[٣].

إلاّ أنّ (الوايت هول) اعتزم لعب كلّ ورقة متاحة يرجو منها ربحاً فأوعز للجنرال أللنبي بإصدار إنذار كاذب لا أساس له زعم فيه:

«بأن الحرب قد تنشب بين العرب والفرنسيين في أية لحظة».

وابتلع الرئيس الأمريكي الكذبة وحمل البلاغ محملاً جدياً وباغت رئيس الحكومتين باقتراح إرسال لجنة إلى الشرق الأوسط للتأكد من رغبة الأهلين في نوع الحكم الذي يريدونه. لم يكن البريطانيون يتوقعون ردّ فعلٍ كهذا. ونظروا إليه كالفرنسيين باندهال، إذ وجدوه اقتراحاً صبيانياً ساذجاً. لأنهم ما كانوا يعتقدون بوجودٍ لرأي عام في الشرق الأوسط شبيه بذلك الذي يُعرف في أوروبا وأمريكا. ولم يسعهم غير الموافقة.

تأليف لجنةٍ وسفرها شيءٌ. إلاّ أن عملها وسلطاتها شيء آخر وهذا ما كانوا يعرفونه. وما قبلوا إلاّ إرضاء للرئيس الأمريكي، وكان الطرفان يتسابقان إلى خطب ودّه وتحاشي إغضابه.

---

(٣) ليونارد بيكر Leonard Baker: «برانديس وفرانكفورتر Braandis and Frankfurter» نيويورك ١٩٨٤ ص١٧١.

هذه اللجنة لم تذهب إلى العراق، ولم تذهب إلى مصر وكلاهما في قبضة بريطانيا. وكان البريطانيون قد أعلنوا مصر محميّةً، ونجحوا قبلها في ضمان اعتراف الولايات المتحدة ببسط حكمهم عليها، الأمر الذي كان له أثره الحاسم في إبقاء المسألة المصرية خارج جدول أعمال مؤتمر الصلح[٤]، كما سبق لها أن بسطت نفوذها على إمارات الخليج الفارسي وساحل جزيرة العرب الجنوبي خلال القرن التاسع عشر[٥] واتخذت من (ابن سعود) و(الشريف) صنائع في بلادٍ لا يتصور قط أن تصل إليها لجنة تقصي حقائق أو استطلاع رأي عام فيها.

ورفض (كليمانصو) إرسال مشاركين في اللجنة. وكبح (لويد جورج) جماح حصانه وقد تبين له بعد هذا أنه مضى في مناهضة فرنسا إلى أبعد مما يجب وقد يؤدي استرساله إلى انهيار مؤتمر الصلح وسقوط سقفه على رؤوس أهله، فامتنع هو الآخر عن المشاركة، واتخذ قراره هذا فجأةً ومن دون سابق تمهيد أو إنذار.

وصلت هذه اللجنة التي عرفت باسم عضويها (كِنْگ - كرين King - Crane) إلى سورية وفلسطين، حيث كان الضباط البريطانيون في مركز يسمح لهم بانتقاء من سيمْثل أمام اللجنة ومن سيُستبعد. وحَميَ غضب الفرنسيين لهذا التاكتيك. إلاّ أن التقرير الذي وضعته تلك اللجنة لم يُعبأ به ولم يوضع موضع اعتبار قطّ. ولم يحظ بدور رسميّ على أنه زاد من النفرة والعداء بين فرنسا وبريطانيا.

كان الرئيس الأمريكي تنبأ بأن أي سلام لا يدوم إن لم تُبنَ أسسه على شروط عادلة لجميع الأطراف ذات العلاقة، وإن لم يؤخذ مبدأ حق تقرير المصير مأخذاً جدّياً بالنسبة للشعوب الخاضعة لدول أجنبية في أوروبا وفي آسيا بنوع خاصّ.

كانت فرنسا وبريطانيا تتصوران بأنهما ستستأثران بتقرير شروط معاهدة الصلح مع الأتراك. إلاّ أنهما واجهتا في مؤتمر فرساي أطرافاً عديدة تمثل ناطقين باسم الشعوب التي أخضعها العثمانيون لحكمهم، ففضلاً عن الوفود المتنافسة القادمة من أرمينيا، ووفدين كرديين، وآخر آشوري وثلاثة وفود عربيّة، كان هناك سبعة وثلاثون وفداً مستقلاً آخر.

---

(٤) كريستوفر أندرو: (أوج التوسع الفرنسي)، المرجع السالف، نيويورك ١٩٨٤.

(٥) كذلك نجحت بريطانيا في استبعاد إيران من أعمال المؤتمر بعد أن بسطت عليها نوعاً من الحماية بالاتفاق مع فرنسا في ١٩ آب ١٩١٩.

عشرة آلاف قاصدٍ زخرت بهم باريس وضاقت على رحبها. كلهم قدم من أجل المؤتمر.

ووضعت على الطاولة العهود، والمعاهدات والاتفاقات، والتوصيات وهي كثيرة[٦]. وادعى (لويد جورج) أن معاهدات باريس تضمنت أكبر قدر من التحرر القومي للشعوب المستعبدة، يفوق ما سجلته أية تسوية تمت بعد حربٍ. وأن ليس هناك تسوية سلميّة حررت مثل هذا العدد من قبضة الطغيان كتلك التي حصلت العام ١٩١٩ في باريس[٧]. وبلغ به الحنق منتهاه وبشكل خاص عند الادعاء بأن بريطانيا لم تبرّ بالوعد الذي قطعته للشعوب الناطقة بالعربية فكتب:

«برّ الحلفاء بالوعود التي تضمنتها تلك التصريحات، وأوفوا بعهودهم المقطوعة كاملةً. ليس هناك من فاق الحلفاء بدافعٍ من إخلاصٍ بحت في الوفاء بما التزموا به للشعوب المضطهدة وبمقدار ما فعلناه للعرب. وإن نحن وضعنا موضع اعتبار تلك التضحيات التي بذلها الحلفاء ولاسيما بريطانيا وإمبراطوريتها فليس للعرب أن يتظلموا، إنهم نالوا استقلالهم في العراق وفي الجزيرة العربيّة والأردن وسورية في حين أن معظم الشعوب المنتمية للعروبة حاربت إلى جانب الأتراك مضطهديها وأخصّ بالذكر منهم عرب فلسطين الذين قاتلوا من أجل إبقاء بلادهم خاضعة للحكم التركي»[٨].

* * *

في ١٣ أيلول ١٩١٩ وبعد أن نفد كلّ ما في جعبة البريطانيين من حيل ومناورات لإبقاء فرنسا بعيدةً عن الشرق الأوسط، أعلنت حكومتهم بأنها ستسحب كلّ قواتها من سورية ابتداءً من شهر تشرين الثاني. وكانت عند كلمتها. تركت (فيصلاً) وحده

---

(٦) من ذلك اتفاق القسطنطينية للعام (١٩١٥)، ومعاهدة لندن (١٩١٥)، وتعهدات مكماهون - حسين (١٩١٥-١٩١٦) واتفاق سايكس - بيكو- سازانوف) (١٩١٦) واتفاق سان جان دي موريين (١٩١٧)، ووعد بلفور (١٩١٧)، تعهدات هوكَارث للشريف (١٩١٨)، وتصريح الدول السبع (١٩١٧)، والتصريح الأنكلوفرنسي (١٩١٨)، ونقاط ولسن الأربع عشرة، والخاتمات الأربع (٤ تموز) ١٩١٨، والخصوصيات الخمس (٢٧ أيلول ١٩١٨) وغيرها من الاتفاقات المعقودة أثناء الحرب للشعوب والعهود المقطوعة لها.

(٧) افتتح مؤتمر باريس رسمياً في كانون الثاني ١٩١٩ إلاّ أن القرارات المتعلقة بمصير الإمبراطورية العثمانية تم التوصل إليها في مدينة (سان ريمو) بالريڤيرا الإيطالية في نيسان ١٩٢٠. وقد ألغت هذه المعاهدة ضمناً معاهدة (سيڤر) التي وقعت في ضاحية (سيڤر) بباريس في ١٠ آب ١٩٢٠.

(٨) مذكرات لويد جورج: المرجع السالف، الص ٧٢٣-٧٢٤.

بمواجهة الفرنسيين وقالت إنها أوفت بتعهداتها للجهتين وما عليها من لوم أو تثريب.

إدعاء مخجل! هم يعرفون حق المعرفة أن (فيصلاً) ورهطه لا يملكون من قوةٍ تستطيع مواجهة الفرنسيين، أولئك الذين اخترعوا قصّة المائة ألف مقاتل التي يتألف منها الجيش السوري. وعَدّ جماعة المكتب العربي في القاهرة هذا الانسحاب خيانةً وغدراً مثلما رآه (فيصل). وقتذاك كان (كليمانصو) مستعداً للقبول بـ(فيصل) ملكاً، لو أنه لقيه في مُنتصَف الطريق ووافق على إجراء مفاوضات يعترف بنتيجتها بالأقلّ الممكن من الشروط الفرنسية. وهي: الإذعان والتسليم بحق فرنسا في حكم لبنان الكبير، وأن تكون سورية دولة موالية لفرنسا تمنحها مركز الدولة المفضلة (كما حصل في العراق فيما بعد).

هذه الشروط وضعت (فيصلاً) بين نارين. إذ وجد نفسه وسطاً بين قوى متصارعة فالقوميون العرب الذين أسكرتهم خمرة فوزٍ لم يشاركوا فيه ولاسيما الدمشقيون منهم الذين يدّعون بأنهم أتباعه في حين لا تربطهم به رابطة ما، كانوا على استعداد لتركه يطلق على نفسه صفة الحاكم عليهم شريطة أن لا يدع للفرنسيين أي سيطرة على البلاد. في حين كان الفرنسيون مستعدين لتركه يطلق على نفسه الحاكم شريطة أن لا يحول دونهم ودون دخول البلاد. و(فيصل) الغريب في الأرض السورية لا يجد أمامه من سبيل غير مفاوضةٍ كلّ ما كان يأمل منها هو الحصول على بعض التنازلات من الحكومة الفرنسية ثم محاولة الحصول على بعض التنازلات من المجاهدين القوميين في دمشق.

في تلك الفترة وبعد عام ونصف عام من نهاية الحرب بدت دمشق ملتقى السياسيين والعسكريين العثمانيين المتقاعدين الناقمين الحائرين المتقاطرين من البلاد العربيّة، وهم يتدافعون بالمناكب ويتسابقون في معركة التقرب من مراكز السلطة، يتبارون في إظهار عواطفهم القوميّة وإخلاصهم للقضية العربية وقد سرت فيهم حمّى القومية والاستقلال العربيين سرياناً أعماهم عن رؤية الواقع. معظم هؤلاء القوم، ولا نفضح سِرّاً، كانوا أعداء للحلفاء إلى آخر مرحلةٍ من مراحل الحرب، يدافعون عن كيان الإمبراطورية العثمانية ووحدتها. إنهم الآن يدافعون عن الحقوق القومية العربيّة. والعداء واحدٌ وإن اختلف سببه ومأتاه الآن.

أمام الضغط المزدوج المتزايد، ومن أجل مقابلة العناد الفرنسي، دعا (فيصل) إلى مؤتمر عام سوريّ بشعور مفهوم بأنه غريب عن دمشق وسورية، ولمعرفته بمبادئ

الرئيس الأمريكي. وكان يقصد من عقد المؤتمر أيضاً تثبيت المطالب التي هيأها لمؤتمر الصلح، وكذلك ليبرهن للمؤتمر بأنه الناطق الحقيقي باسم الشعب الذي يسكن سورية.

والتأم المؤتمر السوريّ العام في ٦ من حزيران ١٩١٩.

أمر واحد غاب عن أدراك (فيصل) وهو ضرورة السيطرة على اتجاهات المجلس بتأمين مندوبين له مستعدين للموافقة على الامتيازات التي سيضطر إلى النزول عنها للفرنسيين تمشياً مع الوضع الدوليّ.

الحرس التقليدي القديم المتكون من أسر سورية المتنفذة الحاكمة في كلّ من دمشق وحمص وحماه وحلب[٩]، وهم قبل وجود (فيصل) موالون للعثمانيين، بقي معظمهم أعداء لـ(فيصل) ورهطه وللجمعيات القومية من العسكريين وفازوا بمقاعد في المدن الأربع وغيرها. لكن جمعيات القوميين المتطرفين ونواديهم نجحت في القبض على ناصية المؤتمر بعد عقدها صفقةً مع عناصر من الحرس التقليدي القديم[١٠].

أعضاء جمعية العهد وهي واحدة من جمعيات ثلاث[١١] يسيطر عليها ضباط عراقيون انحصر اهتمامهم بمستقبل بلادهم. وأمّا النادي العربي الذي يسيطر عليه مندوبون من فلسطين وهو هيئة معادية للصهيونية عداءً محكماً فقد كرس أعضاؤه جهودهم في إرغام (فيصل) على التنكر للوعد الذي قطعه بخصوص استقرار اليهود في بلادهم، وكان عدد من أعضاء لجنته التنفيذية يحتل مراكز هامة في حكومة (فيصل) طوال فترة الحرب. وكذلك حقق الفلسطينيون لأنفسهم مركز ثقلٍ في (حزب الاستقلال) ذي القاعدة الشعبية الواسعة. وهو حزب أسسه النادي القومي وكان أكثر مَن برزوا من جميع الكتل والجمعيات التي ذكرناها.

لم يكن هناك أي تردد في المصادقة على قرارات المؤتمر بما يشبه الإجماع[١٢]:

---

(٩) على سبيل المثال لا الحصر: الأتاسيّون، وآل العظم، وآل النشاشيبي، والأرسلانيون، والحورانيون، والبرازيون، وآل اليوسف والگيلانيون، والجزائريون، وآل الداعوق، وآل القوتلي، والعظمة، وآل سلام، والصلح وغيرهم (بينهم عدد كبير من الأسر ذات أرومة غير عربيّة).

(١٠) أيلي خضُوري: المرجع السالف. مطبعة كمبردج ١٩٨٣ ص١٥١.

(١١) القحطانية والفتاة.

(١٢) ذكر المؤرخون أيضاً أن فكرة المؤتمر لم تكن بمبادأة من (فيصل)، بل كانت فكرة الساسة والقوميين السوريين الذين سلّموا بشرعية تمثيل فيصل في مؤتمر الصلح، وأرادوا إعطاءه صفة =

الدعوة إلى إنشاء دولة موحّدة في (سورية الطبيعية) ويضمنها فلسطين، ورفض كلّ من إتفاق (سايكس بيكو سازانوف) ووعد بلفور، والموافقة على اعتلاء فيصل عرش سورية، ملكاً دستورياً يملك ولا يحكم، وإقامة نظام حكم ديمقراطي نيابي كتلك الأنظمة السائدة في الديمقراطيات الغربية سواءً بسواء.

في الوقت الذي أعلنت دول الحلفاء في (سان ريمو) عن نيتها وضع الأقطار الناطقة بالعربية تحت الوصاية مقسمةً بين فرنسا وبريطانيا، كان (فيصل) قد نفض يده من المؤتمر بعد أن عيل صبره في قساوة واقع يمليه الظرف السياسيّ. ولخيبة أمله في أن يرى سورية تحت الوصاية البريطانية أو الأمريكية، وتطلعاته في المساندة الصهيونية ضدّ مطالب فرنسا، قرر نهائياً أن لا يكون ضمن المشهد الدرامي في دمشق. وشدّ الرحال إلى باريس.

وفي أوائل كانون الثاني ١٩٢٠ توصل إلى اتفاق سرّي مع (كليمانصو). ارتؤي أن يكون سرّياً لأن رئيس الحكومة الفرنسية كان يعتزم دخول معركة انتخابات رئاسة الجمهورية. ولم يكن بوسعه إعطاء خصومه سلاحاً يشهرونه بوجهه أثناء المعركة، بادعائهم أن موقفه من سورية لم يكن يتفق ومصلحة البلاد وإنه فرّط بها. قضى هذا الإتفاق بأن يُسمح لفيصل بإقامة دولة مستقلة بمستشارين فرنسيين فحسب. والمخطط كله كان يؤول إلى وضع البلاد تحت وصايةٍ أخفّ شروطاً بكثيرٍ من الوصاية التي فرضت على العراق فيما بعد.

كانت شروطاً سخية لا يقبل بها أي واحدٍ من صانعي السياسة في فرنسا. وليس بينهم من يوافق على أن يتمتع السوريون بأيّ درجة من الاستقلال، بل حتى أن يقبلوا ببقاء (فيصل) الموالي للبريطانيين في سورية ناهيك باعتلاء عرشها.

فشل (كليمانصو) في الانتخابات فاعتزل الحكم وطلق العمل السياسي طلاقاً بائناً في كانون الثاني ١٩٢٠. وحلّ محلّه (ألكساندر مِلّران) وهو زعيم كتلةٍ استعمارية المنحى قوية الجانب يدعمها البرلمان. ولم تجد حكومته نفسها ملزمةً بتطبيق اتفاق

= رسميّة. ومما يذكر في هذا الوقت الذي كان المؤتمر الذي عاد إلى الانعقاد في آذار يتدارس مواد القانون الأساس للدولة الجديدة عن طريق لجنةٍ برئاسة ياسين الهاشمي، قرر المجلس الأعلى لمؤتمر سان ريمو انتداب فرنسا على لبنان وسورية، وانتداب بريطانيا على العراق وفلسطين وشرق الأردن.

(فيصل - كليمانصو) ولا كان همها قلامة ظفر مسألة المحافظة على ماء وجه بريطانيا في الشرق الأوسط، أو احترام تعهداتها للآخرين[١٣]، فبقي أمل (فيصل) الأخير مرتهناً بأن يشعر الفرنيسون بضرورة تطبيق الاتفاقية عند علمهم بها وأن يكون القوميون في سورية مستعدين للرضا بها. فترك باريس ووصل دمشق في ١٤ من كانون الثاني ليجد القوميين العرب غير مستعدين لقبول أي دور فرنسي في شؤون سورية. فأنذر واحدة من الجمعيات العربية بأن رفض الاتفاق يعني الحرب مع فرنسا، فكان جواب الجمعية:

«نحن مستعدون لإعلان الحرب على فرنسا وإنكلترا معاً»[١٤].

وبعد أيام قلائل صوت المؤتمر السوري بالإجماع على رفض الاتفاق. وبعد هذا الفشل راح (فيصل) يعدّل من موقفه ونهجه، فتحدث وكأنه يقصد العمل مع القوميين ونقل عنه في شباط من السنة عينها قوله في حديث له:

«الفوز باستقلال عربي تام ضدّ نيات فرنسا ولو كان بحدّ السيّف»[١٥].

محض ديماگوگية قصد منها مباراة ديماگوگية القوميين لكسب مساندة الأوساط الشعبية. أقوال جوفاء تتجاهل الواقع وتتسم بكثير من التهور وعدم الفطنة، وبين الحماسة النارية والفشل والخيبة يكون الوقت قصيراً دائماً عند القوميين العرب كما سنرى.

في الخفاء نشط (فيصل) جداً للتقرب إلى الفريق المحافظ من الحرس التقليدي والأسر العريقة لكسبها والحصول منها على مساندة سياسية أزاء فرنسا. هؤلاء أعداؤه القدماء الذين وجدوا مصالحهم ونفوذهم مهددين باندفاعات القوميين، ما لبثوا أن انحازوا إلى (فيصل) الذي أقنعهم بتأليف حزب جديد أطلق عليه اسم (الحزب الوطني).

---

(١٣) بخلوّ سورية من التواجد البريطاني، بات الجوّ ملائماً ليفرض الحلفاء جميعاً شروطهم على الإمبراطورية العثمانية، الأمر الذي أدّى إلى تقسيم أسلابها على الدولتين العظيمتين وهي بلاد الشرق الأوسط الناطقة بالعربية أمّا بالنفوذ أو بمقتضى معاهدات أو بطريق الإنتداب. فبموجب معاهدة سيفر (آب ١٩٢٠) التي وقعها السلطان محمد السادس متردداً منحت أرمينيا استقلالاً وأعطى كردستان حكماً ذاتياً ومثله للكلدوآشوريين.

(١٤) أندرو م. كريستوفر: (أوج التوسع الفرنسي). المرجع السالف، ص٢١٥.

(١٥) جوخا نيفاكيفي Jukha Nevakivi: (بريطانيا وفرنسا وعرب الشرق الأوسط Britain, France and the Arabs of the Middle East 1914-1920) لندن ١٩٢٠ ص٢١٦.

في العلن، دعا هذا الحزب إلى استقلال سورية الطبيعية أو (الكبرى) كما سمّاها. ولكنه كان مستعداً في السر للقبول باتفاق (فيصل - كليمانصو): مجرد (استقلال) فحسب. ولم يصرّ على صيغة (استقلال تام) وهي الصيغة التي تبنتها قرارات المؤتمر. وكذلك كان الحزب مستعداً لقبول الحضور الصهيوني في فلسطين(١٦) وطناً.

تمّ تأليف الحزب قبيل انعقاد المؤتمر العام. وشعر القوميون المجاهدون بما بيِّت. ولاستباق (الحزب الوطني) في العمل والنشاط، وقبل تنظيم قواه، بادرت كتلهم إلى دعوة المؤتمر للانعقاد وصوّت على القرارات التي سبق ذكرها(١٧). في الوقت ذاته واجه وفدٌ فلسطيني الحاكم العسكري البريطاني في القدس بقرار مقاومة الحركة الصهيونية وبأنّ فلسطين ستكون جزءاً من الدولة السورية المرتقبة. وبادرت الكتلة العراقية بعقد اجتماع خاص، تمّ الإعلان فيه عن استقلال ولايتي بغداد والبصرة بدولة واحدة ونصب الأمير (عبدالله) شقيق فيصل ملكاً عليها(١٨).

بوغتت بريطانيا بقرارات مؤتمر دمشق رغم استيائها من موقف فرنسا المتعصب وبادرت بتحذير (فيصل) من الآثار الخطيرة التي ستنجم عن اتخاذ أيّ خطوة عمليّة لوضع تلك القرارات موضع تطبيق(١٩). إلاّ أن (فيصل) الذي بان عجزه عن السيطرة على المؤتمر لم يقف عند حَدّ إعطاء الضوء الأخضر لأتباعه وللقوميين لشنّ حرب أنصار ضد القوات الفرنسية والميليشات المسيحية المحليّة الموالية التي جنّدها الفرنسيون في حينه، ونشرها على طول خطّ الساحل، بل أقدم على طلب المساعدة من تركيا الكمالية التي كانت قواتها وقتذاك تكيل ضربات ناجحة للفرنسيين في (كيليكيا). ومنع (فيصل) وحلفاؤه الجدد من المجاهدين القوميين الفرنسيين من استخدام سكة حديد (حلب) فحيل بينهم وبين تعزيز قواتهم هناك بنجدات بريّة وأرغموا على إرسالها إلى (كيليكيا) بحراً.

---

(١٦) فيليب الجوزي: «الوجهاء الحضريون والقومية العربيّة Urban Notables and Arab Nationlism» مطبعة كمبردج ١٩٨٣ ص ٦٦.

(١٧) جوخا نيفاكيفي: المرجع السالف، ص٢١٧.

(١٨) آرون ا. كليمان: أسس السياسة البريطانية في العالم العربي: مؤتمر القاهرة في ١٩٢١ Faundation of the British Policy in the Arabs World: The Cairo Confernce of 1921» مطبعة جون هوبكنز ١٩٧٠، ص٢٢١.

(١٩) المرجع السالف، ص٢٢٣.

ونشأ حلف وتعاون عملي غير معلن رسميّاً بين تركيا الكمالية والقوميين العرب في سورية. وبقوا لا يفهمون كم كان وضعهم ووضع (فيصل) يعتمد على المساندة البريطانية. هؤلاء الذين أعلنوا استقلال ولايتي بغداد والبصرة لم يدروا بأن عملهم هذا المبتسر سيحمل بريطانيا على مساندة فرنسا بالأخير، والتسليم لها دون اعتراض بالهيمنة على المقدّرات السورية، وأنه يتسبب في عودة الصفاء والوئام ثم التعاون بين الحليفين على مائدة الشرق الأوسط. وكانت قد تقطعت بينهما الأسباب خلال اجتماعات مؤتمر الصلح.

و(لويد جورج) بالذات الذي كان يفرك كفيه فرحاً للتحدي الذي أبداه السوريون لم يجد بالأخير مندوحةً من مساندة فرنسا فيما انتوته. أجل، كان قوميو البلاد الناطقة بالعربية أكثر سذاجةً وأقل تبصراً بالعواقب في شؤون السياسة الدولية ومنعرجاتها، أكثر سذاجة مما يتوقع منهم في تلك الظروف. وكّل المسألة هي أن الشعور القومي والحاجة إلى التحرر على هذا الأساس، لم ينمُ عندهم نموّاً طبيعياً، وإنما جاء في حلم ليلة صيف قائظ على بساط ريح بريطاني. لم يحاربوا من أجله ولم يضحوا ولم يدفعوا فيه ثمناً كذلك الثمن الذي اعتادت الشعوب والأمم دفعه من أجل قضاياها المصيرية الكبرى.

كان أوّل اهتمام للفرنسيين فصلُ القوميين السوريين عن الزوج التركي الجديد وفصم عرى الحلف الخطر مع مصطفى كمال. فأسرعت الحكومة بإرسال وفدٍ إلى (أنقرة) مقرّ قيادة هذا الثائر وعاصمته الجديدة، ونجح (روبير دي كاي) كبير الممثلين في سورية ورئيس الوفد في عقد هدنة مؤقتة معه.

بعد هذا وعلى أثر جلاء القوات البريطانية وتحييد لندن وخروج أمريكا من الميدان، أصدرت پاريس أمراً في ٢٧ من أيار ١٩٢٠ للجنرال (گورو) قائد قواتها في بيروت بالتهيؤ لمنازلة قوات الجيش العربي. وفي الرابع عشر من تموز وهو يوم الاحتفال بسقوط الباستيل في ١٧٨٩ وانطلاقة الثورة الفرنسية وجه (گورو) إنذاراً لفيصل فيه شروط لا يمكن القبول بها على أية حال ومنها نزع سلاح الجيش العربي وحلّه.

مع هذا بادر (فيصل) إلى إبلاغه بقبولها - لا شك إنه كان قد فقد السيطرة على أعصابه إذ وضع نفسه تحت رحمة القوميين الذين هيجوا عليه دمشق. إلاّ أن (گورو) ووفّق أوامر مباشرة من پاريس تأمره بتنفيذ خطة الزحف رغم وصول موافقة (فيصل)

بادر إلى العمل وكأن الموافقة غير كافية، وتردد (دي كاي) قليلاً. إلاّ أن الجنرال (گورو) تغلب على تردده وأجاب (فيصل) بأن استسلامه جاء متأخراً فقد سبق وتحرك الجيش نحو دمشق. آنذاك لم يكن للفرنسيين قوات كبيرة تكفي لقتالٍ ما مهما كان حجمه وجديته. وساء الموقف الفرنسي أيضاً عندما نقضت تركيا الكمالية الهدنة واتضح الخطر العظيم الذي تتعرض له الحملة وبدا للحظةٍ وكأن الفرنسيين وقعوا في كمين نَصبَه عَدوّان. إلاّ أن آلهة الحظ، بل خور عزيمة القوميين بالأحرى، خدمهم بشكل فاق تصور الجنرال (گورو). وحقيقة الأمر هي أن ذلك (الجيش العربي) الذي قدّرته لندن بمائة ألف ذاب جملةً وتفصيلاً كما يذوب الثلج بقدوم الربيع، وذهبت ريحه مع أصداء صراخ وهتاف متظاهري دمشق الذين غصت بهم شوارعها.

لم تجد القوات الفرنسية لعجبها الشديد أي مقاومة.

لم تكن هناك مواجهة. لم تحاول أي مجموعة مسلحّة الوقوف في وجه الزحف الفرنسي. ومهما كتب المؤرخون العرب من إشادة بالمعارك الخياليّة وكل ما نسج خيال القوميين من روايات التضحيات والشجاعة في المعارك الضارية فهذا هو الواقع مع الأسف. كان معظم القوات الفرنسية يتألف من جنود سنغاليين بإمرة ضباط فرنسيين. واقتضت خطة الزحف باختيار أقصر الطرق المؤدية إلى دمشق وأشدّها خطراً في عين الوقت. فقد تقدم عامل الوقت على عامل الحذر ولصالح المباغتة. ووجب على القطعات بمقتضى ذلك أن تخترق شُعُباً جبلية صعبة وتمرّ بخوانق. وكان بالإمكان وبحرب أنصارٍ منظمة تشرف عليها قيادة لا تحتاج إلى كفاءة عالية أو عبقرية عسكرية تشتيت شمل القوة الزاحفة التي تتألف من فرقتين غير كاملتين (بحدود ١٤٠٠٠ جندي) وتمزيقها دون عناء في تلك الشُعُب الجبلية، إلاّ أن بقايا قوة (فيصل) وقوميي سورية المتطوعين والميليشيا انتظرت الفرنسيين حتى خرجوا إلى السّهل وعندما ظهر في الأفق سرب من الطائرات الفرنسية راح يحوم فوق (فيصل) وأتباعه وفوق دمشق، فدب الخوف في نفوس أولئك الذين كانوا قبل أقلّ من سنةٍ واحدة جنوداً عثمانيين مع (الباش بزق: الميليشا) البدو وولوا على أعقابهم دون مقاومة.

هذه الحادثة سميت في كتب التاريخ باسم معركة (ميسلون) وهي ضاحية لدمشق. وخلدت في الكتب بمقتل وزير الدفاع الذي سَلّ سيفه وراح يهيب بالفارين ويحثهم على الصمود، فصرعته رصاصة طائشة. وبعد ثلاثة أيام دخلت هذه القوات دمشق وأمرَ القائد (فيصلاً) بمغادرة البلاد فتركها بعد يومين مع نفر من أصحابه وخلصائه، حزيناً

كاسف البال ينعى مصيره لائماً قوميي دمشق أكثر من لومه المحتل[٢٠] وأعلن (مللرّان):

«إن سورية كلّها صارت في قبضة فرنسا وإلى الأبد»[٢١].

وباشر الفرنسيون في تقطيع سورية إلى وحدات سياسية صغيرة، فخططت حدود ما دعته بلبنان الكبير[٢٢] وهو لبنان اليوم وجعلته كياناً واحداً بموجب قرار اتخذ في الأول من أيلول ١٩٢٠. وهو تقريباً عين الحدود التي رسمها اتفاق (سايكس بيكو سازانوف) بإضافة المدن الساحلية (بيروت وطرابلس وصيدا وصور) ووادي البقاع.

---

(٢٠) روى أحد مرافقيه في المطار بدمشق أنه كان يردد هذا البيت بمرارة وأسف:

وَمَن رعى غَنماً في أرضِ مَسبعةٍ   ونَام عنها، تَولىَ رعيها الأسدُ

(الأرض المسبعة التي تكثر فيها الوحوش أي الضواري) والقصد مفهوم.

(٢١) أرون س. كليمان: المرجع السالف. مطبعة جون هوبكنز ١٩٧٧ ص٥١.

(٢٢) دخل ما دعي بلبنان الكبير (الجمهورية اللبنانية اليوم) في حكم العثمانيين في العام ١٥١٦، أثناء زحف السلطان (سليم ياووز) على مصر. ووزعت أراضيه على عدد من الولايات، فكان شماله جزء من ولاية طرابلس وجنوبه جزء من ولاية صيدا. وشرقه (البقاع) جزءاً من ولاية دمشق. وبقي الحال كذلك حتى ألغيت ولايتا صيدا وطرابلس وأنشئت ولاية بيروت. خلال تلك المدة تم نوع من استقلال ذاتي لأجزاء منه (الشهابيون أخيراً وقبلهم المعنيّون والدروز الخ) وهو ما عرف بـ(جبل لبنان). في الواقع أن هذه السلسلة الجبلية سكنتها بالتعاقب طوائف شيعية إثنا عشرية، ومجموعات سنية وإسماعيلية ودرزية. وجاء زمن كانت فيه الشيعة مستظهرة في لبنان بسبب صلتهم بالأسرة الفاطمية الحاكمة في مصر حتى شتت المماليك البحرية والبرجيّة شملهم عندما قبضوا على ناصية الحكم وأعملوا السيف في رقابهم وأجلوهم تقريباً عن الجبال ما بين أعوام ١٢٩٢-١٣٠٥. وما لبث إسماعيليو وادي التيّم والشوف أن تحولوا إلى المذهب الدرزي. أما الموارنة المسيحيون فكانوا يحتلون شمال البلاد وبضمنها المنطقة الجبليّة، إلاّ أن نفوذهم وسكناهم امتدا جنوبياً بعد الضربات التي مني بها الشيعة. وفي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر استظهروا في الوسط وتواجدوا في الجنوب. وزاد عدد السنّية بتحول قسم كبير من الشيعة. ثم هاجر إلى البلاد مجموعات سنيّة وطوائف مسيحيّة من داخلية سورية الحالية. وقوي ساعد الموارنة واستظهروا بالتدخل الفرنسي والأوروبي. عندما تنصر الأمير (بشير الشهابي) على المذهب الماروني ونفا عنه الإسلام وتبعهُ قسم من أفراد الأسرة (حكموا بعد المعنيين ١٧٩٧-١٨٤١). وبين العام ١٨٤٢ و١٨٥٨ قُسّم جبل لبنان إلى قائمقاميتين على أساس طائفي. واحدة مارونية في الشمال وأخرى درزية في الجنوب. وآل التقسيم إلى فتنةٍ طائفية تخللتها مذابح وقتول وحروب دامية. وتدخلت فرنسا للمرّة الرابعة بزعم حماية المسيحيين. وسوي الأمر كما تقدم بيانه بمعرفة لجنة دولية ترأسها عثماني وتمثلت فيها فرنسا وبريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا. ووضعت اللجنة في أوائل حزيران ١٨٦١ نظاماً إدارياً خاصاً للجبل، قضى بأن يكون لبنان متصرفية تتمتع بحكم ذاتي. يعين لها متصرف مسيحي على أن لا يكون من أهل البلاد.

وليس في هذه المناطق والمدن ما كان ضمن متصرفية (جبل لبنان) العثمانية. حيث تركزت القوى المسيحية. أضاف ضَمّ هذه المدن والمناطق إليهم عدداً كبيراً من السنّة والشيعة.

وإذا كان هذا الامتدادُ والضمُ السبب الذي أدىّ إلى سفك الدماء في العقدين الثامن والتاسع من هذا القرن، حيث هوجم المسيحيون في بلادٍ باتوا فيها قِلّة. وسواء في الأمر أكان الاحتراب من عمل المارونيين الخائفين على مركزهم السياسي والمتطيرين من أشباح مستقبل مظلم اتخذت فيه القوميّة العربية ثوباً دينياً وطابعاً جهادياً، ونضت عنها ثوب الدين للّه والوطن للجميع، أو كان نتيجة السياسة الفرنسية والضغوط الفرنسية، أو بسبب نزوح الفلسطينيين وصيرورتهم عامل إقلاقٍ ديني وسياسي. مدّ الأيادي والمصالح التي دفعت الجنرال (گورو) إلى اتخاذ قرار لم يكن بمقدور أحدٍ أن يتنبأ بالمصائب والمخاطر التي سيجرّها على رؤوس أبناء البلاد، أو أن يقدرّها تقديراً كاملاً.

السهولة التي تمّ بها احتلال دمشق يبدو أنها فضحت دعوى (فيصل) والقوميين العرب بأنها عملية خداع لجأ إليها البريطانيون لكفّ يد فرنسا عن سورية. ورغم الانتفاضات المسلحة والاعتصابات العنيفة المحليّة التي تخلّلت فترة الانتداب الفرنسي على سورية وما أريق فيها من دماءٍ وأحدثت من أضرار وخسائر، وبإخراج الإصرار الفرنسي على حيازة سورية من المعادلة، يكون من الطبيعي جداً أن يحمّل التاريخ مسؤولية ما حصل كلاً من البريطانيين والقوميين العرب في سورية مناصفةً. أما أصولها فالبريطانيون وحدهم هم الذين يتحملون مسؤوليتها.

فعلوا ذلك مراراً وتكراراً. تخلوا عن الكُرد، وتخلوا عن الآشوريين، كما تخلوا فيما بعد عن شريف الحجاز بعد أن نفخوه وزادوه في حجمه أضعافاً. وشجعوا القوميين في سورية إلى الحد الذي دفعهم فيه قصر عقلهم السياسي إلى الاعتقاد بأن بريطانيا ستكون لهم ظهيراً عند مثار النقع. والنتيجة؟ بكل ما فيها من غرابة وطرافة أليمة، أن القوميين صاروا من ناحية ينعون على البريطانيين خذلانهم، والفرنسيون من جانبهم يلومون البريطانيين لأنهم نصبوا فيصل ملكاً. والعرب جميعاً يلومونهم لأنهم تخلوا عن (فيصل)!

ويحصل انقلاب فجائي في المواقف تبعاً. ما وجد القوميون السوريون والفلسطينيون والعراقيون أنفسهم إلاّ وهم ينحازون إلى (فيصل) ليكونوا في صفّ أعداء

البريطانيين. ولكن ها هنا سؤال، ما الذي جعل البريطانيين يصرّون إصراراً لا مَردّ له على الإحتفاظ بوجودٍ لهم في البلاد الناطقة بالعربية؟

قيل للرّأي العام في أنكلترا أن واحداً من أهداف الحكومة هو مساندة حركة (فيصل) العربية. إلاّ أن عرب (فيصل) انحازوا إلى الأعداء. فما الذي يدعوها إلى الإستمرار في دعمهم حتى بعد أن تخلّت عن فيصل؟

سنرى فيما بعد هذا الدعم استمرّ في العراق إلى أن شارف نصف القرن العشرين على نهايته. ورأى آية في إشراك القوات البريطانية في قمع الانتفاضات المسلحة الكردية المتعددة وفي المأساة الآشورية. والأنكى من هذا، أن هؤلاء القوميين الذين انحازوا إلى (فيصل) كانوا دائماً عنصر إقلاق وإفسادٍ للعلاقات بين الحليفتين الطيبة بالأصل. طالما وضعوا تلك العلاقة في كفّ القدر في أماكن عدّة، منها ساحل فلسطين، وداخلية فلسطين، وما وراء نهر الأردن، إلى الحدّ الذي يحمل الفرنسيين على التأهب لغزو شرقي الأردن، والمخاطرة بمواجهة عسكرية بين الحليفتين لا يرغبان فيها.

أضف إلى هذا ازدياد قلق الفرنسيين من اليهود، الذين شرعوا يتقاطرون بأعداد متكاثرة من روسيا وشرق أوروبا إلى الجهة الغربية من نهر الأردن، وقد وجدوا فيهم خطراً داهماً زاد في حراجته التحامل الديني للرأي العام الكاثوليكي الفرنسي واللبناني ضدّ القادمين الجدد. الأمر الذي دفع (دي كاي) إلى اعتبارهم رسلاً للبلاشفة بقوله:

«إن الروح الثورية النبويّة التي كثيراً ما يمكن ملاحظتها عند اليهود قد انقلبت إلى بلشفية»[٢٣].

أما رئيس «مؤسسة مدارس الشرق» فكان يرى:

«أن مباشرة العمل ضد مراكز البروتستانت واليهود في فلسطين هي ضرورة تتطلبها المصالح القومية الفرنسية وحدها. بل النوازع الدينية أيضاً. ليس من المقبول قط أن تقع بلاد السيد المسيح فريسة لليهودية وللزندقة الأنكلوسكسونية بل يجب أن تبقى تراثاً غير مدّنس. إنه لعار قوميّ وجريمة لا يمكن إصلاح آثارها التقاعسُ عن استخلاص هذه الأرض المقدسة من أطماع

---

(٢٣) المرجع السالف، ص٢٢٠.

حلفائنا وجشعهم البربري»[٢٤]

على أن البريطانيين من جهتهم كانوا يرون في التواجد الفرنسي خطراً يهدد البلاد الواقعة شرق نهر الأردن، وكانت آنذاك منطقة جرداء قفراء تكاد تبدو خالية من زرع أو ضرع وهي غير مسكونة. كانت مساحتها تقارب ٧٥٪ من المساحة الكلية التي تقرر دخولها ضمن منطقة الإنتداب البريطاني وهي فلسطين.

وهذا الأقليم كاد جيوفيزيائياً يكون جزءاً من جزيرة العرب، سيما بحياة البداوة التي يحياها منتجعوه الموسميّون من رجال القبائل. وكان أثناء الحرب ميدان عمليات قوات (فيصل) الوحيد. وبقي لا يحكمه أحد قبل دخول (اللنبي) أراضي فلسطين غرب الأردن، إذ تركه البريطانيون لفيصل ورهطه، ومن ثمّ ارتبطت إدارته بدمشق. وكانت غلطة، إذ ما أن طرد الفرنسيون فيصلاً وحكومته حتى صاروا في وضع يمكنهم من الإدعاء بحقٍ في الأرض بوصفهم خَلَفَ فيصل.

هذه الأرض التي عرفت فيما بعد بشرق الأردن، ثم بإمارة شرق الأردن ثم بالمملكة الأردنية الهاشمية، بدت إذذاك منطقةً تسودُها فوضى لا أوّل لها ولا آخر. تتحكم في مصائرها نزاعات وخصومات قبائلية، وتضارب مصالح في حقوق الرّعي والزراعة، كثيراً ما أدت إلى اشتباكات دمويّة.

وكان ثَمّة خوف حقيقي من استغلال الفرنسيين هذا الوضع واتخاذه حجةً للاستيلاء على الأقليم وقت أن دبت الحركة في خصوم الفرنسيين من قوميي سورية، وقد جمعوا أشتاتهم للعمل على إعادة فيصل. هؤلاء ادّعوا بأنهم قد اعتزموا شن غارات أنصار ضدّ الفرنسيين انطلاقاً من شرقي الأردن. وهو ما كان سيمنح الفرنسيين حجّة لاحتلال تلك الأراضي في الوقت الذي لم يكن للبريطانيين قوات عسكرية تذكر في فلسطين الغربية. وكل ما كان بوسع السلطات المحلية عمله هناك هو إقناع لندن بإرسال عددٍ من الإداريين والموظفين المدنيين إليها.

كتب النقيب سومرست برنتن Summerset Brenton المقيم هناك، يشرح الوضع لرؤسائه:

«السكانُ هنا يقولون: إن البريطانيين سينسحبون. ويبدو أن لا أحد منهم راضٍ

---

(٢٤) رئيس جمعية دينية فرنسية تبشيرية تشرف على مدارس في الشرق الأدنى وهي كاثوليكية النجار. أنظر المرجع السالف، ص٢٢١.

باحتلالنا وليس بين الفوضى الكاملة وبيننا إلاّ خطوة واحدة. السكان هنا لا يؤلفون وحدة سياسية متجانسة ومتراصّة عنصرياً. هناك برزخ واسع حاد، يقوم بين البدو والحضر. الفريق الأخير يرغب في حكومة مستقرة محمية من أعمال العنف والابتزاز الذي يفرضه الأولون عليهم. والبدو من جانبهم يفضلون بقاء الفوضى على استتباب الأمن والنظام، لأنهم يعيشون على النهب والسلب من الحضريين وعلى سرقة مواشيهم وأغنامهم ولا يؤمل منهم تشكيل إدارة لبلادهم»(٢٥).

واهتم هذا العسكريّ بفكرة مستوحاة من واقع المنافسة بين بلاده وفرنسا، فاقترح الإتيان بممثل للأسرة الهاشمية (أسرة الشريف) يستخدم وجوده لإثارة مشاعر العداء للفرنسيين. فلم يعر أحدٌ اهتماماً باقتراحه في مبدأ الأمر، فعمد إلى حيلةٍ:

في ٩ أيلول كتب لمرجعه بأنه أعلن «جهاداً»! ضد الفرنسيين في سورية وجَنّد لذلك متطوعين وأطلق سراح محكومين من سجن بُليدة (عمّان) وألحقهم بقوته(٢٦).

وبعدها بيومين كتب بشيء من الارتياح:

«إن الممثل الهاشمي الذي أرسل إلى المنطقة (ولم يكن غير الأمير عبدالله ابن الشريف الثاني) قد نجح في تجنيد خمسين رجلاً».

لكنه أبدى عدم ارتياحه من موقف حكومته في مسألة الإدارة. وعاد يكتب:

«إن فكرة السيطرة على أراضٍ بعضهما يسكنه لصوص وهمج - عن طريق منحها حكماً ذاتياً بعددٍ من المشاورين البريطانيين وعلى سبيل التجربة، قد تبدو فكرة جذابة إلاّ أنها ستمنى بالفشل عند التطبيق».

لكن كيف قفز الأمير عبدالله إلى الصورة فجأة؟

كما قلتُ التزمت بريطانيا سياسة اجتناب مواقف استفزاز حيال فرنسا لأسباب عدة، منها أنها سحبت كلّ قواتها تقريباً من الشرق الأوسط وسرحتهم، واجتنبت إزعاجهم في سورية عند مهاجمة دمشق، في حين أن الأمير يدّعي أنه ما جاء إلى (عمان) إلاّ «لتبديل الهواء» وقضاء أيام النقاهة من مرض اليرقان. لم يصدّق أحدٌ مدّعاه بالطبع. وليس واضحاً حتى الآن أكان هذا مقدمة لخطة معدّة في مكتب (برنتن) بتوجيه

---

(٢٥) عين المرجع: ص٢٢٦.

(٢٦) المرجع السالف: ص٢٢٧ وما بعدها.

من حكومته أو هو محض مبادرة شخصية منه لا دخل لأحد فيها؟

فالحَلّ الذي ارتآه (تشرشل) وقد بدا وكأنه من وحي الساعة هو محاولة شراء (عبدالله) بعرض منصب الإمارة عليه في الأراضي الواقعة شرق نهر الأردن مقابل امتناعه عن التحرش بفرنسا في سورية. إذ كان يخشى اشتباكاً بين هؤلاء والقوات الفرنسية، يتمخض بالرد الفرنسي بالهجوم على فلسطين البريطانية. إلاّ أن اقتراحه اصطدم بعدد من الإحتجاجات. فالمندوب السامي في فلسطين (سر هربرت صموئل) احتج بقوله أن الإدارة المزمع إقامتها هي جزء من إدارة فلسطين الكلية، داخلة ضمن الحدود التي يمتد إليها الإنتداب بحسب قرار عصبة الأمم وليس من حق بريطانيا فصل هذه الأراضي من طرفٍ واحدٍ، وبموجب شروط الوصاية.

كان المندوب السامي يخشى أن يجعل فيصلُ شرقَ الأردن، بخلق كيان سياسي له قاعدةً للنشاط المعادي للصهيونية موجّه إلى فلسطين. وهي أمنية مماثلة لما يعتمل في نفس (لويد جورج) الذي كان بدوره يخشى أن تعتبر فرنسا احتضانَ حكومة (عبدَالله) مساوياً لاعتبارها احتضانها (فيصلاً)، وهو عندها شخص غير مرغوب فيه persona non grata بحسب وصف الوثائق الفرنسية له. وكلاهما يجاور سورية الآن أحدهما من الشرق والآخر من الجنوب، إنها كما ترى عملية إستفزاز دائمي بالنسبة للفرنسيين. ولذلك كتب (لويد جورج) لتشرشل في ٢٢ آذار ١٩٢١ هذه البرقية:

«درست الوزارة اقتراحك حول شرق الأردن بكثير من التوجس والحذر. كان الشعور السائد أن تخطيط حدودين في آنٍ واحدٍ لأخوين في أقليمين مجاورين لمجال النفوذ الفرنسي قد تنظر إليه پاريس بشك عظيم، وقد يترجم بأنه تهديد لمركزهم في سورية تمّ وضعهُ بناءً على خطة مرسومة مقصودة مِنّا. وأنا وإن كنت أقدّر الأسباب والدوافع التي حملتك على اقتراح حَلّ عربيّ لا فلسطينيّ لمسألة شرق الأردن، إلاّ أني أخشى أن تؤدي أي محاولة منك لإقامة وحدة عربيّة في هذه الأراضي إلى توريط بريطانيا في تعهدات ومشاكل فادحة الثمن هي في غنى عنها»[٢٧].

إلاّ أن تشرشل نجح بالأخير في إقناع حكومته برأيه. مُضيفاً اقتراحاً بضرورة تواجد عسكري، إذ بدون وجود قوة بريطانية سيتعذر إقامة أي كيان سياسي، مشيراً

---

(٢٧) گلبرت: (ونستن تشرشل ١٩١٦-١٩٢٢) المرجع السالف، ص١٤٠٧.

في الوقت ذاته بأن الأمير (عبدالله) قد يتوقع بقاؤه مدة تزيد عن «الأشهر القليلة»، وانه على ضوء التجارب الماضية قد يكون عاملاً مساعداً في أستتباب الأمن والنظام، وأنه سيتعاون كذلك في مسألة اختيار شخصية محلية تقوم على رأس الحكم في تلك الأراضي.

في الواقع كان تشرشل يرى أن (عبدالله) قد يكون عاملاً مساعداً لكبح جماح الحركة الصهيونية والوقوف في وجه النفوذ الفرنسي مع قوميي سورية العرب. فبمقدور هاتين القوتين المؤتلفتين أن تُثبتا لهما قَدَما في تلك البقعة العربية الخالصة من فلسطين الكبرى. وبنظره أن «الحلّ الهاشمي» هو الكفيل بحلّ هذه المشاكل وليس بخلقها كما روّج له ناقدوه داخل الحكومة وخارجها.

العقبة الباقية تمثلت في البيت السعودي، الذي عارض بشدة رفع البيت الهاشمي إلى منصب سياسي آخر. لكن العقبة أزيلت بقبول عرض (تشرشل) على (عبدالعزيز) برفع راتبة السنوي إلى مائة ألف باون[٢٨]. بعد ارفضاض مؤتمر القاهرة في نهاية آذار، رحل (تشرشل) إلى القدس والتقى (عبدالله) أربع مرات توصل خلالها إلى اتفاقٍ كليّ معه. وكتب:

«موقف عبدالله كان معتدلاً حافلاً بالطيب والمودّة. إنه ذو أصالة سياسية وقد اتخذ بالنسبة إلى التظاهرات العربيّة ضد الصهيونية موقفاً صائباً تماماً وعنّف المتظاهرين وقال إن البريطانيين هم أصدقاؤه وأن الحكومة البريطانية سوف تفى بالتزاماتها لليهود. . . وافق على أن يتولى الحكم في شرقي الأردن لمدة ستة أشهر بمعاونة مشاورين بريطانيين (ضباط سياسيين) وبدعم ماليّ بريطاني لكن من دون حضور عسكري. ووافق كذلك على إنشاء قواعد جوية لنا. . . تحول عبدالله تماماً. أملي هو أن لا يحزّ أتباعهُ رقبتَه، إنه شخص مهذب وودود للغاية»[٢٩].

مع هذا بقيت البلاد الجديدة - التي عرفت بالأردن اختصاراً - مصدر قلق لوزراء المستعمرات المتعاقبين في الحكومات البريطانية. فبعد أسابيع قلائل فحسب مرت على تعيين (عبدالله) حاكماً للمنطقة بدأ المراقبون البريطانيون يستنتجون بأنه أضعف من أن

---

(٢٨) المرجع السالف: ص٤١٤.

(٢٩) المرجع السالف (گلبرت: ونستن تشرشل) ص٥٤٠.

يحكم. ففي شهر نيسان وبعد أقل من شهر على تنصيبه أصيبت سلطتهُ بانتكاسة، عندما ذُبح الوسطاء الذين أرسلهم لفض نزاع عشائري ذبح النعاج، فاستجار بالبريطانيين طالباً إرسال قوةٍ، إلاّ أن المندوب السامي في فلسطين لم يرسل غير طائرات وفي الوقت عينه قدّم السفير الفرنسي في لندن احتجاجاً على وجود (عبدالله) في شرق نهر الأردن قائلاً إن وجوده سيكون مصدراً لأعمال عنفٍ ضدّ الفرنسيين في سورية. ولنلاحظ أن هذه وجهة نظر مخالفة لرأي الحكومة البريطانية التي راهنت على وجوده عاملاً لمنع العنف وكانوا مخطئين إذ سرعان ما تحقق لهم أنه لم يكن قادراً ولا راغباً.

ففي آواخر حزيران نصب أربعةٌ مجهولو الهويّة كميناً للجنرال (گورو) حاكم سورية العسكري بقصد اغتياله. وأعلم (السر هربرت صموئيل) الوزير (تشرشل) بأن الشكوك تحوم حول الأردن بوصفه المصدر الذي جاء منه هؤلاء. وأشفع الفرنسيون احتجاجهم الأول بآخر أشدّ لهجةً.

لم يكن المندوب السامي في فلسطين سعيداً قطّ بما قررته لندن لـ(عبدالله). وكتب تشرشل:

«سببٌ واحدٌ من أسباب عديدة للنفرة وعدم الرضا الذي نجده عند الرأي العام هو أن سكان الضفة الشرقية من نهر الأردن ينظرون إلى رهط (عبدالله) السوريين نظرة ازدراء ويعتبرونهم غير كفوئين، وسقط متاع لا يرجى منهم خير»[٣٠].

في الواقع لم يكن في رحاب الشرق الأوسط العربي من البريطانيين من يعتقد أن وجود (عبدالله) سيؤثر في مجرى الأحداث غير رجل واحدٍ وهو (لورنس) وقد دافع عن وجهة نظره هذه بقوله:

«إن مجموع ما يكلف وجودُ عبدالله الخزينةَ هو أقل من نفقات فوج عسكريّ. ونظامه لا يضرّنا بشيء. ومهما يكن الحلّ الأخير الذي نتوصل إليه، فيجب أن يشترط فيه أن لا يكون كثير التقشف وأن لا يكون شديد الفاعلية(؟)»[٣١].

لم تكن الحكومة البريطانية في تلك الفترة مهيّأةً ولا قادرةً على اختيار واحدٍ من مصيرين لهذه البقعة من الأرض: إما جعلها وحدة سياسية قائمة بذاتها بفصلها نهائياً عن

(٣٠) آرون كليمان: المرجع السالف ص٢١٦.

(٣١) المرجع السالف (گلبرت: ونستن تشرشل) ص٤٠٦.

فلسطين أو إلحاقها بالحجاز. لذلك كان الإبقاء على (عبدالله) فيها من شأنه تأخير اتخاذ القرار وهو المطلوب حينذاك.

لكن تعليل (لورنس) حول التقشف والاقتصاد في النفقات وقع موقع استحسان من تشرشل بل أخذ بلبّه. وهو الذي جعل من ذلك شعاراً ونهجاً لوزارته حين تقلدها لاسيما وأن (عبدالله) الذي لم يَعُد له أيّ أمل في عرش العراق، كان قد تعهد للبريطانيين بالتعاون والاستعداد للتوقيع على معاهدة بريطانية - هاشمية حملها لورنس إليه بوصفه ممثلاً خاصاً لـ(تشرشل) مطلق الصلاحية.

وأمضى (لورنس) في الحجاز شهراً، حاول فيه إقناع الملك حسين بالتوقيع على معاهدة هي بمثابة تسوية عامة لكل الادعاءات التي تقدم بها لنفسه وللعرب بدءاً بالأيام الأولى من الحرب. ومن شروطها تأكيد بريطاني على الاعتراف به ملكاً على الحجاز ودفع مبلغ قدره مائة ألف پاون سترليني راتباً سنوياً (بقدر ما يأخذ عبدالعزيز آل سعود)، وفرض عليه مقابل ذلك الاعتراف بالانتداب الفرنسي على سورية والانتداب البريطاني على فلسطين.

كان (حسين) يقول أحياناً إنه سيوقع المعاهدة وأحياناً يمتنع. ويصف (لورنس) الموقف بقوله: «إنه يطلب الاعتراف بسيادته على كلّ الحكام العرب أينما كانوا!».

ويبلغ الحنق (بلورنس) حد هذا التعليق: «هذا الرجل الهرم في مكة بات لا يُطاق بالمرّة. لا يمكن التعامل أو التفاهم معه بأيّ حال».

و(عبدالله)؟ بعد أشهر قلائل من ادعائه بأنه ما حلّ (عمّان) إلاّ ترويحاً عن النفس، بدأ يغّير تفكيره ويخطط للمستقبل، أي طموحه إلى اعتلاء عرش سورية. ففي المبدأ ترك البريطانيين يعتقدون بأنه لا يعتزم البقاء طويلاً، لأن البلاد لا أهمية لها بنظره ولأنه يطمع في بلاد أوسع رحاباً. لكن (لورنس) كان على يقين بأن في وسعه إقناع (عبدالله) بمغادرة شرقي الأردن عندما يأزف وقت الرحيل. لكن في شهر تشرين الأول ١٩٢١ أبلغ لورنس مرجعَه بأن (عبدالله) ينوي البقاء نهائياً.

والظاهر هو أن تطورات جديدة شجعت عبدالله على الاعتقاد بأن الفرنسيين سيكونون بعد وقت قصير على استعداد للتفاوض معه وعقد اتفاق مصالحة تسمح له بالوصول إلى هدفه المنشود الكبير. ولذلك قرر البقاء في هذا الموضع القريب.

في الوقت عينه كانت حاجة بريطانيا إلى إيجاد حاكم جيّد لشرقي الأردن قد أصيبت بفشل كبير وباتت ثانوية. فاكتفت بضمّ الرائد (سان جون فلبي) المشهور فيما

بعد باسم (عبدالله فلبي) إلى عبدالله مستشاراً رسمياً. في حين طفق العقيد (پيك F.G. Peak) صديق لورنس الشخصي يؤلف من البدو قوة نظامية مدربة. كانت في الواقع نواةً لتلك الوحدة العربية التي عرفت فيما بعد باللواء أو الفرقة العربية - تحت قيادة (جون كلوب) باشا الملقب بـ(أبو حُنَيك).

على أن فصل ما تبلغ مساحته ٧٥٪ من فلسطين وجعله وحدةً سياسية عربية كان في الواقع يعني منع اليهود من وضع قدم لهم فيها. وهو ما كان يخالف تصريح (بلفور) ويناقض صك الانتداب على فلسطين.

كان تشرشل ضد تصريح بلفور بالأصل، وضدّ السماح لليهود بتخطي نهر الأردن إلى الضفة الشرقية تبعاً. لذلك قرر تغيير شروط الانتداب. وتمّ له ذلك على النحو المعروف وبسبب من هيمنة بريطانيا على عصبة الأمم وأعيدت صياغة صك الانتداب على النحو الذي يمكن بريطانيا من استثناء شرق الأردن من شموله بتصريح (بلفور).

وانتاب زعماء الصهيونية القلق العظيم وقد تقلصّ مجال عملهم بعد فصْل هذه الأرض الواسعة. وانقلب قلقهم إلى فزع عندما شرعت بريطانيا تفاوض الفرنسيين حول رسم الحدود الدولية بين فلسطين من جهةٍ وبين لبنان وسورية من جهةٍ أخرى، وقيامها خلال ذلك بالتنازل عن أرضٍ شمال فلسطين.

وكتب (حييم وايزمان) لتشرشل - وكأن فلسطين برمتها أصبحت ملك يمينهم:

«إن اتفاقية الحدود مع فرنسا حالت دون ولوج فلسطين حوض (الليطاني) وحرمانها من حيازة أعالي نهري الأردن واليرموك وانتزعت منها السهول الخصبة شرق بحيرة طبرية التي كانت تعتبر حتى ذلك الوقت أفضل منطقة لاستيطان اليهود بشكل واسع النطاق. وأما من ناحية شرق الأردن فلتعلموا بأن حقول (جلعاد) و(موآب) و(آدوم) مع نهري عرنون وجبعون[٣٢] هي جزءٌ من فلسطين تاريخياً وجغرافياً واقتصادياً. . .».

مع هذا لم يقف زعماء اليهود وقفةَ رجل واحدٍ بحملة قوية على عملية استحداث هذا الكيان العربي الجديد لأنهم كانوا يعتبرونه إجراءً إدارياً مؤقتاً ليس غير، مثلما كانت وزارة المستعمرات تعتبره. ولم يكن لتشرشل بأوسع خياله أن يتصور قطّ أنّ تنصيب

---

(٣٢) رافد جبعون ينبع من مرتفعات عمان واسمه الحالي (وادي الزرافة) وعرنون هو وادي مجيب.

عبدالله حاكماً لهذا الجزء من فلسطين سيورط بلاده في حربٍ عربيّة ضروس بين آل سعود والبيت الهاشمي.

فبعد سنة واحدة فحسب من قدوم عبدالله تحرّك (الإخوان) الوهابيون وبرزوا من تلك الصحراء التي لا حدود لها، ليهاجموا الحاكم الجديد فجأةً. لم يَقُمْ بين قوة من الهجّانة قوامها بين ثلاث آلاف وأربعة غير مسافة ساعة لتفاجأ بما لم يكن في الحسبان. فقد تولت الطائرات البريطانية وسياراتها المصفحة تشتيت شملها دون عناء.

وبمرور الزمن تبلورت سياسة بريطانية تشرشلية خاصّة للأردن. مالبثت أن باتت حقيقةً واقعة، احتلت البقية الجديدة اسماً في خارطة العالم واستقّر العامل الجديد في عاصمةٍ ليغدو بعد حين قوة سياسية في لعبة الشرق الأوسط الكبيرة.

* * *

وماذا عن شبه جزيرة العرب؟

بدا في أوّل الأمر وكأن بريطانيا تقبض هناك على ناصية الحال. فأسطولها يسيطر سيطرة تامّة على مياه وسواحل البحر الأحمر غرباً. وعلى مياه الخليج الفارسي (أو العربي أو سمّه ما شئت) من ناحية الشرق وأخطر زعيمين فيها: إبن سعود وحسين صَنيعتان لها تُدفع رواتبهما من الخزينة البريطانية.

لكن، ما كادت الحرب تضع أوزارها حتى وجدت لندن نفسها مضطرة إلى الإقرار باضطراب سياستها في الجزيرة. فحليفاها هذان يشهران سيفيهما واحدهما في وجه الآخر. و(حسين) يلجّ ويصخب شاكياً بأنه مضطر إلى إنفاق ١٢٠٠٠ باون شهرياً من الإعانة التي تسعفه بها بريطانيا للدفاع عن نفسه ضدّ هجمات (إبن سعود) الذي كان يتسلم بدوره خمسة آلاف باون شهرياً، تمتّ مضاعفتها فيما بعد[٣٣]. إعانات يصفها المقيم البريطاني في الحجاز بالسخف والغباء لأنها تؤدي إلى حروب بين الجهتين[٣٤].

كان محتوماً أن تولّد هذه الحالة همّاً لحكومة لويد جورج وأن تتمخض بخلاف حادٍ بين أعضائها حول ما يحسن عمله لحسم الموقف. وقد دام هذا الخلاف ليشلّ المقدرة على اتخاذ موقفٍ ثابت. ولم يتخذ قرار، وما أصدرت لندن من تعليمات

---

(٣٣) بريتون كوبربوتش (المرجع السالف) ص٣٢٤. كاليفورنيا ١٩٧١.

(٣٤) المرجع السالف: ص٤٢٦.

وإنذارات بقي ولم يُرسل. ويحصل أن يتخذ موظفون تنفيذيون في الموقع قرارات معينة، فلا يقال لهم إن موظفين آخرين أبطلوها.

بدأ الخلاف بين الزعيمين العربيين حول ملكيّة واحتي (خرمة وترابة) الصغيرتين الواقعتين على الحدود التي نزل عنها (حسين) لغريمه. والقضية في الواقع ليست قضية واحتين فحسب، بل إن حيازتهما يستتبع ولاء قبلياً تتمّ به السيطرة على أراضي رعي شاسعة[٣٥]. وليس هذا أيضاً. والسبب الأصلي هو الصراع المذهبي المحتدم.

لم يكن هناك ادعاء قوميّ. لم يكن ثم منافسة على من يكون زعيماً لعرب الجزيرة، بل هو نزاع على من سيكون زعيماً لمسلمي الجزيرة. وعلينا هنا أن نعرج بالقارئ إلى ما أوردناه قبلاً وبشكل استطرادي[٣٦].

في أوائل ١٩١٨ أوردت «النشرة العربية» الصادرة في القاهرة نبأ حول احتجاج رفعه (الشريف) قال فيه إن سلطته مهددة بالدعوة الدينية التي تنشرها جماعة (إبن سعود). وحقيقة الأمر هي أن (إبن سعود) يبني ادعاءه بالواحتين على واقع اعتناق أهلها مذهبه الوهابي. وهذا الواقع هو الذي أوحى له بالإفادة من التعصب للمذهب للوصول إلى هدفه السياسي.

في نهاية العام ١٩١٢ بدأت حركة بعث في الجزيرة ذات طابع عجيب غير مألوف. في هذه الحركة الدينية التي قدرّ لها في وقت قصير أن تغيّر من حال الجزيرة، الذي امتد أكثر من عشرة قرون، لصالح ابن سعود. في هذه الحركة الپيوريتانية وجدنا البدو يبيعون خيولهم وجمالهم وأغنامهم وسواها من الممتلكات في أسواق الحضر، ليستقروا معاً في مجمعات سكنية زراعية ذات طابع اشتراكي وليعيشوا عيشة خصاصةٍ وشظفٍ وكفاف وتزمّت تفرضها عليهم فلسفة الدعوة الوهابية ومبادئها. الاتجاه الجديد عُرِفَ بـ(حركة الإخوان)، ولم يتردد إبن سعود ليضع نفسه على رأسها ليجد طوعَ عينيه جيشاً عقائدياً من البدو العرب الأصائل المجاهدين أصلب المقاتلين عوداً وأسرعهم إلى التضحية.

في حركة (الإخوان) تضمحل سيادة رئيس القبيلة، في حين تنمو سلطة (إبن سعود) بوصفه زعيماً روحياً. وكان أخطر ما هدد سلطة (حسين)، انتشار هذه الدعوة

---

(٣٥) يسكن خرمة حوالي (٥٠٠٠٠) بعضهم من قبيلة سبيع وبعضهم من العبيد العتقاء وفيها عشرات من السادة. أما ترابة فيسكنها حوالي (٣٠٠٠) وهي بوابة مدينة الطائف.

(٣٦) راجع الفصل التاسع.

في الحجاز، وهو السنيّ المذهب والوهابيون في نظره أصحاب بدعةٍ وزندقة، وهم في عين الوقت خصومٌ سياسيون. وواصل (حسين) يدفع الحملة تلو الحملة نحو (خُرمة وترابه) دون أن يحقق نجاحاً، لكن في أيار ١٩١٩ بعد النصر المؤزر الذي أصابه الحلفاء نجحت آخر حملةٍ له في الاستيلاء على (ترابه)، بقيادة ابنه (عبدالله) وبخمسة آلاف من مقاتلين مزودين بأسلحة وعتاد أنكليزيين حديث. إلاّ أن إبن سعود أسرع من (الرياض) لاستخلاص الواحة. ولكن لم تقع المعركة الفاصلة التي استعد لها الجانبان، لأن قوّة وهابية قوامها ألف رجل وهي طليعة قوات إبن سعود باغتت المعسكر الحجازي هناك ليلة ٢٥ من أيار وأعملت في الجماعة سيوفها وخناجرها وحرابها ذبحاً. وتمكن عبدالله من النجاة وهو (بدشداشة) نومه ولم يسلم من قوات الحجاز إلاّ نفرٌ[٣٧].

كانت هزيمة كاملة غير أن لندن لم تتردد في الشروع بعملية إنقاذ. أرسلت طائراتها إلى الحجاز ووجه المندوب السامي في القاهرة باسم حكومته إنذاراً لإبن سعود[٣٨]. فلم يتردد هذا الداهية في اجتناب المواجهة وأذعن دون اعتراض مظهراً كل احترام للبريطانيين ومعتذراً بإنه بذل أعظم جهدٍ لكبح جماح (الإخوان) ذوي الرؤوس الحارة، حتى أنه كاد يفقده مركزه عندهم بسبب من ذلك.

إلاّ أن (حسين) المعاند المكابر اتخذ موقفاً معاكساً برفضه الانصياع إلى النصيحة

---

(٣٧) تختلف المصادر اختلافاً كبيراً في عدد القوات المشتبكة. كما تختلف في رواية ما حصل فعلاً. بعضها يقدر قوات عبدالله بـ(٨) آلاف. والمصادر النجدية تقدر عدد المهاجمين بـ(٤) آلاف. وقد اعترف عبدالله أنه لم يسلم من الـ(٨٥٠) حجازياً مقاتلاً غير (١٥٠). ويقول الإخوان إن جميع العتاد والأسلحة وقعت بأيديهم.

(٣٨) نص الإنذار البريطاني الذي وجهه المندوب السامي في القاهرة بكتاب: «أمرتني حكومة صاحب الجلالة البريطانية بإبلاغكم بلزوم العودة إلى نجد حال وصول كتابي هذا إليكم. وأن تتركوا خرمة وترابة منطقة غير مملوكة لأحد حتى تتقرر عائديتها بعد مفاوضات صلح يتم به تخطيط الحدود. فإن رفضتم بعد اطلاعكم على الكتاب فإن حكومة صاحب الجلالة ستعد كل معاهدة بينها وبينكم ملغاة. كما ستتخذ ضدكم التدابير المقتضية لإيقاف أعمالكم العدوانية». ريتشارد هولدن وديڤيد جون Richard Holden, David John: آل سعود: «قيام وسقوط أقوى أسرة حاكمة في العام العربي The Rise and Fall of the Most Powerful Dynasty in the Arab World» نيويورك ١٩٨١، ص٧١. كذلك: گاري ترويلر Gary Troeler: «ولادة العربيّة السعودية وقيام بيت سعود The Birth of Saudi Arabia and the Rise of the House of Saud» لندن ١٩٧٦ ص١٤٢.

البريطانية. وركب رأسه مصراً على إدامة القتال. واقتضى كثير من الجهد والمداورة لإقناعه بعقد هدنة مع (إبن سعود) في آب ١٩٢٠.

وبهذا وعلى ضوء هذين المسلكين المختلفين بدا وكأن لندن والقاهرة ساندتا الجانب غير العاقل الذي لا يتفق مع مصالحهما. ولاسيما بعد أن حقق (إبن سعود) انتصارات جديدة باحتلال (العسير) وهو الأقليم الجبليّ في جنوب الحجاز، ثم تغلبه على خصمه التاريخي ابن الرشيد في ١٩٢١، وانتشار قواته التي قدرت في حينه وبكثير من المبالغة بمائة وخمسين ألفاً لإخضاع ما تبقى من الجزيرة، متحاشياً بطبيعة الحال تلك البلاد التي ترتبط مع بريطانيا بمعاهدات حماية منذ القرن التاسع عشر.

والواقع هو أن لندن صارت تشعر بمضايقة وحراجة الموقف في الجزيرة. مما حمل مسؤولاً بريطانيا كبيراً في وزارة الخارجية على التعليق:

«سنبدو حمقى مغفلين في نظر عالم الشرق كلّه، إن أصيب مُدَلّلنا هذا (يعني حسين) بضربة قاضية وهو في عقر داره، بمثل هذه السهولة»[٣٩].

كانت تصرفات (الملك) الجديد تحرج البريطانيين في أكثر الأحيان وتثيرهم في بعضها[*]. وعندما غزا (إبن سعود) الحجاز وامتلكها وطرد (حسيناً) لم تحرك ساكناً.

لخّص لورد مللنر وزير المستعمرات الذي سبق تشرشل سياسة بريطانيا إزاء جزيرة العرب في السادس من أيار ١٩١٩ بما يلي:

«كانت الجزيرة العربية المستقلة مبدأً أساسياً دائماً في مجال سياستنا الشرقية. وما أعنيه هنا هو أن جزيرة العرب ستكون مستقلة بحدّ ذاتها في نجوةٍ عن التدخلات والمكائد السياسية الأوروبية وضمن مجال النفوذ البريطاني. وبعبارة أخرى، إن ذلك يعني ألاّ تكون لحكامها المستقلين معاهدات مع قوى أجنبية غيرنا».

---

(٣٩) هو روبرت ڤانسيتارت. أنظر بوتش: «بريطانيا، الهند والعرب Britain, India and Arab 1914-1921» لندن ص٣٣٠. ومن ذلك: إنه أعلن نفسه خليفة للمسلمين كافة في آذار ١٩٢٤ إثر الغاء الخلافة بقيام الجمهورية في تركيا وقد قوبلت هذه الخطوة باستياء في مصر لأن الملك فؤاد كان يطمح إلى هذا اللقب. واعتبرها ابن سعود تحدياً لمشاعر (الإخوان) ومن ذلك أنه سمح للحكومة السوڤياتية بتأسيس قنصلية لها في جدّة. في الوقت الذي كانت قوات بريطانية تساند القوات الروسية البيضاء التي تخوض حرباً مع النظام الجديد.

(*) أنظر الذيل.

كان ابن سعود يفهم ذلك جيداً. إلاّ أن الشريف بقي إلى آخر يوم جاهلاً أياها.

* * *

مصر أهم وأكبر بلد من البلاد الناطقة بالعربية. قدر أن يتولاها في فترة حرجة جداً من تأريخها ذلك الذي تزعم الدعوة الشائعة إلى الوحدة العربية أي الهدف النهائي للقومية العربية بمعناها المستجدّ.

إن أولئك الذين دافعوا عن استقلال مصر تحت شعار (مصر للمصريين) ما كان ليدور في خلدهم يوماً أن يليهم فريقٌ من المتحمسين للقومية العربية وجدوا في ذاك الشعار (الأثري) رائحة رجعيّة ونبذوه خرقةً بالية وهزئوا بالذين حملوه، وطاردوا أولئك الذين أقاموا عليه وثبتوا وسجنوهم.

حلّ البريطانيون مصر في المبدأ مجموعة من الموظفين المدنيين للإشراف على تحصيل الديون الأجنبية التي أثقلت ظهر المصريين جرّاء إسراف الخديوي (إسماعيل) ومن تلاه في الحكم. ثم دخلوا عسكرياً لإنقاذ الخديوي (توفيق) من تباريح انقلاب عسكري تزعمه (أحمد عرابي)، فكان احتلالاً فعلياً مبدؤه العام ١٨٨٢.

وظلّ البريطانيون يعدون المصريين مراراً وتكراراً بإنهاء وجودهم هناك، وكان متوقعاً أن يتمّ ذلك إثر ختام الحرب. فعندما أعلنت تركيا الحرب على بريطانيا أصدر اللورد (اسكويث) رئيس الحكومة تصريحاً جاء فيه أن مصر تحررت رسمياً وبصورة كاملة من السيادة العثمانية وباتت محميّة بريطانية. إلاّ أن الحكومة البريطانية أعلنت في الوقت عينه بأن حرية مصر واستقلالها هما من ضمن الأهداف التي تحارب بريطانيا في سبيلها. ولهذا وُجدت فئة من السياسيين المحليين بعد نصر الحلفاء توافق على شيء شبيه بجدول أو برنامج زمني يودي تطبيقه في النهاية إلى الاستقلال. واستند إلى الكلمة التي قيلت واعتبرت تعهداً. ففي ١٣ من تشرين الثاني - بعد استسلام العثمانيين بأسبوعين - سمح لعدد من الوطنيين غير الرسميين بمقابلة السر (ريجنالد وينگيت) المندوب السامي. وكان على رأس هذا الفريق الذي عُرف فيما بعد باسم (الوفد) محام يدعى (سعد زغلول) وهو قاضٍ سابق ووزير معارف في حكومات سابقة، ورئيس للجمعية (العمومية) الاشتراعية، التي كانت السلطات البريطانية قد جمّدتها وعلقتها إلى أجلٍ غير مسمّى عند بداية الحرب.

أوضح (سعد زغلول) للمندوب السامي أن الغرض من زيارة الوفد هو الإجابة عن

توقعات له بخصوص إزالة الأحكام العسكرية وقوانين الطوارئ ورفع الحماية البريطانية عن مصر في أجل قريب سيما وأن الحرب قد انتهت وأن بريطانيا ستعيد إلى مصر استقلالها كما وعدت.

وطلب أن يَسمَح الحلفاءُ برفع ظلامة مصر إلى مؤتمر الصلح أثناء انعقاده وأن يحضر لها ممثلون أثناء المفاوضات وأن يُسمح له بالسفر إلى لندن للتفاوض في موضوع التغيير السياسي الذي وُعِد به المصريون. إذذاك، لم يكن في ذهن البريطانيين أية فكرة أو نية لمفاوضات أو لاستقلالٍ. وكل ما انصرف إليه ذهنهم يمكن استقراؤه مما سجّل رسمياً عن هذه المقابلة:

«في ١٣ من تشرين الثاني ١٩١٨ قام سعد زغلول بزيارةٍ للمندوب السامي وأعرب عن رغبته في الشخوص إلى لندن ليبسط برنامج حكم ذاتي كامل. فرفض اقتراحه هذا لأنه لا يخدم غرضاً حسناً»[٤٠].

في ذات اليوم الذي أرسل (سعد زغلول) خالي الوفاض بدأ هذا ربما بتشجيع من السلطان (أحمد فؤاد) ينشط عملاً. فألف وفداً تمتع بدعم شامل من كلّ الطبقات الاجتماعية، ليكون بحسب قوله:

«حافزاً للشخصيات السياسية المتناقضة على تأليف وترؤس وفود أخرى مماثلة» ولنقف هنا بالقارئ قليلاً.

(سعد زغلول) وصحبه ماكانوا قط رواداً أوائل لمطلب الجلاء والاستقلال بل كانوا في الواقع حلقة وصل لما انقطع من مطالب مدتها عشر سنوات وقد تزيد قليلاً.

انهم لم ينبطوا فجأة ليمدوا ظلالهم على الحركة الوطنية، كما نبط الجنيّ من مصباح علاءالدين، فقد رسمت طريقهم وعبّدته حركة وطنية مصرية تزعمها وأمسك بعنانها شاب يدعى (مصطفى كامل) ذلك الرائد العظيم للحركة القومية المصرية الداعية إلى التحرر والاستقلال الكامل، بحزبه (الحزب الوطني) وجريدته (اللواء).

مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) بنضاله وتعاليمه وأفكاره وسيرته المثالية يقف و(جوزيبي ماتزيني) في صف واحد ومن كل ما كتب عنه - وهو كثيرٌ كثير -

---

(٤٠) سر جيمس رندل Sir James Rondel 1920 عضو بعثة لورد ملنر في ١٩٢٠. (دائرة المعارف البريطانية. الطبعة الثانية عشرة).

ماوجدت دليلاً واحداً يسلمني إلى الشك أو الإعتقاد بأنّ هذا العبقري المصري قد وقف على آثار صنوه الإيطالي أو تعمّد السير إثر خطاه أو تأثر بتعاليمه، كان نسيجاً وحده مثل الأول فلتة من فلتات التاريخ وأعاجيبه. واختلف عنه في أنه اعتبط وهو شاب لم يتخطَّ الخامسة والثلاثين بداء وبيل لم يرحمه ولم يرحم به بلاده. لم تزد حياته السياسية الغنية عن عشر سنوات بكل نضوجها وعطائها وطابعها الخالد في تاريخ مصر والبلاد الناطقة بالعربية.

لم تطل به الحياة ليشهد (المشروطية) وذلك الانقلاب العسكري الذي جاء بالاتحاديين إلى كرسي الحكم ولا ليرقب الضجة التي أحدثها الانقلاب وردود الفعل، ولا شك في أنه كان من الفريق الذي رآه خطراً ماحقاً يهدد مستقبل الأمة المصرية، أو القومية المصرية التائقة إلى التخلص من حكم الأجنبي أياً كانت صفته ومأتاه، فهو مثل ماتزيني لا يؤمن بالعنف، ويتطيّر من تدخل الضباط والعسكريين في حركة التحرر قدر ما يتطير من تدخل النفوذ الديني فيها.

كان من الطبقة العليا في مجتمع ينقسم إلى طبقتين فحسب. ورث لقب الباشوية مع الثروة خلافاً لماتزيني الذي نبع من صميم الطبقة الوسطى، فنبذه وأبى أن يلصق باسمه وعُرف بـ(مصطفى كامل) فقط، في حين كان الأغنياء يتهافتون على اللقب ويشترونه من الخديوي بالمال الجزيل. وأنفق كل ما يملك في سبيل قضية بلاده وافتقر. وتعرض للملاحقة والمطاردة كما تعرض ماتزيني واضطر إلى النزوح عن بلاده والعيش في المنفى زمناً.

دعا مصطفى إلى خط في العمل من أجل الاستقلال لا يختلف عن خط ماتزيني مبدئياً، خطة معتدلة كاملة الأبعاد تعبر عن تفهم عميق لأقصى ما تصله طاقات الجماهير ودرجة وعيها وقوة احتمالها والمدى الذي يقف عنده صمودها. معبراً عن خوف شديد من حركة واسعة النطاق لا تسلم من حوادث عنف، وتعمّد عن أصالة الابتعاد عن الأساليب الثورية مكتفياً كما يقول بالاعتماد على الكتابة والخطابة والفضح والتشهير بالاحتلال ومساوئه:

«الغيرة التي تستعمل في غير موضعها تكون دواماً أضرَّ من البلادة والخمول. فلذا أناديكم مناداة محبّ لبلاده أن تنفوا باعتدالكم وسلوككم تهمة مَن يرمونكم بالميل إلى الهياج والإضراب. ومَثَل مصر مَثَل مريض قارب الشفاء

ينصح له الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا يتكس بالعلة فتعود عليه بويل أشدّ من ويلها الأول». [41]

وكان يشعر بزخم وتأثير أولئك الذين يريدون الإبقاء على الصلة العثمانية وسيادة أسطنبول على مصر. واقعٌ لا يمكن نكرانه، كثيراً ما تعلل به الاحتلال البريطاني للبقاء في البلاد واتخذه مبرراً لرفض الحوار مع الساسة الوطنيين. كان في الحزب الوطني تيار قويّ مناصرٌ لتركيا، يتزعمه الشيخ عبدالعزيز چاويش الذي نادى بالاستقلال المصري ضمن الجامعة الإسلامية:

«. . . حقّ الأمة المصرية (لاحظ أنّه يستخدم تعبير الأمة للمصريين) في الحرية والدستور والجلاء في ظلّ وحدة العالم الإسلامي ممثلةً في الدولة العثمانية التي يتعين الحفاظ على وحدتها ومقاومة تمزيقها فإن في تمزيقها ضياع الوطن كلّه»[42].

وكان ردّ مصطفى كامل واضحاً:

«رمانا الطاعنون بأننا نريد أن نخرج الإنگليز من مصر، لنعطيها إلى تركيا، وما هذه التهمة إلاّ تصريحٌ بأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلاّ لأن نكون عبيداً أرقاء. . . إننا نطلب الاستقلال بأعلى أصواتنا وعلى مسمع من الأمم كلّها وإننا إن أخلصنا الودّ لأمة أو لدولةٍ، فإننا نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من اتفقت مصالحهم يتجمعون ويتناصرون. إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطني مستقلّ عن كلّ الدول والحكومات والملوك والأمراء. . .»[43]

(41) أحمد رشاد: «مصطفى كامل، حياته وكفاحه» ص5.

(42) أنور الجندي «الشيخ عبدالعزيز جاويش» سيرةٌ، ص83. مقابل هذا كان ثمّ تيارٌ (محمد فريد) صديق مصطفى كامل وأقرب أعوانه إلى قلبه يؤمن بالدستور والإصلاح عن طريق المجالس وبالتدريج. آراؤه تتفق وآراء مصطفى كامل لكنه كان أقل جَلداً وأسرع إلى اليأس وهو ينعى على جاويش موقفه ويكتب في مذكراته: «لقد وصلت الحالة بالشيخ جاويش إلى أن ينصحني بعدم حمل الدبوّس الذي حملناه في جنيف والمكتوب عليه (مصر للمصريين) والذي قررنا أن يكون شعار المصريين المخلصين. وقال إن منظره في صدره وصدر إخواني يغيظ العثمانيين كما يغيظهم محافظتي على قومية مصر». (مقتبس من: مواقف حماسية في تاريخ القومية العربيّة لمحمد صبيح، (جريدة اللواء).

(43) ألقي هذا الخطاب في 22 تشرين الأول 1907 في قاعة مرسح (ريزينيا) بالإسكندرية وحضره ستة آلاف من أعضاء الحزب وأنصاره. (جريدة اللواء).

ارتبط (مصطفى كامل) بالجماهير، يستقبله البسطاء من الناس لا بالمئات بل بالآلاف أينما حَلّ. كان الزعيم الحقيقي الوحيد في جميع البلاد الناطقة بالعربية. ولم تنجب أي بلدٍ منها مثله حتى يومنا هذا. إن لصوقه بالجماهير وتفهمه للخلق المصري تعبر عنه هذه الفقرة التي وردت في حديث أدلى به إلى صحيفة نمساوية في العام ١٨٩٦: «سبيل الثورة نحن لا نريده لإننا قبل كلّ شيء قومٌ مشهورون بالدّعة وحبّ السكينة ونبغض المذابح والجرائم. ومن جهة أخرى فإنّ لأوروبا عندنا مصالح تضرّ بها الثورة لذلك أعرضنا عن السبيل الذي نكرهه بفطرتنا واخترنا السبيل السلميّ»[٤٤].

هذا الخُلق المصري الأصيل الذي عُرف به المصريون وما زالوا لم تؤثر فيه شعارات القومية العربية التي قدمها عبدالناصر لهم في طبقٍ من خزفٍ بلون من الطعام لم يكن مستساغاً لأنه ينافي الواقع المصري. ما لبث أن لفظ ما يحويه من طعام وهوى متكسراً بأيدي الجنين «الغول» الذي خرج من رحمه وأقصد به متشددي المساجد، أولئك الذين صبغوا أرض مصر بدمائهم ودماء ضحاياهم، وسيأتي الكلام عن هذا في موضعه المناسب.

كان فشل انقلاب (عرابي ١٨٨٢) والانتكاسة التالية له بكل ما جرّه على البلاد مستقراً في أعماق ضميره. لذلك كره أن يصطبغ حزبه بأي صبغة عسكرية فلم يقبل انضواء أي ضابط عضواً في حزبه. وكان قد تلقى خطاباً حماسياً من ضباط حامية (سواكن) في السودان وقعه عدد من الضباط أعلنوا فيه تضامنهم واستعدادهم للتعاون معهم فأجابهم بهذا:

«من الحكمة ألاّ نمكّن العدوّ من رقابنا وأنا لا أودّ أن يدخل الضباط في حركتنا السياسية دخولاً ظاهراً مسوّغاً لخلق التهم الثورية بمصر وغير ذلك مما لا يخفى عليكم»[٤٥].

---

(٤٤) علي فهمي كامل: «سيرة مصطفى كامل» ص٢٨٧. (المؤلف أخ شقيق لصاحب السيرة وهو عسكري).

(٤٥) المرجع السالف: ص٥٥١. أورد نصّ الرسالة وهي كالآتي:
«الى الشهم الغيور الوطني المصري مصطفى كامل أفندي أيّده الله. إن الذين يخاطبونك يجدون أنفسهم أمام وطنيتك النادرة وتفانيك في حب مصر المقدسة صغاراً. لأن قلمك الحقّ أمضى من سيوفنا وحججك القوية أفعلُ من رصاصنا فإن قصرنا في شكرك فلنا من عملنا أكبر عذر وفي حنوك أعظم أمل. إننا نشكرك أيها السيد المبجل شكر المصري الصميم لأخيه الحميم =

أعتُبِط (مصطفى كامل) صغيراً. ومن العبث الصبياني والرجم بالغيب أن نتساءل: لو أن يد الموت تأخرت عنه ثلاثين عاماً، وبجماهيريته تلك التي لم تلق تحدياً أو منافسة. فأيّ شكل كان سيتخذه الجهاد المصري في سبيل الاستقلال وأي دور سيقدره التاريخ لخليفته سعد زغلول؟

توفي مصطفى كامل وتمزقّ حزبه بوفاته دون أن تصاب خميرته بالتلف، كما سنرى.

هاجر أعضاؤه البارزون بالعشرات إلى أوروبا تخلصاً من الملاحقة وضعفاً في النفس. وتسربّ نوع من اليأس في أبرز أعضائه بعد زعيمه، لهذا يكتب (محمد فريد) الهارب من حكم بالسجن صدرَ عليه في مذكراته بتاريخ ١١-١-١٩١٤ وهو في المنفى:

«اتضح لي من كثرة اتصالاتي ومساعيّ أنه لا أملَ من جهةٍ من قيام الجامعة الإسلامية باسم الدين. ولا أمل في أن المانيا تساعدنا ضدّ الترك لأنهم محتاجون إليهم، ولا يريدون أن يغبنوهم في شيء. ونحن في مثل هذه الظروف نفضل بقاء الإنگليز والاتفاق معهم على أخذ الدستور ولو تدريجياً»[٤٦].

إلاّ أن العالم تغيّر بعد عشر سنوات من تمزق الحزب الوطني، وأربع سنوات من حربٍ لم تشهد البشرية لها مثيلاً من قبل بشمولها وبالخسائر التي نجمت عنها وبالحياة التي اتبعتها في عروق الشعوب المُستَرقّة، و(زغلول) ووفده يعرضان مطاليب محددة واضحة لا لبسَ فيها ولا إبهام.

بعد أربعة أيام من هذه المقابلة التاريخية بعث (وينگيت) بهذه البرقية إلى وزارة الخارجية:

«السياسيون المصريون يطالبون ببرنامج حكم محلي (أتونومي) كامل، وقد أنذرتهم بألاّ يعمدوا إلى إثارة أو يتسببوا في هيجان، إلا أن السلطان ووزراءه لا يشعرون بأنهم يملكون قوة كافية تقف في وجه المطالب الوطنية»[٤٧].

= فاقبل شكرنا واعلم أن أرواحنا طوع إشارتك في خدمة بلادنا العزيزة».

(٤٦) محمد صبيح: المرجع السالف ص٢٦٨.

(٤٧) المرجع السالف: (جون دارون) ص٧١.

وكان هذا خلافاً للحقيقة فوزراء السلطان الكارهون الظهور للرأي العام بمظهر صنائع إنگليزية ادّعوا أنهم لا يقبلون ترؤس أي وفد بالسفر خلال ذلك العام.

وفي كانون الثاني ١٩١٩ باقتراب موعد انعقاد مؤتمر الصلح صعّد (زغلول) وحزب الوفد من نشاطهما بين الجمهور وكثرت الاجتماعات العامة وكتبت مقالات شديدة اللهجة في الصحف وعم سخط شديد عندما عُلم في الثاني عشر من من هذا الشهر بأن وفداً سورياً سيُسمح له بحضور ذلك المؤتمر. وفي اليوم التالي دعا الوفد أعضاءه إلى اجتماع تم عقده في دار أحد أعضائه، وفيه بسط (زغلول) رأيه في ضرورة نيل مصر مثل هذا الحق. كما تحدث عن الاستقلال التام والجلاء. فأصدرت السلطات البريطانية على الأثر أمراً يمنع (زغلول) بموجبه من الخطاب في العلن[٤٨] واستقال وزراء السلطان احتجاجاً. وأبى (زغلول) التقيد بالأمر الصادر فاعتقل مع ثلاثة من أبرز أعضاء وفده وأبعدوا في الثالث من آذار إلى جزيرة (مالطة). واجتاحت مصر موجة من التظاهر والإضراب وبوغتت السلطة المحتلة بمفاجأة غير متوقعة ولا هي مستعدة لها، تم فيها تحدي القوانين التي وضعتها تحدياً سافراً.

ويستخلص من البرقيات التي كانت تصدر إلى لندن من دار المندوب السامي أن إدارة الاحتلال كانت عاجزةً عن فهم ما حصل من تغيير خلال سنوات الحرب[٤٩] وأنها لم تستوعب قطّ ما طرأ على مصر من التطور الاجتماعي والاقتصادي، ولا عن تنامي قوى الطبقة الوسطى وظهورها الكبير في جسم المجتمع المصري خلال العقود الخمسة الماضية. ولا هي مقدّرة طموح هذه الطبقة ومصالحها التي يقف الاحتلال عقبة أمامها. على أنها كانت تعلم حق العلم بأن كثيراً من الساسة والمتعلمين المصريين فضلاً عن فريق من الصحافيين والكتاب والعلماء المسلمين كان يسعدهم أن يروا بريطانيا تخرج من الحرب مهزومة.

واعترف (هوگارث) رئيس المكتب العربي ورئيس الإستخبارات في القاهرة بذلك في مفكرة له مؤرخة في ٢٢ من تموز ١٩١٧:

«مصر في الوقت الحاضر هي أرض عبد بدون شكّ. وليس في الإمكان ادّراء

---

(٤٨) كان يسري فضلاً عن الأحكام العرفية أحكام قانون التجمهر الذي يمنع اجتماع أكثر من خمسة أشخاص سواء في طريق عام أو محل عمومي.

(٤٩) المرجع السالف: جون دارون، ص٧١.

الخطر الداهِم الناجم عن هذا، إلاّ بأن تأخذ بريطانيا على عاتقها مسؤولية إعادة تنظيم المجتمع المصري(!)»[٥٠].

ما الذي يقصده (هوكارث) بعبارته الأخيرة؟

عما يمكن عمله في إعادة تنظيم المجتمع المصري؟

في جو السياسة المصرية الحافل بالضباب كان السلطان أحمد فؤاد ووزراؤه، والمعارضة والوطنيون والإصلاحيون، وجمهرة الكتاب والمثقفين يناورون ويداورون فيما بينهم ويساومون أحياناً نزولاً لخاطر بعضٍ وأحياناً ضدّ بعضٍ لبعضٍ تحت ستار المطالب الوطنية، من أجل الفوز بمساندة مجموعات من المجتمع المصري. ومراكز الاقتصاد المصري ليس لها اهتمام كبير بما يحصل. تيارات شديدة كانت تتجه رغم تضاربها نحو هدفٍ منذر بانفجار هذه البلاد التي وضعت تحت الحماية رغم غفلة البريطانيين عنها كما تشير الدلائل، إذ بدا لهم (زغلول) ووفده أناساً لا يختلفون عن غيرهم من الناقمين وطلاب المناصب الذين يستخدمون المطالب الوطنية سُلّماً للوصول إلى كراسي الحكم. وقد ورد في تقرير للمندوب السامي ما يتفق تماماً وهذا، إذ كتب في نيسان ١٩١٧ عن زغلول:

«إنه يتقدم في السنّ، وربما كان يرغب في أن يؤمن له مدخولاً»[٥١].

لكن، ما مرّ أسبوع على إبعاد «طالب المنصب والمدخول» هذا، حتى انفجرت تظاهرات كبيرة في القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن، شملت رقعتها الدلتا ورفعت شعارات حزب (مصطفى كامل) الحزب الوطني: «مصر للمصريين». ونزل الأقباط المسيحيون إلى الشارع ليشاركوا المسلمين: رجال دين، فلاحين، كسبة، عمال. وسمعت هتافات حول معانقة الصليب والهلال وغيرها. وانقلبت التظاهرات إلى أعمال عنف عندما تصدّت لها السلطة. وعقبتها إضرابات. أضرب عمال النقل والنسيج وقلعت قضبان السكك الحديد في الخطوط الرئيسة وفي خلال أسبوع واحد ابتداءً من ١٦ آذار ١٩١٩ توقفت قطارات القاهرة وقطعت أسلاك البرق بين العاصمة وبين الدلتا ومصر العليا. وضُرب نطاق حول أحياء الأجانب وتصاعدت ألسنة نار

---

(٥٠) أوراق وينگيت: جامعة دورهام رقم ٤٠١٧.

(٥١) المرجع السالف: ص٢١٦.

الفوضى قدر ما تصاعدت الهجمات على أفراد القوات المسلحة البريطانية. وبلغت في ١٨ منه شأواً خطيراً بمصرع ثمانية، بينهم ضابطان ومفتش سجون في قطار قادم من أسوان إلى القاهرة. وأبلغ المندوب السامي لندن أنه لا يملك أية وسيلة لإعادة السيطرة على مصر العليا، وهو كذلك لا يملك أي معلومات عن الوضع هناك. لكنه وبحسب معلومات جديدة لا يستبعد أن يؤدي هذا الفوران إلى ثورة بمقياس واسع لا يدانيه أي عصيان في الإمبراطورية الشرقية منذ «العصيان الهندي».

كان في هذه المخاوف كثير من المبالغة. إلاّ أن المندوب السامي يعبّر هنا عن شعور خاصٍ حقيقي لا مماراة فيه. وما صدمه هو «الطابع البلشفي» بحسب تعبيره. وعندما تمالك نفسه كتب: «إن الحركة الحالية في مصر هي حركة وطنيّة بكل معنى الكلمة، وبكل أبعادها. وهي الآن موضع عطف لسائر الطبقات والعقائد».

القبط يتظاهرون مع المسلمين. طلاب الأزهر مع طلاب المدارس. نساء محجبات من الطبقة العليا يتظاهرن مع الرجال. كلّ هذا مقبول لكن بمشاركة جماهير الريف التلقائية هو الذي فتّ في أعصاب السلطة المختلفة. وهو أعظم ما بوغتت به ولم تكن تتصوره في الأحلام. بل وأكثر من هذا «طابع الانتظام والإعداد المسبق، لا العفوية والارتجال».

وجد البريطانيون أنفسهم على حين غرة بمواجهة رأي عام سياسي مصري يشدّ أزره وطنيّون مبرزون ذوو عزمٍ وهدف.

واستقدم الجنرال (أللنبي) من القدس على عجل لمعالجة الوضع. وأعلن حال وصوله في ٢٥ من آذار عن اعتزامه قمع الإضطرابات. وفي السابع من نيسان أعلن نبأ الإفراج عن (زغلول) ورفاقه وإعادتهم إلى مصر. فهدأ الوضع قليلاً وأفلحت القوات البريطانية في إعادة النظام بالتدريج خلال فصْلي الربيع والصيف. إلاّ أن التظاهرات لم تتوقف كُليّةً.

وفي نهاية العام ١٩١٩ أرغمت لندن على إرسال لجنة لتقصّي الحقائق برئاسة لورد (مللنر)، توصلت في تقرير لها إلى وجوب إنهاء الحماية البريطانية وإحلال نوع من العلاقة السياسية محلّها. ونجم عن هذا محاولاتٌ بريطانية خلال سنوات ١٩٢٠-١٩٢٢ التالية للتفاوض على شكل العلاقة مع الزعماء المصريين بدون الوصول إلى نتيجة. ولم يؤدِّ نفي (زغلول) ورفاق له إلى جزيرة (سيشل) في المحيط الهندي إلى

طائل واضطرت السلطات البريطانية إلى إعادتهم كما حصل قبلاً أمام ضجة وضغطٍ جماهيريين متصاعدين[٥٢].

* * *

في مصر قبل الحرب وبعد الحرب، لم يكن هناك شيء يصل بينها وبين العروبة. وفي ميدان التعامل السياسيّ كما في ميدان الأدب والصحافة كان ثمّ شعارات فحسب. مصر (الأمة المصرية)، والإسلام (الجامعة الإسلامية).

المصريون المسلمون لا يعرفون غير أنهم مصريون مسلمون كالأقباط لا يعرفون إلاّ أنهم مصريون مسيحيون صميمون عصمهم تمسكهم بدينهم من الهجنة إلى حدّ كبير وفخروا بتلك العصمة. في حين ترى أهل المدن الكبيرة لاسيما الطبقة العليا يفخرون بأصولهم التركية والأجنبية وبأنهم من نسل الحكام المماليك، ولا يعتبرون الإقرار بأيّ أصل عربي شرفاً ومحتداً. خلا أولئك الذين ينسبون أنفسهم صدقاً أو كذباً إلى العترة النبوية وهم السادّة. وفخرهم متأت من هذا فحسب، لا من أرومتهم العربيّة. وسكان الصعيد الذين يؤلفون عصب الريف المصري وعماده هم مصريّون في كلّ شيء سوى الإسلام واللغة. بقوا بعيدين كلّ البعد عن مدنية الغرب ولم تؤثر فيهم تلك الثورة الاجتماعية والفكرية التي أطلق (محمد علي الكبير) لها العنان. وهذه المشكلة لم تبرز بطبيعة الحال عند السوريين واللبنانيين: فأقباط الصعيد أنفسهم خلافاً لماروني سورية لم يقوموا بدور كبير في بناء الحياة الثقافية في حين أن كثيراً من المسيحيين الذين أحدثوا بصمات خالدة في العالم الثقافي المصري كانوا أغراباً اجتذبتهم الحرية النسبية التي كانت تتمتع بها مصر في القرن التاسع عشر. كان بوسع هؤلاء وقد أتينا إلى ذكر كثير منهم أن يتحركوا في مصر باتجاه الآمال المصرية دون أيّ شعور منهم بأنهم ليسوا صادقين مع أنفسهم ولم تقف سلطة الكنيسة ورجالها عائقاً رغم مساندة الدولة لرجالها وأحبارها فكثيراً ما تجاهلوها. أما بخصوص المسلمين فإن الإسلام كان منغرساً في أعماق ضمائرهم لا يتحركون فكرياً وسياسياً بدونه.

إن الحياة في دنيا العصر لها متطلبات تحتم إحداث التغيير في أساليب التنظيم الاجتماعي بل وفي تركيب المجتمع نفسه. وقد تحتم على المفكرين والأدباء المسلمين أن تصاغ تلك الحياة بالشكل الذي يشعرهم بأنهم صادقون مع أنفسهم، ولا يتأتى هذا

---

(٥٢) المرجع السالف.

إلاّ إذا ترجم الإسلام بالمعنى الذي ينسجم مع قوى البقاء والتقدم العالميين ويسايرهما. كانت هذه لحظة الشروع التي إلتزمها أولئك الذين يمكننا أن نطلق عليهم مصطلح «المفكرون الإسلاميون» المصريون.

نبغت في مصر طبقة نيّرة من هؤلاء، رأت أن الإسلام لا تقصر قوته في موافقته للعقل والتقدم والتعاضد الاجتماعي، وهي أسس المدنية الحديثة، بل هو بالتأكيد يأمر بها إذا ما فُسرّ تفسيراً صحيحاً. وهؤلاء الذين التفوّا حول مصطفى كامل وسعد زغلول وحول دور النشر الحديثة ومطبوعاتها الدورية، كان منطقهم[٥٣] يمثل تلك الأفكار التي عرضها (جمال الدين الأفغاني ١٨٣٩-١٨٩٧) في مصر، وهو إيراني لا تخلو كتاباته من غموضٍ، إلاّ أن تأثير شخصيته كان هائلاً في مصر، طورت أفكاره تلك وبُسطت بما كتبه مصريّ كردي الأصل يدعي (محمد عبده ١٨٤٩-١٩٠٥) ولقب بالإمام بحقٍ. وكان لكتاباته أثرها العظيم الباقي لا في مصر وحدها بل في سائر العالم الإسلامي- ولاسيما في البلاد الناطقة بالعربيّة.

أجمل (محمد عبدُه) الغاية التي توخاها في حياته كما ذكر هو نفسه بقوله:

«... بإطلاق الفكر من إسار التقليد، وفهم العقيدة كما فهمها جماعة المسلمين قبل الخلاف. والعودة إلى الأصول الأولى لكسب المعرفة الدينية ووزنها بميزان العقل الذي ما خلقه الله إلاّ ليكون حائلاً دون الغلوّ والزيغ ولتظهر فيه حكمة الله ويحافظ على انتظام أعمال البشر، ولإثبات كون الدين يجب أن يعتبر صديقاً للعلم ومحفزاً للإنسان على كشف أسرار الوجود، وداعياً إلى احترام الحقائق الثابتة من أجل أن يعتمد عليها في سلوكه وحياته الروحية»[٥٤].

الظاهر من تعاليمه أنه يفصل بين مبادئ الإسلام الأساسية وبين تعاليمه الاجتماعية وحدوده القانونية. فعنده أن المبادئ البسيطة التي وصلتنا عن خطٍ أو سلسلة مركزية من المفكرين الذين يعبّر عنهم باصطلاح «السلف الصالح»: هي الإيمان بالله وبنزول

(٥٣) كان ذلك في كانون الأول ١٩٢١. وهم خلاف زغلول، مصطفى النحاس، وحمد الباسل، ومكرم عبيد وعدلي يكن. كان زغلول (١٨٥٧-١٩٢٧) أزهرياً بالأوّل وقد اتصل بمحمد عبدُه وجمال الدين الأفغاني (الأسترابادي). وتولى رئاسة الحكومة في ١٩٢٤.

(٥٤) تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبدُه، ج١ ص١١. ط. القاهرة ١٩٣١.

الوحي على الأنبياء الذين خُتموا بمحمد بن عبدالله، وبالمسؤولية الأدبية وهي الجزاء في الحياة الأخرى. وكل هذه يمكن الدفاع عنها وحمايتها بقوة العقل. أما الشريعة ومبادئ الأخلاق فهي ممارسات قررتها ظروف خاصّة لمبادئ معينة مقبولة عقلاً نصّت عليها آي القرآن، فإن تغيرت الظروف وجب أن تتغير هي أيضاً. وفي دنيا العصر يكون مهمة المفكرين الإسلاميين (العلماء والفقهاء) التوصلُ إلى إيجاد الرابطة بين القوانين والشرائع الوضعيّة المتغيرة وبين المبادئ والتقليد الثابتين. وبهذا توضع الحدود ويتمّ التوجيه.

كان من الطبيعي أن نشاهد (محمد عبدُه) يشارك مشاركةً فعالة في ثورة أحمد عرابي. وأن يكون على رأس ملهميها الروحيين وقد اتهم معه وحوكم عسكرياً.

وكانت ثورة عرابي مصريّة بحتة. كانت محاولةً للحدّ من السيطرة البريطانية أو لإنهاء الاحتلال. كانت ثورة قومية مصريّة خاصة بمحتواها الوطني، وإنْ لم يكن متكاملاً. إذ لم تغد قوة سياسية فعالة تنضوي الجماهير تحت شعاراتها. ولم تطرح صيغةً معينة تملك لبّ الرأي العام وتستأثر باهتمامه وبالشكل الذي يمكن استخدامه للقيام بثورة كالثورتين الأمريكية والفرنسية، تتناول أسس المجتمع بتنظيم جديد. ولم يتمّ الإحساس بضرورة مثل هذا التغيير إلاّ في مطلع القرن العشرين وكما تقدم شرحه.

في مصر ما قبل الحرب وأثناءه كانت القومية المصرية إزاء القومية التركية موجهتين إلى حلّ مشاكل الهوية والنظام السياسي على الصعيد المصري في الأولى وعلى صعيد الإمبراطورية في الثانية، ولم تتبدل المعادلة كثيراً بعد الاحتلال البريطاني. فقد كان التيار الذي يسند مصر إلى الإمبراطورية العثمانية قوياً متغلباً حتى زالت دولة آل عثمان. فرجحت كفة التوجيه إلى عدوان الدول الأوروبية والتخلص من نفوذها.

القومية المصرية كالقومية التونسية والجزائرية والمراكشية كانت تواجه خلاف ما تواجهه القومية التركية بوجهها الاتحاديّ، والجامعة العثمانية بوجهها المسلم قبلها، فقد كانت تواجه مشاكلها الخاصّة جراء الحكم الأوروبي، ولم يكن من الممكن أن تمتد فكرة العثمانية إلى ما وراء حدود الإمبراطورية وقتذاك لتشمل كلّ من يتكلم التركية أو العربية.

تلك مشاكل بلاد وضحت هويتها منذ قرون، بعيداً عن رابطة اللغة والدين وأصبحت ذات حدود معينة ثابتة. كل واحد من هذه الأقاليم التي ذكرناها كان ينفرد بهوية سياسية تختلف عن الأخرى، ذات تاريخ طويل نسبياً، بسيطرة أسرها الحاكمة

حيناً، وتحت وطأة الحكم الفرنسي - الإنكليزي أخيراً.

فالجزائر مثلاً، وإن كانت اسمياً عثمانية منذ أن فتحها العثمانيون، إلاّ أنها ظلتّ كتونس أيضاً تتمتع باستقلالٍ ذاتي حقيقي حتى العام ١٨٣٣ عندما اندغمت بفرنسا فعلياً.

في الجزائر اختارت القبائل قائداً لها بعد الاحتلال الفرنسي وقعت معه المعاهدة المعروفة بمعاهدة «دي ميشيل» اعترفوا فيها بسلطته على عموم الجزائر باستثناء ثلاث مدن ساحلية. لكنه أسرع فاتخذ لنفسه لقب (أمير المؤمنين) وهو لا يدعي بصلة رحم للنبوة، بل كان شيخ الطريقة القادرية هناك. وقد قاوم وهو في المغرب الاحتلال الفرنسي في العام ١٨٤٤ لعموم الجزائر مدة ثلاث سنوات وقع بعدها في الأسر فنقل إلى فرنسا. ثم أبعد بحسب رغبته إلى دمشق وفيها توفي مخلفاً ذريته التي قطعت صلتها تماماً بالجزائر.

في العام ١٨٧١ حصلت انتفاضة دينية المنحى بقيادة (محمد مكراني) شيخ الطريقة الصوفية الرحمانية وقُمعت وأخضع المدينيون الجزائريون إلى عملية قلب لأصول المجتمع الجزائري تناولت اللغة والتراث الأدبي بصورة رئيسة، مما أدىّ إلى تقوقعها داخل المساجد في الأوساط الدينية، مثلما حصل في تونس لكنه على نطاق أوسع. تمّ إهداء (تونس) للفرنسيين في العام ١٨٧١ بمقتضى معاهدة برلين إذ أعطي لها الضوء الأخضر لبسط حمايتها عليها وانتزاعها من جسم الإمبراطورية العثمانية. وفي نيسان ١٨٨١ غزاها جيش فرنسي قوامه ثلاثون ألفاً من الجزائر وأنزلت قطعات أخرى في ميناء بنزرت. وفي السنة عينها وقعّ حاكم (باي) تونس معاهدة (باردو) التي حولت تونس إلى محمية فرنسية.

وهنا أيضاً أعلن مشايخ الطريقة الرحمانية جهاداً ضد الغازي وحصلت اشتباكات مسلحة واقتضى لقمع الحركة أربعة أشهر. خلفت هذه المقاومة حركة شبه سرّية مبعثها شعور قومي تونسي لمقاومة صامتة مالبث أن انبثقت في العام ١٩٠٧ من عصبة (الشباب التونسي) ذات اللون القومي الواضح وقد ضمت رجالاً ذوي ثقافة فرنسيّة، إلاّ أنها لم تدع إلى الانسحاب الفرنسي الفوري من البلاد، بل كانت كمثيلاتها من الجمعيات السرية في إستنبول وسورية تطمح إلى تغيير في السياسة الفرنسية يتم بموجبه منح التونسيين مجالاً أوسع للثقافة وفرصاً أكبر في الوظائف الحكومية والخدمات الزراعية. لون من مشاركة محدودة في حكم محليّ كان الفرنسيون يأبونه عليهم.

وظهرت في الجزائر أيضاً - وعلى سطح المقاومة المستمرة للاستعمار - حركة (الشباب الجزائري) وهي حركة أصغر حجماً من مثيلتها في تونس، تنادي كذلك بفتح أبواب الثقافة والتعلم الفرنسيين، وبالإصلاحات المالية والقضائية وحقوق سياسية أوسع ضمن إطار الاحتلال.

إلاّ أن مقاومة الحماية الفرنسية لمراكش كانت واسعة في المدن وفي الريف معاً. وظلت تجد قادتها بين رجال الدين. وتبحث عن رموزها وشعاراتها في الأصول التقليدية للفكر الإسلامي. واختلفت في ذلك عن جارتيها تونس والجزائر لأنها لم تمرّ بالمرحلة التي مرت بها تلك البلاد، فقد حافظت على استقلالها قروناً عديدة إلى أن بُسطت عليها الحماية الفرنسية - الإسبانية في آواخر القرن التاسع عشر.

* * *

نوّهت قبل هذا بما يجب عليّ أن أختم به هذا الفصل الآن.

مختلف الحركات القومية أملتها تحديات لعدد من الظواهر السياسية والأحداث التاريخية المستجدة. القومية التركية وهي القومية التي استمدت منها القومية العربية عناصرها بجميع أخطائها ومزالقها كانت ردّ فعل للضغط المتزايد المستمر من أوروبا. ففي أثناء ما كانت الشعوب المسيحية في أوروبا تنسلّ عن الإمبراطورية العثمانية واحداً بعد الآخر انهارت القومية العثمانية لتحل محلّها بالتدريج فكرة القومية التركية متسربلة بالرداء الديني ومتخذةً لوناً إسلامياً بات يتضح ويزداد عمقاً. لكن عندما انبتّت الوشائج بين العرش وبين الطبقة الحاكمة ظهرت فكرة الوطن القومي الواحد غير المستساغة من الأقوام الأخرى. ومجمل الفكرة هي أن الإمبراطورية لا يمكن أن تدوم إلاّ على أسس أمّة متماسكة متحدة بلغة مشتركة. لكن الإمبراطورية كانت في الواقع دولة تركية - عربية - كردية، بأقلية مسيحية هامة بدأ وعيها القومي يتكامل لتعبّر عنه فكرة غامضة عن الجبليين الآشوريين. وكان من الطبيعي أن أي محاولة لتأكيد التفوق العنصري التركي ستخلّ بالتوازن العربي - التركي - الكردي وسيزداد المسيحيون الشرقيون إحساساً بقوميتهم المتميزة. وبمقتضى ردّ الفعل هذا أخذت معالم القوميتين العربية والكردية تتضحان شيئاً فشيئاً لتنأيا بنفسيهما عن القومية التركية.

في مبدأ الأمر ابتعدت الحركات القوميّة عن الدّين، إلا أنها تثبتت بأذياله. تغيّر وضع علماء الدين وتحولوا بالتدريج عن تبوّؤ القمة في المجتمع ولم يعودوا يشغلون مراكز هامة في الحكومة، أو يُشرّفون بمقام الناطقين بمطالب عامّة الشعب أو زعامة

الجمعيات السياسية أو الفكرية. ولم تعد المدارس الدينية والتعليم الديني قبلة للشباب الطموح المالك حريّة الاختيار، لأنه صار قاصراً عن أن يتوسّل لنيل الوظائف الحكومية والتقدّم فيها أو يساعد على فهم دنيا العصر والتحكّم في شؤونها. ورأت العقود الأخيرة من القرن الماضي والأولى من القرن الحاضر في معظم شباب سورية ولبنان وفلسطين ومصر والعراق والجزائر وتونس ومراكش صدوداً مطّرداً عن الكتاتيب الدينية في المساجد. وفتحت مدارس للشابات في هذه الأقطار. واجترأ كثير من الكتّاب على ما لم يجترئ جيلهم السابق من المسلمين المتنورين الذين لم يكتفوا بوطء تلك الأرض الحرام التي كانت وقفاً على رجال الدين، بل كتبوا ونقلوا إلى العربية كتباً وأفكاراً وجدها المتنطعون كفراً وزندقةً وإلحاداً. وحدثت أمور في غاية من الغرابة والأهميّة. وما أسرع ما انتقلت إلى مصر آراء داروين ونظريته واشتراكية ماركس وبرنارد شو، وشوبنهاور وإبسن وديستويفسكي وكروبوتكن. ووجدت النظريات الاشتراكية محلاً في أدمغة المثقفين واجترأ الأدباء وقادة الرأي على مهاجميهم من العلماء ورجال الدين المتعصبين بما لم يجترئ عليه اليوم كاتب أو أديب.

ولايتورع (ولي الدين يكن) ولا يخشى عاقبة إذ تراه يكتب:

«العامة تحبّ الشيء إذا حببه إليها زعماؤها وتبغضه إذا بغّضه إليها زعماؤها. وزعماء العامة عندنا رجال الدين، وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى (يعني الديمقراطية) شيءٌ فهم يحبّون أن يظلوا متحكمين على الرقاب وأن يبقوا عيالاً على الأمّة، وأن يلثم الناس أيديهم ويملؤوا أكياسهم»[٥٥].

وفي موضع آخر يسخر منهم:

«لو جمعنا العمائم التي بالبلاد العثمانية وجعلناها بعضها فوق بعض لبنينا حصناً يعجز عن هدمه أسطول إنكلترا بأسره»[٥٦].

بل مضى هؤلاء المفكرون والكتاب الأحرار الليبراليون إلى أبعد من هذا بكثير، فهتكوا الحجج التي اتخذها رجال الدين هؤلاء لإثبات مبادئ هي ليست من الدين في شيء، وليهدموا الأسوار التي بنيت حولها حجراً حجراً. فهذا الأستاذ (علي عبدالرزاق ١٨٨٨-١٩٦٦) أحد تلاميذ الأمام محمد عبدُه يناقش في كتابه: (الإسلام وأصول

(٥٥) «المعلوم والمجهول» ط. مصر. ج٢ ص٩.

(٥٦) «التجارب» ط. مصر، ص٣١.

الحكم) مسألة الخلافة، ليثبت بأنها ليست مقررة إلهياً وأن النبي العربي محمد بن عبدالله لم يرسل ليؤسس حكومة بل لم يحاول ذلك مطلقاً:

«. . . والحقيقة هي أن الإسلام بريء من الخلافة التي عرفها المسلمون. إنها ليست رتبة دينية ولا هي منصب قضاء أو أيّ منصب من مناصب الدولة، فهذه هي وظائف سياسية بحتة ولا علاقة للدين بها. إنه ما عرفها ولا أنكرها، ما أمر بها ولا حرّمها، فقد تركها لنا لنراجع بخصوصها مبادئ العقل وتجارب الأمم وقوانين صناعة الحكم»[٥٧].

* * *

كل هذا كان يتساوق ويسير خطوةً خطوة مع اشتداد المطالبة بالجلاء والحريّة.

وتحولت مصر إلى مركز ثقل في الفكر السياسي - وأخذ مفكروها وزعماؤها السياسيون زمام المبادأة من السوريين بعد الحرب. وامتلأت دور كتب البلدان الناطقة بالعربية بالمطبوع المصري السياسي أسفاراً وصحفاً ومجلات وقفت أمامها سلطات الاحتلال الفرنسية والبريطانية في كلّ هذه البلدان عاجزةً مكتوفة اليدين.

وفي مصر بالذات اصطدم الخيال البريطاني الرئيس بجدار الواقع.

الزعماء السياسيون ومن ورائهم الأدباء والصحافيون يرفضون حكماً محلياً أو حتى استقلالاً اسمياً. والبلاط يناصرهم في الخفاء. والجميع يريد استقلالاً تاماً ناجزاً لما دعاه بالأمة المصرية. وهو ما لم يكن بوسع بريطانيا الاستجابة له بوجود قناة السويس. وفشل الموظفون البريطانيون في الوصول إلى حلّ، فكان على لندن أن تبقي قواتها هناك السنوات العديدة التالية.

وتمرّ عقود عدة لتأتي محاولة حكم (عبدالناصر) اللعب (سياسياً) بورقة العروبة والقومية العربية، والوحدة العربيّة من المحيط إلى الخليج، ويجند لها نظامه جمهرة من الأقلام المتحمسة للحكم الجديد المروّجة لدعوته، في مجهود لتصوير دعوة القومية بمثابة حلقةٍ من سلسلة متصلة للنضال السابق في سبيل التحرر. إلاّ أن الرأي العام المصري كان في الحقيقة يتحدث ويكتب ويتظاهر ويقاتل في سبيل استقلال أمة متكاملة هي الأمة المصرية، وتحرير الشعب المصري في مصر، لا الشعب العربي في مصر.

---

(٥٧) الطبعة الثانية. القاهرة: ج٢ ص١٠٣.

ملحق

رقم ١١٣٥

F. O. 406-44- P. 322 No. 261

٦ تشرين الأول ١٩٢٠- الرملة

تاريخ الوصول ٢١ تشرين الأول ١٩٢٠

من مستر سكوت إلى إيرل كرزن

سيدي:

لي الشرف في أن أقدم لكم بكتابي هذا، مقتطفات من تقرير رفعه لي الرائد (دبليو باتن W. Batten) وكيل المقيم البريطاني في جدة للفترة المنتهية بـ٢٠ أيلول ١٩٢٠. وسيلاحظ سيادتكم أن الملك حسين ما زال مقيماً على رفضه توقيع معاهدة صلح مع تركيا، حتى تقوم حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) بإعطائه تعهداً بالوفاء بما دعاه بإتفاقنا معه.

وأما عن المحادثات بين الوفد النجدي والملك حسين فقد سبق لي أن أرسلت تقريراً بها لسيادتكم. لقد وجدنا من المستحيل تقريباً إمكان الحصول على التفاصيل عن الحدود التركية القديمة التي أشار إليها تقرير الرائد باتن، لا من القسطنطينية ولا من أي مصدر آخر.

و«الفلاح» التي نوّه بها هذا التقرير هي بالأصل صحيفة دمشقية. لكن وعلى إثر احتلال الفرنسيين هذه المدينة هرب رئيس تحريرها إلى مكّة واستأنف إصدارها. والصحيفة تتضمن تقارير خيالية لا ظلّ لها من الحقيقة عن انتصارات عربيّة في سورية مع مقالات تقدح بالفرنسيين عموماً.

في التقرير الذي نظمه النقيب (نصيرالدين) بتقديم الرائد باتن، هناك تفاصيل أخرى حول المفاوضات المشاع عنها بين الملك حسين ومصطفى كمال.

نسخ من هذه التقارير وملحقاتها أرسلت إلى بغداد وأورشليم وجدّة.

أرنست سكوت

وكيل المندوب السامي

تقرير كتبه النقيب معين نصيرالدين احمد للفترة المنتهية بـ١٩ من ايلول ١٩٢٠

سرّي

مكّة ١٩ أيلول ١٩٢٠

F. O. 466-44- P. 326-327

NO. 261-2

١- هناك شائعات تدور حول حصول تفاهم بين الملك (حسين) وبين مصطفى كمال. وهي متواترة وأنا أميل إلى الإعتقاد بوجود كثير من الحقيقة فيها. فقد بلغنا أن مصطفى كمال أرسل وكلاء له عبر الأراضي الواقعة تحت سيطرة إبن رشيد. وبسبب السرّية أطلق عليهم اسم «المشارقة». بحسب القول الشائع إن مصطفى كمال أقسم يميناً على موالاة الملك حسين والاعتراف به خليفةً شريطة أن يقطع كل علاقة له بالحكومة البريطانية. وتمهيداً لهذه الخطوة، فقد قيل إنه دعا إلى مؤتمر لزعماء مكّة الموثوقين وأشار عليهم بوقف جهودهم إلى الاقتصاد بالأرزاق وعدم تبذيرها. إذ من المحتمل أن تكون مكّة بحاجة إلى تدابير تحفظية. وهذا يشير إلى توقعه ضرب حصارنا على الحجاز في حالة تسرب أنباء مفاوضاته تلك. وكنت قد كتبتُ قبل هذا أن الملك لم يسمح بخروج القمح من مكّة إلى البدو إلاّ بكميات قليلة جداً ورفض أثناء وجودي في القصر السماح بأكثر من غرارتين من الحنطة لبدو جاؤوا بطلبه.

٢- هناك رواية أخرى تقول إن الملك حسين هو الذي سيحلف اليمين لمصطفى كمال وليس العكس. وقد تأيدت الرواية بقول الملك إنه مستعد لإعلان ولائه لأي خليفة يختاره المسلمون. ولما كان مصطفى كمال يعتبر القائد الحاليّ لحركة قوميّة في مصلحة الإسلام، فمن الطبيعي أن يكون هو المقصود بالقول.

٣- تسلمّ الملك برقيّة من سورية مؤادها أن اشتباكات مسلحّة وقعت بين الأكراد والحورانيين في دمشق، سقط خلالها ستمائة قتيل في ساحة الميدان وحدها. وأن الجنود الفرنسيين الموجودين في المدينة كانوا خلال ذلك يمتعون أنفسهم بالمنظر وهم مسرورون ولم يحاولوا التدخل. هذا وقد قتل (نوري شعلان) بيد مجهول. وتستطرد البرقية لتذكر بأن بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية صرح بأن الأمل الوحيد للسوريين مسلميهم ومسيحيّهم هو في الشريف حسين، والملك يخشى أن يسيء

الساسة الأوروبيون ترجمة هذه الأعمال أو التصريحات الصادرة من شخصيات مسؤولة في سورية. وأن يتهم هو بالتحريف في كلّ هذه الانتهاكات والدسائس.

٤- وكذلك ذكر أن الملك أسرّ لبعض الحجاج الإيرانيين بما يجول في خاطره فوعدوا بأن يبذلوا كل ما في طاقاتهم لإيضاح موقفه عند عودتهم. بعض هؤلاء الحجاج كانوا يشجبون علناً موقف الحكومة البريطانية ويندّدون بها بسبب الاتفاق الأنكلو فارسي ويقولون إنه يهدف إلى القضاء على استقلال فارس.
ويحاول الملك أيضاً إقامة صلة مع محمد علي وشوكت علي. وأكاد أجزم بأنه نجح في إقامة علاقة مودّة مع الإدريسي الذي كتب له برسالة قبل يومين. كلّ هذه المواقف تدفع المرء إلى الاستنتاج بأن الملك يحاول ببطء ولكن بإصرار الجمع بين كلّ لون من أصحاب الرأي وأن يستظهر كلّ العالم تحت قدميه.
يجب علينا الإقرار بكل أسفٍ بأن ثقة الحكومة البريطانية قد أصيبت بزلزلة عنيفة، إن لم تكن قد انهارت تماماً. وليس هذا بالغريب عندما يجد المرء كل لون من الآراء في الصحافة تقف إلى جانبه وهو ما يوحي إليه بفكرة مبالغ فيها على أهميته.

٥- يوجد هندي اسمه إسماعيل خان. سكن مكّة منذ السنوات الخمس أو الست الأخيرة، كانت تعتريه نوبات جنون بين آونةٍ وأخرى. وفي العاشر من أيلول ركبته نوبة فنطق بعبارات فيها تحقير للعلماء العرب. فنقل الأمر إلى الملك الذي أمر بإيداعه السجن، وقيل إنه تعرض لمعاملة قاسية شهدت عليها آثار التعذيب في جسمه. وفي ١٦ من أيلول توفي الرجل وأشيع أن سُمّاً دسّ له بأمر من الملك. وكان أهله قد وجدوه لا يشكو شيئاً صباح ذلك اليوم. إلاّ أنهم أعلموا بوفاته بعد ظهره.

٦- الأسلوب الوحشي في وسم لسان السارق بحديد محميّ إلى درجة الاحمرار هو إجراء يمارسه الحكم الهاشمي هنا. وهو ما لم يقدم عليه الأتراك. وتلام الحكومة البريطانية علناً وعلى رؤوس الأشهاد على هذا التغيير في أسلوب القصاص اللاإنساني التركي السابق قياساً على أساليب الملك الوحشية الحالية. وفي هذا العصر من التقدم الحضاري. وصلت إلى علمي قضية من هذا النوع نفذ بها القصاص الوسم. لكن هذا يقع يومياً وبأعداد كبيرة.

٧- قوافل الحجّ المتوجهة إلى المدينة غادرت مكة خلال الفترة المنوّه بها في هذا

التقرير ويتألف معظمها من الفرس. كما يوجد فيها أيضاً أعداد من الهنود تبلغ حدود الألف ومائتين. ومن الحجاج من يدعى (س. مرتضى حسين) كان يسكن مكّة عدة سنوات وواحد من المقربين جداً للملك، استأذنه بالذهاب إلى المدينة وكانت القافلة قد خرجت قبل يومٍ واحد، فرفض الملك رجاءه قائلاً وهو يشير إليّ: «لو سمحت لك بالذهاب الآن وحصل لك أي مكروه فإن هذا الرجل سوف يمسك بخناقي».

٨- من المشاهد الاعتيادية في مكة، رؤية ضباط الحكومة العربيّة ببزاتهم العسكرية يرفعون مظلات فوق رؤسهم حتى عند امتطائهم الخيل! والعرض اليومي لتلاميذ مدرسة الضباط مدته عشر دقائق يقضونها في مسيرة وهم يحملون البندقيات. بعد انتهاء المسيرة تجمع الأسلحة في موضع ويشغّل التلاميذ بنقل الصخور والحجارة من ساحة تقابل الثكنة. وبزاتهم العسكرية تصرف لهم من مخازننا بالتأكيد، ومن الواضح أننا عاجزون عن تجهيزهم بغطاء الرأس وكان على الطلاب أن يؤمنوه لأنفسهم، لذلك تراهم وهم في ساحة العرض وقد اعتمدت رؤوسهم بكلّ ألوان قوس قزح. هناك بينهم تلميذ حربي، طفل لا تتجاوز قامته القدمين، ولا يزيد عمره عن أحد عشر عاماً!

٩- بسبب عجرفة الملك وتعاليه، قاطعه بعض خبراء البعثة الزراعية وتبادل أحدهم (السيد أحمد الداعوق) برقيات بأعنف لهجةٍ مع الملك ورفض البقاء في الطائف رغم أوامر الملك القاطعة. وهو يقول إن الاضطراب الذي يسود بلادهم يزيد من قلقهم على ذويهم. وهم لذلك عاجزون عن القيام بواجباتهم بصفاء ذهن وتفرغ والأفضل أن يعودوا. أمّا حقيقة الأمر فهو يأسهم من إنجاز أي عملٍ إذ إن كلّ مقترحاتهم للتطور كانت تقابل بالرفض من الملك، ولا تترك لهم فرصة لعمل مفيد. وهم يقولون إن الملك يعتبر عقله ومعارفه متفوقة على عقلية الخبراء وتجاربهم حتى في أمور الميكانيك. وعارف بگ الذي اشتهر بالمداهنة والملق والقومية المتعصبة سيبقى. وربما عين وزيراً للأشغال العامة، في الواقع إنه يخشى العودة إلى بيروت. ومع أنه غير مرتاح هنا فهو يفضّل البقاء فترة أخرى لاسيما وأن أسرته معه. وهو يفكر كذلك في الشخوص إلى الهند لإثارة الرأي العام المسلم وتجنيده لصالح الملك حسين.

(توقيع)

الفصل الحادي عشر

الحكام الأجانب، ما خلفوه من اثر ديني أو قومي لا يذكر. فقدان الرأي العام السياسي. الولاء وقتي وموزع وإرغامي على الأكثر. أيام الاحتلال الأولى ومعاداة المحتل. أولى براعم الوعي القومي العربي في عاصمة الولاية، وقوفه ضد التيار التركي القوي. الخلاف بين الجنرال مود قائد القوى المحتلة وبين (كوكس) الحاكم المدني العام. زيارة ستورز من المكتب العربي وتجواله في المدن العراقية. وفاة الجنرال مود، كوكس يبقى حراً في العمل. استئناف الزحف في كردستان وسائر الولاية. دخول الجيش الإنكليزي الموصل رغم ممانعة واليها التركي الشديدة بعد التهديد باستئناف القتال عليها والتلويح بمواد الهدنة. القحط والمجاعة في الموصل. معالجة الجيش المحتل السريعة للوضع الاقتصادي. ولاية الموصل تصبح مشكلة دولية ويرفع أمر البت في عائديتها إلى عصبة الأمم. الاقلية واليهود في التاريخ العراقي. قانون إسقاط الجنسية. البصرة وطلب الارتباط بالهند. اغتيال الضباط البريطانيين. الأفندية العرب، يستخدم المحتل بعضهم. مركزهم الاجتماعي. العاملون منهم في سورية ومعظمهم ضباط قدماء في الجيش التركي. الدعاة والوكلاء الأتراك ينشطون في الولاية. آراء إدموندز. الميثاق القومي التركي. ثورة الفرات والتحاق بعض الضباط بها. محاولة إشعال ثورة مماثلة في الشمال. تفاصيل الحملة على تلعفر وسنجار. مقتل الضباط في تلعفر وفشل التقدم نحو الموصل. ختام الحكم العسكري في العراق. تتويج فيصل. أول حكومة عراقية. إسناد مسؤولية الدفاع عن العراق إلى القوة الجوية الملكية. قضية الآشوريين النازحين. رأي (ولسن وإدموندز). معسكر بعقوبة. تجنيد الليفي الآشوري. محاولة العودة إلى وطنهم حكاري تمنى بالإخفاق والعودة إلى العراق. حكومات مدن أثناء القتال. معارك الاحتلال. استيناف الزحف واحتلال كردستان. المجاعة والقحط. تسليم عاصمة الولاية وختام الحرب. الموقف العام من الآشوريين، المفاوضات بشأنهم، مصيرهم. أعمال لجنة التحقيق وتعيين الحدود

يكتب توفيق السويدي[1]:

«في إحدى جلسات مجلس المبعوثان (النواب) المنعقد في ١٩١١ في إستنبول حصلت مناقشة كبيرة قال فيها نواب بغداد إن العراق (أي الولايات الثلاث) غير عربي بما فيه بغداد. ومما يذكر أن عضو المجلس (الشاعر) جميل صدقي الزهاوي وهو كردي كان ضدّهم»

قليلة هي الدول التي تقوم على مجتمع أحادي الدين والعرق واللغة. فمعظم دول العالم - ربما كانت كلها في عرف الأنثروبولوجيين - تضمّ أقليات كبيرة أو صغيرة من هذا العنصر أو ذاك، تتميز عن الأكثرية بأصولها أو بثقافتها وتراثها الاجتماعي، وبعقائدها الدينية.

وطبق ما توصّل إليه أحد علماء الاجتماع: إن أكثر من ثلثي دول العالم يوجد فيها أقليّة من هذا النوع تضمّ ٢٠٪ من مجموع السكان أو أكثر. وبحكم سيادة الأغلبيّة، فقليل من هذه الأقليات نجا من اضطهاد الأكثرية واعتدائها بهذا الشكل أو بذاك. والأقل من هذه الأقليات نسي أو حاول أن ينسى، والأقل من تلك الأغلبيات من حاول أن يُنسي تلك الأقليات ما لاقته عبر تأريخهما.

المجتمع العربي المسلم في العراق بعبارة أخرى: العرب في وادي الرافدين وأعاليهما على فرض تواجدهم - هم تأريخياً عنصر طارئ وليسوا آخر العناصر الطارئة عليه أو أولها ولم يكونوا آخر فاتحيه، فقد سبقتهم أقوام أخرى جعلت منه مجتمعاً غلبت عليه المسيحية والزرادشتية إلى جانب عقائد أخرى. والأقلية المسيحية التي بقيت

---

(١) مذكرات توفيق السويدي. المرجع السالف ص٣٦. «ليس بوسعي أن أنفي أو أجزم بصحة هذه الرواية. فالمرجع الوحيد وهو محاضر المجلس ليس بمتناول اليد. لكن ومع هذا فليس من المستبعد صدور ذلك من أشخاص انتقاهم الحزب الحاكم (الاتحاد والترقي) من أعضائه أو مؤيديه وعينهم تعييناً وهو حزب متعصب للتركية - فهم بطبيعة الحال لا ينطقون إلاّ بما يحسن في عينه ويستجلب رضاه. فضلاً عن ذلك فمن بين أسماء هؤلاء الأعضاء تجد معظمه ذا أصول عربية تترفع عن الانتماء إلى الأصل العربي وتراه منقصة. وسواء في الأمر أكان القول صحيحاً تماماً أو غير صحيح تماماً، فمثل هذه الانطلاقات الاجتماعية والفكريّة ليست غريبة في هذه البلاد وخير مثال لها تلك المشادة بين الفقهاء وعلماء الدين المسلمين حول تفسير نصوص الوحي القرآني وأحكامه، تلك المعركة التي بدأت قبل أربعة عشر قرناً وهي ماتزال محتدمة ترى أصحابها يكاد يقطع بعضهم بعضاً إرباً ويصل الأمر إلى التراشق بتهمة الزيغ والكفر والإلحاد. والدين واحد وأحكامه واحدة وهي منزلة «بلسان عربيّ مبين».

متمسكة بديانتها ومحافظة على تقاليد وتراث متميز خاص ظلت إلى جانب الأقلية اليهودية أقلية كبيرة جداً.

وما جرى لهاتين الأقليّتين في العراق خلال فترة تمتد لأكثر من ثلاثة عشر قرناً من حالات اضطهاد وقمع تصل أحياناً حَدّ إراقة الدماء، حَفَر أخاديد من المضاضة والتوتر النفسي في أذهان الأجيال المتعاقبة، آيتها بالخوف والمذلة، والرعب الخانع وصعب اجتثاثها. ولم تكترث الأكثرية في أي وقت بردم هذه الأخاديد ولم تحاول إزالتها بدراسة أو بعملية استكشاف لأنجح السبل إلى إزالتها. وفي العراق الحديث كانت هناك استمرارية مبتذلة، لم تفلح في إيقافها، حتى عند حدود المعقول، مجهودات نبيلة من قوميين ووطنيين عرب ومثقفين متفتحي الأذهان كانت صرخاتهم تضيع في وادٍ غير ذي زرع.

المعادلة الديموغرافية الحاليّة في العراق بوصفه جزءاً من العالم الناطق بالعربيّة لا سبيل إلى إسقاط العنصر المسيحيّ منها بكلا جزئيه: الكردي والعربي. تميزت هذه المعادلة خلال حقبٍ من التاريخ بالخروج المتزايد للسلطة المسلمة - المتمثلة في قادة الرأي والحكام ورجال الدين - عن تعاليم القرآن والسنّة وأوامرهما بشتى الحجج والفتاوى والتعاليم لخلق مبررات للممارسات القمعيّة.

كلّ هذا جعل الأقليّة المسيحيّة في البلاد الناطقة بالعربيّة تتطلع إلى الغرب المسيحيّ منذ خرج الاضطهاد عن إطار ضيّق وكسب صفةً عموميّةً.

الأقليّة اليهودية لجأت إلى ترديد واستذكار أحلام أنبيائها بالخلاص وبعملية إنقاذ تتم على يد إله إسرائيل[٢]. ولأن الغرب المسيحيّ لم يكن في أي وقتٍ من الأوقات

---

(٢) قدرت الأقلية اليهودية بما يتراوح بين مائتي ألف ومائة وخمسين في العراق حتى صدور قانون إسقاط الجنسية عنهم (يذكر إحصاء ١٩٤٧ العام رقم ١١٨٠٠٠ لهم). وفي خلال السنة الأولى والأشهر القلائل التالية على صدور القانون نزح منهم مائة وخمسة وعشرون ألفاً. وتوالت الهجرة بعدما صدر قانون تجميد الأموال لليهود النازحين. ولم يرحلوا كلهم إلى إسرائيل لاسيما أغنياؤهم وأصحاب العلاقات التجارية الخارجية، فقد بقي جانب كبير منهم راحوا يتسللون واحداً بعد آخر. وقد روى لي رئيس الطائفة في العام ١٩٧٠ إنه لم يبق من الآلاف الخمسة التي صمدت حتى الستينات غير بضع مئات تمت تخليتهم خلال السنتين الأخيرتين بسبب الاضطهاد الذي تعرضوا له بعد العام ١٩٦٨، وما مرّ ربع قرن على صدور قانون إسقاط الجنسية حتى خلا العراق من يهوديّ واحد.

أكثر رأفة بهم من عالم الشرق الإسلامي، بل كان فعلاً وفي أوقات كثيرة قد تطول وقد تقصر يخصهم برعاية ممتازة. وقد سبق أن فصّلنا في هذا ولا حاجة إلى الترديد والتأكيد. واسترسل مسيحيّو سورية وجبل لبنان ووادي النيل فضلاً عن بلاد الرافدين في أحلام اليقظة بتلك المرحلة التي كانوا فيها سادة بلادهم.

والجدل في هذا مستمر لا ينقطع. لأن سلوك الأغلبية لا يحاول محاولة جديّة للقضاء على أحلام اليقظة هذه. المسلم الناطق بالعربيّة ذو الشعور القوميّ يكاد يجزم لك بأن دينه أحسن معاملة بقايا الشعوب الأصلية في تلك البلاد ممن لم يجحد دينه - وبصورة خاصة أحسن معاملة المسيحيين دائماً. لكن هؤلاء وفي فترات سجّلها التاريخ خرجوا عليه سيّاسياً، وتعاونوا مع الأجنبي المسيحيّ وغير المسيحيّ ضدّه، فاضطر إلى ملاحقتهم واضطهادهم. والمؤرخ المنصف سيجد في بطون التاريخ وزواياه براهين لمصلحة هذا الجانب أو ذاك.

وقد يشير المسيحيّ في مجال الاعتذار عن سلوكه في تطلّعه للغرب والتجائه إليه بأن هذا ماكان إلاّ نتيجة اضطهاد وملاحقات سابقة. يشير مما يشير إلى البِيَع التي حُوّلت إلى مساجد، وإلى إرغامه في فترات تاريخية على ارتدائه زيّاً خاصاً يتميز به عن سائر المسلمين، وإلى قوانين وأوامر حكام معينة تحطّ من إنسانيته. ومثلما تذكر طوائف مسيحيّة معينة لم ترتبط بالغرب، بل كانت تضمر له عداءً مذهبياً. كذلك يشير المسلمون أنفسهم إلى سلطات وإلى حكام اضطهدوا الشيعة الاثني عشرية ولا ينسون أن جماعات من الأقلية المسيحيّة ورجال دين وكبار وزعماء حملوا السلاح ضدّ الجيوش الإسلاميّة إلى جانب الغزاة الأوروبيين أثناء الحروب الصليبية. وتستعاد هذه الذكرى بكثير من الاستفزاز والنقمة بإطلاق كلمة «صليبيّ» على كلّ من يعتبره القوميون العصريون العرب معادياً للقوميّة العربية من المسيحيين كتاباً أو سياسيين وهم يشاركون المسلمين الأصوليين في هذا(٣) لكنهم ينسون أن كثيراً من الحكام المسلمين كانوا يحاربون إخوانهم إلى جانب الصليبيين.

---

(٣) كان مؤلف هذا الكتاب واحداً ممن حظي بهذا النعت في العام ١٩٨٠ من خلال مقال قدح خصصته له جريدة (صوت الجماهير) المعبرة عن لسان القيادة القطرية لحزب البعث الأشتراكي (سورية). وكثيراً ما تجد الوصف يتردد في مقالات الصحف التي تصدر اليوم في إيران باللغة العربية.

هذه المعادلة لم يعد لها مكان في التاريخ بعد مرور ثلاثة قرون على الفتح العربي. فجوّ الحرية النسبي الذي تمتع به المسيحيون خلال هذه الفترة تم القضاء التام عليه عندما خرج العباسيون والمماليك والمغول والدول التركمانية بدولتي الخروفين الأبيض والأسود والفرس خروجاً فاضحاً على تعاليم القرآن والرسول كاد يكون كفراً وإلحاداً، فسبوا ونهبوا وهتكوا الأعراض وهجّروا وأعملوا في المسيحيين قتلاً حتى أرغموا أكثريتهم الكاثرة على اعتناق الإسلام بقسوة كان بعض حكامهم يعتبرها مثابةً يتقرب بها إلى الله وعملاً مبروراً فيه رفع لشأن الإسلام.

عندما دخل الفرنسيّون سورية كانت ذكريات مذابح المسيحيين وصدماتهم في لبنان ١٨٤١ وفي دمشق ١٨٦٠ حيةً في الأذهان. وعندما دخل الجيش الإنكليزي ولاية الموصل - ولا نقول ولاية بغداد - كان ثم ذكريات أكثر من عشرة قرون من المعاملة الفظة ومن المذلة والاحتقار. بدأ حلم إعادة تنصير سورية وما بين النهرين بدعم غربي خيالاً مضحكاً يدغدغ رؤى يعض المسيحيين المهووسين، في حين تحوّل التراث الدموي عند الأكثرية منهم إلى كراهية ونقمة إزاء شهوة السيطرة عند الأغلبية المطلقة مصحوبةً بتلكؤ المسلمين العروبيين المستمر وتجاهلهم الواقع المسيحيّ الناطق بالعربية والسريانية، لاسيما عند تلك الطبقة المتعلمة والمثقفة منهم الراغبة في فصل الولاء الديني عن القومي. وهم أقلّ من القليل مع الأسف وقد عرف المؤلف منهم أصدقاء وإخواناً كانوا مثالاً لأروع المثل الإسلاميّة والقومية الساميّة الصحيحة نال بعضهم في إخوانهم في الدين والقومية ما يناله الزنديق الكافر الخارج عن الدين وضاعت صيحاتهم في خضم من التعصب الأعمى والحماسة الجنونية(٤) وموجات القمع القومية المتعصبّة.

---

(٤) من هؤلاء أذكر بصورة خاصة الوطني والمجاهد القومي الأستاذ يحيى ق آل عبدالواحد (حرف القاف هنا بديل لكلمة قحطان). في مطلع شبابه كان عضواً في واحدة من الجمعيات السرية العربية (القحطانية أو العهد؟)، ودخل سلك التعليم في أوائل الاحتلال. نفي إلى النجف من الموصل على إثر خطبة ارتجلها أثناء زيارة فيصل المدينة لأول مرة، اعتبر بعض ما جاء فيها تهديداً وتطاولاً. ظل (يحيى ق) خصماً لدوداً للتعصب القومي، مخلصاً لعروبته ووطنه الجديد، يكره المصانعة والتخاذل والازدواجية والتدجيل، بعقلية متفتحة تزداد حكمة رؤياه بتراكم السنين على عمره طوال العهد الملكي الذي لم يمسسه بسوء رغم العنف الذي كان يهاجمه به وينتقد تصرفات حكامه وساسته. وقد عرف بكتابه (تعليم الأمية) الذي أصبح منهاجاً لتعليم الأميين وتخرج على يده ومن مدرسته التي كان مديراً لها من تولى مناصب وزارية =

لم يكن في ثورة العشرين محتوى قوميّ عربي بالمعنى المقصود منه اليوم، ولهذا سميت بالثورة العراقيّة. وفي هذه التسمية أيضاً تجاوزٌ لأن فكرة الوطن العراقي اختمرت في ذهن الوايت هول قبل أن يبشر بها ويمهّد لها في الولايات الثلاث. فوجهاء ولاية البصرة ورأيها العام كانا يريدان أن تلحق ولايتهما بحكومة الهند مباشرة، أو أن تمنح حكماً ذاتياً كاملاً ضمن إطار الدولة الجديدة. وكذلك كان التيار السياسي آنذاك في لندن يميل إلى خلق دولة كردية من معظم ولاية الموصل وبعض أجزاء من ولاية بغداد. وربما أمكن اعتبار تلك الثورة وإلى حدٍ ما امتداداً للنزاع الفكري الضيق الذي نشأ في أعقاب المشروطية للعام ١٩٠٨، بين (الجون ترك) وأنصارهم من جهة وبين الفئة المحافظة من جهة أخرى. المحافظون لجأوا إلى سلاح الدين يشهرونه في وجه الإتحاديين، واتخذوا من إساءة استخدام الحرية التي أطلق لها العنان، فانتشرت بسببها فوضى أخلاقية لا عهد للعراق بمثلها، سلاحاً يشهرونه بوجه دعاة الحريّة هؤلاء[٥].

= ودبلوماسية، ووظائف خطيرة. انتخب رئيساً لفرع نقابة المعلمين في العام ١٩٥٨ إثر انقلاب الرابع عشر من تموز. وكان شوكة مؤلمة في جنب الناصريين والبعثيين لا يستطيعون أن ينالوا منه مأرباً، ثم حانت فرصتهم فيه فألقي القبض عليه تمهيداً لتصفيته مع العناصر الأخرى، التي اعتقلت عشية إعلان العقيد الشواف عن انقلابه في آذار ١٩٥٩. وعلى أثر انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ البعثي القومي قبض عليه وعذّب وسيق إلى المجلس العرفي العسكري في الموصل بتهمة الطعن والقذف بالعروبة وبالدين وهُيّئ له شهود زور ذكروا عنه أنه قال في يوم كذا من العام ١٩٥٨: «إن الشرف عند العرب هو المكانان اللذان تخرج منهما فضلات الجسم فحسب». فحكم وهو ابن السبعين بالأشغال الشاقة لمدة خمس سنين. ووافاه الأجل فجأة وهو سجين وبالسكتة القلبية يوم سقوط الطائرة المروحية بعبدالسلام محمد عارف رئيس الجمهورية المعيّن واحتراقها به.

(٥) ينقل الكاتب العراقي عبدالكريم العلاف عن شاهد عيان (بغداد القديمة، ط. بغداد الص ١٤٥-١٤٨) ما نصه: «صارت بغداد شبه معرض لأنواع الأسلحة، حيث كانت تباع علناً أنواع المسدسات والخناجر والبندقيات والسيوف ويحكى أن أحد الأشقياء في ذلك الحين سقط على بيت وقتل صاحبه، فحكم عليه بالموت، صرخ محتجاً: أين هي الحرية التي تنادون بها؟. وشهدت بغداد عقب إعلان الدستور أول مرسح ترقص عليه إمرأة وهو حدث هزّ المجتمع البغدادي هزاً عنيفاً. ثم توالت بعد ذلك وفود الراقصات والمغنيات من بلاد الشام ومصر وتركيا»آه.

ويذكر الأستاذ روفائيل بطي في كتاب (الصحافة في العراق، ط. القاهرة ١٩٥٥، ص٢١) عن الفترة عينها: «كانت هناك فورة صحفية. وكان من شأن كل جريدة أن تموت بعد صدور أعداد =

وكان لهذا امتداد سيّئ العقبى فقد بقي دعاة العروبة، حتى أولئك الذين لا يعتبرون العقيدة الدينية مصدر هويّة عرقيّة، يتخذون من الدين الإسلامي ركيزة لدعواتهم القومية. حاول بعض الضباط الشريفيين المتسللين من تركيا وسورية إلى جانب عدد ضئيل من المثقفين المدنيين في بغداد وفي النجف وكربلاء إيقاد نار الوطنية في الثورة وسحبها على مسطرة الاستقلال الوطني في مراحلها الأخيرة. فقد كان لقيام حكومة فيصل في سورية والانتفاضة الوطنية المصرية أثرهما. إلاّ أن كلّ ذلك جاء متأخراً، فقد أطفئ لهب الثورة قبل أن يتكون منها هدف سياسي واضح غير شعار الاستقلال الغامض وعلى الأساس الإقليمي لا العربي.

كان الولاء السياسيّ فردياً موزعاً، ففي مكان كنت تجد الثوار ينزلون العلم البريطاني ليرفعوا في مكانه العلم الشريفي ذا الألوان الأربعة. وفي مدينة أخرى يرفعون العلم التركي بنجمته وهلاله. وفي معظم الأماكن كنت تجد الأعلام التي تظهر عادة بمناسبة ذكرى استشهاد الحسين في أيام (محرّم) تخفق فوق رؤوس القبائل المغيرة.

كان رجال الدين الشيعة الإيرانيون المستقرون في النجف وكربلاء لولب الانتفاضة الكبرى في الفرات الأوسط(٦) قد أبقوا على صلتهم بالأتراك، تلك الصلة التي أحكمت

= قليلة منها. وكثيراً ما كان صاحب الجريدة يلجأ إلى الشتيمة المقذعة أو المعارضة الشديدة لكي تروج صحيفته فترة من الزمن. واضطر بعض الأعيان أن يسدوا أفواه الصحفيين الوقحين بمبالغ يدفعونها ليأمنوا غائلتهم. إلاّ أن السلاح الأكبر الذي أشهره أعداء الاتحاديين المتسترين برداء الدفاع عن القيم الإسلامية - هو شعار الاتحاديين بالمساواة بين المسلم والمسيحي واليهودي، فهذا أمر لم تستطع الأغلبية المسلمة أن تهضمه أو تفهمه.» آه (في الروض الأزهر في تراجم آل جعفر. مصطفى نورالدين الواعظ: (نشره إبراهيم الواعظ في ١٩٤٨ أيام كان رئيساً لمحكمة الاستيناف في الموصل وقام كاتب هذه السطور بتصحيح متونه ومسوداته بطلب من الناشر. روى المؤلف هذه الحادثة: «أحد الضباط من أعضاء فرع جمعية الإتحاد والترقي (الحلة) يدعى حمدي ابن حفوف خطب ذات يوم في جمع من الناس وقال في آخر خطابه إن هذا هو دور الحرية والمساواة والأخوة فأخذوا يبحثون عن الضابط ليقتلوه. ولم يتعظ هذا الضابط فقد طفق يتحدث بمثل ما تحدث به عن الحريات، ومما قاله أن المغني يشبه حاخام اليهود. فأغلقت الجوامع وقرر (القزويني) وقد حمى غضبه أن لا صلاة بعد اليوم إلاّ بعد أن يأخذ العدل (!) مجراه. وثار أهل الحلة وراحوا يبحثون عن القائل ليقتلوه واحتقب كل سلاحه وهجموا على دار الحكومة ونهبوا ما فيه من أثاث ولم تهدأ البلدة إلا بعد أن سيق الضابط مخفوراً إلى بغداد».

(٦) منهم آيات الله مرزا محمد تقي الدين الشيرازي وابنه محمد رضا، والطباطائي، وفتح الله =

عراها انتفاضة النجف الشهيرة في العام ١٩١٧ وحصارها، وهو أمرٌ لا يمكن تفسيره إلاّ بأنّ الغازي الأوروبي هو كافر في عرفهم والترك على كلّ حال مسلمون. إنّ كلمة كفّار، وعبارة حكم الكفّار بقيت لاصقة بالمحتل البريطاني وقد حورب وقتل ضباطه السياسيّون على هذا الأساس، مثلما حصل في كردستان تماماً، وإن لم يكن هناك علاقة بين الأعمال العنيفة التي حصلت عند الجانبين ولا تنسيق كما زعم بعضهم.

في الفرات الأوسط والأدنى كان الدافع الطائفي والمادي غالباً مصدر الثورات العشائرية المتواصلة ضدّ الحكم التركي. ولا عجب في أن لا يكون لهذه الثورة من الأثر في إقامة الحكم الوطني قدر ما كان لسياسية الاقتصاد في النفقات وضرورة تسريح القوات الإمبراطورية من أثر في إقامته. ربما كان الأصح القول إنها أي الثورة عجّلت إلى حدٍ ما في ذلك وكان من الطبيعي والحالة هذه وإزاء النفوذ التركي والعطف الذي خلّفهُ في نفوس أفراد الأسر ذات الأصول غير العربية، ولاسيما المنتفعة من الحكم التركي البائد، أن تغمض سلطة الاحتلال عينيها عن تصاعد الحماسة القومية، وإن كانت في بعض الأحيان مصدر إزعاج لها لاسيما من طبقة الصحافيين وكتاب الصحف الموسمية. فقد راحت طائفة منهم تهاجم المحتلين والسلطة البريطانية بحريّةٍ وهو ما لم تجرؤ عليه في عهد التسلط التركي. بل كانت الإدارة البريطانية تعمد إلى تغذيته وتشجيعه في محاولة منها لوقف تيار العداء الديني والإفادة منه في مقاومة المحاولات التركية لاستعادة ولاية الموصل.

* * *

= الأصفهاني وأبو القاسم الكاشاني وهبة الدين الشهرستاني وميرزا أحمد الخراساني. لهؤلاء ولغيرهم كان الدور الحاسم في تهيئة الأجواء للثورة. يذكر المؤرخ الاجتماعي الدكتور علي الوردي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) هذا: «وراح نفر من السادة ورجال الدين يتنقلون بين مضائف الشيوخ يحثونهم على الانضمام للثورة ويثيرون النخوة فيهم. حدثني السيد أبو القاسم الكاشاني أثناء زياراتي له في طهران إنه كان يدخل على الشيخ في مضيفه فيثير نخوتهُ على الطريقة البدوية فيقول له: أليس من العار عليكم أن أدافع عن بلادكم وأنا من تبعة إيران بينما أنتم أبناء البلاد لا تدافعون عنها؟ وإنه كان كثيراً ما يستعمل في كلامه مع الشيوخ الفاظاً بذيئة وشتائم عامية كان يقول لهم مثلا: «إن الإنكليز سيفعلون بنسائكم كذا. وإن الرجل منكم ديوث لا غيرة له إن لم ينهض لمقاتلة الإنكليز دفاعاً عن عرضه». ويقول الكاشاني إن شتائمه كثيراً ما كانت تثير النخوة فيهم وتحرك همتهم :«فيضطرون إلى رفع راية القتال وتنطلق الهوسات عندئذ فيصعب عليهم التراجع بعدها».

بدت محاولة الأتراك في استرجاع ولاية الموصل جديّةً أكثر مما هي في الواقع. فمنذ مؤتمر فرساي كان مصير الولاية قد تقرر كما رأينا. ولم يكن تركها لتركيا بأي شكل موضع بحثٍ قط. لكن بقيت تنتظر الحَلّ الدولي القانوني لإسباغ الشرعيّة على عمل المنتصر اللاقانوني.

وفي خضم هذه المحاولة والتصدي لها أخرجت بذرات القومية أول أشطائها في المدينة، وكان من مصلحة المحتل البريطاني فضلاً عَمّا ذكرته أن يغذّي هذه المشاعر أيضاً ليحقق نوعاً من الموازنة بينها وبين المشاعر القومية الكردية المستيقظة وأمانيها في إقامة كيان سياسي مستقل، لاسيما بعد أن بدأت أخيلة الوعود البريطانية في إقامة ذلك الكيان تبتعد عن أذهان الوايت هول لتفسح السبيل إلى فكرة ضمّ الولاية إلى الجزء الذي تمّ احتلاله وإقامة الكيان العراقي الموحدّ.

لم يكن قوميّو الموصل يدينون بالكثير للجنوب، بل كانت الصلة مقطوعة تماماً خلال الحرب وما بعدها. وربما كان التأثير السوري أكثر ظهوراً وصلته أمتن. وسنرى كيف أن الموصل كانت هدف ضباط جيش فيصل العربي. ولنعد إلى الخلف قليلاً.

مَرّ عدد من مدن الجنوب وبلداتها بمرحلة سياسية طريفة فريدة أثناء معارك الاحتلال. فقد كانت تقوم فيها حكومات مدن City States عند انحلال الإدارة العثمانية أو ضعفها أو هروب موظفيها. ولم يكن ذلك بهدف قومي أو سياسيّ. بل لضرورة الدفاع عنها - لا ضدّ الجيوش البريطانية - بل ضدّ غارات البدو العرب.

كانت السلطة قبلها تحميهم، والآن غابت السلطة وعليهم أن يتدبروا الأمر بأنفسهم - فتراهم يقيمون نظاماً مصغراً لحكومة يرأسها وجهاء وشخصيات معروفة دينية وعلمانية، توزع الواجبات وتقيم الحدود برضى تام من عموم الأهالي. هؤلاء يتوزعون السلاح فيما بينهم ويرممون الأسوار ويتبادلون الحراسة. وأحياناً يَستَعْدون قبيلة ضد أخرى أو يغرونها بمال دفعاً لغائلة أخرى. وديدن القبائل التربص وانتهاز الفرص في ضعف الإدارات المركزية أو خلوّ المدينة من حامية كبيرة تدافع عنها. يسيطر على أفرادها ودهمائها وعلى رؤسائها فكرة واحدة هي سلب ونهب كلّ ما يمكن أن يقع تحت يدها. تلك كانت الهواية وسبب العيش معاً لدى تلك القبائل. لا شيء من رابطة قومية أو عنصرية يربطها بسكان المدن يجعلها تحجم عن أسلوبها هذا، منذ أن أخذت تعبر الضفة اليمنى من الفرات وتتسلل عبره إلى الداخل خلال القرون التسعة الماضية قادمة من الجزيرة العربية ونجد. حتى تلك الرابطة الدينية والمذهبية بين هؤلاء وبين

حضريي بلاد النهرين فقد كان لها حدودها التي تقف عندها كلما لاحت الغنائم والكسب الحرام قطوفاً دانيةً في الأفق أو في متناول اليد. وتحفل مذكرات العراقيين الذين عاشوا تلك الفترة وكتبوا عن وثائقها بروايات وحكايات تكاد لغرابتها تشكك قارئها في صدق راويها أو ترغمه على تصديقها، إذ لا يمكن أن يسمو أبعد خيال إلى اختلاقها وهي بعد إذ تروى وما أكثرها فبالأسماء والتواريخ(٧).

بَدأ تشجيع الشعور القومي عند الناطقين بالعربية ضد التيار التركي واضحاً من المعاملة التي خص المحتل العرب بها أثناء الحرب. فقد ميزت دائرة رئيس الضباط السياسيين أثناء مطاردة الجيش العثماني، وملاحقة الذين فروا واختفوا، بين سكان البلاد الناطقة بالعربية وبين الجنود الأتراك - فأسروا هؤلاء وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال. في حين أطلقوا سراح الأولين ويقدر عددهم بالآلاف. بعد تحقيق أوّلي روتيني للتأكد من هوياتهم وأخذ تعهد منهم بالحضور أمام سلطات الاحتلال عند استدعائهم، في حين واصلت تلك الشعبة السياسية الملحقة بالجيش ملاحقة أعضاء حزب الاتحاد والترقي وإلقاء القبض عليهم.

كما جاء ذكره كان السرّ پرسي كوكس، الذي هو من أعضاء المكتب العربي، قد أُلحق بالحملة كبيراً للضباط السياسيين. وعندما تم احتلال بغداد حرص الجنرال (ستانلي مود) على حصر السلطتين العسكرية والمدنية بيده، فمالبث أن نشب خلافٌ بينه وبين (كوكس). كان (كوكس) قد تلقى تعليمات واضحة من القاهرة في العمل على

---

(٧) منهم عبدالعزيز القصاب، الذي كان قائمقاماً عثمانياً للسماوة عند بدء الحملة البريطانية. (عين متصرفاً للواء الموصل أثناء النزاع على الولاية في العام ١٩٢٤ واستوزر أكثر من مرة) يروي في مذكراته (من ذكرياتي بيروت ١٩٦٢ ص١٠٨) إن جماعة من البدو العرب بعد هزيمة (السنّ) قرب العمارة، اعترضوا المجتهد الكبير (السيد عبدالرزاق الحلو) الذي كان قد خرج مع أتباعه للجهاد في (القرنة) ولم يبق معه بعد الهزيمة سوى أربعة رجال، فأخذ يتنقل بهم من موضع إلى آخر فخرج عليه هؤلاء وكانوا من مقلديه. وأمروه بالنزول عن البغلة التي يركبها لهم قائلين: «شيخنا، بدلاً من أن يأخذ أهل القرية التي تلينا حوائجك وأمتعتك وهم أعداؤنا، فالأولى بها نحن أصحابك». واستولوا على بغلته وأمتعته وتركوه يسير ماشياً رغم شيخوخته ومرضه. وكذلك يروي إن جماعة من العشائريين هجموا على خيمة مجتهد كبير بغية نهبها، فوجدوا المجتهد يصلي فوق سجادة ثمينة فأمروه بإنهاء صلاته بسرعة لأنهم يرغبون في سجادته. فلما لامهم المجتهد على فعلهم أجابوه بكل أدبٍ: شيخنا لا تطولها. إن لم نأخذها نحن أخذها غيرنا.

إيقاظ المشاعر القومية العربية والتعاون في هذا الحقل لمواجهة الدعاية التركية وإقامة جبهة ضد جبهة أنصار الترك ومحبّيهم.

إلاّ أن الجنرال مود لم يكن يرى في هذه السياسة فائدة كبيرة، كان يرى الاستعانة بالعروبيين مضيعة للوقت. وبقي لا يعير اهتماماً بتوصيات لندن. ويقيناً كان (كوكس) يعيش حياة بائسة يبثّ آلامه برسائله إلى المكتب العربي وإلى وزارة الهند وبلغ به الأمر أن هددّ بالاستقالة محتجاً «بحقوق زوجته عليه في العيش بين مجتمع متحضّر!». وكان (مود) يأبى إشراك (كوكس) في أيّ شيء قائلاً إنه إنما يتلقى أوامره من وزارة الحرب وجيشه جيش احتلال والحرب لم تنته بعد.

بغية الوصول إلى حَلّ للأزمة وجدت لندن ضرورةً في دراسة الوضع موقعياً فوافقت على شخوص صاحبنا (ستورز) رئيس المكتب العربي الفعلي إلى بغداد.

ووصل هذا في الثامن من أيار ١٩١٧ وقام بجولات في معظم المدن الهامة التي تمّ فتحها، وبزيارات عدة لمراكز القوى الدينية والمدنية في رحلات دامت ثلاثة أسابيع وفي الوقت الذي كانت القوات البريطانية تطارد فلول الجيش العثماني المتراجعة إلى سامرّاء[٨]. ويدون (ستورز) نتائج وفادته، ويطرزها بانطباعات طريفة عن الرجال الذين زارهم أو التقاهم إلى أن يقول:

«شكا لي كوكس مضاضته وتنفّره من معاملة الجنرال. وخلص إلى القول بأن التعاون معه بات ضرباً من المحال. إنه (أي الجنرال) يهيم حُبّاً بالسلطة ولا سبيل لتخلّيه عن أي جزء منها. وقال كوكس إنه مصرّ على الاستقالة وأن لا فائدة في بقائه عاطلاً دون عمل، وإنه كان ينوي اعتزال حياة الوظيفة قبل الحرب والركون إلى الراحة مع زوجه التي عانت الكثير من حياة الغربة الشاقة في الصومال والخليج الفارسي. فرحتُ أهدّئ من سورته مطمئناً بأن حكومة صاحب الجلالة ما زالت بحاجة إلى خدماته، وأن كل شيء سيكون على ما يرومه».

وأمنت سكرتيرته (مس بل) على أقوال رئيسها[٩].

زار (ستورز) شخصيات في بغداد والكاظمية وانتقل إلى كربلاء وقام بزيارات

---

(٨) تبعد بمسافة مائة كيلومتر شمال بغداد.

(٩) رونالد ستورز: «اتجاهات Orientations». لندن ١٩٣٩ ص٢٣٠ وما بعدها.

خاصة لعلمائها. وكتب يقول إن الشيعة رحبّوا بثورة الشريف ووصفوها بأنها مصدر فخر للعرب. كما ذكر أنه عرض عليهم أسئلة معينة في مستقبل الحكم وعما يطمحون إليه. وفعل الشيء عينه في كلّ من الحلة والكوفة والبصرة وقفل منها إلى نجد لزيارة ابن سعود.

بعد مراسلات عديدة نجح (كوكس)، وخولته دائرته الصلاحيّات التي يريدها، تم خلالهُ تهيئة الجوّ بعد وفاة (الجنرال مود) بوباء الكوليرا[١٠]. بعد أربعة أشهر على تولي (الجنرال مارشال) منصب القيادة العامة كان الانسجام قد تحقق في فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكريّة. إلاّ أن (كوكس) لم يكن في العراق عندما احتلّ الجيش البريطاني الموصل عاصمة الولاية وتم طرد آخر جندي تركي من كردستان أو وقع في الأسر بعد هدنة مودروس - فقد صدر أمر نقله فجأة وزيراً مفوضاً لطهران بمهمة خاصة في نيسان ١٩١٨. وأسند منصبه وكالة للعقيد (أرنولد ولسن) وهو شاب لم يتخط الخامسة والثلاثين، رافق الحملة العراقية ضابطاً سياسياً من الأوّل وشارك في وقائعها. ومن عرف الرجل عند توليه الأمور بمنصبه الجديد لا يستغرب من وقوع الاختيار عليه لهذه المهمة الصعبة الخطيرة المسؤوليات. ومن أتيح له العمل معه يقرّ له بنزاهة وكفاءة وتفرغ مكنه خلال سنتين من إقامة صرح جهاز إداري بقي العراق ينعم بمحاسنه عقوداً طويلة من السنين، لكن شاء سوء حظه أن يصطدم بأنانية (الآنسة بل) وحبّ التسلط الجنوني الذي رافقها إلى آخر ساعة من حياتها. إذ سرعان ما اختلفا وراح أحدهما يكيد

---

(١٠) بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال (مود) الذي تمّ عمله في لندن ونصب في ساحة أمام السفارة البريطانية في كانون الأول ١٩٢٣، كتب الرصافي الشاعر مقالة في العدد ١٤ من جريدة (الأمل) الصادرة في الشهر عينه جاء فيه: "نريد هنا أن نعالج مسألة تاريخية خطيرة تهمّ العراقيين والبريطانيين على حد سواء. وهو تأثير إنقاذ مدينة بغداد على يد الجنرال مود، وما لهذا القائد الكبير من المقام الخالد في التاريخ العربي (معروف الرصافي: من تأليف قاسم الخطاط ومصطفى السحرتي ومحمد الخفاجي: القاهرة ١٩٧١ ص١٢٩). [حطم غوغاء بغداد هذا التمثال يوم ١٤ تموز ١٩٥٨]. هكذا كان حكم الرصافي باتاً على عملية تحرير بغداد البريطانية، مثلما كان حكمه عليهم باتاً أيضاً بعد خمس سنوات لا أكثر. في قصيدة مشهورة مطلعها:

أنا بالحكومة والنيابة أعرف ... أألام في تفنيدها وأعنفّ؟

وفيها يقول:

للانكليز مطامع ببلادكم ... لا تنتهي إلاّ بأن تتبلشفوا

للآخر ويتسقط هفواته ويدوّن مآخذه وانتقاداته برسائل وتقارير إلى لندن. ورجحت كفة الآنسة لما كانت تحظى به من مقام في أوساط لندن السياسية. وزاد في تعقيد الأمور تلك البلبلة السياسية التي كانت تسود الوايت هول في ذلك الزمن وآيتها تضارب المصالح. وقد أشرنا إلى ذلك في فصول سابقة. وبلغت الحيرة السياسية أقصاها عندما عبرت الجيوش البريطانية دجلة إلى ضفته اليسرى وراحت تطارد القوات العثمانية في كردستان الجنوبية التي كان معظمها ضمن ولاية الموصل إدارياً. وبدأ الخلاف حول ما يُعمل بها. ماذا سيكون من أمرها؟ كيف ستدار؟ خلاف وحيرة كانا يزدادان بتوالي الانتصارات العسكرية.

يذكر (ويلسن) في هذا الصدد أن الجواسيس الألمان والأتراك استغلوا بيان الجنرال مود الموجّه إلى العرب القاطنين في ولاية الموصل عند بدء العمليات العسكرية و:

«استخدموه بوجهٍ لا يتفق ومصالحنا، ووزعوا بيانات في المناطق الكردية أوضحوا فيها كيف أن بيان (مود) تجاهل مصالح الكرد وحقوقهم وأن كل ما يفهم منه هو أنهم سيداسون بأقدام العرب الذين يبغضونهم ويحتقرونهم».

في ٢٦ من نيسان ١٩١٧ أصدر رئيس أركان الإمبراطورية (الفيلدمارشال سر وليم روبرتسن) أمراً (للجنرال مارشال) يقضي بالزحف نحو كركوك بغية احتلالها ثم التقدم شرقاً للاستيلاء على السليمانية. كان الدافع إلى هذا الأمر المفاجئ ستراتيجياً بالدرجة الأولى قصد منه تخفيف الضغط عن القوات الروسية المندفعة من إيران إلى شرق ولاية الموصل وجنوبها الشرقي.

وكان (كوكس) قد بعث قبل رحيله بخطابات ورسائل شخصية إلى زعماء القبائل الكردية في السليمانية وكركوك تحفل بالوعود السياسية والاقتصادية حاثاً على التعاون العسكري مع القوات البريطانية. والظاهر أن الردود كانت مشجعة إلى الحدّ الذي أيّدت إصابة رأي القيادة العامة في لندن بخصوص الاندفاع إلى قلب ولاية الموصل ومعاقل كردستان الجبلية دون إقامة وزن لتقديرات ضباط أركان الجنرال (مارشال) الشديدة الحذر.

وفي ٢٨ من نيسان ١٩١٧ ولم يمض على الأمر التوجيهي أكثر من يومين، احتلت بلدة (كفري) وبعدها بيوم واحد احتلت (طوزخورماتو) بعد مقاومة تركية ضعيفة تلاها انسحاب سريع. وفي ٧ من أيار دخل الجيش البريطاني كركوك. وحافظت القبائل الكردية على الوعد الذي قطعته (لكوكس). وفي السليمانية عقد الزعماء القبائليون

والشخصيات البارزة في المدينة اجتماعاً تقرر فيه إقامة حكومة كردية مؤقتة واختير (الشيخ محمود البرزنجي) رئيساً لها بعنوان (حكومة دار كردستان). وأعلنت هذه (الحكومة) وقوفها إلى جانب القوات البريطانية وبعثت بكتائب خيالة إلى كركوك للانضمام إلى الجيش البريطاني. ووجه (الشيخ محمود) خطاباً إلى الجنرال مارشال جاء فيه:

«نيابة عن الشعب الكردي أقدم لكم زمام الحكم. ويسرّني أن أكون ممثلاً للقوات المحتلة في دست الحكم والإدارة تحت حماية العلم البريطاني. لقد غمر الفرح العظيم أهالي كردستان بأنباء الانتصارات التي حققها الجيش البريطاني، والآن وها نحن قد تحررنا من ربقة الطغيان التركي على يد هذا الجيش، نرجو أن يحقق لشعب كردستان التحرر والتقدم والازدهار مثلما تحقق ذلك للعراق على يدكم. ونتمنّى أن تقوم حكومة كردية مركزها السليمانية تحت حماية بريطانيا وختاماً أرجو أن تمنعوا وبأي شكل من الأشكال أو أي عامل من العوامل عودة الحكم التركي إلى كردستان مرة أخرى».

وأسرع كوكس بتوجيه رسالة التثبيت إلى الشيخ محمود معلناً فيها اعتراف حكومته به، ومانحاً إياه حق تمثيل سلطة الاحتلال.

إلاّ أن الأتراك - وقبل نشر هذا الأمر في صحف بغداد - عادوا إلى انتزاع كركوك من يد البريطانيين. وتطوع أحد وجهاء المدينة بإبلاغ (خليل باشا) قائد الجيش السادس ووالي الموصل وبغداد حول اتصال الشيخ محمود بالسلطات البريطانية والتعاون معها، وعن محاولته إقامة دولة كردية تحت الحماية البريطانية. فبعث هذا القائد برقية إلى العقيد (مصطفى بگ) آمر حامية السليمانية يأمره فيها باعتقال الشيخ محمود وعددٍ من الوجهاء المتعاونين معه تمهيداً لسوقهم إلى محكمة عرفيّة.

أُرسل الشيخ محمود إلى كركوك وأصدرت محكمة عسكرية حكم الموت عليه في جلسةٍ واحدة. إلاّ أن القائد تردد في تنفيذ الحكم، تحسباً للعواقب وربما اتعاظاً بالدرس الذي استفيد من إعدامات (جمال) للوطنيين العرب في سورية ولبنان، وربما خوفاً من عمليات ثأرية كردية تصيب قواتهم المتقهقرة وبقي الشيخ سجيناً.

ما مضت أسابيع قليلة حتى نقل (خليل باشا) وحَلّ محلّه (علي إحسان باشا) وهو عسكري بارع وسياسي أريب عقدت عليه القيادة العامة في إستانبول آمالاً في أن يحقق

مثل ما حقق من انتصارات على الآشوريين والروس في جبهة أورميه وأذربيجان. فكان من أوّل أعماله أن استقدم (الشيخ محمود) من محبسه إلى مقرّه العام في الموصل وأصدر عفواً عنه وبالغ في إكرامه وزوّده بمبالغ كبيرة لغرض تجنيد قوات عشائرية لمساندة الجيش التركي. وسحب البساط من تحت قدمي (كوكس) بأن أثبت الشيخ في الوقت نفسه بالعنوان السياسي الذي اتخذه لنفسه.

توقفت الحرب أشهراً بعد التراجع البريطاني عن كركوك. إلاّ أن النجاح الذي أصابه البريطانيون في سورية ولبنان وفلسطين وخروج (بلغاريا) حليفة تركيا من الحرب، أغرى القيادة البريطانية بإصدار الأمر للجنرال مارشال باستئناف الزحف على ضفتي دجلة لاحتلال ولاية الموصل كلها وبمقتضى هذا الأمر التوجيهي:

«إن خروج بلغاريا من الحرب والنجاح الذي حققناه في فلسطين وسورية يقرب الاحتمال في طلب تركيا الهدنة، فمن الضروري التقدم على ضفتي دجلة لاحتلال ولاية الموصل».

تقدم الجيش البريطاني برتلين أولهما شق سبيله على امتداد الضفة الغربية (اليمنى) في وجه مقاومة تتفاوت بين الضعف والتقهقر. إلاّ أن الجنرال (كوب) على الضفة اليسرى اندفع بقوات متفوقة فاحتل في ٢٣ من تشرين الأول ١٩١٨ بلدة (توزخورماتو)، وبعد أربعة أيام دخل كركوك ثم (آلتون كوپري) التي تبعد ٦٥ كيلومتراً شمالاً.

في ٢٣ من الشهر عينه تمّ استسلام عدد كبير من القوات التركية إثر معركةٍ فاصلة شمال (شرقاط) على الضفة اليمنى وتمزق الجيش العثماني شرّ ممزق وأسرعت البقية الباقية تحتمي بأسوار الموصل[11]. وشرع الجنرال (كاسِلس) يتقدم صوب (حمام علي) التي تبعد ٢٢ كيلومتراً جنوب الموصل. وفي تلك البلدة المشهورة بحماماتها الصحية التقى بوفد الهدنة المؤلف من ضابطين تركيين يحملان رسالة من (علي إحسان پاشا) موجهّة إلى الجنرال (مارشال) فيها يعلمه بأنّ هدنةً بين بريطانيا وتركيا قد وقعت في ٣٠ من تشرين الأول (أنظر الفصل السالف).

كانت القيادة العليا التركية قد أبرقت إلى هذا القائد البرقية المرقمة ٢١٧٨٧ بتأريخ

---

(١١) يبت المؤرخون العسكريون إن ما بقي في الموصل منه كان بحدود ١٦٥٠ جندياً مع ٣٢ مدفعاً وحوالي ١٥٠٠ جندي و١٢ مدفعاً على طريق آلتون كوپري.

٣١ من تشرين الأول ١٩١٨ ووصلته في الثامنة مساءً وهذه هي:

«إلى قيادة الجيش السادس: عقدنا هدنةً مع دول الحلفاء تدخل قيد التنفيذ اعتباراً من ٣١ تشرين الأول أكتوبر ١٩١٨ الموافقة للسنة ١٣٤٤ رومية. قام ممثلو الدول المذكورة بإبلاغ الأمر إلى قوادهم العسكريين في بلغاريا وسورية وبغداد. فعليكم التقيد بتطبيق شروط الهدنة وإعلامنا بوصول الأمر والتفاصيل فيما بعد»

أحمد عزت: رئيس الوزراء

رئيس هيئة أركان حرب القيادة العليا العثمانية

وبعد ساعات قلائل حملت طائرة بريطانية إلى الجنرال (كاسلس) برقية مشابهة وهو في خطوط القتال الأمامية.

كان من المفروض بمقتضى شروط الهدنة العامة أن يتوقف القتال ويقيم كلّ فريق من المتحاربين في الموضع الذي كان يحتله ساعة إبرام الهدنة. إلاّ أن برقيةً من وزارة الحرب البريطانية تسلمها الجنرال (مارشال) في ٢ من تشرين الثاني (نوفمبر)، تتضمن فضلاً عن شروط الهدنة أمراً صريحاً بالتقدم لاحتلال مركز الولاية تطبيقاً للمادتين (٧) و(١٦) من شروط الهدنة[١٢].

بهدنةٍ أو بدونها، كان احتلال الولاية وعاصمتها أمراً مقضياً وهذا ما يثبته ولسن في العام ١٩٢٦:

«كنت منذ أشهر عدة، وبكامل اتفاق مع القائد العام، على اتصال بحكومتي، أصرّ عليها بوجوب توسيع نطاق أهدافنا العسكرية لتشمل ولاية الموصل. وقد اتفقت وجهة نظرنا على وجوب احتلالها قبل توقف العمليات العسكرية بهدنةٍ، أو بعد هدنةٍ، وسواء في الأمر أوقعت الولاية من نصيبنا أم نصيب الفرنسيين أنا بطبيعة الحال لست من الأنبياء الذين يكشفون الغيب لأتكهن - وبعد خمس سنوات من وصولي إلى هذه النتيجة - بإبرام صلح مع تركيا،

---

(١٢) م. ٧: للحلفاء الحق في احتلال أيّ نقاط ستراتيجية إن كان الوضع السائد يهدد سلامة قواتهم.

م١٦: يتم استسلام جميع الحاميات (التركية) المرابطة في الحجاز وعسير واليمن وسورية وبلاد ما بين النهرين إلى أقرب قائد لقوات الحلفاء. وتنسحب القطعات العسكرية التركية من ولاية كليكيا، باستثناء ما هو ضروري لحفظ الأمن الداخلي على أن يتم ذلك بمراعاة المادتين ٥ و٧ من شروط الهدنة.

ولا كان بوسعي أن أقدّر رضا الترك بالتنازل نهائياً عن مطلبهم بهذه الولاية بعد ثماني سنوات، لكني كنت على يقين بأن عصفوراً واحداً في يدنا العسكرية هو خير من عشرة عصافير في أشواك الدبلوماسية وشباكها. ومهما سيكون شكل الحكم الذي سيتقرر لبلاد مابين النهرين، فمن الضروري أن تشمل دائرته ولايات البصرة وبغداد والموصل، هذا إذا كانت إقامة مثل هذا الحكم هدفاً وقصداً»

وكان القائد العام من جهته يعمل وفق أوامر وزارة الهند التي أكدّت له في برقية بتأريخ ٣١ من أيلول ١٩١٨ :

«إن رغبة الحكومة البريطانية وحلفائها، فضلاً عن مصالحها، تقضيان باحتلال ولاية الموصل»

وفي منتصف ليلة ٢/١ من شهر تشرين الثاني (أكتوبر) أبلغ (علي إحسان) قبل ساعات قلائل من إرساله علم الهدنة بوجوب إخلائه المدينة فوراً. في حين كانت رسالة القائد التركي الموجهة إلى (الجنرال مارشال) تتضمن الطلب بسحب قواته من (حمام علي) إلى بلدة (القيارة) التي تقع على بعد أربعين كيلومتراً تقريباً جنوب الموصل. وهي النقطة التي كانت القوات البريطانية قد بلغتها ساعة توقيع الهدنة.

لم يكن الضابط السياسي الملحق بالجيش (العقيد ليتشمان) صديق (ولسن) وموضع ثقته. وقد كلّف هذا بحمل جواب الجنرال (كاسلس) إلى القائد التركي. وفيه تأكيد على أن الأوامر التي تلقّاها من القيادة العامة تقضي باحتلال الموصل، وإخلائها من القوات التركية. ولم يتزحزح (علي إحسان) عن موقفه وعاد (ليتشمان) يحمل رفضه النزول عن الموصل، إلاّ أنه لا يمانع من قيام الجيش البريطاني باحتلال التلال الجنوبية المشرفة على المدينة المعروفة بمرتفعات (أبو سيف). فإذا أصرّ فليتقدم لاحتلالها عنوةً.

والواقع وبحسب ما يؤكده الموصليون الذين عاشوا تلك الفترة أن القائد التركي كان قد قرر إخلاء المدينة قبل أكثر من أسبوع من إعلان الهدنة وعلى أثر المعركة الفاصلة شمال شرقاط بعد يأسه من وصول نجدات كافية إليه والإسراع لاحتلال المواقع الدفاعية في سلسلة المرتفعات أمام (زاخو). وقد شهد الموصليون هؤلاء عبور الجيش العثماني الجسر الخشبي ليلاً إلى الضفة اليسرى وعسكرته هناك. إلاّ أن القائد التركي أعاده إلى الموصل ساعة إبلاغه بعقد الهدنة كما مَرّ. وأسقِط في يد الجنرال

(كاسلس) ولم يدر ما يفعل. لأنّ مبادأته القتال من أجل الموصل دون استفزاز هو إخلال بشروط الهدنة ولم يرَ بُدّاً من القبول باقتراح آخر للقائد التركي وهو الاجتماع به شخصياً.

في ٤ من الشهر عينه قدم (علي إحسان) إلى مقر القائد البريطاني وتمكن بدهاء منه وحنكة سياسية من إقناع خصمه على خطّ فصل بين قوات الطرفين تحتل فيه قواته مواقع تبعد زهاء ميلين جنوب الموصل. وثارت ثائرة القيادة البريطانية في بغداد عندما أبلغت بالاتفاق، وبعثت ببرقية تأنيب للجنرال كاسلس هذا نصها:

«تنصّ الفقرة السابعة من اتفاق الهدنة على أن يكون للحلفاء الحقّ في احتلال النقاط الستراتيجية. وقد أمرت وزارة الحرب باحتلال الموصل وعليك التنفيذ بصرف النظر عن مواقع القطعات العسكرية القريبة من المدينة مثلما ورد في أمرنا السابق»

فأصدر (كاسلس) أمراً بالحركة من (حمام علي) فتقدمت قواته واحتلت النقاط الستراتيجية ومفارق الطرق والمرتفعات الجنوبيّة المطلة على المدينة. وتمسّك (علي إحسان) برأيه وأصرّ على موقفه محتجاً بأن الموصل وضواحيها ليست جزءاً من (ميسوپوتاميا) ولا يحق للحلفاء احتلالها بموجب المادة السابعة من هدنة (مودروس)، ثم إن جيشه هو جيش ميدانيّ[١٣] وليس حاميةً وهو غير ملزم والحالة هذه بالاستسلام بموجب المادة (١٦) من الهدنة.

وغادر (الجنرال مارشال) بغداد إلى الجبهة ليتسلّم القيادة الميدانية. منذراً الوالي والقائد التركي بأنه عازم على حيازة المدينة مهما كلّف الأمر. وجرت اتصالات تالية ختمت باجتماع أخير في ٧ من تشرين الأول في مقرّ الوالي عينه أي (السراي)، وفيه أكد (مارشال) بأنه مصرّ على إنذاره وإنه غير مستعد لأي مناقشة ووضع أمام خصمه شروطاً وطلب منه التوقيع عليها[١٤] ثم عاد إلى مقرّه ليصدر أوامر معينة من بينها أمرٌ

(١٣) قدّر العسكريون الذين أرخوا لهذه الفترة أن ما بقي من الجيش السادس لا يزيد تعداده على العشرة آلاف بين ضابط وجندي يدخل فيه ما ذكر في الحاشية (١١).

(١٤) من أهم هذه الشروط: (١) إخلاء ولاية الموصل من جميع الوحدات العسكرية التركية خلال عشرة أيام من تاريخه. (٢) مبادلة أسرى الحرب فوراً. (٣) تسليم السجن المركزي وسائر المسجونين فيه. (٤) حظر خروج أي من الأهالي مع الجيش كرهاً أو اختياراً. (٥) تسليم كلّ السجلات والوثائق الرسمية التي تخصّ الولاية. (٦) تقديم قائمة بمواقع الحاميات التركية =

بتعيين العقيد (جيرالد ليتشمان) حاكماً عسكرياً وضابطاً سياسياً لولاية الموصل بسابق اتفاق مع وكيل الحاكم المدني العام (ولسن).

وتشاء الصدف وحدها أن يصدر في عين هذا اليوم الذي بلغ فيه النزاع على الموصل أوجه ذلك التصريح الإنكلوفرنسي الذي أشرت إليه في الفصل السابع بخصوص مصير البلاد التي احتلّت في الشرق الأوسط[١٥]، وهو البيان الذي قصد منه بالدرجة الأولى إرضاء الرئيس الأمريكي ولسن، واستجلاب ثقة سكان البلاد المفتوحة بنوايا الحلفاء الطيبة وتأكيد وعودهم السابقة المبذولة للشعوب التي حكمها الأتراك وبالأخص سكان البلاد الناطقة بالعربيّة.

في تلك الساعات كانت مدينة الموصل أشبه بالفتاة التي يتنازع خطيبان على يدها ولا كلمة أو خيار لها في الأمر. وكان سكانها يعيشون حالة الوجوم والتبلّد الحسي الذي يبدو عادة في المجتمعات المنكوبة أو التي تتوقع مصيبةً تدفعها إلى أكل كلّ ما حرمته الأديان وعافته النفوس، ابتداء بلحوم الكلاب والهررة وانتهاء بلحوم البشر والجيف. وأرغمت الطبقة المتوسطة على بيع كلّ ما يمكن بيعه من مقتنى ونشب ومبادلته بحفنات من البرّ أو الشعير. وقد ساعد على إنقاذهم من الموت جوعاً تلك العادة المتأصلة تاريخياً فيهم، عادة تخزين الضرورات من الطعام لموسمين كاملين من السنة[١٦].

= العسكرية في سائر أنحاء الولاية وإصدار الأوامر لآمريها بمواصلة تبعات إدارتها حتى يتسلمها موظفون بريطانيون. (٧) يخير الموظفون العثمانيون المدنيون بالبقاء في مناصبهم إلى أن يحسم مصير الولاية أو بالرحيل عنها.

(١٥) وهذا نصه: «إن الغاية التي تتوخاها الحكومتان الفرنسية والبريطانية من هذه الحرب التي خاضتاها في الشرق والتي قدح الألمان شرارتها الأولى هي تحرير شعوبها بشكل تام حاسم. ويقصد بها تلك الشعوب التي نالها من مظالم الإحتلال التركي واضطهاده وإقامة حكومات وطنية وإدارات مدنية تستمد سلطتها من إرادة سكانها الأصلاء واختيارهم الحرّ. والاعتراف بهذه الحكومات حال قيامها». (المقصود بعبارة الشعوب التي تمّ تحريرها في الشرق الأوسط - هو العرب والكرد والآشوريون والأرمن في كلّ من الحجاز وسورية وميسوبوتاميا والجنوب الشرقي من بلاد الأناضول وأرمينيا التركية). وقد نشر هذا التصريح في كل من لندن وباريس والقاهرة ونيويورك. من الناحية السياسية، يمكن القول إن هذا التصريح حلّ اتفاق (سايكس - بيكو - سازانوف).

(١٦) تأصلت هذه العادة خلال أحقاب من التاريخ بسبب ما كان يتعرض له الموصليون من سنوات قحط ومجاعة وحصار الغزاة المستمر والنهب المتواصل لضواحيها وقراها ومصادر تموينها =

كان أهالي الموصل في شغل شاغل بأنفسهم في أثناء تلك المفاوضات على مصير الولاية والمدينة، لا يفكرون برؤوسهم بل ببطونهم الخاوية. يعيش سوادهم على الأمل

= واعتمادها الاقتصادي. وتبدأ عمليات التموين بمراسيم خاصة في شهر تشرين الأول عادة، فتشترى كميات كبيرة من الحنطة ويخزن بعضها ويعمل من بعضها رقاق الخبز الجاف بأعداد كبيرة، ويسلق بعضها ليعمل منه البرغل ومشتقاته. ويشترى السمن ولحوم الغنم والعجول وتكبس وتوضع في دنان كما يفعل بالجبن ولا يستغنى عن الحبوب والفاكهة المجففة. كلّ شيء قابل للحفظ والخزن باستثناء المواد القابلة للتلف السريع كالخضار ومنتجات الألبان وهي ميسورة عادة في كل وقت وإن لم تكن الحاجة إليها ماسة. كلّ ذلك يوضع في (السراديب) التي لا يخلو منها منزل واحد. بقيت هذه العادة ولم أشهد اندثارها الكلي بعد اجتيازي سن البلوغ. وبالمناسبة فأنا شخصياً لم أسمع من الوالد وكثيراً ما روى لي بعض ذكرياته عن تلك الفترة - ولا من غيره الذين تحدثوا عن تلك المجاعة - عن موصليّ معروف توفي جوعاً أو أسرة موصلية فقدت أحد أفرادها بسبب المجاعة في تلك السنة التي أطلقوا عليها عبارة (سنة الليرة)، إشارة إلى أن (وزنة) الحنطة التي تساوي حجماً أربعة غالونات تقريباً - كانت تباع بليرة ذهبية واحدة، في حين كان سعرها في الأوقات العادية لا يتعدى قروشاً قليلة. على أن ما سَدّ خِلّة أسرتنا وكفاها غائلة الجوع الجراية المنتظمة التي كانت تصرف من المخابز العسكرية لثلاثة أخوال لي: صيدليان وخياط ملحقون بالخدمات العسكرية. وأنا شخصياً ومن كثرة ما سمعته ورواه لي معاصرو المجاعة، وإن كنت لا أظن أن المؤرخين والكتاب الذين تعرضوا لها كانوا يقصدون المبالغة في شدّتها وفي كثرة ضحاياها - إنهم يروون وقائع معينة شاهدوها أو رويت لهم وليس من الصحيح أن تكون الواقعة قياساً وتعميماً. إلاّ أن ذهن القارئ قد يضخمها ويوسع خياله رقعة شمولها. والظاهر أن المجاعة التي شملت منطقة واسعة ابتداء من مدينة (وان) ومروراً بديار بكر وانتهاء بالموصل، دفعت بالجموع الجائعة من سكان القرى فيها إلى التوجه نحو الجنوب أملاً في الحصول على القوت، بعضهم قضى نحبه في الطريق وبعضهم سقط ميتاً في أزقة الموصل وهي آخر المطاف.

ويروي صاحب كتاب (مقدرات العراق السياسية، ج٣. ص١١٣): أن أحد أبناء عمومته (محمد أمين العمري) الذي كان ضابط إعاشة الفيلق في الموصل أنذر الوالي - القائد (خليل باشا) - عن احتمال حصول مجاعة في أوائل العام ١٩١٨ مقترحاً عليه تموين المدينة من العاصمة. إلاّ أن القائد التركي لم يعر اقتراحه اهتماماً ورفضه متعللاً بأن ولاية الموصل هي مستودع تموين لسائر الولايات ولا خوف هناك من حصول مجاعة.

ومما رواه لي الوالد أيضاً تلك الحادثة الوحيدة عن بيع لحوم البشر، وقد شنق مقترفاها (عبود) وزوجه على إثر اكتشاف جريمتهما، فقد كانا يغريان الأطفال بالحلوى أو يخطفانهم ويذبحانهم ثم يعرضان لحومهم مطبوخة في مطعم صغير. أذكر إني قرأت تفصيلاً للحادث معززاً بصورة فوتوغرافية تمثل المجرمين معلقين على المشنقة - في مجلة (الدنيا المصورة) القاهرية في عدد من أعدادها الصادرة في ١٩٣٢. وقد سمعت حكايات عن المجاعة عديدة غيرها لم تنته أية واحدة منها بموت، والله أعلم.

بانفراج الأزمة الاقتصادية وملء البطون، فقد تواترت الأنباء عن الجنوب والوسط حول حسن المعاملة التي كان السكان فيهما يلقونها من الفاتح الجديد وإشاعات كثيرة عن إغراق أسواقهم المحلية بأصناف البضاعة والمواد المعاشية الضرورية، فضلاً عن سخاء أو عمل خير من الحكام العثمانيين.

لم يكن هناك أي احتمالٍ في قيام نشاط اعتدائي من جانب الأكثرية المسلمة على المسيحيين واليهود، فالخوف المتبادل كان الرادع. الأقليات الدينيّة لم تعمد إلى ما قد يكون متوقعاً في مثل هذه الحالة، بالتعبير عن استبشارها وفرحها بقدوم فاتح جديد غير مسلم، تعبيراً قد يرقى إلى مرتبة الاستفزاز، في حين كبحت الأغلبية بما فيها أولئك المتصرون للحكم التركي والمتفعون منه عاطفة الانفعال والخيبة، خشية عقاب ينزله الفاتح بهم.

وقطع لي معاصرو تلك الأيام العصيبة بأنه بدا على المدينة وكأن سكانها أجمعوا على فرض حظر التجول اختياراً. فقد أقفرت الطرقات تماماً من السابلة، واختفى معهم من أبقته المجاعة حياً من الكلاب والقطط السائبة. لاذ كلّ موصلي ببيته وأحكم رتاج بابه. وهذا ما رواه لي على الأقل الشخص الوحيد الذي وجد في نفسه الجرأة وربما دافع الحاجة الذي لا يقهر إلى كسر هذا الحظر. فخرج بقصد أن يكون أوّل السابقين إلى عرض خدماتهم على الفاتح الجديد، وشاءت المقادير ومصادفات التاريخ العجيبة أن يكون هذا الموصلّي مشاهداً ومساعداً في رفع العلم البريطاني وإنزال العلم التركي من بناية السرّاي(١٧). قبل دخول جندي بريطاني واحد إليها.

---

(١٧) آثرت ألا أحرم القارئ من تفاصيل الحادث الطريف. ورواية ابن عمة لي لم يعرف بالكذب في حياته. وقد توفي في الستينات وطوى معه وقائع تأريخية وأسراراً اطلع عليها بحكم وظيفته التي بقي فيها زهاء أربعين عاماً في تلك المدينة، التي استأثرت باهتمام دولي وتوجهت إليها أنظار الصحافة العالمية وتناقلت عنها وقائع معينة بالغة الأثر في سياسة الشرق الأوسط مرات عديدة. كان قريبي هذا مستخدماً عند البعثة العسكرية الألمانية المشرفة بجناحها المدني على إنشاء الخط الحديد، ساعدته هنا موهبته في سرعة تعلم اللغات الأجنبية وشق طريقه بنجاح كبير إلى اللغات الفرنسية والإنكليزية والألمانية فضلاً عن مثلها من اللغات المحلية. ذكر إنه بات دون عمل بعد انسحاب الألمان، فدفعت به بطالة الأشهر العديدة ومسؤولية إعاشة الأسرة إلى ما لم يقدم عليه أحد بخرق قرار «منع التجول الاختياري». قال: عندما غدا الجيش البريطاني على مرمى حجر من المدينة وسرى النبأ في المدينة أن الوالي والجيش قد تركا المدينة إلى غير رجعة. خرجت من داري متوجهاً إلى السرّاي بحثاً عن عمل عند البريطانيين شبيه بعملي السابق، في =

لم يجد (علي إحسان) بداً من الرضوخ لأمر حكومته بالجلاء، إلاّ أن عمد قبل تركه الموصل إلى أمرين، أولهما إرسال برقية إلى قائد الحامية التركية في السليمانية يأمره فيها أن يكون هو وحاميته رهن إشارة الشيخ محمود، وبرقية أخرى للشيخ نفسه يخوله فيها تولي الإدارة باسم الحكومة العثمانية في متصرفية شهرزور.

ولم يأبه الشيخ بالأمر الصادر إليه ولم يشأ ممارسة الحكم باسم الحكومة العثمانية، وقام بتسليم الحامية التركية لسلطات الاحتلال البريطانية. وأصدر علي إحسان كذلك أمراً لم يطع بإيداع حكم الولاية إلى موصلّي نيابةً عنه، وخلت المدينة من سلطة عثمانية عليا ودخلت الوحدات البريطانية في عين اليوم. إلاّ أن كل الولاية لم تكن بعد قد وقعت في قبضة البريطانيين، بل كان نصفها تقريباً بيد العثمانيين ومعظم الأقضية وهي صرفة أو بغالبية كردية، أخذت القوات العسكرية وقوات الأمن تنسحب منها بهدوء تاركة إياها في أيدي الموظفين المدنيين العثمانيين ومعظمهم من الأهالي. وما هي إلاّ أسابيع قليلة حتى ملأ الموظفون البريطانيون والهنود المناصب الإدارية الكبيرة وتسلموا السلطة الفعلية، ضباطاً سياسيين في المدن ومراكز القائمقاميات الهامة ومعاوني ضباط سياسيين في الأقضية الأخرى وبعض النواحي. مع تواجدٍ عسكري يمثله ضابط أو أكثر من ضباط الجيش وثلة من الهنود بعنوان ضباط شرطة، وأبقى معظم مرتبات الأمن والشرطة المحلية (الضبطيّة) يزاولون عملهم.

كانت أوامر الحاكم المدني العام تقضي بانتهاج عين الخطّة التي انتهجت في بغداد

= الترجمة. فلم أجد وأنا في سبيلي بشراً واحداً. وبدت المدينة أشبه بمقبرة واسعة. وما أن وصلت مشارف السراي حتى لاح أعرابيّ قادماً من الناحية الجنوبية بخطى حثيثة والريح تعبث بعباءته ولما تقدم منيّ تبينت من تحت الكوفية والعقال بشرته البيضاء وعينيه الزرقاوين وشعره المائل إلى الحمرة فبادرته بالفرنسية أعرض خدماتي وقبل إكمال عبارتي قاطعني بعربية ذات لهجة بدوية جنوبية غير مألوفة عندنا: من أنت ماذا تعمل؟ قلت: إني شاب مسيحيّ أبحث عن عمل لديكم وأنا مترجم. فقال اتبعني فقد عينتك، هذا هو السرّاي. قلت: بلى. قال وهو يحث الخطى وأنا وراءه: أين الطريق إلى السطح؟ فتقدمته وأسرع ورائي يتوقل الدرجات إلى حيث السارية والعلم العثماني ما زال في موضعه، فساعدته على إنزاله وأخرج من طيات جلبابه علماً بريطانياً ربطه بحبل السارية ورفعه». لم يكن هذا الأعرابي غير (العقيد ليتشمان) نفسه وهو أول ضابط سياسي حكم الموصل وكان عند كلمته، فقد عين صاحب الرواية فعلاً مترجماً وبقي يشغل هذه الوظيفة قرابة أربعين عاماً واقتضت منه وظيفته هذه أن يكون شاهد عيان لكلّ ما مَرّ على المدينة من أحداث جسام لاسيما فترة النزاع على الولاية.

والمدن العراقية الأخرى، أي محاربة الدعاية التركية والقضاء على (العثمانية) باستبدالها «بالعربية» عن طريق التقرب إلى بقايا أعضاء الجمعيات السرّية وإفساح المجال لهم واستخدام المتعلمين منهم في الوظائف لاسيما سلك التعليم. وانتهاج خطة التودد إلى رجال الدين من إمامية وخطباء عن طريق المال والهبات وإلغاء الدراسة بالتركية في المدارس واستبدالها بالعربية.

ولم تكن الموصل بعيدةً عن الروح القومية[١٨]. والواقع هو أن بذور العروبية كانت قد زرعت في تربتها بشكل أكثر وضوحاً من بقية مدن الجنوب والوسط، لعوامل عدة منها صلتها الطبيعية بسورية وعن طريقها كانت ترد إليها الصحف والكتب والنشرات فتتداولها الأيدي إلاّ أن المتشيعين للتركية والعثمانية، وجلّهم من الوجهاء المنتفعين من ذلك الحكم المتمتعين بحمايته[١٩]، عمدوا إلى أساليبهم القديمة

---

(١٨) روى لي العدد القليل الباقي من طلاب المدرس الموصلي حسين النعلبند في الإعدادية العثمانية ومنهم ثابت عبدالنور، أن معلمهم هذا كان يغلق باب غرفة الدراسة، ويبدأ منطلقاً بصوت خافت تشيع فيه الحماسة والرهبة، من تسمع مدير المدرسة التركي، في شبه خطاب وطنيّ عن التراث العربي وتاريخه المجيد ويقرأ في أثناء ذلك عليهم مقالات قومية من بعض الصحف والمجلات السورية.

(١٩) روى لي الطبيب الذكر العلامة الدكتور داود الجلبي كيف كان يجري إفساد الموظفين العثمانيين الكبار وتدجينهم واستخدامهم لصالح هؤلاء متخذاً من أحد الوجهاء والأغنياء المحليين الكبار نموذجاً. قال نظراً إلى سرعة تغير الولاة واستبدالهم، اعتمد هذا الوجيه عيناً له في إستنبول يزوّده بتقرير دقيق عن طباع الوالي الجديد وأصله ومبلغ نفوذه وهواياته فإن كان يهوى اقتناء الخيول الأصيلة أو الطيور النادرة أو العربات الثمينة هيأ له أحسنها هدية وأن كان عابداً متعبداً أمن له أفخر سجادة للصلاة. ويكون أول من يعرف بقدومه فيخرج لاستقباله بعربة نفيسة وبهدايا لزوجته وحاشيته.

ويعين الطريقة يشتري الوجيه نفوذ الموظفين الكبار ويستخدمهم لمآربه ومصالحه وهي الإثراء وردّ غائلة الخصوم والمنافسين له. وفي أحد لقاءات لنا وما أكثرها - وكان ذلك عند تطبيق قانون الإصلاح الزراعي الذي قضى على الملاك بتقديم كشوف عن الأراضي التي يملكونها - فقد ظهر أن أحد وجهاء الموصل الكبار كان يملك أكثر من مائة وعشرين قرية في أنحاء ولاية الموصل كافة يستغلها بآلاف من فلاحيها الآشوريين والكرد واليزيدية والشبك الذين كانوا أصحاب تلك الأراضي الأصليين في وقت ما، فحوّلتهم أساليبه التي اختلفت بين الإغراء بالمال الكثير وبين الضغوط والاحتيال والإكراه البدني إلى أجراء وأقنان. قال الدكتور الجلبي مفسراً كيفية استيلاء هذا الوجيه على تلك القرى: «عندما يصطدم هذا الوجيه بصلابة الفلاح وعناده في تمسكه الغريزي بالأرض رغم مضاعفة الثمن لها يلجأ إلى الحكومة لتيسير ذلك. فيجد القروي =

يستخدمونها للتقرب من الحاكم الجديد، بمثل ما كان ديدنهم مع الحكم البائد توسلاً للحظوة لديه.

أما طبقة الوجهاء والإقطاعيين والمالكين الكبار دائمي الصلة مع الولاة الأتراك فقد شقّ عليهم أن يروا الفاتح الجديد ينزل إلى مخاطبة القوم ويستدعي أولئك «المشاغبين» الذين يتحدثون عن الوطنية والاستقلال والحرية، يتصل بهم رأساً وبدون أخذ رأيهم مسبقاً فيما ينتويه، كما كان يفعل الولاة العثمانيون. وحاولوا استخدام عين الأساليب مع الضباط السياسيين والموظفين البريطانيين ولم يفلحوا كثيراً. فقد وجدوا هؤلاء لا يقبلون رشوة ولا نصيحة «لوجه الله» أو خدمة «خالصة» لجلالة ملك بريطانيا وحكومته الفخيمة «كما اعتادوا قوله». يورد الكاتب محمد طاهر العمري شواهد لمحاولات هؤلاء الوجهاء التقرب من الحاكم الجديد[٢٠]:

«كانوا يحاولون التقرب بالنصيحة والنميمة والتجسس على من يعتقدون أن السلطة ترى فيه عدواً يخشى خطره وهم في الحقيقة أعداؤهم وخصومهم».

وأعداؤهم في ذلك الحين هم الأنداد الجدد المنافسون لهم في التقرب إلى السلطة وأصحاب الحظوة لديها. أولئك الذين هبت عليهم ريح الوطنية والعروبة من الحجاز وسورية وكانت السلطة المحتلة تحبوهم بعطف وتشجيع لمناوئة التيار التركي كما ذكرنا، ثم باتت تخشى نشاطهم عند قيام ثورة العشرين و:

«إذا خلا الجوّ (للشخصية البارزة) مع الحاكم (الضابط) السياسي وانفرد به،

= نفسه يوماً وقد داهمته الضبطية (الشرطة) وساقته مكبلاً إلى المستنطق (حاكم التحقيق) بتهمة خيالية. ويزجّ في السجن مدة قد تطول شهوراً. ويقوم وكيل الوجيه الطامع بالأرض بزيارات للسجين مؤكداً له قدرة سيده على إنقاذه من الورطة إن وافق على بيع أرضه منه عارضاً عليه عين السعر المرتفع المرفوض دليلاً على حسن نيته بعدم استغلال موقفه. بعد تكرار الزيارات لا يعود من العسير على المسكين أن يدرك بأنه لن يرى وجه الحرية إلاّ بالرضوخ إلى المقدّر ويبدأ يفكر بالحال الذي آلت إليه أسرته وبأن الحكومة على كلّ حال ستنتزع الأرض منه لأنه مطالب، بحسب القانون العثماني، بتسديد نفقات مأكله وملبسه وسكناه في السجن! يقول الدكتور (الجلبي) كثيراً ما تتم صفقة البيع والتنازل عن الأرض في دائرة السجن. ويخرج السجين وهو يلهج بالشكر لخلاصه لذلك الذي أحسن إليه وتوسط لإطلاق سراحه، فدفع عنه المبالغ المترتبة عليه للحكومة، ومنّ عليه بإبقائه في الأرض فلاحاً أجيراً، حامداً الله لانتهاء البلبلة بفقدان الأرض فقط.

(٢٠) مقدرات العراق السياسية: ط. بغداد ١٩٢٥ ص١٧ ج٣.

قال له (يا صاحب) أنتم غرباء عن هذه البلاد ولم تحتكّوا بأهاليها ولم تعرفوها بقدر ما نعرفها نحن أشرافها، وقد قضينا عمرنا فيها ورأينا أنواع الانقلابات والتطورات على عهد الأتراك، فإن أردتم أن ترتاحوا من حركات هؤلاء (أي القوميين والوطنيين) فأبعدوا فلاناً وفلاناً، واسجنوا فلاناً وفلاناً، فإن الباقين من أتباعهم يخشون العاقبة ولا يحركون ساكناً».

ويصف (العمري) تصرفات بعض هؤلاء بقوله:

«تراهم يتصدرون المجالس ليتفوهوا بما يضعف من عزائم الوطنيين ويقولون لهم: هل أنتم مجانين؟ من يستطيع منا أن يقف أمام دولة بريطانيا العظمى فيطالب بحقوق البلاد؟»

أمّا الأغلبية الساحقة من الموصليين زمرة المساكين الذين «لا نفع منهم ولا ضرر» بحسب تعبير (العمري) فديدنهم أن يقولوا «أنقله هنا بعين اللهجة الموصلية»:

«يابا، أنا أش عَلَيّ؟ أنا رجل كاسب ومستور، أروح وأجي بدربي ولا أتداخل بشيء. وكلّ من يأخذ أمي أسميّه عمّي!»[٢١].

لم يكن خفياً عن السلطة البريطانية بأنها تواجه في مدينة الموصل جبهة ذات نزعة تركية قوية تتزعمها أسر بارزة متنفذة جاء بها الفاتح العثماني لتكون عوناً له في حكم دام أكثر من ثلاثة قرون وأغدق عليها الإنعامات وحباها بالنفوذ. فضلاً عن جمهرة كبيرة

---

(٢١) يروي إدموندز: «كرد وترك وعرب» (ترجمتنا إلى العربية. ط. ١٩٧٠ ص٣٠٥)، عن موظف كردي اسمه (وهاب بك) كان بطلاً لحكاية طريفة عن ناقم من هذا النوع ويقول إدموندز: «إن نوري السعيد وغيره من كبار الساسة في بغداد كانوا يستمتعون بروايتها ضاحكين، عادة بصدد وقائع ثورة الفرات الأوسط». والمناسبة هي أن كثيراً ممن علت أصواتهم وتقدموا الجموع الثائرة ونادوا بالشعارات القومية والوطنية ضدّ المحتل الأجنبي كانوا في الحقيقة طلاب تقرب إلى السلطة بجلب أنظارها إليهم وبمحاولتها اسكاتهم بما يطمحون إليه من مناصب ووظائف. كان وهاب بك قائمقاماً لقضاء چمچمال استغني عن خدماته في ١٩٢٢ أيام كان إدموندز ضابط كركوك السياسي. فبات عاطلاً عن العمل. فكتب رسالة بالتركية لصديق الطرفين يطلب منه التوسط لإعادة تعيينه: «أدمونسه سويله بني إيبر بيردها تعيين أيتمزسيي وطني أولوميم» وترجمتها: «قل لادموندز إن لم يعيّني في وظيفة فسوف أصير وطنياً». والشيء بالشيء يذكر، ما جاء في مذكرات النجمة السينمائية الأمريكية (شيرلي ماكلين) التي نشرتها مؤخراً. ففيها تنقل عن (فرانك سيناترا) وهو من أشهر النجوم السينمائية والغنائية وصفه لزميله (رونالد ريگان) رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأسبق بقوله: «إنه (أي ريگان) غبيّ ثقيل الظلّ، لم يستطع الحصول على عمل في السينما فتحول إلى السياسة».

من المنتفعين التجار، الذين بنوا ثرواتهم في ظلّ ذلك الحكم. هؤلاء أدركهم الخوف العظيم من المستقبل، كما هالتهم حالة الرخاء والدعة والطمأنينة التي شاعت في أرجاء المدينة والولاية، وقد اعتادوا الاصطياد في البحيرة العكرة الدائمة الهياج.

وبخلاف ذلك وجدت السلطة جمهرة كبيرة من الموظفين الساهين من أهل الولاية ومن سائر البلاد الناطقة بلغة الضاد، وأيضاً من كردستان، كانوا قد رافقوا الجيش العثماني أثناء تقهقره ابتداءً من البصرة. هؤلاء يتقاضون رواتبهم من الإدارة العثمانية أينما انتقلت ولم يكن لمعظمهم عملٌ وظيفي. وقد بدوا عنصر إقلاق. وحاولت استخدام عددٍ منهم إلاّ أنها استغنت عن خدمات معظمهم، فقد كان جهاز الإدارة العثماني مشبعاً بهم إلى درجة تفوق الحاجة بكثير.

كان لهؤلاء «الأفندية» العرب صولة وجولة ومهابة عند العوام - بما امتازوا عليه بطرف من العلم. هؤلاء «أصحاب القلم» كما جرت العادة بتسميتهم يتمتعون بمركز مومرق في محيط أمي. فهم مصدر الفكر والمعرفة وثورة التحولّ في الرأي العام. وقد تألف منهم مجموعة من الناقمين على الحكم الجديد الحاقدين في عين الوقت على الحكم العثماني الذي خاب ظنهّم فيه. وكان مقدراً لهؤلاء أن ينحازوا إلى معسكر مضادٍ نشطٍ هو المعسكر العربي[٢٢] وإلى حين من الزمن بدت السلطة البريطانية هنا أشبه بالراقص ليلاً في مقبرة ملأى بالأشباح.

---

(٢٢) ربما كان الحافز الذي دفع (ثابت عبدالنور) الضابط العثماني الموصلي للانتماء إلى جماعة العروبة. فقد وجدناه وهو من أسرة مسيحية أرثوذكسية معروفة الوحيد الذي انتمى إلى الحركة القومية العربية وخاض غمار حروبها في الحجاز. على أنه أشهر إسلامه عندما انضم إلى قوات الشريف. وبقي الأمر غامضاً حول الدوافع التي حملته على ذلك. أكان عن قناعة أو بسبب ظروف العمل السياسي في العراق بولاياته الثلاث. فقد كان يختلف تماماً عن ظروفه في سورية ولبنان وفلسطين. فهنا كان يرى هذا تقليداً وتأريخياً وقفاً على المسلمين وحدهم وإن المشاركة غير الإسلامية هي اعتداء على حق من حقوقهم. وقد تعرض كثير من المسيحيين الذين حاولوا القفز فوق هذا الحاجز إلى أعمال انتقام شائنة ودفع بعضهم حياته ثمناً لتلك المغامرة حتى في أزمات متأخرة. و(ثابت عبدالنور) هذا لم يمارس نشاطه بعد عودته في الموصل بسبب هذه الظاهرة أو ربما للمركز الكبير الذي كانت أسرته تحظى به في المجتمع المسيحي المحليّ المتعصب أيضاً. لذلك وجدناه يمارس عمله القومي في بغداد. وقد استوقفني في ذلك رواية مقتضبة عنه وردت في كتاب «هكذا عرفتهم» للأستاذ جعفر الخليلي (ط. ١٩٨٠ قم، ج٥، ص٢٣٠). رأيت ألاّ أحرم القارئ منها وهذه هي: «السيد ثابت عبدالنور موصليّ مسيحيّ أعلن إسلامه، وكانت له في العهد العثماني مواقف وطنية جليلة سجن بسببها، وشاع أنه حكم =

لم تكن المدينة بعيدة عن المشاعر القوميّة قطّ. وربّما فاقت بذلك غيرها من سائر المدن العراقية. كانت أكثر اتصالاً بحلب منها ببغداد. وعن هذه الطريق كانت ترد القوميين الموصليين النشرات والمجلات والصحف الدورية التي تصدر في سورية ولبنان. لاسيما بعد تبوّؤ فيصل عرش سورية. فضلاً عن العلاقات التجارية وتقارب اللهجة بين المدينتين.

معظم الضباط القادمين من الولايات الثلاث - ومنهم أيضاً الكرد - كانوا قد انضموا إلى الجمعيات العربيّة السرية في إستنبول وفي سورية وشاركوا في ثورة الشريف وساهموا مساهمة فعّالة في الحكم الفيصلي بسورية. وما هو جدير بالذكر أن أحد أقطاب أعضاء الجمعية اللامركزية وهو (ياسين الهاشمي) كان أول من أسس للجمعية فرعاً سرياً في الموصل أثناء خدمته فيها قبيل إعلان المشروطية.

كان (كوكس) اتباعاً لخطة المكتب العربي قد اتخذ قراراً بفتح أبواب العودة إلى العراق للضباط العثمانيين بعد إعلان الانتداب واستحصل من القنصل الفرنسي في بغداد قائمة بأسماء (٢٤٠) منهم وقد وردت الدفعة الأولى منهم بحسب رواية في ١٥ من شباط ١٩٢١ وعقبتها قوافل أخرى. إلا أن معظم سيل الضباط الذين انحدروا من أصل

= عليه بالأعدام من قبل الحكومة العثمانية ففر من السجن (نقول لا صحة لهذه الإشاعة) وحين أعلن استقلال العراق كان هو ويحيى قاف (آل عبدالواحد) أبرز من عمل مع (ثابت عبدالنور) في مكافحة الأمية. هذا إلى جانب اشتغاله بالسياسة مع السياسيين. كان يبتكر الوسائل التي تثير في النفوس الروح العربية، فقد كان يومذاك عدد كبير ممن كانوا يميلون إلى الأتراك وينتظرون رجوعهم لحكم العراق وكان جلّهم من المنتفعين مادياً ومن العناصر التركية الذين كانوا يشغلون الوظائف في العهد العثماني أو الذين تشدهم إلى الأتراك رابطة الدين، فكان من الصعب عليهم الخضوع للإنكليز وهم من دين غير دينهم. وكان من أساليب ثابت نشر الوعي وبعث الروح الوطنية وتجديد النهضة الأدبية أن يقام مهرجان عام للشعر والأدب تمثل فيه النزعة العربية ووجد تأييداً مطلقاً من العناصر التي عملت معه وكان من ذلك قيام المهرجان الذي دعي (بسوق عكاظ) إحياء لذكرى هذا السوق التاريخي العظيم» آه. بعد سنوات قليلة من السكن في بغداد (انتخب ثابت عن الموصل مرة واحدة، وأسندت إليه مديرية عامة في العشرينات). ترك العراق وعاش في مصر تاجراً مدة تزيد عن ثلاثين عاماً، قيل إن ذلك بسبب خلاف حاد نشب بينه وبين صديقه (نوري السعيد). ولم يعد إلاّ زيارة قصير للموصل بعد القضاء على الملكية (١٩٥٨). وقد حظيت منه بزيارة قصيرة في مكتبي برفقة صديق عمره (يحيى ق آل عبدالواحد). ولم يكن ثمّ مجال لإلقاء أسئلة ذات طابع تاريخي عليه في تلك المناسبة. وقد عاد إلى مصر وتوفي هناك بحدود فترة الستينات ولم يكتب مذكراته بحسب علمي.

موصلي التزموا (فيصلاً) بعد تتويجه ملكاً على سورية وبقوا في خدمته ولم يعد منهم أحدٌ ذو شأن إلى بلده. في عين الوقت بدأ رفض الترك التخليّ عن ولاية الموصل في مؤتمر (فرساي) وتجاهل معاهدة سيڤر سبباً من أسباب الانقلاب العسكري الذي أطاح بتلك المعاهدة ثم بالخلافة نفسها. والعِلّة كما رأينا أنها لم تنتزع من الدولة العثمانية حرباً، بل استولى الفاتح عليها بالإكراه بعد إعلان الهدنة. ونشط الأتراك في إرسال وكلائهم ودعاتهم لاستنهاض همم أنصارهم وأشياعهم عندما بات واضحاً أن تركيا الكمالية لا تنوي التنازل عنها بسهولة، وعندما اتخذ النزاع عليها صفةً دولية برفع أمرها إلى عصبة الأمم.

وبدأ العداء للبريطانيين واضحاً في خضم الأحداث، ورفع الموصليون العثمانيون رؤوسهم وأصواتهم بوجه الوطنيين، الذين رفضوا فكرة الخضوع لأي من الحكمين وقد اكتسحتهم موجة المطالبة بالاستقلال المندفعة من الجنوب ومن الغرب:

«كان لواء الموصل[٢٣] يختلف بوصفه الداخلي اختلافاً واضحاً عن كلّ من لواء كركوك وأربيل والسليمانية. وموقف المتصرف (المحافظ) والمفتش الإداري والشرطة أصعب من مواقفنا في الألوية الثلاثة المذكورة. فالموصل فضلاً عن كونها ثاني مدن العراق حجماً، هي أقلّ تأثراً بالعثمانيين ولعلها أكثر شعوراً بالقومية العربية من بغداد ولعلّها تتألف من طبقات معينة كانت تشعر أن مصالحها الاقتصادية مرتبطة بحلب أكثر من ارتباطها ببغداد. ويعيش من أصل ستمائة ألف من سكان اللواء مائتا ألف تقريباً في المدينة. ومع أن الكرد منه (أي اللواء) يزيدون كثيراً على نصف سكان اللواء، فإنهم بعيدون عن المركز قليلو الإسهام في النشاط السياسي خلافاً لأشقائهم في جنوب كردستان»[٢٤].

---

(٢٣) بموجب التقسيمات الإدارية الجديدة ألغيت كلمة (الولاية) وأبقيت الألوية (أي المتصرفات) بأقضيتها ونواحيها الأصلية على حالها تقريباً وباستثناء لواء السليمانية الذي ارتبطت إدارته رأساً بالحاكم المدني العام وعومل لواء كركوك وأربيل إدارياً معاملة لواء الموصل.

(٢٤) سي. جيْ. إدموندز C. J. Edmonds: «كرد وترك وعرب» الترجمة. بغداد١٩٧٠ ص٣٦١) من الضباط السياسيين الذين رافقوا الحملة البريطانية. ساهم بدور رئيس في القضاء على ثورات الشيخ محمود البرزنجي. وكان ضابط ارتباط اللجنة الموصلية في ١٩٢٤ أثناء النزاع على الولاية دولياً وأصبح معاوناً لمستشار وزارة الداخلية في العراق (١٩٢٦) ثم مستشاراً لها طوال عشر سنوات (١٩٣٥-١٩٤٥) وعينته حكومته بدرجة وزير في وزارة الخارجية في العام =

مصداقاً لهذا التعميم الذي أورده إدموندز في أواخر العام ١٩٢٠، أي بعد تصفية ثورة الفرات الأوسط مباشرة وبالضبط في ٢٨ من كانون الثاني أصدرت الحكومة التركية القومية بيانها المشهور المعروف (بالميثاق القومي). جاء فيه اعتراف وتسليم بحق تقرير المصير للمناطق الواقعة جنوب خطّ الهدنة في حين تضمّن عبارات واضحة عن رفض فكرة فصل ولاية الموصل عن الممتلكات العثمانية.

جاء ذلك بعد محاولة الضباط الموصليين الملتحقين بالجيش العربي في سورية - العودة إلى مسقط رأسهم أسوة بالبغداديين والكرد. ويذكر (الأيوبي) أنه قصد وزميلين له هما (جميل المدفعي وثابت عبدالنور) الملك فيصل وأنهم خاطبوه بالقول:

«إننا التحقنا بثورة الملك حسين في الحجاز، فحاربنا وضحينا، ثم تبين لنا مع الأسف أن الحلفاء الذين آزرناهم في أحلك أيامهم (كذا) قد تنكروا لنا واقتسموا بلادنا. أمّا نحن فصرنا لا ملجأ لنا ولا مأوى وبدأنا نشعر بأننا غرباء غير مرغوب فيهم. ولهذه الأسباب قررنا الذهاب إلى (دير الزور) لمحاربة الأنگليز الذين نكثوا بعهودهم للعرب، فإما ننجح في مسعانا أو نموت دونه»[٢٥]

كان ذلك عندما انتشرت أنباء ثورة الفرات الأوسط وبلغتهم الانتصارات التي حققها الثوار ويستلي (الأيوبي) قائلاً:

«إن (فيصلاً) حاول أن يثنيهم عن مقصدهم».

فأجابوه:

«إن الروس والأتراك مستعدون لمساعدة أية حركة مناوئة، ومن الممكن الحصول على المال والسلاح منهم. ويذكر أنه قبل بعد لأيٍ أن يمنحهم ثلاثة آلاف جنيه مصري[٢٦] وأنهم تزوّدوا بالعتاد والسلاح الذي كان بحراستِهم».

والظاهر أن نية هؤلاء الضباط وإخوانهم الآخرين كانت معقودة على الانضمام إلى الثورة بدليل تصميمهم على التوجه إلى (دير الزور) وهي بلدة على أقرب مسافة ممكنة

= (١٩٤٨) وهو يعتبر من الخبراء الكبار في شؤون العراق الكردية. وخلافاً لكتابه المرجعي هذا له معجم كردي - إنگليزي بالمشاركة مع الأستاذ توفيق وهبي.

(٢٥) علي جودت الأيوبي: «ذكريات» ط. بيروت ١٩٦٧ ص٩٠.

(٢٦) لا حاجة للتذكير بأن هذا المبلغ هو جزء من المبالغ التي كانت تدفع لفيصل من قبل المكتب العربي في القاهرة عن طريق لورنس العرب.

إلى موطن الثوار ومنطقة العمليات العسكرية. وكانت (دير الزور) بموجب التنظيم الإداري العثماني للولايات الصادر في ١٩١٠ قائمقامية ملحقة بولاية بغداد. فهي والحالة هذه جزءٌ من الأراضي الواقعة ضمن إدارة الاحتلال. أمّا ما حصل بعد ذلك ليثنيهم عن عزمهم وليجعل (الموصل) هدفهم العسكري فهذا بقوله[٢٧]:

«إن ضباط الموصل تجمعوا في (دير الزور) واستعدوا للهجوم على العراق!».

وأن أحدهم وهو (محمد أمين العمري) اتصل بالقيادة التركية في ماردين فزودته بمائة صندوق من العتاد وبكمية من البندقيات وخمسمائة قنبرة يدوية. يقيناً أن (فيصلاً) بمؤازرته الخفيّة ذات الحدود الضيقة من جهة وتظاهره بالرفض والنصح بالعدول عَمّا اعتزموه في الوقت عينه، كان يريد به أن يثبت للبريطانيين - وهو يعلم أن حديثه سينقل إليهم - بأنه قادر على إزعاجهم والإضرار بمصالحهم في حالة تخليهم عنه وتركه بمواجهة الفرنسيين وحده. وإنه ما زال على ولائه مقيماً برفضه اقتراح هؤلاء الضباط أن يكون (زيد) أخوه قائد الحركة.

يصف (تحسين العسكري) الحركة بعبارة: «فتح العراق وانتزاعه من يد البريطانيين بالقوة» تصور ينطوي على خيال واسع غير مبني على معطيات شديدة الصلة بالواقع، مالبث أن تقلص وانكمش بفشل محاولة استحداث صلة مع الثوار الفراتيين، الذين كانوا يخوضون معارك عشوائية متفرقة. وبعامل آخر غير متوقع أدّى إلى عدول هؤلاء الضباط عن خطة فتح العراق بالقوة إلى بديل آخر، هو التخطيط للزحف على الموصل وانتزاعها من يد البريطانيين عن طريق الخابور. والفضل في هذا - إن كان فيه فضل - يعود إلى موظف موصلي صغير يُدعى (عبدالحميد) أو (حميد الدبوني)[٢٨] ودوره هنا

---

(٢٧) تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى، ط. النجف ١٩٣٨ ج٢ ص٩٢). نقول لا يتفق ما جاء في مذكرات (علي جودت مع ما أوردته مس بل في رسائلها من زعم حول وصول أول قافلة من العسكريين الموصليين إلى المدينة في ٢١ نيسان ١٩٢٠ أي قبل مفاتحته وزميليه بنيتهم في (فتح العراق) عن طريق تحشيد عسكري في دير الزور. (مس بل: الرسائل).

(٢٨) في آب ١٩٣٣، كان هذا الرجل قائمقاماً لمدينة زاخو وقد ردّ اعتباره إليه كما سنرى، بعد أن رفع حكم الموت عنه بسعي جميل المدفعي وسيجد القارئ في (الكتاب الثاني) التفاصيل عن الدور الحاسم الذي أوكل إليه في مذبحة سميل. وأسرة (الدبوني) من الأسر الموصلية الشهيرة نبغ فيها أطباء ومحامون وقضاة وضباط. وقد كان لي مع بعضهم علاقات وثيقة. أخصّ منهم بالذكر النقيب الطيار الطيب الذكر (حميد الدبوني) الذي تحطمت به طائرته فتوفي مأسوفاً عليه في ١٩٥٥. وهو زوج لابنة حميد الدبوني هذا. ولدت كما ذكر لي في يوم النصر هذا في =

بكل روائيته يشبه من وجوه عدة دور [محمد شريف الفاروقي] الذي تقدم ذكره. بفارق واحدٍ وهو أن (الدبوني) سبّب كارثة وانتهى بفشل ذريع.

ادّعى (الدبوني) بأنه عضو في جمعية العهد. وقد أسندت إليه وظيفة (مدير مال) في بلدة تلعفر التي تبعد عن شمال الموصل بمسافة ستين كيلومتراً. كانت قد وردت الضابط السياسي في الموصل شكاوى عدة تتهمه بالاختلاس وبأخذ رشاوى. فاستدعاه وأشبعه توبيخاً وتهديداً بسوقه إلى المحاكم ثم اكتفى أخيراً بطرده من الخدمة.

بقي (الدبوني) عاطلاً عن العمل مدةً، ثم سمع بأنباء تحشد قوات في دير الزور، يقودها أصدقاء قدماء وزملاء مدرسة تمهيداً لغزو العراق. فوجدها فرصة للانتصاف لنفسه من البريطانيين. فشد الرحال إلى المدينة وراح يزين لهم خطة يتم بها الاستيلاء على الموصل مؤكداً لهم أن أهالي تلعفر التركمان ناقمون على الحكم الجديد وأنه وثيق العلاقة بوجهائهم ومقدميهم، وأن العشائر العربية والكردية المجاورة ستنضم إليهم حتماً. فضلاً عن أن القوات البريطانية المتواجدة هناك هي قوات رمزية، بسبب سحب معظمها إلى الجنوب. وقد مال الضباط إلى رأيه، فأهل تلعفر يدينون بالولاء للعثمانيين عنصرياً ولغوياً ومن المؤكد أن القيادة التركية في الجزيرة ستخفّ إلى تموينهم ومساعدتهم، لأن أهدافهم تتفق إجمالاً وأهداف الأتراك بخصوص الموصل[٢٩].

أكان هؤلاء الضباط الممتلئون حماسةً يفكرون جدّياً بتحرير الموصل والولاية

= الاستيلاء على تلعفر فسماها (فتوح) تيمناً. وقد تسنى لكاتب هذه السطور مجالسة (الدبوني) مرة واحدة بعد تقاعده في الخمسينات. عرفت من أسرة الدبوني زملاء في المحاماة والقضاء بينهم قاضي تحقيق كانت تجري بعد انقلاب شباط ١٩٦٣ في دائرته وعلى حضور منه عمليات التعذيب للمتهمين بإجهاض مؤامرة الشواف الانقلابية، وربما كان له عذره في التشفي واللذة، فقد أعدم الحياة شقيق له ضابط برتبة ملازم أول بتهمة المشاركة في تلك المحاولة مع الضباط الآخرين في ١٩٥٩.

(٢٩) يظهر أن كلّ هذا لم يكن كافياً لإضفاء الهيبة والاحترام على الحملة، وهو ما ضنّ عليهم به فيصل حين رفض مرافقة أخيه الحملة، وهو ما كانوا يرونه ضرورياً لإبقاء الحماسة الدينية في نفوس تركمان تلعفر الشيعة. فعمدوا إلى إلباس الملازم (عمر كركوكلي) التركماني عقالاً مقصّباً وعباءة وقدم للمستقبلين بوصفه (زيد بن الشريف حسين) وصار هؤلاء يهتفون له بالتركية «پيغمبر قوقسو گاليور مكة قوقسو گاليور» أي «نحن نتنسم ريح النبي نحن نتنسم ريح مكة»! (أنظر ثورة تلعفر بقلم قحطان أحمد عبوش التلعفري) ط. بغداد ١٩٦٩. لم يشر هذا الكاتب ولا غيره من مؤرخي الحادث إلى كيفية انتهاء تمثيلية التقمص هذه.

بقوتهم التي لم تتعدّ (١٦٠) عسكرياً منهم أكثر من عشرين ضابطاً صغير الرتبة بعضهم كرد وتركمان - وهذا كلّ ما أمكن جمعه بعد الجهد الجهيد، وباتفاق كلّ من كتب عن الحدث. على أن القوات البريطانية المتواجدة في تلعفر كانت تتألف من جنود ثلاثة بريطانيين وحوالي (٥٠) شرطياً محلياً بإمرة النقيب (ستيوارت).

حملت هذه القوة مع أثقالها كما يحدثنا (الأيوبي) بعشرين عجلة تجرها الخيول، كلّ منها تتسع لثمانية جنود مع مهمّاتهم. وأنيطت قيادتها بالضابط الشريفي (جميل المدفعي)[(٣٠)]. زحفت تلك القوة: «وفي مقدمتها جنديّ يحمل علم الثورة العربية وقد نقشت عليه عبارة [الموت أو استقلال العراق]» وتقرر إطلاق اسم (عسكر الشريف) على القوّة.

وسبق (حميد الدبوني) إلى تلعفر وتمكن من استمالة معاون الشرطة (جميل خليل) وبعض الرؤساء الذين أكدوا له ولاءهم وانضمامهم إلى الحملة. ويبدو أن ضابط تلعفر السياسي الرائد (باولو) كان يجهل طبيعة ولاء رؤساء العشائر المتقلب وقد صدق بسذاجةٍ وقلة تجربة العهد الذي قطعوه له، فأعاد إلى الموصل سياراته المصفحة. وراح يتنقل وحيداً بين العشائر يخطب ودّها بعد أن علم أن (عسكر الشريف) يقصد البلدة. وقد قتل وهو عائد إليها برصاصة أحد أفراد العشائر المتوجهة إلى تلعفر. وكان (الدبوني) قد أعلن عن جائزة قدرها ٥٠ ليرة ذهبيّة لمن يأتي به إلى تلعفر، حين كان يدير حركة العصيان ضد الجنود الثلاثة وقائدهم النقيب ستيورات المتحصنين في القلعة بحماية رشاش. وقد تمّ القضاء عليهم قبل وصول (عساكر الشريف) وتم للثائرين السيطرة على البلدة قبل دخول (عسكر الشريف) المظفر إليها بعجلاته العشرين وبجنوده المائة والستين.

إلاّ أن هذه القوة تعززت كما تشير المصادر المحلية بآلاف مؤلفة «من أفراد قبائل شمّر والجحيش العرب، ثم من عشائر الكرد الگرگرية والشرفانية المجاورة التي راحت تستبق إحداها الأخرى للاستيلاء على ما خلّفه البريطانيون وما ينتظر من أسلاب

(٣٠) المرجع نفسه: يذكر أن (الميجر باولو) كان قد خرج من اجتماع له ببعض رؤساء العشائر خارج تلعفر والتقاه وهو عائد إليها كوكبة من الفرسان العشائريين فقبضوا عليه وسلبوه سلاحه وساروا به إلى تلعفر. إلاّ أنهم اصطدموا بالحملة التأديبية القادمة من الموصل تخفرها الطائرات. وانتهز (باولو) الفرصة وحاول الفرار فأطلق عليه أحدهم عياراً نارياً وأرداه قتيلاً وهو يعدو باتجاه الحملة التأديبية على أن المراجع البريطانية تؤكد أنه قتل غيلة أثناء الاجتماع.

وغنائم. وقرّر قائد الحملة (جميل محمد المدفعي) الذي اتخذ لنفسه عنوان (قائد الجيوش الشمالية)! الاتصال بجماعة حزب العهد في الموصل للتنسيق والاتفاق على إشعال نار ثورة داخل المدينة حال وصول قواته المختلطة مشارفها. وكتب بذلك رسالة توجيهية. كما كتب للمسؤول السياسي البريطاني [المقدم نولدر] يأمره بالخروج من الموصل فوراً»[٣١].

الوثائق البريطانية تشير إلى الإجراءات الشديدة التي اتخذت في الموصل. فقد

---

(٣١) المرجع ذاته: (نص رسالة المدفعي إلى الكولونيل نولدر): «نحن، باسم جميع أهالي العراق، نخطركم بلزوم خروجكم من ديارنا وتسليم العراق لمليكنا (ملكنا) صاحب الجلالة عبدالله الأول ابن جلالة الشريف حسين حسب عهودكم التي كانت أساساً للتحالف معنا. وإن لم تخرجوا فمع كلّ الأسف سنخرجكم بحدّ سيوفنا، لأننا لا نقبل أن نعيش مستعبدين. وستكونون أنتم المسببين والمسؤولين عن سفك الدماء بيننا وبينكم. هذا ونؤمل منك الجواب العاجل بخصوص تخلية بلادنا والسلام على من اتبع الهدى.

التوقيع (قائد جيش العراقي المليّ الشمالي)

جميل المدفعي

وردّ عليه نولدر برسالة ظاهرة الجدية لكنها لا تخلو من تهكّم:

«إلى القائد النقيب جميل:

ليس بخفيّ عنكم إني ضابط سياسيّ فحسب، مرتبط بقيادتي العليا في بغداد خاضع لأوامرها وليس من صلاحياتي البتّ في مثل هذه الأمور بإجلاء هذه الولاية فليس لي إلاّ أن أصدع بالأمر وإلاّ فإني سأنتظركم لإخراجنا بالقوة التي نوهتم بها».

وهذا هو نص الرسالة التي وجهت إلى أعضاء جمعية العهد: (المرجع ذاته)

"بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته نخبركم ونبشركم بأننا قد دخلنا تلعفر بدون ضائعات (خسائر) من طرفنا. وأسرنا اثنتي عشرة سيارة أتومويبل فيها أربع مُدرعات وثمانية رشاشات وأسقطنا طيارة وقتلنا ما ينوف عن المائة من جنود الإنگليز. وقد اجتمعت واشتركت معنا عشائر شمر والجبور والكركرية والجحيش وأهل تلعفر وأغوات وأهالي سنجار. وإن شاء الله غداً أو بعد غدٍ سندخل الموصل، فعليه يلزم عليكم أن تستعدوا لترتيب الأمور الداخلية. ويلزم عليكم أن تقوموا لمدافعة الوطن وطرد الإنگليز توحدون الحركة معنا وتجردون اللازم مثل ما عملوا أهالي (تلعفر) و(دير الزور) و(البوكمال). ثانياً يلزم إحضار محلات لأجل إسكان العسكر والعربات والمجاهدين. (ثالثاً) تكتبون مكاتيب إلى العشائر من العرب والأكراد في طرفي دجلة من شعبة (العهد) ومن قبل حاجي محمود النجفي والشيخ سليم وغير سليم وغيرهم من أصحاب النفوذ أيضاً. والنصر من عند الله.

والسلام على الأحرار العاملين

قائد الجيوش العراقية الشمالية (جميل)

استقدم سربٌ من الطائرات وأصدر (نولدر) أمراً بجمع الأسلحة من الأهالي تحت التهديد بأشدّ العقاب وسَدّ مداخل المدينة بأسلاك شائكة ووضع نقاطاً عسكرية في مفارق الطرق تدعمها أوكار رشاشات ومصفحات وأصدر أمراً بإطلاق النار على كل من يدنو من سور المدينة(٣٢). في حين وزع جماعة (العهد) نشرات جاء فيها أن البريطانيين يتهيّأون للرحيل عن المدينة، وأن على الأهالي المسيحيين واليهود أن يطمئنوا، فذلك سيكون في مصلحتهم وعليهم أن لا يخافوا أو يخشوا ضرراً.

واستقدم (نولدر) بعض وجهاء المدينة وانتزع منهم وعداً بالإخلاد إلى السكينة والتزام بيوتهم، وتطوع فريق منهم بتسمية عدد من القوميين (الوطنيين) الناشطين الذين أطلقوا عليهم صفة الغوغائيين والمشاغبين، فتمّ اعتقالهم وأودع بعضهم السجن وأرسل بعضهم مخفوراً إلى بغداد.

كانت حركة منفصلة تماماً عما يحدث في الفرات الأوسط وإن تزامنتا. إلاّ أن النمط والأساليب كادت أن تتشابه. ومن ذلك تلك الحماسة التي ابتعثها انطلاق للإشاعات خرج عن كل حدود المبالغة - انتشرت في الأوساط العشائرية العربية والكردية انتشار النار في الشوك الجافّ. وراح أفرادها يمنون النفس بالغنيمة والسلب، على غرار ما جرى في تلعفر والشعبية.

اصطدمت القوة الزاحفة المختلطة على الموصل في ٨ من حزيران ١٩٢٠ بسريّة بريطانية مسلّحة بالرشاشات ومدفعين وثلاث مصفحات وبحماية طائرتين تحمل قنابل من زنة ٢٥ پاوند وقذائف المدفعية ففر أفرادها هاربين في كلّ جهة. وأسرع (المدفعي) الذي كانت جيوشه ذات المائة والستين جندياً - في المؤخرة - إلى الإنسحاب بهم وبعجلاتهم لا إلى تلعفر بل إلى الخابور. وهرع (حميد الدبوني) إلى تلعفر لإنزال (علم الشريف) وإحراق السيارات. ثم اختفى عن الأنظار تاركاً أهالي تلعفر لمصيرهم.

عاد هؤلاء إلى بلدتهم وقد ملك الخوف عليهم مذاهبهم من انتقام السرية البريطانية المتوجهة إليها. كانوا يتصورون - بكل ما نجحت ذكرياتهم الأليمة في تصوره عن الفاتحين السابقين - بأن القوة المنتصرة ستصبّ جام انتقامها على رؤوسهم فتحرق وتسبي وتأسر وتعمل السيف في الرقاب وتصادر. ولذلك كان الإجماع على ترك البلدة

---

(٣٢) بوشر بهدم بقايا السور في ١٩٢٢ تدريجياً وكملت إزالته تماماً في الأربعينيات. ولم يبق منه غير أطلال أهمها القلعة الرئيسة (باش طابيه) أي القلعة الرئيسة.

تنعى من بناها والنزوح جماعياً إلى تركيا.

شاهدهم قائدا الطائرتين يتجهون برتل طويل نحو تركيا وقد زخرت بهم المسالك والطرق. ولم يبد شيء من هذا الذي توقعوه، فقد اكتفى البريطانيون بتحقيق قضائي وهدم سبعة دور لكبار المحرضين والمشاركين وإحراق محتوياتهما من أثاث. وصدر حكم من محكمة عسكرية بالسجن على عددٍ وبالموت على كل من حميد الدبوني، ومعاون الشرطة جميل آل خليل(٣٣).

وأسرع رؤساء العشائر المغيرة والتلعفريون(٣٤) يتسابقون «كالعادة» إلى إظهار الولاء والطاعة. قالوا إنهم كانوا ضحية خداع وضغطٍ. وكان (عجيل الياور) شيخ مشايخ شمر ورؤوس قبيلته أول من عرض الدخالة.

وفي الموصل - نقلاً عن علي جودت «اعتقلت الشرطة بعض الوطنيين، بينما اختفى بعضهم أو فرّ إلى القرى. وساد الموصل من بعد ذلك جوّ من الإرهاب ورفع الموالون للإنكليز رؤوسهم عالياً وصاروا يتحدثون عن «قوة الإنكليز وضعف العرب وكيف أن التلعفريين غرر بهم أفراد قلائل ودفعوهم إلى القيام بتلك الحركة الطائشة التي أضرت بهم».

لم يوضح (علي جودت) نوع ذلك الإرهاب الذي ساد المدينة. وهو قول فيه مبالغة أو محض خيال. فما سمعته أنا من بعض الذين لاحقتهم الإدارة البريطانية ينفي ذلك. وما روي لي بشكل متواتر من معاصري الفترة أن الموصليين عامةً شعروا بانفراج وزايلهم خوفٌ كان يتملكهم ويعصر قلوبهم من احتمال دخول العشائر المدينة ومباشرتهم عمليات السلب والنهب.

زميله (جميل المدفعي) يتخذ لنفسه لقب (قائد الجيوش) في حين لم يتجاوز عدد

---

(٣٣) أصدر المندوب السامي (كوكس) في ٣٠ من أيار ١٩٢١ عفوا عاماً عن القائمين بحركة تلعفر والموصل والفرات الأوسط، مستثنياً من الحركة الأولى كلاً من حميد الدبوني وجميل محمد آل الخليل (كثيراً ما يتوهم الكتاب أن المحكوم هو جميل المدفعي).

(٣٤) من ردود الفعل السريعة في تلعفر ما يدل عليه نبأ نشرته جريدة الموصل في عددها الصادر ٢٠ من آب ١٩٢٠ هذا نصه: «إجتمعت اللجنة الإدارية لبلدة تلعفر في ٩ من آب ورفعت عريضة إلى معاون الحاكم السياسي تعرب فيها عن نفورهم من الطريقة البربرية التي قتل بها حاكمهم المحترم (الميجر بارلو) وثانياً رغبتهم في إبلاغ أقارب الفقيد مشاعرهم بالأسى على فقده، وثالثاً القبول بالاكتتاب الذي سيجمع قريباً وتخصيص المبلغ لإقامة نصب على ضريح الفقيد تنقش عليه عبارات تذكارية من جانب الهيئة الإدارية».

أفراد حملته المائة والستين ضابطاً وجندياً، جاؤوا وعادوا دون أن يخوضوا معركةً أو يلتحموا في اشتباك أو يطلقوا عياراً نارياً واحداً. لا ينسى هذا القائد بعد انسحابه السريع أن يلقي اللوم على العشائر التي خذلتهم وتفرقت عنهم[٣٥]. كان (المدفعي) ضابطاً

---

(٣٥) يورد مؤلف «ثورة تلعفر» نصّ كتاب الإعتذار الذي وجهه قائد الجيوش العراقية إلى جماعة حزب العهد في الموصل معللاً أسباب انسحابه ونثبته هنا لطرافته ليس غير:
«لابد وأنكم سمعتم صورة الحركات التي جرت بأطرافكم وأسباب الانسحاب كان عن إهانة أهل تلعفر وإبراهيم اليوسف من الجحيش وغيرهم من الخائنين الذين خابروا الإنكليز عن قوتنا ونحو إمالتهم لهم (؟) ولما تعرض الإنكليز علينا لم يعاوننا أحد من الأعافرة (أهل تلعفر) وأكثر العشائر إلاّ القليل والكثيرون فروا إلى بيوتهم. ولما رأينا الحالة هكذا رجعنا من (التويم) إلى (تلعفر) لندافع هناك ولكن لما رأيتُ في تلعفر أيضاً ما بقي ولا فرد وكلهم أخذوا عائلاتهم وفروا. ومن جهة ثانية (حمو شرو) قطع علينا الطريق في (عين الغزال) بعد أن دخل علينا وأرسل لنا هيئة ترجو قبول دخالته اضطرينا إلى أن نترك تلعفر ونرجع إلى (الفدغمي) بعد أن حرقنا المدرعات والأتومبيلات والقشلة (دار الحكومة) وما فيها (كذا!). وما ندري ماذا جرى عندكم في الليلة الموعودة. ولله الحمد في عودتنا لم يحصل علينا أقل ضرر، أما عشائر شمر والجبور والگرگرية وغيرهم فمع كلّ الأسف كانوا قد التهوا بالغنائم وبيعها وإيصالها إلى بيوتهم».
قائد الجيش العراقي الشمالي
جميل المدفعي

(وحمو شيرو: هو زعيم دينيّ من يزيدية سنجار)
عرفتُ وأنا يافعٌ في المدرسة المتوسطة الشرقية رئيس شعبة حزب العهد السيد رؤوف الغلامي وهو مدرس اللغة والتأريخ فيها شخص هادئ لطيف المعشر فكه، لم يسمُ به المقام كما سما بالآخرين، وقد توفي في أواخر الأربعينيات. ومن بين القوميين النشطين في حزب العهد والقحطانية واللامركزية والفتاة. ومنهم شقيقه الأصغر عبدالمنعم مؤلف كتاب (ثورتنا في شمال العراق) ويحي ق آل عبدالواحد، وسعيد الحاج ثابت، وغيرهم. في الواقع كان رؤوف الغلامي رئيساً لفرع (العهد) في الموصل منذ متنصّف العام ١٩١٩ مرتبطاً بمقرها في دمشق. تصله بانتظام (العقاب) جريدة الحزب الرسمية في سورية، فيبعث بها إلى بغداد وغيرها من المدن. ينقل الدكتور علي الوردي المؤرخ الاجتماعي العراقي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج٥، ص٥٤) نصوصاً من بعض رسالة كتبها الغلامي إلى مقر الحزب في دمشق مؤرخة في ٣٠ من تشرين الثاني ١٩١٩ اقتبسها من جريدة (صوت الأحرار) البغدادية الصادرة في ٣ نيسان ١٩٥٣ (وهي وقتذاك لسان حزب الأحرار وهو واحد من الأحزاب الخمسة التي أجازتها حكومة توفيق السويدي في نيسان ١٩٤٦. ولايذكر (الوردي) المناسبة لنشر تلك الرسالة وكل ما هو بمدى علمي أن الغلامي كان معتمداً لحزب الأحرار في الموصل وقتما كان كاتب هذه السطور معتمداً لـ(حزب الشعب) فيها. فالتقى التلميذ بالأستاذ وكانت علاقة قصيرة الأمد. =

محترفاً انضم إلى قوات الشريف حسين منذ ثورته ورأى بعينيه المجهود الذي بذله البريطانيون في دفع عجلة الثورة إلى أمام وبناء قواتها، وعرف القدر الضئيل الذي ساهمت به تلك القوات في حروب سورية. فأيّ حلم وأيّ خيال ذاك الذي كان يراوده ويراود إخوانه الضباط الآخرين في تحرير العراق بدءاً بتلعفر والموصل، وبمائة وستين جندياً لا يملكون من سلاح وذخيرة إلاّ ما انتهبوه من مخازن سلاح ائتمنوا عليها وما تصدق به عليهم الأتراك[٣٦].

مسألة لا أجد لها حَلاً بغير الرجوع إلى ما توصل إليه المحللون وعلماء النفس عن تفسير لتصرفات أولئك النكرات، الذين يجدون أنفسهم فجأة في لجّةٍ من أحداث جسام ذات ظروف وإرهاصات ليست من عملهم - أحداث جسام ذات آثار بعيدة في مصائرهم ومصائر غيرهم طابعها العنف وسرعة الحركة. مهما بلغ الدور الذي ساهموا به من الضآلة والصغر تراهم وهم في وسطها يسترسلون في أحلام اليقظة العراض الطِوال بلا حدود، ماتلبث لشدّة ما تقرع به رؤوسهم أن ينزلوها منزلة الحقائق فيضفوا عليها صفة الوحي والإلهام. ويبدأون في العمل لها إنجازاً لمضامينها بحماسة وعزم من غير تأمل وتحسبّ للعواقب. وبعين تلك الحوافز التي تدفع الفأر إلى الحلم بأكل القطّ.

ولا يقف العجب بنا عند تلك الجدية وذلك العزم من (المدفعي وجودت)[٣٧] وغيرهما من الضباط القوميين الموصليين الآخرين - على تحرير العراق من نير المحتل

= (النصوص التي نشرت ونقلها الدكتور الوردي ربما كانت من قبل شقيقه عبدالمنعم)
«ماكشف الحلفاء عن مكنوناتهم إلاّ باتفاق العرب والترك مع البلشفك وألمانيا والنمسا وعند وقوع حرب عامة في المستقبل، فتشكل حينذاك من اتحاد العرب والترك قوة لا يستهان بها تحيي الأمل في قلوب كافة المسلمين، ولا يخطر ببالنا نقصد بذلك الاستمرار من قوة الروس والاستفادة من هذا الاسم الجديد وتهديد الناكثين للعهود» آه.

(٣٦) يذكر محمد طاهر العمري (المرجع السالف) أن القيادة التركية في الجزيرة مالبثت أن كفّت عن معاونتهم عندما علمت بأن نيتهم لا تنطوي على إعادة الولاية إلى تركيا وإنما ضمها إلى العراق.

(٣٧) جاء نوري السعيد بالمدفعي وزيراً للداخلية في ١٩٣٠، وفي ١٩٣٣ كلّف بتشكيل أول حكومة له، تلك التي أسقطها رشيد عالي بمؤامرة داخلية، وتولى رئاسة الحكومة ستّ مرات أخرى، كان آخرها في العام ١٩٥٣. أما علي جودت فقد ترأس ثلاث حكومات كان آخرها في العام ١٩٥٧ فضلاً عن عضويتهما في وزارات متعددة.

البريطاني بمائة وستين عسكرياً خائري العزائم فقدوا معنوياتهم القتالية إثر الهزيمة العسكرية التامة التي لحقت بدولتهم - بل يزداد عندما نجدهما يكتبان ذكرياتهما عنها بعد ثلاثين أو أربعين عاماً بعين الجديّة والتصوّر والروح الحماسية التي دفعتهم إلى المباشرة بها. وقد وجدنا معظمهم بعد بضع عشرة سنة يتبوأون المناصب الرفيعة في الدولة التي خلقها منهم ذلك المحتل الذي حاولوا طرده جدّية خلت من أي نوع من نقدٍ ذاتي أو اعترافٍ بخطأ.

ظاهرة يصعب تفسيرها قدر ما يتعذر احترامها أو محاولة إيجاد أعذار لها، والتعليل الوحيد الذي أجده في يدي ربما كان يكمن في الظروف السياسية والفكرية التي بدأت تسود البلاد الناطقة بالعربية بعد نهاية النصف الأول من قرننا (القرن العشرين) أو قبله بقليل. حيث وضع القوميون العرب الجدد رجال السياسة القدماء في قفص الاتهام وعزوا إليهم «جملة المصائب» التي حلت ببلاد العرب. فانبرى هؤلاء للدفاع عن أنفسهم وردّ تهمة الخيانة والعمالة بكتابة مذكراتهم ليثبتوا قوميّتهم، وليبرهنوا بأنهم كانوا مثلهم إن لم يكونوا أكثر من متهميهم «قومية» وحرصاً على مصالح البلاد.

* * *

عاد (جميل المدفعي)[٣٨] بعد تتويج فيصل ملكاً على العراق - مع من عاد وبموجب قرار اتخذته حكومة عبدالرحمن النقيب في ٢٤ من تشرين الثاني، وتم تسفيرهم من سورية مع عائلاتهم على نفقة الحكومة العراقية. وفي ٢٩ من كانون الأول أي بعد أسبوع واحدٍ قررت أيضاً أن تعتبر خدمة هؤلاء في الجيش العربي الحجازي خدمة فعلية «بغرض تقدير الدرجة والترفيع وتعيين الراتب سواء في ذلك من أعيد استخدامه في الجيش العراقي أو اختار السلك المدني، اليوم باليوم والشهر بالشهر!». مثلما ورد نصاً في القرار.

---

(٣٨) تذكر (مس بل) في إحدى رسائلها لأبيها نبأ عن وصول قافلة من العراقيين الذين كانوا في سورية إلى مسقط رأسهم الموصل. وتعين يوم ٢١ من نيسان ١٩٢٠ تأريخاً لوصولهم. وتعلق على عودتهم قولها إنهم مالبثوا أن أصبحوا عنصر شغب وقلاقل في الموصل وقد عُلّقت البيانات على الجدران في الليل وصارت الاجتماعات تعقد علنا مندّدة بالحكم البريطاني، بتوقيع حزب العهد. وازدادت غارات البدو فيها على خطوط مواصلاتنا. ويؤخذ قول (مس بل) على علاته: فمن الواضح أن الذين عادوا كانوا على صلة ما بضباط دير الزور وبحركة المسيرة إلى تلعفر والموصل وعلى علم بها.

بقي العلم البريطاني يخفق على مقر الحكومة في الموصل كما بقي كذلك في مدينة كركوك. إلى أن استبدل بالعلم العراقي الجديد، وهو نسخةٌ من العلم الشريفي الذي اخترعه مارك سايكس كما تقدم(٣٩). وكان ذلك بمناسبة أول زيارة لـ(فيصل) للمدينة في ١٢ من كانون الأول ١٩٢٤.

* * *

انتهى الحكم العسكريّ في ميسوپوتاميا حال عودة (سر پرسي كوكس) من طهران في ٤ من تشرين الأول (أكتوبر) واتخاذه عنوان المندوب السامي High Commissioner. وفي ١١ تشرين الثاني استخدم صلاحياته كرئيس دولةٍ فطلب من السيد عبدالرحمن الگيلاني نقيب أشراف بغداد تشكيل حكومةٍ، وهذا لقب كان العثمانيون يمنحونه لرأس أسرة السادة المنحدرين من نسل الحسن ابن الإمام علي في مدن معيّنة(٤٠). فضلاً عن تتويج فيصل فقد أصدر الوايت هول قراراً بأن تتسلّم القوة الجوية الملكيّة RAF مسؤولية الدفاع على العراق الجديد من القيادة العامة ببداية شهر

---

(٣٩) التغيير الوحيد فيه (بموجب قانون العلم العراقي) هو إضافة نجمتين مسبعتين في وسط الأبيض ترمزان إلى القوميتين الرئيستيّن في البلاد أو إلى الولايات الأربعة عشر التي يتألف منها العراق إدارياً. وقد تغيّر هذا العلم كثيراً كما هو معلوم إلاّ أن الألوان الأربعة الرمزية التي اخترعها سايكس كانت دوماً تتمثل في النسخ التالية منه.

(٤٠) كانت (مس بل) الساعد الأيمن لكوكس ومشاوره الذي لا يردّ له رأي على معرفة شخصية سابقة بالگيلاني قبل أن يقع عليه نظر أي بريطاني آخر. فقد قامت بزيارته في غرفته الخاصة بجامع الحضرة الگيلانية في باب الشيخ العام ١٩١١ عندما حَلّت ببغداد ودونت حديثها المستفيض معه ورأيها فيه في كتاب رحلتها المطبوع في إنگلترا: (من عمورات إلى عمورات Amorath to Amorath) ومن كتابها هذا صارت لندن على علم بوجوده وآراء أهم شخصية في مدينة بغداد وفي ولايتها. لذلك لم يكن تكليفه برئاسة أول حكومة محليّة عملاً غير مدروس. ورغم الدور الكبير الذي أتيح لهذه المرأة في مصائر العراق السياسيّة فأنا أعتقد بأنّ الحجم الذي أعطاه المؤرخون المحليون لذكائها وسعة اطلاعها لا يتفقان قطّ والمهام التي أوكلت لها ولا المكانة التي حظيت بها عند حكومتها. وقد أحصيت عند قيامي بقراءة رسائلها قراءة مدقق أخطاء تأريخية واستنتاجات شخصية نابعة عن اعتداد بالنفس لا حد له وهي كثيرة إلاّ أني أكتفي بتقديم مثل واحد من رسالة كتبتها لوالدها في ٣-١-١٩١٨ وهي في كربلاء جاء فيها: «أعظم مشكلة تواجه العراق هي الهوة السحيقة التي تفصل بين أهل السنة والشيعة فالترك سنة والفرس شيعة. وموت عباس (العباس) آخر خليفة منحدر من صلب (محمد) وابنه (الحسين) كان السبب الذي أدى إلى ذلك»!! فتأمل هذا الخلط.

تشرين الأول ١٩٢٢ والاستعاضة عن القوات البريّة المسلّحة بتجنيد الليفي الآشوري، وحَلّ فصائل الليفي العربي (الشبانة)، التي بدء بتشكيلها في الأيام الأولى من الحملة البريطانية.

كانت هذه من جملة التدابير التي اتخذتها بريطانيا إزاء النجاح العسكري الذي راح يحققه اللواء مصطفى كمال (الملقب بأتاتورك) في الأناضول ضد الغزو اليوناني، ومن آثاره السياسية تمزيق معاهدة (سيفر) التي أقرّت بحكم وطنيّ لجزء من الأناضول الشرقية لكلّ من الكرد والأرمن أو الآشوريين في مادتيها الثانية والستين والرابعة والستين. لم تنفذ بنود هذه المعاهدة، إلاّ أن حلم كردستان المستقلة، وطموح الآشوريين إلى الحكم الذاتي المسجلّ في وثيقة دولية، لم يُنسَ قط.

إنّ نقل صلاحيات الإدارة من دائرة المندوب السامي إلى الحكومة المؤقتة أثار بطبيعة الحال وبشكل لجوج مسألتين من بين المسائل التي عرضت للإدارة المدنية - السياسية، وفي مقدمتها مستقبل كردستان والآشوريين.

مسألة الآشوريين كما رآها (ويلسن) ومَن بعده هي بحسب تصور (إدموندز) ذات شقين، يقول إدموندز:

«هي من جهة موضوع إسكانهم. ومن جهة مسألة مستقبلهم كقوة عسكرية. كانت السلطة البريطانية في هذه الفترة (١٩٢٣) منشغلةً بالمشكلة الخطيرة، مشكلة مستقبل النساطرة المسيحيين الذين عرفوا بالآشوريين سكنة جبال حكاري. وهذا الأقليم هو ولايةٌ تقع شمال ولاية الموصل. انتقض هؤلاء المحاربون الجبليّون الأشداء على الحكم التركي في ربيع العام ١٩١٦، بدفع وإغراء من قائد الجيش الروسي المهاجم، إلاّ أن تقهقر قواته أدّى إلى بقائهم في الميدان لوحدهم معرضين لانتقام وعقاب حكومتهم الشرعيّة. فلم يروا بداً من الجلاء إلى إيران هم وأسرهم والسلاح في أيديهم يقاتلون قتال انسحاب. وهناك بقوا يحاربون بإمرة القيادة الروسيّة إلى أن انحلّ الجيش الروسي الإمبراطوري، ففقدوا نصيرهم الوحيد وعدموا قوة الحياة. وقد تمّ إخلاء ٣٥ ألفاً منهم وأودعوا معسكراً كبيراً للاجئين في ضواحي بعقوبة، التي تبعد عن شمال بغداد بثلاثين ميلاً. وفي أثناء السنوات الأربع (١٩١٩-١٩٢٣) تَمّ إسكان معظم من يحمل الرعوية التركية منهم، ما تراوح عدده بين سبعة آلاف نفس وثمانية آلاف، واستقروا فعلاً في جنوب حكاري على الحدود، حيث

ماكان للسلطة التركية أثر. وآخرون منهم أسكنوا الجهة الشرقية من الحدود. وجُند عدد كبير من الرجال في الليڤي العراقي تحت إمرة ضباط بريطانيين»[٤١]

هؤلاء المجندون كانوا جزءاً من القوات الإمبراطورية المسلحة التي تخدم عبر البحار، تحكمهم قوانينها العسكرية ولا يدينون بولاء ولا يشعرون بأي احترام للحكومة العراقية. وهم في ذلك لم يكونوا مخطئين كل الخطأ. فقد بدا استقبالهم على الصعيدين الشعبي والحكومي مشوباً ببرود في أفضل الحالات، وبجفاء ونفرة في أسوئها[٤٢].

ولن نذهب بعيداً، ولنتحدث عن موقف مسيحيي مدينة الموصل نفسها إزاءهم قياساً. فعشرات الأسر الآشورية التي وجدت سبيلها إليها اصطدمت بذكريات النزاع العقائدي الذي أدّى إلى انشقاق كنيسة الشرق، والخصومة الحادة التي دامت زهاء ثلاثة قرون ونصف قرن بين الكلدان الكاثوليك وبين المقيمين على مذهبهم. ظلّ الخصام مستمراً حتى مفتتح القرن العشرين يخيم بظلال التعصب على النفوس، ولم يكن بغريب أن يقابل هؤلاء المشردون بصدودٍ ولا أن يطمعوا ببعض العطف الذي لقيه اللاجئون الأرمن مثلاً وهم على المذهب الأرثوذكسي وهو الأقرب إلى أتباع كنيسة الشرق. ولولا عطف الإرسالية الدومينكانية على هذه الأسر لما وجدت المأوى في الموصل.

زاد عدد الأسر الآشورية خلال السنوات الست التالية السابقة لعملية البتّ في عائدية الولاية، بتواجد فصائل من قوات الليڤي الآشوري في المدينة وفي الولاية. وانتقل البطريرك الآشوري وحاشيته إلى المدينة وجعلها مركزاً لكنيسة الشرق بواقع انتشار رعيته في القرى العديدة شمالاً، قبل النزوح عن حكاري وبعدها.

ما كان ثمّ من سبيل أن يعرف الموصليون شيئاً عن تاريخ هذا المجتمع القوميّ الصغير ولا عن أصله العرقي الصميم، ولا بأن الآشوريين هؤلاء أحفاد أولئك الذين أرغمهم الاجتياح التركماني والمذابح الدينية التي تخللت غزواته على هجرة بلادهم

---

(٤١) سي. جي. إدموندز C. J. Edmonds: «كرد وترك وعرب Kurds, Turks and Arabs» ترجمتها العربية. دار العروبة - بغداد ١٩٧٠ ص٣٤٧.

(٤٢) راجع التفاصيل في الباب الثاني من هذا الكتاب. إن السياق اقتضى منّا هنا التنويه برأي أحد الإداريين البريطانيين الكبار في حجم المشكلة الآشورية كما بدت للإدارة البريطانية في العشرينات.

واللجوء إلى المعاقل الجبلية في حكاري قبل خمسة قرون، بل اعتبروهم أغراباً دخلاء قريبين إلى الفاتح الجديد الذي صار يستخدمهم في عمليات عسكرية داخلية، فهم في نظر القوميين الكرد والعرب أداة قمع في يد المحتل تقف ضد تطلعاتهم إلى الاستقلال. وهم في نظر أولئك الذين يحنون إلى الحكم التركي خونة مارقون تنكروا لدولتهم ورفعوا السلاح في وجهها. وهم في نظر إخوانهم في الدين خصوم عقائديون.

في خضم هذه التشكيلة الغريبة من الخصومة والعداء وقف الآشوريون الموقف الوحيد الذي كان ميسوراً وهو تسليم مقاديرهم إلى السلطة الحاكمة وربط مصيرهم بها بوصفها ملجأهم الوحيد في مجتمع غريب لا يرحم ولا يُتوقع منه أي تعاون. وهو واقع ربما كانت السلطة البريطانية تحبذ الإبقاء عليه لأنه يستقيم والسياسة التي اعتمدتها في تلك الحقبة، لاسيما بعد الحملة الآشورية الفاشلة في ١٩٢٠ للعودة إلى حكاري. لم يكن لديها أي فكرة عما ستجره هذه السياسة وما سينجم عنه من آثار خطيرة ومآس.

ولا ندري أكانت محاولة (كوكس) في ١٩٢١ ترمي إلى إزالة هذه النفرة أم هي محاولة ماليّة بحتة ترمي إلى تحويل العبء المالي الذي تتحمله لندن لنفقات قوات الليفي إلى عاتق الحكومة المحلية التي شكّلها. إذ تشير محاضر جلسات الحكومة النقيبية الأولى إلى اقتراح غامض العبارة قدمه لها (كوكس) بربط هذه القوات بإحدى وزاراتها. ولعله أدرك بعد الرفض المؤدب الغامض الذي جاءه بأن اقتراحه هذا لم يكن في محلّه. وبقيت قوات الليفي مرتبطة به وجزءاً من القوات البريطانية حتى حَلّها نهائياً[٤٣].

إن الأهمية التي كان البريطانيون يجدونها في قوات الليفي تجلّت عندما قرروا قراراً لا رجعة فيه على أن تكون ولاية الموصل ضمن دائرة نفوذهم، أي جزءاً من الدولة العراقية الحديثة والتي تجلّت في الإعلام الإنكليزي. فخلال الفترة المنحصرة بين العامين ١٩٢٠ و١٩٢٣ كان مستقبل الولاية ونفطها الموضوع الرئيس المحبب للصحافة البريطانية. والدور الآشوري في المعركة المصيرية القادمة تفضحه عبارات في [تقرير الإدارة في العراق للفترة ١٩٢٠-١٩٢٢] المذيل بتوقيع (سر پرسي كوكس):

«وضعت قيد الدرس مشاريع مختلفة لتوطين الآشوريين. كان أفضلها وآثرها هو اقتراح إسكانهم في إقليم العمادية. وقد حظي هذا بموافقة كلّ من

(٤٣) أنظر الملحق في آخر الفصل.

الكولونيل أي. تي. ولسن، والكولونيل ليتشمان الضابط السياسي في الموصل، وهو على الأقل مقبول من قسم كبير منهم. كذلك الفوج الآشوري الذي جنّد منهم للخدمة في كردستان (حملة ١٩١٩)[٤٤] كانت قد اتخذت به خطوات تغلب الشدّة عليها لتنظيف البلاد. والحكومة المحلية كانت على كلّ عاجزة عن الوصول إلى قرار في هذا الموضوع حتى إجلاء القوات البريطانية عن البلاد. لذلك بات المشروع غير عملي، وكان الإهمال مصيره والحالة هذه. وإنصافاً للآشوريين ينبغي أن نضيف هنا، أنه وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من هذه السنة (أي ١٩٢٢) عندما توالت الهجمات التركية برهنوا على قيمتهم الستراتيجية في الحدود العراقية. وفي شهر مارت (من تلك السنة) تمّ تجنيد (٢٠٠٠) منهم في قوات الليفي خلال ثلاثة أسابيع. وليس من غير المحتمل أبداً أن الردّ الفوري الذي اضطلع به قومٌ عرفوا بشدّة البأس والكفاءة في القتال كان السبب الرئيس الذي أرغم الأتراك الكماليين على وقف هجماتهم»[٤٥].

---

(٤٤) المقصود بها الحملة التي قادها آمر اللواء (سر ثيودور فريزر) آمر الفرقة الثانية عشرة المرابطة في الموصل ضد الشيخ محمود البرزنجي وانتهت بأسر الشيخ واحتلال السليمانية (١٩١٩).

(٤٥) حاول الفرنسيون في سورية تقليد البريطانيين في استخدام الآشوريين أثناء نزاعهم مع تركيا الكمالية ولأغراض عسكرية أخرى داخلية ضد الدروز مثلاً. فاستقدموا من روسيا زعيماً آشورياً هو (مالك قنبر ابن مالك وردا) زعيم قبيلة الجيلو وأتباعه. وكان هذا في خلاف مع أسرة البطريرك لاعتقاده بأن حميّه نمرود بيت شمعون عمّ البطريرك (بنيامين) قد اغتيل بتحريض من (بنيامين) نفسه، فذبح ذبحاً مع أولاده وبناته وزوجته قبل خروج الآشوريين من مواطنهم في حكاري، لأنه كان يعارض في رفع السلاح بوجه العثمانيين ويدعو إلى بقاء الآشوريين على الحياد. كان مالك قنبر هذا قد نجح أثناء بداية الحرب الأهلية في روسيا - في الوصول إلى جورجيا (تفليس) وهناك اتصل به الفرنسيون ووعدوه كما قيل بإقامة دويلة حاجزة Buffer State للآشوريين في شمال شرق سورية تخضع لنفوذهم. وشجعوه على تجنيد متطوعين آشوريين تمّ نقلهم إلى سورية عبر البحر الأسود. وقد أوكل إلى الجنود الخمسمائة الذين أمكن جمعهم مهمة حفظ الأمن في المنطقة المشار إليها ولم تتضخم هذه الوحدة. لا ندري كم كان هذا الرجل يعتقد بجدية وعود الجنرال (گورو) حاكم سورية. مهما يكن فالواضح أن الفرنسيين كانوا يريدون كالبريطانيين تسريح جنودهم وتخفيف النفقات. يذكر الكاتب الذي وقف على مذكرات (قنبر) الذي زار العراق في ١٩٥٨ أن رسائله العديدة التي بعث بها إلى أبناء قومه في العراق يدعوهم فيها إلى الانضمام للجيش الآشوري في القامشلي والحسكة ودير الزور =

هذا ما ورد في التقرير الإداري السنوي وقد تمّ تدوينه بطبيعة الحال بعد الفشل الذريع الذي حاق بحملة «العودة إلى الوطن» الآشورية، أو حملة (مندان) كما عرفت في الحوليات البريطانية، من المفارقات أنها حصلت في أعقاب فشل حملة (المدفعي) على الموصل. فبات على أثر ذلك الفشل وكأن لا مناص من الإعتماد على سياسة الإسكان والتوطين والإندماج في المجتمع العراقي الجديد. إلاّ أن مصير ولاية الموصل لم يتقرر بعد. وهي تكاد تكون الموطن الوحيد الصالح لهؤلاء(٤٦).

في أواخر العام ١٩٢٢، بدا وكأن لا مناص من المقارنة. آنذاك لم يكن تعداد الجيش العراقي المتشكل حديثاً يزيد عن ثلاثة آلاف ضابط وجندي. في حين أناف عدد من جنّدتهم القيادة البريطانية في العراق من الليڤي الآشوري على الأربعة آلاف،

= «للمخاطبة ولإعلاء شأن الدولة الآشورية وتوطيد أركانها» ظلت دون جواب. أصيب هذا الرجل السليم النية بحصية واستفاق من حلمه الجميل عندما قررت القيادة العامة الفرنسية إبطال استعمال عنوان (الجيش الكلدآشوري) الذي استخدمه والاستعاضة عنه بعنوان (الفرقة الأجنبية الفرنسية). وقد توفي في فرنسا.

(٤٦) أليزابيت بركوين Elisabeth Bergoine «مس بل، گرترود من أوراقها الشخصية 1914-1926 Gertrude Bell, From her Personal Papers» ج٢، ص٣١. «جرى بيني وبين نوري السعيد حديث حول القضية الآشورية. أن عرب الموصل يثيرون كثيراً من الجلبة حول عودة بعض الآشوريين الذين كانوا قد ذهبوا إلى سورية عن طريق إستنبول. كانوا قد انحدروا برمتهم من الجبال التي تقع في الوقت الحاضر ضمن الإدارة العراقية، وإن كانت خارج الحدود التي رسمتها معاهدة (سيڤر) فهو الجزء الذي نريد استرداده من تركيا أولاً لأنها تؤلف حاجزاً واقياً رائعاً، وثانياً ليس بوسعنا - كما تمليه علينا مبادئ الشرف - أن نرى الآشوريين يخضعون لحكم الترك مرة أخرى، وكما يقول السرطان (سيكون ذلك من المنكرات بعد العطف الذي أبديناه). والآشوريون يقولون إنهم يفضلون النزوح الجماعي على قطع رقابهم بأيدي الترك. وإلى جانب هذا فهناك قدر كبير من التحاقد والاضطغان بين الآشوريين والعرب، والسبب الرئيس في هذا بحسب ظني هو الليڤي الآشوري. إنها غلطة من الأغلاط القديمة التي وقع فيها (سر پرسي كوكس) عندما خلق منهم داخل البلاد قوة عسكرية بقيادة ضباط، وقام هؤلاء بتوسيع الخرق وزادوا في الوضع سوءاً في تذكيرهم أفراد الليڤي باستمرار بأنهم جنود بريطانيون جيدون، وليسوا عرباً قذرين صغاراً، وتلك نقطة بقيت ابنة (السر هنري دوبس) تشير إليها باستمرار. لا أدري خياراً للآشوريين إلاّ بتسوية خلافاتهم مع العرب وأراهم سيفعلون ذلك في النهاية شريطة ألاّ يتدخل ضباطنا» اهـ، (تأريخ الرسالة تشرين الأول) (السرطان هنا الحيوان المائي الذي نسميه أبو جينب وهي هنا تقتبس من حكاية طريفة مشهورة. و(دوبس) هو المندوب السامي خَلَف (كوكس). ولا بد لنا هنا أن نشير أيضاً إلى قلة اطلاعها على وضع الحدود العراقية في ذلك الزمن).

استخدموا منذ ثورة الفرات الأوسط في الحركات العسكرية الفعلية، في حين كان المطوّعون في الجيش العراقي يتلقون التدريب العسكري وهم في أول مرحلة من التعود على النظام والانضباط. وفي الوقت الذي كان الليفي الآشوري بإمرة ضباط بريطانيين يخضعون للقوانين العسكرية البريطانية ويتلقون تدريبهم على الأساليب المتبعة في الجيوش البريطانية وينعمون بحياة مرفهة نسبيّة بالراتب الذي يتقاضاه الجندي، وهو يفوق راتب المجند العراقي، نجد هذا الأخير بإمرة ضباط عثمانيين يدربون وفق النمط العثماني - الألماني بخليط من الأسلحة الأثرية والقديمة والحديثة المتعددة المصادر.

اجتمعت هذه الأسباب كلّها لتجعل من الليفي الآشوري هدفاً سهلاً يصبّ عليه القوميّون والوطنيّون العراقيون بعربهم وكُردهم جام نقمتهم على المحتل، واعتبروه أداة قمع في يده، بكلّ الحسد والغيرة من الدوائر العسكرية العراقية بسبب نجاحه في الميادين القتاليّة. واتسعت دائرة النقمة والحسد لا لتشمل اللاجئين الآشوريين وحدهم فحسب، بل لعموم المسيحيين العراقيين.

كانت فكرة «القومية» بعد الحرب العالمية الأولى فكرة بسيطة ساذجة ضيقة الحدود. ويمكن تلخيصها استناداً إلى ما كانت تكتبه الأقلام الوطنية القومية بهذا الشكل: «إن مجموعة من الناس يمكن أن يؤلفوا شعباً وإن هذا الشعب يجب أن يكون مستقلاً بأموره».

وفي العراق أغفل الكتاب والصحافيون النفوذ إلى أغوار الفكرة، وتبسيطها وتعميقها. وعجزت تعليقاتهم عن إرشادنا إلى محاولة إمكان إنارة السبيل إلى تنظيم الحياة الاجتماعية لذلك الشعب. كانت الفكرة القومية لا تؤمن بتلك الرابطة التي يمكنها أن تحتضن أناساً من مختلف مدارس الفكر والعقائد والأديان وتهدف أساساً إلى إقامة كيان سياسيّ مستند إلى الإدارة الشعبيّة. والنصر الذي حققته الفكرة في العراق مثلما حققته في سورية وغيرها من البلاد الناطقة بالعربيّة وقتذاك لم يتم على أكتاف الجماهير ولم يُخرج شطنه من وسط شعبي، وإنما حمل لواءه طبقة الوطنيين وأصحاب الملكيات والضباط العسكريون خريجو المدارس العثمانية، الذين سمحوا بقصر نظر وسذاجة للعامل الديني والطائفي بالتسلل إلى دعوتهم وباستخدامه لتغذية الشعور القومي استخداماً أضرّ بالفكرة القومية من الأساس وأضرّ بهم في آخر المطاف بأن أبعدوا عنهم شرائح اجتماعيّة من المواطنين هامة وناصبوها عداءً وامتلأوا منها شكاً وبادلتهم الشك والعداء.

ملحق

مقتطفات مما كان ينشر في الصحف العراقية حول خروج الآشوريين إلى سورية

-١-

كتاب الحزب الوطني إلى فخامة رئيس مجلس الوزراء المحترم

يا صاحب الفخامة

إن قضية التياريين تستأثر باهتمام الرأي العام العراقي. وقد تفاقمت لتصبح اعظم مصيبة تهدد مستقبل ازدهار البلاد. وسيان في ذلك إذا جرى استقرارهم في محل واحدٍ أو جرى تفريقهم في أماكن مختلفة.

لقد اتضح أن هؤلاء لم يدخلوا البلاد كي يعيشوا في حالة استقرار وهدوء، بل كان لديهم نوايا أخرى. لقد كانوا سبباً في أحداث مؤسفة في كل من الموصل وكركوك ومنها تتضح خطورتهم أينما حلوا وفي أي وقتٍ كان.

لم يقدم أي شعب في العالم على خطأ فظيع كالخطأ الذي وقعنا فيه فقد منحناهم أراضي لسكناهم وصرفنا آلافاً من الدنانير على شؤونهم الزراعية وتركناهم ليجنوا خيرات بلادنا، ومع هذا كله فقد تركوا البلاد، واجتازوا الحدود بمجموعة تتألف من ألف وثلاثمائة مسلح وهم مستمرون في عبور الحدود. ولم يكتفوا بهذا ولكنهم أخذوا يهددون الآخرين وهم يخططون أمراً بطبيعة الحال كانوا قد صمموا عليه منذ زمن حتى افتضح مؤخراً. في هذه اللحظة هم غير قادرين مالياً ولكن كيف سيكون موقفهم من الحكومة إذا قدر لهم أن يزدهروا مادياً وثقافياً؟

نرى من واجبنا أن نوصي بأن أفضل علاج لهذا الوباء هو رجاؤنا من الحكومة أن تأمر بطردهم حالاً من البلاد وعدم تطبيق قرار عصبة الأمم. وأن لا يلتمس لهم أيّ عذر. وبهذا يتم تجنيب البلاد الاضطراب والإخلال بالأمن.

جريدة الإخاء الوطني، العدد ٤١٩ - ٣٠ تموز ١٩٣٣

أمين السرّ (الحزب الوطني)(*)

(*) إنصافاً للسيد جعفر أبي التمن مؤسس هذا الحزب، نرى أن نذكر هنا أنه كان قد أبعد نفسه عن الحزب ونشاطه منذ زمن سبق هذا التاريخ بكثير واعتبر نفسه مستقيلاً احتجاجاً على تصرفات بعض الأعضاء البارزين فيه وصلاتهم وإن تأخر نشر استقالته حتى تشرين الثاني ١٩٣٣- في =

-٢-

(نماذج مما كانت تحفل به الصحف البغدادية من آراء عن تلك الأحداث)

الإخاء: ٢١ آب ١٩٣٣

«... بولندا عاملت أقلياتها بمنتهى القسوة، وألمانيا انزلت باليهود أشدّ الاضطهاد، لكن بريطانيا والدول الأخرى لم تتدخل. ليس لأي دولة خارجية أن تتدخل في مثل هذه الأمور والعلاقات بين بريطانيا وبين بلادنا هذه يجب أن لا تتعدى علاقاتها مع الدول المذكورة آنفاً إن كان استقلالنا بنفس مستوى استقلال بولندا وغيرها من الدول.

إن الآشوريين رفعوا السلاح في وجه الحكومة ولهذا يجب على الحكومة إخضاعهم، كما يجب عليها أيضاً أن تتخذ كل الإجراءات لصهر هذه الفئة في الوحدة العراقية».

الأهالي في ٢٤ آب

هذا الرأي الموحد الذي بدا مؤخراً ممتزجاً بأطيب المشاعر يجب أن يصان ويتقوى، فباعتقادنا أننا سنواجه في المستقبل أحداثاً ووقائع كثيرة لو قورنت بالعصيان الآشوري لبدا هذا بالنسبة لها أمراً بسيطاً.

الاستقلال ٢٧ آب ١٩٣٣

«لما عم الفرح والاستبشار اولئك بسبب دخولنا عصبة الأمم، كنا في مقدمة القائلين بأن ذلك لا فائدة فيه ولا منفعة، لقد مضى وقت طويل بين دخولنا وبين انسحاب كل من إسبانيا والبرازيل واليابان منها وعلى كل فسيدركنا الأسف لو اعتقد المستعمرون بأن عصبة الأمم ستخيف العراق. العراق هو دولة، أو بالأحرى هو دولة مستقلة ترفض أن تهتم بأي أحدٍ في أثناء معالجتها لشؤونها ورعاية مصالحها. وعلى عصبة الأمم وبعض أعضائها بصورة خاصة أن يدركوا بأن العراق ليس بضاعة تشرى وتباع. إنه لم يعد كذلك الذي عرفه به الدساسون عبداً في أسواق نخاسة (جنيف) وإن

= جريدة الأهالي. ومما هو جدير بالذكر أنه هيئته العليا، كانت تضم بعض الساسة والشخصيات التي لم تكتم وجهة نظرها الخاصة في المسألة الآشورية من أمثال عبدالغفور البدري (ضابط عثماني سابق وصاحب جريدة الاستقلال) وسعيد الحاج ثابت وقد مرّ ذكره. ومحمود رامز ومولود مخلص وبهجت زينل وعلي محمود الشيخ علي.

لم يكن هذا مناسباً لجنيف أو لباريس أو للندن فهو يناسب بغداد تماماً».

الاستقلال ٢٨ آب

«. . . الشعب العراقي مستعد لحمل السلاح والذهاب إلى ساحة الموت لكن الأمر ليس بمثل هذه الأهمية، ذلك لأن هؤلاء العصاة الذين أخلّوا بالأمن وتمردوا على الحكومة إنما هم شرذمة صغيرة حقيرة. . . إلاّ أن السبب الذي دفع بالشعب إلى مثل هذه الثورة العظيمة هو أن هذه الشرذمة راحت تصرخ وتتباكى أمام الدول الأجنبية زاعمة أنها تتقلى أسوأ المعاملة وأنها ضحية التعصب الديني. . . إننا لم ننس بعد صنوف الاضطهاد وعمليات القمع التي مارسها الطليان في (طرابلس) على أولئك الذين أرادوا المحافظة على كرامة بلادهم. . . يجب أن يقتلع النفوذ الأجنبي في هذه البلاد من جذوره وإن الجمهور العراقي يطالب بتطبيق قانون خدمة العلم لأنه متعطش لدماء أعدائه».

الفصل الثاني عشر

النزاع على ولاية الموصل. دور القوميين العرب فيه. النشاط التركي. الوعي القومي الكردي المتزامن. اغلبية سكان الولاية المطلقة من الكرد. الأقليات الدينية والعنصرية. موقف سكان المدينة السلبي من القوميين العرب. لا نشاط كردي داخل المدينة. الموقف المسيحي – اليهودي الجدي من رفض التبعية لتركيا. معركة دبلوماسية خفية بين بريطانيا وتركيا. إيقاظ المشاعر القومية ضد المشاعر الدينية التي كان يتسلح بها اغلبية السكان بممالأة الاتراك. قرار عصبة الأمم بتشكيل هيئة تحقيق تزور الولاية وتقوم بمهامها موقعياً. مفهوم جديد للقوميين الدعاة يختلف عن المفاهيم الأولى. التوتر على الحدود وإرسال قوات تركية عبر خط بروكسل. حث البريطانيين بغداد على إمضاء معاهدة قبل البت بعائدية الولاية. الشارع والصحافة. إبرام المعاهدة مع احتراز بطلانها إن لم تعد ولاية الموصل جزءاً من العراق. قرار اللجنة. الأقليتان المسيحية واليهودية تصوّتان إلى جانب الكرد. فصل الدين عن السياسة. الالتزام القومي بالدين الإسلامي ورفض تركيا عودة اللاجئين الآشوريين إلى مساكنهم في حكاري. فشل المساعي البريطانية. في ١٨ ايار ١٩٢٥ ختمت لجنة الحدود التابعة لعصبة الأمم أعمالها واصبحت ولاية الموصل جزءاً من العراق. إحالة قرار اللجنة إلى محكمة العدل الدولية، تاييده. معاهدة لوزان ١٩٣٣ نصر لتركيا.

مرة سألت الأستاذ (إسماعيل حقيّ فرج)[1] عن المناسبة التي أوحت إليه بنظم نشيد شاع إنشادنا إياه في المرحلة الدراسية الابتدائية ومطلعه:

---

(١) كان ذلك قدر ما تساعفني الذكرى بعد ثلاثة عشر عاماً من نهاية المعركة. وقد أدركت آنذاك الأستاذ فرج وهو مدرس العربية في الثانوية بالموصل. وكنت كثيراً ما ألجأ إليه لتصحيح قصائد أنظمها، فلا يبخل بالنصح والتصحيح لدماثة وطيبة فيه. وهو أحد أربعة شعراء (وطنيين) من أهل المدينة في تلك الفترة استطارت شهرتهم لتعبر أسوارها وهم محمود الملاح ومحمد حبيب =

لستِ يا موصل إلاّ دار عِزّ وكرامة

فأجاب بصوته الأبحّ وأنا أذكره الآن وكأنها البارحة قال: «كان ذلك بمناسبة بقاء الموصل للعراق ورفض دعوى الأتراك فيها» (مشيراً إلى النزاع الدولي الذي حسمته عصبة الأمم على ضوء تقرير لجنة تحقيق دولية عينتها لإجراء التحقيق الموقعي واستطلاع رأي الأهالي في مستقبلهم السياسي. وهي اللجنة التي عرفت فيما بعد بـ«لجنة الموصل» The Musul Commission). بطبيعة الحال كان قصد الشاعر هو أن يخص المدينة دون الولاية بالمديح وهو لا شك يقصد أن يقلدها فضلاً لو درى أنها لا تستحقه عملاً لاختار لها وصفاً أكثر تواضعاً من وصفها «بدار العزّ والكرامة». فالواقع الذي كان يجهله هو وغيره من الكتّاب والمؤرخين الذين كتبوا حول هذا أن دور المدينة في هذه المعركة المصيرية كان سلبياً هامشياً بقدر ما يتعلق بأغلبيتها السكانية، في حين أن الدور الإيجابي الواضح وجب أن يعزى بحق إلى موقف سكانها من المسيحيين واليهود، رغم المجهودات غير المنظمة التي اضطلع بها عددٌ من الدعاة العروبيين والقوميين - الوطنيين من المتعلمين وطلاب المدارس الذين نشطوا بالدعاية الحكومية والدعاة الوطنيين القادمين من بغداد. وقد خلف نشاطهم الصاخب أثراً معكوساً كما سيأتي بيانه ولم يفد القضية في شيء.

ونترك اللجنة والمدينة نفسها لإجراء مسح سكاني للولاية عموماً. فإلى شرقها لا نجد للقرى المسيحية والكردية والتركمانية المحيطة بها قوسياً أثراً إيجابياً في معركة المصير، إلاّ أنه على كلّ حال يزيد على الأثر المتخلف في اللجنة عن أولئك البدو الذين سكنوا ورعوا في شبه القوس الغربي - الجنوبي. هؤلاء القبائليون العرب لم يكونوا يدينون للحكم العراقي بولاء، وعلى العكس من فلاحي قرى الشرق استغلوا الفوضى وغياب السلطة خلال فترة الحرب وما بعدها، فصعّدوا من غاراتهم على المناطق الحضرية، واتخذوا قطع الطرق مهنة، ومحصّل ولائهم ولاء شيوخهم وهو عرضة للمساومة والبيع، ورهن بقوّة الإدارة وشدّتها. وسنرى أن اللجنة لم تجد حاجة إلى استطلاع رأيهم.

= العبيدي وفاضل الصيدلي وقد عرفت سائرهم شخصياً، سيما أحدهم وهو والد الشاعرين الأديبين الطيبي الذكر صديقي العمر اللذين حرمت منهما وأبى القدر عليّ فرصة مرافقتهما إلى مثواهما الأخير: عبدالحق وأخيه الدكتور أكرم. ولأذكر ان علاقة ودّ ربطتني بالوالد في آخر أيام حياته.

لكن الكرد - إلى جانب الأقلية المسيحية - كانوا العامل الأكبر في هداية اللجنة الدولية إلى ما توصلت إليه من توصيات حاسمة. ويحزنني أن لا أجد القصة الحقيقية الكاملة تروى بوقائعها الطريفة المثيرة رغم ما كتب عنها وهو ليس بالكثير. ويعزى السبب في رأيي إلى أن نص التقرير الدولي هذا لم يوضع بيد قراء العربية. فلسبب لا أدري كنهه بقي بنصّيه الفرنسي والإنگليزي غير مترجم واقتصر من كتب في هذا الموضوع على اقتباس فقرات يختارونها على الأغلب - دعماً لوجهة نظر يعرضونها[٢].

إن الإتفاق الذي تمّ في (لندن) بين رئيسي الحكومتين البريطانية والفرنسية وحكم في (ڤرساي) كان يقضي بإدخال ولاية الموصل ضمن منطقة النفوذ البريطاني. لكن وبالتعقيد الذي نجم عن احتلال عاصمة الولاية بعد إعلان هدنة ١٩١٨، وبروز الحركة الكمالية القومية في تركيا بنشاط عسكري دبلوماسي لاستعادة ما يمكن استعادته من أنقاض الإمبراطورية العثمانية، وجد البريطانيون رغم ادّعائهم بحق «الفتح» أن عليهم أن يخوضوا معركة دبلوماسية من إجل إبقاء يدهم عليها ولجعلها جزءاً من الدولة العراقية بالتالي.

وفي خضمّ هذه المعركة الدبلوماسيّة عادت الحركة القومية العربية في المدينة تتفتح ثانيةً بإغضاء الإدارة البريطانية أحياناً وبتشجيعها أحياناً. وظهر خلال تلك المعركة مفهوم للقومية يختلف عن ذلك الذي عرفت به بقايا الجمعيات السرية العربية التي ظاهرت محاولة الزحف على الموصل في ١٩٢٠ لانتزاعها من يد البريطانيين.

* * *

في ٢٤ من تموز (يوليو) ١٩٢٣ وقّع الحلفاء في مدينة لوزان بسويسرا معاهدة مع تركيا كانت بديلاً لمعاهدة (سيڤر). ومما تضمنته، منح البريطانيين والترك مهلة قدرها تسعة أشهر ليحاولا خلالها فضّ نزاعهم حول الموصل بالطرق الودّية[٣].

---

(٢) قمت بترجمة هذا التقرير معتمداً على النصين في أواخر العام ١٩٧١، مشفوعة بدراسة وتعليقات. وقد افتقدتها إثر نهاية ثورة ١٩٧٥ الكردية ونزوحنا إلى إيران. لكنها عادت إليّ بمفارقة من مفارقات الدهر بعد عشرين عاماً. ووجد التقرير طريقه كاملاً في كتابي الموسوم «يقظة الكرد» ط. أربيل، دار ئاراس ٢٠٠٢ فليراجع.

(٣) نص المادة الثالثة من المعاهدة: (لم يرد اسم الولاية هنا بل بدا النزاع وكأنه على الحدود) أن الحدود التي ستقوم بين العراق وتركيا سيجري تثبيتها باتفاق ودّي يبرم بين بريطانيا العظمى وتركيا خلال تسعة أشهر. وعند عجز الفريقين عن الوصول إلى اتفاق خلال هذه المدة يحال =

وفي الخامس من تشرين الأول (أوكتوبر) من السنة عينها شرع الجانبان في المفاوضات الرسمية، إذ قدمت بريطانيا مذكرة للحكومة التركية اتفق على أثرها أن تبدأ الأشهر التسعة من ذلك التأريخ.

على أن المفاوضات الفعلية لم تبدأ إلاّ في ١٩ من شهر أيار (مايس) ١٩٢٤ إثر وصول الوفد البريطاني إستنبول وكان مؤلفاً من السر (پرسي كوكس) ومعاونه النقيب (جاردين)[٤].

في الاجتماع طالب (كوكس) بخطّ حدود يبتعد كثيراً عن حدود الولاية شمالاً ليترك في الجانب العراقي كل موطن الآشوريين الأصلي، فضلاً عن ذلك الجزء الذي نجحوا في العودة إليه واحتلاله وطرد الإدارة التركية منه.

فيما طالب الترك باستعادة كل الولاية وأصرّ الجانبان كلّ على مطلبه وانفض الاجتماع دون نتيجة.

وفي السادس من آب (آغسطس) ١٩٢٤ بعد مرور شهر واحدٍ على نهاية المدة المحددة في معاهدة لوزان، بادرت الحكومة البريطانية إلى إيداع النزاع عصبة الأمم.

أظهر ما حصل خلال المدة المنحصرة بين هذا التأريخ وبين قرار مجلس العصبة بتأليف لجنة التحقيق، هو الوضع العصيب الذي خلقه الشيخ محمود الحفيد للإدارة البريطانية بعد عودته إلى المنطقة، مما دفع المندوب السامي الجديد (سر هنري دوبس) إلى اتخاذ قرار باحتلال السليمانية عسكرياً، وسيَّر رتلاً مختلطاً يتألف من فوجين من

= النزاع إلى مجلس عصبة الأمم. وتتعهد الحكومتان التركية والبريطانية خلال فترة بحث موضوع النزاع لحين الوصول إلى قرار نهائي في موضوع الحدود - بالامتناع عن القيام بأي تحرك عسكري أو غير عسكري يؤدي إلى تعديل ما حاليّ في الحدود التي يعتمد تثبيتها على ذلك القرار.

(٤) كان النقيب جاردين R. F. Jardine معاوناً للمفتش الإداري للواء الموصل منذ العام ١٩١٩ ثم مفتشاً. وحضر كوكس لا بوصفه مندوباً سامياً بل ممثلاً لحكومة، إذ كان قد أنهى خدماته في العراق آنذاك. ومما يذكر أن بريطانيا حاولت أن يضمّ وفدها عضواً عراقياً فرفضت تركيا ذلك. وكان جعفر العسكري رئيس الوزراء قد طلب ذلك من المندوب السامي. إذ جاء في محضر جلسة ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٤ هذا: «قرر مجلس الوزراء أن يكرر الرجاء إلى فخامة المعتمد السامي لإبلاغ الحكومة التركية رسمياً طلب الحكومة العراقية إرسال مندوب عنها في لجنة تحديد الحدود لأن الأمر يخص العراق وتركيا مباشرة ولا يشبه مؤتمر لوزان الذي كان دولياً» أنظر: «تاريخ الوزارات» ج١.

الليفي الآشوري وفوج واحد من الجيش العراقي وقوة من شرطة تعززها القوة الجوية البريطانية. كما خوّل الضابط السياسي (چاپمان) الذي دخلها صلاحية متصرف (محافظ) لواء لإدارة شؤونها على أن يكون ارتباطه به لا بالحكومة العراقية.

إلاّ أن الترك قرروا في عين الوقت تحكيم قبضتهم على حكاري الجنوبية[٥] وحشدوا قوات عسكرية كبيرة في جزيرة ابن عمر (الجزيرة) وهم ثملون بخمرة نصرهم على اليونانيين وتمام طردهم إلى آخر جندي لهم من آسيا الصغرى في أيلول ١٩٢٣.

هذا الانتصار الساحق أحدث دوّياً في الرأي العام العراقي وبدرجة خاصة في ولاية الموصل، سيما عند أولئك الذين لم يفقدوا حنينهم إلى الماضي فأسرعوا يجددون العهد عندما وصلهم نبأ تحشيد الفرق التركية على حدود خطّ (بروكسل) وكان خطّ الحدود المؤقت.

تكشف الوثائق البريطانية عن مبلغ التوتر العصبي والقلق الذي ساد الإدارة البريطانية وبلغ حداً غير مألوف في الطابع البريطاني، والذي تكشف عنه تقارير الضباط السياسيين ومعاونيهم والمفتشين الإداريين ونقلها ما كان يدور من إشاعات في أوساط العامة. ففي الموصل وكركوك بنوع خاصّ راجت إشاعات بأن الاندفاع التركي لن يقتصر على استعادة الولاية، بل الوصول إلى تكريت. وفي تحديد الإشاعة ببلدة تكريت ما يشير إشارة لا يخطئها النظر إلى أن هذا الجزء اعتباراً من البلاد غير العربية هو الجزء الذي لا تقطنه أغلبية عربية.

وكان (كوكس) في الأيام الأخيرة من مزاولة الوظيفة وأعلم وزارة خارجيته بأن الترك بدأوا اعتباراً من شهر تشرين الأوّل «يجنّدون ويدربون الجنود على القتال»[٦]،

---

(٥) أنظر تفصيل ذلك في الكتاب الثاني من هذا السفر.

(٦) وثائق الخارجية F.O. 9002/371. يكتب إدموندز في تقرير له موجّه إلى المندوب السامي. «في ١٧ من آذار ١٩٢٢ خلعت حكومة أنقره لقب (قائمقام زاخو) على (رمزي بگ) أحد عملائها وأرسلته إلى ذلك القضاء. وبوصوله في نهاية (أيار) بدأ فوراً بحملة مسعورة بين القبائل تدعمها تأكيدات عن قرب وصول نجدات عسكرية كبيرة تركية لانتزاع السليمانية وكركوك وأربيل من يد البريطانيين. وأرسل بعده في أواسط حزيران عقيداً يدعى (علي شفيق) ويلقب بأوزدمير، تمكن بوصفه عسكرياً مغامراً من القيام بدور رئيس في إثارة الخواطر. وكان يذيع على الأهلين أن الواجب الذي أنيط به هو استعادة ولاية الموصل كاملة بالقوة. وللعلم إن القائد التركي لجبهة الجزيرة هو اللواء عاكف بگ الألباني الذي فتك بثوار الحلّة وسبى نساءها أثناء الحرب العالمية». يذكر إدموندز كذلك أن كثيراً من الرسائل التي كان (أوزدمير) والقيادة التركية =

وأبلغ القنصل البريطاني في حلب المعتمد السامي ببرقية مؤرخة في ١٢ من كانون الأول (ديسمبر):

«إن وحدات عسكرية يقودها (علي شفيق بگ) الملقّب بـ(أوزدمير) هاجمت المعسكرات البريطانية في الحدود الشمالية، ومطار زاخو. إن السلطات التركية قامت باختزان ٧٥٠ طناً من القمح ووضعت بالمناقصة شراء ألفي جراب لاستخدامها في تعويم الأكلاك واستخدمت عدداً كبيراً من الأهلين لتعبيد الطرق وبناء التحكيمات».

وذكر ضابط كركوك السياسي إنه: «في أوائل شهر كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣، بينما كانت المحادثات تجري في (لوزان) انكشف لنا بأنّ الترك يحشدون قواهم في جزيرة ابن عمر على بعد أميال قليلة من (زاخو). وكان الأهلون سريعين في الوقوف على التحركات التهديدية، وملاحظة إعادة توزيع وحدات الجيش البريطاني التي أعقبت ذلك. وبلغ الهياج في كركوك حَدّ الهستريا، وامتقعت وجوه الموظفين المحليين المستخدمين عندنا وبان الرعب في أساريرهم وانبثقت في عشية وضحاها لجان سريّة موالية للترك تساهم فيها معظم الأسر المتنفذة التي مثلت نفسها في هذه اللجان بواحد أو أثنين على الأقل من أعضائها الصغار».

ركزت دعوى الأتراك على الدين. تلك النقطة المركزية الحساسة التي وجدت تربتها الصالحة بواقع كون السيّد الجديد من الكفار، والشرع يقضي أن تُرفع يده عن الولايات الثلاث. وتبنى هذه المعادلة علماء السنيّة ومجتهدو الشيعة من الأوّل كما رأينا، لاسيما الأخيرون منهم. فواجبهم كما يرونه ويراه مقلّدوهم حماية الدين. وكلتا

= يوجهانها إلى زعماء المنطقة وأعيانها تتضمن إيضاحاً مؤداه أن ولاية الموصل هي جزءٌ من تركيا ولن تكون للعراق وتدعوهم إلى الجهاد. ويورد الكاتب فقرة أخيرة من رسالة مماثلة ذكر أنه يحتفظ بها: «يجب أن يعمل إخواننا في الدين وبعمومهم على تحقيق الاتحاد الذي تنشده الحكومة العثمانية (كذا) وليتنفس المسلمون الغيارى هواء الحريّة. إن نقص العتاد عندكم وغيره من الضروريات الأخرى هو موضع اهتمامنا وسنسد حاجاتكم من كل شيء عما قريب. ألا فلينصر الله أولئك الذين يجاهدون في سبيل الدين ويسترخصون دماءهم فيها. ولعنة الله على المشركين الذين باعوا دينهم للإنكليز، وعلى فيصل وأعوانه آمين». («كرد وترك وعرب Kurds Turks and Arabs» من ترجمتنا ط. دار العروبة. بغداد ١٩٧٠ ص٢٢٤).

الطائفتين بطبيعة الحال لا تعترفان بالقوميّة ولا شأن لهما بالاعتبارات السياسية وإرهاصاتها لأنّ الإسلام أمّة واحدة.

في العامين ١٩٢٢ و١٩٢٣ كان على البريطانيين أن يتصدوا لمواجهة هذه الدعوى على صعيد آخر شائكٍ. ففي بغداد مثلت المعاهدة التي اقترحتها سلطة الانتداب على الحكومة العراقيّة عقبة عسيرة المرتقى، فقد باتت هدفاً للقوميين الدينيين ولرجال الدين على السواء يصوّبون إليها سهامهم ويتخذون في مؤيديها مطعناً. فجريدة (الاستقلال) بشعارها المثبت في رأس صحيفتها الأولى (لا حياة بدون استقلال) كانت وهي جريدة قوميّة تنشر في الوقت نفسه فتاوى الدينيين وآرائهم أيضاً. ولم تخف حَدّة الهجوم بالإجراء الذي اتخذته لندن بجعل مدة سريان المعاهدة ٤ سنوات بدلاً من عشرين، ولا فلّت من غُراب الحلف القومي - الديني ضدّها وضد الحكومة المؤقتة التي نصبتها. في الوقت الذي اشتد ضغط لندن على فيصل وحكومته بالإسراع بالتوقيع على المعاهدة وإقرار القانون الأساس من قبل مجلس تأسيسي يتمّ انتخابه بأقرب وقت. ذلك الانتخاب الذي أفتى المجتهدون العظام بأنه حرام على المسلمين لأنه «يميت الأمة الإسلامية. فمن انتخب بعدما علم بحرمة الانتخاب، حرمت عليه زوجته وزيارته ولا يجوز رد السلام عليه ولا يدخل حَمّام المسلمين»[(٧)].

---

(٧) من فتوى السيد (أبو الحسن الأصفهاني) كان ثمة أربع عشرة فتوى مماثلة صادرة من هؤلاء المجتهدين. وهذه نماذج أخرى: جاء في فتوى المجتهد الأكبر محمد حسين النائيني: «بسم الله الرحمن الرحيم: صدر منا الحكم بتحريم الانتخاب على كافة الأمة العراقية. فمن دخل أو تداخل أو ساعد فيه فقد حادّ الله ورسوله». وجاء في فتوى الشيخ مهدي الخالصي: «لما كانت الانتخابات مبنية على أساس مخالف لرغائب الأمة العراقية بواسطة السلطة العسكرية والحزب الحر المعتدل (حزب عبدالرحمن النقيب) الذي أسس بالقهر والقوة وسَدّ الأحزاب الموافقة لرغائب الأمة وتسويق أهلها وتشتيت جمعها وإصابة المتخلف عن الحزب الحرّ بالطيارات حتى قُتل بقنابلها الأطفال والعجزة والأبرياء والنساء وغير ذلك مما لو مات المسلم دونه أسفاً لما كان عندي ملوماً بل كان به جديراً. إن المداخلة بالانتخابات وكلّ ما يبتنى على هذا الأساس المضرّ بمستقبل العراق بل بجميع شؤونه محرّمة شرعاً بإجماع المسلمين ونحكم بخروجه عن ربقة المسلمين وحسبنا الله وهو نعم الوكيل».

وقد نشط أتباع الخالصي في الكاظمية في تكثير هذه الفتوى وغيرها من الفتاوى وراحوا يلصقونها على الجدران وحصلت صدامات وشجار بينهم وبين الشرطة. فبادرت الحكومة إلى تعديل قانون العقوبات ليجيز لها نفي المجتهدين الإيرانيين. وألقت القبض على الخالصي وولديه وطالب متحمس له يدعى (سلمان صفواني) وأبعدتهم إلى الهند. وتضامن مجتهدو =

كان معظم هؤلاء المجتهدين من أصل إيراني، أو هم إيرانيون مقيمون. أو عراقيون اكتسبوا جنسيتهم الإيرانية بالتجنس تخلصاً من أعباء المواطنة التركية. ولم يطل تردد حكومة (السّعدون) في اتخاذ إجراء حاسم ليتبين فجأة هو والذين خشوا سوء العاقبة أن تلك الفتاوى لم تخلّف أيّ أثر في الناس والأتباع وعملية الانتخاب.

بهتت الأوساط الحكوميّة العراقية والإدارة البريطانية بقدر ما شاع فيها الارتياح لردّ الفعل الشعبي المتسّم بعدم المبالاة إثر إجراءات الإبعاد. فقد كانت الجهتان تتوقعان إثر إجراءات الإبعاد والتدابير الأمنيّة حوادث شغبٍ واعتصاب واحتراب كبيرة في كل من بغداد والكاظمية ومدن الجنوب، أو بعد عملية «التنظيف» كما نعتتها تقارير الاستخبارات البريطانية. ولم يصدر من علماء السنّة ما يشير إلى موافقتهم على فتاوى مجتهدي الشيعة في المقاطعة. وسارت عمليّة الانتخاب بالشكل الذي رسمته الحكومة في سائر أنحاء العراق بهدوء نسبي، خلا المقاطعة الجزئية في كردستان «حيث كان السبب سياسياً بحتاً». وقد يُعزى موقف السنية السلبي من فتاوى المجتهدين الشيعة إلى أصول الخلاف المذهبي من بعض الوجوه. ولعلهم ماكانوا يرغبون في زيادة للتقارب السياسي الحماسي الذي بدأ في ١٩١٩ و١٩٢٠، بحيث يسري إلى صميم العقيدة الدينية. وقد ألف علماء السنيّة طوال العهود التاريخية أن يكونوا المتبوعين وأصحاب القول الفصل والرأي عند الحاكم. لذلك لم يجدوا والحال هذه مسنداً شرعياً يسند هذه الفتاوى. ومهما يكن من أمر فإن الحافز الذي دفع السنية إلى هذا الموقف قد يكون عين ذلك الحافز الذي يدفع أصحاب المذهبين إلى رؤية هلال العيد في يوم مختلف دائماً وإلى يومنا هذا.

والظاهر أن الثقة التي أودعها هؤلاء العلماء في مقلديهم وأتباع مذهبهم كانت في

= النجف وكربلاء والحلة معهم وأعلنوا عن اعتزامهم الهجرة من العراق احتجاجاً. ولم يصدر من الأهلين ما ينمّ عن تضامنهم عندما عزل هؤلاء المجتهدون أنفسهم في خيمة بظاهر المدينة ثم جرى تسفيرهم إلى إيران دون حادث يذكر. وكان عدد الذين سفروا ثلاثين بينهم أبو الحسن الأصفهاني والنائيني وجواد الجواهري وعلي الشهرستاني وعبدالحسين الشيرازي وحسن الطباطبائي وعبدالحسين الطباطبائي ومحمد سلمان.

(وسلمان هذا، هو عين سلمان الصفواني أحد الأقطاب الأربعة الأوائل في حزب الاستقلال الذي أجيز في العام ١٩٤٦ وهو الحزب القومي الوحيد بين الأحزاب الخمسة المجازة. ورئيس تحرير جريدة اليقظة القومية - الإسلامية أيام حكم عبدالكريم قاسم).

أفضل الأحوال مبالغاً فيها وفي أسوئها غير واقعية. إذ كانوا يعيشون في جوّ حلقاتهم التدريسية وخطبهم الدينية. وأبوا إلى الأخير أن يفسحوا إلى عقولهم سبيلاً للاتعاظ بتجربة انتفاضة العشرين التي أوقدوا نارها، كيف أخمدتها القوة المجردة والمال والإغراء بالمناصب، وكيف حولت هذه الأقاليم الثلاثة ومصدرها الكفّار كثيراً من أتباعهم عنهم وسحقت ثورتهم[٨].

وعن هؤلاء المبعدين الذين وصلوا كرمانشاه كتب القنصل البريطاني في كرمانشاه للسر پرسي كوكس:

> إن هؤلاء «يذكرون للناس هنا بأنهم لن يعودوا إلى العراق إلاّ بشروط في مقدمتها عزل الملك فيصل وإقالة الحكومة ومعاقبة كلّ من تسبب وقام وأمر بنفيهم»[٩].

كان القنصل البريطاني هناك بعيداً عن الجوّ الذي ساد العراق، واقعاً تحت تأثير المظاهرات والضجة التي أحدثها هؤلاء في تلك المدينة الإيرانية وأوساطها السياسية، معتقداً بسذاجةٍ أن ما حدث في منطقته هو عين ما يحدث في العراق.

ما حدث فعلاً كان خلاف ذلك تماماً. فمنذ زيارة (فيصل) لمنطقة الفرات الأوسط في شهر حزيران بدا وكأن الجميع لا يعيرون اهتماماً بما اتخذته الحكومة من إجراءات بحق مجتهديهم. وقد سبقت هذه الزيارة مثيلة لها قام بها فيصل للموصل وجرت له خلالها اجتماعات بأعيان المدينة ودعي لمقابلته شيوخ عشائر كردية من خارجها. وقد مكث فيها أسبوعاً. وخطب في اجتماع نظمتهُ البلدية مؤكداً بأنّ الولاية:

> «أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من العراق وإنها قطعت كلّ أسبابها بالترك. وعليكم أن تحاربوا الدعاية التركية المضلّة. من المؤسف حقاً أن يطالب إخواننا الأتراك بولاية لا تمتّ إليهم بصلةٍ أو أكثريةٍ . وأهلها عرب».

---

(٨) قدح فيهم (سلمان الشيخ داود) المحامي في جريدة (العراق) بسلسلة من المقالات منها مقالة بعنوان (العقلية البسيطة) نشرت في عدد (٥) تموز ١٩٢٣ : «إن هؤلاء يعملون في السياسة دون أن يكون لديهم أي إلمام بالعلوم العصرية التي هي ضرورية لكلّ من يعمل في السياسة. فهم لا يعرفون تاريخ الشعوب ونفسيتها، بل لا يعرفون حتى حدود بلادهم ولا يعرفون من تاريخ قومهم إلا صفحة مليئة بالخزعبلات والخرافات».

(٩) وثائق الخارجية F.O. 9047-371 وأنظر أيضاً: أ.د. مكدونالد A.D. Mcdonald منفى الفرات Euphartes Exile لندن ١٩٣٦. ص٦١.

وفي اجتماعات المجلس التأسيسي العراقي أثيرت مسألة مصير الولاية. وكان ثمة معارضة شديدة في المصادقة على المعاهدة قبل البتّ في عائديتها. وفي الشارع البغدادي كانت الضجة هذه المرّة من عمل الوطنيين - القوميين الشبان ورجال السياسية الجدد خلفهم يعضدونهم وهم معارضو الحكومة المنافسين.

أفسح المسجدُ للشارع السَّبيل. والمقالات والجرائد حَلّت محلّ الفتاوى والخطب الدينية وشهدت العاصمة صيفاً عصيباً تسود جوّه أعاصير وزوابع. فالمناقشات حول المعاهدة امتدت حتى ايّار وتبودلت خلالها تهم وكلام جارحٌ وتعرّضٌ بالشخصيات. وفي هذا الجوّ الذي كهربته الاجتماعات السرية والمظاهرات بكشفها عن عداء الطبقة القومية الوطنية الجديدة للسلطة البريطانية، أعلنت الحكومة البريطانية أن الامتناع عن المصادقة على المعاهدة في موعدٍ نهايته العاشر من حزيران ١٩٢٤ سيحملها على اتخاذ خطوات معينة لتطبيق القرارات المتعلقة بالعراق، تلك التي اتخذتها الهيئة العامة لعصبة الأمم. وفي اللحظة الأخيرة اقتنع (٦٩) عضواً من أصل (١٠٠) عضو بحضور آخر جلسة. وقبل متنصف الليل، أي ببضع دقائق عن انتهاء الأجل الذي ضربه إنذار المندوب السامي، صودق على المعاهدة بأغلبية ٣٩ صوتاً ضد (٢٤)، وامتناع ثمانية عن التصويت. ولم يستجب نواب ولاية الموصل (ألوية السليمانية وكركوك وأربيل ونواب أقضية لواء الموصل الكردية) لكل عوامل التهديد والوعيد وهذه كانت أكثرية نصف أغلبيّة الأصوات التسعة والثلاثين التي أقرت المعاهدة. إلاّ أنّ مصادقتهم تضمنت تحفظاً هو أنها ستكون باطلة إن لم تقم الحكومة البريطانية بحماية حقوق العراق في جميع ولاية الموصل.

* * *

في خريف العام ١٩٢٤، وبعدما تمّ طرد (رمزي بگ) من رواندوز وهو عين (رمزي) الذي أرسله الترك قائمقاماً لزاخو، وعندما أنجزت قوات الليڤي الآشوري والطائرات الحربيّة البريطانية عملية القذف بآخر جندي تركي وراء خطّ (بروكسل)، وقيام الميليشيا الآشورية بقيادة زعمائهم من جهة الغرب بصد الهجوم التركي ورد قواته على أعقابها، خيّم هدوء نسبي في المنطقة. عندها بدأ مجلس العصبة ينظر في النزاع على الولاية وبعد تدقيق الاحتجاجات التي قدمها الطرفان حول العمليات العسكرية التي ابتدرها كلّ منهما عينت العصبة في أيلول ١٩٢٤ لجنة خاصة Commission ad hoc تتألف من كلّ من برانتنگ، وكينون دي ليون وكوانتي، عقدت اجتماعها في بروكسل.

وبناء على توصية هذه الهيئة قررّ مجلس العصبة تعيين لجنة لتقصي الحقائق موقعياً. وإليك نص التوصية:

«(بعد المقدمّة)... كان الفريقان قد تعهدا سابقاً بقبول أي قرار يصدره المجلس في المسألة المعروضة عليه، وأن يمتنعا في الوقت نفسه عن مباشرة أيّ عمل عسكري من شأنه إحداث تغيير في الوضع الراهن Status quo لذلك قررت تعيين لجنة خاصّة لدراسة المسألة موقعياً وتقديم توصياتها لمساعدة مجلس العصبة في التوصل إلى حَلّ. إن التعهدات المقدمّة بخصوص الأعمال العسكرية أحيت المشاكل المألوفة وأثارت من جديد الخلاف حول أي وضع راهن ينبغي أن يحافظ عليه؟ أهو وضع ٢٤ تموز ١٩٢٤ كما طلبت بريطانيا أم هو وضع ٣٠ أيلول كما طلبت تركيا؟ ثم هل أن قيام أحد طرفي النزاع بإعادة احتلال رواندوز والسليمانية وقيام الطرف الآخر باحتلال حكاري وطرد سكانها (الآشوريين) ينطويان على أيّ تغيير ليس في مصلحة الآخر، أم هو مجرد عمل بوليسي داخلي؟».

بالتالي قررت اللجنة وأيدتها العصبة بوجوب قيام الحكومتين بسحب قواتهما وجعل الخط الذي سمي بخط بروكسل خطّ فصل بينهما وهو خط يطابق تقريباً حدود ولايتي حكاري والموصل الإدارية[١٠] يمتد على مجاري الأنهار بدلاً من متابعته قمم الجبال.

هذا القرار مهّد السبيل في ١٦ من شهر كانون الثاني ١٩٢٥ لتأليف لجنة التحقيق التي عرفت فيما بعد بلجنة الموصل من أعضاء ثلاثة هم (آف ڤيرسين والكونت تيليكي و أ. پاولس) ومقررين اثنين (هما رودولو وپورتاليه)[١١] و(كرامرز) الذي التحق بالوفد

---

(١٠) نسب إلى (بروكسل) لأن اللجنة التي قررته كان اجتماعها في العاصمة البلجيكية.

(١١) آف ڤيرسين O.E. Thre Af Wirsen (١٨٧٥-١٩٤٦) عسكري سويدي ثم دبلوماسي. عُين في سفارات عديدة وكان سفيراً لبلاده في رومانيا عندما انتدب للجنة. وسفير بلاده في برلين (١٩٣٧-١٩٤٠). كتب ذكرياته عن الحرب العالمية الأولى في ١٩٤٢ (ذكريات من السلم والحرب Minnen Fran Fred och Krig). انتخبه زملاؤه رئيساً للجنتهم لأنه يمثل بلاداً بقيت على الحياد طوال مدة الحرب ولم يكن ينتظر منه (على رأي إدموندز) اهتمام بتمحيص المسألة التي انتدب إليها أكثر من محاولته لإيجاد حلول توفيقية. ويظهر من مذكراته أنه كان وثيق الصلة بالأتراك والألمان أثناء خدماته في الملحقيات العسكرية. أما الكونت تيليكي C. Paul Teleky فقد بدا بخلافه تماماً لا يرضى بغير الحلول الباتة. ففي بلاده المجر كان واحداً من قادة الحركة =

بوصفه مترجماً أوّلاً. لكنه تبيّن فيما بعد أنه أغنى تقرير اللجنة بمعلوماته التأريخية والجغرافية والأثنية. تلك المعلومات التي جعلت ذلك التقرير عملاً فكرياً فذاً فريداً من نوعه بين التقارير الدوليّة التي سبقته ولحقته(١٢).

وأرسلت الحكومة التركية مع اللجنة وفدها برئاسة الفريق (جواد پاشا) مراقباً ومستشاراً وعضوية ضباط عثمانيين ثلاثة، اثنان منهم عراقيان(١٣). واختارت دار

= الوطنية المعادية لثورة ١٩١٩ البلشفية، تلك الحركة التي نجحت في الإطاحة بحكومة (بيلاكون Bela Koon) الشيوعية. كان رئيس الحكومة في بلاده خلال ١٩٢٠-١٩٢١، وتولى رئاستها ثانية في العام ١٩٣٩. وفي نيسان ١٩٤١ أطلق النار على نفسه مفضلاً الموت على الخضوع لأمر (هتلر) في استخدام الجيش الألماني أرض بلاده. كان اهتمامه الأساس بمشكلة الموصل منصباً على الطبيعة الجغرافية والتكوين القومي. أما (پاولس A. Paulis) فهو ضابط بلجيكي برتبة عقيد خدم طويلاً في الكونغو البلجيكية وهو رجل عاطفي المزاج ذو خبرة كبيرة في شؤون التجارة والاقتصاد اكتسبها من إقامته في تلك المستعمرة. وقد انصبّ اهتمامه بنوع خاص على الشؤون الاقتصادية. وررودلو Roddolo هو من السلك الدبلوماسي الإيطالي بدرجة وزير مفوض. وبورتاليه H. de Pourtale هو سليل فرع من أسرة سويسرية نبيلة يتحدث بالإنكليزية بطلاقة مثل تيلكي كما يقول (إدموندز). إلاّ أن ڤيرسين كان يحسن الألمانية وحسب وهو قليل الإلمام بالإنكليزية، لكنه كان يفهم ويتكلم الفرنسية. (اعتمدنا في هذا على انطباعات إدموندز).

(١٢) كرامرز J. H. Kramers (١٨٩١-١٩٥١) بدأ مترجماً للسفارة الهولندية في إستنبول. ولإتقانه التركية والفارسية وإلمامه الجيد بالعربية انتدب خبيراً للجنة. عاش حياة علميّة خالصة. وعين في ١٩٣٩ أستاذاً في جامعة أمستردام ونشر معظم كتب الجغرافيين العرب الأوائل. من أهم آثاره ترجمته الهولندية للقرآن ١٩٥٦ و(الإسلام والديمقراطية) ١٩٤٥، وكتاب «فن التاريخ عند الأتراك العثمانيين» ١٩٤٤. كتبتُ عنه إلمامه ذاك في تعريف قصير في بحث (الجغرافية) وهو فصل من كتاب «تراث الإسلام» الذي نقلته بإضافات إلى العربية في ١٩٥٣. (أنظر ص١٢٥ من الطبعة الرابعة له: بيروت دار الطليعة ١٩٧٨) (راجع كتابنا: يقظة الكرد، ط. أربيل ٢٠٠٢).

(١٣) كان جواد پاشا آنذاك مفتش الجيش العام لجبهة الجزيرة، والقائد العام المرشح لها في حال بدء العمليات العسكرية. وهو أحد القوميين الترك الذين اعتقلتهم لجنة الحلفاء العليا في إستنبول العام ١٩٢٠ وأبعدته إلى مالطا ثم سُمح له بالعودة بعد سنة واحدة. والرائد (كامل بگ) تركيّ لم يسبق له العمل في العراق ولم يكتم أعضاء اللجنة إعجابهم بكياسته وروح الاستقامة فيه بعكس العضوين الآخرين. فالنقيب (ناظم بگ نفطجي زاده) هو من الأسر التركية الثريّة في كركوك. كان في العام ١٩٢٣ قد خرج من بلده والتحق بالجيش التركي. وهو الضابط السياسي للرتل الذي دخل الأراضي العراقية إلى (چال) لطرد الآشوريين الثمانية آلاف الذين عادوا إلى الاستقرار آنذاك على جانبي الطريق الممتدة بين جوله ميرك وچال كما تقدم ذكره. عرف بنشاطه المعادي لقطعات الاحتلال وقاد حملة الاستفتاء برفض ملكية فيصل في ١٩١٩ و١٩٢١. تذكر

المندوب السامي النقيب (جاردين) مراقباً بريطانياً وهو الذي رافق (كوكس) في مفاوضات إستنبول كما تقدّم. وإلى جانبه الضابط العثماني السابق والكرديّ العراقي (صبيح نشأت) الذي كان يحسن الفرنسية إلى حدٍ ما.

كان المندوب السامي يشك في مقدرة (جاردين) ومساعده (صبيح)، فهو على ما وصفه قليل خبرةٍ في التعامل مع لجان دولية، إلاّ أنه كان قد أعدّ دراسة موقعيّة للمسألة. كما أنه قُدم للعصبة بوصفه المراقب البريطاني، لذلك طلب خدمات (إدموندز) المفتش الإداري للواءي كركوك والسليمانية، الأكثر خبرة والذي يتقن الفرنسية والألمانية والإيطالية فضلاً عن الفارسية والكردية وبإلمام كاف بالعربيّة. وقد فاق نظراءه الضباط السياسيين بطول الخدمة في مناطق الولاية الكردية. فأُلحق بالفريق البريطاني وباللجنة بوظيفة ضابط ارتباط. وبفضل هذا التعيين حظينا بفصلين عن قضية الموصل في كتاب عظيم الخطر ألّفه هذا الموظف البريطاني بعنوان (كرد وترك وعرب)، تتبع الكاتب خلالهما مراحل عمل اللجنة خطوة بخطوة وسجّل دقائق ووقائع كانت ستضيع - وفيها من المتعة قدر ما فيها من الفائدة التاريخية. قال:

«بهذه الطريقة (طريقة إلحاقه باللجنة) كان بوسعي دائماً أن أبحث مع (جاردين وصبيح) المشاكل التي تعرض لنا. ولما كانت صلات ضابط الارتباط ستشمل كلّ أعضاء اللجنة فضلاً عن المراقبين الترك، فتغدو ذات طابع رسمي، ولما ستكون معالجتي لأيّ مشكلة أو مواجهتي لأيّ عقبة ذات طابع منفردٍ لا علاقة له بمعالجة المراقب (جاردين) وخبرائه المخولين حق الدفاع المباشر عن مصالح البلاد التي يمثلونها، فسأجد في نفسي القدرة على الإدلاء بإيضاحات خفيفة ليّنة الجانب مضادّة لما قد تساق إليه اللجنة خلال نهوضها بأعباء مهمتها الدقيقة. لم يساور أحد مِنّا أقلّ شكٍ في أننا نخوض معركة حياةٍ أو موت

= الوثائق البريطانية أن سبب موقفه العدائي من سلطات الاحتلال متأت من رغبةٍ ساورته في تولي متصرفية لواء كركوك ورفض الإدارة البريطانية ترشيحه بدل ذلك لتولي متصرفية لواء الحلة. كان من أبرز العاملين في حرب الدعاية التي سبقت قدوم اللجنة، فصدر أمر بالقبض عليه فهرب. اعترض المندوب السامي على وجوده قائلاً إنه أفاد من قدوم اللجنة ليعود إلى العراق متمتعاً بالحصانة الدبلوماسية. فرفض اعتراضه. أما (فتاح بگ) فهو الآخر ضابط عثماني، كردي من أهالي السليمانية وهو شقيق زوج الشيخ محمود. كان الكماليون قد اختاروه عضواً كردياً في مجلسهم الوطني الكبير نائباً عن ولاية الموصل.

بالنسبة إلى العراق. ويقين لا يعتوره تردد بأن ولايتي بغداد والبصرة دون ولاية الموصل لا يمكن أن تبنى منهما دولة معقولة (!) لأسباب اقتصادية وستراتيجية. ومع أن الصحافة العالميّة كانت تصوّر هذه المعركة بمثابة جزء من الحرب الهائلة المستعرة للسيطرة على النفط، فمن المهم أن نعود إلى الوراء لنذكر كيف كان اسم النفط قليل الظهور في كل حساباتنا السياسية - على مستوى عمليّ على الأقل- فأنا لا أذكر وثيقة واحدة جاء فيها تنويه بالنفط كعامل بارز يرتفع إلى مركز الصدارة في ميدان التجارة العام، مما يجعل الولايات التركية الثلاث السابقة وحدة اقتصادية متكاملة لا تقبل التجزئة»[١٤].

مع أن إدموندز وغيره من رجال الإدارة البريطانية في العراق كانوا على علم مسبق بتصميم لندن على الاحتفاظ بالموصل مهما كلّف الأمر، إلا أنهم كانوا يدرون بأن أي قرار غامض للجنة، أو من شأنه إثبات أحقية المطلب التركي في كلّ الولاية أو في جزء فيها سيثير (للوايت هول) مشكلة في غاية الخطورة في عالم الدبلوماسية الدولية منها، وربمّا أقلها شأناً ضعضعة مركزها الممتاز المهيمن في عصبة الأمم[١٥].

إلى جانب هذا كانت لندن تريد إكساء صبغة الشرعية على عملية فتح عسكري غير

---

(١٤) في ١٩٧٠ نشأت بين كاتب هذه السطور وبين إدموندز (١٨٨٩-١٩٧٥) علاقة شخصية إثر نقلي إلى العربية كتابه (كرد وترك وعرب: سياسة ورحلات وبحوث عن الشمال الشرقي من العراق ١٩١٩-١٩٢٥. ط بغداد ١٩٧٠). وأذكر بالمناسبة أنه كان كثير التشوق لرؤية الترجمة بحيث إنه استعجل بإرسال الأستاذ عبدالرزاق الحسني صديق الطرفين صاحب (تاريخ الوزارات العراقية) الشهير، وقد زارني والكتاب مجرد أوراق لم يجر تجليدها وحزمها. وأصر على أن يجرني من مكتبي إلى المطبعة زاعما أن (إدموندز) أنذره بأنه لن يستقبله في لندن إلاّ وفي يده الترجمة. فتم تجليد نسختين منه ووصل مؤلفه نسختين منه قبل توزيعه بمدة. تخرج إدموندز في كمبردج وعيّن مترجماً في قنصلية ساحل المتوسط الشرقي في العام ١٩١٠، ثم ألحق بحملة البصرة في ١٩١٥ ضابطاً سياسياً وأرسل بعين المهمة إلى كردستان في ١٩٢١ وإلى جنوب كردستان ضابطاً سياسياً لكركوك وفي مهمة خاصة (موجهة ضد خطر حركة الشيخ محمود) في ١٩٢٢. وبفضل نجاحه أعيرت خدماته للجنة الموصل وبعدها عيّن معاوناً للمستشار (كورونواليس) في وزارة الداخلية ١٩٢٦، ثم مستشاراً فيها طوال عشر سنوات (١٩٣٥-١٩٤٥) غادر العراق بعدها وقد منح وسام الرافدين تقديراً. وفي العام ١٩٤٨ عينته وزارة الخارجية البريطانية مستشاراً برتبة وزير. وأحيل إلى التقاعد في العام ١٩٥١. كتب أبحاثاً عربية وفارسية وكردية. وله بمشاركة الأستاذ توفيق وهبي معجم إنكليزي - كردي.

(١٥) كان (السر أريك دوروموند) وهو إنكليزي السكرتير العام لمجلس العصبة وقتذاك.

صحيحة بالنظر إلى قواعد لعبة الأعراف الدولية والقانون الدولي - إلى جانب اتفاقها مع مشاعر الأغلبية الكردية بعد القضاء على آمالها في دولة مستقلّة، وكسب القوميين العرب الذين بدأوا يناصبون حكمها العداء باسم الوطنية.

وكانت هناك فضلاً عن هذا قضية «هامشية صغيرة» في حساب البريطانيين هي مصير ومستقبل ذلك الشعب الصغير المعروف بالآشوريين المسيحيين الذي جرده انحيازه إلى جانب الحلفاء من وطنه، فضلاً عن الوضع القانوني للأقليات المسيحية واليهودية في الولاية وفي سائر العراق.

إلى جانب معارضة المعاهدة والدفاع عن حق العراق الجديد في استقلال تام، كانت هذه المعركة السياسية مع محتلّ جديد عاملاً من عوامل إيقاظ مشاعر قوميّة حادة عند فريق من القوميين المتعلمين وبعض رجال الصحافة والفكر والأدب. قدر ما كان لها من أثر في تطوير الوعي القومي الكردي، رغم أنه لم يكن بين الطرفين نقاط لقاء أو تفاهم. وكذلك بقدر ما أشعر الأقليّة المسيحية وربما اليهودية بالهوية القومية وبشخصيةٍ اجتماعية أُنكرت عليهم عبر قرون عديدة. لم يحاول القوميون العرب إحداث صِلة مصيرية في أثناء هذه المعركة السياسية مع أي طرف من هذه الأطراف. وبدا كفاحهم وكأنه في سبيل مصير وطن يخصّهم وحدهم. إلاّ أن هاتين الأقليتين شعرتا بشكل ما بأنهما باتتا موضع ثقل سياسيّ واهتمام دولي، إذ طلب منهما عن طريق أعيانهما وسُراتهما رأيهم ولأوّل مرة في التاريخ فيمن يفضلان من الحكام.

كانت خطوة ظاهرة متينة تلك التي قطعها الوعي القومي العربي في مسرى هاتين المعركتين، وهي خطوة أيدها الدفاع عن مصالح الوطن الجديد وكيانه السياسي بدت في أول أمرها تتجه اتجاهاً صحيحاً بظهور تعبير «الشعب العراقي» في الصحف وفي كتابات الأدباء، وشعر الشعراء، وسادت كلمة الوطنية والوطنيين بدلاً من قومية وقوميين في أوساط المعلمين وطلاب المدارس الثانوية والمعاهد المتقدمة المهنية في بغداد، وهؤلاء بطبيعة الحال نسبة ضئيلة جداً من مجموع السكان العام الذي لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين بأيّ حالٍ.

نمت الحركة الوطنية وتركز نشاطها بصورة خاصة في كلية الحقوق ومعهد إعداد المعلمين للمدارس الأبتدائية وهذا تمّ بفضل استيراد أعداد غير قليلة من المدرسات والمدرسين السوريين واللبنانيين ومعظمهم خريجو الجامعة الأمريكية ببيروت لسد حاجة المدارس الثانوية الخمس في سائر العراق. ومهما يكن من أمر فقد كان القلق والتوجس

العظيمان يسودان الأوساط السياسية والوطنية عند قدوم اللجنة. ولا أدلّ على ذلك من تلك الرسالة العاطفية التي وجهها (فيصل) إليها عند وطئه تربة العاصمة وهي رسالة طويلة أجتزئ منها هذا: [لاحظ استخدامه تعبير الشعب فيها]

«. . . ونحن نحترم الشعب التركي ونتمنى له كلّ الخير. على أننا نريد أن نعيش بسلام وأمان لنؤدي قسطاً من الخدمة في سبيل التقدم البشري كافّة، باستغلالنا مواردنا وتطويرها. ولبلوغ هذه الغاية ينبغي أن تبقى بلادنا موحّدة غير منقوصة ويجب أن نتمتع بحدود تضمن لنا السلامة والأمن من كلّ اعتداء وإن هذا بالنسبة إلينا مسألة حياة أو موت. إن إقامة وتوطيد دعائم حكومة مستقرّة في العراق مرهونان بالمحافظة على الوضع الراهن، فأنا أرى من المستحيل عسكرياً واقتصادياً أن تعيش في (بغداد) حكومة فُصلت (الموصل) عنها وأعطيت إلى حكومة أخرى، فدون الموصل لا يمكن أن يؤمل الشعب العراقي حياة حقّة، لا بل إن عقيدتي وطول خبرتي في عقلية الشعب التركي وهي حالة روحية متأصلة، ولمعرفتي التاريخية بشهوة الفتوح والغزو المتأصلة فيهم، ولعدم تثبيت خطّ حدود آخر يضمن سلامة كيان بلادي، كلّ ذلك يجعلني أرى من المستحيل الوصول إلى حالة استقرار داخلي حتى في الأوقات الاعتيادية، إلا بإنشاء قوة عسكرية دائمية، تكوينها ليس بمقدور عراق مقطع الأوصال، لا في الوقت الحاضر ولا في المستقبل. كما إني أستبعد أن يُحاول استثمار رأس مال أجنبي في العراق عندما يرى الرأسماليون الأجانب البلد معرضاً دوماً للأخطار والفوضى والغزو. ولذلك فأنا أعتبر الموصل للعراق بمنزلة الرّأس من بقية الجسد. واعتقادي الجازم إن القضية، وإن كانت قضية تثبيت حدود بين العراق وتركيا أصلاً، فهي في الواقع وعلى كلّ حال قضية مستقبل العراق ككلّ. إن سعادة وشقاء أربعة ملايين من البشر هي وديعة في أيدي أعضاء لجنتكم الكريمة، فإن رأت لأيّ سبب كان إيصاء عصبة الأمم بأي تغيير أو تعديل لحدود العراق، فعليها في الوقت نفسه إيصاء العصبة باختيار وضع سياسيّ جديد لهذا البلد بكامله. وعليها ستقع مسؤولية مصير هذه المجموعة الكبيرة من البشر» ا.هـ.

* * *

كان الجانب التركي في أثناء المداولات التمهيدية في مجلس العصبة، وقبل الإعلان عن تأليف اللجنة، يصرّ على القيام باستفتاء عام لسكان الولاية . وهو طلبٌ منطقي عادل وقانوني طالما لجأ إليه المختصمون في أحوال مماثلة. إلاّ أنه كان في حقيقة أمره جزءاً من مؤامرة مقصودة على مستقبل قوميات وطوائف متعددة.

للترك في هذا الإقليم بصورة خاصّة احترامٌ ومهابة ومنزلة. هم أهل «الدولة العليّة» مقرّ الخلافة، الذين حكموا البلاد أربعة قرون، دولة ما زال لها مكانتها السامية في القلوب. وقد زاد فيها النجاح المذهل الذي حققه بطلها المغوار (مصطفى كمال باشا) بانتصاره الساحق على الغزاة الكفرة. المناشير الدعائية كانت تتسرب ويجري تكثيرها خفية في تلك الفترة. فيتبادلها قراء العربية والكردية والتركية ويطلقون عنها الإشاعات. وكُلها يتوعد بإنزال العقاب الصارم بالخونة السارقين. مواد دعائية صارخة متواصلة وضعت رجل الشارع في حالة من الوجل والأمل والفزع والترقب وانتهت بنوع من البلادة الفكريةً والسلبية السياسية وعمقت الشعور الفردي بأن الأهلين لن يكونوا طرفاً فعّالاً في هذا النزاع.

وقد أرغمت أنا نفسي على الوصول إلى هذه النتيجة من خلال استطلاعي الشخصي. فقد أدركت كثيرين من الأحياء الذين عاشوا تلك الفترة واحتثثت ذكرياتهم وانطباعاتهم عن عمل اللجنة ولم أقتصر في استطلاعي على طائفة أو فريق، بل شملت دائرة واسعة ابتداءً من رجل الشارع البسيط وانتهاءً بالموظف المحلي، وبينهما عدد من الوطنيين الذين ساهموا في المجهود الحكومي فضلاً عن رجال من الأسر الأرستقراطيّة. وقد أسلمتني النتيجة التي توصلتُ إليها إلى خيبةٍ ما كنت أتوقعها لأنها تناقض تماماً كلّ ما قرأت في الأربعينات والخمسينات حولها. والظاهر أن أولئك الكتاب الذين صوروا حماسة الموصليين في ضمّ الولاية إلى الوطن الجديد كانوا متأثرين بالضجيج الحكومي والوطني في بغداد.

بعد مرور حوالي عشرين عاماً ولهجة الصدق تحسستُها فيما ظفرت به من إجابات وردود فعل، وجدتُ نفسي مرغماً على الاستنتاج بأن الموصليين عامّة كانوا يخفون أحاسيسهم الخاصّة في أعماق أنفسهم لتبدو بشكل من أشكال السلبية والبلادة السياسية إزاء حادث مصيريّ. مثلما توصل إليه ضابط الاستخبارات البريطاني الذي اتخذ لوصفهُ الجوّ آنذاك كلمة passivness . . .

ومع هذا فمن القليل الذي ساهم ظاهراً في تلك المعركة ميّزتُ فرقاءَ ثلاثة: أولئك السراة والأعيان الذين انتفعوا بالعهد التركي ولقوا الرعاية من حكامه يلحق بهم عدد من علماء الدين الذين لم ينجح المحتلّ الجديد في شراء ولائهم[١٦].

(١٦) من بين الروايات التي كان يتداولها الموصليون في هذا الباب ما روي عن (الحاج أحمد أفندي =

لم يكن الأتراك بحاجة إلى جهد كبير لتبعث فيهم حنينهم إلى العثمانية. والفريق الثاني وهم الوطنيون أو العروبيون، الذين جاهروا منذ إعلان الانتداب على العراق الإدارةَ البريطانيةَ بالعداء وطالبوا بالاستقلال. ولم يكونوا على كلّ حال بدرجة من النضوج السياسيّ ليقرروا عن قناعة بأن الانتداب مهما ثقلت وطأته فهو أفضل من الحكم التركي المباشر. إلاّ أنهم كانوا في سِرّهم على إدراك بأن السيد الجديد خلال فترة احتلالهم القصيرة كان أرحم بهم وأبرَّ بما لا يقاس من حاكمهم القديم. فقد أنقذهم وأنقذ عوائلهم من غائلة المجاعة بإغراقه السوق بالمواد الغذائية فأشبع البطون وقضى على المجاعة بأسابيع قلائل، في حين لم يتحرك العثمانيون قيد أنملة طوال سنة المجاعة ليتصدقوا بكيلةٍ من الدقيق عليهم. مع هذا فهذا المحتل الجديد يريد أن يضمّ قضيته إلى قضيتهم ويحاول إبقاء الولاية لوطنهم الجديد والمنطق الوحيد هو أن يدعموا جهوده ولو مؤقتاً لاتحاد الهدف.

ويشارك الشعور الخفي لهذا الفريق الفريق الثالث وهو الأغلبية الساحقة فضلاً عن نداء البطون التي امتلأت بعد خواء. هناك أمور أخرى نعمت المدينة بها طوال السنين السّت من الاحتلال الجديد. لم يكن هناك تجنيد ولا قرعة عسكرية ولا سوق إلى جبهات قتال بعيدة ولا سخرة، والضرائب لم تعد ثقيلة ولا كيفيّة. والسيد الجديد سريع النسيان والعفو عن القائمين عليه خفيف العقاب لا يبالي كثيراً بمنتقديه ولا يحرّك سوطه إلاّ عندما يتعدى الانتقاد والتظاهر في الشارع الحدّ المرسوم ليبدو تحريضاً على الثورة، أو لينتقل إلى أعمال عنف تهدد الأرواح والأموال، إلاّ أنه شديدٌ على قطاع الطرق واللصوص والقتلة وأيضاً على أولئك الذين يتغوطون أو يرمون القاذورات في الشوارع والمحلاّت العامة!

لكن مجيء لجنة أجنبيّة للتحقيق في مسألة تتعلق بمصيرهم، يصحبها وفد تركي

= الجوادي) وهو من مقدمي رجال الدين، المدرس والخطيب لجامع السراجخانة، أنه كان خارجاً من دار حكومة الإنتداب حين التقى وجهاً لوجه بالعالم الديني (صالح أفندي البربر) أو ربما كان غيره، فراح هذا يعاتب (الجوادي) على موالاته وصلته بالإنگليز. فما كان من الجوادي وقد اشتهر بالفكاهة والذكاء وحضور البديهة، إلا أن ضرب بيده على جيب جبته الخفي وقال: «صالح أفندي! هاهنا روپيات!» (الروپية هي العملة الهندية التي حلت مَحَل العملة العثمانية). وقد عرفت الاثنين معرفة شخصية وأنا تلميذ ومحام. وقدرت في أولهما ملكاته العقلية وأكبرت في الثاني فضائله وتقواه.

مؤلف من ضباط؟ إنها مسألة محيّرة. كان يشق على رجل الشارع الموصلي بعقليته الأميّة الساذجة الخالية من التعقيد أن يفهم مجيء مجموعة من «الحكام أو المحكمين لا يدين أفرادها بالطاعة للبريطانيين ولا لأحدٍ، تعتبر نفسها فوق القومية والدين وتعمل بمعزل عنهما. هذه المجموعة تأتي من بلاد بعيدة لتسألهم هل هم راضون عن حكامهم الجدد، الذين ربّما ضايقوهم في تحصيل الضريبة أو أنزلوا عقاباً بهم عن جريمة أو لمجرد رغبةٍ تساورها في استبدال حكم بآخر؟».

ليس هناك ما يعين على هدم السلطة وإشاعة البلبلة الفكرية مثل الجهل والأمية والخوف من المستقبل. عندما تكون نسبة المتعلمين اثنين بالمائة في هذا الحشد من السكان المشتت عنصرياً وقومياً وطائفياً واجتماعياً ذلك الشتيت الذي يضم في حناياه تراثا بشعاً من الأحقاد والضغائن والاحتقار والتعصب الديني والإذلال والحسد[17] فكيف تراك تؤمل منه رأياً عاماً حقيقياً مهما بلغت من الحياد والدقة في إجراءات استطلاعه.

وعلى صعيد الأقليم كلّه كان هناك وضع آخر مختلف تمام اختلاف عن أهل

---

(١٧) مما رواه لي الوالد عن جدي - ولم يؤثر عنه كذبة أو مبالغة في أي شأن - ما يصلح مثلاً للصورة المتقدمة. وجدّي هذا بشهادة من أخذ عنه الفنّ والصنعة من تلاميذه ومن آثار معمارية خلّفها وما زالت شاخصة في المدينة وغيره - كان فريد وحده من معماريي المدينة ونحاتيها يتهافت الأهلون على التعاقد معه. رغم هذا كان يغشاه خوف متأصل من طرقة الباب. فيبادر فوراً إلى القبو (السرداب) ليحشر نفسه في (كوارة) من الكور التي تستخدم لخزن المؤونة الشتوية من قمح، وهي جرَة ضخمة شبيهة بسايلو، ويُحكم غطاؤها حتى يؤكد له من في الدار أن القادم ليس تحصيلدار (محصل ضرائب) أو رجلاً من الجندرمة، أو متنفذاً أو موظفاً يسخره لعمل. وفي الموصل جرت العادة عند المسيحيين أن (يدشنوا) ثياباً جديدة عند حلول العيد. إلاّ أنهم اتقاء الحسد وما يتوقع بسببه من اعتداء كانوا عادة «يخيطون في أنحاء ظاهرة من الثوب رقعاً وخرقاً بالية ليبدو قديماً». واتفق أن انطلق الجدّ في زيارة قريب له بمناسبة العيد وهو مرتد الزبون الجديد المرقع وكان عليه أن يمر بسوق الميدان القريب من دار البلدية، وفي أثناء مروره لحظه دكاني كان يفرغ أجربة من السمن الحيواني وعسل العنب، فصاح بالجد يطلب الاقتراب منه وما أن حاذاه حتى بادر الدكاني فأمسك بطرفي زبونه وراح يمسح يديه وزنديه الملطخين وهو يمدح ساخراً نفاسة القماش الذي خيط منه الثوب، مفاخراً بأن الرقع المزروعة فيه لم تخدعه. ولم ينطق الجدّ طبعاً بحرف وامتثل راجعاً دون أن يقوم بالزيارة، وانثنى يعاتب الجدّة غاضباً لأنها لم تضع رقعاً كافية لإخفاء جدّة الثوب. بطبيعة الحال لم تخالج الجّد أية فكرة برفع الأمر إلى القضاء التركي.

المدينة. أولئك القبائليون في الجبال وفي السهول الجنوبيّة والغربية، الذين خرجوا لتوّهم من القرون الوسيطة وما زال بعضهم يعيش حالة البداوة بكل غلاظتها في مجموعات لا تتعفف عن استلاب جيرانها إن ضاق بها العيش، وبأفراد همهم الأكبر اقتناء بندقية قبل أن يفكروا باقتناء زوجة(١٨).

وبصرف النظر عن العشائر العربية، فقد كانت المفاجأة الكبرى تنتظر اللجنة من قبائل الغرب وحضريّيه الكرد كما سيرد بعد قليل. ولمعرفة الترك بهذا الواقع، فقد وزنت حكومتهم إلى اللجنة وزناً دقيقاً، وليكون وقعها شديداً على أعضائها الذين ينتمون إلى دول قومية صغيرة. جاء في ختام المذكرة:

«لأول مرة منذ تأسيس عصبة الأمم يعرض أمام مجلسها نزاع ذو أهمية عظيمة، نشأ بين دولةٍ غربية كبرى وبين دولة من دول الشرق الأوسط، نزاع يتعلق بحق تقرير المصير لشعب شرقيّ. إن مشاعر الثقة المتبادلة، ومظاهر حسن النيّة بين الشرق والغرب، وإيمان الأقوام الشرقية بالعهد الجديد الذي تقف عصبة الأمم له حاميةً، إنما يعتمد إلى درجة كبيرة على الحلّ الذي ستتوصل إليه لجنتكم بعد تدقيق شامل وافٍ لموضوع النزاع. إن حكومة الجمهورية (التركية) مقتنعة بأن لجنتكم ترغب رغبة صادقة في أن تسهم بخلق هذه الثقة المتبادلة بين العالمين الشرقي والغربي. وهذه النتيجة هي غاية المتمنّى. إنها ستحقق كذلك انتصاراً للعدالة برفعها توصية إلى مجلس العصبة تقضي بضرورة فسح المجال لأهالي ولاية الموصل لتقرير مصيرهم بأنفسهم وبكامل الحرية».

إذن، فما كان يطمح إليه الترك ويأملون من قرار تصدره اللجنة هو أن تختتم تحقيقاتها بالإيصاء بإجراء استفتاء عام لهذه المجموعة المتنافرة المباغظة المتعددة المصالح من قوميات وعناصر وطوائف تزخر بها الولاية. وكان على البريطانيين أن يحولوا دون ذلك بأي ثمن.

وفي بغداد كان ثمّة هلع حقيقي عند الحكومة وعند القوميين - الوطنيين دعاة

(١٨) تؤكد التقارير البريطانية أن حصيلة الغرامة التي فرضتها سلطة الاحتلال على قبائل الفرات الأوسط بعد إخماد ثورة ١٩٢٠، كانت ٢٦ ألف بندقية أكثر من نصفها حديث وثلاثة ملايين إطلاقة، أي بمعدل ٥٠ إطلاقة للبندقية الواحدة.

الاستقلال. كان (عبدالمحسن السعدون) يرأس الحكومة. وهو عربي سليل آل السعدون أمراء المنتفق. إلاّ أنه قضى أكثر من عشر سنوات مرافقاً للسلطان عبدالحميد وقبلها أمضى ستّ سنوات يدرس في معاهد إستنبول المدنية والعسكرية. يجيد التركية دون العربية التي يكتب بها بصعوبة كبيرة، لم يمض على عودته إلى العراق أكثر من سنتين[١٩]، وقد ترتب عليه وعلى أعضاء وزارته أن يفعلوا شيئاً للوطن الجديد في خضم هذه المعركة. إلاّ أنهم كانوا يفكرون بعقلية تركية عثمانية مالبثت أن تفتقت عن عمل أخرق، وبتلك التعليمات التي أصدروها إلى إدارتهم في الموصل بالمناسبة.

في تلك الفترة كانت حكومة السعدون تواجه ضغطاً وإحراجاً من خصوم كلّ همهم أن يحلّوا محلّها، وقد تزعم المعركة ذلك الداهية الألمعي (ياسين الهاشمي). استندت كتلة المعارضة هذه إلى الشارع وغذته هي الأخرى بدعاياتها وبدت صيحة الحرب: «لا انتداب ولا معاهدة»، تقرع آذان الحكومة والإدارة البريطانية، فتخيف الأولى وتزعج الثانية.

الدعوة إلى رفض الإنتداب والمعاهدة والمطالبة بالاستقلال لا يمكن أن يُطعن فيها. إلاّ أن استخدامها لقلب الحكومة فحسب من أناس يعرفون جيداً بأن هذا الهدف متعذر التحقيق وأن البريطانيين سيفرضون الاثنين بالقوة، وبأن لهم كل المقدرة على حكم البلاد بشكل مباشر في أي وقت شاؤوا، هو مخادعة مزدوجة، ولعب كاذب بالعواطف الوطنيّة النبيلة.

في مؤتمر سان ريمو المنعقد في نيسان (أبريل) ١٩٢٠ تَمّ اتفاق بين فرنسا وبريطانيا على منطقتي نفوذهما في الهلال الخصيب على شكل نظام وصاية (انتداب) يناط بهما من لدن عصبة الأمم التي تقرر فيه تشكيلها أيضاً. وكان ذلك بناء على بدعةٍ اقترحها (الجنرال سمتس) رئيس حكومة جنوب أفريقيا. وقد طبقت هاتان الدولتان نظام الوصاية عملاً وقبل أن يعهد به إليهما رسمياً منذ ٢٥ نيسان ١٩٢٠. وأعلنت عنه بريطانيا في العشرين من أيار في بغداد. إلاّ أن صكّ الانتداب لم يوّقع رسمياً إلاّ في أيار ١٩٢٢، أي بعد مرور سنتين كاملتين على إعلانه!

---

(١٩) باختياره مرافقاً منح رتبة مقدّم (بيمباشي) وهو مجرد ملازمٌ. واستقال من الجيش عندما أنزله الانقلاب العثماني (١٩٠٨) إلى رتبته الأصلية وكان قد تزوج من تركيةٍ وقد اشترط عليه حموه ألاّ يغادر إستنبول قطّ. إلاّ أنه عاد إلى العراق في العام ١٩٢٢ مع هذا.

إلاّ أن دعاة الاستقلال الذين وطدوا فكرتهم وعملوا لها أثناء ثورة الفرات الأوسط وبمعزل عنها أحياناً بقوا ينظرون إلى الإنتداب نظرة عداء وظلوا يطالبون بالاستقلال بهذا القدر أو ذاك من الاندفاع، رغم قلتهم وضعف تأثيرهم وفشلهم في الحصول على الجماهيرية الكفيلة بجعل القضية مركز ثقل وتأمّل جدي من الجانب البريطاني[٢٠].

وخفت ضجة الاستقلاليين (القوميين الوطنيين) بعد فشل ثورة العشرين حتى كادت تضيع في زحام الإغراء بالمناصب والمال. إذ كان من أسهل الأمور على البريطانيين تدجين هؤلاء الأعلى أصواتاً بهذه الوسيلة أو تلك. إلاّ أن الهياج مالبث أن عاد يقلق راحة البريطانيين عند توقيع صكّ الانتداب. وتوالت الاجتماعات والاحتجاجات بشكل ضايق (كوكس) كثيراً. وكان سببه أن الصحف في بغداد نشرت جزءاً من مناقشة في مجلس العموم البريطاني حول الانتداب. فقد وجّه أحد أعضاء المجلس لوزير المستعمرات (ونستن تشرتشل) هذا السؤال:

«ما هو موقف حكومة فيصل والشعب العراقي من الانتداب؟ وكيف استقبلا إعلانه وتطبيقه؟».

فردّ (تشرتشل) بقوله: «إن المندوب السامي لم يتلق ردّ فعل لا من فيصل ولا من حكومته حول رفض الشعب العراقي نظام الانتداب».

نشرت جريدة (الاستقلال) هذا وعلّقت عليه، فقدحت شرارة كانت نارها قد خبت وتجددت التظاهرات والاجتماعات السياسية. والمسألة هي أن أغلبية المشاركين في هذا

---

(٢٠) على سبيل المثال: في شباط أسس بعضهم في بغداد حزباً سريّاً أطلقوا عليه اسم (حزب حرس الاستقلال). من مؤسسيه جلال بابان وشاكر محمود ومحمود رامز وعارف حكمت. وفي عين الوقت أُلف حزب سرّي آخر باسم (العهد) وأنشأ له فروعاً في البصرة والموصل، ومن أعضائه الشيخ سعيد النقشبندي وأحمد عزت الأعظمي ونوري فتاح وعلاءالدين النائب وأمين زكي وغيرهم. إلاّ أن نزاعاً شديداً نشأ بينهما فور تشكيلهما. كان حزب العهد يرى وجوب التعاون مع بريطانيا وقبول مساعداتها الفنية والاقتصادية للوصول إلى الاستقلال. في حين كان نظيره يرى بريطانيا دولة استعمارية غاصبة، عليها أن تترك البلاد لأهلها. ولم يدم تعايش هذين الحزبين أي فترة من الزمن، فقد شرعا يتراشقان بالشتم والقذف وراح أحدهما يطعن أعضاء الآخر بأخلاقهم وشرفهم. ووصف العهديون خصومهم بأنهم عملاء للأتراك. ووصف الاستقلاليون العهديين بأنهم جواسيس لبريطانيا. وفشلت وساطة حاولتها حكومة فيصل في دمشق. وقضى أحدهما على الآخر وانحلاّ من دون أن تحتاج سلطات الاحتلال إلى بذل أي جهد في ذلك.

الاجتماع الجماهيري وعموم الأهالي لم يتذكروا أن الانتداب قد طُبّق فعلياً قبل سنتين وأن الحكومات العراقية ورئيس الدولة (فيصل) كانا يعملان في نطاق نظام الانتداب وبحدوده المرسومة لهما طوال هذه المدّة.

وفي خلال أسبوع واحدٍ لا غير سكن صخب الشارع وعاد الهدوء، إذ اكتفى زعماء القوم ببرقية احتجاج إلى عصبة الأمم(٢١)، وبالقناعة ببيان حكومي سكن الوعد باستبدال الانتداب بمعاهدة. كل ما حصل أن بقي الانتداب زائداً المعاهدة.

وفي مدينة الموصل حصل ما حصل في بغداد. لكن سراة البصرة وأصحاب النفوذ فيها راحوا يسعون إلى إقامة نظام سياسي منفصل عن سائر العراق يتضمن إلحاق الولاية بإدارة الهند، أو بحكم ذاتي في الدولة العراقية.

في الموصل قدم بعض علماء الدين مع من استطاعوا جمعه من التواقيع عريضة بوساطة الحاكم السياسي إلى «جلالة ملك بريطانيا العظمى» يذكرون بالوعد بالاستقلال. وجمع طلاب الإعدادية ومدرسوهم تواقيع على عرائض مماثلة. إلاّ أن هذا الفريق الذي بقي على ولائه للعهد القديم إلى جانب بعض العلماء المتعصبين للعقيدة (الإسلام ضدّ الكفر والكفرة) انتهزوا فرصتهم في إعلان الانتداب في استنفار الحميّة الدينية لشجب الانتداب والإصرار على الاستقلال.

ويطيب لي هنا أن أستشهد بنموذج طريف في محاولة استخدام الدين في الكفاح ضد الانتداب، من السيد حبيب أفندي العبيدي الموصلي الشاعر الذي كان في أيام الحرب إماماً ومُفتياً للجيش الرابع العثماني، الذي قاده (جمال باشا) في سورية وهو ذاك الذي زوّد القائد والوالي التركي بالإجازة الشرعية أو الفتوى الضرورية شكلياً لتنفيذ

(٢١) نصّ البرقية: «أثبت العراقيون رغبتهم في الاستقلال التام ورفضهم أي انتداب كان. وحركتهم الخطيرة في العام ١٩٢٠ أعظم شاهد على ذلك. وبمناسبة بيان مستر تشرتشل في مجلس العموم البريطاني بخصوص مسألة الانتداب في العراق، أقام الشعب مظاهرة سلميّة فُوّضت فيها لأنوب أمام مجلسكم الموقر ولدى البرلمانات عن رأيه في رفض الإنتداب. وعليه نرفض كلّ انتداب ونحتج على كل قرار يعارض الاستقلال التام للعراق». (وقد وقع البرقية من وقع عليه الاختيار في اجتماع مسجد الوزير وهم كل من محمد الصدر (رئيس وزراء لاحق)، محمد الخالصي، ياسين الهاشمي، أحمد الداود، حمدي الپاچچي (رئيس وزراء لاحق). وأُرسل منها نسخ إلى مجلس العموم البريطاني و١٠ داوننگ ستريت. والكونگرس الأمريكي والتايمس اللندنية وصحف لندنية أخرى).

أحكام الموت التي صدرت من المجلس العراقي بحق القوميين السوريين في ١٩١٦.

يقول العبيدي في موشحه الشهير:

ما تركنا إخواننا الأتراكا وخذلناهمو وآزرناكا

شغفاً يا ابن لندن بهواكا بل لنيل استقلالنا لولاكا

فلماذا تكون فينا وصياً؟(٢٢)

هؤلاء الذين قادوا حملة الانتداب وخاصموا الاحتلال البريطاني باسم الوطنية والعروبة والدين وأقاموا الشارع وأقعدوه بشعارات الاستقلال وحق تقرير المصير، ليستقبل رصاص المحتل أحياناً وهراواته دائماً، لم يكونوا قادة حقيقيين متجردين بالمعنى الذي نفهمه للقيادة الروحية الجماهيرية، ولا حملة رسالة فكرية عربية الطابع أو وطنية المنبت. فقد رأيناهم يتخلون عن الشارع متسللين واحدهم إثر الآخر عندما ينيلهم المحتلّ مبتغاهم ويسدّ جوعهم إلى السلطة، فإذا خلا الشارع من قيادة كانت معالجته من أسهل الأمُور.

في ١٩٢٤ و١٩٢٥ لم تكن الظروف السياسية تسمح للسلطات البريطانية بإسكات القادة المعارضين عن طريق إقالة حكومة السعدون وتسليمهم الحكم، فدامت ثورة

---

(٢٢) يذكر تحسين العسكري (الثورة العربية الكبرى) ط. النجف ١٩٣٨ ص١٠٠: "إن الشيعة فرحوا بهذا الموشح وأخذوا يتداولونه ويقرأونه في مجالسهم، إذ اعتبرت القصيدة اعترافاً من أهل السنة بوصاية علي ابن أبي طالب وشاع بين الناس يومذاك قول من قال: «إن عمراً (ابن الخطاب) وعلياً تصالحا ولم يبق بينهما أي اختلاف». وإليك مقاطع منها:

دون ملك العراق بين الطول لأبي عبدالله نجل البتول

قد أريقت دماء خير قتيل أفبعد (الحسين) سبط الرسول

نحن نرضى بالإنكليز وصياً

يا محبّي آل النبي الكرام أيكون العراق ملك اللئام

وهو ميراث آل خير الأنام أفبعد الأئمة الأعلام

نحن نرضى بالإنكليز وصياً

أنت أعمى يا عزب أم تتعامى نحن لسنا أراملاً أو يتامى

لنعاني وصاية أو فطاما لا عرفنا للكائنات نظاماً

إن رضينا بالإنكليز وصياً

لاتقل جعفرية حنفية لا تقل شافعية زيديّة

جمعتنا الشريعة الأحمدية وهي تأبى الوصاية الغربية

فلماذا تكون فينا وصيّاً؟

الشارع ولقيت مساندة قوية من الإعلام المحلّي شاركت فيه صحافة معينة كانت كثيراً ما تُرمى بالانحياز إلى معسكر البريطانيين. واتسّعت رقعة الهياج لتشمل أجزاء واسعة من العراق وعدداً كبيراً من مدنه.

في وسط هذه الضجّة أثيرت قضيّة النزاع على ولاية الموصل دولياً، فوجدت الحكومة السعدونية فيها فرصتها لمنافسة المعارضة على الشارع ووسيلةً للبرهان على وطنيتها بالأحرى لاقوميتها، بحرصها على «جزءٍ من تربة الوطن».

علماء الشيعة ورؤساء عشائر الفرات من الذين وجهوا في تموز ١٩١٩ رسالة لحسين بن علي، الذي اتخذ لنفسه لقب (ملك العرب) مشترطين عليه التمسك بهذه الولاية لقاء قبولهم أحد أولاده ملكاً على العراق، ربما لم يكونوا يدرون في حينه أن هذا الملك الجديد كان قد حدد مملكته قبل أكثر من سنتين بحيث تشمل لا ولاية الموصل وحدها، بل ولايتي بغداد والبصرة كذلك؟ على أن المذكرة نفسها - والعهدة على الأستاذ الحسني - تكشف في الواقع عن مدى التأثير الذي كان يمارسه البريطانيون على العقول وسرعة استغلاله مشاعر الأهلين الوطنية في تلك الفترة. كانوا يريدون أن يهيئوا الأذهان العراقية للمعركة الدبلوماسية التي لا ريب فيها.

هذه المذكرة فريدة في بابها فعلاً. فهي من جهة أخرى ترمي إلى إفهام (حسين) بأن العراق المقبل لن يكون تابعاً له أو جزءاً من مملكته التي اقترحها على (مكماهون)[٢٣]. وأنى لهؤلاء أن يعرفوا بتلك المراسلات السرية في حينه، ليقفوا قبل

---

(٢٣) من أورد نصّ الرسالة (الحسني في - العراق في دوري الإحتلال والإنتداب - ص٧٧) والناقلون عنه، لم يفطنوا إلى الغرض البريطاني المزدوج منها. وهي كما تبدو لنا من بنات أفكار البريطانيين ووحيهم. وسبحان من لا يخطئ: «إلى ملك العرب جلالة الحسين بن علي السلام عليكم ورحمة الله. أما بعد. فإن الحلفاء في الحرب العظمى أذاعوا إلى سكان الفرات في هذه الأيام منشوراً عاماً فحواه أنهم لم يحاربوا إلاّ لتحرير الشعوب. وأن يكون لكل شعب من هذه الشعوب حق تقرير مصيره بنفسه وإدارة شؤونه من قبله، ولم يكن لهم نية الفتح والاستعمار وبناء على هذا طاف الحاكم الملكي العام في العراق وأصبح بكافة الزعماء والرؤساء والعلماء طالباً منهم أن يبدوا رأيهم في النقاط التالية:

١- في حدود المملكة العراقية وما إذا كانت الموصل جزءاً من العراق أم لا؟

٢- في الحكومة التي يرغبون فيها والأمير الذي يملكونه في البلاد.

وبعد المداولات والمذاكرات أبلغوا الحاكم السياسي البريطاني العام في العراق بأن الموصل جزءٌ لا يتجزأ من العراق وطلبوا إليه تأسيس حكومة عربية دستورية على أن يكون أحد أنجال =

أن يبتلعوا السمكة التي ألقى بها إليهم وكيل الحاكم الملكي العام (ولسن)؟ مَنْ يأكل مَنْ؟

الآن وجدت حكومة السعدون فرصتها للنزول إلى الشارع. في الوقت الذي وجد هؤلاء الرافضة أعداؤها - هؤلاء الذين كما قال العبيدي الشاعر «خاصموا إخوانهم في الدين وآزروا الكافر طمعاً بالاستقلال» مضطرين إلى تبنّي موقف من النزاع يحتّم عليهم موآزرة «الكافر».

استيقظ الجميع فجأة ليروا أن ولاية الموصل هي جزءٌ لا يتجزّأ من العراق الجديد وأن عليهم واجب الدفاع عن هذا الكيان. دون أن يفكروا لحظةً واحدة بأن هذا الأقليم لم يكن في أي وقت من الأوقات جغرافياً، أم إثنوغرافياً، أم تاريخياً إلاّ جزءاً من إمبراطوريات واسعة الأرجاء، لا ينتمي بصلة خصوصية عرقية أو جغرافية أو أي صفة أخرى لأي جزء من بقية العراق أو تركيا، في حين كانت صلته بالجزء الشمالي من سورية - جغرافياً أو اقتصادياً على الأقل- أوثق بكثير.

والحقيقة المجردة هي أن الولاية كانت حصيلة صفقة بين عملاقين منتصرين في حرب لم ير لها العالم مثيلاً من قبل. ليس للعامل القومي ولا الكيان السياسي الموّحد ولا الآمال الوطنية ولا الطموحات التحررية محلّ فيها قلّ أم كثر. ومع هذه وَجَد هؤلاء الذين ذكرناهم أن واجبهم «القومي، أو الوطني» أو الديني عند الضرورة أن يناصروا الدولة الاستعمارية التي تريد استرقاق أهل البلاد واستغلال موارده الطبيعية لتزداد غنى. وفيما خلا الحكومة وأنصارها، أدرك حملة لواء المعارضة ودعاة الاستقلال إلى حدّ ما أن عليهم التخفيف قليلاً من الحملة لإسقاط الحكومة غير الوطنية، وإن كان ضمّ الجهود في المطالبة بالولاية مع السلطة البريطانية لا يتناقض مع مطلب الاستقلال ونبذ الانتداب. إلاّ أنهم وقعوا في ميدان التنسيق الجزئي مع البريطانيين في ثلاثة أخطاء كبيرة. وكانوا أسوأ تلامذة لأساتذة السياسة ومتقني فن المناورات الدبلوماسية. ولولا هذا التراث الذي تراكم لبناة الإمبراطورية واستخدامه بمنتهى الحذق والبراعة هنا لما خرجت لجنة التحقيق بالنتيجة التي خرجت بها.

لم يتعلّم الساسة القوميون العراقيون شيئاً طوال تلمذتهم وتعاملهم مع البريطانيين.

= جلالتكم ملكاً على العراق، كما يبلغكم تفصيله المندوب من قبل عموم العراقيين (كذا) الشيخ محمد رضا الشبيبي».

في مرحلة التعليم الابتدائي كنت أنقم كثيراً على معلم اللغة العربية الكفوء القدير لشعور مني بأنه لا يعطيني حقي بفهم كبير في درجتي العالية التي أستحقها في درس الإنشاء بسبب قصوري في النحو الصرف. مالبثت هذه النقمة أن تحولت بعد زمن إلى فرض وحافز لإكمال ما أحتاجه من هذا العلم. ثم مرت عقود كثيرة من السنين وجاءني هذا المعلم بالذات - وقد تقاعد - يطلب مني معلومات عن حياتي الفكرية وآثاري القلمية المطبوعة ليضمنها كتاباً عن الكتاب والمؤلفين العراقيين يقوم بتأليفه.

وبهذا الصدد لا يسعني هنا أن أهمل إثبات فقرة عظيمة الدلالة والصراحة لصاحب كتاب (يقظة العرب) قال:

«إن إسهام البريطانيين في بناء كيان العراق هو من أعظم وأجلّ أحداث البناء لما بعد الحرب. ويمكن القول بدون أي مبالغة إن دولة العراق الحديثة تدين بوجودها على الأغلب لمجهودات الموظفين البريطانيين. فقد هيّأت الأقدار للعراق فرصاً قيمة وحظوظاً سعيدة بموظفين بريطانيين ذوي كفاءات عالية وضمائر حيّة وتتعاظم خطورة ما أنجز في العراق عندما يعلم القارئ أن هذا البلد بسكانه القبليين الكثيرين وبطوائفه الدينية العديدة وقلّة حظه من خطوط المواصلات نسبة إلى مساحته الكبيرة، تصعب إدارته جداً على أسس الروتين البيروقراطي المركزي. كان من حظّ العراق أيضاً أن تتفق مصالح بريطانيا الخاصة مع مصالحه، وأن تتساير جنباً إلى جنب في أكثر الأحيان. فرغبة البريطانيين في وضع يدهم على حقول نفط ولاية الموصل نجم عنها ضمّ الولاية برمّتها إلى الدولة العربية الجديدة وصيرورتها إقليماً من أقاليمها، والفضل في هذا يعود إلى الدبلوماسية البريطانية، هذا فضلاً عن أنه أدّى إلى تعاون إنگلو- عراقي وثيق وفعّال بخصوص التصدي للمسألة الكردية»[٢٤].

لم يكن العروبيون وساسة بغداد ودعاة الاستقلال يدركون أهمية الأغلبية الكردية من سكان الولاية ولا مقدار تأثيرها على النتائج ولا بأنها صاحبة المصلحة الحقيقية في هذه القضية المصيرية. ولذلك لم يحاولوا قط وبأي درجة كانت توحيد جهودهم. ولم يخطر ببال أحد منهم ضرورة العمل في سبيل نيل الثقة، ومحاولة القضاء على الأثر

---

(٢٤) جورج أنطونيوس George Antonios: «يقظة العرب The Arab Awakening» ط لندن. ص٣٦٣-٣٦٧.

الذي خلفته في النفوس مشاركة وحدات الجيش العراقي الرمزية في القضاء على مقاومة حركة (الشيخ محمود ونظامه المحليّ)، فضلاً عن بقاء حامية منه في عاصمته السليمانية. لم يكن يدور في أوسع دائرة من خيالهم أن الوقفة التي سجلتها هذه المدينة كان فيها القول الفصل للنزاع.

الخطأ الآخر هو استمرار تجاهل الدور الذي يمكن أن تقوم به الأقليات المسيحية واليهودية الحضرية بمركزيها الكبيرين في عالم الاقتصاد والتجارة. فقد أهملتها الأغلبية المجاهدة ولم تُقم لعامليها وزناً بتلك العقلية المتعالية التركية التي كانت ترى فيهما كمية مهملة وتحرم عليهما ولوج باب النشاط السياسي.

الخطأ الثالث وفيه من الغفلة والصبيانية ما فيه هو أن كلاً من الحكومة التي دخلت الميدان مع الاستقلاليين والقوميين لم يدركوا مثلما أدرك البريطانيون بأن اللجنة كانت قد وطّنت النفس على أن لا تسمح لأي سلطة تمارس أي نفوذ فعلي في الولاية المتنازع عليها بأن تقيّد حريتها في العمل أو حريّة الوفد التركي المرافق. وقد كان لأعضاء اللجنة ملء الحقّ - وهم لا يملكون خبرة حقيقية في شؤون الشرق الأوسط[٢٥] أن يشكّوا كلّ الشك في اعتراض البريطانيين على عملية استفتاء. وكذلك أن يشككوا في الإجراءات الأمنية المتسمة بشيء من الخَرَق بدعوى على سلامتهم، ولم تكن مألوفة عندهم. فبدت وكأنها ترمي في الواقع إلى شلّ حركتهم وتقييد حريتهم في العمل والحيلولة بينهم وبين من ينبغي الإتصال به واستطلاع رأيه.

ربما كان لقلق الجهاز الحكومي ما يبرره من اضطراب في مجال الأمن لاسيما حرصها على حماية أفراد الوفد التركي. إلاّ أن اللجنة اعتبرت تلكم الإجراءات قرائن

---

(٢٥) مسؤولية اللجنة وصلاحياتها حددها قرار تشكيلها المتخذ في الجلسة الثلاثين لمجلس العصبة بتأريخ ٣٠ أيلول. (بعد الديباجة): «قرر تشكيل لجنة خاصّة تتألف من أعضاء ثلاثة مهمتها جمع الحقائق والمعلومات الضرورية لإنجاز المهمة التي أوكلت إليها. إن هذه اللجنة ستضع أمام المجلس كلّ المعلومات وكل المقترحات التي ستمهدّ لقرار. وأن تُولي التفهم الكامل للوثائق الميسورة وتقديم وجهات النظر التي يدلي بها الطرفان صاحبا العلاقة. سواء حول أسلوب العمل أو بخصوص معاملة المواد المتعلقة بالموضوع. وأن تنال كل التسهيلات وتحقق كل الاتصالات التي يرغب الطرفان في عرضها. ولها الحق في مباشرة تحقيقاتها عن موضوع النزاع وأن تنتفع في هذه الحالة بخدمات المستشارين الذين تعينهم الحكومتان صاحبتا الشأن وللجنة أن تختار طريقة عملها الخاص».

تؤيد شكّها في أن البريطانيين والإداريين العراقيين يقصدون منعها ومنع الوفد التركي من الوصول إلى مشاعر الأهلين الحقيقية. وقد تعزز هذا الشك بعمل قوميّ - وطنيّ قصدت منه الحكومة بالدرجة الأولى أن تبدو غير متخلفة عن المعارضة في «الذود عن حياض الوطن».

فقبيل موعد وصول اللجنة صدرت تعليمات في بغداد وعممت على الموصل وغيرها من المدن بتأليف ما عرف باسم (لجان الدفاع الوطني) تكون مهمتها إثارة المشاعر العروبية بالاجتماعات العامة، وتنظيم المسيرات والتظاهرات وإلقاء الخطب والقصائد وكتابة المقالات الحماسية وإرسال برقيات الاحتجاج والتأييد، إظهاراً لعزم المواطنين الراسخ على «الذود عن حمى بلاده المقدسّة حتى النَفَس الأخير».

في الموصل بصورة خاصّة كانت المدارس ومعلّموها مركز الثقل. وقد عزز النشاط العروبي فيها بدعاةٍ موصليين متحمسين أرسلتهم لجان الدفاع البغدادية. ولم يكن أعضاء اللجنة غافلين. إذ سرعان ما اكتشفوا عند مباشرتهم العمل أن تلك اللجان والمسيرات القومية تضمّ عدداً كبيراً من الانتهازيين الكثيري الحركة. وهو على حدّ وصف إدموندز:

«متوفرٌ جداً في الشرق الأوسط يؤجج نارهم كُره للأوروپيين بصورة عامة ويلهبه التعصب الديني. وقد يخطر ببالك أحياناً أن تسأل هذه العناصر المتحمسة سرّاً عن الجانب الذي يفضلونه شخصياً فتجد جوابهم أنهم لا يدافعون بهذه الضجة المفتعلة عن حق العراق، بل هم في الحقيقة يريدون تركيا».

وقد شاهد اثنان من أعضاء اللجنة معركة بالخناجر بين شاب قوميّ متحمس أرسلته لجان الدفاع من بغداد يدعى (إبراهيم كمال) وبين آخر من وجهاء الموصل العرب - وقد تولى هذا الشاب فيما بعد وزارة المالية، فأحسن عمله فيها ولو لم يخترمُ الموت مبكراً لوصل حتماً إلى رئاسة الوزراء[٢٦]. وكان الكونت تيليكي أكثر دقة في تصوير الحالة بمذكرة كتبها:

---

(٢٦) كُلف فعلاً بتشكيل وزارة تخلف حكومة جميل المدفعي بناءً على توصية وتأييد بريطاني في أيلول ١٩٤١. ففشل في تأليفها. وكان وقتذاك وزير مالية وفي وزارة العدلية وكالة. وقد وصفته التقارير البريطانية بـ«رجل دولة قدير وصبور». =

«في السابع والعشرين من كانون. . . المدينة صحبة السيدين (رودولو وشارير) وفيما أنا أهم بمغادرة الدار عرض عليّ الجنرال (جواد پاشا) الانضمام إلينا، وكان في قيافته العسكرية. فأسرعت في قبول عرضه لأني كنت متشوقاً إلى مراقبة الأثر الذي ستخلّفه بزته العسكرية في نفوس الأهالي. ماكدنا نبلغ الشارع العام، ولم تبدأ الشرطة في تعقيب خطواتنا بعد، حتى أحاط بالپاشا حوالي ثلاثين شخصاً اعتقد بأنهم من العرب، وراحوا يلثمون يديه ويطلقون هتافات «عاشت تركيا». وتزايد عدد الجمهور الذي كان يتأثر خطانا حتى بلغ مائتي شخص على أقل تقدير وتعالت الهتافات. وفيما نحن نجتاز الثكنات تدخّل عدد قليل من رجال الشرطة وحاولوا تفريق المتظاهرين. وعند بلوغنا السوق انضم إلينا ثلاثة من رجال الشرطة بينهم بريطاني، وكان الجمهور الذي يحيط بنا قد تضاعف عددهُ بالجمّ الغفير الذي انضم إليه من السوق. وأصبح (الپاشا) الكعبة التي يدور حولها الحجيج بالمزيد من الهتاف والمزيد من مظاهر العطف والتأييد والتعظيم. وبدا لي الجمع مؤلفاً من مختلف العناصر والطبقات. كان بعضهم بلا ريب من سراة المدينة ووجهاء القوم. وبدا لي آخرون من طبقة الشحاذين وكان منهما عدد كبيرٌ من الصغار والأحداث. . . واصلنا سيرنا متجهين إلى دائرة البلديّة وفي أثرنا جمهور يتزايد عدداً باطراد تجاهد الشرطة في السيطرة عليه، وعندما صرنا أمام (النادي الوطني العراقي) الذي يقابل دار البلدية، واجهنا تظاهرة مضادّة يتقدمها طلاب متوشحون بشريط تمثل ألوانه العلم العراقي وهم يهتفون بحياة الملك فيصل. وعدنا إلى مقرّنا والمتجهون يحيطون بنا والشرطة في أعقابنا»[27].

= ويذكر أنه ممن ورد إلى الموصل للمشاركة في النشاط الشعبيّ ضد الادعاء التركي أمام الصحافة الفكاهية النقدية (نوري ثابت) صاحب جريدة (حبزبوز) الشهيرة (١٨٩٧-١٩٣٨) التي أسسها في بغداد العام ١٩٣١. وتوفيت بوفاته. فقد كان شقيق زوج عبدالعزيز القصاب متصرف لواء الموصل في حينه، وربما ضمن ذلك له حصانة من الإبعاد الذي مارسه البريطانيون ضد الآخرين. وهو الذي لحّن بالمناسبة نشيد الشاعر إسماعيل فرج، الذي أوردنا مطلعه في أول هذا الفصل.

(٢٧) تقرير اللجنة، عصبة الأمم، ط جنيف ص١١. (النصّ الفرنسي)، و(شارير) هو موظف سويسري ملحق باللجنة.

وأهملت اللجنة كلّ البيانات التي كانت تصدر باسم (لجنة الدفاع الوطني). هذه المناشير الحماسيّة التي أحدثت كذلك ردّ فعل سيّئ معاكس للمراد بها، كتلك الجماعات التي كان ينظمها معلمو المدارس من طلابهم ويدفعون بها أرتالاً صغيرة لتحيط بالقصر الذي اتخذته اللجنة مقر عمل وإقامة، ليبادروا كل مندوب يخرج رأسه بمظاهرات من العواطف والشعارات القومية - الوطنية، وليلوّحوا بوجهه بالعلم العراقي.

كان أخوف ما يخافه البريطانيون بشهادة تقاريرهم المتوجسة المحمومة هو أن لا تصل اللجنة إلى نتيجة حاسمة للنزاع، فلا يكون أمامها إلاّ أن تقترح على مجلس العصبة إجراء استفتاء عام لمعرفة رغبة الأهالي وهو ما كان مطمح الترك كما مَرّ.

وبالفعل بقيت اللجنة تداعب فكرة الاستفتاء التجريبي - الذي يتمّ باختيار مناطق سكنية معينة من سائر الولاية وإجراء استفتاء بأخذ الأصوات. لكنهم وبعد أن درسوا الوضع خلال شهر من الزمن وبضعة أيام، وقابلوا عدداً من سراة المدينة وأعيانها، وأصبح لديهم فكرة واضحة عن التكوين السكاني، قررت اللجنة العدول عن الفكرة، وأثبتت ذلك في تقريرها هكذا:

«ترى اللجنة أن تؤكد هنا ثانيةً بأن أساليب تحقيقاتها ستستتبعها حتماً فورة عاطفية بين الأهالي، الذين كان وعيهم السياسي في أدنى مرحلة بدائية. كما كانوا قد تعرضوا لحملات دعائية مركزة. ومن أجل التعجيل في عمل اللجنة، بعد أن عوّقه تأخير لا مبرر له بسبب الحوادث التي أشرنا إليها سابقاً، اتفق على أن تتمّ التحقيقات في الأجزاء البعيدة من الأقليم المتنازع عليه في آن واحد (أي مع تحقيقات في المدينة)، وذلك بأن تتشعب اللجنة إلى خلايا فرعيّة. وكان هذا أمراً طبيعياً لا بديل له، بعد أن استجلينا أثناء الأعمال التمهيديّة في الموصل بأن أعضاء اللجنة الثلاثة هم على رأي واحدٍ في اتخاذ أسلوب إلقاء الأسئلة. وفضلاً عن هذا فكثيراً ما لاحظوا أن الشهود الذين أظهروا بعض تخوّف في أجوبتهم أمام اللجنة بكامل أعضائها عادت الثقة إليهم في جوّ حديث شخصيّ أقل رهبةً. كما وجد أنه أسلوب قد يكون أنفع وأجدى في إحباط أي عمل أهوج تلجأ إليه قوات الأمن. في الوقت الذي يتيح غياب اللجنة الفرصة لعودة الهدوء إلى المدينة».

في الثامن من شباط قرروا أن ينشعبوا إلى ثلاث هيئات فرعية تنطلق إلى أهداف لم

يكشفوا عنها، ثم تحولت هذه إلى أربع هيئات بعد اجتماع عقد بين المندوب السامي (سر هنري دوبس) الذي قدم بطائرة وبين سائر أعضاء اللجنة. وكذلك أن يبقى الرئيس والمراقبان في الموصل لمواصلة تحقيقاتهم في مناطق السهول(٢٨).

الموقف في ألوية أربيل والسليمانية الكردية كان يختلف تمام اختلاف عن الموقف في الموصل ولوائها. فهناك احتاطت الإدارة البريطانية من الأول فأناطت المسؤولية الإدارية - أحياناً بصورة شكلية - لرؤساء العشائر الكرد دون الموظفين العرب. وقد تبين أن هؤلاء أدركوا كما أدرك البريطانيون - خلافاً للعرب - أنه من العبث والسخف محاولة دعم القضية باعتماد أسلوب مشاورة السكان في مصيرهم. إذ لم يمرّ وقت طويل على إرغام الإدارة البريطانية الكرد الثائرين على رفع العلم العراقي، وإقناعهم بالمساهمة في انتخابات المجلس التأسيسي بعد رفض بات منهم الانضمام إلى الدولة الجديدة وسوق القطعات العسكرية لسحق ثورتهم واحتلال عاصمتهم. ولهذه الأسباب كما يقول الخبير البريطاني الملحق باللجنة:

«قررنا أن يكون العامل الاقتصادي الحجّة الفضلى التي سنلجأ إليها. وهو منطق سليم لا يمكن إغفاله أو دحضه ينظر إليه على ضوء ارتياح الأهالي من الإدارة الحالية التي يتولاها مواطنون بارزون يدعمهم نفوذ بريطانيا القوي. وكلّ هذا نقيضٌ للذكريات المتخلفة عن حقب من الحكم العثماني سيّئ الصيت».

فضلاً عن هذا وجدت الإدارة البريطانية كم ألحقت التظاهرات والمناشير والمذكرات العاطفية - كتلك التي أرسلها فيصل - من ضرر وكيف ستبقى تثير الشك في نفوس أعضاء اللجنة بأنها من بنات أفكار المستعمر «وبالاتفاق مع الحكومة المحلية

---

(٢٨) جرى العمل بهذا الشكل:
١- يتوجه (تليكي وكرامزر وناظم نفطچي) إلى أربيل ويلتحق بهم الميجر لاين مستشاراً.
٢- يتوجه (پاولس) مع (صبيح نشأت والرائد كامل بگ) إلى شمال كركوك.
٣- يتوجه (پورتاليه) إلى كفري وأنحائها بمرافقة (فتاح بگ) حيث يلتحق به مستشار بريطاني في الموقع.
٤- تجتمع اللجنة بكامل هيئتها في كركوك ثم تتوجه منها إلى السليمانية نظراً لأهميتها بوصفها مركز الحركة القومية الكردية. ومنها تعود أدراجها إلى الموصل، لمواصلة التحقيق في منطقة بهدينان الكردية.

التي استحدثها. هذا فضلاً عن أنها كانت دائماً عرضةً لتغلغل العناصر التركية المدسوسة. لذلك اتخذت الإدارة البريطانية بمعزل عن الحكومة قراراً حاسماً في كلّ أنحاء الولاية يهدف إلى إحباط التعليمات الصادرة من بغداد بوجوب تشكيل لجان الدفاع الوطني. وضربت حصاراً على الدعاة القوميين العرب المرسلين من بغداد. فكان يلقى القبض عليهم حال قدومهم وتتم إعادتهم من حيث جاؤوا.

بعد أن عدلت اللجنة عن القيام بأيّ شكل من أشكال الاستفتاء لجأت إلى أسلوب سماع الشهود، وفق قائمة يعدّها كلّ طرف بأسماء من يريد أن تسمعهم اللجنة تأييداً لدعواه. ويتم الاستجواب وفق أسئلة تمّ الإتفاق عليها: ماهي قومية الشاهد؟ دينه؟ مهنته؟ واسطة النقل التي يستخدمها؟ السوق التي يختلف إليها ليبيع ويشتري؟

وبعد أن يدلي الشاهد بأجوبته. يطلب عضو اللجنة من المراقبين والممثلين والخبراء الذين رافقوه أن ينسحبوا ليتركوه مختلياً بالشاهد وعندها يلقي عليه السؤال المركزي وهو بيت القصيد: «هل يفضل أن يكون خاضعاً للحكم التركي أم للحكم العراقي؟».

على أن لا يتضمن الجواب أكثر من إحدى الكلمتين: «تركيا» أو «العراق». وقد سُمي هذا السؤال المركزي بالسؤال الصغير la petite question على أسلوب التفكه والمزاح، ولم يكن بسيطاً وسخيفاً لمسألة جوهرية كما يبدو لأوّل وهلة. بل كان كافياً ليبني عليه المحقق رأياً عاماً حول ولاء العروبيين والقبليين العاطفي وهو عامل يصعب إغفاله.

إلاّ أن هذا «السؤال الصغير» لم يكن ليمنع أعضاء اللجنة من تمييز الشهود المتعلمين، أو أولئك الذين يجدون فيهم نباهة واستعداداً عقلياً، للتبسط معهم في إلقاء أسئلة أخرى حول الدواعي والأسباب التي تجعلهم يفضلون هذا الحكم على ذلك.

الأثر الأليم العميق الذي خلفته حالة السكان الاقتصادية والاجتماعية يتجلى في ما نقله (إدموندز) عن أحد أعضاء اللجنة عند القيام باستجواب. قال:

«صارحني (پاوليس) في تلك الليلة بما شاع في نفسه من ألم وشفقة مستفظعاً القذارة والحقارة والإملاق التي وجدها في تلك القرى. كما أذهلته درجة التأخر العقليّ عند الفلاحين، الذين لا يفضلون في رأيه عن أحطّ سكان الكونغو وأكثرهم بدائية. لذلك لا يسعه إلاّ الاستنتاج بأن اتبّاع هذا الأسلوب في استجواب الفلاحين عبثٌ في عبث ومضيعة للوقت. وإنه أدرك الآن صحة

موقفنا والوجاهة في رفضنا اقتراح الاستفتاء العام. ومع هذا فهو يرى الاستمرار في التحقيق حول رغبة الأهالي، إن لم يكن لشيء فلإقناع الحكومة التركية بأن اللجنة فعلت كلّ ما يمكن فعله».

* * *

كانت النسب في مدينة الموصل متأرجحة ومتساوية. وفي جنوب اللواء نفسه، حيث الميول التركية عند مسلميه كانت واضحة، انقلب الميزان فجأة عندما قام (فيرسن) باستطلاع رأي الأقليتين المسيحية واليهودية في المدينة نفسها[٢٩]. ويضيف التقرير:

«مبدئياً لا يمكن قطّ أن تخلو المدينة من تركيّ واحدٍ على الأقل وهي المدينة التي بقيت هذه المدة الطويلة تحت الحكم التركي، حيث كانت عوائل الموظفين الترك وضباطهم تسكنها وتستقرّ لتمتزج بسكانها. وفي ضواحيها هناك عدد لا يستهان به من قرى الترك والتركمان بل هناك بليدة تركية خالصة[٣٠]. وربما جاز لنا التنويه دعماً لهذا القول برأي لرحالة شهير كـ(أوليفيه) كوّنه عن الموصل عندما زارها في العام ١٨٠٩، وهو الزمن الذي لم يظهر فيه بعد أي أثر للمشكلة القومية، فهو يثبت أن سكان المدينة: (٧٠٠٠-٨٠٠٠) من المسيحيين الآشوريين وغيرهم. وألف نسمة لليهود،

---

(٢٩) فيما يلي التوزيع السكاني للولاية كما أورده تقرير العصبة بتقديرات الأطراف الثلاثة:
أرقام الترك في مؤتمر لوزان - أرقام وردت في تقارير الضباط السياسيين ١٩٢١ - آخر إحصاء عراقي ١٩٢٢-١٩٢٤.

كُرد	٢٦٣٨٣٠	٤٢٤٧٢٠	٤٩٤٠٠٧
عرب	٤٣٢١٠	١٨٥٧٦٣	١٦٦٩٤١
تُرك	١٤٦٩٦٠	٦٥٨٩٥	٣٨٦٥٢
نصارى ويهود	٣١٠٠٠	٦٢٢٢٥	٦١٣٣٦
يزيدية	١٨٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢٦٢٥٧

هذه الأرقام في الواقع أقرب إلى التقدير منها إلى الأحصاء الحقيقي. إلاّ أن اللجنة وجدت الأرقام العراقية التي قدمت على أنها أحصاء كانت أقرب من غيرها إلى الحقيقة. وردّت حجّة الترك في زعمهم أن سكان مدينة الموصل هم مناصفة بين الكرد والترك، إذ قالت ما نصه: «إن مدينة الموصل ذات طابع عربي بدون شك وهو انطباع شخصي مؤكد إلى آخر درجة».
(٣٠) المقصود هو بلدة تلعفر.

و٢٥٠٠ من العرب ومن الكرد بين ١٥٠٠٠ و١٦٠٠٠ ومن الترك (١٥٠٠٠ - ١٦٠٠٠) ويكون المجموع التقريبي في رأيه ٦٤٠٠٠[٣١] ولا نجد في أي وصفٍ آخر أورده رحالة متأخر إحصاءً كاملاً. ووجدنا في الموصل عدداً من الأشخاص ذوي أصل تركي يفهمون التركية. إلاّ أن تأكيد الحكومة التركية بأن كل فرد فيها يفهم هذه اللغة هو تأكيد بعيد عن الواقع. كان من المستحيل تقدير النسبة المئويّة لمختلف القوميّات في المدينة، حتى لو تمكنا من استبعاد كل التأثير السياسي، وتبديد جميع الشكوك. إن تقدير نسبةٍ لأصول السكان العرقيّة يزداد صعوبة في مدينة كالموصل يشيع فيها التزاوج بين القوميات. وحيث تسود الانتهازية ويكثر الاختلاط بشكل يفوق أي عملية اختلاط في البلاد الأخرى. وقد فضّل اليهود وغالبيّة المسيحيين في كلّ أنحاء الولاية حكومة عراقية تحت الانتداب البريطاني. وأظهرت التحقيقات منذ البداية أن لا وجود ثم لأيّ شعور وطني عراقي في الإقليم المنازع عليه، إلاّ عند فئة قليلة من العرب أوتيت حظّاً محدوداً من الثقافة. وهذا الشعور العربي بنفسه كانت تشوبه ميول شوفينية (وردت كذلك بالأصل) وروح تعصّب ضدّ الأجانب. ووجدنا عند الكرد وعياً قومياً متنامياً، شعوراً قومياً كردياً بأدق ما في هذه العبارة من معنى - لا يميل إلى العراق. إن الافتقار إلى شعور وطنيّ عراقي على أي مستوى متطور يفسر ذلك الجواب الذي أعطاه العدد الكبير من الشهود بعدم تفضيلهم البقاء في ظلّ حكم عراقي إلاّ بشروط. وكما سبق بيانه، وجدنا أشدّ القوميين العرب تعّصباً يفضل تركيا على عراق تحت الحماية الأجنبية. ومن ناحية أخرى قال عدد كبيرٌ من زعماء المسيحيين وسراتهم أن شكهم في حكومة تركيّة هو أقلّ من شكّهم في حكومة عراقية لا تخضع لوصاية أوروبيّة. ووجدنا الميول عينها عند اليزيديّة. وطلب كرد السليمانية حكماً ذاتياً محلياً ذا صلاحيّات واسعة بمساعدة مستشارين بريطانيين. وبالإجمال فإن الآراء التي فضّلت العراق إنما كانت مدفوعة

---

(٣١) في موضع آخر من التقرير يذكر وقت كتابته أن مجموع سكان مدينة الموصل ٩٦٢٥٠ منهم ٤٧٠٠٠ عربي و١٩٢٥٠ مسيحي و٤٠٠٠ يهودي والبقية وهم حوالي عشرين ألفاً تمثل قوميات أخرى عديدة أظهرها الكرد.

بمصلحة شخصية أو بمصلحة كتلة سكانيّة أكثر مما كانت بدافع قوميّ جامع»

* * *

في المؤتمر العثماني المنعقد باستنبول (١٩ أيار ١٩٤٢) الذي لم يسفر عن أيّ اتفاق وآل الأمر إلى تعيين لجنة الموصل. طرح المندوب البريطاني مسألة الآشوريين النازحين والمطرودين. وكانت الحكومة البريطانية في ٣ نيسان ١٩٢٤ قد أبلغت الحكومة العراقية باعتزامها في هذا المؤتمر طلب اقتطاع جزء من الأراضي التي كان يسكنها الآشوريون قبل الحرب وإلحاقه بالعراق. وشرحتْ في الوقت عينه الفوائد التي سيجنيها العراق من وجود شعب محارب على حدوده الشمالية تشده إلى العرب أواصر من الصداقة والتعاون والشعور بالمنّة. وسألت:

«هل إن حكومة بغداد مستعدة إذا ما تطلّب الأمر لتأمين مساحات من الأراضي المتروكة في المناطق الشمالية للآشوريين الذين لم يتم استقرارهم وبشروط حسنة؟ هل إن الحكومة العراقية مستعدة لمنح الآشوريين نوعاً من الاستقلال المحليّ الذي كانوا يتمتعون به في ظلّ الحكم التركي قبل الحرب؟».

في ٣٠ من نيسان ردت الحكومة العراقية على هذين السؤالين بالإيجاب. وشرح (كوكس) المسألة مدعمةً بقبول الحكومة العراقية اقتراحه هذا في اجتماعات المؤتمر بقوله:

«ما دامت المفاوضات في لوزان قد انقطعت فإن مشكلة واحدة تزايدت أهميتها في عين حكومة جلالته وأعني بها مستقبل الآشوريين باستثناء من كان إيرانيّ التابعيّة منهم. إن حكومة جلالته ترى وبأقوى دافع من الشعور بالمسؤولية أن قضية ضمان استقرارهم بشكل يحقق لهم أمانيهم القوميّة ومطالبهم المعقولة هي قضية واجبة، وحكومة جلالته لا يمكنها التغاضي عن ندائهم الحار بطلب استقرارهم في موطنهم السابق تحت الحماية البريطانية. وبالغ ما بلغ هذا الحلّ الصائب من أثر على العالم المسيحيّ كافةً فإن حكومة جلالته لا يسعها، ولأسباب مختلفة، التفكير في توسيع نطاق مسؤولياتها إلى هذا الحدّ الخطير، في الوقت الذي لا يمكن أن تبدي استعداداً لاستجابة كلّ مطالبهم. لذلك قررت حكومة جلالته أن تحاول في هذه المفاوضات تأمين حدود تحقق من جهةٍ مستلزمات معترف بها لمعاهدة حدود جيدة، كما تفسح المجال من جهة أخرى لاستقرار الآشوريين في بقعة واحدة داخلة في حدود

الأراضي التي ستتولى حكومة جلالته الانتداب عليها بإشراف عصبة الأمم. وإن لم يتسنّ استقرارهم في موطن أسلافهم فليكن ذلك في مناطق مجاورة على أية حال. إن هذه السياسة المنتواة لاستقرار الآشوريين تحظى بموافقة الحكومة العراقية الكامل وتعاونها. فهي من جهتها مستعدة لتقديم المساعدة الضرورية لتحقيق هذه الغاية»

فردّ عليه (فتحي بگ) المندوب التركي بقوله: «بعد أن أفصح فخامتكم عن الرغبة في مواصلة المفاوضات من النقطة التي تركها اللورد كرزن (في لوزان)، أراكم الآن تتحولون عن هذا الموقف لتثيروا مسألة جديدة، هي مسألة مستقبل الآشوريين، وتريدون ضماناً لهذا المستقبل إلحاق أراضٍ معينة يرفرف عليها الآن علم الجمهورية التركية بالأراضي التي وضعت تحت الحماية البريطانية. إن قلتُ إن مطلبكم هذا لا يسلمني إلى الدهشة فأنا أخالف الحقيقة. في لوزان أعرب رئيس الوفد البريطاني عن الرغبة التي تخالج حكومة جلالته في منح الحكم الذاتي للشعب الكردي. وفخامتك الآن تعرض مطالب الآشوريين. فلعلك تسمح لي بالإشارة على أية حال لما أنك لم تلحظ عندما بسطت هذه المطالب بأن الآشوريين هم أقليّة تكاد لا تذكر في ولاية الموصل؟ إن الآشوريين هم مسيحيون ولذلك لا يفوتني فهم الدافع الذي يحمل الحكومة البريطانية على إفرادهم بهذا الشكل الخاص من المعاملة».

ثم ردد قوله السابق بأن المواطنين في تركيا «يتمتعون بحقوق متساوية بغض النظر عن القومية والدين» وختم رده بالقول:

«إن النساطرة (الآشوريين) سيظلون يجدون في الأراضي التركية ذلك السلام وتلك الطمأنينة اللذين تمتعوا بهما قروناً عديدة شريطة ألا يكرروا الأخطاء التي وقعوا فيها بتحريض الأجنبي في مبدأ الحرب».

كانت هذه الأقوال المتبادلة من قبيل المناورات الكلاميّة التي يكثر ترديدها في ردهات المؤتمرات والجلسات، لا تعني كثيراً أو قليلاً في الواقع العملي. فالبريطانيون كانوا قد وافقوا مبدئياً وضمنياً على أن يكون القسم الأكبر من ولاية حكاري ضمن الحدود التركية. وما ذكر هنا فضلاً عن المذكرة ذات العلاقة المرفوعة إلى عصبة الأمم لم يكن يقصد البريطانيون بها أكثر من الدعاية لأنفسهم والظهور للآشوريين المشردين

بمظهر ذلك الذي بلغت أمانته وصدق نواياه الحدّ الذي لم ينسهم وهم في محنتهم. أما الجانب التركي فقد كان يكذب بصراحة نادرة المثال، إذ قام قبل بضعة أشهر (آب ١٩٢٣) بطرد البقية الباقية من آشوريي حكاري بقوة السلاح .

وتمادت بريطانيا في استغلال المحنة الآشورية بأمل مدّ الحدود العراقية فوق خطّ بروكسل في ١٤ آب ١٩٢٤ بمذكرة قدمتها إلى عصبة الأمم قبل تأليف لجنة الموصل. جاء فيها:

«قررّ الشعب الآشوري الصغير في أوّل أيام الحرب تبني قضية الحلفاء، رغم موقع وطنه المنعزل في قلب بلاد يسيطر عليها الحاكم التركي. وانتهز هذا الشعب الفرصة لقطع صلته بحكم أولئك الذين ذاقوا منهم صنوف الاضطهاد المتواصل عبر تأريخهم الغابر. فنكبوا بأعظم ما ينكب به شعب جراء قرارهم هذا، إذ طردوا من وطنهم وهلك منهم الألوف أثناء هجرتهم إلى العراق. ووفق الآشوريون هؤلاء في استقرار ما. فسكن بعضهم في الجزء الجنوبي من بلادهم الأصلية وساكن بعضهم كرد البلاد ومسيحييها المحليين جنوب وطنهم الأول مباشرةً.

إن الحكومة البريطانية تشعر بأقوى التزام ومسؤولية في ضمان استيطانهم تأكيداً وإنجازاً لمطالب شعبهم العادلة وتحقيقاً لأمانيهم ولطالما طالبوا بالاستقرار في سائر أوطانهم السابقة تحت الحماية البريطانية. وقد عجزت الحكومة البريطانية لأسباب مختلفة عن تحقيق كامل طموحهم. إلاّ أنها بذلت جهودها لتأمين حدود قد تحقق بعض هذه الأماني. وهي الآن تطلب من مجلس العصبة تثبيت تلك الحدود. إن مجلس العصبة حين يحقق متطلبات معاهدة حدودٍ جيدة يجب عليه في عين الوقت أن يسمح بإسكان الآشوريين كتلةً واحدة منضمّة على نفسها ضمن الحدود التي انتدبت الحكومة البريطانية لإدارتها تحت إشراف عصبة الأمم. وإن لم يتسن ذلك في أرض أجدادهم فلا بأس في أن يتم استيطانهم في مناطق مجاورة. إن رسم الخطّ إلى مسافة أبعد جنوباً سيثير ذعراً كبيراً عند الآشوريين ويضعهم أمام أمرين لا ثالث لهما، إما الهجرة الجماعية أو القتال حتى النفس الأخير دفاعاً عن حقوقهم، دعك من الأضرار الاقتصادية والستراتيجية لهذا الخط الجديد المقترح. فإن وَقَع هذا فسيكون السلام والأمن على طول هذا الجزء من الحدود في خبر كان».

عرفت لجنة الموصل كلّ هذا عندما تصدّت في تقريرها للمسألة الآشورية، فنظرت من المبدأ إلى طلب تمديد الحدود نظرة شك. وربما أدركت مناورة بريطانيا من اتخاذها القضية الآشورية قميص عثمان أي (طلب أكثر مما تريده فعلاً لتحصل على ما تريده). كانت حرارتهم في الدفاع عن حق الآشوريين إنما لإرغام الترك على قبول خطّ بروكسل حدوداً، أي إبقاء ولاية الموصل ضمن الحدود العراقية. هذا الشك بدا في الفقرة التي أثبتها تقرير اللجنة عن الآشوريين:

«إن اقتراح الحكومة البريطانية جمع الآشوريين في كتلة واحدةٍ منضمّة على الحدود التركية العراقية هو اقتراح يدعو إلى التساؤل عَمّا إذا كان ذلك ينسجم مع أمانيهم حقاً، أم أن هناك اعتبارات أخرى أملتهُ بغض النظر عن رغبات هذا الشعب الحقيقية. إن تجمعاً مصطنعاً للآشوريين على الحدود يحمل في طيّاته نية استخدامهم ضدّ الكرد، وتدفع به روح العداء لتركيا، لا يمكن أن ينتظر منه تحقيق تلك الغايات التي تأمل الحكومة البريطانية في الوصول إليها. ونعني بذلك إقامة عهد سلام وأمن دائمين في تلك الأنحاء وإنشاء علاقات حسن جوار بين تركيا والعراق وتوفير حياة مطمئنة للآشوريين. ونظراً إلى أن الحكومة البريطانية لم تثر قضية الوطن الآشوري داخل هذا النزاع الراهن إلاّ عند انعقاد مؤتمر إستنبول. وبما أنها لم تنوّه به في أثناء المفاوضات السابقة ولا جرى أي ذكر له في معاهدة لوزان. ولما كانت القضيّة الآشورية الحجة الرئيسية التي قدمتها الحكومة البريطانية دعماً لادعائها بحدودٍ تشمل جزءاً من ولاية حكاري، فإن اللجنة تعتبر ادعاء الحكومة البريطانية بخصوص المسألة الآشورية إدعاءً خارجاً عن الصدد».

بهذا قضي على آخر أمل للآشوريين في العودة إلى موطنهم.

* * *

في كركوك معقل الترك، كانت هناك أرجحيّة ضئيلة سُرّ بها البريطانيون كثيراً بحيث شعر إدموندز: «بأن أمورنا في كركوك وهي الحصن المنيع للنفوذ العثماني في الولاية قد سارت عموماً أفضل مما كنا نتوقعه بكثير. وقد أدرك مندوب اللجنة الآن ما ألمعنا إليه. وهو إنه إذا كان قسم من سكان المدينة أتراكاً فإن البدو العرب من عشائر العُبيد وغيرها التي استقرت في بالا وقره تبه يزيدون على عدد الترك».

لم تكترث اللجنة بالتحقيق في الجزء الجنوبي الغربي من الولاية، وهو جزءٌ

تتجول فيه قبائل عربية وتضرب فيه خيامها. لم تحاول الوصول إليهم أو القيام باستطلاع آرائهم موقعياً، وإنما اكتفت بإلقاء أسئلة على رؤساء من شمر والجحيش والجبور والحديديين وكانت الحظوظ متفاوتة والنسب متأرجحة، وقد قوبل الأمر منهم بعدم اكتراث، وبدا وكأن الأمر لا يهمهم في شيء. كانوا بصورة عامة ينقمون على الإدارة البريطانية للتدابير الحازمة التي اتخذتها ضدهم، فحدّت من نشاطهم السابق على الطرق. وكان أغلبهم يحنّ إلى العهد التركي الذي يتيح له قطع الطرق وتشليح القوافل والسابلة مباشرة وعمليات النهب بعضهم لبعض، لاسيما أولئك الذين زاولوا صناعتهم على طريق الموصل - بغداد.

وفي منطقة بادينان (الجزء الشمالي الشرقي) قررت اللجنة زيارة زاخو ودهوك على أن يطلبوا شهوداً من العماديه والزيبار[٣٢] وظهرت النتيجة في صالح البريطانيين كما جاء أيضاً في ألقوش والشيخان[٣٣].

إلاّ أن المعركة الفاصلة تمّ خوضها في المنطقة الكردية الوسطى والجنوبية من شرق الولاية. أعني لواء كركوك باستثناء المدينة ولواء السليمانية:

«لم يكن يساورنا أيّ ذرةٍ من شك في أننا نوشك الآن على خوض المعركة الفاصلة، بعد كلّ حربنا. فهاهنا إقليم ليس فيه أقلية عربيّة أو تركية مطلقاً.

---

(٣٢) يصف إدموندز يوم السبت في زاخو وهو اليوم الذي انتقلت فيه اللجنة إلى البلدة: «خرجت العائلات للنزهة على ضفاف النهر المعشوشبة الأثيثة، مسيحيّوهم ومسلموهم يختلطون بالعدد الأكبر من اليهود. الفتيات في أزهى ثيابهن وحليهن والشباب في أبهى حلل الچوخه والرانك المسيحية والمسلمة ذات الخطوط الملونة، وهي الثياب التي اشتهرت زاخو بحياكتها».

(٣٣) يذكر إدموندز في هذا: "خلافاً لما زعمه الترك بأن قضاء الشيخان تركي خالص فقد تأكد (تيليكي وپاولس) إنه يتألف من أغلبية ساحقة مسيحية وكُردية ويزيدية كرد، وبعض العرب. ووقع في نفسيهما وقعاً شديداً مشاهدة فصائل أنيقة اللباس من الكشافة المدرسية أخرجتها (القوش) لاستقبالهما كما أدهشتهم الروح العلميّة التي وجدوها عند رهبان الدير هناك حيث قضيا الليلة. وأخيراً غلبت عليهما العاطفة وجاشت لتلك الصراحة البريئة التي كان شهود البلدة يرجون فيها إبقاءهم ضمن العراق. ولم تكن النتائج حسنة في دهوك: "غصّ محلّ الاجتماع بشيوخ العشائر وأتباعهم من الفرسان المدججين بالسلاح. واندفعت منهم حشود كبيرة إلى حيث تجلس اللجنة بلا نظام على ظهور الخيل وكأنهم في غارة. ثم دنا عدد كبير من الأغوات ليترامو على (جواد پاشا) يستبقون إلى لثم يده. وشرع الجميع يتلو آيات مشهورة من القرآن بإمامة الشيخ النقشبندي المعروف. وكنا واثقين إن الجواب على (السؤال الصغير) سيكون في صالح الترك. أما وفد العماديه فقد صوّت معظمه لصالح العراق.

والكرد فيه كادوا يكونون في ثورة مستمرة ضدّ السلطتين البريطانية والعراقيّة طوال السنوات الخمس الماضية. وقائد الثورة النافذ الكلمة والمحترم بحسب الظاهر من الجميع كان على صلة دائمة بحكّام تركيا، طالما استنجد بهم وطلب العون منهم مؤكداً إخلاصه لهم. فلا عجب أن راح المندوب التركي يتوقع هنا نصراً ساحقاً».

وكتب (ڤيرسين) رئيس اللجنة عن النتيجة التي توصل إليها هنا:

«باستثناء لواء السليمانية لا توجد منطقة واحدة تتألف من عدة نواح إلاّ وكانت أغلبية نسبيّة فيها تصوّت لصالح أحد الطرفين، وهو ما لاحظناه. إلاّ أننا في لواء السليمانية وحده وجدنا أدق تعبير لوجهات النظر فكان فيه القول الفصل. الأشخاص الذين قابلناهم أعلنوا تفضيلهم للحكومة العراقية بتحفظاتٍ. إن لجنتنا اقتنعت بشكل لا مردّ له بأن الأهالي عبّروا عن رغباتهم تعبيراً حرّاً كاملاً. وقد وجدنا الشعور القومي الكردي الشعور الغلاّب المعقول وإن كان فتيّاً غض الإهاب. ومع أن القوم صرحوا برغبتهم النهائية الجازمة في الاستقلال التام الناجز، إلاّ أنهم أدركوا الفوائد من وصاية حريصة كيّسة واسعة الفكر. وما من شك في أن كفاءة الإداريين البريطانيين وأصالة القرارات التي يتخذونها في إدارة البلاد كان لها التأثير الكبير الشديد الوقع في اتجاه الأهالي».

كانت توصية اللجنة تثبيت خطّ بروكسل حدوداً نهائية دولية بين العراق وتركيا. أي دخول ولاية الموصل في الحوزة العراقية، إلاّ أنها قيدت ذلك بشرطين:

أولهما: أن تبقى الولاية تحت وصاية عصبة الأمم فترة حددتها بخمسة وعشرين عاماً.

وثانيهما: وجوب النزول عند رغبات الكرد، بتعيين موظفين منهم لإدارة بلادهم وتولي أمور القضاء والتدريس في محاكمها ومعاهدها. وأن تكون اللغة الكردية اللغة الرسمية في كلّ هذه الفروع من الإدارة.

وإلى جانب هذا وضعت اللجنة «توصيات» ثلاثاً خاصة: أولاها؛ ما يتعلق بإجراءات ضامنة لاستتباب الأمن الداخلي. وشرحت المقصود بهذا هكذا:

«إنه ومنذ إبرام معاهدة لوزان، بات ذوو المزاج السريع الإثارة المستعد للهياج وهم في قلق وشك من وضعهم في ظل العهد المقبل. وكان من الطبيعيّ أن

تترجم العواطف القومية عن مشاعرها بمظاهر عنفٍ إلى درجة ما. طبيعة الأهالي هذه صلحت أثناء وجود اللجنة وقيامها بتحقيقاتها على إذكاء نار الثورة في نفوس الأهالي التي كانت مرتعاً خصباً لدعايات الطرفين. ونجم عن ذلك قيام شيع وتكتلات وأحزاب قومية وعنصرية وطائفية يخاصم بعضها بعضاً، ونمت وتعاظمت لتشمل رقعة البلاد كلها. وقد أدّى هذا بكثير من الأهالي إلى الظنّ بأنهم سيكونون عرضةً للشبهات في أعين الدولة التي سيخضعون لها أياً كانت. لذلك يجب أن تعنى الدولة التي ستمارس السيادة على الأرض موضوع النزاع بتهدئة خواطر الأهالي وبأن يتخذ موظفوها موقف التسامح والإغضاء وأن تصدر عفواً شاملاً عما سبق من أعمال وتصرفات.
أما النقطة الثانية فتتعلق بحماية الأقليات غير المسلمة: بما أنّ الأقليم المتنازع عليه في كلتا الحالتين سيكون خاضعاً لسيادة دولة مسلمة، فإرضاءً لأماني الأقليات فيه، لاسيما المسيحيين وكذلك اليهود واليزيدية، من الضروري أن تتخذ تدابير لحمايتهم. ليس من نطاق صلاحياتنا وقابليّاتنا حصر كلّ الشروط التي يجب فرضها على الدولة ذات السيادة لضمان الحماية المنشودة. على أننا نشعر بواجبنا في الإشارة إلى وجوب تمتع الآشوريين بامتيازاتهم الأولى التي كانوا يتمتعون بها عمليّاً إن لم يكن رسمياً قبل الحرب. وعلى الدولة ذات السيادة أياً كانت أن تمنح هؤلاء الآشوريين قدراً معيّناً من الحكم الذاتي المحلي وأن تعترف بحقهم في تعيين موظفين، وتقنع من الضرائب والرسوم بما يُدفع منها عن طريق بطريركهم. ويجب أن يُضمن لكل المسيحيين الآخرين واليهود واليزيدية الحرية الدينية وحقهم في تأسيس مدارسهم الخاصّة. وفي حكم الواقع يجب أن يتمشى وضع الأقليّات وأوضاع البلاد الخصوصيّة. وعلى أية حال فنحن نعتقد بأن أي تدابير تتخذ لمصلحة الأقليات ستبقى بلا معنى أو تأثير إن لم يصاحبها إشراف موقعي فعّال. إشراف كهذا يمكن أن يناط بممثلين لعصبة الأمم».

وقد نصّت التوصية الثالثة على تأمين الدولة ذات السيادة الحرية المطلقة للتبادل التجاري مع البلاد المجاورة وتقديم كل التسهيلات في هذا الباب.

* * *

أنهت اللجنة أعمالها في ١٨ من أيار ١٩٢٥. وفي جنيف تفرغت إلى كتابة

تقريرها فأنجزته في ١٦ من تموز ووزعته على أعضاء المجلس والصحافة، إلاّ أن مناقشة التقرير لم تبدأ إلاّ في أيلول. وقد امتدت حتى ١٦ كانون الأول وفيه أصدر المجلس قراره[٣٤] بالإجماع (دون صوتي الفريقين المتنازعين).

بعد هذا لنا كلمة: ندر أن نجد في تأريخ الدبلوماسية العالمية والنزاعات الدولية قصة نزاع مصيري يتسّم بمثل هذا القدر من اللاأخلاقية السياسية كتلك التي تم بها حل

---

(٣٤) لا أستبعد قطّ أن المجلس كان، فضلاً عن قوة الحجج التي تضمنها التقرير، متأثراً بالأنباء المأساوية التي أذاعتها الصحافة الدولية عن الأساليب الدموية الوحشية التي استخدمتها حكومة تركيا الكمالية في قمع ثورتين كرديتين والاضطهاد الذي صبته الإجراءات التأديبية التي اتخذتها جراء ذلك ضد مسيحيي تلك المنطقة من الآشوريين والكلدان والسريان واليعاقبة فضلاً عن الكرد. إذ طُرد (١١٥٠) آشوريا وگويانياً إلى زاخو. وهُجّر (٨٠٠٠) آشوري إلى باشقلة ثم دفعوا إلى زاخو أيضاً - في أعقاب ثورة الشيخ سعيد پيران النقشبندي وثورة عبيدالله ابن عبدالقادر النهري. اندلعت أولاهما في أوائل آذار أثناء قيام لجنة الموصل بتحقيقاتها. وأطفئت في أواسط نيسان واللجنة في أدق مرحلة منها. في حين نشبت ثورة الشيخ عبيدالله في أواخر آب وشملت الثورتان منطقة حكاري. كان الأتراك قد حققوا في مؤتمر لوزان بالمعاهدة التي نجمت عنه نصراً دبلوماسياً عظيماً. فقد قُضي بها على معاهدة (سيڤر) وأبقت لهم مساحة تكاد تبلغ ثلث مساحة آسيا الصغرى، هي وطن الكرد والآشوريين وسائر المسيحيين. كما أمنّت لهم حيازة أقاليم أرمنية شمال شرق البلاد. وسمحت لهم بطمس كل أثر يوناني غرب البلاد.
صاحبت الثورتين الكرديتين محاكمات سريعة اقترنت بإعدام عدد كبير من الشيوخ والسراة وتهجير جماعي وتدمير مئات القرى فأعاد ذلك إلى الأذهان ما فعلوه بالأرمن. كانت إجراءات تأديبية مدروسة ذات نطاق واسع ترمي إلى القضاء على المقاومة الروحية الكُردية. وبلغ التوتر النفسي بالحكام الترك حداً أنهم سارعوا باتهام البريطانيين بتحريض الكرد على القيام بالثورتين من أجل الحصول على ولاية الموصل. حتى أن (مصطفى كمال) نفسه قام خطيباً في المجلس الوطني الكبير ليوجه هذا الاتهام بصراحة: «وما زاد في الأمر إساءة أن إنكلترا كانت وراء كلّ هذا (يقصد الثورة) كانت إنكلترا دائماً تستخدم الكرد لإيقاع الأذى بالترك. في الحرب العالمية أرسلت وكيليها (لورنس) و(نوئيل) لحضّ الكرد على الثورة وطعن تركيا من الخلف. وفي معاهدة (سيڤر) وعدت أن تجعل منهم دولة مستقّلة. وقد وجدنا وكلاءها هُنا هذه المرّة أيضاً. وهدفهم إثارة القبائل. إنكلترا أرادت الاحتفاظ بالموصل ونفطها. والكرد هم مفتاح الموصل ونفط العراق. وها هي ذي تكيل الضربة من الخلف لإرغام تركيا على التنازل عن (ولاية) الموصل». (أنظر أرمسترونگ H.C. Armstrong: الذئب الأغبر: دراسة حميمة لدكتاتور An Intimate Study of a Dictator ط لندن ١٩٣٢). مع كل الضجّة التي أحدثتها الصحافة التركية حول ضلوع إنكلترا في ثورتي الكرد عجزت الحكومة التركية عن تقديم أي دليل مقنع يؤيد زعم (مصطفى كمال).

مشكلة النزاع على ولاية الموصل. فبصرف النظر عن نتائجها المتوقعة ومنها حرمان أغلبيةٍ قومية حقها في تقرير المصير، ومنها القرار الواقعي الذي ختمت به. فما يستوقفني هنا تلك المفارقة المضحكة التي لا أودّ أن أحرم القارئ منها.

دخلت بريطانيا حلبة النزاع على الولاية ذات الأغلبيّة الكردية المسيحية وأقليّتها العربية - التركمانية طرفاً رئيساً، لأنها احتلتها عسكرياً لمدة تسع سنوات فقط - رغم زعمها بأن جيشها هو جيش تحرير لا جيش فتح. دخلت النزاع لأنها تريدها ضمن دائرة نفوذها. وتركيا، وهي الطرف الثاني الرئيس أرادتها لنفسها، لأنها اغتصبتها لمدة تزيد عن ثلاثة قرون. وحكام العراق الذين أرادوها، وكانوا طرفاً ثالثاً (من الباطن)، اعتبروها بحق أو بدون حق بمنزلة الرأس من الجسد للعراق الجديد الذي لم يكن موجوداً على خرائط العالم.

أما صاحب الحق الشرعي الوحيد في الأرض، ما فوقها وما تحتها، وهم أهالي الولاية، فقد بقوا خارج القاعة ينتظرون قرار الحكم في مصيرهم ومصير أراضيهم. فلو نحن قيّمنا الصفقة التي تمت بالأسعار السائدة في السوق التجارية على أساس عدد الرؤوس لوجدناها أرخص بكثير من تلك الصفقة السيئة الصيت التي تمت بين قضاة اليهود وبين يهوذا الإسخريوطي أحد التلامذة على بيع رأس المسيح.

والأنكى من ذلك كله إن ثمن الولاية دفع من وارداتها الخاصة للخاسر والرابح دفع سلفاً عداً ونقداً. لأن تركيا قبلت فيما بعد صرف نظرها عن كلّ ادعاء لها فيها لقاء مبلغ قدره نصف مليون پاون سترليني(٣٥).

---

(٣٥) هذا هو نص قرار عصبة الأمم: (بعد الديباجة).

أ- تكون الحدود بين العراق وتركيا على الصورة التالية (يعقب هذا وصف جغرافي مفصل للحدود، ويبدأ من الغرب حتى ينتهي بالحدود الإيرانية).

ب- يدعو المجلس الحكومة البريطانية إلى أن تعرض على العراق معاهدة جديدة تضمن امتداد الانتداب لمدة خمس وعشرين سنة. طبق ما ورد في معاهدة التحالف بين الدولتين تلك التي صادق عليها مجلس العصبة في ٢٧ من أيلول ١٩٢٤، إلاّ إذا قبل العراق عضواً في العصبة وفقاً للمادة الأولى من ميثاقها وقبل انتهاء مدة الخمس والعشرين سنة. فإن أبلغ المجلس إذذاك بأن قراره اكتسب الدرجة القطعيّة وعندها سيبيّن التدابير الواجب اتخاذها لتأمين رسم خط الحدود وتثبيته موقعياً.

ج- تدعى الحكومة البريطانية بصفتها الدولة المنتدبة إلى أن تعرض على المجلس التدابير التي ستتخذها لتضمن لكرد العراق تحقيق التعهدات المتعلقة بالحكم الذاتي (المحلي) الذي أوصت له لجنة التحقيق في باب توصياتها الأخيرة.

وبالإجمال فإنّ النزاع على الولاية الذي انتهى بإسقاط تركيا دعواها التي رفعتها إلى محكمة العدل الدولية، وبتصديق المعاهدة كما ورد ذكره، قد أحدث هزّةً عاطفية في نفوس السكان على مختلف قوميّاتهم وطوائفهم.

ويذكر إدموندز مثلاً: «إن زيارة اللجنة للسليمانية أشاعت زخماً شديداً في الشعور القومي الكردي، ذلك الشعور الذي جرف في طريقه عدداً كبيراً من المستائين الذين كان أكثرنا تفاؤلاً يتوقع أن يقفوا إلى جانب تركيا، فإذا بهذا الشعور القوميّ يدفعهم إلى المعسكر المعادي للترك. إن الاستجوابات الطويلة كاد كلّها وعلى السواء يكون ذا اتجاه قوميّ غلاب. إلاّ أنها لم تتخذ بصورة عامة طابع الانفصال. إن كرد السليمانية وجهوا ما يمكن نعتُه بالضربة القاضية في النزال الدائر حول المحافظة على كيان العراق. وكانوا على إدراك تام بما يفعلون. أترى ستفتح الحكومة العراقية عينيها بهذه المناسبة لتتبنى سياسة كريمة بعيدة النظر ازاء الكرد؟

إن تقرير العصبة أيدّ مطامح الكرد. فبعد أن أنقذوا العراق في لحظة من أخطر اللحظات التي مرّت به باتخاذهم جانب التصديق على المعاهدة العراقيّة - البريطانية في تلك الليلة التاريخية، ليلة العاشر من حزيران ١٩٢٤، عادوا لينقذوه من تجزئة قتّالة بوقفتهم هذه في السليمانية. إن لقادة الرأي العام الكردي ملء الحق في أن يختالوا على الملأ ويفخروا بأنفسهم ويُدِلّوا على دولة أبوا أن يكونوا فيها مواطنين أذلّة[٣٦]».

في هذا النزاع المصيري الكبير لم يقم تعاون سياسيّ بين الأغلبيّة والأقليات.

= د- تدعى الحكومة البريطانية بوصفها الدولة المنتدبة لتعمل بقدر الإمكان وفقاً للتوصيات الأخيرة التي وضعتها لجنة التحقيق في تقريرها بخصوص التدابير التي تضمن إحلال السلام وحماية جميع القوميات بصورة عادلة، وكذلك بخصوص التدابير المتعلقة بالتجارة المشار إليهما في توصيات اللجنة.

(٣٦) عرف إدموندز طوال خدمته في العراق بمواقفه الحدّية ضدّ الطموح القومي الكردي في العراق. إلاّ أنه لم يستطع أن يقلل من شأن الدور الكردي في ربح المعركة. وأنا أذكر مرة وفي أثناء تبادلي الحديث والرأي حوله مع الصديق الشيخ باباعلي ابن الشيخ محمود استعدنا بالذاكرة تلك الممارسة واللذة التي كانت تشيع في كتابته حول مشاركته في قمع ثورات الشيخ محمود وأخصها وصفه "المتعة" بإلقاء القنابل بالطائرات على مدينة السليمانية وإصراره على مرافقة الحملة الجويّة شخصيّاً. وما من شك في أن شهادة خصم واحد أفضل من شهادة ألف صديق.

القوميّون العرب وزعماؤهم في بغداد لم يحاولوا أي تفاهم مستقبلي مع القومية الكرديّة باسم وحدة المصير، ولا طلبوا تعاوناً مع الأقليات العنصرية والطائفية في تلك الولاية. فالحرس القديم العروبي الذي شارك في (الثورة العربية الكبرى) أيام الحرب، الذي تسلّم زمام الحكم والرّأي والتوجيه القومي في الدولة الجديدة، ظلّ كما كان أيام العهد العثماني يعتبر قلبيّاً وواقعياً تلك الأقليات كميّة مهملة لا حق لها في مساهمة مباشرة فعّالة في النشاط السياسيّ. وهم كالأغلبيّة العروبيّة - الإسلاميّة يأخذون على المسيحيين واليهود استئثارهم بأكثر وظائف الدولة والخدمة عند المحتلّ، وبنسبة تزيد زيادة مفرطة على نسبتهما إلى الأغلبيّة. بل غذّت الشعور العام بأن المحتلّ يحابي هؤلاء وهم على كُلّ إخوانه في الدين. ثم ارتكبت تلك الخطيئة العظمى، والجريمة التي لا يمكن اغتفارها، عندما عمد البريطانيون إلى خلق قوّة عسكريّة من هؤلاء المسيحيين. جيش زوّد بأحدث سلاح، وتلقى أفضل تدريب بلغ عدد جنوده في تلك الأيام ضعف عدد جنود الجيش العراقي المستحدث الذي أمكن تجنيدهم فيه. وماذا عن استخدامه ضدّ المسلمين وفي أرض كانت مركزاً للعالم الإسلامي الروحي والعلماني طوال خمسة قرون؟

واليهود؟ كيف لا يستمرّ في محاباتهم وهو الذي وعدهم بوطن في قلب البلاد الناطقة بالعربية والجزء الذي لا يتجزأ من الوطن العربي الكبير عند القوميين؟

وترجمت هذه المحاباة أيضاً بنظرة المساواة التي كان موظفو إدارة السيّد الجديد ينظر بها إلى الجميع. تلك هي خطيئة أيضاً فهي في نظر الأغلبية المسلمة العروبية أفضلية لم يكن يحلم هؤلاء بها في العهود السابقة ولو بجزءٍ منها. نظرة مساواة في الجزاء والعقاب والحقوق والواجبات والتفضيل على أساس الملكات العقلية والكفاءة لا على أساس الوساطة والجاه أو اعتبارات اجتماعية ودينية مما كان مألوفاً في السابق. كان هناك ومنذ زمن بعيد ظاهرة إقبال ومقدرة على تعلّم اللغات الأوروبية لدى أبناء هاتين الأقليتين مثلما كان أيضاً ظاهرة تقارب في طرق التفكير. وهو ما جعلهم مفيدين للمحتل لا للعراق وحده، بل لكل الحكومات المسيطرة في البلاد الناطقة بالعربية إثر الحرب العالميّة ولشركاتها وبيوتها المالية، التي لم تكن تدفعها مصالح سياسية في استخدام الموظفين. وقد أثر هذا على البناء الاجتماعي لتلك الأقليات بشكل ميّزها عن الصرح الاجتماعي العام وأثار في الوقت نفسه حقد شريحة من الأغلبية تزداد أهميتها باطراد. والأثر المباشر لهذا هو اتساع الهوّة بين الأغلبية والأقليات. لكن هذا الوضع

لم يدم كما ذكرتُ، إذ ما عتم المسلمون العروبيّون أن انطلقوا يبارون الآخرين في الإقبال على الدراسة والعلم والوقوع تحت تأثير المدنية الغربية وزالت الشكوك ظاهراً إلاّ أن آثارها بقيت في قرارة النفوس. غير أنهم لم يغدوا تلاميذ محبيّن لتلك المدنية كالأقليات القومية الطائفية الأخرى، بل كانوا بتأثير الزواج القومي - الديني يشعرون بتوجس وخوف منها قد يبلغ حَدّ التقزز. هناك من الدعاة القوميين من كره المدنية الغربية لأنها مدنية مسيحية الطابع. ولأنها تهدد بتفتيت عالمهم القديم الذي يريدون المحافظة عليه بكل وسيلة ممكنة. وهناك من لا يكره المدنية الغربية كرهاً تاماً، بل هم يقرون بعناصر طيّبة في بعض القيم الغربية وبضرورة قبولها، لكنهم يرغبون في الوقت نفسه أن يحافظوا على القيم الثابتة في الإسلام وفي التقاليد والقيم العربية. وعندهم إن المشكلة هي «عصرية الإسلام» وهذا من شأنه أن يثير مشكلة خطيرة - مشكلة العلاقة بين المسيحية والإسلام، وكم يمكن أن يكون المسيحي عربياً.

وهناك فريق ثالث من القوميين الراغب في قبول ذلك الجزء من القيم الغربيّة العلمانية الليبرالية والعلمية مصحوبة بالتسامح الديني، أو حتى بإسقاط المعادلة الدينية إسقاطاً كاملاً، يرغبون في الابتعاد عن الإسلام إلا بمعيار شكلي فحسب. ويهدفون إلى بناء مدنية غربية علمانية في العالم الناطق بالعربية.

وعلى أية حال فالشعور العام عند الأقوام غير العربية والطوائف غير المسلمة خلال العقود الثلاثة الأول من هذا القرن في العراق (وربمّا في البلاد الأخرى الناطقة بالعربية وبدرجات متفاوتة دون شك) بأن القوى الشعبية التي ساندت الحركات القومية أو الوطنية ذات الطابع القومي بقيت بالشكل الذي ألفته قبل الحرب العالمية، ولم تحدْ كثيراً أو تتقدم عن مراحلها الأولى أي هي أسلامية قدر ما هي عروبية. وهم يعتبرون الإسلام أهم جزء من التراث العربي وأقوى عامل في التقاليد العربية وحفظها عبر القرون. وإذ هم لا يتعدون الحقيقة في هذا، إلاّ أن مقالاتهم أحدثت ردة الفعل الطبيعي في الأقليات الأخرى، وراح كلّ منها يبحث عن هويته وتراثه القومي وفي أغلبها عنصر ديني لا يمكن فصله. كان الآشوريون يتحدثون عن إمبراطوريتهم التاريخية بعين الحماسة التي يتحدثون عن صمود كنيستهم البطولي أمام اضطهاد مزدوج. والكرد الذين يعتبرون - وبشهادة كثير من الأجانب والباحثين - أكثر الشعوب الإسلامية تسامحاً - راحوا يتحدثون عن أصولهم الميدية بعين الحماسة التي يتحدثون بها عن دينهم الزردشتي القديم.

وكان بين العروبيين المثقفين والمتعلمين من يهتّم اهتماماً جدياً بفصل الدين عن السياسة والمجاهرة بالمساواة بين كل العقائد الدينية في المجتمعات الناطقة بالعربية. هذا الاتجاه العلماني بدا وكأنه محصلة اللامبالاة المتنامية بأمور الدين ورسومه من جهة واحدة، وبدا من جهة أخرى نتيجة الشعور بأن الفرقة الداخلية، التي كان للمذاهب الإسلامية يد فيها لا تنكر، قد أضعفت الأمة العربية، وأن بإمكان أعداء هذه الأمة أن يستخدموها لإبقاء تلك الأمة خاضعةً لهم. وبأكثر من هذا إيجابيّة، يمكن أن يُرد إلى الشعور المتزايد بفخامة التراث العربي الثقافي والفخر به، فضلاً عن تسرّب أفكار الغرب حول الديمقراطية الليبرالية القادمة عبر القاهرة وبيروت من لندن وباريس.

في العشرينات من هذا القرن وجدنا تلك الطبقة القومية العربية المثقفة التي نهضت بأعباء إيقاظ الوعي العربي، وجلّ قادتها من مسيحيي سورية ولبنان، تضمحل تماماً دون أن تترك خَلَفاً ينشأ عنها وبديلاً عنها حركات قومية إثنيّة عربية ذات طابع محليّ. فكان هناك اللبنانيون الذين ينادون بالقومية اللبنانية والسوريون الذين ينادون بالقومية السورية، على غرار شعور مصر بالقومية المصرية، أو الفرعونية كما دعاها بعضهم.

فكما كان التطور السياسي المصري مختلفاً عن ذلك التطور الذي حصل في بقية البلاد الناطقة بالعربية، كذلك كانت حركة مصر القومية. في مصر لم ينم للقوميّة العربيّة جذرٌ مهما صغر فالحركة الشعبية فيها كانت تتجه نحو أمة مصرية منفصلة ودولة مصرية كسبت أهمية بحركة (عرابي) وتجسمت ووضحت خطوطها بفضل (مصطفى كامل)، وأخيراً عبرت عن نفسها سياسياً في حركة الوفد بقيادة (سعد زغلول). وكالحركة القومية العربية بدت بوجهين الظاهر منهما بوجه حركة علمانية ربطت القبط بالمسلمين متأثرة على الأغلب بالليبرالية الفرنسية. ولم يكن هذا الارتباط اعتباطاً، إذ ليس من ينكر على القبط فخرهم الحقيقي بأنهم سلالة نقيّة لسكان وادي النيل القدماء وأنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع المصري. مثلما لم يكن بإمكان أحد أن ينكر على الكرد عموماً وفي العراق خصوصاً أصولهم العرقية وبكونهم سلالة نقية لسكان الجبال القدماء. والقول نفسه يصدق على مسيحيي العراق عموماً وآشورييهم خصوصاً، فهؤلاء أيضاً تأثروا بالليبرالية الديمقراطية البريطانية بدورهم. وهنا وكما في سورية ولبنان لا ينكر تأثير البعثات التبشيرية في محاولتها إخراج هذه الأقليات من عزلتها وانتشالها من مصيدة التأخر الفكري، ومن ثم إيقاظ المشاعر القومية عن طريق تلقين التاريخ الديني الخاص الذي لا يمكن فصله عن تاريخها السياسي والتاريخ العام للمنطقة. وإذا كان

الكرد قد أفادوا بعض الشيء من هذا بحكم التوزيع السكاني، فإنهم أفادوا بالدرجة الأولى من كتابهم وشعرائهم ومن طبقة جديدة ظهرت بعد إعلان الدستور العثماني تتألف من الموظفين والضباط الذين قدر لهم أن ينالوا تثقيفاً كافياً يدفعهم إلى البحث عن هويتهم القومية. وبالمستوى عينه كان تأثير الحركة الكمالية الانقلابية عميقاً على تركمان العراق لاسيما بعد نجاحها في خلق وطن قومي.

هذا الوعي القومي للأقليّات كان بعض مردّه أيضاً إلى التحدي القومي العربي وقد بدأ عند الجميع في هذه المرحلة غضاً فتيّاً، عندما حاول البريطانيون خلق عراق سياسيّ - اجتماعي موحد تجمعه المصالح الاقتصاديّة والمصير السياسي. وعلاقات نشأ بعضها عن مصاهرة، أو مساكنة أو جوار.

وقدّر لهذه المحاولة أن تعاني درجات من الإخفاق يعود أغلبها إلى النهج الذي رسمته قومية الأغلبيّة لنفسها. وهو نهج بدأ من أوّله بعيداً عن المفاهيم الليبراليّة القومية للقرن التاسع عشر كما بينا في فصول سابقة. وقد ختمت المرحلة الأولى من المسيرة القومية الخاطئة في العراق كما رأينا بفاجعة آب ١٩٣٣ الوطنية. وهي المرحلة التي ستكون من مقومات الفصل التالي(٣٧).

---

(٣٧) بودّي أن أحبّذ للقارئ المتتبع مراجعة الكتاب الوحيد الذي صدر حول النزاع الدولي على الولاية لمؤلفه الدكتور فاضل حسين (مشكلة الموصل) وقد طبع أكثر من مرة. فأنا لم أحاول قط الرجوع إليه عند كتابتي هذا الفصل. ولا أشك في أن قارئه سيجد تبايناً كبيراً، فكتاب الدكتور هو على كلّ (أطروحة) أعدّت أصلاً لنيل درجة عملية وإعداد مثل هذه البحوث الجامعية له أسلوب خاص يختلف عن التأليف.

ملحق

[نصوص معاهدة لوزان الخاصة بتسويات الأقاليم العثمانية والشرق الأوسط ووضع الأقليات] بين دول الحلفاء وتركيا

تم التوقيع عليها في ٢٤ من تموز ١٩٢٣.

الحلفاء: بريطانيا. فرنسا. إيطاليا. اليابان. اليونان. رومانيا. دولة صربيا - كرواتيا - سلوڤينيا. اتحدت رغبتها في وضع نهاية لحالة الحرب التي حصلت في الشرق منذ العام ١٩١٤ وباهتمام منها في إعادة إقامة علاقات صداقة وتجارة لضمان رفاهية لشعوبها. وباعتبار أن هذه العلاقات يجب أن تُبنى على احترام استقلال وسيادة الدول. قررت عقد معاهدة لهذه الغاية ونصبت المندوبين التالين لهذا الغرض:

عن بريطانيا: سر هوارس جورج مونتيگو رمبولد. (المندوب السامي في القسطنطينة)

عن فرنسا: الجنرال موريس پلليه سفير فرنسا (المندوب السامي في الشرق).

عن إيطاليا: المركيز كاميلو مكاروني (المندوب السامي في القسطنطينة). السيد كويليو چيزاري المندوب فوق العادة والوزير المفوض في أثينا.

عن اليابان: السيد كنتارو أوتشيائي. السفير فوق العادة في إيطاليا.

عن اليونان: السيد الفتيريوس. ك. ڤينزيلوس رئيس وزراء سابق. السيد ديمتريوس كاكلامانوس الوزير المفوض في لندن.

عن رومانيا: السيد قسطنطين. ي. دياماندي الوزير المفوض والسيد قسطنطين كونتسزكو الوزير المفوض.

عن مملكة الصرب - الكروات - السلوڤينيين: الدكتور ميلونتين يوڤافوڤتش الموفد فوق العادة والوزير المفوض في سويسرا.

وعن حكومة المجلس الوطني الكبير التركي: عصمت پاشا وزير الشؤون الخارجية. نائب أدريانوپول. ودكتور رضا نور بك وزير الصحة والمساعدة الشعبية، نائب سينوپ. وإحسان بك. وزير سابق. نائب طرابزون. المطلقو الصلاحية الذين وافقوا على الآتي:

(الفصل) القسم الأوّل: (الحدود)

المادة الأولى: ابتداءً بوضع المعاهدة موضع تطبيق تسود حالة سلم وطيد بين (بريطانيا. فرنسا. إيطاليا. اليابان. اليونان. رومانيا. صربيا - كرواتيا - سلوفينيا) من طرفٍ، وبين تركيا من طرف آخر. وكذلك ستعاد من قبل الجانبين بين شعوبهما العلاقات الرسمية وفي بلادهما سيتم تبادل الممثلين الدبلوماسيين والقنصليين بدون الإخلال بأية اتفاقات قد تعقد في المستقبل، ويكون التعامل بحسب القواعد العامة للقانون الدولي.

المادة الثالثة: من البحر الأبيض المتوسط إلى الحدود الإيرانية. ستكون الحدود التركية بالشكل التالي:

١- مع سورية: ستكون الحدود كما وصفت في المادة الثامنة من المعاهدة الفرنسية - التركية المعقودة في ٢٠ تشرين الأول ١٩٢١.

٢- مع العراق: الحدود بين تركيا والعراق سيتمّ تحديدها باتفاق ودّي يجري بين تركيا وبريطانيا العظمى خلال تسعة أشهر، وفي حالة عدم التوصل إلى اتفاق خلال المدة المذكورة بين الحكومتين فسيرفع النزاع إلى المجلس عصبة الأمم وتتعهد الحكومتان البريطانية والتركية كل من جانبها، انتظاراً لقرار حول موضوع الحدود، بألاّ تقوما بحركة عسكرية أو أية حركة أخرى من شأنها إجراء تعديل في الوضع الحالي للحدود بأي شكل من الأشكال، إلى أن يتقرر مصيرها النهائي على أساس ذلك القرار.

(الفصل) القسم الثاني: القومية (الجنسية) (المواطنة)

المادة الثلاثون: الرعايا الأتراك الذين يسكنون في تلك البلاد التي سُلخت عن تركيا بحكم هذه المعاهدة سيكونون فعلاً وبحكم الواقع رعايا الدولة التي ألحقت بها تلك البلاد وبموجب قيودٍ تحكمها قوانين محليّة.

المادة الحادية والثلاثون: الأشخاص الذين تزيد أسنانهم عن الثامنة عشرة الفاقدون جنسيتهم التركيّة والمكتسبون بحكم الواقع جنسية أخرى كما جاء في المادة الثلاثين - يحق لهم خلال فترة سنتين تبتدئ من تنفيذ هذه المعاهدة أن يطلبوا الجنسية التركية لأنفسهم.

المادة الثانية والثلاثون: الأشخاص الذين يسكنون اعتيادياً في الأراضي المنسلخة عن تركيا بموجب هذه المعاهدة، ويختلفون قومياً عن أغلبية سكان تلك الأراضي، يحق لهم خلال فترة سنتين تبتدئ من تنفيذ هذه المعاهدة - أن يختاروا لأنفسهم جنسية

من جنسيات إحدى الدول التي تتكون غالبية سكانها من نفس القومية التي يمارس فيها الشخص حقه في الاختيار، بشرط قبول تلك الدولة.

المادة الثالثة والثلاثون: على الأشخاص الذين مارسوا حق الخيار المنصوص عليه في المادتين ٣١ و٣٢ أن ينقلوا محل إقامتهم إلى أراضي تلك الدولة التي وقع اختياره على جنسيتها خلال الاثني عشر شهراً التالية للخيار. وسيكون من حقّهم أن يحتفظوا بممتلكاتهم غير المنقولة في الدولة الأخرى التي كانت محلّ سكناهم قبل ممارستهم حق الخيار. كما سيكون من حقهم أن ينقلوا ممتلكاتهم المنقولة من أي نوع كان، ولا تستوفى منهم رسوم استيراد وتصدير أثناء انتقالهم بحوائجهم هذه.

المادة الرابعة والثلاثون: تمشياً مع أيّ اتفاق تدعو الضرورات إلى عقده بين حكومات البلاد التي يسكن فيها الأشخاص المعنيون هنا، فللمواطنين الأتراك الذين تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة والذين هم من رعايا البلاد المنسلخة عن تركيا بموجب هذه المعاهدة - ممن كان يسكن عادة في الخارج عند تنفيذها - الحقّ في أن يختاروا جنسية البلاد التي هم رعايا لها في حالة انتمائهم قومياً إلى أغلبية سكان تلك البلاد، مشروطاً بقبول الحكومة التي تمارس سلطة فعلية فيها. إن حق الخيار هذا يجب أن يُمارس خلال سنتين اثنتين إبتداءً من وضع هذه المعاهدة موضع تنفيذ.

المادة الخامسة والثلاثون: تتعهد الأطراف المتعاقدة بألاّ تضع أية عقبة في سبيل ممارسة الحق الذي قررته هذه المعاهدة أو أية معاهدة أخرى من معاهدات أخرى من معاهدات الصلح التي تعقد مع ألمانيا أو النمسا أو بلغاريا أو هنغاريا، أو أية معاهدة تعقدها هذه الدول غير تركيا، أو أية معاهدة تعقدها واحدة من تلك الدول مع روسيا أو فيما بينها. وكذلك عند اختيار أي جنسية أخرى متيسرة.

المادة السادسة والثلاثون: تيسيراً لتطبيق مواد هذه القسم من المعاهدة، ستكون جنسية المرأة المتزوجة تابعة لجنسية زوجها. وجنسيّة الأولاد دون الثامنة عشر تابعة لجنسيّة الأبوين.

القسم الثالث - حماية الأقليات

المادة السابعة والثلاثون: تتعهد تركيا بأن تعتبر الشروط الواردة في المواد ٣٨-٤٤ قانوناً أساسياً (دستوراً). وأن لا يتداخل أو يتعارض معها أي قانون أو نظام أو إجراء رسمي وأن لا يبطله أي قانون أو إجراء رسمي.

المادة الثامنة والثلاثون: تتعهد الحكومة التركية أن تؤمن الحماية التامة الكاملة،

لحياة وحرية سكان تركيا كافةً دون تمييز في العرق أو القومية أو الجنس، أو اللغة أو الدين. لكل سكان تركيا الحق في الممارسة المطلقة لكل عقيدةٍ أو نحلة أو دين - في السرّ أو في العلن، ممارسةً لا تتعارض مع النظام العام والآداب. وتتمتع الأقليات غير المسلمة بحرية تامة في الانتقال والهجرة خاضعة للإجراءات المطبقة في كلّ البلاد، أو في جزء فيها وعلى جميع الرعايا الأتراك. كما ترسمها الحكومة التركية وفق مقتضيات الدفاع الوطني أو توخياً للمحافظة على النظام العام.

المادة التاسعة والثلاثون: يتمتع الرعايا الأتراك من الأقليات غير المسلمة بعين الحقوق السياسية والمدنية التي يتمتع بها المسلمون. سكان تركيا كافةً وبدون تمييز بسبب الدين هم سواسية أمام القانون. إن الاختلاف في الدين والعقيدة أو المذهب لا يقوم حائلاً دون تمتع أي مواطن تركيّ بالحقوق المدنيّة والسياسية كالتعيين في الوظائف الحكومية أو المعاملة أو التكريم، أو ممارسة المهن والصناعات. لا يوضع أي قيد على حرية أيّ مواطن تركيّ في استعمال أي لغة يفضلها في علاقاته الخصوصية وفي عالم التجارة ومجال الدين والصحافة أو في نشر أي نوع من المطبوع، أو في أي اجتماع عمومي. وبصرف النظر عن واقع وجود اللغة الرسمية، يجب أن تعطى التسهيلات الكافية التي تعين أولئك المواطنين الترك الذين يستخدمون لغة غير تركية على استعمال لغتهم الأم الخاصة بهم أمام المحاكم.

المادة الأربعون: يتمتع المواطنون الأتراك من الأقليات غير المسلمة بعين المعاملة والأمن والحماية وفقاً لأحكام القانون وبالتطبيق العملي، كتلك التي يتمتع بها سائر المواطنين الأتراك الآخرين. وسيكون لهم - على الخصوص - حق مساو في تأسيس وإدارة وإشراف على أيّ معهد خيري أو مؤسسة دينية أو اجتماعية وأي من المدارس وما إليها من المؤسسات الثقافية والتعليمية على نفقتها الخاصّة. مع حقها في استخدام لغاتها وممارستها شعائرها الدينية فيها بحريّة تامة.

المادة الحادية والأربعون: بخصوص الخدمات العامة، تضمن الحكومة التركية لتلك المدن والمناطق التي يسكن فيها نسبة كبيرة من الأقليات غير المسلمة التسهيلات الكافية لتأمين جعل التعليم في المدارس الابتدائية لأمثال هؤلاء المواطنين الأتراك بوساطة لغتهم إلزاميّة في تلك المدارس. في المدن والمناطق التي تتواجد فيها نسبة كبيرة من المواطنين الأتراك للأقليات غير المسلمة، يجب أن يضمن لها حصة مساوية في المنح والإعانات المالية تخصص لها في الاعتمادات المالية العامة الحكومية والبلدية

أو غيرها من الميزانيات للأغراض الدينية والتعليمية والخيرية. تدفع هذه المبالغ المنوّه بها إلى الممثلين الرسميين المعتمدين لتلك المؤسسات والمعاهد ذات الشأن.

المادة الثانية والأربعون: تتعهد الحكومة التركية باتخاذ التدابير الضرورية للأقليات غير المسلمة بصدد قوانين الأسرة والأحوال الشخصية تستقيم مع عادات وتقاليد تلك الأقليات. سيتمّ تفصيل وتحديد هذه التدابير عن طريق لجان خاصة مؤلفة من عدد متساو لممثلين عن الحكومة التركية ومجلس عصبة الأمم بتعيين (حَكَم) يتم اختياره من بين رجال القانون الأوروپيين. تتعهد الحكومة التركية بضمان حماية كاملة للبيع والكنائس والمقابر وغيرها من المؤسسات الدينية الخاصة بالأقليات كما ورد ذكره آنفاً. وكذلك تضمن تأمين كلّ التسهيلات والصلاحيات لتلك المؤسسات والمعاهد الدينية والجمعيات الخيرية المتواجدة حالياً في تركيا. وعلى الحكومة التركية أن لا ترفض تقديم أي تسهيلات ضرورية مما ضمن للمؤسسات الأخرى في حالة استحداث أي من المعاهد الدينية والخيرية المشابهة.

المادة الثالثة والأربعون: لا يرغم الرعايا الأتراكُ من الأقليات غير المسلمة على إتيان أيّ عمل من شأنه أن يكون انتهاكاً لشعائرهم الدينية، ومخالفاً لعقائدهم. ولن يعرضوا إلى تضييق بسبب امتناعهم عن الحضور في مجلس قضاء أو ممارسة أي عمل قضائي يوم راحتهم الأسبوعية. إن هذا الشرط على أية حال لا يعفي المواطنين الأتراك المذكورين من الواجبات التي تفرض على الرعايا الأتراك الآخرين لغرض المحافظة على النظام العام.

المادة الرابعة والأربعون: بقدر ما يتعلق الأمر بالمواد التي سلفت في هذا القسم المتعلق بالأقليات غير المسلمة في تركيا توافق تركيا على أن تعتبر هذه الشروط بمثابة تعهدات ذات طابع دوليّ وستكون بضمانة عصبة الأمم. فلا يجرى أي تعديل عليها بدون موافقة الأغلبيّة من أعضاء مجلس العصبة وتوافق بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا واليابان على منح موافقتها على أي تعديل يجري في هذه المواد عندما تتم الموافقة على صيغتها المعدّلة من قبل أغلبية أعضاء مجلس عصبة الأمم. وتوافق تركيا على أن يكون لأي عضو في مجلس عصبة الأمم الحقّ في إعلام المجلس بحصول أي خرق أو خطر حصول أي خرق لأي من هذه التعهدات. وعلى المجلس في هذه الحالة أن يتخذ إجراءً أو يصدر القرارات التي يراها مناسبة وفعّالة كما تمليه الظروف. وتوافق تركيا كذلك أن يكون أي خلاف في الرأي من الناحية القانونية أو الواقعية حول تطبيق هذه

الشروط، يحصل بين الحكومة التركية وبين أي دولة أخرى من الدول الموقعة العضوة في مجلس العصبة، يكون بمثابة نزاع ذي صفة دوليّة مشمول بحكم المادة (١٤) من ميثاق عصبة الأمم. وعلى هذا الأساس توافق الحكومة التركية على أن يحال الموضوع عند طلب أي طرف آخر إلى محكمة العدل الدولية الدائمة. إن قرار محكمة العدل سيكون نهائياً. وله نفس القوة والأثر بحكم المادة (١٣) من الميثاق.

* * *

تعليق

يكاد يجمع المؤرخون وخبراء القانون الدولي والباحثون في السياسة على أن معاهدة لوزان تُعدّ نصراً كاملاً لدولة مغلوبة في حرب عالمية. بمقارنة هذه المعاهدة مع معاهدات الصلح التي عقدها الحلفاء المنتصرون مع الدول الأخرى بعد الحرب نجد تركيا هنا الدولة الوحيدة التي مكّنها الحلفاء من التفاوض على شروطها الخاصّة، فقد أمليت شروط الصلح على ألمانيا والنمسا وهنغاريا وبلغاريا وفق مشيئة الغالب، إلا أن معاهدة لوزان وضعت وفق مشيئة المغلوب. وكانت أساس الكيان التركي الحديث وتواجده بين الأسرة الدولية.

وقد ارتأيت أن أترجم هنا ما يتعلق بالقوميات والأقليات العنصرية الدينية ما جاء في الفصل الأول من المعاهدة، وسائر مواد الفصل الثاني، ربما لأول مرة لقراء العربية. وقصدي المقارنة بينها وبين ما ورد حول هذا الأمر في معاهدة (سيڤر) المعقودة قبلها بثلاث سنوات[1]. معاهدة لوزان أهملت التطرق إلى القضية الكردية إهمالاً تاماً مقصوداً وتركت مصير ستة ملايين كردي لحكام تركيا. نفت عنهم قوميتهم قبل أن ينفيها الحكم الكمالي الجديد بإطلاقه عليهم عبارة (الأتراك الجبليون) أو (أتراك الجبال). أما بخصوص الشعب الآشوري، باختلاف المذاهب، والشعب الأرمني، فقد اختار واضعو المعاهدة لهم عنوان (الأقليات غير المسلمة) أرضاء لتركيا بدون شك.

ليس من أغراض هذه النبذة تحري الأسباب التي حدت بالحلفاء إلى هذا التنكر الفاضح للقوميات في تركيا (مصطفى كمال) والانحراف الكامل عن مبادئ معاهدة

(١) راجع نصوصها في الكتاب الثاني.

(سيفر) المستوحاة من مبادئ ويلسن في حق تقرير المصير. كذلك ليس في وسعنا أن نعزو هذا النصر السياسي التركي إلى غباءٍ وقصر نظر في مندوبي الحلفاء الموقعين، مقابل ذكاء وعبقرية سياسية في المندوبين الأتراك.

في العام ١٩٢٢ تمت هزيمة اليونانيين على يد مصطفى كمال بفضل السلاح والعتاد المتدفق من روسيا السوڤياتية في معركة (سقارية) الفاصلة وكوفئ هذا القائد من قبل المجلس الوطني الكبير بإضفاء اللقب ذي الدلالة التأريخية على اسمه[٢] «الغازي». وأتم هذا «الغازي» بالاشتراك مع الحكومة البلشفية القضاء على جمهورية أرمينيا، وبدا لبريطانيا وفرنسا وكأن حلفاً خطيراً سيعقد بين الاثنين يهدد نفوذهما في البلاد الناطقة بالعربية التي انسلخت عن الدولة العثمانية. إذن كانت لوزان عملية سريعة يدفعها الخوف الأعظم من سوء العقبى وبدت سهلة بعد انسحاب ويلسن وحكومته من الميدان الأوروبي ونفض الكونگرس الأمريكي يده من عصبة الأمم وإصراره على عدم المشاركة في المعاهدات المعقودة بعد الحرب.

كانت معاهدة «لوزان» ضوءاً أخضر للنظام التركي الجديد. نكبت الملايين الستة من الكرد بمصير فادح الثمن، وأطلقت يده في التعامل مع الأقلية الآشورية بروح انتقامية مشابهة لتعامله مع الأرمن بسبب موقفهما في الحرب العالمية. وبمساعدة نصوص بلغ من سخفها واستحالة الرقابة على تطبيقها أن وقف الحلفاء الموقعون ووراءهم عصبة الأمم عاجزين تماماً عن وقف عمليات الطرد والتهجير الجماعي للآشوريين وسائر المسيحيين مع مصادرة أملاكهم غير المنقولة والرفض البات لتعويضهم عنها (خلافاً للمادة ٣٣). كما وقف هؤلاء بعدها بسنة واحدة موقف المتفرج

---

(٢) «الغازي» أو الفاتح أو المنتصر (من مصدر كلمة غزو العربية) التي أثبتت لهذا القائد اسمه تعيد إلى الذاكرة فصولاً من التأريخ الأول لتواجد الأتراك في آسيا الصغرى (القرن الـ ١١) والأناضول. إذ كان يلقب بها المحاربون الفائزون في المعارك ضد القوات البيزنطية والأوروبية خلال زحف الإمبراطورية العثمانية شمالاً. وبالنظر إلى المسلمين الذين يتكلمون التركية فضلاً عن المسلمين بشكل عام فإن اللقب الممنوح إن دل فعلى أن مصطفى كمال كان آخر أبطال الإسلام في النزاع المرير ضد العالم المسيحي الذي امتد قروناً طوالاً. ومن الجدير بالذكر هنا أن «الغازي مصطفى كمال» تخلى عن اللقب في العام ١٩٣٥ إثر صدور قانون يفرض على الأتراك استخدام اسم الأسرة. فاختار الزعيم التركي اسم أتاتورك أي (أب الأتراك) مسقطاً كلمتي الغازي ومصطفى فبات يعرف رسمياً بـ(كمال أتاتورك).

أمام عمليات القتل القضائي ودك القرى الكردية بالمئات وتهجير مائة وخمسين ألفاً من سكانها إلى أقصى الغرب وهو ما أجازته للنظام (الفقرة الأخيرة من المادة ٣٨)[٣].

إذا كانت معاهدة لوزان هدية لتركيا لقاء عدم وقوعها في أحضان البلشفية، وعلى حساب مصير هذه الأقليات، فقليلاً ما فعلت، لأن التعاون التركي - السوفياتي بقي على الصعيدين السياسي والعسكري[٤].

---

(٣) فضلاً عن عمليات التهجير التركية لبقايا الآشوريين السابقة وقد أتينا إلى ذكر طائفة منها في هذا الفصل، يذكر لونگريك في (العراق بين ١٩٠٠ و١٩٥٠) أن عناصر كثيرة من الأقليات هربت إلى العراق بوجه الجيش التركي الزاحف في إقليم طور عبدين وحده، ويشمل ذلك عدداً لا يمكن تقديره من قبائل الميران (قدرته المصادر الكردية بخمسة آلاف) وسبعة آلاف من الگويان وألف من الآشوريين وعشرة آلاف من الآتوشي (تلك؟).

(٤) استمر التعاون التركي السوفياتي إلى حَد تشويه صورة الثورات الكردية. ففي دائرة المعارف السوفياتية (بولشايا سوفيتسكا أنسكلوبيدي) طبعة أولى ١٩٣٧ تحت مادة (كُردي) جاء ما يلي: «والمقول إن ثورات ١٩٢٥ و١٩٣٧ كانت بتوجيه وتدبير من الدسائس الإمبريالية ضد المصالح التركية - السوفياتية». لم أجد باحثاً كردياً واحداً من العراقيين الذين نالوا درجاتهم العلمية في معاهد الإتحاد السوفياتي، وكتبوا في تاريخ القضية الكردية، لاسيما في تمجيد هذه الثورات، من ناقش هذا الرأي.

الفصل الثالث عشر

قومية الدولة العراقية والأقليات. مقارنة بين عهد الخليفة عمر بن الخطاب ورسالة الشريف حسين إلى مكماهون حول كيفية تعامله مع أقليات إمبراطوريته. لجنة كنگ - كرين. في لبنان اندفاع مسيحي غير متزن. مواقف أحبار الأقليات المسيحية في العراق تستنكر التصريح. موقف الأقلية التركمانية. مدرسة فيصل وخريجوها (الضباط القدماء) نظرتهم التركية إلى انتفاضات الكرد السياسية تلتقي بنظرة الدولة في أنهم خارجون على النظام ومنتقضون على الدولة والتأديب العسكري هو الوسيلة الوحيدة. الصحافة المحلية تشجع هذه المواقف. زرع بذور التفرقة والحيلولة دون بناء شعب عراقي موحد. البريطانيون يعدون الآشوريين بالاستقرار في العراق. تصاعد النفرة من وجودهم بنشاط الدعاة القوميين المتطرفين. شعار الوحدة العراقية يدفن بالشعارات العربية المطلقة. البديل عن نظام (ساندمان بروس) الفاشل في الجنوب وفي الشمال. التمييز القومي بدلاً من التمييز الديني يغدو شعار الساعة. محاولة تعريب الأكراد والمسيحيين بزعم أن الأكراد أصلهم عربي وهم يشغلون أرضاً عربية كالمسيحيين واليهود. البريطانيون في وجه الطموح الكردي. بريطانيا تتنصل أمام عصبة الأمم من مسؤولياتها في حماية الأقليات العراقية. العداء العربي للآشوريين المجندين في الليڤي يتسع ليشمل الآشوريين القادمين والمستقرين. مقابلة نفرة بنفرة. السيف القومي يشرع في وجه القوميات ١٩٢١-١٩٣٣

جاءت هذه العبارة في واحدة من الرسائل التي كتبها الشريف (ثم الملك) الحسين بن علي إلى (السر هنري مكماهون) مؤرخة في ٦ من تشرين الثاني ١٩١٥:

«ليس ثم فرقٌ بين مسلم أو مسيحي عربي. فكلاهما ينحدر من جد واحدٍ. ونحن المسلمون سنقتفي خطى أمير المؤمنين [عمر بن الخطاب وغيره من الخلفاء الذين

عقبوه]. وقد أمروا بأن يعامل المسلمون المسيحيين كما يعاملون بعضهم بعضاً»[1].

و(فيصل) الذي أقام دولته في دمشق لم يتردد في اتخاذ خطوات مباشرة في هذا الاتجاه لكسب ثقة من أبقى عليه الحكم الأموي والعباسي من المسيحيين واليهود، وكذلك لخطب ود العالم الغربي حين تعهد للجنة (كنگ - كرين) ولم يغير من الوضع السياسي الذي تمتع به جبل لبنان في العهد العثماني حين قام بتحديد الحدود التي تمتد إليها مملكته «شريطة أن يمتنع مسيحيوه من استحداث علاقةٍ بالأجانب»[2].

إلا أن هذه اللجنة التي بعث بها الرئيس الأمريكي لاستطلاع رأي الأهالي اتفق رأيُها مع رأي عموم المسيحيين هناك بتأكيدها على أن حماية الأقليات ستكون متعذرة في ظل إدارة عربية ضعيفة أساساً، قالت:

«إن القوميين المسلمين العرب (الحكام) وعدوا بأن تتنزه إدارتُهم عن أي تفرقة عنصرية. ونرى من الضروري أن نسلم بوجهة نظرهم هذه ولكن من خلال سلطة انتداب، حتى يتوصلوا إلى صيغة لتطبيق ما وُعدوا به عملياً».

---

(١) يشير بهذا إلى العهدين اللذين قطعهما الخليفة الثاني للمسلمين في كل من دمشق (٦٣٥م) وأورشليم القدس (٦٣٧م) لم يكن هذا التدبير في الواقع يتميز بكثيرمن الفطنة أو يقتضي بعد نظر خاص. فما فعله هذا الخليفة في حينه لم يكن أكثر من تقرير واقع لا بديل له. فقد كان سكان الهلال الخصيب - خلا أقلية يهودية - مسيحيين قاطبة. والعرب الذين يرتادون البادية قلة غير مستقرة، إلا أن هذا الخليفة وإن سمح لهم بالإبقاء على البيع والكنائس وحرم المداخلة في شؤونهم الدينية، فقد فرض عليهم لقاء ذلك ضريبة الرأس (أي الجزية) التي وجب دفعها بحكم النص القرآني (سورة التوبة: ٢٩) الذي وصفهم «بأهل الكتاب». وهذان العهدان يشبهان العهدين الذين وقعهما (الرسول) نفسه مع يهود المدينة (يثرب) في العام (٦٢٣م) ومع مسيحيي نجران (جنوب الجزيرة الغربي) ومسيحيي الأيلة (العقبة) في العام (٦٣٠م). هؤلاء هم الذين أطلق عليهم فقهاء المسلمين تعبير «أهل الذمة» أو «الذميين» وقد أتينا إلى تفصيل ذلك في أول الكتاب. كان يفترض في شريف مكة على أية حال أن يكون على معرفة، لأن عهدي الرسول وعهدي الخليفة نقضت بعد نصف قرن ولم يعد يعمل بها منذ خلافة عبدالملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥)، بعد أن انتفت الحاجة إلى الخبرات العسكرية والفنية المسيحية. إذ كان هؤلاء يؤلفون أغلبية في جيوش المسلمين الأولى المندفعة شرقاً، وهم بُناة ونواة أول أسطول عربي في البحر المتوسط وبحر إيجه. إن التضييق كما بيّنا سابقاً كان تدريجياً. وقد بلغ حده الأقصى في عهد العباسيين، مما أدى إلى تحول الأغلبية المسيحية (الآرامية - السريانية - الآشورية - العربية) إلى أقلية في عالم الشرق الأوسط الإسلامي.

(٢) هاري هوارد Hary N. Howard: «لجنة كنگ كرين The King - Crane Commission» بيروت ١٩٦٣ ص١٣ و١٨١.

وكاد كل مسيحيي سورية ولبنان يتفق على هذه النظرة القومية. أي وجود سلطة انتداب على الحكم العربي في سورية، ومثلُها مثلُ العراق الذي عارض الحضور البريطاني وناهضه، بقيت أغلبيتها المسلمة بقيادة عناصرها القومية تعارض في فرض الانتداب الفرنسي وتطالب بالاستقلال التام «بلجاجةٍ وحماسةٍ» على حَد وصف لجنة كنگ - كرين. لذلك لم يكن مبعث دهشة أن يولد الكيان السياسي، الذي استحدثه الفرنسيون باسم (لبنان الكبير) نقمةً وكراهيةً في العالم الإسلامي الناطق بالعربية عموماً، وعند السنية سكان المدن الساحلية خصوصاً. ومن دون تحسب للمضاعفات والنتائج. أطلق البطريرك الماروني (بطرس الحويك) في غمرة من الفرح تصريحاً بتلك المناسبة في ٨ من كانون الأول ١٩٢٠، يعبّر تعبيراً جامحاً لأكبر كتلة مسيحية في البلاد الناطقة العربية، موصداً به عليها، وربما على بقية المسيحيين في الأقطار الأخرى، باب الالتزام بقضية العروبة والقومية العربية في الحاضر والمستقبل.

«والآن، ومن بعد بؤسنا وشقائنا وفقرنا، يقدم لنا الشعب الفرنسي النبيل برهاناً جديداً رائعاً على محبته لنا وعلى صدق مساعيه لخيرنا وفرط اهتمامه بأمورنا لقد انتصرت سياسة فرنسا الحكيمة في هذه الأرض وحققت لنا آمالنا الأثيرة بمنح لبناننا الحبيب الاستقلال وتوسيع حدوده وإقامة كيان حي لأهله من جديد، وسنقف بمشيئة الرب بشرف واعتزاز في مصاف الشعوب المتمدنة. ولذلك نحن نتقدم بالشكر لفرنسا ولشعبها ذلك الذي بذل التضحيات الجسام من أجلنا»[٣].

بهذا الاندفاع العاطفي البعيد عن الاتزان نسي الزعيم الروحي أن المسيحية هي واقعياً مجرد أقلية دينية تعيش في عالم إسلامي مختلطة بشكل يصعب فصله تماماً مثلما نسي شريف مكة ذلك وأن في عالم الاستشراق والأبحاث الإسلامية علماء أفذاذاً بين البريطانيين درسوا مصائر المسيحية في الشرق الأوسط طوال السيادة العربية الإسلامية وبعدها، وخرجوا بنتائج لا تتفق والصيغة التي بسطها في رسالته للمعتمد البريطاني في القاهرة.

---

(٣) عن روبرت برنتون بتس Robert Brenton Betts من (المسيحيون في الشرق العربي Christians in the Arabi East ط. لندن ١٩٧٩ ص٣٣.) اقتبس النص من مقال لمنصور عواد عنوانه (البطريرك بطرس الحويك) نشره في مجلة المشرق البيروتية (عدد كانون الأول ١٩٣٢).

ألقى البطريرك جانب الحذر في غمرة من الفرح وفي ذهنه بلا شك مذابح دمشق ولبنان قبل نصف قرن ناسياً أن هذا الدولة المنتدبة التي تبسط حمايتها لن يقدر لها البقاء الدائم. في حين ظل الوضع الديموغرافي باقياً. وربما كان الأجدر به أن يصدر بياناً متزناً يدور حول الوطن المشترك الواحد وحول ضرورة التعاون مع المسلمين. على أن انتزاع ما يشبه النصر من فكي الاضطهاد والذلة وتأمين الحماية من كارثة مشابهة، وفي الوقت الذي بدت بِيَع الشرق الأوسط وأديرته ومعاهده الطائفية معرضة للزوال، وعندما راحت غيوم الصهيونية تتجمع في أفق القومية العربية - التي اختارت لسوء حظها اتجاهاً إسلامياً واضحاً - ربما (نقول ربما) قد يقوم هذا عُذراً للاندفاع البطريركي العاطفي.

إلا أن هذه الحماسة لم يشاركه فيها زعماء الطوائف المسيحية الأخرى في البلاد الناطقة بالعربية ولاسيما في العراق، حيث يستقر بطريرك الكلدان. وجاثاليق كنيسة الشرق بكرسيهما في الموصل[٤]، اللذان، وبمساندةٍ من زعماء الطوائف المسيحية الأخرى، لم يعتبرا التواجد البريطاني ضماناً لحسن سلوك الأغلبية، ولا عامل حماية. ولم يكن أحدٌ منهم، بعد أن قررت لندن الاستعاضة عن الانتداب بمعاهدة وحلفٍ، يتوقع بقاءهم طويلاً. ففي الوقت الذي كان الفرنسيون منشغلين بتجزئة سورية إلى دويلات، راح البريطانيون يعملون بهمة ونشاط على خلق عراق عربي. بضم أقليم كامل محدد ديموغرافياً تقطنه قومية ذات أغلبية ساحقة في عقر دارها إلى ذلك الكيان

---

(٤) المرجع ذاته. اعتماداً على (جون جوزيف John Joseph في (النساطرة وجيرانهم المسلمون The Nestorians and their Muslem Neighbours ط. جامعة برنستن الأمريكية ١٩٦١ ص١٠١- ١٠٢). يزعم أن البطريرك الكلداني واجه (لجنة كنگ - كرين) في آب وقت وجودها في سورية وطالب بإنشاء دولة أوروبية. والثابت فعلاً هو خلاف ذلك ولا قيمة للزعم، فالبطريرك الكلداني وقتذاك هو (يوسف عمانوئيل الثاني) انتخب بطريركاً في العام ١٩٠٠ وتوفي في الموصل العام ١٩٤٧. قام بزيارة واحدة لأستنبول في ١٩٠١ وهي الزيارة التقليدية التي يقوم بها عادة كل رئيس ملة جديد للسلطان العثماني من أجل تقليده الخلعة أو الوسام وإصدار الفرمان التالي بتعيينه رئيساً للملة. وأنا أرجح أن المقصود هو المطران (ثم البطريرك على اليعاقبة) أفرام برصوم الموصلي، الذي شارك مشاركة جدية في النشاط السياسي الآشوري بعد الحرب وكان عضواً في الوفد الذي قصد الآشوريون شخوصه إلى پاريس في ١٩١٩، لطرح قضيتهم على مؤتمر الحلفاء المنعقد في ڤرساي ١٩١٩. (راجع أيضاً كتاب سرگون داديشوع الوثائقي: Dr. Sargon O. Dadesho القضية القومية الآشورية The Assyrian National Question ط. كاليفورنيا موديستو ١٩٨٧).

الجديد ولتغدو تلك القومية واحدةً من أقلياته العنصرية فضلاً عن قوميات وطوائف أخرى تزيد بكثير عما هو الحال في سورية.

إن انكبابهم على خلق هذا الكيان بعد فشلهم في تطبيق نظام (ساندمان - بروس) الذي سيأتي الحديث عنه. اقتضى منهم تشجيع الحركة القومية العربية، على حساب القوميات الأخرى الكردية والتركمانية والآشورية، باعتباره وسيلة صالحة من وسائل محاربة العصبية القبائلية تلك التي أججت نيران ثورة الفرات الأوسط. إلا أن تلك الحركة القومية التي رعتها ودللتها فولدت (العروبة) في العراق حاملة هذا المرض الخطير سرعان ما نبذ دعاتها ومروجوها فكرة الوطن الواحد، وراحوا يتطلعون إلى أبعد من حدوده ولم يجدوا - مخضرموهم وناشئتهم - ضرورة إلى محاولة قومية (حكومية) أو شعبية لردم الهوة التأريخية، التي راحت تزداد سعة وعمقاً بانسحاب البريطانيين التدريجي من الإدارة المحلية والنأي عن المداخلة في الإجراءات الحكومية على الصعيد الشعبي. كان (الوايت هول) خلال العقد الثالث من القرن العشرين يعيش في حالةٍ من حالات الرضى عن النفس ناشئ عن إقناعه نفسه بأنه أوفى بجميع التزاماته للأقليات القومية والدينية وأن لندن، بعد أن وأدت حلم الكرد في إقامة كيان سياسي، وتعاملت مع المشاعر القومية التركية للأقلية التركمانية معاملة المنتقم المتشفي بسبب ما أبداه زعماؤها وحضريوها من ميول قومية مشروعة أيام النزاع على ولاية الموصل، فضُيّق على سراة القوم فيهم حيناً من الزمن، حتى بدت وكأنها ترغبهم من خلال ذلك في النزوح عن العراق إلى تركيا بالإفادة من نصوص (معاهدة لوزان)[٥].

كانت الأقلية التركمانية تعيش بين أقلية كردية في دولة أغلبية، حرمت بحكم الواقع وبحكم الديانة التي تجمعها بالأغلبية، من حق الجهر بقوميتها والإفادة من تلك الحماية الصورية التي ألمحنا إليها سابقاً. وأُتهِمت بالعمالة لتركيا كلما تظاهرت بقوميتها.

الحكام القوميون في بغداد، خريجو مدرسة فيصل، أيام الحرب العظمى ظلوا يرون في انتفاضات الكرد العنيفة ومحاولاتهم المسلحة لإثبات هويتهم القومية خروجاً على الدولة مفسرين عجزهم عن الإقرار بأن لهؤلاء عين ذلك الحق الذي طالبوا به هم أيام الحكم العثماني - في أن تلك الثورات والانتفاضات لا تخرج عن كونها أعمال

---

(٥) راجع نصوصها في ملحق الفصل السابق.

عصيان وقطع طرق[٦] ضد دولة مستقلة موحدة.

وفي أثناء قيام لجنة الموصل بتحقيقاتها فسّر القوميون في بغداد تفضيل تلك الأقليات الحكم التركي على الحكم العربي الذي لا تشرف عليه سلطة أجنبية، ورفضها الضم إلى الدولة الجديدة من غير وجود سلطة الإنتداب، بأنه نوع من العمالة لبريطانيا ناسين أو متجاهلين أنهم مدينون بالحكم والسلطة إلى تلك القوة الأجنبية التي يسّرت لهم الحكم بحماية جيشها.

وورث الجيل الجديد من القومية هذا الطراز من التفكير، فبدا لهم كما بدا لمورثيهم، كل مطالبة بحق سياسي من أقليةٍ وكأنه تآمر على الحكم الوطني وإنكار للجميل. واعتمد هذا الاتجاه الفكري دوماً أساساً للتعامل مع الأقليات القومية، فكان كمن يقيم سداً بينه وبين تحرك هادف إلى إزالة الشعور بالعزلة السياسية والتمييز الاجتماعي والاحتقار أحياناً. وبالاختصار التعامل معها وكأن أفرادها مواطنون من الدرجة الثانية.

كانت هناك محاولات أولية طابعها المجاملة والزيف في مناسبات معينة، لكنها تبقى رهينة بمناسبتها ولا تتعدى حدود القول[٧].

في كل الأحوال ترى هل كان البريطانيون برعايتهم الحركة القومية العربية على

---

(٦) في ١٣ من حزيران ١٩٢٥ وافق ياسين الهاشمي ومجلس وزرائه في آخر جلسة لحكومته وقبل استقالتها بأربعة أيام فقط على إصدار قرار بعرض جائزة قدرها مائة ألف روبية لمن يأتي بالشيخ محمود أو يسهل أمر القبض عليه، وعلى عرض عشرين ألف روبية لمن يأتي باثنين آخرين من زعماء الثوار (كريمي فتاح وصابر بگ). وكان ذلك «بناء على اقتراح المندوب السامي» كما جاء في البيان. وكان بإمكانه أن يؤخر ذلك لتنهض بالتبعية الوزارة الجديدة.

(٧) في ٢ من آب ١٩٢٤ صودق على القانون الأساسي، لكن المندوب السامي أوعز بتأخير نشره أي تطبيقه حتى يتولى مجلس الوزراء منح إمتياز النفط بدلاً من عرضه على المجلس النيابي بمقتضى المادة (١٩٣) من الدستور، وخشية إثارة ضجة شعبية حوله تؤدي إلى إعادة النظر فيه. وبقي ثمانية أشهر وأسبوعين مدفوناً حتى ١٤ من آذار ١٩٢٥، حيث أصدر ياسين الهاشمي بياناً بنشره والعمل به جاء فيه هذه العبارة: "وليخفق العلم العراقي الذي يجمع في كوكبيه رمز الاتحاد بين القومين النجيبين العربي والكردي تحت ظل القانون الأساسي. ويستظل به عالم (عالماً) بحقوقه مقدر (مقدراً) لواجباته. ويذكر بهذه المناسبة أن العراق حين استعار العلم الشريفي بأبعاده وألوانه أضاف إليه نجمتين مسبعتين في المثلث الرأسي الأحمر قيل لنا في المدرسة إن كل رأس من النجمتين يرمز إلى واحد من الألوية الأربعة عشر التي تكونت منها وحدات العراق الإدارية.

حساب القوميات الأخرى، وإلى حد سكوتهم وصبرهم على مظاهر العداء الصميم والمفتعل الذي كانت تبديه عناصرها ضد نفوذها، يدركون بأنها لن تبقى منحصرة ضمن النطاق المحلي - أي الإطار الوطني - وأن يوماً ما سيأتي على العراق حيث يكون لصفتي «قومي» و«وطني» معنيان سياسيان مختلفان تماماً؟

لم يجر التشجيع القومي على حساب القوميات الأخرى فحسب، بل جرى على حساب (الديمقراطية) والافتئات على السلطة، منحصرة ضمن النطاق السياسي البحت كما بدا ذلك في تقاريرهم حول إدارتهم في العراق:

«منذ أن عقد المجلس التأسيسي العراقي أخذت مقاومة الجمهور العراقي لأي نوع من السيطرة الأجنبية تزداد زيادةً سريعة، لتغدو من أعظم المطالب القومية (كذا) شأناً. . . مما حدا بحكومة جلالته (البريطانية) إلى أن يستقر رأيها بعد كثير من الأناة وتقليب وجوه الرأي إلى أن ترجح تجديد علاقتها القانونية، لا ضمن إطار الانتداب الذي تقررت شروطه سابقاً، بل على شكل معاهدة تعقد بينها وبين الحكومة العراقية. وهذا لا يعني أن المعاهدة المعقودة ستحل محل الانتداب، بل هي في الواقع بمثابة تحديد شكل الانتداب ووضعه بصيغة معاهدة»[٨].

وظهر الجيل الجديد من القوميين العرب، من خلال تناحُر الساسة العراقيين المخضرمين وتكالبهم على السلطة، من بين طلاب المدارس والمعاهد التعليمية والمهنية ومعلميهم.

فمنذ ١٩٢٦ بدا شارع بغداد طوع يمين هؤلاء ولم تعد قيادته بيد الدهماء أو رجال الدين[٩]. زاد اعتماد الساسة على هذا الصنف الجديد المندفع لتنظيم المظاهرات

---

(٨) تقرير خاص من حكومة صاحب الجلالة في المملكة المتحدة ببريطانيا العظمى وشمال أيرلندا إلى مجلس عصبة الأمم حول التقدم الذي أصابه العراق خلال الفترة ما بين ١٩٢١ و١٩٣١ (ص١٩٣٢-١٩٣٨). Special Report by his Btitanic Majesty: Government in the United Kingdom of Great Britain and Northen Irland to the council for the League of Nations on the Prpgress of Iraq during the period 1921-1930: London 1932.

(٩) ندر أن حصل انفجار تعليمي في بلاد تزيد نسبة الأمية فيها على ٩٥٪ كالذي حصل في العراق خلال العقد الثالث من هذا القرن، فاستقدم عشرات إثر عشرات من المدرسين والمدرسات السوريين واللبنانيين لإشباع نهم الإقبال الشديد على المدارس بمراحلها الثلاث ومعاهدها، التي =

والاحتجاجات. لم يكن أحب للطلاب شيء أكثر من الاستجابة إلى التظاهرة لسببٍ أو لغير سبب وجيه ليمتلئ الشارع بهم ولينضم إليهم المستطرقون زرافات - لأن ذلك معناه الخلاص يوماً أو يومين من مقاعد الدراسة وروتين الدوام اليومي الممل. وهناك شيء آخر أيضاً. هناك الأنباء التي تنشرها الصحف عنهم والأعمدة الطوال التي تخصصها أقلام الكتاب القوميين أعداء الإنكليز والاستعمار الإنكليزي. وكل هذا من شأنه أن يثبت فيهم شعوراً بالأهمية وبالوزن السياسي.

الهتاف بالشعارات الوطنية، تصدي قوات الأمن المدججة بالسلاح بمواجهة جموعهم العزلاء، رشق الشرطة بالحجارة والطوب، إنه أفضل بكثير وأكثر روائيةً من الجلوس ساعات على المصاطب الخشبية وسماع هذر المدرسين. ولم يكن بعسير على الرؤوس القومية المحركة (المعارضة عادة) اختيار المناسبة. فهناك الحضور البريطاني الدائم الوجود والمعاهدة الدائمة التغيير، والانتخابات المزورة، والانتداب ككل وامتياز النفط وإلى هذه كلها أضيفت قضية فلسطين.

وهناك أيضاً التوتر العقائدي بين الشيعة والسنّة وهو أخشى ما كان يخشاه البريطانيون.

لأنه لا يثور إلا لينتهي باصطدام دموي. وفي كل هذا كان للصحافة والصحفيين مجالهم الواسع في تقديم هذا النوع من مظاهر «الغضب الشعبي». فهذا الصنف من حملة الأقلام كان سياسياً قبل أن يكون صحفياً. يهتم بإثارة مشاعر الجماهير أو خدمة نشاط حزب أو كتلة سياسية أكثر مما يهتم بنقل الكلمة الصادقة. وأريد هنا أن أعطي مثالين:

اتبعت الصحافة قضية الآشوريين الواردين العراق بمقتضى معاهدة لوزان بعد

= كانت تهتم بتخريج المعلمين من خريجي الثانويات وتقبل كل من يرغب دون تدقيق لحاقاً بملء شواغر المدارس، التي كانت تتضاعف عدداً بالأيام لا بالأشهر. وأقبل المسيحيون واليهود على الدراسة في حين ترددت الأغلبية المسلمة بادئ ذي بدء وأحجمت. وكان الأولون قد أدركوا أن المعرفة في العراق آنذاك لا تُطلب لنفسها بل لتكون مفتاحاً لباب الوظيفة. ولم تمر سنوات قلائل من هذا العقد حتى لحقت الأغلبية بالأقلية ومالبثت أن خلّفتها وراءها وكثر الانخراط في المدارس والمعاهد، التي تخرج الحقوقيين والمعلمين وضباط الشرطة والجيش. واقتحمت الإناث المسلمات الميدان على المسيحيات واليهوديات في سلك التعليم وما جاءت سنة ١٩٣١ حتى أصبح عدد المعلمات المسلمات يزيد على نظرائهن الأخريات.

حادث الموصل الصغير حية في الأذهان. فجريدة (الاستقلال) القومية لم يخل عدد منها من مقالة أو تعليق مهيج طوال شهر واحدٍ أعقب الحادث، وعلى أثر قدوم تلك الأسر التى شردتها الحرب من تركيا وسورية وروسيا والبلقان.

جاء في التقرير البريطاني حول الإدارة في العراق (أوائل آب ١٩٢٣):

«تصاعد عدد القادمين الآشوريين إلى الموصل، وقام بعض القوميين بشحن الرأي العام الموصلي ضدهم. وأشاعوا في المدينة بأن نية بريطانيا تتجه إلى جعل الموصل مستعمرةً آشورية. وتشاء الصدف السيئة أنه خلال بث هذه الشائعات وصلت قافلة آشورية من اللاجئين (كذا) يقدر عددها بثمانمائة عن طريق إستنبول - حمص، قادمة من نواحي البحر الأسود الجنوبية تحت رعاية (لجنة إنقاذ الشرق الأدنى) فتمت الموافقة على قبولهم وحصل المندوب السامي على الضمانات الضرورية من وزارة الداخلية لاستقبالهم. وما أن وصلت طلائع القافلة المدينة حتى تحرك فريق من الأهلين معلنين احتجاجهم ووزعوا نشرات أوضحوا فيها أن الحكومة البريطانية تريد استعمار المدينة بواسطتهم، فزادت في النار وقيداً. وفي ١٥ من آب ١٩٢٣ حصلت تلك الحادثة التي أدت إلى وقوع جرحى»

وعلى أثر ذلك انبرت صحيفة الاستقلال البغدادية ذات النزعة القومية تهاجم سياسة بريطانيا في حشر هؤلاء الدخلاء هجوماً عنيفاً كما ذكرنا. وهذه عينة مما كانت تكتبه:

«هل أن بريطانيا تريد إعطاء وعد بلفوري في الموصل؟ أم إنها ترغب في إقامة مستعمرات آشورية يُسيطر بها على الموصل؟ إننا نحتج وننادي، الحق الحق يا أولي الأمر»[١٠].

وانصرفت الجريدة في حملتها إلى تثبيت الفكرة الخيالية حول طموح الآشوريين القادمين إلى إنشاء دولة خاصة بهم في العراق. وشددت على وجوب طردهم:

«لئلا تصبح الموصل فلسطين ثانية. إن الشعب العراقي لا يوافق أبداً على إعطاء أراضيه لعناصر غريبة، ويجب أن لا يسمح بذلك إلا لأبناء العراق

---

(١٠) العدد ٢٣١ للسنة ١٩٢٣، بدأت جريدة الاستقلال حملتها على الآشوريين اعتباراً من ١١ أيلول، ودأبت على نشر المقالات الطوال المثيرة ضدهم ليعكسها العامة على المسيحيين كافةً، كما كانت تنشر كل رسالة أو احتجاج يردها دون تدقيق.

والأقطار العربية. ليس من مصلحة العراق قدوم الغرباء هؤلاء إليه وخاصة في فترة نموه ونشوئه، فإن في قدوم الغرباء هؤلاء إليه خطراً لا يوازيه خطر، وأبناء العراق يعارضون بشدة قدوم غير أبناء العرب إلى بلادهم حتى يسلموه إلى أبنائهم وأحفادهم ذوي الإصالة العربية والأمجاد العربية والتراث العربي»[(١١)].

وانتهز قادة الرأي العام في المدينة وهم وجهاؤها وسراتها تلك الحادثة، فصاروا يمطرون الحكومة والصحف ودائرة المندوب السامي والبلاط الملكي وكل من يخطر ببالهم ببرقيات الإحتجاج والإنذار والتحذير، وتجاوبت الأوساط الوطنية والقومية في بغداد مع الموصل وأُثير الشارع، وكانت ثمَّ مذكرات احتجاج من نقابة المحامين ومدرسة الحقوق ورؤساء الأصناف والتجارة. وفي الموصل نفسها لم ير بعض رجال الدين المسيحيين مندوحة وتجنباً للسخط العام على طوائفهم من مجاراة المحتجين المسلمين دفعاً للشبهات وإظهاراً للتضامن.

في العراق لا يقبل حيادٌ فإما أن تكون مع الضجة وإلا اعتبرت ضدها. وهكذا

---

(١١) جريدة العراق (١٠٢٦) كذلك العدد (١٠٢٧) رأت الإفادة من وجود هؤلاء في العراق بالأحرى «لأنه (أي العراق) بحاجة إلى زيادة نفوسه أسوة بمصر. وقدوم الآشوريين سيؤدي إلى تلك الزيادة وبذلك يتسنى له النهوض والتقدم مع محافظته على صبغته العراقية الوطنية». واستتلت تقول إن الطريقة الوحيدة لمعالجة الأمر هي «العمل على توزيعهم وتفريقهم على مختلف الألوية العراقية وعدم السماح لهم مطلقاً بالاستيطان في المنطقة التي يفكرون في أن تكون وطناً قومياً لهم. إن الحكومة قادرة على معاقبة الذين لا يرغبون في ذلك ويعملون على تحقيق ما يدور في أذهانهم وأفكارهم» آه.

في حين دعت جريدة الاستقلال «باسم الشعب!» إلى طردهم. ويظهر أن الهياج الذي افتعله المشاغبون بدعم من الصحافة القومية في بغداد والموصل إثر شجار الموصل بلغ من الغضب والشدة أن دعا (فيصل) إلى الشخوص إليها على رأس وفد حكومي ذي مستوى عال. فراعه ما وجد. وكتب في ١٤ من تشرين الأول ١٩٢٣ رسالة لرئيس وزرائه تنم عن قلقه العظيم وقد أخذ ما رآه بلبه: «قلوب الموصليين مليئة بالغيظ والحقد ومسألة الآشوريين مهمة للغاية وهي نار تحت رماد. لذا فإني أخرتُ سفري إلى أن نحلّ قضيتهم نهائياً وذلك بترحيل الليفي من الموصل. وإني مصر على تبديل مركزهم لأني ناظر إلى التهلكة بعيني. والبلية العظمى هي كون الجند المسلح تحت قيادة ضباط بريطانيين، فلو قُدِّر أن حصل شيء فهل المملكة تتحمل دماء البريطانيين وخاصة الضباط منهم. فلذا يجب أن تصر على المندوب السامي بملء قواك لسحبهم».

قامت الدنيا وقعدت لقضية شجار آني بسيط يحدث من أمثاله الكثير يومياً في القرى والقصبات والمدن، فلا تدعو إلى أكثر من إجراءات بوليسية وقضائية إن لم تنته بصلح.

لكن العاصفة المثارة جرفت تلك الصحافة التي كانت تتهم بانحيازها إلى البريطانيين. ففي (العراق) وهي الصحيفة التي كان يصدرها (رزوق غنام) الأرمني الأصل، لم يكن هناك خلاف حول وجهة النظر التي تبناها الآخرون حول بضعة آلاف آشوري في إقامة كيان سياسي على جزءٍ من الأرض العراقية بدفع ومساعدة من الإنكليز، إلا أنها حذرت من اللجوء إلى العنف في معالجة المشكلة بقولها:

«إن قدوم الآشوريين لا يشكل ضرراً إذا عمدنا جدياً إلى حَل المشكلة عن طريق بعيدٍ عن العنف واتبعنا الأساليب الصحيحة التي تتكفل القضاء على ما يدور في أذهانهم وأفكارهم حول إقامة وطن آشوري لهم».

وبدا في الجو العام ما يشبه إجماعاً على أن اللاجئين الآشوريين يعملون بجد على تحقيق حلم (سيفر) في إقامة كيان سياسي لهم. بل أصبحت الصحف اللاقومية المعروفة بانحيازها للإنكليز وقد انجرفت بالتيار وشاركت زميلاتها الأخريات هذا الاعتقاد.

كانت الصحافة القومية تحسم النشاط الضعيف غير المجدي الذي يقوم به بعض المثقفين الوطنيين الآشوريين المغتربين في المحافل الدولية لإحياء حلم معاهدة (سيفر) بإقامة كيان ذاتي آشوري في موطنهم حكاري. في الوقت الذي كانت السلطات البريطانية في العراق تحول دون سفر أي ممثل عنهم من العراق لحضور المؤتمرات الدولية[(١٢)].

لم يكن أهل العراق بحاجة إلى وقت ليدركوا وهم الخبيرون بالحكام أن أصحاب السلطة الجدد لا يختلفون عن أسلافهم في الجوهر. فهم لابِدع خريجو المدرسة عينها والوجه العربي الذي ظهروا به إنما هو مجرد قناع. أدرك الجمهور العراقي أن ما يصدره هؤلاء الحكام من بيانات مهدئة مطمئنة حول وجود الآشوريين وحول نواياهم هو شيء،

---

(١٢) منها: الجمعية الوطنية الآشورية الأمريكية Assyrian National Association of America من أبرز مؤسسيها الكاتب القس الآشوري (يوئيل ورده) صاحب المؤلفات المعروفة في الأدب والتأريخ الآشوري. كان في نهاية الحرب قد ترأس وفداً غير رسمي لحضور مؤتمر السلام في باريس.

وأن ما يضمرونه لهم وما يريدون أن يفهم رعاياهم عنهم هو شيء آخر. وفسروا، ولهم ملء الحق في ذلك، أن هذه البيانات إنما تصدر بضغط من الإنكليز في أفضل الأحوال وإن رأي حكومتهم الحقيقي ليس هذا.

وأثر الصحافة التي بدت تتمتع في ظل الحكم البريطاني ثم المحلي بحرية غير مسبوقة كان فاصلاً حاسماً في تكوين الرأي العام.

كانت الصحافة بدعة جديدة في بلد تسوده الأمية. في مجتمع كهذا تنزل الكلمة المطبوعة منزلة تقديس، وإيمان بصحة ما يتلى عليه منها وما تسمعه أذنه من الأفكار والأخبار لا يأتيه ريب. فالفرد في مثل هذه البيئة يفتقر عادةً إلى المقدرة على تحكيم المنطق والعقل والموازنة بين مختلف الأفكار والأنباء التي تنقلها إليه الصحف. ويبدأ الرأي العام في تلك الفترة مرتعاً خصباً لخيال المحررين والكتاب ولم يكن بينهم من وهب قلمه للكلمة الصادقة. فقد كاد كل من عمل في الصحافة يكون سياسياً أو محسوباً على معسكر سياسي. ولذلك لم يكن غريباً أن لا تستبعد جريدة العراق مثلاً أن تؤدي الحملة العامة على التواجد الآشوري إلى أعمال عنفٍ. بعد أن استغل أبشع استغلال قيام البريطانيين بتشكيل جيش صغير منهم في بلدٍ مسلح، تعوّد أهله الثورة ومقاومة الحكومة[١٣].

ليس من المهم عند الصحافة والرأي العام أن يُشرح بأن تشكيل هذه الوحدات كان تدبيراً بريطانياً غايته الاقتصاد في النفقات وتخفيفاً عن كاهل دافع الضريبة الإنكليزي، وضناً بأرواح مواطنيها. بل وكيف يمكن التوفيق بين تصميم البريطانيين على ضم أكثر ما يمكن من الأراضي إلى الدولة الجديدة، وكيف تم القضاء على أمل الكرد في قيام دولة قومية لهم بضم إقليمهم بكامله إلى العراق، وبين فكرة اقتطاع جزءٍ منه لإقامة كيان سياسي آشوري فيه؟

بقيت سياسة بريطانيا بخصوص ما يُعمل بهؤلاء اللاجئين المشردين تتركز حول إسكانهم بين أبناء جلدتهم في أقصى الحدود الشمالية، ليدرأوا بهم تحرشات عسكرية

---

(١٣) ذكر تقرير الإدارة البريطانية أن السلطات البريطانية جمعت (١٢٠٠٠) بندقية معظمها حديث الطراز، وأكثر من (٣٠٠٠٠٠٠) إطلاقة من القبائل الثائرة في الفرات الأوسط بمثابة غرامة بعد قمع ثورة العشرين: أنظر Special Report by his Majesty Government in the United Kingdom of Britain, on the Administration of Iraq for the years 1920-1921

تركية محتملة ولا أكثر. إلا أن عناصر الشغب في بغداد لم يكونوا يقدمون الحجج لدق فكرة الخطر الآشوري في الرؤوس مهما بلغ من تهافتها وسخفها. يقول شكسبير «حتى الشيطان نفسه، فإنه يجد في الكتاب المقدس ما يدعم به رأيه».

وتلك القوات الآشورية التي استخدمها البريطانيون في إخماد ثورة الفرات الأوسط رغم قلّتها، وفي التصدي لثورات الشيخ محمود، كيف تراها تنفي للقوميين في بغداد وفي الموصل وغيرهما بأن اليد التي كانت تحركها وتدفع بها إلى جبهات القتال هي عين اليد التي رفعتهم إلى كراسي الحكم، وعين السلطة التي كانت تدعمهم أبداً. وغاب عنها كذلك أن قدوم هؤلاء العثمانيي الجنسية إلى بلدٍ كان قبل بضع سنوات جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، وكل ما تم أن جعلت له حدود دولية فصلت إقليماً موحداً إثنياً وجغرافياً إلى قسمين، إنما هو ممارسة لحق مشروع أثبتته معاهدة لوزان لهم ولم تخترعه - كما أثبتته للعرب الذين سكنوا تركيا وغيرها من البلاد غير العربية، التي كانت جزءاً منها. وإنهم في انتقالهم هذا إلى العراق كانوا أحق بالسكن فيه من كثير من دعاة القومية والعروبيين في بغداد والموصل المتحدرين من أصول أوروبية وجركسية وأرمنية، وتركستانية. بل أحق من كثير من أهالي النجف وكربلاء والكاظمية، لاسيما طائفة من علماء أعلام ومجتهدين عظام لم ينكروا قط أصولهم الإيرانية. لاسيما أولئك الذين قادوا فكرياً وعسكرياً القبائل العربية لصد الحملة البريطانية في حرب ١٩١٤-١٩١٨. والذين تزعموا وأذكوا نار ثورة الفرات الأوسط في العام ١٩٢٠ التي أرغمت البريطانيين على إقامة حكم وطني.

لم يذكر الرأي العام العراقي إبان تلك الضجة أن خط الحدود الجديد الذي رسمته معاهدة ١٩٢٦ بين تركيا والعراق وبريطانيا قسّم موطن الآشوريين الأصلي بين الدولتين فعلاً مثلما جزّأ الوطن الكُردي بين الدولتين شمالاً ومثلما جزّأت المعاهدات العثمانية الفارسية هذا الوطن من الشرق وشطرت قبائل واحدة إلى شطرين. وقد بقي الانتقال بين الحدودين عملاً اعتيادياً لا يثير أي اعتراض، بل نص على هذا الحق أحياناً في تلك المعاهدات[١٤].

* * *

(١٤) وفدت مع الآشوريين في عين الوقت قبائل كردية تفوق عدد الآشوريين الوافدين جراء عمليات الطرد الجماعية وعلى أثر سحق ثورة الشيخ سعيد بيران. فاستقرّ معظمهما في جهات زاخو =

يغلب على ظني أن قلق (فيصل) كان طبيعياً لا تعمُّل فيه. وأن القوميين في الموصل أتقنوا عمليتي الإعداد المسرحي والسيناريو بشكل لا مزيد عليه. وأنا لا أرى في رسالته التي بعث بها إلى رئيس الحكومة نية في التهويل وتصوير الوضع بشكل مبالغ فيه، كما إني لا أشك في أنه كان يستعيد وهو يملي رسالته هياجاً مماثلاً ثانياً انتهى بفقدان عرشه عندما نظم قوميو دمشق بتحريض من أعضاء حكومته تظاهرة كاسحة ضد الاحتلال الفرنسي - مترافقةً مع محاولته الوصول إلى صفقة مع الفرنسيين تؤمن له البقاء. وكيف أدى ذلك إلى طرده.

وما أظن كذلك أن خفيت عنه مقاصد أولئك الذين كانوا وراء هذه الضجة، وأولئك الذين أمطروه بالاحتجاجات على وجود هؤلاء الدخلاء، وقد ميز فيهم، وهو الخبير النابغة في نوايا القوم وأمزجتهم، عدداً ممن احتجوا على تنصيبه ملكاً عليهم ورفضوا أن تنضم ولايتهم إلى دولته، بعد سنة واحدةٍ فقط. هؤلاء هم أنفسهم الذين وصفهم في رسالته التالية بالمحرضين الذين أهاجوا رعاعاً لا ضابط لهم ولا رابط[١٥].

= ووصلت أعداد كبيرة منهم مدينة الموصل وسكنوها، حتى أن حياً منها سمي باسم عشيرة من عشائرهم فلم يثر قدومهم احتجاجاً. كما عاد الى العراق عدد كبير من أولئك الذين تترّكوا بحكم الإقامة الطويلة أو الزواج أو الوظيفة ومنهم من نسي لغته الأم ناهيك عن كتابتها والتخاطب بها، وقد بلغ بعضهم المناصب الرفيعة في الدولة الجديدة. وأفضل مثال يضرب بعبدالمحسن السعدون، الذي كان يلجأ في حديثه إلى التركية دون العربية حتى أنه كتب بها وصيته الأخيرة. وأذكر كذلك كبير المفكرين القوميين في العراق (ساطع الحصري)، الذي هاجر إلى العراق من تركيا وهو لا يعرف العربية وبقي - والعهدة على صديقنا الشاعرالكبير الجواهري - يستعين بمترجم تركي حتى سن الأربعين أثناء مزاولته مناصبه الحكومية التربوية والفنية.

(١٥) رسالة فيصل إلى رئيس الوزراء مؤرخة في ١٦ من تشرين الأول: «أنا أشكر لطف فخامة المعتمد على الموصليين بسحبه قسماً من الآشوريين. وأنتظر تمام اللطف وتحقيق وعده بإبقاء القيادة فقط في الموصل. كيف يمكن أن لا أهتم وأنا أرى السيارات المدرعة تطوف البلدة صباح مساء تنتظر حدوث اضطراب. وكيف لا أهتم والنفر الآشوري لا يتجول إلا بسلاحه، وكيف لا أخشى والأهالي يحذرون أن يمروا من قرب معسكر الليڤي؟ إن طلبي هو إخراجهم من بلدة الموصل ولو لمدة مؤقتة لا يحتكون بالأهالي في الأزقة وجوار البلدة إلى أن تسكن الأفكار. إذ كان فخامة المعتمد يخشى استياء العساكر المنظمة المدربة على الطاعة. وكيف لا يخشى الرعاع الذين لا ضابط لهم ولا رابط؟ لذا أكرر جميع ما ذكرته لك في كتابي وأنتظر من فخامتك باسم المصلحة العامة التأثير على القائد العام إذا كان لزوم لذلك. ومنك الجلد. وأن تقدر عظم المسؤولية عند حدوث شيء» اه. (سحبت على أثر ذلك قوات الليڤي من مدينة =

لم يكن بين هذا الهياج العظيم وبين ما حصل في (سيميل) إلا عشر سنين. ولم يطل الأمر (بفيصل). فبعد مرور ثماني سنوات على تجربته في الموصل، ومن خلال تجارب أخرى مماثلة، بدت صورة هذا المجتمع الذي يقف على رأسه كاملة في مذكرةٍ سرية كتبها بنفسه ووزعها على فريق من الساسة المقربين إليه وقد افتتحها بهذه العبارة:

«إن البلاد العراقية هي من جملة البلاد التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، ذلك هو الوحدة الفكرية والملية والدينية (الملية كلمة يستخدمها المخضرمون بديلاً عن تعبير القومية)».

ثم يكتب بعدها: «أقول وقلبي ملآن أسىً إنه في اعتقادي لا يوجد في العراق شعب عراقي. بل توجد كتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية. كتلات مشبعة بتقاليد وأباطيل دينية لا تجمع بينهم جامعة. سماعون للسوء، ميالون للفوضى، مستعدون دائماً للانتقاض على أية حكومة كانت».

صحيح أن هذه الكتلات البشرية كانت تفتقد الوحدة القومية. إلا أن الوعي القومي، الشعور بالهوية العربية، التحرك إلى أهداف قومية عربية، كانت حقائق وواقعاً تدفع بالدولة ورجالها الحاكمين إلى أمام لكن باتجاه سلبي طابعه الكره والعنف وآيته التمسك بالدين الإسلامي، وفي نأيٍ أوليّ للشيعة عن التعاطف معه بالحذر المعهود والنفرة التاريخية من أي مشروع يغلب عليه الطابع السني، بدا وكأنه سني القوام ذو مظهر كاذب خادع يبدو أكبر حجماً مما هو في الحقيقة، بصحيفة أو صحيفتين كثيرتي الصخب، ومناسبات سياسية بين حين وآخر، تفجر الشارع بتظاهرة أو تتمخض باجتماع كبير واحتجاج جماهيري. ليبدو الزخم القومي أكبر مما هو في الواقع.

ومهما خلا أمرٌ من هذه الأمور من عنصر التهويل والمبالغة عند وضعه في صحيفةٍ فإنه في أحيان كثيرة، لاسيما في شؤون تتعلق بالحياة العامة والأوضاع السياسية، بدا سبباً في إصدار أحكام آنية مبتسرة أو غير دقيقة، وتتعدى واقعها والأهمية التي تستأهلها، فتدخل حوليات التاريخ بهذا الشكل ويحصل العكس أحياناً. فكثيراً ما تغيب وقائع بلغ من خطرها أن حولت مجرى التاريخ وتضيع في زواياه.

= الموصل واستقر بعضها في كركوك لتواجه عين الاستفزاز والعداء الذي انتهى بمقاتل كركوك المعروفة).

تظاهرة يبدأ بها عشرات، لا تلبث أن تغدو آلافاً من مستطرقين يجهلون سببها وهدفها(١٦).

ومذكرة احتجاج تحمل عشرة آلاف توقيع لا تعني أكثر من قيام ثلاثة أو أربعة من المعنيين بالأمر بطرق الأبواب وإيقاف عابري السبيل وغشيان المقاهي والمحلات العامة لأجل الحصول على التواقيع. وبهذا الشكل بدت الاحتجاجات والتظاهرات على المعاهدات وعلى الانتداب وكأنها صادرة من شعب مدرك تمام إدراك مصالحه، قدر إدراكه آثار عمله على مصائره. وقد بدت الضجة حول قدوم الآشوريين في الكتب وكأنها تعبر فعلاً عما يخالج ضمير المجتمع، وأنها كما رآها فيصل تنبئ بثورة كاسحة أو تخلّ بروتين الحياة اليومي. مجتمع شبه بدائي سهل الإثارة شديد الحماسة والاستجابة للصخب والضجيج. سيما عندما يُدعى ويُناشد باسم الدين.

* * *

استقر القانون الأساسي العراقي على دعائم الديمقراطية الليبرالية المعروفة في العالم الغربي آنذاك.

---

(١٦) في العام ١٩٥٤ وعلى أثر نجاح انقلاب عسكري في گواتيمالا ضد حكومة اشتراكية المنحى أوعزت موسكو لجميع الأحزاب الشيوعية في العالم بتنظيم تظاهرات احتجاج ضد الانقلابيين وقام الحزب الشيوعي العراقي السري بواجبه، فكان ثم تظاهرة في بغداد ضمت آلافاً كثيرة وبدت وكأنها تنذر بانفجار عنيف، لم يتم احتواؤها إلا بعد إنزال وحدات كبيرة من الشرطة والجيش. وألقي القبض على ما يزيد عن المائة من المشاركين في حين نجح القائمون والمنظمون في الانسلال. وفي مديرية الأمن ببغداد جمع القائم بالتحقيق هؤلاء الموقوفين في قاعة كبيرة وكان من الأذكياء ذوي الخبرة الطويلة. ونشر أمامهم على الحائط خارطة كبيرة للعالم وابتدر حديثه بكلمة سوقية: «گو أنظروا إلى هذه الخارطة جيداً، وكل من يعرف أين تقع گواتيمالا منها فليقف جانباً، وإمرأتي طالق بالثلاثة إن لم أخلّ سبيل من يدلني على موقعها" ولم يخرج أحد.
وشبيه بهذا كنت في السنة عينها وكيلاً عن موقوف بتهمة توقيعه على إحدى مذكرات عديدة نظمها أنصار السلم وخطر ببالي أن أسأله وأنا أعرفه إنساناً بعيداً كل البعد عن السياسة والأحزاب وما إليها: ما الذي حمله على وضع توقيعه على أول مذكرة لأنصار السلم، قال: «قال لي حامل المذكرة: أتحب الحرب؟ قلتُ كلا. قال: فنحن ضد الحروب، أفلا توقع؟ تذكرت حرب رشيد عالي في ١٩٤١، وكنت جندياً مكلفاً في معسكر الرشيد وشهدت رفاقاً لي تتطاير أجسامهم أشلاء في الفضاء بشظايا قنابل الطائرات المنفلقة. فتناولت القلم ووضعت توقيعي». كان هذا بعد ثلاثين عاماً مرت على العهد الذي نتناوله بالبحث الآن.

إلا أن واضعي مسودة ذلك القانون وأولئك الذين صوتوا على مواده لم ينسوا تذكير الأقليات الدينية من هذا «الشعب» المستحدث بالأفضلية الدينية للأغلبية. عندما نص في المادة الثالثة عشرة منه على أن يكون الإسلام دين الدولة الرسمي. وجرى هذا القانون مجرى الدستور المصري الذي وضع موضوع التطبيق قبله بسنةٍ واحدة، وورد هذا النص حرفياً في المادة (١٣٨) منه. وحذا حذوه الدستور الأردني الذي استُنَ في العام ١٩٢٨، فورد في المادة العاشرة منه بعين الصيغة[١٧].

أكان هذا محض صدفة؟ كل هذه الدول كانت ضمن المجال البريطاني الأمبراطوري الحيوي وتحت سيطرته. وموظفوه شاركوا في وضع مسودات تلك القوانين وكان لهم رأيهم الحاسم في صياغتها. وفي كل هذه الدول الثلاث أقليات غير مسلمة كبيرة. في حين خلت مثيلات هذه القوانين التي استنت في سورية ولبنان من مثل هذا النص.

وأذكر من قراءتي محاضر جلسات المجلس التأسيسي العراقي أن هذه المادة المؤلفة من شقين مرت دون مناقشة أو تعديل. ومن دون أن يفطن الأعضاء إلى أن الشق الثاني يجعل من الشق الأول حشواً لا أثر له من الجهة القانونية التطبيقية. كل ما أفهمه من سبب لحشر هذا النص في دساتير ديمقراطية الصبغة هو أن النفوذ البريطاني في هذه البلاد الثلاثة كان يقصد إبعاد نفسه عن تهمة محاباة الأقليات المسيحية واليهودية في عالم الشرق الأوسط الأسلامي.

ولا يزال موطن العجب أن يصر واضعو الدساتير العراقية التالية خلال العهد الذي عُرف بالعهد الجمهوري على تضمين دساتيرهم هذا المفهوم التحذيري وبعين الصيغة، رغم ادعائهم جميعاً بأنهم علمانيون ذوو عقائد سياسية وأن الدين هو رابطة بين الفرد وخالقه لا بينه وبين النظام السياسي الراهن.

إذن فقد صار لهذا النص حرمة وقداسة، وعنواناً لامتياز تأريخي مارسه الإسلام على الأقليات خلال ثلاثة عشر قرناً. وهو يعيد إلى الأذهان العواقب والمآسي التي

---

(١٧) المادة ١٣ من القانون الأساسي: «الإسلام دين الدولة الرسمي. وحرية القيام بشعائره المألوفة في العراق على اختلاف مذاهبه، محترمة لا تُمس. وتضمن لجميع ساكني البلاد حرية الاعتقاد التامة وحرية القيام بشعائر العبادة وفقاً لعاداتهم ما لم تكن مخلة بالأمن وما لم تتناف مع الآداب العامة».

نجمت عن تفوق الأغلبية الدينية وامتيازها على الأقليات، ولا أكثر. هذا التأكيد الحديث على الامتياز الذي خصت الأغلبية الدينية به نفسها امتيازاً وتفوقاً خلال عصور عديدة كان يفضي دائماً إلى عقدةٍ في نفوس الأقليات. وشعور بالنقص الاجتماعي، شعور ثبت في أعماق تفكيرها وتصرفاتها، رغم بصيص أنوار كانت تشع بين الفنية والفينة في مراحل طريق المساواة الطويل.

والشعب الذي هو مصدر السلطات في الدستور؟

بقيت الحيرة في اختيار الكلمة المناسبة لهذا الخليط القومي - العقائدي الذي عرف باسم العراق.

مالت الصحافة والأقلام إلى إطلاق كلمة (الشعب) مع الإصرار على (الوطن العراقي). ولكن السلطة كانت تفضل كلمة «أمة» فمجلس النواب كان يعرف عادة بمجلس الأمة، وفي المنهاج الذي نشره (عبدالمحسن السعدون) لوزارته في العام ١٩٢٨ ورد تعبير «مؤازرة الأمة» ويقصد سكان العراق. وفي خطابات العرش كان (فيصل) يرحب دائماً «بممثلي الأمة»، وفي قانون التجنيد الإجباري للعام ١٩٢٦ تجد في الديباجة: «إن الأمة العراقية انتهزت كل فرصة للإعراب عن رغبتها...

وفي أحيان كثيرة تجد إشارة رسمية أو صحفية إلى «إخواننا أو أشقائنا الدول العربية»، أو «الدول الشقيقة» وهي صلة مبهمة غير واضحة المعالم تستمد قوتها الروحية من ذلك النضال السياسي السري لرواد الحركة القومية في أواخر العهد العثماني ومن النهضة، الفكرية التي شعت أنوارها الباهرة من إنتاج خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت. ومن مطابع اليسوعيين العربية التي أحيت التراث الأدبي العربي بأفذاذٍ من الباحثين والأدباء، وعلى رأسهم الأب لويس شيخو اليسوعي والأب أنطون صالحاني. ولا أذكر أدباء وشعراء المهجر من أمثال ميخائيل نعيمة وجبران وإيليا أبو ماضي. وانحدر كذلك سيل دفاق من نتاج الأدباء والمفكرين المصريين الملتفين حول دار الهلال برئيسها ومؤسسها جرجي زيدان وأبنائه. والمطبعة العصرية لصاحبها اللغوي والأديب الياس أنطون الياس. هؤلاء يعزى إليهم الفضل الأكبر في نشرات الثمرات الأولى من قرائح كتاب وشعراء وعلماء مصريين خلدت أسماؤهم في تأريخ الثقافة العربية كالعقاد والمازني، وسلامة موسى، وإسماعيل مظهر وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل والرافعي وأضرابهم. ووجدت قصائد الزهاوي والرصافي والكاظمي مكاناً فيها إلى جانب حافظ وشوقي. فضلاً عن مساهمة اللغوي الكبير الأديب أنستاس

الكرملي الذي بلغ من عشقه اللغة العربية وآدابها أنه جهر بانتمائه إلى القومية العربية وهو على فراش موته[١٨].

وزحفت العقائد السياسية رويداً إلى تلك المؤلفات وانتشرت بوساطة تلك المؤلفات وغزت الطلبة أول ما غزت، وهي فئة قليلة نسبة إلى السكان، لكنها كبيرة نسبة إلى المتعلمين امتلأت زهواً وإعجاباً بنفسها لامتلاكها ما لا تملكه الأغلبية الساحقة. وانتبهت وتحسست صدق ما يتحدث به هؤلاء المعلمون السوريون واللبنانيون، الذين تعاقدت الحكومة معهم على التدريس سداً للشواغر وإشباعاً لرغبة الآباء في حصول أبنائهم على ما صار ضامناً للوظيفة في المستقبل.

إلا أن هذا التقدم الفكري الحثيث لم يصاحبه أو يواكبه تقدم في أساليب الحكم. وبالإجمال فما يطلق عليه تعبير Pays Politique كان يتألف في العراق كما ذكرنا من مجموعة صغيرة جداً من الموظفين غالبيتهم ضباط عثمانيون سنيون سابقون على رأسهم (فيصل).

إن ضابط الإستخبارات البريطاني (ألفريد د. مكدونالد)[١٩] يعرض لنا وصفاً شيقاً لأسلوب الحكم في العراق الذي لا يعرف موازنة ولا حدوداً في ممارسة السلطة:

«هنا بناء للحكومة مهتز ومضعضع، يفتقر إلى الديمومة. وما يمارسه الحكم على الفرد من سلطة شخصي الطابع، فظيع إلى حدّ لا يطاق. الحكومة هنا ليست مثل ما هي عندنا، فهي آلة إنتاج وشحذ قوانين وحسب. تأخذ مالاً من جيب أحدهم أو تضع مالاً فيه. تمنع شخصاً من إتيان هذا العمل وتسمع به للآخر وبإصرار لا يعرف محاباة!

تدخل منزلاً هنا وهي على معرفة بأن لديك أربعة أبناء أحدهم موظف في دائرة

---

(١٨) قد يكون من الصدد ذكري هنا ما رواه لي الدكتور داود الجلبي أنه عثر على المنزل الذي يرقد فيه بعد عناء في حي رأس القرية فهاله الإهمال الذي يلقاه وأقام الدنيا وأقعدها على الحكومة حتى نُقل إلى دار التمريض الخاصة في المستشفى الملكي ليبقى فيه على حساب الدولة حتى آخر أيامه. ويقول (الجلبي) إنه زاره قبل موته في ١٩٤٧ بيوم واحد وسمعه يجهر بالقول مردداً: إنه عاش عربياً ويموت وهو عربي. وقد أوصى بمكتبته التي لا تقدر بثمن إلى مديرية الآثار العامة. فنقلت إلى متحف الموصل الذي افتتح في ١٩٥٣.

(١٩) الفريد ماكدونالد Alfred D. Mcdonald: منفى الفرات The Euphrates Exile لندن ١٩٣٦ ص٥٤-٥٦.

بريد الموصل. تعرف أيضاً أن لديك ميولاً تركية وهذا يجعلك بطبيعة الحال غير موضع ثقة. تعرف بأنك صديق لـ(حميد مخلوف) قبل أن يجري إبعاده إلى إيران. فأنت في هذه الحالة موضع شك فإنك قد ترسل معلومات إلى إيران. وعلى هذا الأساس يجب إتخاذ موقف معين من دعواك بحقوق السقي ضد (محمد درويش). وستختلف النتيجة اختلافاً جوهرياً في الادعاء بهذا الحق، أو بملكية تلك الأرض إن اتفق وكان (عبدالقادر) متصرفاً (محافظاً) في الوقت الذي تنظر المحكمة الدعوى، أو أنه نقل إلى لواء آخر. وحَل شخص آخر محله

في هذا التعامل الذي يغلب عليه كثيراً الطابع الشخصي والشامل كل ضروب النشاط بما في ذلك أجهزة الحكومة كافة، يغرز في الناس تلك الخصلة التي نفضل رفضها واحتواءها باعتبارها مجرد نفاق. لكنها في الحقيقة لا أكثر من تسويةٍ توفيقية لأي إنسان بسيط يطارده غول افتقاد الأمان وجب عليه أن يسترضي، وأن ينطق بكلمات مناسبة تقطر عسلاً. فموقفه مزعزع لا ثبات فيه إذ لا شيء هنا له صفة الديمومة. إنه يعلم بالواقع أن هذا الموظف لديه عنه فكرة جيدة أو سيئة. وأن هذه الفكرة سيكون لها تأثيرها الحاسم على حياته الخاصة. فيشعر بالأرض تميد تحت قدميه وهو أمامه. وهذا هو عين ما يشعر به الموظف نفسه عند مواجهة رئيسه، فهو كذلك يشعر بالأرض تزلزل حيث هو واقف. يشعر بآخر قطرة من الثقة بالنفس تنزّ منه فمن المحتمل أن يعزل لأن أعداءه تحدثوا عنه بالسوء.

إنسان كهذا لا وقت له ولا رغبة في الإفصاح عن رأيه في الشؤون العامة، ولا يريد قط أن يُشرك جهة خارجية بما يشعر به، فهذه مشكلته الخاصة».

وسكان المدن لا يختلفون في هذا عن سكان الحضر بفارق واحد وهو أن القبائل ظل مرجعها شيخها أو رئيسها في العادة. إن قال لهم احملوا السلاح، حملوه دون أن يسألوا عن الجهة التي سيقاتلونها. وإن بَدأ سكان المدن الكبيرة يفكرون برابطة أخرى إلى جانب رابطة الدين (لا كبديل)، فإن هؤلاء الأخيرين ظلوا إلى نهاية المطاف بعيدين عن التفكير بمصيرهم بحسب مفهوم قومي عربي. قد يقولون إننا عرب وأصلنا من قبيلة كذا، فقط ولا أكثر. ومن لحقته شبهة في ذلك الأصل لم يكن عسيراً عليه اختراع صلة ما لأسرته.

وهذه العلاقة الغريبة بين الحاكم والمحكوم بخطرها الماحق على الحياة السياسية جرّدت الدستور العراقي من كل حيوية ونشاط وجعلته مجرد آلة مخجلة في يد الساسة القوميين[٢٠].

في هذا الجو السياسي المريض الذي ساد مجتمعاً متخلفاً متعدد القوميات والمذاهب منقسماً على نفسه، تسلم جيل جديد في بغداد والموصل وبعض المدن الشمالية مهمة النهوض بالوعي القومي العربي إلى مستوى أيديولوجية سياسية اجتماعية ذات أهداف تخفرها شعارات.

كانت تبعة ثقيلة من المبدأ. حفلت بالثورات، واكتنفها إطار من الإبهام وافتقرت إلى زعامة فكرية وقيادة روحية منزهة واعية. حاول الجيل الجديد المتعلم أن يغتصب قيادتها من رجال الحكم الذين بدا واضحاً إنهم لا يستخدمون سمعتهم القومية التي حملوها معهم من الحجاز ودمشق في معالجة مشاكل الوطن وأهمها طرّاً محاولة خلق شعب موحد من هذا المجتمع المتعدد العنصريات والأديان والمذاهب، بل استخدموها تبريراً لإجراءاتهم، وأداة لدسائسهم ومؤامراتهم المتبادلة في حرب انتزاع السلطة واقتسامها.

---

(٢٠) منذ أول دورة للمجلس في ١٩٢٥ وحتى الأخيرة (السادسة عشرة) كانت الحكومة هي التي تقرر من سيكون نائباً وفي أي منطقة. ومسؤولية الأجهزة الإدارية المحلية كانت في هذا الباب تنحصر في ضمان نجاح من تفضله السلطة. وفي آخر انتخابات برلمانية حصلت (أيار ١٩٥٨) في ١١٨ منطقة انتخابية من أصل (١٤٨)، لم يرشح إلا شخص واحد للنيابة ضد منافس ما. بحيث أن شكلية الانتخاب أي عملية الاقتراع لم يعد لها لزوم. وهو ما يدعى بالتزكية، أي أن أعضاء البرلمان عينوا تعييناً من قبل الحكومة. وحتى لو كان البرلمان غير ذي أهمية وإن الحكومة لا تشعر بأي واجب يحتم عليها تقديم حساب لممثلي الشعب، فإن الحكومات كانت دائماً هزيلة متصدعة لا تتمتع بصفة الديمومة. وتفسير ذلك أن هذه البلاد كانت تساس وتحكم بمجموعة صغيرة جداً يحترب أفرادها باستمرار فيما بينهم للوصول إلى السلطة. وإن نجاح أو فشل واحدة من المؤامرات والدسائس على الحكم كانت تعني للأشياع والحواشي والدوائر المنتفعة والزبائن الفرق بين الرفاهية والإملاق. وبين إعلان ملكية فيصل ومصرع حفيده تقلبت على الحكم يد ٥٨ وزارة بواقع ثماني أشهر وثلاثة أيام لكل وزارة. تداول فيها ١٧٦ وزيراً كراسي الوزارة، معظمهم أناس طارئون، لا وزن سياسي لهم ولا ميزة تؤهلهم. وإنما استوزروا على سبيل المكافأة لخدمة فعلية، أولاً لأجل إكمال الطاقم العددي لتشكيلة اقتضتها حالة معينة، أو إتقاء لشر قد يناله منهم. هؤلاء الوزراء ما إن يتركوا مناصبهم حتى يلفهم ضباب الخمول ويسبل عليهم النسيان رداءه، ويعودون إلى المحل الذي خرجوا منه، بلا ضجة على الأغلب. وبدون أمل في دعوة أخرى مماثلة

لا يمكن الادّعاء بأن حركة القوميين العروبيين الجدد هي ثمرة ثورة فكرية اجتماعية أو نتيجة صدام عنيف مسلح. ولذلك خلت مبدئياً من المحتوى الديمقراطي خلا القضاء على التسلط الأجنبي والاستقلال التام. وهو الهدف الذي بان بوضوح في الصحف القومية وفي آثار الأقلام. وبقيت الحركة العروبية تفتقر إلى زعامة. يعوزها التنظيم. وبدأت لتنتهي متشرذمة تنجذب بين الحين والحين إلى زعامة طارئة. وقيادات موقتة تقذف بها حوادث معينة إلى السطح.

ونقطة الضعف الكبيرة أنها تجاهلت بل وحاربت تطلعات القوميات الأخرى السياسية وواجهت مشاعرها بما يشبه العدوان. كانت الصحف القومية تنعت الآشوريين القادمين بالغرباء وتعزو إليهم نية تجزئة «الوطن العربي» بل وتمادت إلى محاولة الفصل بينهم وبين سائر المسيحيين الآخرين، بالضرب على وتر الأصل العربي المزعوم لهؤلاء الأخيرين. كذلك كانت تجد التركمان مثلهم أغراباً طارئين جاء بهم المحتل التركي وأسكنهم ليكونوا عيوناً له ورقباء.

* * *

كانت الحركة الكردية القومية التي تزامن منشؤها مع الحركات القومية البلقانية وسبقت نظيرتها العربية بثلاثة عقود من الزمن تقريباً، قد تجاوزت مرحلة الزحف على الأربع عندما بدأت خطط البريطانيين تستقر على دمج الإقليم الكردي ببقية العراق. استوت على قدميها وتهيأت لصراع مسلح، بنضوج فكري عند قلة من المتعلمين وبأغلبية من الضباط العثمانيين السابقين. التفّوا حول زعيم قبلي - ديني ودفعوا به إلى طريق اللاعودة في التعامل مع المحتل.

في أواخر العام ١٩٢٢ أعلن الشيخ محمود البرزنجي نفسه حاكماً مطلقاً لكردستان فور عودته من المنفى. وفي العاشر من تشرين الأول من السنة نفسها أصدر في عاصمته السليمانية مرسوماً يقضي بتأليف مجلس وزراء. وفي الشهر التالي اتخذ الشيخ لنفسه عنوان ملك كردستان.

كل هذا تجاهلته صحف بغداد العروبية وغير العروبية. وبقيت تنعت ذلك الجزء من كردستان بلواء السليمانية، الذي هو واحدٌ من المناطق الإدارية (الألوية) العراقية الأربع عشرة. وفي الوقت الذي كانت الصحيفة الرسمية الكردية (روّي كردستان) لا تجد من صفة للضابط السياسي البريطاني (الرائد نوئيل) المعين أكثر من «فيصل» لبلاده، أو ضابط ارتباط بين الحاكم والمندوب السامي في بغداد.

ردت (روّي كردستان) في عددها الأول الصادر في ١٥ من تشرين الثاني على جريدة (الاستقلال) الناطقة بلسان القوميين في بغداد بهذا:

«إنها (أي الاستقلال) تتحدث عن كردستان وكأنها جزءٌ من العراق لوجود علاقات تجارية واقتصادية بينها وبين بغداد. وهي أيضاً تنعت مجلس وزراء كردستان بمجلس الإدارة المحلية. أقوال كهذه تدعو إلى الأسف الشديد. لا يمكن أن يصدق المرء أن يبلغ مثقفٌ هذا المبلغ من الطيش في إصدار الأحكام المتسرعة. إننا لم نتوقع من جارنا الصديق العظيم أن يطأ بقدمه حقوقنا التي يمتد عمرها إلى ألف عام وأن يقطع العلاقات الطيبة بين الحكومتين والشعبين أو أن يعتدي على حدودنا. إن علوم التأريخ والجغرافية شاهد عدل على أن الأمة الكردية كانت تعيش وحدةً قائمة بذاتها. وقد أثبتت هذه الأمة كيانها القومي بوقائع عملية. فأبناؤها لا يقلون ثقافةً وتمدناً وتمكناً من الصناعة والتجارة عن أمثالهم إن لم يتفوقوا عليهم، وكذلك هم يساوونهم في حقوقهم كبشر سوي. ويملكون شروط الأرض والسكان وما إلى ذلك. وإن مبدأ حق تقرير المصير تجيش به نفس كل مواطن كردي وتملأ عقول كل شعب كردستان. إن نِعَمَ الحقوق القومية والحدود الأقليمية التي أقرتها عصبة الأمم حقاً للقوميات، أقرتها لنا أيضاً. ومن أجل المحافظة على نصيبنا في هذا، نحن مستعدون لبذل كل ما وجب علينا بذله من تضحيات وأن لا نضنّ بأي من إمكاناتنا المادية والمعنوية في سبيل ذلك الحق. وإننا لنصرخ بكل اعتزاز بأننا شعب نقي خالص، لا يعرف للخوف معنى وإننا أحرارٌ ولسنا عبيداً»[٢١].

---

(٢١) في مساجلة أخرى مع جريدة الاستقلال كتبت الصحيفة في كانون الأول: «عندما ينطق المثقف بكلمة كردستان فهو لا يقصد به السليمانية وحدها بل يقصد إقليماً جغرافياً واسع الرحاب. ويفكر في شعب كردي موحد القوام كثير العدد. والحدود الطبيعية لهذه البلاد هي حدود واضحة. وبما أن جميع أهالي ولاية الموصل كرد، فما الذي يدعو شعباً غريباً (يقصد الترك) لاستعادتها. ولماذا يريد الآخر (العرب) حيازتها؟». ومما هو قمين بالذكر هنا أن الشيخ محمود عندما أقام دولته الكردية في العام ١٩١٩ لم تكن هناك دولة عراقية. وإنه حين ألقي القبض عليه بعد احتلال السليمانية وسوقه مخفوراً إلى بغداد، زاره وكيل الحاكم الملكي العام (ولسن)، وهو يذكر تلك الزيارة في كتابه: (الولايات) قوله: «ذكرني الشيخ محمود ببنود ولسن الأربعة =

واستمرت مساجلات جانبية من هذا النوع بعد ضم ولاية الموصل رسمياً إلى العراق، وكأن ثم اتفاقاً بين الحكومات وبين الصحافة العربية على تجاهل التطلعات القومية الكردية. وقد برهن القوميون الكرد بأنهم أبعد نظراً وأنفذ بصيرة بالمستقبل من نظائرهم العروبيين(٢٢) خلال تلك الحرب الدبلوماسية كما بيّنا سابقاً. ولم تنتهز الفرصة لإيجاد نوع من صلة أو تقارب يمهد السبيل إلى نوع من الوحدة الفكرية والانسجام الاجتماعي. وبقدر ما كان موقف القوميين العرب هؤلاء في بغداد والموصل سلبياً وأحياناً عدائياً أزاء الأغلبية الشيعية، كان كذلك موقفها من الأقليات القومية.

تتكلم الصحافة والحكومة عن «الوطن الواحد» وليس هناك عملٌ جدي لخلق عجينة موحدة من سكانه، ولا عجب إن وجدنا المجموعات العنصرية والمذهبية في موطن ذلك النزاع تشترط بقاء الانتداب البريطاني على العراق في حالة ضم الولاية إليه. وقد أفاد البريطانيون من موقف المسيحيين واليهود فضلاً عن الموقف الكردي الواعي. رغم أن الاحتياطات لحماية الأقليات التي وضعها البريطانيون في إطار دولي - محلي مزدوج غير فعالة كلما استدعيت لحل مشكلة، أو انتدبت لدفع خطر.

وبدت السلطات البريطانية بعد تخليها عن تطبيق نظام (ساندمان - بروس) تعتمد بشكل متزايد وببعض اطمئنان على الطبقة الحاكمة بطابعها القومي مطلقة الحرية لنشاط الجماعات القومية وصحافتها. وقد حصل هذا قبل ظهور آثار الاتجاه القومي في التعليم، عند وقوعه في أيدي التربويين السوريين واللبنانيين المستقدمين، وهؤلاء لم يكونوا على علم بواقع المجتمع الجديد. إن التشجيع القومي بدا رغم شوفينيته وعدم انفتاحه وكأنه يستقيم مع السياسة البريطانية في العراق، لاسيما ببقاء الأقليات القومية

= عشر وتناول القرآن وأخرج منه تلك البنود مترجمة إلى الكردية مع نص البيان المشترك، الذي كانت بريطانيا وفرنسا قد نشرته (بضغط من الولايات المتحدة) في ١٩١٨ حول حقوق القوميات الصغيرة في الشرق الأدنى» (أوردنا نصه في محل آخر من الكتاب).

(٢٢) أفضل مثال يمكن تقديمه في هذا الصدد هو موقف الشيخ محمود الحفيد عند قدوم لجنة التحقيق الدولية إلى السليمانية لاستطلاع رأي الأهالي. وفي ذلك الحين كان الشيخ معتصماً بالجبال مشتبكاً مع القوات المختلطة بحرب أنصار. إلا أنه توقف فوراً عن عملياته وبقي بعيداً. يقول إدموندز: «كان الشيخ محمود أذكى وأبعد نظراً من إظهار نفسه أثناء زيارة اللجنة، وبقي بعيداً. وقررت اللجنة من جانبها أنه ليس من المناسب استقدام ثائر علني للشهادة. وانتظر الشيخ حتى عادوا فواصل عملياته العسكرية. وكان إذذاك يتلقى تشجيعاً ومعاونة من الأتراك». ترجمتنا: (كرد وترك وعرب)، ص٣٧٦.

والدينية تتطلع إلى البريطانيين كملجأ أخير لها، وكان كذلك مفيداً لمواجهة المشاعر القومية الكردية التي كانت تهدد دائماً بانتفاضات مسلحة، أو انفجارات عدائية عنيفة.

في هذه المرحلة لم يكن هناك ضرورة أو مشروعية في رفع القوميين العرب شعار «وحدة التراب العراقي». لكن عندما صار هذا ضرورةً في أواخر العقد الثالث وأوائل العقد الرابع، بدا هذا الشعار عبارة مفرغة من معنى عند الأمة المثقفة الواعية وعند الأقليات، إذ كانت دعوى القومية العربية (العروبة) قد دخلت طريق اللاعودة في التعصب الشوفيني لا بإنكارها فحسب على الكرد مثلاً حق تقرير المصير، بل بعدم اهتمامها بمحاولة التوصل إلى نوع من التعايش السياسي يؤمن لهؤلاء بعض ما طمحوا إليه. وبسبب الأصرار على هذا الموقف والإيغال فيه سنرى بعد مرور أربعين عاماً أن بعض الفئات والأحزاب القومية العربية التي وثبت إلى الحكم في العراق تراه أرضاً عربية وأن الكرد ينحدرون من أصل عربي أو غلب عليهم الدم العربي منذ العصر العباسي، وأن الآشوريين والمسيحيين كافة هم عرب أصلاً.

إن لجوء البريطانيين إلى تشجيع حركة الوعي القومي العربي في العراق يمثل تحولاً جذرياً في سياستهم المحلية وبديلاً لا مناص منه لنظام (ساندمان - بروس) الذي طبقوه منذ أول اتصال لهم بالعشائر العربية في العراق الجنوبي[٢٣].

---

(٢٣) عرف النظام تأريخياً باسم مستحدثه (سر روبرت ساندمان Sir Robert Sandman) ومطوره (بروس R.I. Bruce) وكلاهما موظف كبير من موظفي الإمبراطورية البريطانية في الحدود الهندية الشمالية خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٦٩-١٨٧٦ تقريباً)، والقصد منه العمل على تطويع وكسب ولاء القبائل البدائية المنتشرة شمال جبال الأندس (بلوجستان) ومن ثم إدخالها ضمن منطقة النفوذ البريطاني في الهند. وكان يقصد به من جهة حماية سكان السند القاطنين على الحدود من غارات القبائل الجبلية ذات المنعة والاستقلالية في الجبال الوعرة المرتقى، ومن جهة أخرى ترصين الدفاع عن الهند ضد الهجمات الخارجية، وبالتالي إلى مد السيطرة البريطانية على بلوجستان. وكان يقضي بتمويل النظام القبلي، وشراء الحاكم المحلي الأعلى خان (كلات). كان هذا هدف (ساندمان) الأول وقد حاول مرؤوسه ثم بديله (بروس) فيما بعد تطبيق هذا النظام على قبائل (مهسود) في الحدود الشمالية الغربية أيام كان مندوباً سامياً في (دراجات). فلم يصب النجاح الذي أصابه سلفه في (كلات)، لأنه وبشكله «السندماني» كان يرتكز بالأصل على نفوذ شخصي لزعيم واحد، وكذلك لأنه بني على التمويل والمساعدات المالية التي تبدو وكأنها عنصر شراء نفوذ غير مؤكد أو ابتزاز ثقة. ولأن قبائل (المهسود) في الحدود الشمالية كانت تتمتع بحرية وديمقراطية لا تتمتع بها قبائل البلوش ولا البروهوي كذلك، ولأن الزعامة فيها لا ينفرد بها واحد وشيوخها الذين يطلق عليهم لقب مالك فهم لا يتمتعون =

واعتمد (كوكس) وضباطه السياسيون فور نزول الحملة البريطانية ساحل البصرة حتى إكمالها احتلال العراق. وأصيب بضربةٍ مميتة في ثورة الفرات الأوسط (ثورة العشرين)، كما أصيب بنكسة مماثلة في كردستان.

كان نظام (ساندمان - بروس) أثناء زحف الجيوش البريطانية أساساً للعلاقة بين إدارتهم الجديدة وبين شيوخ القبائل وزعمائها بنجاح ظاهر تبين فيما بعد أن مبعثه وجود الفرق العسكرية بأسلحتها الفتاكة التي لا قبل للعشائر بمواجهتها يدعمها في الوقت نفسه أسطول جوي عظيم، وبالذهب البريطاني أيضاً.

بقي البريطانيون إلى حين يعتقدون بجدية وقناعة أن هؤلاء الشيوخ الذين محضوهم ولاءهم - في الظاهر - قد يكونون قوات بديلة لقوات عسكرية مرابطة، تقوم على حفظ الأمن وتضمن لهم إخلاد أفراد عشائرهم إلى السكينة وإطاعة القانون.

لكن القبائل كانت عديدة بكل بطونها وأفخادها. والزعماء الروحانيون في النجف وكربلاء والحلة وغيرها يشاطرون الشيوخ نفوذهم في الغالب. بل كثيراً ما كان هؤلاء الشيوخ يحتمون بهم ويلجأون إليهم ليحسموا نزاعاً أو ليبدوا في صورة حسنة عند أفراد قبائلهم. وكثيراً ما كان ينشب نزاع في الأسرة الحاكمة لقبيلة كبيرة متعددة الفروع على الرئاسة العليا للقبيلة، وقد احتدم هذا النزاع عند تطبيق النظام لصيرورته منافسةً على من يكون الأقرب إلى السلطة الجديدة الذي يحظى بسخائها والسلطة التي تخوله إياها، لتجد شكاً منذراً بالانفجار وسوء العقبى. ويزداد الوضع خطورةً عندما يجد الضابط

= بسلطة مطلقة، بل يشاركهم فيها الزعماء الدينيون الذين كانوا يمارسون سلطة مساوية لـ(مالكي) القبائل المذكورة. كان (بروس) يريد إقامة علاقة نفوذ متبادل وحماية متبادلة، أي المنافع التي يجنيها الزعماء من الحضور البريطاني والمنافع التي يجنيها البريطانيون من الولاء القبلي. فالنظام والحالة هذه بأصله وفصله وحتى نهاية العمل به كان يفتقر إلى قوة عسكرية. في حين ما يطلبه البريطانيون منه الاستغناء عن التواجد العسكري للسيطرة على الأرض والسكان بأقل نفقة ممكنة مع الاقتصاد في الأرواح. نقول: من غرائب الصدف أن (بروس) الذي كتب قبل عشرين عاماً من أول احتكاك بريطاني مباشر بالكرد في العراق، نراه يقارنهم بقبائل الهنود مقتبساً فقرة طويلة من كتاب لورد كرزن: (بلاد فارس والمسألة الفارسية) وفيها يدافع هذا المؤرخ ورجل السياسة عن الكرد وما عزي إليهم من الوحشية وسرعة التحول والتمرد. وبعد اقتباسه هذا اختتم (بروس) الكلام بقوله: «لو وضعنا اسم الكرد بدلاً من (المهسود) و(الوزيري) فإن كلامنا ينطبق بعين الصحة على الآخرين» (بروس: سياسة إلى الإمام، ط لندن، ١٨٩٨). [راجع كتابنا يقظة الكرد، ط. أربيل ٢٠٠٢].

السياسي نفسه في دور حكم في نزاع قبائلي على حقوق رعي أو ملكية أراضٍ أو حق سقي. وكان مقدراً لهذه السياسة التي دام عمرها خمس سنوات تقريباً أن تنتهي بقيام معسكر قبائلي من الزعماء المنبوذين معاد للسلطة، لقبيلة واحدة أو قبائل متنافسة. وإلى هذا كله تضاف طبيعة الشيوخ المتقلبة السريعة التحول، وانتقالهم الفجائي إلى موقف عداء بعد ولاء لسببٍ قد يكون تافهاً بنظر الضابط السياسي.

ويورد المؤرخون العراقيون وكُتّاب السير ما يؤيد هذا من الوثائق البريطانية والمكاتبات الرسمية بين الضباط السياسيين ومرجعهم في بغداد. والأمثلة كثيرة. ففي الجنوب كان الصدع الكبير الذي شق عشائر آل فتله العظيمة تسبب به التزام الضابط السياسي جانب آل فرعون، ضد عبدالواحد الحاج سكر. وكذلك انقسام عشائر العبيد في أسفل الفرات بانحياز زعيمها (خيون) إلى السلطة.

وطبق البريطانيون هذا النظام في كردستان، فبدأوا بتعيين الشيخ محمود حاكماً على منطقة واسعة من كردستان مركزها السليمانية وخولوا صغار الشيوخ في مناطق أخرى سلطات إدارية مشابهة بعض الشيء. إلا أن الشيخ كما تبين لهم كان يعمل لحسابه وبالتنسيق مع ضباط سابقين وموظفين مدنيين بهدف سياسي بحثاً عن مستقبل قومي. وعندما فرغ صبرهم منه ونفضوا أيديهم من أمل التفاهم معه حاولوا التعويض عنه أو إقامة جبهة من الشيوخ الكرد معارضة له بالنفوذ، كالسيد طه الشمديناني، وتوسلوا بنفوذ بگزاده الجاف وأصابهم الفشل، بل داعبتهم فكرة استخدام إسماعيل آغا (سمكو) الشكاك، رغم كسبهم زعماء آخرين أمثال شيوخ پشدر، ورجال الدين شبه القبليين كالطالبان من الذين كانوا يجدون يد الشيخ محمود ثقيلة، وسيطرة القوميين الكرد من مناصريه بغيضة وغير شرعية.

قضى البريطانيون على حكم الشيخ وجعلوا منه طريد عدالة. إلا أن فترة حكمه كانت كافية لتثبيت خط النضال القومي الكردي على أسس منهجية، إذ سرعان ما راح الكرد القوميون يتابعون باهتمام كبير ما سيسفر عنه نشاط حزب (الاستقلال: خويبون)[٢٤].

---

(٢٤) تذكر الحوليات الكردية أن مؤتمراً كردياً في العام ١٩٢٧ التأم في إحدى جبال كردستان ضم مندوبين عن مختلف القبائل والمنظمات السياسية فضلاً عن مندوبين يمثلون الثوار الكرد في العراق، وعن أولئك الذين لجأوا إلى الجبال بعد ثورتي الكرد في تركيا. وفي خلاله اتخذت =

في تلك الفترة لم يبلغ القوميون الحضريون العرب هذه الدرجة من التنظيم الحزبي، وظلوا جماعات وأفراداً يلتفون حول صحيفة ما أو ينتسبون إلى بقايا الأحزاب والجمعيات السرية التي تخلفت منذ أواخر العهد العثماني في بغداد والموصل وإلى درجة ما في البصرة.

ولم ينج الآشوريون: المستقرون منهم والقادمون من تجربة تطبيق البريطانيين نظام (ساندمان - پروس) عليهم فبتقريبهم آل مار شمعون أثاروا النزاع القبائلي الذي كانت النكبة المشتركة قد دفنته إلى حين. فكان هناك (مالك خوشابا) زعيم تياري السفلى، الذي ظل يناصب العداء كل خطة لبيت مار شمعون يد فيها. وكان هناك أيضاً تحول عن هذه الزعامة الروحية - الدينية بالاعتماد حيناً من الزمن على المحارب آغا بطرس البازي، ذلك التعاون الذي أدى إلى المغامرة العسكرية الخائبة المعروفة بحملة (منداني).

في تقرير كتبه (ميجر سون) الضابط السياسي المعين في السليمانية، نراه يقتبس فقرة ذات دلالة كبيرة من تقرير كتبه له النقيب لونكريك[٢٥] معاون الضابط السياسي في كركوك قال:

«رغم القبول الذي حظي به نظام (ساندمان - پروس) من عدد كبير من الكُرد،

= قرارات جريئة هامة. فقد تقرر حل جميع المنظمات القومية الكُردية وانضواؤها في إطار حزب واحد هو خويبون، كما اختارت لجنة مركزية للإشراف على نشاط الحزب، وتقرر استمرار النضال «حتى خروج آخر جندي تركي من كردستان». وتقرر أيضاً إقامة قيادة مركزية موحدة وتهيئة مخازن للذخيرة والأرزاق. والعمل على إنهاء الخلافات الأرمنية - الكردية - الآشورية واتخاذ بليدة (كدراڤا) في جبل (آگري داغ) عاصمة مؤقتة. وإجراء حوار مع الشعب الفارسي وحكومته للتفاهم. وإقامة صداقة مع سلطات الانتداب في العراق وسورية. كان ذلك في ربيع العام ١٩٢٧. وفي شهر أيار من السنة نفسها يُعلن في بيروت عن تأسيس الحزب وانتُخب (الأمير جلادت بدرخان) له رئيساً. ويظهر أن ثورة آگري داغ التي قادها (إحسان نوري) كانت أولى ثمار نشاط خويبون السياسي الذي عقبه وفدها إلى عصبة الأمم لشرح الأساليب الوحشية التي ارتكبها الأتراك. في السنة التالية عقدت خويبون مؤتمرها التالي في زوريخ بسويسرا وفيه أدانت الأعمال الوحشية التي ارتكبتها السلطات التركية إزاء الأقليات الأرمنية والآشورية والكُردية خلافاً للمواد ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٤ من معاهدة لوزان التي تعهدت بها حماية الأقليات.

(٢٥) بلغ رتبة عميد قبل تقاعده. وألف كتابين هامين عن العراق: (أربعة قرون من تاريخ العراق) و(العراق ١٩٠٠-١٩٥٠). صدر أولهما في لندن العام ١٩٢٥.

إلا أنه سيشيع النقمة حتماً في نفوس أولئك الذين لا يخدم النظام مصالحهم، مثل سكان المدن والقصبات الكبيرة الذين يرغبون في عودة حكم الأفندية (يقصد الموظفين السابقين العثمانيين). وأنا أخشى أن ينزع الكُرد في ظله إلى الظلم والطغيان ويساوون الأتراك فيهما، بل هناك مخاطر في أن يرفض الفلاحون هذا النظام الجديد».

وختم تقريره بهذا النبوءة:

«وبدون مماراة، إن هذا النظام يضحي بالديمقراطية ويقدمها قرباناً للقومية في مختلف الظروف والأحوال. سيكون سهلاً علينا وإن كرهنا أن نعير أذناً صماء لنداءات الإستغاثة الصغيرة المشروعة ضد من نصبناهم من القبليين».

ونجده في تقرير آخر يشير إلى الأخطار الناجمة عن وضع رجال القبائل تحت رحمة شيوخهم. إلا أنه مع هذا يرى في النظام فائدة واحدة، وهي إنماء الشعور القومي عند الكرد «لأنه ينتشل القبلي من إسار نفوذ الموظفين المهترئ العظيم الأذى. ويحدّ إلى درجة كبيرة من عدد المتجاوزين على مبادئ العدالة والحرية»[٢٦].

في كردستان عمد البريطانيون إلى إسناد وظائف إدارية إلى عدد من شيوخ القبائل. (مدير ناحية، قائمقام، جابي ضرائب الخ) وأمسكوا عن ذلك في الجنوب عند تطبيقهم النظام. وكان من آثار ذلك أن تنامى في الكرد شعور مبهم بأنهم يتخطون العقبات الأولى في طريق أمانيهم القومية وهاهم يحكمون أنفسهم فعلاً وهو أمرٌ لا عهد لهم به من قبل، فقد تعودوا أن يجدوا هذه الوظائف وقفاً على موظفين عثمانيين غرباء.

لم يرقَ استخدام نظام (ساندمان - پروس) في الجنوب إلى حَد استخدام الشيوخ في وظائف إدارية. وقد يكون سبب ذلك صدود الشيعة عموماً عن تقلد وظائف حكومية، أو الخوف من ازدياد حدة النزاع على الزعامة في القبيلة الواحدة، أو خشية تغلب العصبية القبلية في النزاعات المحلية.

كان نظام (ساندمان - بروس) ينسجم في ذلك الوقت مع سياسة بريطانيا المالية في العراق، التي ترمي إلى إنقاص النفقات «إلى حد الربع» وهذا لا يتم إلا بسحب القوات العسكرية رغم تحذير الضباط السياسيين من مغبة ذلك، فقد تُرك معظمهم بحفنة من الجنود والموظفين الهنود. وبقوة من المجندين المحليين (الليڤي) ذابت أمام العشائر

---

(٢٦) تقرير الإدارة لقسم السليمانية (للسنة ١٩١٩) ص٣ و٤. وتقرير إدارة قسم كركوك ص٤١٧.

الثائرة وتركت الضباط السياسيين ليُقتلوا أو يهربوا أو يختفوا.

ربما لم يكن للفصل الخاص بثورة العشرين وجود في التاريخ لو وجدت في الفرات الأوسط قوات ردع بريطانية كافية(٢٧).

---

(٢٧) أغفل الكتاب المؤرخون للثورة أثر سياسة (ساندمان - بروس) البريطانية في قياسها عند تحليلهم بواعثها وأسبابها واستخدم معظم هؤلاء في تعاليلهم مصطلحات عصرية جداً (عملية جداً) بسخاء لوصف الثورة. وإنك لتجد في مؤلفاتهم تعابير من أمثال «تحرر، تبعية، عروبة، وطنية، إقطاع، برجوازية، استعمار، جماهير، شغيلة، إمپريالية. كومبرادور» تجد من الصعوبة بمكان أن تضعها بشكل ينسجم مع الدعوة العامة للثورة إلى الجهاد ضد الكفرة، وتطهير أرض الإسلام منهم. وأما شعار الاستقلال، والخلاص من الحكم البريطاني، فكان يلاحظ فحسب في جريدتين أو ثلاث تصدر في النجف ولا يتجاوز عدد النسخ الموزعة من كل واحدة بضع مئات. كذلك كان هذا يسمع في مجلس المثقف الكبير ذي النفوذ الأدبي في بغداد (يوسف السويدي) والحلقة التي كانت تلتف حوله.

من الكتب (العلمية جداً) التي ألفت عن ثورة العشرين، أطروحة (رسالة) للكاتب السوڤياتي (ل. كوتولوف) ألفها في ١٩٥٨ ونال بها درجة الدكتورية من المعاهد السوڤياتية بعنوان (ثورة العشرين التحررية) هكذا شاء لها عنواناً مترجمُها إلى العربية. وقد حظيت بأكثر من طبعة في أكثر من بلد عربي، لا أراني أستطيع إغفال الكلام عنها من دون أن يعتبر ذلك مني خروجاً عن الصدد. يذكر الكاتب الاجتماعي العراقي اللامع الدكتور علي الوردي حينما تصدى لهذه الرسالة في (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج٥ ص٢٧٤. ط بغداد ١٩٧٨) إنها: "لقيت ترحاباً وفرحاً من بعض الكتاب. وإن أحدهم الدكتور كمال مظهر وصفها في تعليق له عنها نشره في عدد ٣٠ حزيران ١٩٧٠ من جريدة التآخي. بأنها نموذج حي لأسلوب البحث العلمي الحديث الذي نحن بأمس الحاجة إليه لتقييم تاريخنا على ضوئه (ويجيب على القول هنا أنا الذي كنت وقتذاك رئيساً لتحرير هذه الجريدة - بأني كنتُ في ذلك التاريخ خارج العراق. وقد سمح بنشر المقال من قام مقامي ومن دون علمي طبعاً). إن تعليق الدكتور الوردي (وقد نعاه الناعي وقت كتابة هذه السطور) بذلك التعقيب الساخر الرائع القوي الحجة لم يترك لي سوى القليل من التعليق حول هذا النموذج الحي من البحث العلمي الذي جاد به علينا الأستاذ كوتولوف، لكنه قليل لا بد منه. أقول: كثيرة وكثيرة تلك الجنايات الكبيرة على التاريخ العام التي حفلت بها آثار الأكاديميين أصحاب الدرجات العلمية من المعاهد السوڤياتية، عندما لا ينفكون أبداً يحاولون تفسير كل حدث تاريخي على أسس الماركسية - اللينية وبالتفسير الذي وضعه لها (بليخانوف). وما أظن محاولة كاتالوف في حصر ثورة العشرين العراقية ضمن هذين الإطارين كانت سهلة. فمن أمانة على قراءة النصوص العربية التي اعتمدها ومن هداه إليها وهو حي يخلق، ذكر لي إنها كانت محاولة خرقاء قدر ما كانت متعبة. وبالفعل فقد بدا لي عند قراءة ما كتبه كذلك الذي يحاول أن يسحب شريطاً قصيراً من المطاط فوق مسطرة طويلة (مسطرة الماركسية اللينية) لينفلت من يد فيضرب اليد الأخرى. إن لم ينقطع من الوسط. والمسألة هي =

يقول أيرلاند:[٢٨] «كثير من الشيوخ ساهم في ثورة العشرين وحمل السلاح ضد البريطانيين بسبب عداءٍ لأولئك الشيوخ الذين وجدوا حظوة عند الضباط السياسيين يفوق عداءهم للبريطانيين أنفسهم. إنهم ما ثاروا الاّ بقصد وضع حدٍ لتعسف الشيوخ الذين يحتمون بالنفوذ البريطاني».

وهناك كاتب عراقي ربما كان الوحيد الذي نوه بآثار نظام بروس - ساندمان المدمرة، إلا أنه كما يبدو لم يحط علماً بتفاصيل عن أصول النظام وأساليب تطبيقه المتأخرة قبل تطبيقه على العراق. قال ما نصه:

«عندما احتل الإنكليز العراق ساروا على سياسة توحيد العشائر بدلاً من تشتيتها، وقد اتبعوا في ذلك الطريقة التي اتبعها (سر روبرت ساندمان) في بلوجستان عام ١٨٧٥، ومؤدى هذه الطريقة اختيار شيخ واحدٍ في كل منطقة العراق. أو كل عشيرة كبيرة فيه. وتدعيم هذا الشيخ بالمال وبالنفوذ وبالسلاح عند الحاجة لكي يكون مسؤولاً عن الأمن والنظام في منطقته. وبذلك تنشأ منفعة متبادلة بين الإنكليز وهذا الشيخ المختار. فهم من جانبهم يحصرون

= أن لا سبيل إلى طالب الدرجة العلمية للتقدم برسالته إلى اللجنة الفاحصة من غير أن يحشر فيها نصوصاً منقولة عن ماركس أو لينين أو ستالين (قبل أن يأفل نجمه) حتى وإن كانت رسالته في موضوع الكيمياء أو البايولوجيا. فهؤلاء المساكين يعلمون بالتجربة إن الفاحص يبدأ بالنظر إلى ثبت المراجع وعلى مقدار ما ذكر صاحب الرسالة من آثار هؤلاء يتوقف قبول رسالته ونجاحه في طبعها. وقد تواتر على وصف حيرة هؤلاء وارتباكهم في عملية العثور على النص المناسب. ويلجأون في مسعاهم هذا إلى مراجعة وقراءات مستفيضة لا طائل تحتها لأعمال هؤلاء المفكرين الاشتراكيين تزيد في أحيان كثيرة على جهودهم في قراءات المراجع الخاصة بأصول بحثهم. وتبلغ الحراجة أوجها حين يحاولون التوفيق بين مواد تتعلق بمرجع البحث وبين ما عثروا عليه من نصوص اشتراكية، ولما كانت هذه النصوص الأخيرة غير قابلة للتحوير والتحريف، تراهم لهذا يلجأون عند الضرورة إلى تحريف النصوص الأخرى أو تزويرها أو الاختلاق على المؤلفين عند الحاجة. وقد وجد الوردي كثيراً من النصوص التي نقلت عن مؤلفين عراقيين، محرفة مقطعة الأوصال واورد طائفة منها. وتتأتى حراجة المؤلفين السوڤيات وسقطاتهم من ارتباك الحكم على الأحداث التاريخية بوجهة نظر الدولة أو الحزب الرسمية إليها في وقت من الأوقات. ومن شاء التأكد من هذا فما عليه إلا أن يراجع الطبعات المختلفة لدائرة المعارف السوڤياتية اعتباراً من الطبعة الأولى ١٩٣٧ (Bolshia Sovetskaia Entssikopedia). ومقارنة ما دوّن عن مادة معينة في طبعة متقدمة بما دوّن في طبعة لاحقة.

(٢٨) فيليب ويلارد أيرلاند Philip W. Irland: (العراق Iraq لندن ١٩٣٧ ص١٢٢).

السلطة في يده ويفضلونه على منافسيه في المعاملة ويخففون عنه عبء الضرائب وهو من جانبه يقوم بتنفيذ ما يأمرونه به ويحمي مصالحهم»[٢٩].

عولج هذا الفشل عسكرياً وبصرامة غير معهودة من المستعمرين البريطانيين وتم التخلي عنه، سيما بعد أن وجدوا مصداقاً لتحليلات لونگريك أنه ينمي الشعور القومي في كردستان خلافاً لنوايا الحكم البريطاني ورغبته. هذا الفشل كان أحد الأسباب التي دعتهم إلى إقامة حكومة محلية وجلب (فيصل) وطاقمه القومي لملء المناصب فيها. وبتوالي السنين القليلة السابقة على الاستقلال لم يكتف البريطانيون بالإغضاء عن التيار القومي، الذي انطلق في الصحافة والشارع والمدرسة وبشعارات معادية لحكمهم، بل راحوا يشجعونه من طرف خفي ليكون بديلاً من نظام ساندمان. وقد أدركوا أن انتعاش المحيط المدني ونمو الحواجز العرقية وتكاثر الجيل المتعلم الناشئ وسلامة وجودهم لا يتوقف بعد الآن على تطويع الريف العشائري بضمان ولاء زعمائه، وإنما على سكان المدن وطبقتها الوسطى ذات المصالح. ولم يطل بالبريطانيين الزمن ليدركوا بأن تشجيع وفسح السبيل للتيار القومي العربي في الدولة الجديدة يتيح لهم ضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد.

التيار القومي العربي سيكون بحالته التي أرادوها له عامل كبح للتطلعات القومية الكردية، وسلاحاً صالحاً لقراع «الأفكار الهدامة» التي هبت ريحها من الشمال الروسي، كما أنها ستنقل بحكوماتها عبء مسؤوليتها عن الأقليات الدينية - العنصرية. وهي مسؤولية يصر البريطانيون على تسميتها بالمسؤولية الأدبية. لم يكن من مصلحة البريطانيين قط أن تنشأ في هذه البلاد حركة وعي قومي ديمقراطية - ليبرالية المنحى والاتجاه، تهضم معدتها طموح القوميات الأخرى، وتترفع عن التمييز الديني والمذهبي.

وبدأت الحركة القومية سنية المذهب، بواقع قوامها القيادي السني والصدود الشيعي التقليدي. فالطاقم الحاكم الذي جاء به فيصل كاد كله يكون سنياً.

---

(٢٩) زكي صالح: (مقدمة في دراسة العراق المعاصر بغداد ١٩٥٣ ص١٥). نقول إن آثار نظام ساندمان السيئة ومخلفاته بدت بعد عهد الانتداب مادة صالحة في المؤامرات والدسائس التي كان يلجأ إليها بعض رجال الحكم ضد بعضهم بغية الوثوب إلى مقام السلطة. وبدت في ثورات الجنوب المفتعلة.

وبِبناء عراق موحد ديمقراطي كان أمام الحركة القومية الناشئة واجبات ثقيلة ومشاكل خطيرة ترك البريطانيون مسألة حلها لهم - أولها وأعظمها خطورة إنجاح تجربة الدستور الديمقراطي. أي التقيد بمبادئه ونصوصه وأحكامه. وأخرى لا تقل عنها شأناً هي إيجاد حَلٍ عادل ديمقراطي ذي طابع سياسي دائم تعويضاً عن حلم الدولة الكردية المستقلة الذي وأده البريطانيون. لقد كره زعماء الكرد القوميون منهم والقبليون أن يُحكموا من قبل هؤلاء الحديثو النعمة النكرات، الذين قذفت بهم ثورة بعيدة مثلما كانوا يشعرون من حكم بغداد العربي. وهي المدينة التي ماكانوا أبداً يعتبرونها مركز سلطة. وقد أضعف احتمال ولائهم تلك المدة القصيرة من الحكم الذاتي.

والنصف الشيعي من البلاد الذي يشعر بعد ثورة العشرين بمذلة الغلبة والهزيمة وبمرارة صرامة العقاب يجد نفسه فجأة محكوماً ببديل ينتمي إلى مذهب كان في نزاع دموي معه طوال اثني عشر قرناً. وبدا (العصفور) الثالث أخف المشكلتين، لكنه ظهر بالنتيجة أعقدها عندما عولج أمره بمذبحةٍ هزت الضمير العالمي في حينه.

بدا موقف القوميين العرب وبأخف ما يمكن وصفه موقفاً سلبياً من هذه المشاكل. وفي الوقت الذي كانوا يركزون على مطلبي الاستقلال وإنهاء الانتداب وهو يتفق بالنتيجة مع الاتجاه السياسي البريطاني الجديد، لم يكن عجيباً أن نجد الهجمات الصحفية والخطب المندّدة بالمستعمر وبأذنابه (؟) تتفق تماماً مع الدفاع الحار الذي رنّ صداه في أرجاء قاعة عصبة الأمم عن ضرورة إلغاء الانتداب واستقبال العراق عضواً في هذه الهيئة الدولية مستقلاً كامل السيادة!! وممن؟ مِن الدولة التي طلبته لنفسها قبل بضع سنوات! فأمام معارضة الفرنسيين الشديدة وقف المندوب السامي البريطاني (سر فرانسيس همفريز) ليقول هذا:

«لا أحد يفكر في استبعاد الطائرة التي هي من طراز (موث Moth) من معرض الطيران الدولي لأنها ليست سريعة بمقارنتها مع غيرها من الطائرات، ولنقل مثلاً مع الطائرة من طراز (فوكر Fokker) ذات المحركات الثلاثة والشيء بالشيء يذكر، ليس من الصحيح محاولة المحاججة بأن العراق لا يصلح لإدارة شؤونه بنفسه مستقلاً لمجرد أن محرك (ماكنة) الحكومة قد لا تعمل بكفاءة وسلاسة كما تعمل في بعض الدول المتقدمة أو الأكثر تطوراً»[٣٠].

---

(٣٠) من وقائع الجلسة العشرين للجنة الانتدابات الدائمة التابعة لعصبة الأمم.

هاجمت الموقف الفرنسي وسائل الإعلام البريطانية وفي مقدمتها مقالات وتعليقات كثيرة (لورنس العرب) وبشكل أرادت بريطانيا فيه أن تبدو تلك المعارضة في العصبة وكأنها نابعة عن خوفٍ على مكانة فرنسا في سورية ولبنان. وقبلها بسنتين (١١ آب ١٩٣٠) ألقى الشخص بالذات خطاباً أثناء زيارته مدينة السليمانية جاء فيه هذه العبارة:

«رأيت بعض المقامات غير المسؤولة ترى أن سياسة حكومة صاحب الجلالة البريطانية هي التي تشجع القومية الكردية. إن هذا الزعم غير صحيح، لا لأن ذلك يربك الحكومة العراقية فحسب، بل لأنه يربك جارتيها الصديقتين الحكومتين التركية والإيرانية. لا شيء أبعد من هذا الظن عن الحقيقة!».

أما كيف جرى التخلص من المسؤولية عن الأقليات، وكيف تم نقلها إلى عاتق شراكة غير مقدسة بين الهيئة الدولية وبين حكام العراق، فأراها بحاجة إلى بعض تفصيل. استخدم البريطانيون ورقة الأقليات المذهبية والدينية ببراعة في أثناء النزاع على ولاية الموصل. وكانت إلى جانب الموقف الكردي حجر الزاوية في كسب الولاية للعراق. وبدت وهي القوة المحتلة وكأنها الحامي الوحيد لهم والمدافع عن حقوقهم والضامن لعيش كريم لهم في المجتمع الجديد. إلا أنها عجزت عن التوفيق بين هذا الالتزام وبين سياسة التخلي عن حكم العراق لأبنائه. ولم تجد بديلاً آخر غير ربط الدولة الجديدة بتعهد دولي تم به تحويل هذا الالتزام تماماً عن عاتقها وإيداعه إلى رقابة الأسرة الأوروبية المتمثلة في عصبة الأمم. وفي ١٩٣٢ وقع المندوب العراقي هذا التعهد عن حكومته. وبهذا أنهت الحكومة البريطانية واجبها الذي لم يحظ من مندوبها في عصبة الأمم بأكثر من وصفه «بالمسؤولية الأدبية».

حسم المندوب السامي وهو (همفريز) بالذات المسألة أمام مجلس العصبة بشكل بات وبتأكيد البائع اللبق في مناورة صفقة تجارية فريدة المثال، سبقتها ضمانة رائعة محكمة للمشتري سرعان ما ظهر أنها مُهتكة النسج كالغربال قال:

«إن حكومة جلالته تدرك تمام إدراك مسؤوليتها في التوصية بوجوب دخول العراق عضواً في عصبة الأمم فإن برهن العراق بأنه غير جدير بالثقة التي وضعت فيه فإن المسؤولية الأدبية تقع حتماً على عاتق حكومة صاحب الجلالة»[٣١].

(٣١) المرجع السالف. أنظر نصوص خطابه في الكتاب الثاني.

لم يسأل أحدٌ ماذا كان يقصد السر فرانسيس همفريز بالمسؤولية الأدبية؟ من الناحية الفقهية ووفق مبادئ القانون الدولي يبدو أن محاولة تخلص لندن من المسؤولية العملية أمراً لا غبار عليه. فأي تدخل عسكري أو سياسي في شؤون دولة مستقلة في أمور داخلية تخص تعاملها مع رعاياها هو ممنوع بموجب عهد العصبة.

وفي العام ١٩٣٢ استقل العراق وأُلغي الانتداب البريطاني وصار عضواً في هيئة دولية. وتدخلت قواته المرابطة في العراق بموجب المعاهدة الثنائية في عملية إنقاذٍ للقطعات العسكرية العراقية التي طوقها ثوار الكرد في العام ١٩٤٥، كما تدخلت عسكرياً أيضاً للقضاء على ثورات الجنوب في (١٩٣٤-١٩٣٥). وفي هذه المرات كان تدخلها «الفعلي» بسبب من «مسؤوليتها الأدبية» لا غبار عليه فقهياً وقانونياً، لأنه جرى بناءً على طلب من دولة مستقلة حليفة هي العراق.

ولم تتدخل طبعاً لوقف مذابح آب ١٩٣٣ لأن عملية تأديب الآشوريين هي إجراء داخلي بحت يتعلق برعايا عراقيين - وهو كذلك موقف لا غبار عليه فقهياً وتاريخياً.

* * *

يقول ستيفن لونگريك[٣٢] وقد تقدم ذكره:

«أبى الآشوريون في أول الأمر الانخراط في سلك الليڤي رغم محاولات السلطات البريطانية الكثيرة. إلا أنهم قبلوا أخيراً بعد أن وعدوا بتعويضهم عن الخسائر التي تكبدوها أثناء الحرب، ومنحهم أراضي زراعية لغرض توطينهم داخل العراق».

ومر على (الليڤي) زمن والآشوريون فيه قلةٌ نسبةً إلى العرب والكرد المجندين، ثم تصاعدت النسبة بعد تشكيل الجيش العراقي - بالاستغناء عن العنصر العربي ورفض طلب الكرد في التطوع. إن إقبال الآشوريين على الخدمة العسكرية في القوات الإمبراطورية كان مبعثه الحاجة إلى وجه للارتزاق. ونتيجة للضغط الأدبي الذي مارسته أسرة البطريرك مار شمعون عليهم. وقد أبى فريق منهم الانضمام والتطوع، فضويقوا واعتُقل بعضهم.

ويظهر أن تجنيد الغضب الشعبي واستقطاب الكره العام لهؤلاء كان قد تم قبل حادثتي الموصل وكركوك بزمن استناداً إلى شهادة أ. ت. ويلسن الذي قال:

«لم يكن الجفاء والعداء الذي اضطغنه العراقيون لليڤي قاصراً على الآشوريين

---

(٣٢) س. لونگريك S. Longgrigg: العراق ما بين ١٩٠٠ و١٩٥٠» ص٩٣٨. ط لندن ١٩٥٠.

منهم. بل تعداه إلى كل مواطن عراقي انخرط في هذا السلك. في الشارع كنت تسمع كلمة كفار تطلق عليهم أثناء مرورهم، وفي السوق يرفض البائعون التعامل معهم. ولا يُرحب بهم في المقاهي والمطاعم فلا يقدم لهم ما يطلبون. وإن اضطر أصحابها إلى ذلك، عبّروا عن سخطهم بتحطيم الأوعية والأقداح التي أكلوا منها أو شربوا أمام الملأ. وكذلك تعرضت نساؤهم إلى المضايقة، والتحرش بهن ومحصل القول إن التحاق العراقي بهذه القوات كان يعد عاراً ومنقصة»[٣٣].

ولا حاجة للقول إن حادثي الموصل وكركوك[٣٤] كانا واحدة من نتائج هذه النظرة لا من الأسباب.

من السخف إسقاط العامل الباعث على شعور العداء والجفاء - أعني استخدام الليفي في معالجة الانتفاضات المسلحة ضد حكومة بغداد. إلا أن ذلك يجب أن يعتبر بنظر الحكومات العراقية إسهاماً في الدفاع عن الكيان السياسي الجديد وعوناً على خصومها الثائرين ضدها. ووجه الغرابة هنا هو أن تلك الحكومات كانت أبداً تشجع هذا الشعور العام من طرفٍ خفي وأحياناً بشكل سافر في إطلاق العنان للصحافة بكتابة المقالات المهيجة، ونشر الاحتجاجات.

قلتُ: معاذ الله أن أجرُؤ على وصف الآشوريين بالحملان الودعاء، أو أعزو إليهم واحدة من خصائل الملائكة الأطهار، فهم كجيرانهم الكرد والعرب القبليين. أغلقت معاقلهم الجبلية والحكم العثماني عليهم أبواب المدنية، وسدت بأوجههم باب الحضارة العالمية. وتخلّقوا بكل ما في طبائع القبليين من فضائل ورذائل على مرور الأيام والأجيال. لا يسكتون عن إهانة، سريعو الهياج تسهل إثارتهم واستفزازهم، سيما إذا مس التعريض شرفهم. ولقد كان متوقعاً دائماً أن تتفجر هذه العواطف الجائحة ويسفر غليان الدم عن سفك دم. والذي هو من أبناء جيل العشرينات يدرك تماماً أن مبعث الجفاء والعداء كان في مبدأ أمره دينياً صرفاً. ولم يزحف إليه العامل القومي ليستولي على المنظر العام إلا بتأسيس الحكم الوطني، وعندما أصبح مفهوم الوعي به عنواناً للولاء للدولة فـ:

---

(٣٣) توماس أرنولد ولسن T.A. Wilson: «صدام الولاءات Mesopotamia: A Clash Loyalties 1917-1920» لندن ١٩٣١، ص٣٧.

(٣٤) يحسن بالقارئ مراجعة ما كتبناه عن هاتين الحادثتين في الكتاب الثالث من هذا السفر.

«ما من شك في أن السنوات الخمس الأولى من قيام الدولة العراقية حققت الكثير من أحلام القوميين العرب الأوائل. ها هم الآن يملكون جميع المقومات لحكومة عراقية لإقامة دولة عصرية. وكانت نقطة البداية الأولى في مفاهيم الوعي القومي الخاص تنحصر في مدى إظهار الولاء لهذه الدولة»[٣٥].

لم يكن الآشوريون يشعرون بارتياح من وجودهم في العراق. ولم يظهروا رغبة في البقاء وبقيت نفوسهم أبداً تحن إلى موطنهم حكاري. ولم يكن الجفاء الذي قوبلوا به قاصراً على المواطنين المسلمين والعرب. فقد شارك فيه إلى درجة ما بعض الطوائف المسيحية - وعلى أقرب الاحتمال تظاهراً وخشية أن تفسر مظاهر عطفٍ وتضامن معينة في غير صالح العلاقة القلقة بين هذه الطوائف وبين الأغلبية، إلى الحَد الذي شارك بعضهم رسمياً في إظهار سخطهم على الأعمال «الوحشية» التي ارتكبها هؤلاء الدخلاء في (كركوك)، سواء من تصريحات المسؤولين منهم[٣٦] أو بالمشاركة في توقيع المذكرات والإحتجاجات. إلا أن ذلك فيما يبدو لم يكن كافياً ليزيح عن صدورهم كابوس الخوف العظيم من قيام مذبحة عامة فيهم، خلال تصاعد الحملة القومية على الآشوريين في صيف العام ١٩٣٣. وهو ما أذكره جيداً. ولم يتعد فيه (ستافورد) الحقيقة إذ يثبته.

يقول المؤرخ العراقي الأستاذ (إيلي خضوري):

«ما إن فاز العراق بكامل استقلاله وحريته غير المقيدة حتى عمّته الفوضى وساده العنف من أقصى جنوبه. وربما كان أفظع الأحداث وأشدها هولاً ذلك

---

(٣٥) أنظر ستيفن لونكريك: المرجع السالف. الباب الرابع. فصل٧.

(٣٦) من أقوال فتح الله سرسم ممثل الموصل في المجلس التأسيسي (ج١ ص١٩٥): «إن المسلك الذي أقدم عليه الليفي الآشوري مذموم وموجب للتقبيح والأسف. وهم يتحملون مسؤولية مقتل عدد من المسيحيين المحليين. إني أشكر المواطنين المسلمين باسم المسيحيين في العراق على عواطفهم الشريفة التي امتازوا بها عن سواهم. وأضم صوتي إلى المطالبين من الحكومة بمعاقبة الفاعلين دون رحمة واتخاذ التدابير المؤثرة لعدم تكرار هذه الحوادث في المستقبل».
وكتبت جريدة العراق (رزوق غنام) العدد ١٢٢٤ (أيار ١٩٢٤): «إن حوادث الموصل وكركوك أثبتت وبشكل قاطع أنه لا يمكن الائتلاف مع الآشوريين الذين لهم طباعهم الخشنة وأحقادهم التي تغلي في صدورهم وبعدهم عن معرفة الجميل. كما أنه لا يمكن الاتفاق معهم. فالجروح التي فتحوها في صدور العراقيين لا يمكن أن تلتئم. وقد طلبت إلى الحكومة إنزال العقاب الصارم بحقهم».

الحدث الذي مُيّز فيه طابعٌ معين للعلاقة بين حكام المملكة العراقية ورعاياهم، تلك التي افتتحوا بها سجل تاريخ الدولة الجديدة وهذا الحدث هو المذبحة الآشورية»[٣٧].

وكالكرد فوجئ هؤلاء بقرار بريطانيا رفع غطاء الحماية عنهم بتخليها عن الانتداب. جراح الكرد لم تلتئم بعد من الطريقة التي محقت بها حركاتهم الاستقلالية القومية. الحقد المتنامي الذي كسبه الآشوريون من حكام العراق والحركة القومية جراء صيرورتهم أداة عسكرية بيد الدولة المنتدبة. أمسك هاتين القوميتين قلق عظيم من فكرة العيش في ظل حكومة بغداد المستقلة. فتوالت وفود لهم إلى السلطة البريطانية المحلية والحكومة في لندن إلى جانب مذكرات رفعت بتوقيع بطريركهم. فرُد عليهم كالكرد بلهجة جازمة حاسمة أنهم لن يعطوا أي شكل من أشكال الإدارة المحلية التي رغبوا فيها. وردت الحكومة البريطانية جواباً على مذكرة رفعها الآشوريون إلى عصبة الأمم بهذا:

«إنهم (أي الآشوريون) مقتنعون عندما يغدو العراق دولة مستقلة عضوة في عصبة الأمم بأن لا حاجة تدعو إلى أي تمييز لمصلحة الأقليات القومية والدينية أكثر من تلك الضمانات العامة التي أخذناها في الماضي من المرشحين الآخرين الذين قُبلوا أعضاءً في عصبة الأمم»[٣٨].

---

(٣٧) ايلي خضوري Elie Kedouri: شؤون السياسة في الشرق الأوسط Politics in the Middle East، أكسفورد، ط ١٩٩٢، ص٢٠١.

(٣٨) يقصد بها من قبل من دول آسيا وأوروبا وأفريقيا أعضاء في العصبة خلال السنوات العشر التي مضت ١٩٢٢-١٩٣٢.

الفصل الرابع عشر

فرض الانتداب الفرنسي على سورية. سورية الطبيعية. آراء (مس بل). اخذ الفرنسيين بالتعددية القومية والمذهبية وتشجيع الحكم المحلي. إقامة دويلات ضمن اتحاد سوري فدرالي. انتفاضة في دمشق وقصفها بالمدفعية. سن الدستور. سلطة الانتداب ترفضه. الهجرة اليهودية. ضيعة الحق العربي بفعل زعمائه. مواقف الزعماء القدماء والقيادات الزائفة المرتجلة. إعلان ابن سعود نفسه سلطاناً في ١٩٢١ بعد استيلائه على الحجاز. الهوية المصرية. الجيل الوطني الجديد. ظهور الاشتراكية ونشاط الشيوعيين. المجهودات القومية في أرجاء الهلال الخصيب: سطحيتها، لهجتها الحماسية. مجرد الخطب والقصائد. الضرب على وتيرة التذكير بالمجد الغابر والإمبراطورية الزائلة. خلو الدعوة من المبادئ الانسانية والديمقراطية. التركيز فحسب على الاستقلال وطرد الأجنبي. معركة بين محبّذي السفور وبين الحجاب تاخذ طابعاً سياسياً وعقائدياً. نادي التضامن القومي. اتجاه جديد في العمل على «وطن عراقي» بدلاً من شعار «العراق القومي». حادثة النصّولي. احتجاج الشيعة. مجيء (الفريد موند) إلى العراق. قيام التظاهرات وطلب طرده لممالأته الصهيونية. مظاهرة العشرين الفاً. القضية الفلسطينية في مقدمة قضايا الوطن العربي. إنهاء الانتداب وإلغاء المعاهدات. مشروع وحدة الهلال الخصيب تحت التاج العراقي. فشل المشروع بعد تحبيذ القوميين له ثم معارضتهم. القوميون العرب وافتتانهم بالحركة الفاشية في إيطاليا. موسوليني معبود القوميين. دراسة التاريخ العربي ذات الجانب الواحد. (ابن سيار) والمبالغة العربية. الحصري: آراؤه، تعريفه للقومية العربية، وتقديره للهوية والانتمائية.

ربما كان هناك بعض الحقيقة في ادعاء الحكومة البريطانية وصحف لندن بأن معارضة فرنسا في إنهاء حالة الانتداب على العراق في مجلس العصبة إنما جاءت نتيجة تخوّف هذه الدولة على سلطتها في سورية ولبنان، والتأثير الذي سيحدثه انتقال العراق

إلى مرحلة الاستقلال على نشاط الجبهة القوميّة السورية التي كانت تطالب هي الأخرى بإنهاء الانتداب الفرنسي.

الخطّة السياسية التي اتبعتها فرنسا في حكم حصتها من سورية الطبيعيّة كانت تختلف بالأساس عن الأسلوب البريطاني في العراق[1]. فهنا اتبعت سياسة أملتها مصالحها في ذلك الزمن فحسب. وعمودها الفقري أهمية العراق الستراتيجية، وتأمينه لها خط مواصلات بين الجزر البريطانية وبين الهند وأفريقيا الشرقية، والشرق الأقصى من خلال قناة السويس، وكذلك الخط الجوّي والبرّي الذي رسم حديثاً بين البحر المتوسط والخليج الفارسي. قدر ما أملته عليها مصالحها الاقتصادية المتعددة الجوانب وأكبرها شأناً منابع النفط واستغلاله، الذي ألّفت دفائنه وحدة متكاملة متواصلة من شمال العراق القصّي إلى جنوبه القصّي، كما أثبتته شروط الامتياز.

في سورية ولبنان كان الأمر مختلفاً. الفرنسيون والحكم الشريفي الذي أقامه (فيصل) مع ضباطه العروبيين وعيونه ومساندة عدد من أفراد الأسر السورية العريقة النافذة الكلمة، نظام كان الاضطراب سداه والفوضى لحمته على قصر عمره. وقد وصفتهُ (گرترود بل) في تشرين الأول ١٩١٩ إثر زيارتها سورية:

«بأنه أسوأ من الحكم التركي قبله بعام واحد. وبمحاكم أكثر استعداداً

---

(١) إن اهتمام فرنسا بالسيطرة على سورية الطبيعية، لاسيما المنطقة الساحلية، قد يعود إلى الزمن الذي عقد فيه الملك (فرنسوا الأوّل ١٤٩٤-١٥٤٧) مع السلطان العثماني (سليمان القانوني ١٥٢٠-١٥٦٦) اتفاقية الامتيازات Capitolations، التي أعطت فرنسا الحق من أن يمارس قناصلها سلطة حماية الكاثوليك في سورية، وحاولت فرنسا زمن حملة نابليون على مصر السيطرة على سورية، ففشلت عندما اندحرت جيوشها أمام عكا. وحاولت ثانية تدخلاً عسكرياً في ١٨٦١ إثر مذابح دمشق للمسيحيين، إلاّ أن ذلك فشل بالتدخل الأوروبي. يذكر العسكري المؤرخ إلويه Elouet (الحملة السورية ١٨٦٠-١٨٦١ Expedition de la Syrie ١٨٠٠-٦١) باريس ١٨٦١ ص٤٠٢ ما خلاصته: شرعت وزارة الحرب الفرنسية في أيلول ١٨٦٠ بوضع خطة إنشاء (الدولة السورية اللبنانية المستقلة) تحت الحماية الفرنسية. وأكد رئيس أركان الجيش الفرنسي للمؤلف أنه لو استطالت إقامة القوات الفرنسية سنة أخرى لأمكن إنجاز الاستعداد لإنشاء دولة مارونية. أما السفير الفرنسي في إستانبول المدعو (لافاليت) فقد رسم للجنرال (دوكر) صورة للإمبراطورية العربيّة التي سيتسنى للفرنسيين إقامتها من أقطار الجزيرة العربيّة والشرق الأدنى على رقعة تمتد من شرق قناة السويس حتى دجلة والفرات وتكون (بغداد) عاصمتها و(مكة) مركزها الديني. إلاّ أن الجيش الفرنسي الذي انسحب في تموز ١٨٦١ لم ينجح في أكثر من رسم نظام حكم ذاتي لجبل لبنان (متصرفية لبنان الممتازة) كما مرّ بيانه.

للارتشاء وباتساع رقعة الفساد المعتاد بين الموظفين صغارهم وكبارهم، هو من الوضوح بحيث لا تخطئه عين، في حين انشغل ضباط فيصل في إثارة القلاقل في ميسوپوتاميا وفي مدن الساحل السوري ضد الحاميات الفرنسية والمناطق التي كان أهاليها يشايعون الفرنسيين. وكالعراق أيضاً لم تكن الحدود مع تركيا واضحة أو مرسومة، وكان من مصلحة الأتراك الكماليين أن يخلقوا المتاعب للفرنسيين إمّا بعمل مباشر أو بالتعاون مع ضباط فيصل وقبائل الدروز التي كانت كقبائل الجنوب الشيّعي العراقي شوكةً في خاصرة الحكم العثماني، ما لبثت الحرب والحكم الشريفي أن خلقت لها ظروفاً أصبح زعماؤها معها أشدّ كرهاً ونفاراً من أي وقت مضى - من وضع نير الحكومة المركزية في أعناقهم».

لم تكن (بل)، وكثير من أحكامها يخلو من التسرع والعاطفة أو المحاباة، تتعدّى في هذه الحالة الواقع قطّ بوصفها الدقيق للحالة في سورية.

جاء الانتداب الفرنسي ليضم في إطار حكمه الجزء الأكبر من ولاية حلب العثمانية، وجزءاً من ولاية دمشق، وولاية بيروت من أقصى شمالها، مع أن أغلبية سكان هذه الأرض هم على المذهب السنّي، إلاّ أنها ضمّت أقليات قومية وطائفية ومذهبية ودينية مقاربة للعراق عدداً. فإلى الجنوب انتشر الدروز الذين اعتنقوا ديانة سِريّة لها وشائج وأصول شيعيّة ومعظمهم يسكن جبل الدروز وسهل حوران. وفي الشمال الغربي هناك العلويون أتباع مذهب سري امتزجت فيه العقائد الشيعية بالغنوصية[٢]. رماهم علماء السنيّة بالزيغ والشرك. وإلى أقصى الشمال كان الأرمن والترك والعرب يساكن بعضهم بعضاً في المدن والقرى أو يتوزعونها فيما بينهم، و(الجزيرة) في الشمال الشرقي كان يشغلها الكُرد والمسيحيون السريان والبدو العرب والآشوريون اللاجئون، الذين أفسح لهم الفرنسيون أثناء الحرب وبعدها والذين سمحوا لهم بالإستقرار بعد المذابح الآشورية في العراق.

---

(٢) Gnosticism شكل من أشكال الديانات الثنوية. رأى أهله أن المادة التي أوجدها (خالق الكون) وعند (أفلاطون) هي شرّ والروح هي خير والخلاص يأتي من المعرفة الذاتية (السرية) Gnosis التي تعطى للسالكين. وقد شاع هذا الدين قبيل مجيء المسيحية وبقي يهددها طوال قرنين، ثم اندثر وبقيت آثار له. ويرى علماء العقائد أن فيه آثاراً من الديانات البابلية والمصرية والزرادشتية.

وعلى النقيض من سياسة البريطانيين في العراق كما مرّ، أخذ الفرنسيون في الحساب واقع التعددية القومية والمذهبية عندما شرعوا في التنظيم الدستوري والإداري. فهم والحالة هذه إنما يطبقون حرفيّاً المادة الأولى من صك انتدابهم على سورية:

«على الدولة المنتدبة، بقدر ما تساعفها الظروف، أن تعمل على تشجيع الحكم الذاتي المحليّ».

وقد خلا صك الانتداب البريطاني فى العراق من مثيل لهذه المادة وكان خلوّه مقصوداً. فكل من الدولتين صاحبتي النفوذ الأكبر في عصبة الأمم صاغ انتدابه بالشكل الذي يلائمه. الفرنسيون كان يلائمهم تشجيع الحكم الذاتي المحلي، في حين كان البريطانيون قد قرّ قرارهم منذ ١٩٢٢ على حكومة للعراق ذات طابع مركزي، تكون فيها الأغلبية الناطقة بالعربية سيّدة النظام والميدان. رغم وجود كتلة من السكان الكُرد في أقليم شبه مغلق أو خالص لهم.

أود هنا أن أجلب الانتباه إلى وثيقة بريطانية احتوتها رسالة من المندوب السامي (پرسي كوكس) إلى وزير المستعمرات (ونستون تشرشل) مؤرخة في ٢٥ من تشرين الثاني ١٩٢١، فيها ملخص له لما دار بينه وبين فيصل في اجتماع لهما حضره كلّ من (هيوبرت يونگ وكورونواليس) كتب يقول:

«قلت له (أي لفيصل)، من سياسة حكومة صاحب الجلالة تشجيع القوميّة العربيّة، لا الإمپريالية العربية. إن المنطقة التي تسلمت فيها حكومة صاحب الجلالة مسؤولية الحكم كان الخطّ السياسي الذي اتبعته لإدارتها وتصريف شؤونها يتسم بالواقعية والعمليّة كما يتراءى لي... ورغم عدم وجود خطوط واضحة المعالم تقف عند سفوح الجبال التي تفصل الأهالي العرب عن غير العرب، فالمواطنون هناك كُرد خلا مجتمعات صغيرة العدد من التركمان. هذه البلاد التي سنطلق عليها اسم كردستان تسهيلاً قد يكون من الأفضل أن تمنح حكماً ذاتياً بشكل ما ضمن إطار الدولة العراقية...»[٣].

كان مجرد اقتراح فحسب من دولةٍ محتلّة تملك كلّ المقدرة على وضع ما تقترحه موضع التطبيق العملي، إلاّ أنها وقفت عند هذا الحد لأسباب أخرى طرأت على

---

(٣) الوثائق الرسمية No. 616-25 Nov. F.O. 371-6347

مواقفها السياسية الدولية مما سآتي إلى تفصيله بعد قليل[٤].

احتّل الفرنسيون سورية بعد اشتباك قصير مسلّح مع فيصل وأتباعه العرب السنيّين، أولئك الذين ظلوا يخشون مناصبتهم العداء لانتدابهم. وكانت فرنسا كذلك تعتبر نفسها حامية للمارونيين في لبنان خاصةً، وللكاثوليك بصورة عامة في كلّ من سورية ولبنان. فكان مرامها حمايتهم من سيطرة قد يحاول المسلمون ممارستها عليهم بسبب من تفوقهم العددي والسيادة التقليدية التي اعتادوها تأريخياً على غير المسلمين، فوجدوها حقاً مكتسباً من طول الحكم الإسلامي في تلك الربوع.

ووضعت السلطة المنتدبة في حسابها أيضاً الاحتياط للفروق العظيمة والمنافسة الاقتصادية، التي استحكمت تأريخياً ومن أقدم الأزمنة بين المركزين السوريين الرئيسين: دمشق وحلب. فأولاهما كانت تنظر دائماً شرقاً نحو بادية الشام وجنوباً نحو جزيرة العرب، في حين كانت حلب وهي المركز التجاري العظيم الخطر تنظر أبداً إلى الشمال والشرق حيث الموصل وحكاري وكردستان وبلاد السريان والآشوريين، وكذلك إلى الغرب حيث الإسكندرونة واللاذقية وساحل المتوسط، وتلك هي الطائفية والمذهبية التي بدت في أكثر الأحيان تتحدى محاولات الوحدة القومية ولا تقيم لها وزناً.

---

(٤) يعلق الكتاب الكُرد أهميّة كبيرة على التصريح الرسمي الذي صدر في ٢٥/ ١٢/ ١٩٢٢ وأراهم يخطئون كثيراً في اعتباره اعترافاً رسمياً من الحكومتين صاحبتي الشأن بحق الكُرد في حكم ذاتي وعملهما على تحقيقه وهذا نصه: «تعترف حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة العراقية بحق الكُرد الذين يعيشون داخل العراق بحدوده الحالية في إقامة حكومة كُردية ضمن هذه الحدود. وتأمل الحكومتان أن العناصر الكُردية على اختلافها ستتوصل بأسرع ما يمكن إلى اتفاق فيما بينها حول الشكل الذي ترغب أن تقوم تلك الحكومة والحدود التي ترغب في أن تمتّد إليها. وأن يرسلوا موفدين ذوي صلاحيات إلى بغداد للتداول في العلاقات الاقتصادية والسياسية مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية والحكومة العراقية» آه. لم يكن هذا (الاعتراف) يعني شيئاً مطلقاً ولم تتخذ أية خطوة قوليّة أو عملية لتحقيقه، و لم يك في نظر مصدريه يسوى الورق الذي سُطّر عليه. وهو في الواقع واحدة من عدة محاولات قصد البريطانيون منها تحويل عدد من الشيوخ الدينيين وزعماء العشائر عن إسنادهم ثورة الشيخ محمود أو العمل على عزله. ففي كتاب (كرد وترك وعرب) (أنظر ترجمتنا الص ٢٨٠-٢٨١) لا يخفي إدموندز مؤلفه وهو مجرد ضابط سياسي صغير في كركوك، بأنه كان المقترح لإصدار مثل هذا البيان. واصفاً بإسهاب الغرض الحقيقي منه، منتقداً صياغته واستخدام كلمة «حكومة» فيه وكيف أنه حمله إلى الشيخين الدينيين (عبدالكريم قادركَرَم وطالب الطالباني) وقام بترجمة البيان لهما وصفاً شيقاً لا يخلو من فكاهة، وبصراحة القول إن البيان ما صدر إلاّ لتحييد ثورة الشيخ محمود وإزاحته.

ولذلك أنشأ الفرنسيون في أيلول ١٩٢٠ (دولة حلب) ودولتي دمشق واللاذقية. وفي العام نفسه فصلوا دولة جديدة رابعة باسم (دولة جبل الدروز). وفي السنة عينها ألّفوا من هذه الدول الأربع اتحاداً فدرالياً. وفي ١٩٢٤ أحدثوا تعديلاً في هذا الاتحاد بأن ضموا دولتي حلب ودمشق بعضهما إلى بعض وضموا لواء الأسكندرونة، (سنجق عثماني سابق) ذي الأقلية التركية الكبيرة إلى هذا الكيان ليجعلوا منها كلّها وحدة سياسية(٥) كما اتخذوا للاذّقية اسم (دولة العلويين).

بموجب صكّ الانتداب الذي صادقت عليه عصبة الأمم في تموز ١٩٢٢ كان يقتضى سن دستور للبلاد التي وقعت من حصة فرنسا خلال مدة أقصاها ثلاث سنوات من بدء الانتداب. ولم يكن ذلك ممكناً بسبب الانفجارات العنيفة التي بدأت بانتفاضة ضد الحكم الفرنسي في آب ١٩٢٠ في منطقة حوران، وأخرى في ١٩٢٢ وثالثة في ١٩٢٣ التي انداحت إلى جبل الدروز(٦). إلاّ أنها لم تكن بالحجم الذي أسفرت عنه

---

(٥) سُلّم هذا السنجق إلى الأتراك في ١٩٣٦، ونجم عن هذا هجرة عشرات الألوف من العرب والمسيحيين والأرمن إلى سورية. على أن هذا الكاتب الذي مَرّ بمدينة أنطاكية بعد عشرين عاماً وتجول فيها وجد اللسان العربي سائداً مرافقها جميعاً. وبدا حنين أهلها إلى لسانهم واضحاً من الحفاوة العجيبة التي لقيها عندهم.

(٦) كثر تذمر قائد الثورة (سلطان باشا الأطرش) من التدابير الإدارية الشديدة التي اتخذتها السلطات الفرنسية والتي مالت إلى الحدّ من سلطة واسعة شبيهة بالحكم المطلق الذي اعتاده مع أسلافه الآخرين في العهد العثماني، لاسيما في العام ١٩٢٥ عند تعيين الجنرال (ساراي Sarai) مندوباً سامياً. وأمسك الخوف بقلوب شيوخ الدروز من تضاؤل نفوذهم على أتباعهم بانتقالها إلى يد موظفي الانتداب، ومن ثم إلى مجلس المندوبين السوري الذي أقامه الفرنسيون في جبل الدروز أسوةً بسائر الدويلات السورية الأخرى. وهو شبيه ببعض ما شعر به شيوخ الفرات الأوسط عندما قاموا بثورتهم في ١٩٢٠. من جهة أخرى ثقل على الجبليين هؤلاء الروتين البيروقراطي بإناطة جباية الضرائب بهذا المجلس. كما كان هناك تذمر كبير عندهم بسبب تجنيدهم لأعمال البناء والإنشاءات، وهم شعب محاربٌ أصلاً معتاد دينياً وتقليدياً على إطاعة زعمائه. وبدأت الثورة بحادثةٍ. فقد أمر الجنرال (ساراي) بمثول خمسة من زعماء الدروز أمامه في دمشق ليتحدث معهم حول المطالب والشكاوى. إلاّ أنه ألقى القبض عليهم فور وصولهم وأبعدهم إلى تدمر. ورفع الدروز السلاح في ١٨ من تموز ١٩٢٥. وفي الثاني من آب وقع في كمين أعدّه الثوار رتل من القوات الفرنسية أرسل على عجل لإنقاذ حاميّة السويداء (عاصمة الدروز) المطوقة، ففتك الثوار بأفراد الرتل عن آخرهم، واستولوا على تجهيزات وأسلحة الثمانمائة الذين ذبحوهم. وزاد النصر من ثقة الأطرش قدر ما أضرّ بهيبة الفرنسيين ومقامهم. كانت فرنسا في عين الوقت تواجه في شمال أفريقيا ثورة مماثلة بقيادة عبدالكريم الريفي. وبدا موقف =

ثورة جبل الدروز، تلك الثورة التي امتدت واتسعت لتشمل أجزاء أخرى من سورية واقتضى الفرنسيين القضاء عليها حوالي عشرين شهراً وخسائر جمّة في الأرواح. وفيها تمّ قصفّ دمشق بالمدفعية.

وما لبثت أن عَمت جميع سورية وتولى قيادتها زعماء قوميّون في دمشق وأعضاء أسر دمشقية عريقة، مُتحدرة من سلالة الموظفين العثمانيين الكبار، ومثقفين من القوميين العرب السنّيين، لاسيما أولئك الذين ساندوا حكومة فيصل أو شاركوا في ثورة الحجاز الشريفية أو كانوا في خدمته حتى نهاية حكمه في الحجاز.

ومع أنه لم تكن تجمع بين هؤلاء وبين (سلطان الأطرش) ورهطه جامعة فكرية أو هدف، فقد وجدوا في ثورته فرصتهم المنشودة لزعزعة الانتداب الفرنسي الذي لم ينسجموا معه أو يتوصلوا إلى تفاهم، كما توصّل أمثالهم في العراق مع الحكم البريطاني، بل ظلوّا ينظرون إلى الخلف بلوعةٍ وحنين لحكم (فيصل) القصير الأمد وإلى حلم الاستقلال في دولة يتولون السلطة فيها، وقد ظهر لحظةً ليأتي الحكم الفرنسي الشديد فيزيحه[٧].

وناب أحدهم عن الجميع[٨] بالسعي إلى (الأطرش) ليتفق معه على إعلان حكومة

= الفرنسيين مضعضعاً. واتسعت الثورة، وتسللت عصابات درزية إلى غوطة دمشق وانضم إليها القرويون من القرى التي تحف بالمدينة ولا نية لهم غير السلب والنهب، وبلغ بعض هؤلاء أحياء دمشق الداخلية في شهري آب وأيلول. وكان ما كان من توجيه الفرنسيين مدافعهم إلى تلك الأحياء وقصفها، وفيها قال شوقي قصيدته الشهيرة ومطلعها:

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق

وفي (حماه) قاد ضباط عثمانيون سابقون فروا من الفرقة السورية - الشبيهة بقوات الليفي الآشوري التي شكلها الفرنسيون - ليقودوا الثوار فيها. وكان ثم اضطرابات في حلب أيضاً.

(٧) أسس القوميون العرب والوطنيون السوريون (حزب الشعب) إثر ما دعوه بالمؤتمر الوطني في حزيران وجاء في منهاجه: العمل لتوحيد سورية بضمّ كلّ الأقطار المشمولة بحدودها الطبيعية. وإقامة دولة لامركزية لضمّ دول سورية والعلويين وجبل الدروز والأقضية الأربعة التي فصلت عن سورية وألحقت بجبل لبنان. لم يكن حزب الشعب الوحيد في الميدان. فقد وجد ما عرف بحزب (الاستقلال العربي) و(الحزب القومي العربيّ) و(عصبة العمل القوميّ) و(حزب الاتحاد السوريّ). كانت الأحزاب ذات الاتجاه القوميّ هدف ملاحقة السلطات الفرنسيّة. ففي وقت من الأوقات مثلاً لم يجد رئيس حزب الاستقلال العربي مندوحة من الهروب إلى عمان. كما هرب عدد من أعضاء الأحزاب الأخرى البارزين الآخرين إلى مصر.

(٨) هو عبدالرحمن الشهبندر ١٨٨٢-١٩٤٠ أحد الزعماء القوميين رئيس حزب الشعب ووزير =

«سورية الوطنية» برئاسة (الأطرش) نفسه.

محاولة لم يكتب لها النجاح وباءت بالفشل. فبعد ستة أشهر من اشتباكات موضعية تمّ إخضاع جبل الدروز والقضاء على آخر جيوب الثورة.

وخلافاً للبريطانيين في عين المناسبة في العراق، لم يقدم الفرنسيون مسوّدة مهيأة للدستور المقترح، وترك المندوب السامي أمر صياغته للجمعية. ونصّ القانون المصاغ على أن يكون لسورية نظام حكم جمهوري. وأخذ بالمبادئ والأسس الديمقراطية الغربيّة وكان على غرار دساتير المستعمرات القديمة وتلك البلاد التي وضعت تحت الوصاية - وحظيت بموافقة عصبة الأمم. أخذ هذا القانون بنظام المجلس الواحد بدلاً من نظام المجلسين لا كما هو الحال في دستور الدولة المنتدبة أو في القانون الأساسي العراقي. وكان فيه ستّ مواد صيغت وضُمّنت بمجهودات الكتلة الوطنية، خلافاً لرغبة الفرنسيين وإرادتهم: وحدة سورية ولبنان، وفلسطين والأردن (سورية الطبيعية). ممارسة سورية التمثيل الخارجي، تأليف جيش سوري، حق إعلان الأحكام العرفية، إلى جانب مواد تتعلق بالانتخابات العامة. فبادر المندوب السامي إثر ذلك بحلّ الجمعيّة. بعد أن رفض أعضاؤها حذف تلك المواد التي اعترض عليها وعلّق الدستور سنتين. وفي ١٩٣٠ نشر الدستور كما هو بعد إضافة مادة فيه جعلت تلك المواد الستّ لاغية. وقد جاء خالياً من النصّ على أن يكون الدين الإسلامي دين الدولة.

على أثر ذلك نمت الحركة القوميّة السورية العربيّة مستقطبةً حول مقاصد هذه المواد، وكانت نواتها الجمعية الوطنية المنحلة. إلاّ أن تحديد الهويّة للكيانات السورية الجديدة، ولنطلق عليها (سورية الكبرى الفرنسية)، كان أيضاً كالعراق مشكلةً، وبينهما شبه كبير.

أما فلسطين فلم تُعطَ حكومةً قوميةً أو وطنيةً وبقيت تحكم مباشرةً من قبل سلطة الانتداب. في حين كانت أغلبية السكان الساحقة عربيّة أو تنطق بالعربية، وليس فيها غير أقلية مسيحية ظاهرة وأقليّة يهودية ضئيلة وليس لأي منهما وزن سياسي[٩].

= خارجية فيصل في ١٩١٩. اغتيل بيد مجهولٍ في دمشق. خدم عند شريف مكة بعد إعلان نفسه ملكاً ثم اختلف معه فتركه. عرف بترجمة كتاب في السياسة الدولية عن الإنكليزية. ونفاه الفرنسيون حيناً من الزمن.

(٩) كان عدد اليهود في فلسطين عند بدء الحرب العظمى الأولى نحواً من ٨٠ ألفاً هبط إلى ٦٥ ألفاً أثناءها. وبلغوا خلال نصف قرن (١٩٦٧) مليونين ونصف مليون.

لكن بريطانيا كانت قد تعهدّت لليهود بإقامة وطن لهم. ولم تكن كلمة وطن المستخدمة في الوثائق البريطانية لتخفى عن البصير بالنية الحقيقية أو الغرض الأخير، إذ لا يمكن أن يكون لقوميّة أو مجموع من الناس وطن بدون كيان سياسيّ. وهو ما لم يكن العرب والناطقون بالعربية بحاجةٍ إلى جهد كبير لاستنتاجه فعارضوا فيه من المبدأ.

إن التوتر الذي حصل جراء فتح باب هجرة اليهود لم يكن قاصراً على الأراضي الفلسطينية وحدها. بل ما لبثت عدواه أن سرت إلى سائر الأقطار الناطقة بالعربية المجاورة، سيّما بعد الشروع بتنفيذ الخطة الصهيونية في تلك البلاد، شراء الأراضي وإنشاء المستعمرات وإقامة وكالة لتصدير اليهود من الأقطار الأوروبية إلى فلسطين.

كان لهذا أثره البالغ في نموّ الشعور القومي وانسياحه على سائر الأقطار العربية، فلإيجاد تلك الصلة المنشودة بين الحركات القومية في البلاد العربية قامت وحدة القصد. وبدت إلى جانب الجهاد ضد الاستعمار وإلغاء الانتداب مطلباً مركزياً مالبث أن احتل مركز الصدارة.

بتمادي الزمن واتساع نطاق الهجرة اليهودية تعمّق الاتجاه الشوفيني (التعصّب) في الحركة القوميّة. وهذا وليد الخيبة وقلة الحيلة والحيرة أمام المعضلات العامّة. والسبب في ظهور الأيديولوجيات المتطرفة، والبحث الحثيث عن أصدقاء وحلفاء قادرين على مَدّ يد العون للعرب - ذلك البحث الذي بدأ من أوّله عشوائياً عاطفياً وانتهى بحركة القومية العربية إلى الوقوع بين فكيّ الفاشية - النازية فريسةً سهلةً.

نشوء القضية الفلسطينية أدّى كذلك إلى طلاق بائن بين الجيل القومي الجديد وبين حملة لواء القوميّة المخضرمين، الذين أصبحوا حكاماً في الدول الجديدة في ظلّ سلطتي الانتداب في العراق وسورية. فقد تعرض هؤلاء إلى الانتقاد وهوجموا بشدة، ووجهت إليهم تهم التعاون مع البريطانيين والفرنسيين أو التهاون والتفريط في الوطن العربي. وأشير بصورة خاصة إلى مواقف الزعماء العرب من الطموح اليهودي في مؤتمر (ڤرساي)، سيما ذلك الاتفاق الذي عقده (فيصل) هناك مع (وايزمان) زعيم الحركة الصهيونية[١٠].

---

(١٠) في صك الانتداب الأصلي على فلسطين كان هناك نصّ صريح على إنشاء وطن قومي لليهود ويضمنها النصّ الحرفي لوعد بلفور. واعترفت المادة (٤٥) من صك الانتداب بإنشاء وكالة يهودية تتعاون مع الدولة المنتدبة لتأسيس الوطن. وفرضت المادة (٦) على الدولة المنتدبة =

لكن قضية مصير فلسطين مالبثت أن أصبحت أداةً في أيدي الانتهازيين والديماگوگيين، ومنبتاً خصباً للزعامات القوميّة أو المشتملة بردائها حفل بالمساومين المتفسخين، وعجّت بقيادات زائفة لا هم لها ولا عمل غير صبّ جام الاتهام بعضها على بعض أو صبّه مجتمعاً على رؤوس رجال الحكم في البلاد الناطقة بالعربية.

وبتحصيل للحاصل، فقد كان الضرر الذي أحدثته هذه المجموعات والزعامات فادحاً لا بالقضية الفلسطينية وحدها، بل بمصائر الدول العربيّة، وبمصير الديمقراطية في العالم الناطق بالعربيّة. فقد خلفت أجواء وأوضاعاً ساعدت الضباط المغامرين المتحرقين إلى السلطة على القيام بانقلابات عسكرية مدمّرة في العالم العربي وقيام دكتاتوريات عسكرية الطابع باسم القوميّة العربيّة في الأغلب، أو باسم محاربة النفوذ الأجنبي والاستعمار. كما كانت سبيلاً مؤدّية إلى تغييرات سياسية عميقة وتحولات في النظم الاجتماعية ليس فيها فائدة تذكر لسكان هذا الجزء من العالم.

والواقع هو أن القوميين العرب في (سورية الطبيعية)، والفلسطينيون منهم على الخصوص، لم يغفروا للبريطانيين والفرنسيين ما وصفوه بتجزئة سورية (الجغرافية) والهلال الخصيب فضلاً عن موقفهم في فلسطين. وكانت معارضة هذا التقسيم في رأس قائمة مظلماتهم. ومن هذا المنطلق وقفوا ضدّ مشروعي سورية الكبرى والهلال الخصيب باعتبارهما أعجز عن توحيد سورية من منع إنشاء الدولة اليهودية. أو أن يكون أيّ منهما خطوةً كبيرة نحو قيام ما وصفوه بادئ ذي بدءٍ: باتحاد فدرالي عربيّ لينتهي فيما بعد بالعمل على تحقيق وحدة عربيّة صغيرة، ثم كبيرة تبدأ من المحيط وتمتد حتى الخليج.

طلائع القومية الجدد تألفت من جيل ما بعد الحرب وبعض بقايا أعضاء أحياء في النوادي والجمعيات العربيّة السرية المختلفة في أواخر سنوات الحرب، بعضهم ضباط

= واجب تسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين وتسوية مشاكل حيازة الأراضي (بشرط عدم الإضرار بمصالح السكان الأصليين). ومما هو جدير بالذكر أن لندن أرسلت السر هربرت صموئيل اليهودي إلى فلسطين ليكون أوّل مندوب سام لها. وتمّ في عهده اعتبار اللغة العبرية لغة رسميةً إلى جانب اللغتين العربيّة والإنگليزية، كما أسرعت إدارته في تمليك أراضي السلطان العثماني والأراضي الأميرية التي ورثها الحكم البريطاني إلى اليهود بثمن رمزي. وسمح لليهود الوافدين بإنشاء وحدات عسكرية الطابع تحت ستار الأندية والمنظمات الرياضية والكشفية وأجازت لهم التزود بالسلاح في مستعمراتهم بذريعة الدفاع عن أنفسهم.

سابقون وبعضهم موظفون مدنيّون، وحرفيون، وتجار، ووجهاء يعيشون من مدخولات وغلات أراضيهم الزراعية، وعلماء دينيون ظهروا فجأة على المرسح السياسي بعد انهيار الإمبراطورية واستقطبوا حول حكم فيصل القصير الأمد. معظمهم سكان مدن بنصيب من العلم والثقافة لا يستهان به، وفضلاً عن شجاعتهم وتجاربهم السابقة، فقد أعانهم وضعهم الماليّ الجيّد على تخصيص وقت كاف وأموال وافرة للنهوض بأعباء تنظيم سياسيّ وتعبئة رأي عام وإثارة الجماهير والدهماء والوقوف بوجه الحكام مخاطرين بحرياتهم وممتلكاتهم. إلاّ أن الدافع الأصلي المستتر كان دائماً مصالحهم الخاصّة ومراكزهم الاجتماعية والمحافظة على نفوذهم. وهو الجزاء الذي يتوقعه كلّ من يبذل من ذات نفسه ومن ماله للوصول إلى بغيته.

فهؤلاء القوميون من هذا الجزء من البلاد الناطقة بالعربيّة لا يختلفون نوعاً عن قوميي العراق، وربما اختلفوا كماً أي عدداً أو ثقافة. إذ كان قوميو سورية الجغرافية أوفر نصيباً في العلم والمعرفة من إخوانهم في بلاد ما بين النهرين (العراق) وأكثر تجربة وأقرب تاريخياً إلى العروبة. وعلينا في هذا الصدد ألاّ ننسى بأن الشام كان مركزاً لأوّل وآخر حكم عربي القوام خالص النشأة في ظل الحكم الأموي.

ولم يكن ما حصل في جزيرة العرب بما من شأنه أن يشجع هؤلاء القوميين في مطلبهم الأخير وغايتهم المنشودة. فما حدث أن قامت هناك بتشجيع وإسناد بريطاني واضحين دولة أتوقراطية دينية - مشيخية. لا تمتّ فلسفتها الدينية إلى العرقيّة أو القوميّة أو العروبة بصلةٍ، رغم أن مجموع سكانها هم أحقّ من سائر البلاد الناطقة بالعربيّة بالادّعاء بالأصالة العربيّة. فبعد أن أعلن الشيخ عبدالعزيز آل سعود نفسه سلطاناً في ١٩٢١، ثم ملكاً إثر استيلائه على الحجاز وتقويضه مملكة (علي بن الحسين). وبوجود البيت الهاشمي على رأس دولتين (العراق والأردن) مجاورتين، وباتخاذ القوميين السوريين الأوائل من حكم فيصل العربي هدفاً قومياً في دعوتهم إلى الاستقلال، أدّى كلّ ذلك بحكام السعودية المتعاقبين حتى ما بعد متنصف القرن الحالي إلى محاربة أي دعوة قومية في بلادهم باعتبارها بدعة محرمة دينياً ومكافحتها مكافحتهم شرب الخمر والدخان، وإلى صبّ الذهب صباً بسخاءٍ لا نظير له في جيوب الساسة والصحافيين ورجال القلم والفكر السوريين واللبنانيين والفلسطينيين وكلّ من أمكن شراؤه ضميرياً، لغرض إبقاء الهاشميين بعيدين عن سورية. وأيضاً للإبقاء على الوضع الراهن status quo أي التجزئة التي تمخضت بها الحرب العالميّة الأولى.

وفي بقية أنحاء الجزيرة بدءاً باليمن وانتهاء بالكويت لم يرتفع صوت واحد ينادي بشعار قوميّ أو دعوة قوميّة، بله لم يكن هناك شعور يمت إلى القوميّة. فقد بقيت عقدة النقص مستولية على سكان يسودهم جهل مطبق، تلك العقيدة التي تعاون على تثبيتها في النفوس حكم الأجانب والحكم المشيخي بقوانينه القاسية وتطبيق حدود الشرع الإسلامي. كلّ ذلك كان يسدّ المنافذ على كلّ محاولة ترمي إلى تغيير البنية الاجتماعية هناك.

لم يجد المصريون أيّ إشكال في تحديد هويتهم القوميّة. ولم تقف الهوية عندهم عقبةً عند تحديد الأهداف العامة - مثلما حصل في سورية الجغرافية وبلاد الرافدين. حدود مصر معلومة مرسومة بشكل واضح. وقد كان لها قبل الحرب بزمن بعيد ومنذ مفتتح القرن التاسع عشر دولة عصريّة بمواطنين شديدي الشعور بهويتهم المصرية رغم وجود طبقة حاكمة أجنبيّة دائمة على رأس تلك الدولة. والمشكلة الوحيدة هي القيود التي فرضها الاحتلال عليهم، وكان التوتر السياسي يكاد يستقطب حول الخلاف بين القوميّة المصرية التي مثلها حزب الوفد وبين البريطانيين وملك مصر، بخصوص السيادة المصرية، وتحديد سلطات الملك ولا أكثر من هذا.

استناداً إلى الموثق من المصادر العربيّة، وفد العرب إلى مصر في القرن السابع الميلادي بأربعة آلاف مقاتل من الذكور تكاثروا بالإمدادات التي طلبها عمرو بن العاص إلى حوالي عشرين ألفاً. كل ذلك مقابل سبعة ملايين مصري، وهو العدد الذي استقر عليه رأي معظم المؤرخين والأنثروپولوجيين لسكان مصر آنذاك. لم يكن قدوم العرب غزواً أو فتحاً عنوةً. فقد رآه المصريون عملية إنقاذٍ من الظلم البيزنطي ويده الثقيلة، ففتحت بأوجه المحررين أبواب المدن والقلاع تماماً كما حصل في إيران. وحتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، حين كملت آخر الهجرات العربيّة إلى وادي النيل، قدّر عدد العرب النازحين من الجزيرة إلى أرض مصر بعددٍ أدناه مائة ألف وأعلاه بمائتي ألف. عاش العرب المقاتلون والحكام من المبدأ في معسكرات (فسطاط) تحولت إلى مدن، بعضها في أطراف الصحراء وفي الواحات تلك التي تذكرهم بموطنهم الأصلي، ثم ما لبثوا أن اختلطوا بالسكان. حتى هذا الخليط كان أقلية بين أكثرية ساحقة ما زالوا رغم دمائهم المصرية يمتازون بعادات وتقاليد موروثة ألجأت بقية المصريين إلى إطلاق كلمة (البدو) عليهم تمييزاً عن لفظة (الفلاح) التي تطلق على عموم المصريين من سكان الريف.

لم يؤثر تأصل الدين الإسلامي في نفوس المصريين على تمسكهم بهويتهم المصرية بخلاف البلدان الإسلامية الناطقة بالعربيّة. فمنذ مطلع القرن التاسع عشر بدأت محاولات جديّة للتوفيق بين الأفكار الليبرالية التي أطلقتها الثورة الفرنسية وبين التعاليم الإسلامية المستمدة من القرآن والسنّة. بدأها الشيخ (رفاعة الطهطاوي) وتلامذته، أي مدرسته التي ضمّت عدداً كبيراً من الأدباء والاجتماعيين الذين لم يكونوا سياسيين على أية حال[11].

وبقي القوميون السوريون وصحافتهم يتحدثون بالذي دار في المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق العام ١٩١٩، كالدعوة إلى الوحدة الاقتصادية مع العراق، والتخلص من النفوذ الأجنبي. وما بدا في صحافة القطرين من كلام يرفع بمناسبات معينة حول هذا الحلم أو «الأمنيّة العزيزة» كما وصفوها.

ولنذكر أن الدعوات القوميّة هذه خلال العقد الثالث من قرننا كانت قاصرة على الهلال الخصيب، ومنحصرة في إطار المذهبية السنيّة.

* * *

لايمكن المرور بموقف القوميين المخضرمين[12] مروراً عابراً أزاء القضايا القوميّة وحركة الوعي القومي. فقد كشفت الأحداث عن ازدواجية كريهة فيهم، كان لها أثرها في انحراف الفكرة عن السبيل الليبرالي. في الظاهر بدوا أنصاراً لفكرة القوميّة الليبرالية التي أرست دعائهما أفكار ما بعد الحرب، وبالدساتير والأنظمة الديمقراطية التي أوحت بها الدول المنتدبة وصيغت وفق التقاليد الغربية في الحكم، وبضمان الحريات الدينية وحرية التعبير، ومبادئ المساواة، واستقلال القضاء والنظام البرلماني، ألخ

---

(١١) كان الطهطاوي (١٨٠١-١٨٧٣م) واحداً من أركان النهضة الفكرية الحديثة في مصر. قال عنه صاحب دائرة معارف (المنجد): «إنه أتمّ ثقافته في فرنسا على كبار المستشرقين وعرّب كتباً علمية كثيرة وحرّر جريدة الوقائع المصرية، وتخرج عليه عدد من الأدباء كانوا الطليعة في نهضة مصر الفكرية» آه. ونقول إن الطهطاوي حاول وبنجاح كبير البرهنة بأن مبادئ الثورة الفرنسية لا تتعارض وتعاليم الإسلام، بل تتفق معها. مستشهداً بمقتبسات من القرآن والسنّة. وكان أول من تحدث عن القوميّة المصرية والقومية بشكل عام وبالشكل الذي يتفق وآراء ماتزيني وتراث ثورات ١٨٤٨ في أوروبا.

(١٢) المخضرم: من الكلمات القليلة ذات الأصل الرباعي في اللغة العربيّة، ويقصد بها أولئك الذين أدركوا الجاهلية والإسلام (ولم يختتنوا).

وبقي داء السيطرة والاستبداد الموروث عن العهد العثماني والمنغرز في نفوس هؤلاء الورثة الداء المشخّص والوجه الحقيقي. لا أدري كم كان هؤلاء وخلفاؤهم من الجيل القومي الجديد يدركون بأن الأحداث العنيفة والهزات الاجتماعية النكباء التى حلّت بالبلاد الناطقة بالعربيّة كانت حصيلة صراعٍ سايكولوجي خفيّ بين هذين الأقنومين المتناقضين.

لم يستطع، أو ربما لم يحاول، القوميون المخضرمون تغليب العنصر الديمقراطي الليبرالي في الدعوة القوميّة على العنصر التحكمي المتعصب، الذي كان ينفجر بنيران وآخر كبركان خامدٍ ليقذف بحمم قتالة تصيب أصحابه كما تصيب الآخرين، إلى أن التقى بالفاشية والنازية ليجد ضالته فيهما.

ولم ينقرض الجيل المخضرم من القوميين قبل أن يورث هذا الداء جيلاً جديداً مجرداً عن المناعة مستعداً تمام استعداد لقبول الفلسفات العرقية القديمة، التي أخرجتها النظم الفاشية - النازية من قمامة التاريخ المنتنة. وهكذا بقيت (العروبة) لسوء حظها بعيدة عن الإتجاه الليبرالي - الديمقراطي إلى أن ضاعت آثارها وذابت في أتون الحركات الدينية العنيفة التي تجتاح عدداً من البلاد الناطقة بالعربيّة.

وكان من سوء حظها - وربما كنتيجة للتركة التي أشرنا إليها - أن تتبادلها أيادي زعامات سياسية أو عسكرية مغامرة أنانية، تفتقر إلى صفة الديمومة وتقذف بها أحداث موقوتة لتموت بموتها. ولم يبرز بين صفوف دعاتها ومجاهديها في أي وقت من الأوقات مفكر أو قائدٍ أيديولوجي تنداح أفكاره على الدعوة القوميّة وتصبغها بصبغة موحدة شاملة وتكون مصدر وحي دائمي واحترام جماعي. فبقيت إلى الأخير متشرذمة تتصارع أطرافها صراعاً يبلغ من العنف حد التآمر والتصفية الجسدية، وتتحول مراميها بالسرعة التي تتحول رمال الصحراء، لتبني كثيباً مرة أو لتفرغ وهدة تركة.

بقيت أدبيات القوميّين خلال هذه الفترة لا تعدو الكلام المنمّق والأحاديث الخطابيّة الحماسيّة المذكرة بالتراث والمجد الغابر، يشجعها احتقار مزمن متنام للمبادئ الدستورية، مع الزعم في أحيان معينة باحترامها. كما كان ذلك يظهر في مناهج بعض الأحزاب القوميّة أو برامج الحكومات ذوات الاتجاه القومي.

وتحول تشجيع البريطانيين (والفرنسيين إلى حدٍ ما) للعروبيّة واتجاهها الشوفيني إلى خطة سياسية ثابتة كاملة الأبعاد في العقد الثالث والرابع، بعد أن أمست جزءاً من سياسة الديمقراطية الغربيّة العامة إزاء الدكتاتوريات الفاشية - النازية في أوروپا، تلك

السياسة التي عرفت في كتب التأريخ بسياسة المهادنة والاسترضاء Appeasment Policy والسكوت عن عدوانها باعتبارها ضرورة حتمية لدرء الخطر الشيوعي والأمميّة التي تهددها - أي اتخاذها سّداً أمام الاتحاد السوڤياتي بتلك السياسة الخرقاء التي أدت إلى حرب لم يعرف لها العالم مثيلاً وطحنت ثلاثين مليوناً من البشر.

ومع أن حرب المبادئ والعقائد الاشتراكية - الشيوعية - القوميّة في البلاد الناطقة بالعربيّة لم يَذرّ له قرنٌ في هذه الفترة التي نتحدث عنها، إلاّ أن الخطر الذي كانت تهبّ ريحه من الشمال على تلك البلاد هو حقيقي وقد بدأ بصمود ثورة أكتوبر الاشتراكية في روسيا وشعوب إمبراطوريتها وتغلبها على أعدائها في الداخل وتوجه أنظار الثائرين إليها في تلك البلاد[١٣]، بعد إعلان قيام اتحاد الجمهوريات السوڤياتية بزعامة الحزب الشيوعي الروسي والعمل على نشر الاشتراكية بقيادة الطبقة العاملة باعتباره واجباً أممياً تحت شعار إتحاد عمال العالم.

في ذلك الوقت كانت الأفكار الاشتراكية في مصر قد خرجت من حديث الصالونات والمقاهي ومقالات في الصحف إلى عالم التنظيم الحزبي والنقابي. كانت الحركة العمالية قد أنبتت لها جذوراً قوية في مصر منذ انتفاضة العام ١٩١٩. وتمّ إنضاجها وتحديد اتجاهها بفضل طبقة من الكتاب الاشتراكيين الإنسانيين المتنورين من قيود التقاليد الدينية أمثال ولي الدين يكن وسلامة موسى[١٤] ومحمود عزمي وإسماعيل

---

(١٣) في العام ١٩١٩ كتب الشيخ محمود إلى زعيم الحزب الشيوعي (فلاديمير لينين) يطلب معاونته عسكرياً وسياسياً باعتبار النظام السوڤياتي نصيراً للأمم المضطهدة.

(١٤) نشر سلامة موسى في العام ١٩٢٣ ترجمته لكتاب گرانت آلن Grant Allen: الموسوم (نشوء فكرة الله). لو كان هذا الكتاب معاصراً للإمام (الخميني) لما اكتفى هذا بإهدار دمه بل بإصدار فتوى بحرقه حياً وتذرية عظامه في الريح. وقتل كلّ من يقرأ كتابه. وقد بقي (ولي الدين يكن) طوال عمره يقدح في رجال الدين وعلمائه مستخدماً كل ما في قواميس اللغة من نعوت هجاء وسخرية. ولم تكن في زمنه محكمة كتلك التي حكمت في القاهرة في أحد أشهر سنة ١٩٩٥ على أستاذ جامعي وقف بعض موقفه - بكفره ووجوب طلاق زوجه منه. في ذلك الزمن وبينه وبيننا أكثر من ثلاثة أرباع القرن وجدنا وليّ الدين يكن ينشر بالنص: «لو جمعنا العمائم التي بالبلاد العثمانية وجعلناها بعضها فوق بعض لبنينا حصناً يعجز عن هدمه أسطول فرنسا بأسره (التجاريب ص٣١). ويكتب أيضاً: «زعماء العامة عندنا رجال الدين وهؤلاء لا يرغبهم في الشورى (البرلمان) شيء. فهم يحبّون أن يظلوا متحكمين على الرقاب وأن يبقوا عيالاً على الأمة. وأن يلثم الناس أيديهم ويملأوا أكياسهم» (المعلوم والمجهول ج١ ص٦٣ ط. ١٩٠٩).
بل أنظره يتحدث عن المناضل الكادح (فرار) الإسباني الذي نفذ فيه حكم الموت بسبب دفاعه =

مظهر ومحمد عبدالله عَنَان صاحب المؤلفات التاريخية الشيقة.

المصادر الرسميّة المصرية والوثائق البريطانية كانت في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٩٨) فصاعداً تشير إلى شخص اسمه (يوسف روزنتال) بوصفه داعية للأممية الثالثة في مصر وتصفه بالفوضوي المشاغب الخطير سياسياً. نشط في مصر منذ العام ١٩١٠ لصالح الدولية الشيوعية وكانت له اليد الطولى في تأسيس الحزب الاشتراكي بمصر عامذاك(١٥).

= عن حقوق شعبه: «هُنّ ثلاث رصاصات بإسبانيا فجاوبت دويها بلاد الله في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا. ثلاث رصاصات رمتها حكومة متمدنة بمشهد من حكومات متمدنة. فقتلت رجلاً متمدناً حراً، أشقته حريته، عارف أجهدته معرفته. منصف أرداه إنصافه. أبى زعامة الفرد على الجميع وكره أن يرى أناساً يرفلون في ثيابهم المحجلة، يجررون أسيافهم وتخفق على رؤوسهم خِرقٌ فوق قضبان يسمونها أعلاماً وإن تكثر حكومات الأرض من جميع هؤلاء في أزيائهم المضحكة لتقتل أمثالهم. آنف أن يرى إخوانه أبناء آدم يتنازعون أكنافاً عن أرض ليست لهم ولا لغيرهم ولكنها لكل الناس مما يجزع على (فِرّار) لا سكان القصور العالية ولا المدخرون للذهب والفضة ولا سراة القوم ولا الوزراء ولا كبار الموظفين، وإنما يجزع عليه المنفيون إلى أقاصي سيبريا، حين يعضّ الحديد على سواعدهم، والمقيمون في ظلمات السجون في سائر أقطار الأرض، بل يبكي عليه كلّ من ذاق مرارة الظلم والاستبداد في أسر المستبدين. والأرمنيّ الذي قتل أقربوه في مذابح الأناضولي، والتركي الذي ألقيَ ذووه في لجج البوسفور، والعامل في أعماق الموانئ محروماً من نور الشمس ولطف الهواء، والفقير الذي يحسّ بالفاقة ولا يتجاسر على شكايتها». كان ولي الدين سليل أسرة أرستقراطية عريقة تمتّ بصلة القرابة كما يدل عليه لقبه إلى الأسرة الخديوية ولم يكن اشتراكياً منتظما أو داعية لنظرية فلسفية. فهو شاعر وأديب ليبرالي النزعة مرهف الإحساس جياش العاطفة أوتي شجاعة وثبت جنان غير عاديين، فوجدت نزعته الأممية السبيل إليه خلال ذلك. اقتنيت كتبه وطالعتها مراراً وأنا بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، وتبادلتها مع رفاق لي. وكانت ترد العراق عبر المكتبة العصرية في بغداد لصاحبها الأديب الذواقة محمود حلمي. وعنها كانت ترد تقريباً كلّ ما تخرجه المطابع المصرية من نتاج أدبائها وشعرائها ومفكريها. ومنها اقتنينا كتب سلامة موسى. وأذكر بصورة خاصة أن أوّل من فتح أمامي أبواب التأريخ البشري كانت مؤلفات محمد عبدالله عنان.

(١٥) في تشرين الأوّل ١٩٢٤. في ذلك الحين لم يكن في قانون العقوبات المصري ما يجعل النشاط الشيوعي جريمةً. ولذلك عُدّل بالقانون رقم ٣٧ للسنة ١٩٢٣، بإضافة فقرتين إلى المادة (١٥١) منه وإضافة المادتين ٤٢ و٣٢٧ إليه. ويعيد هذا إلى الذاكرة مشابهة طريفة بخلو قانون العقوبات العراقي (البغدادي كما كان يسمّى) من مواد عقابية حول النشاط الشيوعي حتى العام ١٩٣٨ عندما استنت الحكومة القانون رقم (؟) وجعلته ذيلاً معدّلاً للقانون. بلغت فيه عقوبة الموت عند القيام بالدعوة للشيوعية في أوساط القوات المسلحة. =

= وفي كتاب الأستاذ حنا بطاطو الممتع الغزير المعلومات (The Old Social Classes) الذي خصص فصلاً كاملاً عن يوسف سلمان (فهد) سكرتير الحزب الشيوعي العراقي. ذكر عرضاً مناسبة إلقاء القبض على (فهد) في العام ١٩٣٣، ونوه فحسب (ص٤٢٩) بدهشة محقق الشرطة من ثبت جنان المتهم «وعدم محاولته إنكار عقيدته واسترساله في الحديث حول الرأسمالية والجماهير الكادحة» ووقف عند هذا الحدّ. ولعله كان يجهل بقية القضية وفيها من الغرابة ما فيها: ففي منتصف ذلك العام مثُل فهد أمام حاكم الجزاء شيت خسرو الموصلي (وقد أدركته وأنا محام. وهو عضو في محكمة استئناف الموصل بعد أربع عشرة سنة). ولم يحاول فهد إنكار كتابته وبخطّ يده البيانات الملصقة على الجدران في الناصرية معلناً في عين الوقت بأنه شيوعي المبدأ. لا أعتقد إلاّ أن فهد كان يدرك مثل القاضي الذي يحاكمه بأنه ليس هناك قانون شديد الوطأة يتوسل به القضاء لزجه في السجن مدة طويلة. كان كل ما يملك القاضي وقتذاك قانون المطبوعات وقانون الاجتماعات والتجمعات العثمانيين، وأقصى ما في أولهما من عقوبة السجن ستة أشهر، أو ثلاثة أشهر لثانيهما. وربما كان في نفس فهد أن يجعل من نفسه أوّل ضحية حكومية وأول سجين شيوعي في العراق. كما إني لا أشك في أنه أراد أن يجعل من المحكمة منبراً يطلق من فوقه آراءه مستفيداً من النقص القانوني. وما أظن القاضي نفسه (ولم نكن نعدّه من القضاة اللامعين) يفهم شيئاً كثيراً عن المبدأ الشيوعي يزيد عما تفهمه (الخالة مينه) والدة فهد، إذ كانت تجيب الجارات القادمات للأخذ بخاطرها بعد سجن ابنها المتسائلات عن السبب: «لأنه صار شيعي!». من الأكيد أن فهد لم يدع للقاضي سبيلاً للعطف. بل كان يحاول إثارة حفيظته عامداً بأجوبة مستفزة: ضاق القاضي مرةً بخطبة طويلة لفهد فقاطعه بقوله:

- بماذا تتحدث؟ أنت مجنون؟

فأجاب فهد:

- بل أنت المجنون أحكم زين

وقد حكم بثلاثة أشهر على ما أتذكره. ويلاحظ أن كلا القانونين المعدّلين لم يكونا يعاقبان على مجرد اعتناق المبدأ الشيوعي بل على الدعوة والنشاط في بثه. (ربما حفظاً لماء وجه القانونين السياسيين المصري والعراقي اللذين نصا على حرية الاعتقاد) فعلى وجه المقارنة نجد (يوسف روزنتال) المؤسس الحقيقي للتنظيم الشيوعي في مصر يستثنى من الاتهام ولا يقدم للمحاكمة لأنه كان قد فُصل عن الحزب ولم يشارك في نشاطه. وقد نشرت له جريدة الأهرام في ٢١ من آذار ١٩٢٤ تصريحاً له حول الإفادة التي أدلى بها أمام (المدعي) العام وقال ما نصه: «كنت أحد مؤسسي الحزب الاشتراكي وهو منذ تأسيسه حزب شيوعيّ. وقد تمّ تغيير اسمه وفقاً لطلب اللجنة المركزية الشيوعية الدولية (الكومنترن). إذ كان التغيير شرطاً لقبوله في هذه اللجنة الدولية. وأنا كنتُ حتى آخر نسمة من حياتي شيوعياً كاملاً ومخلصاً إخلاصاً تاماً لقضية البروليتاريا، وبالرغم مما أظهرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري من قلة الخبرة وما ارتكبته من أغلاط، فأنا أتضامن معها تضامناً تاماً وأطلب بنصيبي من المسؤولية»، إلا أن القضاء المصري أبى عليه تحقيق طلبه لأنه لم يكن ناشطاً خلال تلك الفترة.

أبدل هذا الحزب اسمه عندما ظهر للعلن باسم الحزب الشيوعي المصري. وشهدت البلاد الناطقة بالعربيّة في ١٩٢٤ أول ملاحقةٍ للشيوعيين في ذلك العام، عندما سيق أعضاء لجنته المركزية متهمين أمام محكمة جنايات الإسكندرية وصدرت بحقهم أحكام خفيفة نسبياً، أعلاها لم يتجاوز ٣ سنوات. ولحقت سورية ولبنان بالركب فتأسس الحزب الشيوعي السوري اللبناني في العام ١٩٢٥، وكانت أداته جريدة (الشمس) البيروتية واعتمدت الحركة في مبدئها على الأرمن النازحين من تركيا.

في أوائل العشرينات لم تكن هنا أدبيات عقائدية اشتراكية الصبغة أو شيوعية المنحى بأقلام كتاب عراقيين، إلاّ أن ما كان يرد العراق من هذين القطرين يتكفل بخلق اتجاه فكريّ بين المتعلمين والأدباء الناشئة وطلاب المعاهد العلميّة والثانويات لم تخطئه عين الاستخبارات البريطانية. لأنه كان يتصل اتصالاً عضويّاً لم يكن مقصوداً بالريح التي تهبّ من الشمال القصي مقترنةً بعداء شديد للسلطة الحاكمة التي صارت تبدو لهؤلاء، فهي لا أكثر من صنيعة الأجنبي المحتل.

وشهد العام ١٩٢٦ أوّل تنسيق أمنيّ بين دوائر الاستخبارات للدول المنتدبة على أقطار البلاد الناطقة بالعربيّة في الشرق الأدنى. ففي ٢٧ نيسان ذلك العام اتخذت حكومة السعدون قراراً بالانضمام إلى الاتفاق الأمنيّ المعقود في ٢٣ من كانون الثاني ١٩٢٦ بالقاهرة بين دوائر أمن مصر وفلسطين وسورية حول التعاون على تعقيب المشبوهين من الشيوعيين الوافدين من الاتحاد السوڤياتي[١٦].

وأنا أميل إلى الاعتقاد بالتأثير المصري السوريّ في نشر الاشتراكية والمبادئ الماركسية في العراق وغلبته على التأثير المحليّ المحيطي. النواة الماركسية الأولى

---

(١٦) من مضمون الاتفاق أن تلك الدوائر التي كان يشرف عليها موظفون بريطانيون وفرنسيون كانت تقصد أن لا يكون العراق وهو الأقرب إلى الجمهوريات السوڤياتية معبراً يتسرب منه الشيوعيون المشبوهون إلى سورية ومصر، ثم يتسللون منه إلى تلك الجمهوريات وأن تقوم الأجهزة الوارد ذكرها بتبادل المعلومات عن دخول وخروج الأشخاص المشبوهين بكونهم شيوعيين من سورية وإليها عبر العراق «مبينةً اسم الشخص والطريق الذي تعقبه». وورد في الاتفاق تحذيرٌ من عدم «الإشارة مطلقاً إلى الشيوعية في البرقيات المكشوفة المتبادلة بين دائرتي سورية والعراق، وإنما تستخدم كلمات وتعابير خاصّة متفق عليها وأن يكون الاتصال بالبرق اللاسلكي». وقد تمت مصادقة الحكومة العراقية على الاتفاق في ٢٧ من نيسان ١٩٢٧ (أنظر الحسني: النصّ الكامل في: تأريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص٥٦، الطبعة الثالثة.

كانت في بغداد باتفاق المتتبعين للحركة الاشتراكية. وبدأت ضمن إطار إصلاحي قومي شعبيّ مطابق إلى حَدّ كبير لاتجاهات القوميّين الجدد، وكلا الفريقين يعتمد في توسيع مداركه على ما يرد من مصر وسورية من مطبوعات وكتب تأريخية واجتماعية أو أفكار ذات طابع سياسيّ. فقائمة مشاهير الكتاب السوريين والمصريين التقدميين الذين استهوتهم المبادئ الاشتراكية لم تكن قاصرة على أولئك الذين ذكرناهم ولا وقفاً عليهم. وعلينا أن نضيف إليهم أسماء لامعة أخرى في سماء الأدب والاجتماع كالدكتور طه حسين والمازني وحسين هيكل ويزبك. وأذكر منهم بصورة خاصة الكاتب والأديب الكبير عباس محمود العقاد. وقد عُرف منذ الأربعينات بنقده الشديد المتواصل للشيوعية وللاتحاد السوفياتي. إنك لتراه في مطلع العشرينات يدافع عن الاشتراكية والفكر الاشتراكي، بحميّة العقيدة عندما يتصدّى لنقد كتاب (سر تطور الأمم) لمؤلفه الكاتب الفرنسي الأتوقراطي النزعة (گوستاف لوبون) الذي نقله (أحمد فتحي زغلول) إلى العربية ويصح اتخاذ ما كتبه نموذجاً للفكرة السائدة آنذاك عن الاشتراكية:

«الكتاب بجملته حملة منكرة على المساواة والاشتراكية يخيل لك أنّ الدكتور لوبون يكتب عن المساواة بقلم شارل الأول ولويس السادس عشر، وأنه يكتب بإيعاز من روتشيلد وروكفلر. فتراه ينصّ على مبدأ المساواة لكنك لا تعلم منه كيف عدم المساواة. وتراه يتشاءم من الاشتراكية كما يتشاءم الناس من نعيب البوم لا يعلمون لذلك التشاؤم سبباً. الحقيقة هي أن نظام مجتمعنا الحاضر مشتمل على نقائض ومثالب لا ينفرد بالسخط عليها وطلب تبديلها الاشتراكيون، ومن العلماء الذين يحسبون أنفسهم من الاشتراكية ولا يحسبون الاشتراكيون منهم. ومع هذا يشكون ظلم النظام الحاضر شكوى غلاة الاشتراكية ويرون رأيهم في بعض الحلول التي يقترحونها. إن الاشتراكية الصحيحة ليست أسطورة من الأساطير ولا هي وعدٌ خيالي يبشر الناس بالقبول بالأقدار والتشاكل في المنزلة والأرزاق. كلاّ فليست المساواة بين الناس من همها لكنها إنما تدعو إلى المساواة بين الأجر والعمل وتطلب أن يُعطى كل عامل ما يستحقه بعمله وأن ينتفع المجموع بأكبر ما يمكن الانتفاع به من قوة الأفراد فإذا كانت الدنيا قد حُمّ أجلها وقارب يومها لأن جائعاً يريد أن يشبع ومنهوكاً يتمنىّ أن يستريح ومظلوماً يودّ أن ينتصف فلشدّما هزلت الدنيا. إن النظام الاقتصادي الحالي قد صيّر العامل قوةً آلية وسلبه كل وسيلة لاستخدام

ذكائه وحذقه. وهذا النظام الاقتصادي المودي بالمواهب المعطل للعقول هو النظام الذي تثور عليه الاشتراكية فماقامت الاشتراكية إلاّ لترقي مدارك العامل وترفع عنه حيف صاحب العمل وتجعله إنساناً ذا رغبةٍ في عمله وغيرةٍ عليه. ومنذ أن أخرج العلم للناس تلك الآلات الضخمة أصبح كلّ صاحب معمل يتمتع بتعب الألوف من الصناع الذين يستخدمهم في معمله فكان التعب والحرمان من نصيب فريقٍ والراحة والربح من نصيب الآخر»[١٧].

في حين كانت الحلقات الاشتراكية الضئيلة العدد التي تكونت في كلّ من بغداد والبصرة والناصرية والديوانية في العشرينيات تخشى أن تنسب إلى هذه المبادئ وتتحامى كلمة «الاشتراكية» والطبقة العاملة و«البروليتارية» وما شابهها من تعابير شائعة في الأدبيات الماركسية.

لم يكن عالم الصحافة العراقي بطبيعة الحال يجهل الفتوى التي أصدرها شيخ الإسلام في إستنبول في أيلول ١٩٢٠ ضد الاشتراكية والبولشفية. وقد نُشرت في أكثر من صحيفة وشاع أمرها بين الناس، بل قُرئت في بعض المساجد والجوامع بتشجيع من السلطات البريطانية وتحريض منها وقد جاء في آخرها هذه الفقرة:

«إن الدين الإسلامي يحوي من الأحكام الأساسية ما يناقض جميع المسالك الاشتراكية، وخصوصاً البلشفية التي هي عبارة عن شكل خطير لها، لأن من شأنها الإخلال بالملكيّة الشخصية وحقوق التصرف بها».

وكان في الفتوى شيء كثير عن إنكار الاشتراكية والشيوعية أي وجود للخالق وعدائهما للأديان السماوية.

وهؤلاء النفر القليل الذين كانوا يجتمعون في حلقة شبه عائلية أوائل العام ١٩٢٤ متخذين حجرة لقاء لهم في جامع الحيدر خانة الشهير بالانطلاقات الجماهيرية ضدّ السلطة، معتبرين أنفسهم أول حلقة يساريّة، كانوا على إدراك تام بأن الرأي العام الديني والسياسي في العراق كان قد شحن مسبقاً بتيار الصدود عن الأفكار الاشتراكية والشيوعية قبل أن تجد أفكارها منبتاً في تربة العراق، وقبل أن يجرُؤ أحد أن يجاهر بانتسابه إلى الشيوعية أو اعتناق الاشتراكية؟

كان الحصول على امتياز إصدار صحيفة سهلاً في تلك الأيام، ما عليك إلاّ أن

---

(١٧) الفصول: الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٢٢ الص ١٥٥-١٥٧.

تتصفح واحداً من الكتب العشرة أو نحوها التي كتبها مؤلفون عراقيون عن تاريخ الصحافة والصحف لتطالعك أسماء مئات من الصحف والجرائد والمجلات معظمها لا يكتب له الدوام بعد صدور عددين أو ثلاثة. فإمّا يعدل أصحابها عن الاستمرار في إصدارها لفشلها في اجتذاب القارئين، أو لقلة رواجها، أو لأسباب مالية أو لخلاف بين محرريها أو لتعرضها لعقوبة الغلق لسبب أو لآخر.

وفي الشهر الأخير من العام ١٩٢٤ راح باعة الصحف الجوالون وبعض الدكاكين في بغداد يعرضون نسخاً من جريدة صغيرة الحجم بعنوان (الصحيفة) تحفل بمقالات غير مأنوسة، تختلف عما عهده القراء في الجرائد الأخرى، كانت تتحدث عن المادية التاريخية (التفسير المادي للتاريخ) وتتضمن مقالات مترجمة عن صحيفة (لومانيتيه) لسان الحزب الشيوعي الفرنسي، وعن المساواة بين الرجل والمرأة وعن حرية الأنثى وضرورة فتح باب العمل والنشاط السياسيّ لها.

آراء وأفكار جريئة غير معهودة في حياة العراقيين العقليّة. محررو (الصحيفة) لم يتناولوا ما اعتادت الصحافة القوميّة كتابته عن الوضع السياسي بصورة عامة، ولم يهتموا بما اهتم به القوميون - الوطنيّون مثل الانتداب والمجلس التأسيسي والمعاهدة أو قضية الموصل، ومستقبل الكُرد الخ بل كانوا فحسب يترجمون وينقلون أفكاراً اجتماعية صرفة، تفوح منها رائحة عقيدة جديدة اكتسحت الفكر الأوروبي، مغفلين ذكرها بالاسم عمداً، إنما كانت مضمّخة برائحة النظريات الاشتراكية. وإن هم تحاشوا ذكر المؤلفين والمفكرين بالأسماء فقد كانوا يترجمون الرسائل والمقالات التي خلفها الزعيم الاشتراكي جان جوريس[١٨] ومقتطفات من ماركس، ومقالات وبيانات نظرية لعصبة السپارتاكوس الألمانية[١٩]، إلى جانب أدبيات جمعيّة الفابيين[٢٠] أو زعماء النقابيين في

---

(١٨) جان جوريس Jean Jaures: تزعم الحركة العمّالية في فرنسا وأسس جريدة لومانيتيه (الإنسانية) في ١٩٠٤، التي بقيت لسان الحركة العمالية في فرنسا، ثم صارت جريدة الحزب الشيوعي الفرنسي. اغتيل قبيل نشوب الحرب العظمى.

(١٩) سپارتاكوس بوند Spartakus Bund: إسم لحركة اشتراكية ثورية نشطت في ألمانيا خلال الحرب وبعدها، وأخذت اسمها عن (سپارتاكوس) العبد الروماني الذي قاد في العام (٧٠م) ثورة العبيد على سلطة روما. ومن أشهر قادتها روزا لوكسمبورغ وكارل ليبنخت. وهي نواة الحزب الشيوعي الألماني. حاولت العصبة الوثوب إلى الحكم في ثورة العام ١٩١٩ الفاشلة. وقتل قائداها هذان بعد القبض عليهما.

(٢٠) جمعية اشتراكية تأسست في ١٨٨٤ أخذت اسمها من القائد الروماني (فابيوس كونتراكتور) الذي =

حزب العمال البريطاني. وتحدثت (الصحيفة) عن فساد التقاليد التي تشدّ المجتمع العراقي إلى الماضي البالي، وهاجمت الخرافات وضرورة التخلص من سلطانها مؤكدة في عين الوقت احترامها المشاعر الدينية، وحرية الاعتقاد، إلى جانب حرية التعبير. ودأبت خلال عمرها القصير على الحديث حول المرأة ووجوب مساواتها بالرجل في فرص العمل وحياة المجتمع، بصورة عامّة دون التطرق إلى خصوصيّات المشكلة (لم تبحث الصحيفة مثلاً حول وجوب منح المرأة حق الانتخاب بصراحة).

في الواقع كان كتّاب (الصحيفة) في مجال حريّة المرأة لا يسيرون مسافة أبعد كثيراً من بعض الأدباء والشعراء المتحررين الذين اجترأوا على ولوج هذا الباب، لكن دون أن يبلغوا شأو (قاسم أمين) فيه. ويمكن القول إن حركة الانتصار للمرأة تركزت حول وجوب نيلها حظاً من التعليم والمشاركة في فعاليات اجتماعية محدودة وقضية السفور والحجاب[٢١]. وقد عبّر عنه زعيم الحركة جميل صدقي الزهاوي، الذي حدّد الإخفاق الذي مني به الشرق بإهماله تعليم المرأة:

= اشتهر بتكتيكه الحربي المتأني أثناء قتاله مع هنيبال (١٩ ق.م). عاونت في تأليف حزب العمال البريطاني. من أبرز كتابها سيدني ديب وزوجه بياترس. وجورج برنارد شو.

(٢١) إيضاحاً لأبعاد حركة تحرير المرأة العراقية، والمقام المركزي الذي احتلته عند دعاة الإصلاح والتجديد الاجتماعي، سأنقل هنا روايتين للقصصي والشاعر والأديب جعفر الخليلي النجفي: (هكذا عرفتهم ج٥، الص٢٣٠-٢٣٧) قال: «كان مجتمعنا الحضري وأقصد به سكان المدن، قاسياً في معاملة المرأة ظالماً لها حتى في حرمانها التعليم. أمّا القرويون فلم يسمحوا للمرأة إلاّ برفع الحجاب دون غيره وبالتالي فهي أتعس حالاً من المرأة الحضرية، ولا أحسب المرأة قروية إلاّ في النادر أن تسلم من ضرب الرجل لها بالعصا وأحياناً بالمگوار الذي طالما كسر لها بعض ضلوعها، بل كان سبباً لإحداث عاهة فيها أو قتلها إذا كان ذلك مما يدخل ضمن حدود العرض والخطف. وكان الميرزا حسين النائيني (وهو مرجع تقليد شيّعي خطير) ممن ألف كتاباً يدعو فيه إلى وجوب تعليم المرأة واحترام حقوقها كإنسان. لكنّه عندما وصل إلى المرجعية الكبرى وأصبح المرجع الأكبر للشيعة، اضطر إلى جمع الكتاب وشرائه، حتى بلغ ثمن النسخة منه ليرتين ذهباً. وكانت عندي نسخةٌ أردت حين أصدرت جريدة (الفجر الصادق) ترجمتها ونشرها، فقامت قيامة هذا المرجع ولم يترك وسيلة من الوسائل إلاّ واتخذها، حتى حال بيني وبين نشر هذه الرسالة. ويروي كذلك كيف كانت الحاجة تدرك إلى عنصر أنثوي بمناسبة افتتاح مهرجان سوق عكاظ في ٢٤ من شباط ١٩٢٢، لتمثيل دور (الخنساء) الشاعرة العربيّة: «فتركب الجمل وتدخل السوق وتنشر كما كانت تفعل الخنساء. لكن أين هي تلك المرأة بحثوا كثيراً لكنهم لم يعثروا عليها، فقد كان المجتمع العراقي يومذاك من ضيق التفكير والتمسك بحيث كان يعتبر المرأة عورة لا يجب كشفها للناس، ويكفي القارئ بأن المرأة الحضرية لم تكتف =

من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق

وبقصائد كثيرة أخرى تجدها في دواوينه. وقبلها بعشرين عاماً، هُزت عاطفة الشاعر المصري حافظ إبراهيم بنزول المرأة اليابانية ميادين القتال في الحرب الروسيةُ - اليابانية ممرضةً وعاملةً وهي من بلد كان يضرب به المثل في التأخر في البلاد العثمانية، فتُدلّ عليها وعلى شعوب الشرق الأخرى بالحرية التي منحها الإسلام لهنّ. فقال فيهن قصيدته الشهيرة التي نشرت في أكثر من جريدة عراقية بعد نظمها بزمنٍ وقامت معلمات سوريات ولبنانيات بتلقينها حفظاً لتلميذاتهنّ العراقيات ومطلعها:

أنا يابانيةٌ لا أنثني عن مرادي أو أذوق العطبا

أخدم الجرحى وأراعي حقهم وأواسي في الوغى من نكبا

هكذا (الميكادُ) قد علّمنا أن نرى الأوطان أمّاً وأبا

وتصدى المستنكرون المعارضون هازئين بأولئك الذين يعدون الحجاب عقبة من العقبات التي تقف في سبيل التمدن والتقدم، فردّوا شعراً ونثراً:

قالوا: التمدنُ بالسفور فقلت ما ضرّ التمدنُ غادةً بحجاب

يكسو الفتاة مهابة وجلالةً ويصونها من وصمة المرتاب

إلى غير ذلك من التعاليل المريضة، ومن دون تفكير بأن الحجاب يشجع على التخفي وارتكاب المرأة الرخيصة العفة ما لا تجرؤ عليه لو كانت سافرة. وكلّ ذلك كان أشبه بفقاعات رغوة صابون فوق سطح ماءٍ ساكن. فلا جميل صدقي الزهاوي ولا حافظ إبراهيم اجترأوا على إخراج محاريمهم سافرات، أو بعثوا ببناتهم إلى مدارس مختلطة. أو حاولوا دفعهن إلى التظاهر في سبيل حقوقهن الانتخابية.

= بعباءة واحدة، إنما كانت تلفّ نفسها بعباءتين حين الخروج من البيت. ولم يكن الحجاب قاصراً على المسلمين وحدهم بل تشارك فيه المسيحيات واليهوديات حينذاك. وارتفضت لجنة إقامة السوق أن تمثل الصبية (صبيحة الشيخ داود) دور الخنساء. فجاء الشيخ أحمد الداود وفدٌ من المشايخ يطلبون منه العدول عن رأيه ومنع ابنته (المولودة في ١٩١٥) من ركوب الجمل واختراق صفوف الرجال». أقول: أدركت صبيحة الشيخ داود في أواخر العام ١٩٣٩ وهي في الصف المنتهي من كلية الحقوق وأنا في أول أيامي فيها ومعي خمس طالبات من مجموع ١٤٤ مقبولاً وقد دخلتها بعد قضاء سنة واحدة في سلك التعليم وهو باستثناء مدرسة التمريض والطب المهنة الوحيدة المتاحة للأنثى. وكانت سافرةً بقدر ما يتعلق الأمر بالوجه. فقد ضلّت تشتمل بالعباءة السوداء أثناء الدوام. أما كلية الطب فقد بقيت قاصرة على اليهوديات والمسيحيات العراقيات حتى الأربعينات.

مجرد مناقشات، قد تبلغ أحياناً حَدّ المهاترة - يتداولها قراء ومتأدبون يكتبونها بعضهم لبعض، وتقف الأغلبية الأميّة من الجدال كما يقف الأكمه.

وكُتبت المضابط والاحتجاجات بتحريض من علماء الدين. وألقيت خُطب نارية تندّد بـ(الصحيفة) وبمحرريها الملاحدة[٢٢]. ولم تكن دائرة التحقيقات الجنائية (CID)[٢٣] التي يرأسها بريطاني بغافلة عن المصادر التي تستمد منها الجريدة موادّها الفكرية فأسرعت بإغلاقها.

لم تكن في العراق المقومّات الكافية، شيء يمكن أن يطلق عليه مصطلح الطبقة العاملة أو «البروليتارية» بالتعريف الماركسي. فقوام المجتمع العراقي آنذاك كان الفلاحون وشيوخهم (أجراء وملاكون) في الريف وأهل الحضر. وفي المدينة كان هناك الصَنعة وأرباب الحرف والتجار وعلماء الدين والملاكون. ولذلك كان أيّ خطاب أو حديث توجهه (الصحيفة) الماركسية الواضحة المعالم لطبقةٍ لا وجود لها هو من قبيل المزاح، أو النكتة الباردة.

إلاّ أن دائرة التحقيقات كانت على علمٍ بأن واحداً من العصبة الصغيرة التي تجتمع في غرفة جامع الحيدر خانة كان على اتصالٍ وثيق بمشبوهٍ أو مشبوهيْن على الأقل من أولئك الذين وصفهم (الاتفاق الرباعي) بالمتسللين.

في العام ١٩٢٦ نجح هؤلاء إلى جانب بعض الأصدقاء الجدد في تأسيس نادٍ باسم (نادي التضامن) الذي ما عتم أن اجتذب إليه عدداً كبيراً من الطلاب والمعلمين وطلائع من حملة القلم والموظفين الصغار. وكان من أهدافه وأغراض تأسيسه كما جاء في منهاجه، وحدة الشبيبة، ونشر المعرفة، وتطوير الصناعات الوطنية والعمل «للمبادئ

---

(٢٢) من بين الستّة الكبار في الحلقة الماركسية، الذين ذكر بطاطو (المرجع السالف) أسماءهم، عرف الكاتب عن قرب وبُعد ثلاثةً: أولهم (الرحال) أيام كان مديراً للإذاعة العراقية (١٩٤٣) وقبله (عوني بكر صدقي) وهو موظف في كلية الحقوق طوال دراستي فيها، و(مصطفى علي) وهي علاقة قلم وأدب، أيام كان رئيساً للمحكمة الكبرى في البصرة ثم مفتشاً عدلياً في الخمسينات. وبعدها وزير للعدل إثر ١٤ تموز. وفي اعتقادي أن بطاطو تساخى قليلاً وسمح لنفسه بحريّة أكثر عندما وصفهم بالماركسيين ربما كان قريباً من الواقع لو أفرد (الرحال) بهذا الوصف. إذ لم يكن بين هؤلاء من يعرف لغة أوروبية غيره. ولم يكن في ذلك الحين أدبيات ماركسية باللغة العربيّة في العراق.

(٢٣) الأحرف الأولى من Criminal Investigation Department.

التي تؤدي إلى الارتقاء بحياة المجتمع!» عبارة أُجيد وضع قناع العموميّة فوقها، إلاّ أن دائرة التحقيقات الجنائية كانت ترى في المنهاج غير ما يظهر منه للعامة، فهو يهتم بالدرجة الأولى بتشجيع الأفكار الاشتراكية ونشرها. ولذلك وضعته ووضعت أعضاءه المؤسسين تحت الرقابة.

إلاّ أن المنضمين إلى هذا النادي كانوا خليطاً من الشباب الوطني المتحمس التائق للمعرفة وتبادل الآراء الوطنية، وكثيرٌ منهم من الجيل القوميّ الناشئ، الذين خاصموا القوميّين المخضرمين وبدأوا يبتعدون عنهم وقد رموهم بتهم التعاون مع سلطات الاحتلال والتعاون في المطالبة بحقوق البلاد في الاستقلال والتكالب على السلطة واحتكارها.

كان من الصعب أن يوضع حدّ فاصل - سواء في داخل هذا النادي أو في خارجه - بين القوميين والنواة الاشتراكية الجديدة. فالكل يعمل ضمن الإطار الذي أملاه واقع قيام دولة جديدة (وطن)، فهم وطنيّون إلاّ رئيس النادي (يوسف زينل) المدرس في الثانوية المركزية قد كان قوميّاً معروفاً.

* * *

إن الثورة على كتاب النُصولي (خريج الجامعة الأمريكية في بيروت) تفصح عن خطورة البحث في تأريخ العرب والإسلام بروح متحررة خالية من التحيز وصعوبة تقبّل النفس المتعصبة لأي رأي يخالف رأيها. و(النصولي) كان سنياً وهؤلاء الذين ظاهروه وناصروه من أبناء بلاده وقد عرفوا بنشاطهم القومي كلهّم من السنيّة، أفيستخلص من هذا أن علماء الدين الشيعة والعناصر الشيعية الأخرى التي هبّت بوجه الرجل ليست عربيّة؟ أو إنها تقف بوجه تيار قوميّ عربي؟

هذا ليس بواردٍ إطلاقاً، فالشيعة بصورة عامة وفي العراق تفخر كثيراً بنسبتها العربية وتعتزّ بها حينما ترجع قبائل الجنوب أصولها إلى الجزيرة العربيّة بما يشبه الإجماع، ولا يدع كتّابهم فرصة لتأكيد ذلك إلاّ وانتهزوها ولهم ملء الحق في ذلك. إذن ليس هناك غير تفسير واحد؛ إن قضية النصولي تكشف دون غموضٍ أو لبس عن قوة المشاعر المذهبية وضعف العصبيّة القوميّة (العروبة) أمامها.

بهذه التظاهر الفريدة، ولأول مرة في تأريخ الدولة العراقية، بدأ رجال الحكم يشعرون بأنهم ما عادوا وحدهم يمثلون الاتجاه القومي العربي وأنهم لا يعملون بمعزل عن الرأي العام الذي بدأ يثبت وجوده بنمو الطبقة المتعلمة وبالموظفين الحكوميين،

وبالزيادة المطردة في الأقلام العاملة في تحرير الصحف، ونشاط الناشئة الجديدة من الطلاب والتلاميذ ومعلميهم الذين اغترفوا من معين الثروات الفكرية المصريّة وقرائح أدباء مصر وعلمائها. وراح هؤلاء القوميّون الجدد (بمظاهرة الصحافة) يشدّدون الخناق كلّ من جانبه على القوميين المخضرمين الحاكمين ويتربصون بهم ويتسقطون هفواتهم في ضروب نشاطهم السياسي، سيما ضمن الأحزاب الفوقية التي كانوا يشكلونها بين آن وآخر لغرض موقوت، ثم لتذهب مع الريح بعد استيفاء الغرض منها. لم تكن هاتان الطائفتان بحاجة إلى إطارٍ سياسيّ. بل كان اصحابها ينتهزون الفرص ليعيبوا تخاذلهم في القضايا الوطنية أمام البريطانيين. وراح الجيل القومي الجديد من غير برنامج أو تنظيم يحاول تعبئة جمهور له في أمور ظاهرها المصلحة العامة، ليجدوا أنفسهم في أحيان كثيرة وهم يساندون الجيل المخضرم فيما لا تصح مساندتهم له، وقد خدعوا بالشعارات. وكثيراً ما تعاونوا معهم من حيث لا يدرون على تحرير مخططات سيئة العقبى لتبدو قوميتهم ضحيةً وجانيةً في الوقت عينه.

* * *

كان لنادي التضامن الفضل في تحويل قيادة الشارع من يد علماء الدين ورجال الحكم المتنازعين على السلطة إلى يد الطبقة المثقفة الجديدة، في قضيتين بدت أولاهما محاولة غير مسبوقة لامتصاص الآثار التاريخية التي أدّت إلى العداء الطائفي بين الشيعة وأهل السنّة، وأشّرت الثانية إلى دخول القضية الفلسطينية في منهاج أهداف القوميين في العراق لتحتل منها مقاماً مركزياً.

أولها الحدث الذي عرف في تأريخ العراق باسم «قضية النصولي». كان (أنيس النصولي) من جملة المدرسين السوريين الذين تعاقدت معهم وزارة المعارف لتدريس مادة التأريخ في ثانوية بغداد المركزية. في ذلك الحين كانت هناك مناهج دراسية تعدّها الوزارة كلّ سنة، توزعها على المدرسين للاستهداء بها في جمع موادهم وإلقاء دروسهم طبقها. وكان كثيراً ما يلجأ المدرسون إلى استكتاب التلاميذ. أو يعمدون إلى وضع كتاب بمادتهم ومن تأليفهم ليطبع ويوزع على التلاميذ اقتصاداً في الوقت. وطبقاً لهذا أعدّ (النُصولي) كتاباً بعنوان (الدولة الأموية في الشام). بدا في بعض فقراته مصوراً حوادث ووقائع تأريخية معينة بشكل غير مقبول بتاتاً من الشيعة. من ذلك ما عزاه إلى الإمام علي والحسين الإمام الثالث الشهيد وما عدّه الشيّعة إهانة مقصودة وطعناً بآل البيت.

ذكر النُصولي في مقدمة كتابه، وكأنه يدري وهو القوميّ السنيّ - العاصفة التي سيطلقها به، بل وكأنه لا يكتب فصولاً مدرسية بل كتاباً للعامة:

«ألفتُ كتابي وكلّ آمالي أن أمهّد السبيل لانتشار الروح العلمية في المدارس العراقية. وكنت في تأليفي هذا الكتاب أجمع الحقائق التي يقبلها العقل والمنطق والقياس على قدر الإمكان، وأغفل ما يُخجل من المبالغات والروايات التي لا تعتمد على أساس ثابت من صحة الإسناد. وما كتبت كتابي هذا لأبث روح التفرقة بين السنّة (يقصد السنيّة) والشيعة أو لأهدم بنيان القومية العراقية، وأزعزع أركان الوحدة العربيّة وأشتت شمل الجامعة الإسلامية».

وجاء في مقدمة (الأهداء) هذه العبارة:

«من أحقّ بتأريخ أميّة من أبناء أميّة؟ من أحقّ بتاريخ معاوية والوليد من أبناء معاوية والوليد؟ فاقبلوا يا أبناء سورية الباسلة المتحدة المستقلة هذه الثمرة الصغيرة.

التوقيع: أنيس»

وقع الكتاب بيد العلماء الشيعة فغضبوا وقدّموا احتجاجاً شديداً لوزارة المعارف. فطلبت الوزارة من المؤلف حذف الفقرات التي أشار إليها الاجتماع فأبى، وعندها أصدرت له الوزارة أمراً بجمع الكتاب ورفعه من يد التلاميذ. ثمّ تصاعدت الاجتماعات إلى حَدّ المطالبة بمعاقبة النصولي وعَمّ الهياج النجف وكربلاء وكثر اللغط والحديث في المجالس عن الكتاب. وأُدين المؤلف في خطب الجمعة. وعندها ألغت الوزارة عقد النصولي وفصلته في كانون الثاني. فتقدم عدد من المدرسين السوريين في عين المدرسة وفي دار المعلمين الابتدائية باحتجاج خطيّ إلى الوزارة حول ما نعتوه بـ«نكبة حرية الفكر» التي نجمت عن «تعصب الوزارة الأعمى». فردت الوزارة بإصدار قرار العزل من الوظيفة بحق الموقعين جميعاً[٢٤]. وعلى أثر ذلك خرج تلاميذ الثانوية ودار المعلمين بعدد تجاوز الثمانمائة في تظاهرة تقصد وزارة المعارف، شارك فيها الشيعة والسنيّة من

---

(٢٤) فصل من المعلمين السوريين عبدالله المشنوق ودرويش المقدادي وجلال زريق وهم من القوميين المعروفين الذين وضعوا بصماتهم على الحركة القومية في العراق. ومن المدرسين العراقيين يوسف زينل ويوسف عزالدين إبراهيم. ومن التلاميذ المطرودين حسين جميل وعبدالقادر إسماعيل. وقد ألغي قرار الفصل والطرد بعد قليل. ومما يذكر أن وزير المعارف آنذاك كان السيد عبدالمهدي المنتفكي وهو شيّعي.

التلاميذ وهم ينادون باحترام حريّة الفكر ووجوب إعادة المدرسين المعزولين.

لم يشارك الجمهور في هذه المظاهرة الطلابية الصرفة، إلاّ أن المتظاهرين خاطبوا الجمهور ببيان وزعوه، موضحين فيه أن تظاهرهم لا يقصد منه جرح المشاعر الدينية لمختلف الطوائف، بل للدفاع عن حرية الفكر. وقد استقبلتهم الشرطة الخيالة بالهراوات ووجهت سيارات الأطفاء خراطيم مياهها إليهم فقوبلت منهم بقذف الآجر والطابوق. لكن لم يصمدوا طويلاً وتفرقوا وألقي القبض على عدد منهم وأودعوا السجن. وأغلقت الثانوية لمدة عشرة أيام وطُرد عدد من التلاميذ طرداً نهائياً. إلاّ أن برقيات الاحتجاج ظلتّ تتوارد على الحكومة والوزارة من سائر مدن الفرات الأوسط والكاظمية وسامراء بترتيب منظّم.

وأشارت التقارير السرية أن نادي التضامن كان وراء التظاهرة والبيان وأن عدداً من أعضائه كان يرافق التظاهرة ويتصدرها.

ولقي النادي حتفه بعد شهر وبضعة أيام بمناسبة ثانية وبسببها، فقد كان وراء تلك التظاهرة العامّة التي استقبلت نبأ زيارة السرّ ألفريد موند Alfred Mond وانتصاراً للقضية الفلسطينية.

كان (موند) واحداً من الساسة البريطانيين المتحمسين للصهيونية والمدافعين عن حق اليهود في إقامة كيان سياسي لهم في فلسطين. كان قد زار فلسطين واختطّ أن يزور العراق وقصده استطلاع رأي السياسيين العراقيين في منهاج أعدّه شخصياً لتنظيم الهجرة اليهودية ووضع أسس لعلاقة مستقبلية بين سكان فلسطين العرب والمستعمرين، وعن مدى استعداد الحكومة العراقية للتجاوب ومدى احترام (فيصل) وحكومته ذلك الاتفاق الذي تمّ بينه وبين (وايزمان) في پاريس - وقد أتينا إلى ذكره - والموقف الذي سيتخذه العراق من عمليّة الاستيطان اليهودي في الجزء الذي أفرز عن فلسطين الكبرى. أخفت الحكومة غرض الزيارة الحقيقي ونشرت لها سبباً رسمياً مؤداه أن القصد من زيارة الزائر هو «دراسة الأوضاع الزراعية في العراق» وهذا ما نشرته الصحف عنها.

وبين السبب الأصلي والغطاء المقنّع تمكن (يوسف زينل) رئيس نادي التضامن ونائبه (حسين الرحال) من تمرير علّة خيالية للزيارة أقنعا بها الأعضاء المجتمعين، وهي أن القادم إنما جاء «لتأسيس مستعمرة صهيونية في العراق»، ولذلك تمّ الإجماع على القيام بتنظيم مظاهرة احتجاج.

لم يكن لـ(ألفرد موند) صفّة رسمية. فلا هو عضو في الحكومة البريطانية ولا هو

مندوب عنها ولا مدعوّ بصفةٍ رسمية وقدومه إلى العراق إنما كان ضمن برنامجٍ اقتضاه القيام بجولة في البلاد الناطقة بالعربية لاستطلاع ردود الفعل حول ما يجري من نشاط صهيوني في فلسطين. وهو كما ذكرنا أحد المتحمسين المؤيدين للصهيونية بلا جدال.

منذ أن بدأت سلطات الانتداب إجراءاتها تنفيذاً لوعد بلفور وقضية فلسطين لا تني تحتلّ مقاماً مركزياً عند القوميين في البلاد الناطقة بالعربيّة. رغم الفردية التي عالجوا بها تعقيداتها، ورغم فشل مختلف المجموعات والحركات القوميّة داخل فلسطين وخارجها في محاولة جمع شملها في قطارٍ واحدٍ[٢٥] رغم الفشل المتوالي الذي نكبَ به نشاط الحركات والأحزاب الفلسطينية داخل فلسطين نفسها، فقد قابل ذلك نجاحاً مذهلاً حققته القضية في البلاد الناطقة بالعربيّة، في تكوين رأي عامٍ وتعبئة جماهيرية. فنادي التضامن الذي أخرج هذه التظاهرة الخطيرة وكان يرفع لافتاتٍ اقتصرت على شعارات فلسطينية فحسب «تحيا الأمة العربيّة. فلسطين عربية. يحيا الاتحاد. بيت المقدس عربيّة. فلتسقط الصهيونية. فليسقط وعد بلفور».

---

(٢٥) في ٣١ أيار ١٩٢٠ شكلت الجمعية العربية الفلسطينية، وعرف من أقطابها آنذاك محمد أمين الحسيني وعارف العارف ورفيق التميمي ومحمد عزت دروزة، وأصدرت احتجاجاً على قرارات مؤتمر (سان ريمو)، واستنكرت تعيين هربرت صموئيل (اليهودي) مندوباً سامياً. وراحت تنشر بيانات في البلاد العربيّة ملفتة إلى خطر التغلغل الصهيوني. وفي العام ١٩٢١ انبثق عن (المؤتمر العربي الفلسطيني) ما عرف بـ(اللجنة التنفيذية العربيّة) للإشراف على تنظيم ونشاط الحركة الفلسطينية الوطنية. وفي العام نفسه نصبت سلطة الانتداب الحاج أمين الحسيني الضابط العثماني السابق مفتياً أكبر لفلسطين، وأناطت به رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى الذي أجازت تأسيسه. ونشأت إلى جانب هذا أحزاب صغيرة ضعيفة كالحزب الوطني الذي بدأ نشاطه في ١٩٢٣ وحزب المزارعين في ١٩٢٣ أيضاً، وحزب الأهالي في ١٩٢٥ والحزب الحرّ الفلسطيني في ١٩٢٧. وفي ١٩٣٦ نبطت من (اللجنة التنفيذية) ما دعي باللجنة العربيّة العليا، وهي نتيجة اتحاد خمسة أحزاب كانت متواجدة آنذاك: الحزب العربي الفلسطيني، حزب الدفاع الوطني، حزب الإصلاح، الكتلة الوطنية، اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب الوطني. ولا نجد في تأريخ هذه التجمعات والأحزاب والحركات القوميّة ما يشير إلى أنها حققت أي تقدم في الأهداف التي نذرت نفسها لها. فقد مزّقها التشرذم والخلافات الفردية والمسابقة على الزعامة، وتراشقت قياداتها التهم بلا رحمة ولا هوادة. وترامى زعماؤها بكل نقيصة تجد لها وصفاً في معجم اللغة. والمتابعون لا شك يذكرون ذلك النزاع المخجل الذي احتد في العقد الثالث والرابع من القرن بين (المفتي الحسيني) وبين (راغب النشاشيبي) زعيم كتلة في اللجنة، إلى حَدّ نبش مساوئ الماضي وسقطاته. وقد سُئل أحد الساسة الفلسطينيين في حينه عن رأيه في ما يشنع أحدهما به على الآخر فأجاب: «كلاهما صادق!».

هذه التظاهرة التي قدروا عدد المشاركين فيها بعشرين ألفاً[٢٦]. كانت مظاهرة

---

(٢٦) هذا ما جاء في (الحسني: تأريخ الوزارات العراقية، ج٢، ص١٥٠). و(بطاطو The old Social ص٤٠٠) مثلاً دون ذكر المصدر الذي نقلا منه. وفي التقرير السنوي الذي ترفعه الحكومة البريطانية (Report of his M.G.) عن سير الإدارة في العراق إلى عصبة الأمم (ص٢١ لسنة ١٩٢٨) جاء ما يلي: «إن المظاهرة كانت مدبرة، وعلى إثر اجتماع عُقد في نادي التضامن الأدبي خلال شهر كانون الثاني من العام ١٩٢٨». ولم يرد في التقرير ذكر لعدد المشاركين في التظاهرة. أسرعت دائرة التحقيقات في اليوم التالي بمداهمة مقر نادي التضامن في الحيدرخانة وألقت القبض على من وجدت من أعضائه وأصدرت وزارة الداخلية قراراً بإلغاء إجازة النادي، وبدأ ذعر الحكومة واضحاً من واقع ارتكابها خطأً فقهياً لا تقرّه المبادئ القانونية المتبعة بإصدارها المرسومين ١٣ و١٤ ذوي الأثر الرجعي مشيرة بالنصّ في مقدمة أولهما إلى «وجود خطر عام من اجتماعات الطلاب». وبه فرضت عقوبة الجلد على من لم يبلغ الثامنة عشرة من الطلاب الذين يشاركون في التظاهر. وخولت المادة الأولى من ثانيهما وزير الداخلية صلاحية وضع المحرضين تحت مراقبة الشرطة لمدة لا تزيد عن السنتين. وأن يحال المقبوض عليهم إلى المحاكم وفق الباب الثالث عشر من قانون العقوبات. ونصّت المادة الثالثة على أن تطبق أحكام المرسومين بحق الذين لهم علاقة بحادثة ٨ شباط ١٩٢٨ حصراً. وقد تمّ إلغاء هذين المرسومين بعد الضجة الصحفية والانتقاد الشديد الذي وجهه الساسة المعارضون في أيار من السنة عينها. وأطلق سراح من حكمت عليهم محكمة الجزاء ولم تطبق عقوبة الجلد على أحد.
كما أُلغي قرار وضع (يوسف زينل) تحت مراقبة الشرطة وأعيد إلى وظيفته في بغداد (كان مدرساً في الثانوية المركزية). وأُلغي قرار الطرد المؤبد الذي صدر بحق الطلاب والتلاميذ. كما ألغي بعد أيام فقط الأمر الذي أصدره وزير الداخلية «بمنع التجمهر في الطرق والشوارع والميادين العامة أو تسيير المواكب فيها أو الاجتماعات العامة دون إجازة رسمية». ويذكر الحسني (المرجع السالف، ج٢، ص١٥٠) أن قرارات الطرد المؤبد شملت أحد عشر طالباً من دار المعلمين وخمسة تلاميذ من الثانوية وطالبين من مدرسة الحقوق (ذكر بالاسم: حسين جميل وعبدالقادر إسماعيل البستاني. أولهما وزير في العهدين الملكي والجمهوري وأحد أقطاب الحزب الوطني الديمقراطي، وثانيهما من أوائل الشيوعيين وعضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بعد ١٩٥٨).
إلاّ أن مصدراً آخر يحصر الأسماء بستةٍ وعشرين غير الذين ذكرناهما (حكايات سياسية: خيري العمري) وهو العدد الصحيح. عرفت من بين هؤلاء المطرودين الأستاذ عزيز شريف ربطتني وإياه صداقة حميمة منذ قيامنا بتأسيس حزب الشعب في العام ١٩٤٦ حتى وفاته. وقد استوزر في ١٩٧٠ إثر بيان آذار وأصبح رئيساً لحركة السلم والتضامن العراقية. كما عرفت أيضاً مزاحم ماهر الكنعاني أيام كان مديراً لشرطة الموصل. وكلاهما كان من طلاب دار المعلمين الابتدائية، فتحولا بعد قرار الطرد إلى مدرسة الحقوق وكليّة الشرطة على التوالي. كذلك عرفت الفنان الشهير (عزيز علي) في أواخر سنيّ حياته. وقد ذكر لي رابعٌ (وديع فتح الله) وهو المسيحي الوحيد بين كلّ من شارك في التظاهرة وناله عقاب بسببها أنه ما انضم إلى المتظاهرين لسببٍ =

قومية خالصة. ليس فيها مطالب أو شعارات عراقية وطنيّة. لكنها كانت من وجهٍ آخر لاسيما لحسين الرحال وجماعته اليساريين المستجدين الذين ساهموا في إخراجها ومسيرتها، تجربة أولى لنضال الشارع. وهو عماد التاكتيك الذي صار أسلوب نشاط أحزاب اليسار المتبع عالمياً.

لم تجد الشرطة التي تصدّت للمسيرة كما يبدو حاجة إلى استخدام سلاحها، ولم يذكر أحد أن سمع أثناء تفريق المظاهرة دوي عيار ناريّ في الجوّ. فقد اقتصر الأمر كالسابق على استخدام خراطيم الماء والهراوات والعصيّ. وتمّ تفريق المتظاهرين بسرعة بعد إصابة الصامدين منهم وجلهم طلاب برضوض وكدمات وجراح. واحتجز عدد من المتظاهرين.

أصيبت السلطة بذعر شديد، فهذه مظاهرة حقيقية شارك فيها الألوف ولم تخرج من مسجدٍ، ولم يحرض عليها معارضون منافسون في الحكم. دُرست ونظمت بعناية قبل أيام وأعدت شعاراتها ولافتاتها مسبقاً، يدل على ذلك رد الفعل العنيف مما اتخذته على إثرها من إجراءات تفتقر إلى الموازنة والمنطق تجرّأ عليها أكثر الأقلام أناةً وأبعدها عن المبالغة والخروج عن حدود اللياقة. كذاك الذي كتبه (سليم حسّون) في جريدته المحايدة بالمناسبة:

«إن حالة البلاد أصبحت محزنة جداً، لأنّ أكثر رجال العراق في الحكم هم من الفصيلة الباقية من العهد التركي الحميدي، فلا يجوز أن نلومهم كثيراً ونسند إليهم عدم الإخلاص. فقد تبدلت الأحوال السياسية في العالم ووجد رجالنا أنفسهم في أوضاع جديدة ومشاكل عويصة يصعب عليهم حلّها أو فهمها»[٢٧].

الأهميّة التي أوليناها لتظاهرة ٨ شباط تتأتى مِن أثرين عظيمين خلفتها على صعيدي السياسة المحليّة والاتجاهات الفكرية في البلاد، لاسيما الاتجاه القومي. فقد شهد المجتمع العراقي الجديد أوّل خرقٍ رسمي فاضحٍ للقانون الأساسي العراقي باللجوء إلى إصدار المراسيم. وكان الأسلوب الذي انتهجته الحكومات العراقية بلا

= غير مجرد التضامن مع أصحابه وقد أدركته وهو معلم في إحدى المدارس الابتدائية في الموصل.

(٢٧) العالم العربي ١٢ أيلول ١٩٢٨.

استثناء لمعالجة حالة الشعور بالعجز عن إيجاد حلول سياسيّة بعيدة عن العنف تتسم بالعقلانية والمنطق وأشكال داخلية وانفجارات عامة، أو عندما يداهمها خطر على كيانها من معارضة حلفت على إزاحتها والحلول محلها. أقصر الطرق هو القوة التي يمثلها الجيش والشرطة. والقوّة تؤدي إلى مصادرة الحريات والحقوق الدستورية والعبث بالمبادئ الديمقراطية التي قام عليها الدستور. هذه الحقوق والمبادئ التي تضمنها الدستور كانت تُخنق بحبل الدستور! ماعتّم أن بدا الدستور ألعوبة بيد الحكام. وصار مادة عامة للتندر والسخرية[٢٨]. وأمام القضية الفلسطينية التي دخلت برنامج العروبة القومي لتحتل فيه مركز الصدارة بوقتٍ وجيز، بدت طبقة القوميين المخضرمين شبه معزولة عن الحركة القوميّة الحديثة، التي يقودها المتعلمون وبعض الطلبة رغم ادعاء المخضرمين في كلّ فرصةٍ بأنهم يساندون القضية الفلسطينية ويعملون لها.

عوملت القضية الفلسطينية من المبدأ في العراق باعتبارها جزءاً من القضايا المصيريّة التي لا يمكن إغفال أمرها أو هي بالأحرى قضية العرب الكبرى، التي تتقدم كلّ القضايا الوطنية المحليّة وتتضاءل أمامها المشاكل التي تأخذ بخناق الدولة الجديدة، وفي مقدمتها مشكلة الأقليات والقضية الكُردية. في حين أنها كانت عند الفلسطينيين أنفسهم ومن المبدأ حتى المنتهى قضية وطنية داخلية صرفة تتلخص مطالبها وتنحصر في إنهاء الانتداب على فلسطين واستقلالها ووقف الهجمة الصهيونية ووضع حَدّ للهجرة

(٢٨) تنص الفقرة (٣) من المادة (٢٦) في القانون الأساسي العراقي: «إذا ظهرت ضرورة أثناء عطلة المجلس (مجلس الأمة) لاتخاذ تدابير مستعجلة لحفظ النظام والأمن العام أو لدفع خطرٍ عام أو فللملك الحق بإصدار مراسيم بموافقة هيئة الوزراء، يكون لها قوة قانونية تقضي باتخاذ التدابير اللازمة بمقتضى الأحوال، على أن لا تكون مخالفة لأحكام القانون الأساسي ويجب عرضها جميعاً على مجلس الأمة في أول اجتماع فإن لم يصدق مجلس الأمة هذه المراسيم، فعلى الحكومة أن تعلن انتهاء حكمها وتعتبر ملغاة من تأريخ الإعلان وتشمل لفظة (القانون) المراسيم الصادرة بمقتضى أحكام هذه المادة ما لم يكن في متنه قرينة تخالف ذلك» آه. وعلى ضوء هذه المادة شرعت مراسيم (قوانين) سيئة الصيت كان لها دور فعّال في محاربة الحريات وخنقها كما كانت وسيلة التجمع الباطشة التي قضت على الأقل في أن تعد ممارسة الدستور تربة خصبة لنمو تيار ديمقراطي ليبرالي الإتجاه أو حركة اشتراكية على غرار اشتراكية الديمقراطيات التي نشأت عقب الحرب في ألمانيا وفرنسا ودول أوروبا الوسطى. فنشأت ضعيفة ضيقة الحدود ولم تفلح في وضع الأساس لها. وخير مثال لذلك جماعة الأهالي والحزب الذي خرج منها الحزب الوطني الديمقراطي.

اليهودية وإنشائها المستعمرات هناك. حتى مسألة وحدة سورية الطبيعية فإنها لم تحتلّ في نضال الفلسطينيين موقعاً ذا شأن وبقيت قضية ثانوية لا يشار إليها إلاّ عرضاً.

احتكر القوميون الجدد «الوطنية» إلى حين تحت شعار التخلص من النفوذ البريطاني والاستقلال أو خيل لهم ذلك، في حين كانت الفئات والأحزاب على ضعفها وتشرذمها ثم الأحزاب الوطنية الحقيقية - تعمل لهذا الهدف وترفع هذا الشعار - احتكروا وادّعوا بأنهم أصدق من يعمل لها لأنهم ما كانوا يريدون أن يتم ذلك بحركة فوقية وبجهود أناس وزعماء ذوي ماض مشوب ومثقل بالتعاون مع البريطانيين كما ادعوا وزعموا. وسنرى فيما بعد أن محاولة الاحتكار هذه ألجأتهم فيما بعد إلى زجّ الجيش العراقي في محاولات إنقلابية وإجراميّة.

ودأب القوميون وصحافتهم على مهاجمة السياسة البريطانية إزاء العرب والبلاد الناطقة بالعربية ووصفوها بالخداع والمصلحة الذاتية، دون أن يفكروا أو يتدبروا أو ربما دون أن يدروا بأن هاتين الصفتين تتناقضان بالأساس. فالمصلحة الذاتية من شأنها تبديل الخطّ السياسي بين آن وآخر، والمصلحة الذاتية في أحيان كثيرة تفرض التعامل بصدق وخلوص نية بعيداً عن الخداع، وكلاهما ينافي المخادعة.

أشعل البريطانيون نار الثورة العربية التي لقبت بـ(الكبرى) في الحجاز لأن مصلحتهم الذاتية اقتضت ذلك وهي متفقة كذلك مع المصلحة العربيّة. وساعدوا على نصب (فيصل) وحكومته العربيّة في سورية، لأن مصلحتهم الذاتية كانت تقضي إقصاء حليفتهم فرنسا عن الشرق الأدنى. فهل كانوا يخدعون العرب والسوريين وفيصل بما فعلوا؟

واستخدموا كلّ ما وسعهم من فنون الدبلوماسية والضغوط السياسية على عصبة الأمم، وبذلوا كلّ جهدٍ ممكن لتبقى ولاية الموصل جزءاً من الدولة العراقية لمصلحتهم الذاتية طبعاً. أفكانوا بذلك يخدعون بغداد والحكم الوطني؟

ثم ألم يقضوا هم أنفسهم على أمل الكُرد في كيان سياسيّ؟ ألم يضحوا بحقوق القوميّة التركمانية والقومية الآشورية؟

ألم يتخلوا عن حماية الأقليات وقد تعهدوا بها أمام المحافل الدولية صراحةً وضمناً، وضحوا بها وهم في سبيل تشجيع وبعث حركة الوعي القومي العربي، لمصلحتهم الذاتية ونزولاً عند حكم المتغيرات السياسية التي حملتهم على تبديل خطّهم

السياسي. أفكانوا في كلّ ذلك يخدعون حكومات بغداد ويفسدون على القوميين العرب؟

في الثلاثينات والأربعينات كان الميدان السياسي في العراق يخلو من قريب للعروبة يعتّد به، وبدأت عبارة الوحدة العربيّة تزحف إلى الصحافة العراقية وتتردد على الأفواه ويلهج بها فريق من طلاب المدارس المتحمسين، وبخاصة بعد فشل مشروع (الهلال الخصيب) الذي تبناه فيصل وبقايا القوميين في كلّ من سورية ولبنان. وكيف حصل ذلك؟

* * *

كان فيصل في أوائل العام ١٩٣١ قد وطّن النفس على تحقيق حلم مشروع وحدة القطر السوري بالقطر العراقي بضم لبنان المسيحي وفلسطين، ومقتنعاً كما يقول (جوزف هولم) بالفوائد التي تنجم عن تعبئة الأغلبيّة السنيّة على الأقل لإنهاء الطبيعة القلقة التي كانت تطبع حكومات الأقلية المتعاقبة في بغداد. كما كان يدرك أن الأغلبية العربيّة الأوسع رقعة ستؤدي إلى تحجيم القضية الكُردية إلى الحدّ الذي تسهل معالجته. هذا فضلاً عن الفوائد التي تجنى من الخبرة الاقتصادية والتجارية السورية ودرجة الثقافة العالية عند أبنائها ومواردها الطبيعية التي لم تستغل ومقدار الخير الذي سيجنى من الأنابيب عبر أراضيها بعد انبثاق النفط في العراق.

في الواقع كانت هذه محاولة ثانية من الملك فيصل. ففي أوائل العام ١٩٢٦ حاول جسّ نبض (الوايت هول) في المشروع منتهزاً فرصة ثورة الدروز وما حصل في عموم سورية. فكتب لوزير المستعمرات (اللورد إيمري) فكان الجواب بالرفض القاطع[٢٩].

---

(٢٩) في ٢٧ من كانون الثاني ١٩٢٦ وجه الملك فيصل رسالة إلى وزير المستعمرات لورد إيمري جاء فيها هذا: «هناك اعتبار آخر وهو اعتبار قومي، حيث يغدو من الطبيعي وجود أواصر حميمة تربطني بمصير تلك البلاد (سورية)، التي كانت فيما مضى موطن حضارة عظيمة لقومي أضف إلى ذلك أن الوضع الجغرافي لسورية يجعل من الضروري أن نتضامن من أجل النهوض بأمتنا بنجاح معتمدين على مساعدة بريطانيا وحدها...
انقضت خمس سنوات على الوهم الذي عاشه الفرنسيون وقد أدركوا الآن أن في سورية شعباً مدركاً لأمانيه، وفيما مضى كنت أتكلم وأعمل من أجل السوريين، أما الآن فهم يعرضون المطالب نفسها لكن من خلال زعماء آخرين». وجاء الرد البريطاني في حينه (٤ آذار ١٩٢٦) قاطعاً: «... إن أية محاولة من حكومة صاحبة الجلالة أو من جلالتكم للتدخل في الشؤون السوريّة ستؤدي حتماً إلى نتائج سيئة. وبقدر تعلق الأمر بنا فليس لنا بديل أو خيار سوى أن =

كان الأمر في ١٩٣١ مختلفاً. وإلى فترة قصيرة بدت بريطانيا وكأنها لا تمانع في مجهودات (فيصل) بضم سورية إلى العراق في وحدةٍ، ربما لأن ذلك قد يؤدي بالنتيجة إلى زيادة لنفوذها في البلاد الناطقة بالعربيّة على حساب الفرنسيين.

بطبيعة الحال اصطدم المشروع بفرنسا الحريصة على يدها في لبنان وسورية. مثلما اصطدم بمعارضة الحكام العرب أنفسهم. وبينهم شقيق فيصل أمير الأردن (عبدالله) وشقيقه الآخر (علي) ملك الحجاز السابق الذي ظلّ يطمع بحكم سورية. كذلك عارضه ملك مصر (فؤاد) وسلفه الخديوي السابق (عباس حلمي).

وسكت (عبدالعزيز آل سعود) برهة مجاملةً واحتراماً لاتفاق الحدود الذي جرى بين بلاده والعراق فأدّى إلى تطبيع العلاقات. وكذلك عندما خيل إليه أو أُوحي له بأن (فيصلاً) لن يكون المرشح لرئاسة الاتحاد، وقد يكون لابنه (فيصل) أملٌ في رئاسته، ثمّ مالبث أن عارضه بعد أن تغلب عليه خوف من ازدياد النفوذ الهاشمي بل شرع بمحاربته. وسكتت بريطانيا حيناً ثم جاء الرد حاسماً.

إلاّ أن (فيصلاً) لم يبرأ من حلمه. كان ينوي أن يعقد مؤتمراً عربياً لهذا الغرض. وفي شهر آب ١٩٣١ غادر العراق إلى سويسرا في رحلة قالت عنها صحف بغداد بأنها من أجل العمل على دخول العراق في عصبة الأمم. إلاّ أنه عرج على باريس ليجتمع برفاق السلاح القدماء أمثال الأمير شكيب أرسلان الدرزي اللبناني، والشخصية السورية الهامّة (إحسان الجابري) ورجل الدولة والفكر السوري (فارس الخوري) وغيرهم. ويذكر (ساطع الحصري) أنه «كان هناك يخاطب رسمياً ملك العراق وسورية وملك كل العرب». ولا ندري ماذا يقصد بكلمة رسمياً، وربما عنى بها أولئك الذين كان الملك يجتمع بهم. وقال إنه عاد وهو مرتاح جداً من نتائج رحلته(٣٠). وفي سورية نظم صديقه (رستم حيدر) السوري الأصل والوزير العراقي فيما بعد حملة دعائية واسعة بين مسلمي سورية، وظهر أثر ذلك جلياً عند قيام الانتخابات العامة التي جرت بأمر

= نترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي لذا فيما يخصّ سورية فالوضع فيها يحتاج إلى الإبتعاد الكلي عن شؤونها. . . إننا نستطيع أن نقدم أفضل خدمة للعراق بامتناعنا عن التدخلات كافةً في أمور سورية وإن أية محاولة منكم للتدخل سوف لا تخدمون بها أصدقاءكم السوريين، بل على العكس ستكون النتائج مخيبة» (فؤاد قزانجي: العراق في الوثائق البريطانية، ط، بغداد ١٩٨٩، الص ١٤١-١٤٩).

(٣٠) الملك فيصل الأوّل: ص٣٣٣.

المندوب السامي في شهر كانون الأول من السنة عينها. فقد ظهرت صور (فيصل) مرفوعةً في دمشق من خلال استعراض قوة في المهرجانات التي أقامها أنصاره. لكن القوميين العروبيين السوريين الذين تمثلهم الكتلة الوطنية وبينهم محمد كرد علي والأتاسي والعظم أبَوْا أن يتنازلوا عن مثُلهم في مبادئ الحكم الجمهوري للملكانية فرفضت المشروع من الأساس.

والفلسطينيون كانوا منشغلين بمشاكلهم الجديدة في الاستيطان اليهودي، فلم يهتموا بمشروع وحدة. وفي لبنان ساند رجال الحكم السنيّون وعلى رأسهم رياض الصلح المشروع. إلاّ أن الشيّعة والمسيحيين والدروز لم يتحمسوا له، بل وقفوا موقف معارضة منه، إذ كانوا على ثقة بأن الأغلبيّة السنيّة فيه ستبتلعهم.

وفي العراق نفسه - رغم تحمس العناصر الشريفية العربية الحاكمة - فقد وقف الأهلون بصورة عامة ضدّ المشروع لأسباب اقتصادية، وانقسم القوميون العروبيون على أنفسهم فكانوا بين محبذ ومعارض. ثم انساق الجميع إلى المعارضة[٣١].

ففي حميّ هذا الجدال والتحرك السياسيّ الخفي بدأت الناشئة العربيّة القوميّة العراقية تتخذ من تحمس عصبة فيصل الحاكمة للفكرة ومشايعة المشتغلين القدماء بالقضية العربيّة حطباً لإشعال النار تحت هؤلاء الأخيرين، دون تفكير بالإفادة على الأقل من الناحية النظرية (ربما الخيالية) من المشروع باعتباره - وفق مفاهيمهم الجديدة في العمل للوحدة العربيّة الكبرى - خطوةً أولى نحوها.

إن هذا يدّل على مدى تخبط القوميين الجدد هؤلاء وضياعهم بين فوضى الأهداف

(٣١) كان الحديث يدور في المجالس والمقاهي والمنتديات وأبهاء المعاهد العلمية بأن العراق سيكون الطرف الخاسر في الصفقة في حين سيتمتع الشاميّون بالفوائد السياسية والاقتصادية، في حين أن العراق أغنى من سورية، وأن السوريين سيزحفون إلى بغداد سعياً لماً ويحرزون أفضل المراكز ثم يعودون بعد وقت مليّ وقد امتلأت جيوبهم ليعيشوا في بلاد أجمل وأغنى بمعالم الحضارة. في حين هاجمت الناشئة القومية المشروع باعتباره «مشروعاً استعمارياً» غايته بسط بريطانيا نفوذها على البلاد العربيّة المجاورة عن طريق تحكمها في العراق والأردن بمصلحة شركات النفط المستغلة لنفط العراق بفتح طريق أقصر لتسويق النفط عبر البحر الأبيض المتوسط. كما هاجموا المناصرين للمشروع ونعتوهم بأولئك الأنانيين الذين لا تهمهم إلاّ مصلحتهم الذاتية وتعزيز مراكزهم محلياً والاحتفاظ بمناصبهم ومناصب رؤسائهم عن طريق تثبيت الحدود بهذا الشكل. ولم يعيروا اهتماماً بحجة المناصرين القائلة إن المشروع هو خطوة هامة في سبيل الوحدة العربيّة.

وتيه الشعارات. فقد رأيناهم بعد أقلّ من سنةٍ واحدة يستجيبون لنداء القوميين المخضرمين عندما أطلق هؤلاء صيحة الحرب:

«الوطن في خطر. الآشوريون الدخلاء يهددون كيانه!».

ويعقدون معهم حلفاً جديداً. لا شك في أن هذا الحلم سيبقى بعيداً عن التحقيق دون مساندة فعالة من بريطانيا يتوّجها اتفاق مع فرنسا.

والواقع هو أن بريطانيا كانت بالأصل تحرص على الوضع الحالي في الشرق العربي وعدم إغضاب فرنسا ما لبثت أن سحبت تأييدها الضعيف عندما تأكدت من صلابة موقف الفرنسيين. في عين الوقت ظلّ (السر فرانسيس همفريز) السفير البريطاني في بغداد يعكس وجهة نظر العراقيين العامّة مذكراً حكومته برفض أي اقتراحٍ لوحدةٍ كهذه[٣٢].

* * *

في الثلاثينات استقبل دعاة العروبة والقوميون العرب مصدر وحي جديد من أحد أنبياء القوميّة، الذين أخرجتهم الفوضى السياسية والأزمنة الاقتصادية الأوروبيتين، في شخص مغامر إيطالي يدعى (بنيتو موسوليني).

تمكن هذا الصحفي الاشتراكي سابقاً وزعيم الحزب الذي عرف فيما بعد بالحزب

---

(٣٢) مهما يكن من أمر فقد تمّ القضاء على الفكرة في لندن. ففي العشرين من تشرين الأول (؟) رفضت اللجنة الفرعية الشرق أوسطية المنبثقة عن لجنة الدفاع عن الإمبراطورية الموافقة ولخصت قرار الرفض بالشكل الآتي:

١- النتيجة المرغوبة أكثر من أي شيء هو سنّ دستور لسورية بنظام جمهوري يقوم على رأسه سوريّ.

٢- ليس من المرغوب فيه إطلاقاً أن يوضع شخصٌ واحدٌ على رأس عرش سورية والعراق وهو على أية حال غير عملي.

٣- أي محاولة يقوم بها فيصل تؤدي إلى نقل عرشه من بغداد إلى دمشق هي ضدّ المصالح البريطانية.

٤- لو عرض تاج سورية على الملك السابق (علي بن الحسين) فلا سبب يدعو لمعارضة ترشيحه.

في ١٩٤٣ حاول نوري السعيد وأمير الأردن عبدالله إحياء المشروع عن طريق إقامة اتحاد فدرالي (سوري - عراقي - أردني) مفتوح للأقطار العربيّة الأخرى». أنظر في تفاصيل أخرى: أرنست مينه: «العراق» المرجع السالف، ط. لندن ١٩٣٣ ص٤٣٤. والوثائق البريطانية: نوري السعيد (الكتاب الأزرق) استقلال العرب الوحدة.

الفاشي[٣٣] وأتباعه بالفاشيست، بديماگوگية عالية وبكفاءة خطابيّة فيه تساندهما عصابات احترفت اشتباكات الشوارع عرف أعضاؤها بذوي القمصان السود، وجلّهم من المتعطلين والفوضويين، والجنود القدماء وذوي السوابق، وبسلسلة من معارك الشوارع والبارات مع الشيوعيين والاشتراكيين والنقابيين - تمكنوا من السيطرة على شوارع أهم المدن الإيطالية. ومن (ميلان) حيث ولد حزب الفاشيست في العام ١٩١٩ استدعى الملك ڤكتور عمانوئيل الثالث موسوليني لتأليف حكومة جديدة برسالة خطية، إثر الزحف الفاشي الشهير من (نابلي) على روما. وبعد معارك شنّها ذوو القمصان السّود في طول البلاد وعرضها على خصومهم بغية كسر الإضراب العام ومطاردة الشيوعيين.

ما مرّت سنتان حتى أعلن موسوليني[٣٤] نفسه «دكتاتوراً»[٣٥] وعرف بلقب الدوتشي - Il duce أي الزعيم والقائد لحزب قومي صرف، وبدت صورته بمختلف الأحجام والأوضاع في كلّ مكان تقريباً «حتى في دورات المياه أو حيث يقضي الناس حاجاتهم» كما علّق أحد الصحفيين تحتها أو فوقها عبارة: الدوتشي على صواب دائماً Il Duce semple ragione.

وكثيراً ما تُرى يحملها الغوغاء[٣٦] بخفارة ذوي القمصان السود يطوفون بها. باشر

---

(٣٣) الاسم الرسمي للحزب Italiana di Comber Thimsento ولفظة Fasci مأخوذة من الكلمة اللاتينية Fasces وهي عبارة عن حزمة من العصيّ مشدودة إلى بعضها تتوسطها بلطة ظاهرة الشفرة. كان عدد من الحرس الرومان Lictors المخصصين لمرافقة القنصل أو الإمبراطور أو القيصر الروماني يحملونها على أكتافهم رمزاً للسلطة التي يمثلها الحاكم. وقد اتخذها موسوليني رمزاً لحزبه.

(٣٤) ظلّ موسوليني Mossolini ١٨٨٢-١٩٤٥ يحكم إيطاليا حكماً مطلقاً حتى قبض عليه الأنصار والشيوعيون قبل نهاية الحرب العظمى وهو يحاول التسلل بثياب جندي ألماني مع عشيقته، فأعدموهما وعلقوا جثتيهما معكوستين.

(٣٥) Dictator كلمة لاتينية هي سلطة يمنحها مجلس الشيوخ الروماني للقنصل أو القائد العسكري وقت الأزمات، أو عندما يحيق بروما الخطر في الداخل أو جراء هجوم خارجي. يمنح هذا اللقب بمرسوم يخول فيه الدكتاتور سلطةً مطلقة لمدة ستة أشهر قابلة للتجديد. وتسحب منه بعد زوال المقتضى.

(٣٦) سترد هذه الصفة بعد الآن في مناسبات كثيرة ولا بُدّ لي أن أشرح معناها بالضبط وما أقصده منها عند ذكرها تمييزاً عن تعابير الجمهور والجماهير والعامة وما إليها، عن (ابن الأزرق) في كتابه (طبائع الملك، مصر ١٩٣١) يطلق الغوغاء على هؤلاء الذين لا عبرة بهم. قال الأصمعي: والغوغاء الجراد إذ أماج بعضهم في بعض وبه سمي الغوغاء من الناس. وقال آخر: =

موسوليني فوراً في ملاحقة الاشتراكيين والشيوعيين والنقابات وأخضع الصحف لرقابة الحكومة وأغلق تلك التي تحدته أو أرسل إليها عصاباته من ذوي القمصان السود فاقتحموا مطابعها وإداراتها وحطموا كل ما فيها. وزُج الخصوم والصحفيون في السجون أو أرسلوا إلى المنافي والمعتقلات. ووقعت حوادث اغتيالات حكوميّة لساسةٍ مبرزين معارضين.

فرضت مفاهيم الحزب الفاشي بالقوة: فالحزب والدولة فوق الفرد، والنظام الديمقراطي نظام فاسد. إيطاليا التي خرجت من الحرب منتصرة قولاً، كانت مهزومة عملاً، والهدف هو إعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة والطاعة واجبة للدكتاتور. سلطته مطلقة بقوة ذراع الحزب العسكريّة (الميلشيات). والقضاء التام على الحزب الشيوعي الإيطالي وعلى اليسار الماركسي واجب قوميّ. وبهذا الهدف الأخير كان الدوتشي على موعد مع السياسة البريطانية - الفرنسية الأمريكية، التي كانت تعمل بجدّ على إقامة جدار واقٍ لأوروبا أمام الاتحاد السوڤياتي. كانوا أبداً على استعداد ليغفروا له كلّ شيء ويتغاضوا.

بدأ الدكتاتور الإيطالي بتنفيذ خطة إصلاح إنشائية حكومية واسعة النطاق، فأمم المصانع وبضمنها مصانع المهمات العسكرية. ووسّع حجم الجيش والأسطول، ليقوم بعد بضعة عشر عاماً باستعمار الحبشة.

كانت دول أوروبا الوسطى تعيش أزمة اقتصادية خانقة، وبأنظمتها الديمقراطية الضعيفة التي تنخر فيها التكتلات والخلافات، لم تعدم رجالاً مثل هذا الدكتاتور، وثبوا إلى الحكم بانقلابات عسكرية أو شبه عسكرية وقد فتنتهم الإنجازات التي حققها النظام الجديد في إيطاليا مصحوبةً بدعاية مدروسة تضخم الحقيقة وتغرق في الخيال. فكان هناك حكم دلفوس شوشنك في النمسا، والأميرال هورتي في هنگاريا والجنرال پلوسودسكي في پولندا، والجنرال متكساس في اليونان، وسالازر في الپرتغال وفرانكو في إسبانيا و پيرون في الأرجنتين وأخيراً هتلر في ألمانيا.

= هم الذين إذا اجتمعوا غلبوا، وإذا تفرقوا لم يُعرفوا. ومن علامتهم ما تضمنته حكاية الخطابي عن أبي عاصم النبيل (١٢٢- ٢١٢هـ) يمنع حفاظ الحديث في عصره. وذلك أن رجلاً أتاه فقال: «إن امرأتي قالت لي يا غوغاء. فقلتُ لها: إن كنتُ غوغاء فأنت طالق ثلاثاً فما عساي أصنع؟. فقال له أبو عاصم: «هل أنت رجل إذا خرج الأمير يوم الجمعة، جلست على ظهر الطريق حتى تمرّ فتراه؟ فقال: لا! فقال أبو قاسم: لست غوغاءً، إنما الغوغاء من يفعل هذا».

كانت الديمقراطيات الغربية والولايات المتحدة في المبدأ تنظر إلى كلّ هذا بعين الارتياح، فقد بدا الجدار المقام ضد الطغيان الشيوعي من الشرق شامخاً كسدّ الصين العظيم أو هكذا ظنّت.

وفي العراق عندما نشطت المفوضية الإيطالية بين الطلبة والمعلمين لم تجد طريقها عسيراً، لاسيما بين الصحف التي دأبت على نشر التقدم الهائل الذي تحرزه إيطاليا رغم أنباء تُسرَّب إليها بين آونة وأخرى حول أعمال القمع والحملات العسكرية التي ترسلها روما لتعقيب الثوار الليبيين. مع هذا فقد خلّف التقدّم الذي أحرزته إيطاليا أثراً مدهشاً عند القوميين الجدد والمخضرمين الذين رآه بعضهم شبيهاً بما حققه مصطفى كمال في تركيا.

كان مفهوم القوميّة بعد الحرب العالمية يتلخص بفكرة بسيطة ساذجة: وهي أن مجموعة من البشر يمكن أن يؤلفوا شعباً أو أمّة وأن هذا الشعب أو (الأمة) يجب أن يكون مستقلاً. لكن هذه الفكرة تعجز بذاتها أن تؤمن سبيلاً واضحة لتنظيم الحياة الاجتماعية. والآن ها هو ذا حكم قوميّ في إيطاليا يفتح سبيلاً واضحة لتنظيم الحياة الاجتماعية، بل يحقق من خلاله نجاحاً عظيماً.

* * *

عند قيام النظام الفاشي كان المسؤول عن التعليم في العراق الأستاذ ساطع الحصري وقد بقي فيها أربع سنوات (١٩٢٣-١٩٢٧) يحمل أعباء منصب مدير المعارف العام. وقد أعقبه في منصبه الدكتور سامي شوكت، فكان بحق الخلف الروحي للحصري بل أكثر حميّة وحماسة وتطرفاً في الدعوة إلى العروبة والقوميّة على أسس عسكرية طابعها القوة.

وهنا لا أرى لي مندوحةً من مشاركة القارئ في ذكرياتي لأوّل ولوجي عالم التأريخ وذكريات الحداثة والصبّا تظلّ عالقة في الذهن جديدة حية، لا يطمس عليها بالمتراكم من الذكريات تقدُم العمر وطغيانُ الأحداث. ولي بمن بقي من أبناء جيلي شاهدٌ.

في السنة الأخيرة من الدراسة الابتدائية تعرفتُ من كتاب التأريخ المقرر: على كيفية قيام الاتحاد الألماني تفصيلاً وقُدم لي (بسمارك وفون رون وفون مولتكه) أبطالاً وساسة عظماء، وقرأت من تفاصيل الحروب الثلاث التي أدّت إلى هذا الاتحاد ما لم أحتج إلى مراجعته فيما بعد. وعرفت (الزولفراين) قبل أن أعلم عن قدوم المغولي (هولاكو) العراق وسقوط بغداد. كذلك حفظت تفاصيل عن كيفية الوحدة الإيطالية

وتعرفت على جمعية (الكاربوناري: الفحّامين) و(مملكة بيدمونت) و(كافور) و(غاريبالدي) وطرق أذني لأول مرة اسم (ماتزيني) (والاستيلاء على روما) وعن حروب (الوردتين) في إنكلترا، وعن معاهدة (كاميوفورميو) قبل أن أعرف شيئاً عن كيفية تكوين العراق والنزاع حول ولاية الموصل، واستيلاء العثمانين على بلادي، بل وعلى كيفية دخولنا في عصبة الأمم.

وبعدها بثلاث سنين وُضع بيدنا الكتاب المنهجي المقرر (تأريخ الأمة العربية) لمؤلفه (محمد عزة دروزه) الفلسطيني، وأذكره مجلداً ضخماً يقع في حدود أربعمائة صحيفة من قطع فوق المتوسط. وافتتحه مؤلفه بفصل يتيه فيه خيال الصبّي بما حفل من تفاصيل عن أنساب عرب الجاهلية وقبائلهم وأيامهم الغرر وحروبهم. وحشر فيه مؤلفه كلّ ما يخطر بالبال من أساطير وحكايات تفتقر إلى الدليل التأريخي من دون تمحيص أو تدقيق، يمتزج فيها الواقع بالخيال، فيضيع الأول في ضباب المبالغة. جاهد مؤلفه جهاداً مستميتاً ليبدو العرب طوال تأريخهم الزاهر شعباً وحكاماً، رحماء عدولاً، منصفين. وصورهم في أسوأ حالهم عندما دالت دولتهم وزال مجدهم واستعبدهم الفاتحون، ضحايا سوء حظّ ومعاكسة القدر ليس غير، دون أن يعزو جانباً مما حلّ بهم إلى أنفسهم ومن عمل يدهم.

كان كتاب دعاية خلا من نقدٍ أو فكرة شخصية قبل أن يكون كتاب دراسة. صدرت مقدمته بالآية القرآنية «كنتم خير أمة أخرجت للناس»[٣٧]. وكما خلت كتب التأريخ العتيقة من عنصر النقد والتوجيه والغربلة، فقد جرى كتاب (دروزه) وهو من القوميين البارزين، مجراها ووجدته بعد سنين عديدة من معاناةٍ في كتب التواريخ العتيقة، مقروناً في ذهني بمقولة المفكر العربي المعتزلي العظيم (إبراهيم بن سيار النظام)[٣٨]:

«إذا استوحش الإنسان مُثِّل له الشيء الصغير في صورة الكبير وارتاب وتفرّق ذهنه وانتفضت أخلاطه، فيرى ما لا يُرى ويسمع ما لا يُسمع، ويتوهم على

---

(٣٧) من سورة آل عمران (١١٠) يتفق المفسرون لآي القرآن على أن المقصود بالخطاب هو الأمة الإسلامية إطلاقاً. لا العرب قصراً.

(٣٨) توفي في ٨٤٥م. من المتكلمين (الفلاسفة) المعتزلة. ولد في البصرة واشتهر أمره في بغداد. خلّف أثراً عظيماً في تأريخ الفكر الإسلامي. وهو أستاذ الجاحظ الأديب الكبير وإليه تنسب النظامية من فرق المعتزلة.

الشيء الصغير إنه عظيم جليل. ثم إن العرب جعلوا ما تصّور لهم من ذلك أحاديث تناقلوها وأشعاراً تناشدوها وتوارثوها فزاد إيمانهم بها ونشأ عليها أبناؤهم، فصار أحدهم إذا توسط الفيافي واشتملت عليه الليالي المظلمة، فعند أول وحشة أو عزمة أو صياح بوقةٍ أو مجاوبة صدى، يرى كلّ باطلٍ، ويتوهم كلّ زور، وربما كان في أصل الطبيعة أو الجنس نفاخاً كذاباً، وصاحب تشنيع وتهويل، فيقول في ذلك عن حسّ هذه الصفة. فعند ذلك يقول: رأيت الغيلان، وكلمتُ السعلاة، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتُها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول راقصتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها»

وبهذا يكون ابن سيار أعلى تفكيراً وعمقاً وصراحةً من الأستاذ دروزه رغم أحد عشر قرناً تفصل فيما بينهما.

نجح القوميون إلى حَدّ كبير في انتزاع سياسة التعليم والتربية من يد المستشارين البريطانيين واستقلّوا بها تماماً في أواخر الثلاثينات، بعد معارك جادّة اختار الأخيرون معها الابتعاد عن هذا الميدان وتركه للعراقيين. وكما يذكر الأستاذ محمد مهدي الجواهري:

«كان المفكر القومي ساطع الحصري في ١٩٢٧ أحد رموز القوميّة العربيّة مديراً للمعارف، حديث العهد باللسان العربي لا يفهم اللغة ولا يجيد التخاطب بها وكان يلازمه المترجم (أحمد أمين) وهو يدّعي بأن أصله من اليمن»[٣٩].

ويؤيد الجواهري الكبير في هذا كلّ من كان على صلة شخصية أو وظيفية بالأستاذ الحصري وأنا لا أرى أن يكون هذا الواقع مأخذاً ولا مصدر عجب، أو موضع شك في صدق الحصري ودعوته المخلصة لآرائه في القومية والعروبة وعمله الدؤوب لها بعد عودته من تركيا حتى وفاته. وقد وجدتُ ممن يجهل اللغة الأم، أو من يقلّ بها معرفةً وعليها وقوفاً من هو أكثر تحمساً لقوميته ممن يتقنها ويلم بأسرارها. فيتقدم على غيره في الدعوة مدفوعاً بتلك الظاهرة السايكولوجية التي يسميها علماء النفس بـ«عقدة النقص». ولكن في تعريف القومية يرى الحصري:

«لا الدين ولا الدولة ولا الحياة الاقتصادية تدخل في مقومات الأمة الأساسية.

---

(٣٩) ذكرياتي: ج. ١ ص١٤٧ ط. دمشق. دار الرافدين ١٩٨٨.

وإذا أردنا أن يظهر عمل كل من اللغة والتأريخ في تكوين الأمة قلنا: اللغة تكون روح الأمة وحياتها والتاريخ يكون ذاكرة الأمة وشعورها»[٤٠].

وكذاك يكتب: «اللغة هي بمنزلة القلب والروح من الأمّة، لذلك فإن الشعوب التي تتكلم لغة واحدة تكون ذات قلب واحد وروح مشتركة وتكون لذلك أمة واحدة فيجب أن تكون دولة واحدة»[٤١].

كان الحصري يريد أن يبني أيديولوجية قوميّة محددة الضوابط والمعالم ملتحمة العرى من خلال النظام الدراسي. وكان هدفه زرع فكرة القوميّة العربيّة (الأممية العربيّة) بالأحرى، وتمثيل وإذابة مختلف الجنسيات والعناصر فيما دعاه بالوطن الكبير - إلى كلّ متجانس بصرف النظر ومن غير اعتبار لمشاعر الأقليات القوميّة الأخرى، كالكُرد والتركمان والآشوريين - ولا لمشاعر طائفية معينة كالشيّعة واليزيدية والمسيحيين:

«لنشر الإيمان في وحدة الأمّة العربيّة وبذر الشعور بأمجادها الغابرة لمحاربة أعداء العروبة، للتلقين والإيقاظ والانضباط».

ومن كتاب ذكرياته عن العراق و(ذكرياتي العراقية) تجده يشدد على وجوب التعريف بماضي الأمّة والوطن العربيين. ووجوب دراسة الوحدة الألمانية والوحدة الإيطالية ممثلاً العراق بكلّ من پروسيا (زعيمة الاتحاد الألماني) وبيدمونت (زعيمة الوحدة الإيطالية)، مؤكداً على التدريب العسكري بوصفه وسيلة من وسائل غرس الشعور القومي الرئيسة. كما اعتبر الخدمة العسكرية بأهمية التعليم الإجباري.

الحصري وأولئك الذين زكّوه رغم ماضٍ عثماني لا تشوبه شائبة ثمّ سلموه أعلى منصب تربوي في الدولة الجديدة كانوا يرون الجيش عاملاً اجتماعياً عظيم الأثر ضمن إطار العروبة، وليس أداةً للدفاع عن حدود الوطن إزاء خطر خارجي.

أيّ شيء أفضل لتكامل الوعي القومي من الجيش الألماني الذي تحققت به وحدة ألمانيا. أو كالجيش الإيطالي الجديد الذي يقوم الدوتشي ببنائه اليوم؟ مؤلف من جميع

---

(٤٠) (ما هي القومية: أبحاث ودراسات على ضوء الأحداث والنظريات، طبع بيروت، دار العلم للملايين ١٩٥٩ ص٢٥٢) يؤيد جهل الحصري باللغة وليم كليفلاند صاحب الكتاب (ساطع الحصري). «من الفكرة العثمانية إلى العروبة» ترجمة ڤكتور سحاب.

(٤١) المرجع السالف: ص٥٧. ظل الحصري يشدّد على هذه الفكرة. فقد كتب في العروبة أولاً: «اللغة سبكت عقول العرب في قالب واحد وركزت طبائعهم وجعلت منهم أخلاقياً وروحياً أمة واحدة». (دار العلم للملايين، ص١١٢ ط. ١٩٦١).

صنوف المجتمع وطبقاته. تُصاغ منه عجينة متكاملة متحدة، باستلال الفرد العراقي الغارق حتى الأذنين في لجة التحامل والنعرات الطائفية والتقاليد البالية والوسط المتشدد الضيق، لإعادة صياغته في جّو حياة الثكنات وساحات التدريب وميادين القتال. والمدارس العسكرية ونوادي الضباط والمخيمات. والدورات كلها ستكون أوعية وقدور تطبخ فيها العروبة، الريفيون والبدو، والحضر، والسنيّون، والشيّعة والمسيحيون من عرب وكرد وتركمان وآشوريين. فالأقلية يجب أن تذوب وتمتص حين تخلط بالأكثرية. هذا هو الذي توصل إليه الحصري في أثناء دفاعه عن فكرة التجنيد الإجباري أو ما سمي بـ(خدمة العلم).

والدكتور سامي شوكت، الذي خلف الحصري في الإشراف على التربية والتعليم، وكان أكثر تطرفاً واندفاعاً في الدعوة إلى العروبة، وجد مما وجد أن:

«التجربة (لايوضح أي تجربة معينة طبعاً) أثبتت أن الجيش والنظام العسكري هو خير مدرسة لتكوين الشخصية، فهي تخلق رجلاً من الفرد، من خلال شجاعته ووطنيته ومشاعره»[٤٢].

كان الحصري وشوكت أوّل من أخرج لفظة «الشعوبية» من القبر الذي دفنت فيه. هما وأشياعهما وجلّهم مدرسون سوريون ولبنانيون وفلسطينيون انتدبوا للتدريس في ثانويات العراق وتمّ انتقاؤهم بعناية. وكان أوّل من رُمي بالشعوبية الخصوم الشيعة في عالم الصحافة والوظيفة والفكر، والتاريخ العربيّ الذي ميزّ الفرس بهذه التهمة خاصّة. سَهل على القوميين تأليف المعادلة بالشكل التالي:

لما كان الشعوبيون إيرانيين - وبما أن الإيرانيين شيعة - إذن فالشيّعة هم شعوبيون[٤٣].

---

(٤٢) هذه أهدافنا، ط. بغداد ١٩٣٩ ص٧.

(٤٣) إن التقدم الذي حصل في الدراسات عن متغيرات الكفاح القومي أدى إلى تعديل في نظريته. فقد أظهر التعمق والتأمل الحر في دراسة تاريخ العرب ودراسة تاريخ التشيّع ومنه الإسماعيلية أن هاتين الحركتين الدينيتين - السياسيتين لم تكونا فارسيتي الأصل. وأصل التشيّع ومبدؤه في العراق. والخلافة الفاطمية في مصر حققت نجاحاً عظيماً وبنت إمبراطورية في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا. حتى الفرقة الإسماعيلية من التشيّع التي أنشأها الفارسي (حسن بن الصباح) في إيران ونشرها بالإيرانيين فقد لقيت انتشاراً واسعاً بين عرب سورية بل حتى القبائل التركمانية المهاجرة إلى الشرق الأدنى من أواسط آسيا. لذلك فالقومية لا يمكن أن ننظر إليها في حالات عديدة بمثابة قاعدة تبنى عليها إرهاصات وتحولات تاريخية عظيمة الأثر.

تلك كانت البداية. إذ ما عتمت التهمة بالشعوبية (باعتبارها عند القوميين منقصةً وعاراً) أن انداحت إلى غير القوميين عامة. أولئك الذين يعتبرونهم خطراً على الفكر القومي، سيّما اليسار الديمقراطي، واليسار الماركسي الاشتراكي بعد أن تصدر ميادين العمل السياسي العراقي.

إن أمثال هذه العقائد السياسية في المرحلة التي نوهنا عنها لم تكن قد دخلت المعترك السياسي بشكل جديّ. ولم تكن ذات خطورة على النشاط القوميّ يومذاك. وأولئك النفر القليل الذي كان يؤمن بالديمقراطية وبوطن عراقي مثلما يؤمن المصريون بوطن مصري ما كانوا ليخرجوا عن ضمّ أصواتهم إلى الكتل القوميّة أو المشاركة في الفعاليات السياسيّة ذات الطابع العام، وقد كادت تكون واحدة.

إلاّ أن قوميي العراق الذين فُتنوا بالنظام الفاشيّ وبما حققّه من نجاح على الصعيد المحليّ ما لبثوا أن سلكوا فيه وفي صنوه النظام النازي، كسائر قوميي البلاد الناطقة بالعربية، طريق اللاعودة. طريق كان سيجر الوبال على الشعوب العربيّة. ويصيب الفكرة القومية والعروبة بطعنات متداركة قاتلة حتى لا تقوم لها بعدها قائمة. وبكل ما جناه زعماؤها على شعوبهم وعلى الشعوب الأخرى. وهو ما سنبسطه بتفصيل.

هذا الكتاب

فكرة القومية العربية، ومراحل تطوّرها إلى مذاهب ومناهج وفلسفة، وحكاية ما أنجزته وحققته للأمم والشعوب الناطقة بالعربية من نجاح أو ما لقيته من فشل في ميادين التطبيق والحياة، ومقدار تأثيرها على تقدّم الحضارة أو عرقلته لها، ما أغنت به القيم الروحية والمادية وما ألحقته من ضرر أو أصابها من خسار لنفسها أو لغيرها من الشعوب المجاورة، أو ما ظفرت به من كسب بمبادرات مفكريها وقادتها وزعمائها، هي بالأصل التاريخ العام الحقيقي الذي يزوّد التاريخين السياسي والاجتماعي بمادّتيهما.

إنّ ما يسجّله التاريخ لإرهاصات الحياة أفراداً وأقواماً سيبقى أبداً خالداً بمحاسنه وقبائحه. إنه لمن الخطورة الكبرى محاولة إلباس القبيح رداء الجمال وتحرّي الأعذار لمن لا يستقيم له عذر.

